

إسحاق ماشباش

أسيران

رواية تاريخية

ترجمة

وليد تحقاخه

مايكوب 2017

فيدور

الكتاب الأول

I

كانت شمس الصيف في أعلى منازلها، والنهار صاحياً في أجمل حالاته، حين خرج الفرسان الأديغة الثلاثة فجأة من الغابة الجبلية، ووصلوا إلى حافة النهر العمودية البعيدة.

خرج الجنود الروس الذين كانوا يستحمون معاً، وهبوا إلى بنادقهم أشباه عراة لا يحفلون بما يلبسون، يطلقون النار رغم معرفتهم أن طلقاتهم لن تصل إلى هدفها. تضاحك الفرسان الأديغة: كان منظر الجنود الروس وهم حفاة عراة قبيحاً مضحكاً. وكانوا يظهرون لهذا السبب خجلين على نحو آخرق. ثم كان ما يُضحك الفرسان هو أن طلقات البنادق لن تصل إليهم. لماذا إذن يلوح الجنود بأسلحتهم، ما معنى هذا السلوك؟!

- قل لهم! - قال كبير الفرسان الثلاثة المتداخلة لحيته وشارباه.
- وماذا أقول لهم وأنا لا أعرف لغتهم؟ - قال صبح لوالده.
- قل لهم ما تعرفه! - كانت تعليمات دوداي الذي يحمل الفارس المقيد على حارك حصانه مختصرة.

- الفدية، الفدية! - طارت صيحة صبح من فوق النهر، وأجفل الصدى الذي تردد بضغمرات الفلاحين الذين كانوا يحشّون العشب، ثم ضاع في سفح الجبل.

ولم تكد تمضي دقائق على صمّت النداء حتى بعث صمّت الذين في السهل - المخاضة على القلق كما لو مرّ كثير من الوقت.

- ماذا جرى كأننا أخرجناهم! - احمرت عينا "جاقِر" كما يحدث عادة في المواقف التي لا يحبها. ثم قال لمن على حارك الحصان، كمن يتكلّف الصبر:

- هَيَّا أَفْهَم رِفَاقَكَ الْكَفَّارَ مَنْ أَنْتَ، وَمَا مَرَّأُنَا. يَكْفِي أَلْفَ قِطْعَةٍ فَضِيَّةً.
- اذْهَبْ وَنَقْذْ مَا طَلَبَهُ مِنْكَ، وَلَا تُطَلِّ الْحَدِيثَ مَعَهُمْ، - رَمَى دُودَايَ الرَّجُلَ
الْمَقْيَّدَ الْيَدَيْنِ.

- حُلَّ يَدَيْهِ دُونَ أَنْ تُثْقَلَ كَتْفَيْهِ - لَمْ يَتَحَرَّكَ جَاقِزٌ مِنْ صَهْوَةِ الْحِصَانِ. -
يَتَكَلَّمُ مَعَهُمْ هَكَذَا بِمَزِيدٍ مِنَ الرَّاحَةِ... وَلَا تَدْعُهُ يَقْتَرِبُ كَثِيرًا مِنَ الضَّفَةِ...
حِينَ شَرَعَ الْأَسِيرُ يَقْتَرِبُ مِنَ الضَّفَةِ بِرِجْلِهِ الْيَسْرَى وَهُوَ يَعْجِزُ اسْتَعْجَلَ جَاقِزُ
كَأَنَّ الْأَسِيرَ يَفْلَتُ مِنْهُ:

- شَدَّ الْحَبْلَ يَا دُودَايَ، لَا تَدْعُهُ يَمْشِي!

- لَنْ يَخْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً! - نَتَرُ دُودَايَ بِيَدِهِ الْقَوِيَّةِ الْأَسِيرَ الْأَعْرَجَ.

- وَأَيْنَ سِيذْهَبُ هَذَا الْمَسْكِينُ... - غَمَغَمَ صَبَحٌ مِمَّا يَرَى وَمَا يَسْمَعُ.

- أَيُّهَا الْمَسْخَرَةُ، أَلَمْ تَلِدْكَ أُمُّكَ حَتَّى تَتَّقَ بِالْكَافِرِ؟! - لَفَتْ نَظَرَ جَاقِزَ
الصَّوْتِ الصَّادِرَ مِنْ جِهَةِ مَعْبَرِ النَّهْرِ فِيمَا يَرْمِي ابْنَهُ بِنَظَرَةٍ حَارِقَةٍ -، وَسَأَلَ
الْأَسِيرَ الْوَاقِفَ وَرَاءَهُ: - مَاذَا يَقُولُ لَكَ؟

- يَسْأَلُنِي مَنْ أَنْتَ؟ قَدِّمْ لَنَا نَفْسَكَ. - شَرَحَ فِيدُورُ عَلَى قَدْرِ اسْتَطَاعَتِهِ
بِالْأَدِيغِيَّةِ الْمَكْسُورَةِ الَّتِي تَعَلَّمَهَا فِي سَنَةِ أُسْرِهِ.

- مَاذَا تَنْتَظِرُ؟ بَلِّغْهُمْ طَلَبَنَا - أَمَرَ جَاقِزُ أُسِيرِهِ، ثُمَّ قَالَ لِابْنِهِ: - يَا وَلَدُ لَا تَعْبَأْ
بِأُولَئِكَ الَّذِينَ نَسُوا الْحَيَاءَ!

- يَا إِخْوَتِي، وَيَا أَبْنَاءَ قَوْمِي - صَاحَ الْأَسِيرُ بِصَوْتٍ مَرْتَجِفٍ بِاتِّجَاهِ الْمَخَاضَةِ
مَنْفَعَلًا مِنَ الْمَوْقِفِ الْمُهَيَّنِّ الَّذِي وَجَدَ نَفْسَهُ فِيهِ - أَنَا اسْمِي فِيدُورُ دَانِيلُوفِيْتِشْ،
وَنَسْبِي هُوَ أَنَاكْسِيْفِيْتِشْ، مِنْ جَيْشِ يَارُوسْلَافِ الثَّالِثِ وَالثَّلَاثِينَ، وَقَعْتُ أُسِيرًا
بِيَدِ الْأَدِيغَةِ...

تَلَعَّمُ أَنَاكْسِيْفِيْتِشْ فِيدُورُ. وَتَذَكَّرُ أَنَّ جَاقِزَ كَانَ سَيَقْتُلُهُ بِخَنْجَرِهِ الْمُشْهَرِّ لَوْلَا أَنَّ
تَدَخَّلَ رَجُلٌ آخَرُ. وَمَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ مَا يَتَبَادَلُ الرِّجَالُ مِنَ الْحَدِيثِ فَقَدْ

كانت شفقة الرجل الذي نظر الأسير من ورائه واضحة نحوه. ومن الغابة التي يعمي فيها البارود العيون تُسمع أصوات وتنهيدات الجرحى بالروسية والأديغية. وكلهم، رغم اختلاف أديانهم، يتضرعون إلى الإله نفسه أن يكون في عونهم، ويرحمهم ويشفق عليهم...

- لماذا سكّت؟! - أعاد دوداي فيدور إلى وعيه بضربة من الزنار الذي يرتديه. - الذين يحتفظون بي أسيراً - أضاف أناكسيفيتش فيدور بسرعة إلى كلامه - يطالبون بفدية مقدارها ألف قطعة فضية. أتوسل إليكم أن تجربوا وحدتي العسكرية... يا إخوتي، ويا أبناء ديني لا تهملوني...

- كفالك ثرثرة! - حثّ جافز الحصان حتى دنا من الأسير - أسمعنا جوابهم! ترجم فيدور الكلمات الآتية من الجانب الآخر للنهر:

- ترك جيش ياروسلاف هذه الناحية، رحل إلى أرض الشيشان والداغستان. - لا يهمننا أين ذهب جيشك! - صرخ جافز - لا مانع أن يشتريك أيّ طرف يحتاجك!

- تات! ارتفع صوت صبح أكثر.

- اسكت يا ولد! - نهر دوداي ابن أخته.

- إن انتظرتونا أرسلنا خبراً إلى قائد جيشنا - يترجم فيدور غير مهتمّ بما يقول من يقفون وراءه.

- وكم يستغرق هذا من الوقت؟ - صرخ جافز بينه وبين نفسه بالأديغية إلى ما وراء النهر. وترجم لهم فيدور باختصار.

- لن يستغرق كثيراً من الوقت - يبدأ المحاربون بجمع ما مع كلٍ منهم إن كان كوبيكاً أم خمسة أم عشرة أم "أباسة"¹. - ربما ليس أكثر من ساعة - يلتفت

¹ عشرون كوبيكاً. والحواشي للمترجم ما لم يُشر إلى غيره.

أحد الواقفين، ويبدو على صوته فرحه بما سمع: - ها هو رئيس الأركان قادم! أسرع الضابط المزهو الذي تعكس رتبته الجديدة الذهبية اللماعة أشعة الشمس، يرافقه عدد من الفرسان إلى حشد الجنود، وسأل متظاهراً بأنه لم ير الواقفين على الضفة الأخرى:

- ما الذي يجري هنا؟ وأي نقود تجمعون؟ حين روي له الموضوع لم يعبأ بالقليل من النقود التي جمعها الجنود، ولم يرفع رأسه إلى الضفة الأخرى رغم إشارته باليد إليها. نفص قميصه كأن لم يبق ما يُقلق وما يستحق الشفقة، وأصلح وضع رتبته، كان مستاء نوعاً ما من الغبار على حذائه.

- ماذا ينوي هذا الهُزأة؟! - أطلق جاقز في الهواء ممتعضاً من عدم اكتراث الضابط الروسي الذي أتى إلى جنوده.

صاح الضابط باتجاه الضفة الأخرى معتدلاً، متظاهراً بأنه غير عابئ بالطلقة وإن أجبرته على رفع رأسه:

- ما شأنكم بنا أيها المسلمون؟

- أطلع الكفار على مطلبنا يا ولد! - قال جاقز لولده بصوت حاسم وهو يعيد البندقية إلى كتفه شاهداً على رغبته في السلام.

- ألا ترى يا والدنا كيف يتصرف معنا الضابط؟..

- ما شأنك بالضابط؟ نَقِّذْ ما طُلب منك! - نهر جاقز ابنه على نحوٍ لا يخفى معه أنه يلجم صوته المندفع.

- الفدية! الفدية! الفدية! - مرة أخرى صاح صبح عبر الماء وإن لم يكن مقتنعاً بما يطلب منه والده.

- نحن لا نفتدي من يستسلم لأعدائنا! - أحرق جواب الضابط فيدور كالرصاصة ، غير أنه صحا بسرعة وأجاب من أهانه بلطف وبخزم:

- يَمَّ أَعْلَقَ عَلَى مَا لَا تَعْرِفُ، شَاهِدِي أَنَا هُوَ اللَّهُ. غَيْرَ أَنِّي أَتْرَكُ ظِلْمَ قَلْبِكَ
الِهَائِجِ لِلَّهِ!

- مَاذَا قَالُوا لَكَ وَقُلْتَ لَهُمْ - تَلَهَّفُ دُودَايَ لِمَعْرِفَةِ النَّتِيجَةِ.

- يَقُولُ لِي إِنَّهُمْ لَيْسُوا بِحَاجَةٍ إِلَيَّ.

- لَيْسُوا مَحْتَايْنِ إِلَيْكَ حَقًّا؟! - ابْتَسَمَ جَاقِزٌ ثُمَّ انْتَزَعَ ضَاحِكًا الْبَنْدُوقِيَّةَ مِنْ كَتِفِهِ

- لَا يَحْتَاجُونَكَ حَقًّا. إِذَا كَانَ قَوْمُكَ اسْتَغْنَوْا عَنْكَ فَمَا حَاجَتُنَا إِلَيْكَ نُعِيلُكَ؟! -

سَأَقْتُلُكَ أَمَامَ قَوْمِكَ الْكَفَّارِ، وَأَسْتَرِيحُ مِنْكَ.

- حَرَامٌ يَا وَالِدَنَا، حَرَامٌ! - أَسْرَعَ صَبَحَ فَوْقَ حَاجِزٍ بَيْنَ وَالِدِهِ وَفِيدُورِ. -

تَأْتُمْ هَكَذَا.

- ابْتَعدْ يَا وَلَدُ!

- لَنْ أَطِيعَكَ فِي هَذَا يَا وَالِدَنَا.

- قُلْتَ لَكَ ابْتَعدْ يَا وَلَدُ! لَا تَحْذَلْنِي أَمَامَ الْكَفَّارِ!

- أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ يَا وَالِدَنَا، وَإِنْ رَفَضْتَ فَاقْتُلْنِي مَعَهُ.

- يَا جَاقِزُ يَا صَهْرُنَا - لَمْ يَقْبَلْ دُودَايَ. - لَنْ أَسْمَحَ لَكَ بِهَذَا فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ

إِنْ كُنْتَ سَتَسْمَعُ كَلَامِي. أَمَامَكَ مَا يَكْفِي مِنَ الْوَقْتِ لِتَفْعَلَ هَذَا.

اضْطَرَبَ الْجُنُودُ الرُّوسُ فِي الضَّفَّةِ الْأُخْرَى وَقَدْ أَدْرَكُوا نِيَّةَ حَامِلِ الْبَنْدُوقِيَّةِ: بَعْضُهُمْ

يَجَادِلُ الضَّابِطَ، وَآخَرُونَ لَا يَعْرِفُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ. يَرْكُضُونَ فِي الضَّفَّةِ وَيَحْمِلُونَ

بِنَادِقِهِمْ.

- وَمَتَى سَأَنْفِذُ نِيَّتِي فِي قَتْلِهِ... - قَفَزَ جَاقِزٌ إِلَى الْحِصَانِ وَقَدْ انْكَسَرَ صَوْتُهُ،

وَقَالَ لِمَنْ وَرَاءَهُ: - أَتَحْتَفِظُونَ بِهَذَا الْقَبِيحِ عَالَةً عَلَيْكُمْ... -

حِينَ تَبَعَ الْفَارِسَانِ جَاقِزَ سَمْعِ فِيدُورِ الَّذِي رَمَوْهُ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى حَارِكِ الْحِصَانِ

أَصْوَاتًا تَنَادِيهِ:

- لَا تَيَاسُ يَا أَخَانَا، سَنَحْرُكُ!

انفعل قلب فيدور حتى نسي موقف الموت الذي مرّ به. ومع أنه لم يكن يعرف إن كان موعد الحرية قريباً أم بعيداً فقد شهدوا له ثانية على الأمل الذي أحياه سنّة كاملة. والكلام الروسي المليء بالجمال والإصرار لا يزال في قلبه حلواً عذباً. ولا تزال نظرة الجنود وقلقهم عليهم أمام عينيه.

ما أشدّ لهفتهم حين سمعوا مبلغ الفدية، وما أسرع ما مدوا أيديهم إلى جيوبهم ليجمعوا ما عندهم... جيوب الجندي مثقوبة دائماً. ومن أين يأتون بكل هذا المبلغ برواتبهم التي تُعدّ بالكوييكات! حياهم الله، لم يدخروا جهداً: تلهّفوا، أسرعوا باستدعاء الضابط، وتوسلوا، وجادلوا. لا أعاتب جاقز مهما تصرف معي. ولماذا تعاتب من سطوت عليه غازياً ناهباً؟! أستحقّ أي مصير يقررونه لي. ما لم أفهمه هو تصرف الضابط الروسي معي. يَمّ أسأت إليه؛ ألسْتُ واحداً منهم؟ ألسْتُ جندياً؟ ألسْتُ في مأزق؟ الله يطلب مساعدة من هو في ضيق. وما حدث لي حدث بعلمه. ربما وضعني في موضع امتحان... ربما لم يحدث شيءٌ مما حدث لي لو لم يكن مكتوباً على جيبني. والآن أفهم رحمة الشاب صبح الذي ليس من قومي؛ أنت من منحته هذه الرحمة يا إلهي الأحد فارحمي واغمرني بعطفك واحمني! إن كنتَ كتبت عليّ هذا فأنا سأحمل ما حمّلتني مهما كان شاقّاً، ولن أعتب على الضابط الذي من ديني على ما قال بحقي... ولكنني كنت بلا أمل. لا أستحق ما قاله الضابط. وأنس يا إلهي جاقز الذي يتقدمنا ما يخطر له تجاهي لأنه لا يتورع عن شيء يرد على باله. غير أن لي رجاء وحيداً: هذا الشاب صبح يتحلّى بالإنسانية وإن لم يكن من ديننا ومن قومنا فاحرسه لأنه ما يزال في ميعة الصبا، واحمه من طبيعة والده الظالمة التي أنا متأكد من أنها تحمل نهايتي.

وصل إلى ظاهر قرية زاور حابله الفرسان الثلاثة الذين لم يكن يصدر منهم خلال مسيرة نصف النهار إلا نخير أحصنتهم. وجاقز يتقدمهم ببضع خطوات

منذ أن ساروا. والاثنتان الآخران لا يتناسيان مكان الأكبر والأصغر: صبح على اليسار، ودوداي الذي يحمل فيدور على حصانه إلى اليمين.
تعرفهم الفارس الذي خرج من المنعطف وألقى عليهم التحية:
- أهلاً بكم يا جاقز!

- مع السلامة يا قرخ، - ردّ جاقز وسأله وإن كان السؤال خارج العادات الأدبغية: - إلى أين إن شاء الله؟

- ليس إلى مكان مهم، أتابع الجواميس المعتادة على ارتياد المستنقع. عجباً يا دوداي، من هذا الذي تحمله على حارك حصانك؟!

- هذه هي النتيجة يا قرخ، أمسكت بمقبض خنجري فمنعتني من قتل هذا الكافر فكانت العاقبة نحساً... هذه ثالث مرة نحمله فيها على الحصان. ونكسر لأجله حافره، ولا أحد يفتديه. ولو لم يكن أعرج لما كان مشكلة؛ من ذا الذي يحتاج إلى رجل معاق؟!

- هذا حرام يا جاقز، أن تحمله على حارك الحصان، لو طلبت حصاناً لأعرتك إياه.

- هل يجوز إرهاب حصان من أجل شخص مثله!... يا ولد، لماذا أنت واقف؟ تابع طريقك وأخبر والدتك أننا قادمون. اترك الحصان كي يعود الدم إلى رجليك. لا أعرف إن كنت ستفهم يا كافر؛ أركبك حصاناً كرمى لقرخ.

بقي قرخ صامتاً على ظهر الحصان ريثما فكّوا قيد فيدور وأركبوه الحصان. وبعدما انتهوا من إجراءاتهم نظر في وجه فيدور بما يعني رضاه عنه. وحين رأى القحيح النازف من جرح ركبته اليسرى من خلال البنطال سأله:

- ألم يُشفَ جرحك بعدُ يا فيدور؟

- وكيف يُشفى وهو يحكّه ليلاً ونهاراً!... أجاب جاقز بدلاً من فيدور...

- تعال يا ولد إلى هنا - ربما لم يكن دوداي وصل بعدُ إلى طرف القرية حين

رمى جاقز بالأسير المقيّد بالمَقْطَرَة¹ إلى مستودع الحبّوب، ثم نادى ابنه.

– هل ناديتني يا والدنا؟

– نعم، ناديتك يا سليل الكلّبين! – رفع جاقز سوط الثيران بكلّ قوته وهوى به على ظهر صبح – لا أريد أن أرى منك بعد الآن موقف شفقة على الكفار وإلا سلختك! هيا توضّأ واركع أمام الله على ركبتيك، وتوسّل إليه أن يغفر لك ذنبك!

II

كان بقي على بلوغ أناكسيفيتش فيدور الخمسين ستّة أيام حين وقع في أسر الأديغة. وكان الصباح الذي سيتوجه فيه إلى ساحة الحرب هو اليوم الذي وصلته فيه رسالة كلافديه زوجته من مقاطعة بولوغودسكي. ومن حسن حظه أنه لم يترك الرسالة في الكيس الذي نهبوه في الغابة يوم الأسر، بل أودعها في جيب سري خلف البنطال. وحين يقع في ضيق – لا يتذكر يوم فرج خلال سنة أسره – يراجع محتوى الورقة دون كلل ولو أنه حفظ ما فيها عن ظهر قلب. غير أنه يُخفيها بسرعة حين يتوجس من انكشاف أمرها. ولا يثق بأيّ في هذا الأمر. بل يخفيها عن صبح الذي لم يكن عنده أقرب إليه منه في الأسرة التي يحتجزونه فيها. وأكثر من هذا يدير ظهره للكلب "مشد" وهو الوحيد الذي ينفخ فيه الروح حين يلاحظ أن الكلب يتفرس فيه حين يقرؤها، ويخفي عنه المكان الذي يخبئها فيه. ويقول له شاعراً بخطأ سلوكه معه، خجلاً من النظر في عينيه:

– لا تؤاخذي يا مشد هذه مسألة إلهية لا تعنيك. – ويضيف إليه بخليط من لغته الأديغية – الروسية حين يشّ الكلب في وجهه ويهز رأسه ويدنو منه

¹ قطعة خشبية حُفِرَ بها مكان للساقين كان العرب أيضاً يستعملونها لتقييد السجناء والأسرى.

وكأنه فهم كلامه: - نعم، نعم، شكراً، فهمت ما أقصد. والآن يكفي ما جلسنا يا مشد، ابتعد، سنقطع الخطب. لن ندعهم يتهمونا بالعطالة.

قطع فيدور إلى أن ارتفعت الشمس من فوق الأشجار الخطب الذي كان نشره أمس. وصف ما قطعه في مكان جاف وهو يعرج من القيد الذي على رجله. وجلس إلى جانب الحائط يبرد ظهر القميص الذي أحرقه العرق. ومسح وجهه بكُمه الجاف. ورسم إشارة الصليب ثلاث مرات داعياً أن يقبل الله عمله.

قال فيدور: يا إلهي لا ألوم أحداً على ما جرى لي. وأومن أنني أسير على طريق قررتَه أنت. ومهما حملتني حملت. إن قلت إمش مشيت، وإن قلت أركض ركضت. أنت من منحني حياتي. وأنت من أطلعتني على نور الدنيا وظلامها. وإن شئت أن تسترد حياتي فلك ما تشاء. وأنت الوحيد المتحكم في العدل. كلامك عادي، وعملي. ولن أدعك تتوجس من إيماني بك أبداً. ولكن..

سامحي يا إلهي يا من يتضرع إليه الناس ولا يتضرع هو إلى أحد، هناك أمر واحد لا أفهمه... لماذا نبذني بلدي وأبناء بلدي؟ قالوا لي: اذهب وافعل وحارب، فتركت أولادي وأسرتي وتوجهت إلى الحرب، وحيت بلادي ولم أرتكب ما أخجل منه... ثم يقول لي الضابط: "لا نفتدي من يستسلم للعدو" أنا من استسلم! اغفر لي أنني وقعت أسيراً بيد الأديغة وحرقت مشهرة عليهم يسيل منها الدم وركبتي مكسورة، أنت شاهدي يا إلهي. ومن سقطوا إلى جانبي... ماذا سيروون؟! - يساندوني. وأنت يا ربي وأنا شاهدان عليهم.

اغفر لي اتخذك شاهداً عليّ فلا أمل لي سواك! وانظر الآن ما يحدث؛ حتى الذين وقعت بينهم لا يريدوني، وأبناء قومي استغنوا عني!.. ولماذا أعتب على من قيدهم على رجلي؟ أستحق أي مصير يختارونه لي. جئتهم قاتلاً سارقاً. كنت أعيش في قريتي أربي أولادي وأرعى أسرتي ولم أكن أعرف إن كان على الأرض مثل هؤلاء القوم الذين أسروني. لم أعرف أنهم يعيشون مثلي تحت

سمائك، يعملون ويربون أولادهم ويفرحون ويحزنون. لماذا جئنا محاربين إلى هنا؟ هؤلاء، وإن اختلفت لغتهم عن لغتنا، وعاداتهم عن عاداتنا، وملابسهم، وأعراسهم، يشبهوننا في إنسانيتنا وملاحنا وآمالنا التي نحيا بها. لنا، على ما يبدو، الشمس والسماء والنجوم نفسها. والفرق الوحيد بيننا وبينهم هو أن إقليمهم دافئ وإقليمنا بارد. ولكن الطرفين المتعادين، من أي قوم كانوا، لا يمكن أن يتنازل أحد عما عنده منها.

خرج فيدور من أفكاره الثقيلة حين قفز الكلب مشد ضجراً من الصمت. ونظر نحو باب الغرفة ونحو باب الدار، ولما لم ير من يتأمله طفا عتابه رغباً عنه:

- هؤلاء الذين في البيت نسونا يا مشد!

هذا ما سيحدث لك حين لا يعود أحد يحتاجك، تابع فيدور أفكاره. وأستحق ما يصفونني به من العرج والإعاقة. ربما كنت أقيم بأعلى من هذا السعر لو لم أصب في الحرب. وهل كنت أوقع نفسي في الأسر لولا جرحي؟! ساقوني ثلاث مرات خلال عام واحد ولكنّ أحداً لم يفتديني. كان الموت أرحم من الإهانة التي ألحقها بي الضابط في ذلك اليوم. كان يتمنى أن أقتل أمامه لولا تدخّل صبح. قال الجنود التعساء في إثري "لا تيأس يا أخانا، سنحررك!" ولكن متى؟ لست من الأسر الغنية ولا من أصحاب الأملاك الواسعة، فمن يتابع موضوع أسري، ومن سيشفق عليّ؟ لا أمل لي إلا زوجتي المسكينة كلافديه وابنتاي. وهؤلاء فيما ينتظرن عودتي جرى لي ما لا تتمنى أن يحدث لعدوك. إيه يا كلافديه، كلافديه البائسة! لو كنت تعرفين أنه لم يكن بقي على موعد انتهائي من خدمتي إلا ستة أيام أعود بعدها إليك، إلى أولادنا، إلى قريتي القديمة للحقت بي حتماً مهما بعدت المسافة بيننا. ولكن من أين لك أن تعرفي، ومن سيخبرك؟ وحين أخبروني أن علي الالتحاق بالجيش لم يكن الأمر

بيدي، ولما أتوا بي إلى هنا، إلى القفّاس، لم يكن بوسعي أن أرفض. لا
تؤاخذيني أنت والأولاد على وقوعي في الأسر وإن لم يكن من أرسلوني هم
السبب. ولما كان الله وحده هو من يعرف بمأساتي فهو سيرحمنا ويحميننا.

- ما الأمر يا مشد ؛ تتألمني؟ يُقلِّقني الصمتُ في هذا البيت، عدم خروج
عُشخان. وجاقر وصبح أطلقاني مع الفجر من الخزان وخرجنا ولم يعودا...
قفز مشد كأنه فهم قلق فيدور، وأسرع نحو باب البيت، ولكنه تسمّر في مكانه
سريعاً وعاد قبل أن يصل إلى البيت.

- ارتفعت الشمس، لا سبب لعدم خروج عُشخان... - أجبر القلقُ
فيدورَ على الحركة، وحين بدأ ينقل رجله بصعوبة مع القيد أسرع مشد وفتح
الباب وهو ينبح.

خرج مشد من الغرفة سريعاً مُشعراً فيدور بطريقة نباحه بوقوع حُطْبٍ ما فيها،
ثم عاد إليها مسرعاً.

ارتعب فيدور حين دخل الغرفة مما رأى. عُشخان ممدّدة على أرض الغرفة
الترايبية، وصحن الشلامة¹ مبعثرٌ هنا وهناك. سحب فيدور حذراً المرأة النحيلة
المغمى عليها، وأضجعها على الصوفا الخشبية. وحين حاول إصلاح وضع
الوسادة سقطت منها علبة الصليب التي تُفَتِّح وتغلق، والتي كانت ترافقه دائماً،
ثم فقدتها في الأسر. جفل فيدور مما رأى فأسرع والتقط صورة الإله المشربة
بالذهب، ناسياً المرأة المغمى عليها ومسح عليها وقبّلها. ونصبها فوق الطاولة.
وبدأ يرسم إشارة الصليب ويدعو ويومئ برأسه إشارة الاحترام.

ولما نبح مشد الذي أجهز على أقراص الشلامة المتناثرة على الأرض، ارتعبت
عُشخان الغائبة عن الوعي وارتعب فيدور.

¹ الشلامة نوع من المعجنات المقلية بالزيت، تُعدّ بسرعة من العجين الخالص، للمناسبات
المستعجلة، ويدلّياً للخبز أحياناً.

في البداية لم تتذكر عُشخان ما حدث لها.

- هل حالكِ أحسنُ الآن يا عُشخان؟ .. - سألها فيدور لا يدري كيف يفعل بنفسه.

- عليك اللعنة، ماذا تفعل في هذا البيت؟! - صرخت عُشخان بما تبقى لها من عزيمة.

- اطمئني، اطمئني ؛ كنتِ ممددة على أرض الغرفة...

- وهل لمستني؟ كان خيراً لي أن أموت على الأرض من أن تلمسني أيها الكافر اللعين... ابتعد ؛ لا تقع عيني عليك!

لحظة خروج فيدور من الغرفة مقعّعاً بقيده الخشبي، ناسياً ألم رجله، التفت إليها وليس أمام عينيه إلا صورة المسيح. وغاب وقلبه يتألم ويطلع برجله وراء السور الذي سيضيع وراءه. ولم يتعب من تقطيع الكثير من الحطب بقدر ما عجز عن تحمل ألم كتفه فقعد حيث يقف عاجزاً.

يا ري، يا من يتهلل إليه الكثير ولا يتهلل هو إلى أحد، يا أرحم الراحمين، صرخ فيدور من قلبه وفمه. ما أسوأ الحظ الذي أرفقتني به في الدنيا! لا أحملك في قلبي إلا بالخير والمعروف. أنت في قلبي مهما وجدت نفسي في أسعد مناسبة أو في أتعسها. أيُّ لعنة أصابني خلافاً لغيري؟ ساعدت المرأة التي من غير ديني ومن غير قومي أيّاً كان أصلها في موقف ضيقها ولم أنو لها شيئاً آخر. أعترف بما أذنبت به: حين رأيت صورتك نسيت أن أنعشها فأخفف عنها الألم... وما سيحدث لي الآن شيء عجيب: أتوقع أن ينقلب عليّ معروفي نحساً... وإن سمع جافز بما فعلت؟ من يدري ماذا سيخطر لمن يلتهب قلبه حقداً طوال عمره؟ أيُّ ضيقٍ كان نبت في صدري فدفعتني أن أقترح الغرفة؟! ابتعد عني يا مشد؛ أنت واحد من أسباب المشكلة. كان عليّ ألا أدخل الغرفة... يا رب لا أدري إن كانت خواطر سخيفة تتجمع في رأسي، ولا أظنك غافلاً عنها،

فاغفر لي! أتوسل إليك أن ترقق قلب المرأة عليّ. ولا تجعلها تشكّ في ما لا يليق بي... ورطّني براءتي وإنسانيّتي في مشكلة.

تألّم قلب فيدور من الكلمات الأخيرة، وضبط الدموع التي كانت في طريقها إلى عينيه. وزحف نحوه مشد الذي غضب عليه بينه وبين نفسه. ولما وضع الكلب رأسه في حضنه مسح عليه وقال له:

- لم نفترف ذنباً يا مشد فاطمئن! الله شاهدنا وسيفهمنا. وما لا أفهمه هو احتفاظ المرأة التي ليست من ديننا بصورة إلّنا تحت وسادتها.

حين زاد مشد من تأمّل وجه فيدور أشاح الأخير بوجهه عنه.

- ابتعد يا مشد، صحيح ما يقولون إن الشبعان والجائع لا يتفاهمان. تفوح منك رائحة الشلّامة.

نفض مشد لما سمع اسم الشلّامة كمن فهم الكلام وابتعد. وقال فيدور في إثره ضاحكاً مما يراه:

- هذه هي الحال، من تصارحه يعتب عليك. كنت أمزح معك أيّها المجنون! شتمّ فيدور عن ساقيه وألمّ ركبته يؤثّر فيه أكثر مما يؤثّر الجرح الناجم عن احتكاك القيد بساقه، وانتزع عن الجرح الخرقّة التي بللها القيح. ووجد فتحة حفرها القيح الأبيض بقدر قطعة خمسة كوييكات في الركبة اليسرى حيث اكتسب الجرح اللون الأسود - الأحمر.

رجع مشد وبين فكيه قرص شلّامة كبير، ومدّه إلى فيدور.

- ما هذا؟ - وكما يفعل عادةً قطع طرف القرص النظيف وأعاد البقية إلى الكلب. قضم متمهلاً حصته منها وامتدحها: - لذيذة حقاً وطازجة. شكراً يا مشد، لم تحرمي منها.

انتصبت أمام عيني فيدور أقرص السلامة المتناثرة وشاي القالمق¹ المسكوب على الأرض. لماذا كانت أقرص السلامة وكؤوس الشاي على الأرض؟ سأل فيدور نفسه. لمن كانت عُشخان ستقدمها إليهم؟ أما كان عليّ أن أفهم لو لم أكن مجنوناً؟! أنا!.. ثم أُنهم من جهتي المرأة بكثير مما لا تستحق. حين يكون جاقز حاضراً فهي مغمضة العينين، وفمها مملوء بالماء، لا تستطيع أن تتصرف أو تتكلم. وحين أبقى مع الأم وابنها وحدهما يشفقان عليّ، ولا يبقى إلا أن يسمح لي بدخول البيت: يُطعماني، يحادثاني، يقدمان لي قطعة قماش نظيفة لجرحي. ويزيدان في توسيع معرفتي بالأديغة... حقاً إن استبشعت لغة الناس الذين وقعت بينهم وعاداتهم فلن تستطيع معاشتهم. أنا ليس لي مكان أعود إليه. والذين كانوا يصرخون ورائي: "لا تيأس سنحررك"؟! هناك أمرٌ واحد لن أستطيع أن أفعله حتى لو استقرّ بي المُقام بين من وقعت بينهم دون إرادتي: لن أستطيع - ولا يؤاخذني أحدٌ - تغيير ديني وأصلي وعادات قومي. يا ربّ هل أستطيع الوفاء بالحمل الثقيل الذي التزمتُ به؟ إن كنت أقول ما لا يتناسب مع الوضع الذي وجدتُ نفسي فيه فاحمني من الخطأ، وأبعد عن رأسي الأفكار التي لا أستطيع التصريح بها. لولا رجلي المعطوبة لكسرت قيدي الخشي منذ زمن بعيد وهربت إلى قومي. حين هربت في بداية الصيف لم أستطع تجاوُزَ المستنقع ظاهرَ البلد. وبعدما عثر عليّ جاقز وصبّ جام غضبه عليّ وحبسني في المستودع فصلّ هذا القيد على قياسي... لا يكلفني كسرُ هذا جهداً كبيراً وإن كان جاقز لا يُدرك. وإذا وفي قَرخ بوعده وأتاني بالدواء فسرى وقتها... إن أعاد لي الدواء صحتي وقوتي، ومنحتني أنتَ القرار يا إلهي... لا أمل لي غيرك!

¹ شاي عرفه الأديغة وأقوام شرقية أخرى، يُصنع من النبتة المعروفة في سورية باسم الحميص والحليب وبعض البهارات، وينشر في الجسم دفناً لذيداً.

ارتفع فوق زاور حابله صوت الأذان داعياً إلى صلاة الظهر. ولم يطل الأمر حتى ضاع الصوت فجأة في غابة المضيق. واستأنفت بعض الكلاب النباح، وبعض الديكة الصياح، بعدما أخرسها صوت المؤذن، تشهد على وجود قرية تخفي نفسها في عمق الغابة على سفح الجبل. وفي الناحية الأخرى من القرية ارتفع عويل النساء.

سمع فيدور نواح النساء فتألم قلبه حتى انتصب رأسه، وخمن أنه جيء بأحد أبناء القرية قتيلاً. وبعد قليل ارتفع صوت بكاء النساء من كل الجهات: من جهة المرتفع الآخر، ومن نهاية القرية... كان واضحاً من المناحات أن عدداً من رجال القرية عادوا قتلوا إلى القرية. قال فيدور منقبضاً وإن لم يقتله رصاص الخبر المؤلم.

إن لم أخطئ، قال فيدور، فهذا المأتم السابع والثلاثون ابتداء من هذا الربيع. من يموت من القرية بالرصاص أكثر ممن يموت منها بالأمراض. وربما كان السبب في خروج جافز وصبح مبكرين هو المحيى بالجثمان. كلما كان في القرية مأتم انحال عليّ جافز ضرباً حتى تفرغ القرية لإنقاذي منه... ما أخبار الأب وابنه يا ترى؟ مهما أذاقني جافز من ضرب مبرح يبق إنساناً، أعده يا إلهي سالماً. وصبح؟ لا يخطر لك أي سوء نحو صبح! أبعد عنه يا رب رصاص كل عدوٍ وسيقه. هو الأمل الوحيد لي في هذه الدنيا الغريبة التي قذفتني إليها. اسمعني وافهمني، وخفف عني الحمل الذي حملته!.. ما ذنب أصحاب المأتم هؤلاء؟ وليسوا وحدهم، بل أبناء قومي أيضاً يعيشون هذه الحالة. لماذا جئنا إلى هنا؟ ماذا تركنا هنا خلافاً للأماكن الأخرى؟ يقولون إن لم نحتل أرضهم فستحتلها تركيا وإنجلترا... سأقول إذن ما هداني إليه عقلي الفلاحى المحدود وعرفته في خلال نصف العام هذا. هؤلاء لا يريدون الترك ولا الإنجليز. ولاهم محتاجون إلينا!.. من جاؤوا بنا إلى حيث لا يحتاجوننا، يستحقون أي لعنة تُطلق بحقهم...

- فيدور، يا فيدور، أين أنت؟ - صدر نداء عُشخان من جهة باب البيت.

- ها أنا، في هذه الناحية. خرج فيدور يعرج مستعجلاً من وراء السور.

- خذ، لم تأكل طوال النهار. - مدت عُشخان إلى فيدور صحناً فيه بضعة أقراص من الشلامة وكوباً من شاي القالمق. وأضافت محاولةً ألا يظهر في صوتها أي حقد: - أسمع المأساة التي حلت في القرية؟

- نعم، يا عُشخان أسمع، - توقف فيدور واستدار يثقل عليه القيد الخشبي. - يقطّعون نياط القلب... - واختتم بالكلمة التي ينهي بها كلامه سواء كانت مناسبة أم غير مناسبة: - حرام يا عُشخان، حرام...

- هذا ما تفعلون بنا إذا كان حراماً! - خرج صوت عُشخان من سيطرتها فارتفع، ثم لان قلبها بسبب الغائبين من بيتها - ليحمنّا، نحن أيضاً، الله الأحد، وليرحمنا!

- نعم، نعم - وافق فيدور بسرعة المرأة التي تفرع من وساوسها - حماكم الله ورحمكم. - وأنا تضرعتُ إليه قبل لحظات، وأتأمل أن يفهمني.

- ابتهلُ إليه يا فيدور، ابتهل، مصدر المأساة نواحيكم. ربما يفهمكم إلهكم أكثر منا.

III

يكنس فيدور الدار الواسعة غير عابئ بالجرح المتهتك على الساق. وكلما تحرك صدر منه صوت اصطفاق القيد الخشبي.

الإقليم الذي يضم زاورحابله، كالخريف الناعم الذي يستنفد وقته، هادئ كالشتاء الذي اقترب وليس كأيام الربيع - الصيف القائضة، مما يدعوك إلى التفكير ويحملك أحياناً على عدم التصديق. حين مضى شهران من الخريف ولم يبقَ على الثالث غير بضعة أيام كان الناس الذين نجوا من نار المدافع القيصرية ومن المآتم التي لا نهاية لها لا يعرفون تفسيراً للخريف المريح، ولا يعرفون كيف

سيكون اليوم التالي، يخافون من مفاجأة مرعبة.

أناكسيفيتش فيدور بين سكان زاور حابله الذين يودّعون سلام الخريف راضين عنه، متضرعين إلى الله أن يُديمه عليهم، كان الشخص الوحيد الذي لا يعرف ما يحدث ضائعاً في مجرى حياته. وإن شئت أن تدعوه كما كان يناديه أهل القرية فهو فيدور¹.

لا ينبغي أن تعتب على فيدور مع أن أفكاره المتضاربة تتجمع وتنفرد، وإلا أذنبت بحقه. يمكنك أن تُبعد الإنسان عنك بحركة واحدة إن لم تشأ أن تعرف ما يشغل باله، ولكن الأفضل أن تضع نفسك موضعه إذا أردت أن تفهمه. وكيف تفهم هموم الإنسان إن لم يكن عندك ما يُهمّك!

يقول فيدور لنفسه وقد أرعبته أفكاره: يا ترى هل يحدث لي ما أتوجس منه؟ ها قد مضى أكثر من ثلاثة أشهر ولا خبر هنا ولا من الجهة التي أسروني منها، كأن الحرب انتهت. وفي خلال ثلاثة أشهر لم تقم مناحة في القرية إلا مأتم العجوز التي عُمرت مئة سنة. هذا حسنٌ ويسرني أن يبقى الوضع هكذا، لم يعد أحد يشير إليّ بإصبعه. ويُحِيل إليّ أن جاقز يلين معي شيئاً فشيئاً. لا أعتب على سلوك الناس الذين وقعت أسيراً بأيديهم. الجميع يعلمون أن الظلم يولّد الظلم... ولكن ما الذي حدث؟ ينقضي الخريف وكأن حرباً لم تقم في هذه الناحية ولم أخسر حربي فيها. والشتاء يقترب. أ تكون الحرب انتهت وهؤلاء يحتفظون بي يستغلوني لمزيد من العمل؟ هل يمكن أن يفعلوا بي هذا؟ من يفعل هذا يتجاوز حدود الظلم ويُصبح خارج ساحة رعاية الإله. أنت لن تنساني يا رب حتى لو نسيتني الجميع. وستبقى تحرسني بعطفك وعنايتك.

يرمّم فيدور الكنيسة الكبرى للدار. ويُقعي مشد على سور الدار كأنه معتدٌّ

¹ الاسم الأصلي فيدور بواو مفتوحة مثل O الفرنسية، والاسم الشائع بين أهل القرية بضمة عربية.

بعمل صديقه. لا سبب للقلق. البستان الكبير نُظِّفَ عن آخره وحرث فاكثسى بالسود الناعم. وسيقان الذرة مسندة إلى كومة الحشيش اليابس. والهريان مملوءان بالذرة تماماً. وتجري تهوية الفلفل والبصل وعرائس الذرة متدلية من جدران الإسطبلات ومن مسطبة البيت.

لا شيء في أرض الدار تصل إليه اليد البشرية إلا وهو مروّيٌ بعرق فيدور. كومة الجلّة هذه، والإسطل المبنى حديثاً، وعربة الركاب الخفيفة. وأول بئر في القرية عليها بكرة تمتح الماء وحدها.

- يا فيدور أيها المنحوس خنقنا بالغبار، صُبَّ عليه من الماء! - يصيح جاقز ليس بنبرة غاضبة من المسطبة وقد نخض من قيلولة قصيرة. - بَكْرُثُكْ يمكنها أن تسحب الماء وحدها من البئر؛ هل أنت بخيل بها؟!

- حالاً يا جاقز، حالاً - يخرج فيدور من أفكاره - شغلتنِي الكِنَاسَة.

نزل جاقز من المسطبة حين استقر الغبار:

- حسنٌ هكذا، رَقَدَتِ الغبار - تمشَّى جاقز قليلاً، معتدلاً بنفسه في قسم الدار المحتوي على الحبوب، ثم جلس على جذع شجرة مقطوعة بجانب السور، ولمَّحْ لأسيّره: - لا أريد أن أراك ثانية كَنَاساً.

- سامحني يا جاقز!

- أنا غفرت لك، ولكن لا أعرف إن كانت صاحبة صفائر الفلفل التي غَبَّرَها ستغفر لك.

ابتسم جاقز، وتظاهر بنفض الغبار عن ركة بنطاله.

- وسأترجى عُشخان أن تسامحني. وإن طلبتُ مني مسح الغبار عن الفلفل مسحت كل قرن بقرنه إلى أن يزول عنه كل أثر للغبار.

- ألا تعرف المزاح يا فيدور! - ضحك جاقز من أعماق قلبه. - مَنْ يهتم بفلفل ذات الغطاء تلك والحال أن الدنيا كلها مغبرة؟! هيا اغسل يدك

واجلسن!

- كنت أنوي أن أكنس ما وراء الإسطبلات... - ماذا حدث لهذا الرجل اليوم؟ أهنالك خبر سارّ - قال فيدور لنفسه وهو يغسل يده.

- أمامك الغد، استرخ!

- أمامنا غدٌ واعدٌ ومع ذلك...

- ومع ذلك - قاطع جاقز بسرعة ما كان فيدور ينوي قوله - ما لا تفعله اليوم يصعب أن تفعله غداً؛ أليس كذلك يا فيدور؟

- لا أظن أن كلاماً قليل أصدق من هذا في شأن العمل. - جلس فيدور على طرف جذع آخر.

- لا يخفى أنك فلاح يا فيدور، أنا راضٍ عنك جداً.

- وتعجبني أيضاً طريقتك في العمل يا جاقز، تحب الأرض.

- شكراً، هل كنا نقف في مواجهتكم مضحين بأرواحنا لو لم نكن نحب الأرض!

- وأنا شاهد عليكم في هذا. - لا خبر ساراً حسب ما يوحي به كلامه. - تسرب اليأس فجأة إلى قلب فيدور وقطع أمله.

- حسنٌ أنك تشهد لي يا فيدور - ولكني سأقول لك ما كسبت به رضاي تحديداً: تتعلم اللغة الأديغية سريعاً.

- أحاول يا جاقز أن أتلاءم مع من وجدت نفسي بينهم - أسرع فيدور بالإجابة كأنه كان ينتظر هذا الثناء. ألا يجب أن أنسجم معهم؟!

- وهل تنوي أن تعيش معنا إلى الأبد؟

- أنا حاضر يا جاقز إن أطلقتني هذه الساعة!

- اسمع ماذا يقول هذا، اسمع! - ضحك جاقز راضياً ضحكة فاترة، ثم سأل بصوت بارد: - والفدية؟ - وأضاف بالروسية: فيكوب، فيكوب!

- وما ذنبى إن لم يفتدوني؟

- نعم، ذنبك! - نهض جاقز من مجلسه. ولم يجد فيدور من اللائق الجلوس في حضرة الرجل الغاضب: - إعاقتك تجعلك بلا ثمن، لا أحد يفتديك، تجعل الناس يسخرون مني!

- لا أدخر جهداً ولو كنت معاقاً، أعمل ما أستطيع...

- ستشتغل! مادمتم تحاربونا حتى لو كانت فديتك مئة قطعة ذهبية فستعمل في هذه الدار بما يساوي ألفاً ومئة. لماذا تركت في الدار أوساخاً كثيرة؟ اكنسها مرة أخرى.

سُمت أصوات حوافر خيل من جهة الباب.

رجع صبح ويده زمام حصان والده:

- وأنت يا ولد أين كنت؟

- سقيت الخيل ورؤضتها.

- ألم يبق في الدار عملٌ غيرُ هذا؟!

- لا أعرف؛ كأننا ربنا كل شيء وانتهينا.

- هل تعرف أن الشتاء قادمٌ خلال أيام. وإن كنت تعرف لماذا لا تفكر في مكان نوم هذا - أشار إلى فيدور - هل تنيمه على طرف فراشك؟ فكراً منذ الغد بتدفئة الإسطبل. عليه أن يجهز بيديه مكاناً دافئاً لنفسه. هذا الرجل العظيم سيعود إلى أهله إن أعنته! وإلى أن ألبى لك هذه الأمنية ستفتت حجارة ذاك الجبل!

ركب جاقز وخرج من الفناء دون أن يلتفت.

حين ضاع صوت قوائم الحصان وراء السور زحف الكلب مشد من تحت الهُري. لم يستطع الكلب أن يطلب مسامحته على جنبه ولكنه عرج على فيدور وراء الإسطبل حيث يعمل، بعدما التف على مكان جلوس صبح، مطرقاً طويلاً

ذنبه بين قائمته كأنه يُترجم هذا الاعتذار، وجلس أمامه على بعد بضعة خطوات. يكس فيدور بقامة ثابتة ولو أن رجله حملٌ ثقيل عليه ناسياً جلوساً مشد أمامه، ووقوفٌ صبح إلى جانب الهُري، وكأنه لم يبق في العالم غيره وغيرُ المقشّة المضفورة من الأغصان الدقيقة.

يقول فيدور: "لا أعتب عليك يا جاقز مهما قلت لي. لولا أن الله كتب على جبيني هذا المصير لما حدث لي ما حدث. لم تتحقق لي أمنيّتي حين هربت. وحين ألقى القبض عليّ تحملتُ كل سيّاطك مهما كان عددها، معتبراً هذه العقوبة مما كتبه الله عليّ. ومع أن الله يحب الرقم ثلاثة¹ فلم يوقّني في محاولات هروبي الثلاث. - فهمت أن لا أحد يسأل عني. أنت يا كلافديه استثناء من هذا الحكم، لا أريد أن أذنب بحقك... تنتظرونني يا زوجتي الحبيبة، ويا أبنائي الأعزاء ولكن من أين لكم أن تعرفوا ما جرى لي؟ أيُّ مأساة جرت لي يا أعزائي لولا أنني سيء الحظ إذ وقعت في الأسر قبل أن أنهي خدمتي العسكرية بستة أيام؟! يا إلهي لا ألومك ولكن العادة أن يحصر كل من يقع في مثل أزمتي على أن يدافع عن شخصه فحسبُ فاغفر لي إن خطرت لي مثل هذه الخاطرة، وارحمني، ولا تحرمني من الأمل فيك. تبعاً للفكرة التي أوحيت بها إلى جاقز فقد سُدت كل الطرق أمامي. لن تفارق قلبي مهما كنتُ في ضيق ما دمت حياً وأتنفس من هوائك، ولن أسمح لنفسي أن تنسى أسرتي وأبناء قومي الذين هم من عبادك ؛ إذ ما ذنب هؤلاء المساكين؟ كلهم باستثناء بعض ضباط القيصر مثلي أنا، رحماء، أجراء، فلاحون. هؤلاء الضباط الذين أتحدث عنهم لا يجوز أن تعتب عليهم، ربما كانوا مأمورين لمن هم أعلى منهم نفوذاً ومقاماً... وأنت لست من هؤلاء. اغفر لي يا ربي مثل هذه الخاطرة الشاردة

¹ يتكلم على الثالث المقدس الأب والابن والروح القدس.

التي عبرت ذهني. ولا يستطيع هؤلاء أن يقارنوا أنفسهم بك. وهم صغار في مقامك وإن كانوا كباراً في عيون أمثالنا، ذرةٌ غبار في حضرتك.

- يا صبح، يا ولدي، - نادى عُشخان من مسطبة البيت - تعال إليّ. لماذا يا ولدي تسمّرت عند جدار المستودع؟ بم تفكر؟

- والله لا أعرف يا أمّنا... - قال صبح وقد عاد إليه وعُيه وبرأ نفسه بأول كلمة تبادرت إلى ذهنه: - كل ما في الدنيا يدعوك إلى التفكّر.

- لو لم تكن الدنيا هكذا لما سمّوها الدنيا العارية يا ولدي - قالت عُشخان، ثم أكملت بصوت أقوى مُسمّعةً فيدور أيضاً: - لا داعي لليأس إن شاء الله. وإن كان ما قاله لك والدك فما أسهل حلّه! سنساعدك أنا وعائشة.

- لماذا؛ ما شأنكما أنتما بالأمر؟

- إن جبلتما لنا الطين طيناً الحظيرة بطبقة سميكة تحفظ الدفء. ثم يا ولدي - أسمعُ الآن فيدور بصوت أعلى: - لا تلم والدك؛ إنه عصبي المزاج، غير أنه سريع الرجوع إلى طبيئته.

- حتى لو تراجع فإنه لم يجد مكاناً لهذا البائس في هذا البيت الكبير.

- يا ولدي! - انخفض صوت عُشخان - هذه مسألة أخرى، لا تناقش كلام والدك. ما حدث لأخيه الأكبر ولأخيه الأصغر جعله ككسّار الزبادي¹. وجعل الظلم يغلب عليه. مأساة يا ولدي أن يأتوك في يوم واحد بجثتين!..

الذين كانوا ينقلون الأموات، وكان صبح منهم، انتصبوا من جديد أمام عينيه. حدث هذا في الشهر الأول من صيف العام الماضي. خسر الطرفان الكثير في ساحة المعركة في المضيق بين الجبلين. ومن بين الأديغة كان ضحايا المدفعية أكثر، وكان الأخوان بَراد منهم. وقضى زوج عائشة في ذلك اليوم الأسود

¹ نبات طائر الزهرة كالفطن، مثلاً في الحفّة، ينقل الأخبار في الخيال الشعبي الأديغي.

بالرصاص فبقيت أرملة وحيدة. وكان صبح في ذلك اليوم تجاوز العشرين بقليل. وكانت أول مرة يخوض فيها حرباً، وأول مرة يرى فيها قتلى، ويشم فيها رائحة الدم القوية. وكان صبح هو من أخلى عمه الأصغر أحمد، وهو من سجّاه وأسبل عينيه.

- أفهم يا والدتنا، أفهم. - خرج صبح من ذكرياته الثقيلة - ولكن لم يكن آل بّزاد هم المنكوبين الوحيديين.

- نعم يا ولدي، لسنا الوحيديين. كل إقليم الأديغة، ولكن والدك...

- فهمت يا والدتنا، فهمت.

كانت أذنا فيدور المشرعتان تلتقطان أطراف الحديث بين الأم وابنها رغم أنه كان يكنس حانياً ظهره المتين. ويفهم أنه هو موضوع الحديث وإن لم يتفوّها باسمه. ويشهد على أنهما يعودان إلى الفكرة نفسها رغم اختلافهما أحياناً ما يُيديانه من تسامح في النقاش. - يحرص كلٌّ على الآخر، ولا يسيء إليه.

قال فيدور: يجب أن تكون العلاقة بين الناس من هذا النوع في هذه الحياة الشاقة. متى دخل بين الطرفين الجفاء نتيجة الكلمات التي ليست في محلها، والتمسك بالآراء الشخصية، فالنهاية هي الفرقة، لا التفاهم. إدانة جاقز بحجة أنه لا يتصرف كما تريد ظلم. هذا البائس تحكمه المآسي التي كتبها الله عليه. لم يستخلص درساً مما حدث لأخويه. ينجرف وراء الكلام القاسي والعتاب المر لأنهما أسهل تناولاً. وأضيف موضوعي أننا إلى مأساته، وهذا ما كتبه الله علينا كيّلينا. أصبحت وسيلة تنفيس عن حقه. وأنا أتحمل هذا الوضع، وسأعمل على توفير ما سميته "مهجعاً دافئاً". ما أسهل ما يتغير قلبه أشد الناس ظلماً وحمية قلب. لو عرف أني سألتقي يوماً بأطفالي، بأسرتي الصغيرة، لتحملت أي مشقة، ولتحملت وطأة أطول الأوقات من أجلها. أكان من صالحه أن أنجرف وراء الأحقاد؟! كنت فرحاً بانتهاء خدمتي العسكرية بعد ستة أيام فإذا بالقدر

يقيّدني بالأسر الذي لم يخطر لي يوماً على بال. والأيام الستة تجاوزت العام. ومن غيرُ الله يعرفُ كم سيمتد هذا الأسر؟ وها نحن نُعيدُ العدة للشقاء المقبل، وسيتلوه الربيع، فالصيف، فالخريف. أيُّ هذه الفصول سيحمل الفرح إليّ؟.. وهل كُتِبَ على من يأُسروني ألا يشهدوا فرحاً؟ هؤلاء، مثلنا، أناس يستحقون الشفقة. يا إلهي الرحيم لا تقطع أُملي وأملهم في الفرح! أبتهل إليك أن تجعل يوم فرحهم يوم حريتي لأن كل إنسان مهما كان أصله يقدّر معروفك فاسمعي وارحمي... ولكن هل يمكن أن يتقاسم قومان سالت الدماء بينهما فرحاً واحداً؟ نحن من بادرنّا هؤلاء بالسلاح، ولكن ارحمهم يا ربي إن كانوا مذبذبين أم بريئين. وأعد إلى كل فريق الوعي بالوضع الذي هو فيه...

- ابتعد يا مشد، - قال فيدور للكلب الذي يأبى النهوض - دعني أنظف المكان الذي أنت فيه كي لا يحاسبوني عليه فيما بعد. نعم، نعم، الكلام لك يا مشد. لماذا تتأمل وجهي هكذا؟ كل شيء على ما يرام إن شاء الله، لا سبب يدعو لليأس.

ذُكِرَ غيابُ جاقز عن القرية الأسرّة التي أيقظها الفجر الوليد بالأمر الذي أصدره أمس، وتشهد دار بَراد الفسيحة على سفره إلى اجتماع الشابسغ. وتُجبل بين مستراح المواشي والإسطبل حمولَةُ العربتين من التراب الأصفر الذي جيء به من بطن الضفة العليا للنهر، ممزوجة بالماء والتبن الناعم. يخلط صبح راكباً حصانه المزيّج، ويحرص فيدور والمعول بيده على حِفْظ ماء الجبلَة وقد نسي القيدَ على رجليه. واستعدت عُشخان وعائشة لتطيين الإسطبل ما إن يجهز الخليط: استقبلت عائشة الرجل الذي يحمل الماء وهو يصفقُ القيد برجليه. - هات الماء يا فيدور، كفى، لا حاجة لمزيد من الماء.

- لا يا عائشة، لا يمكن أن ألبّي لك هذا الطلب. - ابتسم فيدور بعينيه المرهقتين الغائرتين في وجه عائشة. وتجاوزها بثبات ولو أنه لا يسيطر على

رجليه.

يخرج صبح بالحصان وقد تذكّر أمراً، ثم يقفز عنه، ويسرع إلى البيت - ولا يلبث فيه طويلاً. ثم يتهاوى على رجل فيدور ويفتح قفل قيده:

- دع رجلك تستريحان.

- هه! - يصرخ فيدور خائفاً أن يحرك الرجل الحرة من مكانها، متفحصاً المكان، وينظر باتجاه غُشخان - ما فعلته لا يجوز...

- كان على صبح أن يفعل به هذا قبل الشروع في جبل الطين. ما الفائدة فيك الآن وأنت لا تجرب أن ترفع رجلك؟ - كانت وقفة فيدور مدعاة لضحك عائشة. ثم قالت له فجأة: - ولكن إياك أن تفكر بالهروب!

- هل تعرف كيف تركب حصاناً يا فيدور؟ - سأل صبح معيداً فيدور المنتشي بحريته إلى وعيه.

- عيب على الفلاح ألا يعرف ركوب الحصان.

- اركب الحصان إذن وتابع جبل الطين.

حين ساعد صبح فيدور فركب الحصان حُيِّل للأخير أنه نبتت له أجنحة، وأفلت منه قلبه، وطار من قرية زاور حابله، ووصل إلى مقاطعة بولوغودسك دون أن يدري كيف فعل ذلك. ودخل إلى قريته الصغيرة المحاطة بالغابات. ثم عاد إلى وعيه شاعراً بالفرح لما جرى له، وبالإهانة لما يفعل الآن في دار آل بَازاد. وكثّت الركبة الجريحة عن التألم. وأشعرته حيوية الحصان بالقوة التي أفقدها إياها سنوات الأسر. واستقام الظهر المحني، وتجاوبت معه الرقبة الطويلة، وانسجم معها الرأس المنتصب.

جفل صبح من مظهر الأسير الذي وضع حريته بين يديه فجأة. وساهم في فزعه همس أمه:

- هل أنت واثق ممن أركبته الحصان؟

- لا تقلقي يا أَمنا، لن يغدر بنا فيدور.
- لا تعلّقين يا عائشة على طريقة امتطائي الحصان؟ - ظهر العتاب الخفيف على مزاح فيدور.
- أترى من المناسب امتداح الرجل الذي خلقه الله لامتطاء الحصان؟! - لم تدعه عائشة ينتظر الجواب كأنها كانت تنتظر هذا السؤال. وأضافت وقد عرفت ما في قلب الأم وابنها: - كفى يا فيدور، أخرج من الجبل، صارت رطبة أكثر مما ينبغي.
- نعم يا فيدور، نعم - استعجلت عُشخان أيضاً - اخرج ودّع الحصان يستريح!
- وأنجز العمل في الإسطبل كاملاً مع الظهيرة.
- وريثما نظّف صبح وفيدور أرض الدار أعدّت عُشخان وعائشة الغداء المتأخر. وها هما الآن يجلسان كلاهما إلى المائدة التي أُخرجت إلى الفناء كإنسانين حقيقيين. ومشدّد مضطجع جانباً، متخماً من الطعام، معتبراً ما يراه أعجوبة.
- قال فيدور بعدما انتهى من الطعام وغسل يديه:
- الآن يا صبح أعد القيد إلى رجلي!
- فيدور؟! -
- لا غرابة في ما أطلب. لا شيء يغيب عن بال من هو حرّ الرجلين يا أخي الصغير.
- إن كان هذا رأيك فهات رجلك إذن!
- الأفضل أن تفعل هكذا يا صبح قبل أن يعود والدك. - وافقت عُشخان ابنها - وأعدّ المائدة إلى الداخل.
- خرج والدنا في سفرة تستغرق ثلاثة أيام.

...

حين رجع جاقز كان ما رآه مدعاة للعجب. دار حول الإسطل ثلاث مرات، وبحث عن عيب محتمل في الجدران. ولما لم يجد فرح جداً لإتقان العمل:

- أنت مهذب والله يا فيدور. لم تكتف بالجزء من الإسطل الذي يؤمن لك الدفء بل طيَّنت الجدار كله. عفارم، أنا راضٍ عنك. قسماً برزق الله هكذا يجب أن تقابل الطعام الذي تأكله. كيف حال رجلك؟

- تتحسن.

- سنتفعنا أكثر يا فيدور متى استرجعت قوتك؟ - سها جاقز فابتسم في وجه الأسير. ثم عاد إلى وعيه رغباً في عدم الاسترسال في هذه العاطفة فتوجه إلى ابنه: - وأنا راضٍ عنك أنت أيضاً يا ولد. نقذت ما طلبت منك.

IV

ليس شتاء هذا العام كسابقه. يعصف بالثلج مؤكداً على صحة تسمية هذا الشهر بالأربعينية¹. والريح تفرق أغصان الأشجار حيناً وتضئها حيناً. وتنفضها، ويعبث صفيها بسقف الإسطل.

نحس فيدور مع فجر النهار الذي يُقال في مثله: لا يخرج المرء من بيته حتى لو طُرد منه. كشط الثلج، وفتح ممرات إلى الإسطل والبئر ومسطبة البيت ومراحض الرجال - النساء وكومة الحشيش والباب الصغير. وسقى الخراف والأبقار. وقدم لها العلف. ووضع حزمة الحطب التي سُشعلها الأسرة متى نُحضت من النوم على المسطبة. ولو كان مسموحاً له أن يدخل البيت لأوقد ناراً هائلة في الفرن من أجل رضا جاقز وحده!

لم يكن الثلج جديداً على فيدور. وأما كسْطُهُ فقد اعتاد عليه لأنه ولد في ثلج الشمال، ورُبِّيَ حيث يكثر، وشهد فيه حبه الأول، وتزوج، وسمع ضحكات

¹ تتطابق تسمية شهر كانون الثاني في لغة الأديغة بالتسمية الشعبية له في سورية وجوارها: أربعينية الشتاء.

أولاده. ومهما عادت العاصفة تدوم في غابات الجبل حيث تحتفي قرية زاور حابله لم يئأس فيدور. ما هذا؟ ألم يشهد أعنف من هذا الشتاء في وطنه الأم؟ يستمر الشتاء نصف سنة. يظل الثلج يتساقط فيغمر البيوت. ويجمد الأنهار، ويُشقق الأشجار المتجمدة. ولكن إن أردت الحقيقة فالهواء أخف في نواحيننا. وليس الثلج رطباً كما هنا، ولا يكسر أغصان الأشجار. ماذا تفعل كلافديه المسكينة في هذه اللحظة؟ أتكشط الثلج أم تُقطّع الحطب أم تكنس أم تغسل الثياب؟ مهما اشتغلت أيتها البائسة فأنا معك قلباً وروحاً. اغفري لي إغراقك بأعمال الأرامل وأنت لست أرملة. وإن سألت فليست حالتي هي المشكلة. أنا سأعيش حياتي بطريقة ما. وإن بقيت حياً فالناس الذين أنا في أسرهم يتحللون بإنسانية كبيرة، وعندهم الشفقة والفتنة. سيفهموني، وسيرأفون بحالي. من حظي أنك لا تعرفين ما حدث لي يا حبيبتي. الأمر الوحيد الذي تعرفينه هو أنني أشارك في حرب القفقاس. وكما كنت تكتبين لي لا تقلقي من أجلي، أوضاعنا على حالها. لا تجري هنا حرب طاحنة فلا تصدقي أي أحد، لا نقوم بأكثر من إخضاع بعض من يتمردون علينا... وإن أرسلوا إليك رسالة مزعجة تتعلق بي، فاعرفي، هل تسمعين؟! سأعتب عليك إن جلست تبكينني واعتبرت نفسك صرت حرة وحيدة... أنا المذنب بحقك، وأنا من جلب لك المصيبة. لم أستطع أن أحمي نفسي من أجلك. ولكن كيفما تصرفتي معي توصلت إليك من أجل موضوع واحد: لا تدعي الأولاد ينسوني. ما يُبقي على حياتي، بعد الله، هو حبكم أنتم. نعم، حبكم. يا رب امنحني الصبر والقوة! هاك أرامل كثيرات هنا يا حبيبتي حيث أُسرت تسببت في مصيبتهم الحرب اللعينة التي تدمر حياة الشعبين. وها هي المسكينة عائشة واحدة منهن بقيت بلا أهل. ومن حظها أن عندها جارة طيبة مثل عُشخان. هذه المسكينة سدّ الثلج باب دارها ومسطبة بيتها. سيسرها أن أفتح لها معبراً. إن لم تكن يداك مقيدتين في

مثل هذه الدنيا الصعبة فستعيبين. لا فرق على الأرض، إن كان هنا أم في نواحينها، يمكنك أن تفعل الخير في كل مكان. ولا يجوز أن تعلل سبب إسدائك المعروف لأحد.

يكشط فيدور الثلج بمجرفة رقيقة من أمام باب دار بَراد إلى أمام بيت عائشة. ولا يهتم بعدما نشط جسمه مع العمل، بالعاصفة الثلجية ولا بالريح التي تصفر. ولا بأس في أن يسدي الخير لأي إنسان ما دام فعل الخير بلا حدود كما ينصح نفسه. وإذا كانت الخدمة لعائشة فلا مجال للتردد أو الندم. العمل ممتع وحظٌ حسنٌ. ليتني كنت دون هذا القيد... لست عاطلاً عن العمل ولا شريراً ولا مجرماً... أقول هذا ولكن بأي نية جئتُ إلى هؤلاء لو لم أكن مجرماً أو شريراً؟.. ألسْتُ من كان يحمل البندقية على كتفه؟ ألسْتُ من كان يتبع حربته المشهورة؟ ألسْتُ من كان، قبل أن يُجرح، يصرخ على الجبل الغريب فاقداً السيطرة على أعصابه، لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل؟ صحيح ما يقال إن الإنسان لا يُحسن تقييم عمله إن لم يقع في ساعة شدة. وأنت يا إلهي من تردُّ الوعي إلى الإنسان الخارج عن طوره. إن كنت أذنبت، ولا أدري ذنبي، فاغفر لي وأنا أقبل بحكمك. ولكن اسمح لي أن أسألك سؤالاً واحداً؛ أتكلم على جاقز الذي أنا أسيره. أريدك أن تعرّفه ظلّمه وقسوته وعدم إنصافه. لست أنا المشكلة، لا يجري لي ما لا أستحق. يحزنني جفاؤه نحو ابنه وزوجته. أفهم وأقدّر الأحزان التي عاناها. ليس سهلاً أن تتحمل مقتل الاثنين اللذين ولدتهما أمك وتُسبل أجفانهما بيديك. ولكن ألسْتُ من جعل الناس يقولون إن المصيبة ترقق القلب وتقرب المتخاصمين؟..

- فيدور ارفع رأسك واجعلنا نرى وجهك - حين نادى جاقز خرج فيدور من أفكاره. - إلى أين إن شاء الله؟

- نهارك سعيد يا جاقز، - رد فيدور على تحية لم يتلقاها.

- لا يمكن للنهار أن يكون سعيداً في هذا الجو العاصف. - يرفع جاقز قبة السترة الجلدية. - أسألك إلى أين تذهب بالمجرفة.
- أهذه هي؟ - لم يُبدِ فيدور أيَّ انفعال وإن كان يعني: ألا تعرف ماذا أنوي. - أفتُح للمسكينة عائشة طريقاً في الثلج.
- حسنٌ أن خطر لك هذا. لم يُخطئ من قال إن أول من يتفهم المعروف إلى الأرامل هو الله. ولكني أستغرب كيف تركت بوابتنا الكبيرة وأمامها هذه الكومة الثلج هذه، إلى دار الجارة.
- إن كان هذا رأيك يا جاقز فلن يطول الأمر بالثلج على البوابة.
- لا، لا، لا تجلب لي العار أمام الأرملة الجارة. وها هي عائشة تنظر إلينا - استعجل جاقز ولو أن كلامه من خارج القلب، ونادى جارته: - اطمئني يا عائشة، لا تجزي، ها هو فيدور يفتح الطريق إلى بيتك. الأفضل من هذا أن تجهزي له الشلابة والشاي جزاءً معروفه.
- الشلابة والشاي جاهزان عندي طازجان دائماً يا جاقز، تفضلاً كلاكما!
- نعرف يا عائشة أنك امرأة صالحة. شكراً لك. - ردّ جاقز بما يُردُّ به عادة على مثل هذه الدعوات.
- لا أريد مثل هذه الكلمات المجاملة يا جاقز، أدعوكما إلى الطعام جدياً.
- ماذا تثرثر هذه المرأة في هذا البرد القارس... - غمغم جاقز، ولا أظن أن شائنا برد. هذا الجنس لا يجوز أن ترفع معه الكلفة، يركب ظهرك إن فعلت...
- دارك عامرة يا عائشة، شكراً - ثم ناداها ثانية كأنه لم يعلّق عليها في شيء بينه وبين نفسه: - فيما بعد يا عائشة، لاحقاً... لا يزال أمامنا عمل طويل.
- بعدما ابتعد جاقز عن الباب الصغير جعلته الفكرة التي خطرت له نحو عائشة يسرع. واستكثر الخطوات القليلة التي بقيت أمامه حتى يصل. وحين التقى فجأة بصبح عند الباب رجع إلى وعيه وسأله:

- إلى أين تمضي بالمجرفة يا ولد؟
- ألا يستحق فيدور المساعدة؟.. - وأسرع صبح بالقول خوفاً من عواقب جوابه النبيل: - بالإضافة إلى أن العمل يعيد النشاط إلى جسمي.
- تنام كثيراً... ولكن لا تُتعب نفسك يا ولد لهذا السبب، هذا الكافر يقوم بكل واجباته.
- يا والدنا ألم نتفق على ألا تدعو فيدور بهذا اللقب؟
- هيا، كفى! لا تعلّق في هذا الصباح الباكر على كلمة أفلتت مني. اذهب واطلب من هذا الذي تحامي عنه أن ينظف من أمام البوابة. - ولما أدار جاقز ظهره تفصّى من همه: - لا أستطيع أن أصف غير الأديغي بأنه أديغي. كنت سأرى موقفك منه لو كان أخواك اللذان ولدتهما أمك قُتلا على أيدي الكفار. أصفه بهذا اللقب لأن عندي ما يدعوني إليه. لا تنظروا إليّ على أيّ أكل لحوم بشر!
- حين نظر جاقز في وجه المرأة نسي ما قال لابنه وقد تذكّر سبب دخوله الغرفة، وجلس إلى المائدة وهو يفرك راحتيه اللتين لم تجدا الوقت للتجمد، ورشف بضعة رشقات من الشاي الساخن، ثم قال:
- أظني جئتك ببحر عجيب أيتها العجوز.
- ليجعل الله فيه الخير! - وقفت غُشخان جاهزة تماماً إلى جانب الفرن.
- هل أكل الولد؟
- نعم، أكل.
- والكلب مشد؟
- وهذا أعطيته ما يأكل، الوحيد الذي لم يأكل هو فيدور.
- لا تقلقي لأجله - ابتسم جاقز من تحت شاربيه الباردين.
- من يُطعم هذا المسكين إن لم أطعمه أنا. ولن يسامحني الله. قل لي الخير دون

إطالة.

- بدأت في روايته منذ زمن ولكنك لا تنتبهين.

- لا أعرف، أجبتك عما سألت عنه.

- سأصارك إذن. - ارتشف جافز مرة أخرى من الشاي دون استعجال، وأكل قطعة من الشلابة - والله لا أعرف يا عجوز كيف أبدأ. أظن " فيدورنا " يخفي ما لا يُتوقع منه. ليتك رأيته أيتها العجوز كيف كانت عائشة تتغنج له!

- ما هذا الكلام! ماذا تقول؟ - صرخت عُشخان مما سمعت، ثم سدت فمها مرتعة من صوتها ومن الخبر.

- نعم، نعم، من حَقَّ أن تتعجبي.

- كفك كلاماً فارغاً. إذا كانت عائشة المرائية الصغيرة مزحت مع فيدور فلن أسمح لمثل هذه الخاطرة. - ما أسهل أن ينمو هذا الشعور بين الرجل والمرأة يا عجوز!

- وما رأيك في المزاح بينك وبين عائشة؟

- يا عجوز ماذا تقولين؟ - صرخ جافز على نحو لا تميز أهو جاداً أم هازل. - إياك أن يساورك أي شك في هذا! كان بيني وبين المرحوم أيوب خبز وملح طوال عمرنا، كنا أصدقاء، وأنا من أجليته من تحت رصاص الروس، فلا يمكن بسبب بعض تعابير المزاح بيننا... هؤلاء الكفار... - رمى جافز المعلقة على المائدة غاضباً، - كنا نعيش لا نعرف إلا الله. ماذا فعلوا بنا!.. هاجمونا، ينهبونا دون أي رادع!

قالت عُشخان بعد قليل:

- أليس من أجل هذا أقول ما أقول...

- وأنتِ ما رأيكِ؟

- لا أصدق الخبر الذي حملته إليّ.

- ولماذا؟

- كيف يا جاقز تشتهي، تطمع في من ليس من دينك أو قومك؟

- أيتها العجوز، حين تقوم بين شخصين هذه العاطفة لا شيء غير الله يقف في طريقها. بل يحدث ألا يصغي بعضهم حتى إلى الله. لماذا يا عجوز يقولون: الحب لا يعرف حدوداً، يشعل ما في طريقه؟!

- وكيف لي أن أعرف... - تنهض عُشخان في الغرفة تمد يدها إلى هنا وهناك، وهذا وذاك. ثم تعي إلى نفسها بسرعة وتقول لجاقز: - أنت أيها العجوز تثرثر... لا تدع الولد يسمع هذا، تفضحنا أمامه.

- لماذا لا تثقين بي يا عُشخان؟ ما تبادل من حديث وما تقولينه لهذا الجدار الأصم سيّان.

- طبعاً، نحن صُمُّ بكم.

- ولكن يا عجوز إن ثبتت صحة ما أشك فيه فلن أقبل من أيٍّ منهما. لن أدعهما، ولو لم يبق غيري، يعثنان في حضرة مأتَم صديق عمري.

- يا رجل، عائشة لن تفعل مثل هذا. كم كانت مخلصة للمرحوم أيوب!

- لو كنت تعرفين ما يمكن أن يصدر منهما!

- لا سمح الله، لا سمح الله!

لم يهدأ جاقز في البيت بعدما ما أفطر، وقال ما قال.

كان قد لاحظ وهو ما يزال على المائدة أن الجو يصحو ولكنه حين فتح الباب لم يعرف كيف يفسر الشمس الحمراء الكبيرة الساطعة التي استقبلته من وراء القمة. وأجبرته أشعتها اللامعة على إغماض جفونه.

- ما هذا الذي أراه!.. - قال لصبح وفيدور حين رآهما يخرجان من بين جانبي كومة الثلج التي جمعاها من أمام الباب - والله نحن في دنيا أعجوبة يا

مبارك النسل. لم تمض ساعة على العاصفة التي كانت تزرع اليأس في القلوب. والآن انظرا كيف تتصرف معنا السماء! ليس فأل خير أن يتقلب الجو بسرعة كما يقول الكبار. ليت السماء ما جلبت لنا مأساةً ما. اسمع... يَخْصَّ جاقز ابنه بعمل الخير - والله يا ولد أحسنتما صنعاً هذا الصباح. وأنت يا فيدور؟ يبدو أنك بردت شاي الجارة و"سلامتها"!

- تلَهَفْتَ عائشة وتوسلت كثيراً.

- ولماذا لم تلبّ رجاءها؟

- وكيف تشرع في شرب الشاي والعمل غير منجز يا جاقز؟

- والله هذه فكرة صحيحة! ليس هناك ما لا تستحقه يا فيدور!.. اسمع يا

ولد، خذ - يرمي مفتاح القيد إلى صبح - ارفع القيد الخشبي عن فيدور. لا

يمكنه التحرك في هذا الشتاء العنيف. ما رأيك يا فيدور؟

- لماذا أفكر في الهرب ما دمت واثقاً مني؟

V

فكرة الحرية حلوة حين لا تكون حراً في نفسك. والآن فحسب فهم أناكسيفيتش فيدور أن رفع القيد عن رجله أحلى وأحلى. حين رفعوا القيد عن رجله كبادرة خير من جاقز ظنّ أنهم سيُرحلونه ساعة من الزمن كما كانوا يفعلون أحياناً، ولكنه أخطأ جداً. حانت الظهيرة ومضت. ولم يدعهم العصر ينتظرونه. وما نهار الشتاء إلا كنوم طائر. وشهد إشعال المصابيح على قدوم الليل. وإذا كانت حرية رجله تجعله يقفز طوال هذه الساعات دون أن يشعر بمرضهما فإنه الآن، وقد اقترب النهار من آخره، بدأتا تثقلان عليه. ليس لأن العمل أرهاقه، دون استبعاد هذا السبب، بل لأنه كان مهموماً بكيفية قضاء ليلته: أمقيداً أم حراً؟

هذا المساء، لما كانت راحة الدار وراحته هو تتوافقان، لجأ فيدور إلى حظيرته

وهو يغبط ضوء المصباح المنبعث من الغرفة. ولحظة فتحة الباب لم يملك فيدور إلا أن يلتفت إلى بيت عائشة. وقد فرح إذ رأى الآن مصباحها مناراً. وتمنى لها في نفسه صباحاً سعيداً.

ولام مشد لأنه احتك بساقه وسأله:

- هل شعرت بالبرد يا مشد؟ هذا ما سيحدث لك إن كنت عاطلاً عن العمل. وغرفتنا باردة... انتظر يا مشد سأدفئها حالاً. أين المصباح؟ ها هو، وجدته.

حين أشعل فيدور مصباح الزيت بان شيئاً فشيئاً ما في "الغرفة": المنصّة الطينية التي عليها فراش التبن، والفرن القريب من الجدار، والدلو، والكأسان على الرف الخشبي، والملاعق الخشبية، وربطة عرانيس الذرة الصفراء، وحزمة نبتة الحميض اليابسة التي يصنع منها شاي القالمق، والدواء العشبي الذي جاء به "فرخ"، كانت كلها معلقة بالجدار.

- مهلاً يا مشد، ابتعد قليلاً، دعني أشعل النار في الفرن، - يقول فيدور للكلب الذي لا يفتح له الطريق إلى الفرن، لائماً دون أن ينهره. - أين كنت طوال النهار؟ كنت نائماً في قلب كومة الحشيش حريصاً على راحتك. والآن جئت إليّ للنوم. - يشعل فيدور نار الفرن بمهارة ويفرح - أنا لا أعتب عليك، لا تأخذ عني هذه الفكرة. إن لم تأت إليّ لتقضي ليلتك فأين تذهب في هذا البرد القارس أيها المسكين؟ ولكني عاتبٌ عليك يا مشد: هل تريد معرفة السبب؟ سأقول لك: لم تشاركني فرحتي. انظر إلى رجليّ يا مسكين، تحررتا من قيد الخشب!

أدفأت قطع حطب البلوط الإسطل المفصول عن البيت سريعاً. وفيدور الذي انشغل بالنار مترع بالأفكار. لم يبق ما لم يصل إليه تفكيره في غمضة عين. كان في الشمال البعيد. ولم يدع زاوية في أرض الدار لم يفتشها. وارتوى من العيش

مع أسرته التي غاب عنها طوال سني خدمته الخمس والعشرين، وجالسها. وقطّع الحطب لكلافديه البائسة. وجاءها بالماء، وزار جيرانه، وكلمهم. ولم يكفِ هذا بل سافر بقلبه إلى وحدته الحربية ياروسلاف التي تخدم في الشيشان وإن لم يكن يعرف تماماً موقعها.

قال في نفسه: يا ترى ما أخبار أصدقائي القدامي الذين لا يملكون حريتهم إلى الآن؟ من قُتل قُتل وانتهى أمره، هذه مشيئة الله ولا نملك تغييراً لمشيئته. المصيبة في أمثالي من المفقودين الذين لا يُعرف إن كانوا أحياء أم أمواتاً. أقول هذا يا إلهي العزيز ولكن الناس الذين وقعت في أسرهم ليسوا سيئين. وجاقر لا أعتب عليه... هذا المسكين إنسان هدّت قواه الحرب التي أعلنّاها عليهم. يُطعمني ويكسوني، ويُسكنني في مكان دافئ بدلاً من أن يُلحِقني بأخويه اللذين قضيا في الحرب. وفي خلال عام صَحْبني ثلاث مرات ليسلمني إلى قومي. هل عجيب أن طلب ألف قطعة فضية ثمناً لي. إن لم تكن سنوات خدمتي الخمس والعشرون تساوي هذا المبلغ فالأفضل أن أموت. لا، لا أريد أن أذنب بحق أحد. لو علمت الوحدة التي أخدم فيها لدفعْتُ أكثر من هذا. وصبح؟ وعُشخان؟ وقرخ؟ لا أريد البتة أن أذكر هؤلاء بسوء. وعائشة؟ هذه البائسة البريئة أشبّه سداجتها وطيبة قلبها بكلافديه. ولكن ماذا ينوي لي جاقر بعد؟ إن كان يريد اختباري من خلال معروف كاذب فالحرية حلٌّ يُشْتَهَى، فلا تدعني يا رب أنزلق إلى الخطأ، وازرع فيّ القوة والاستقامة. إن كنت تعتقد يا جاقر أن هذا الشتاء سيلجمني فالحقُّ أنه لن يكون عقبة في طريقي، غير أنني سأفي بوعدِي. ثم نرى ما سيحدث. لا يجوز أن أجلس هكذا منتظراً...

نتر مشد رأسه، وتبع حركته وقَع أَقدام مسرعة.

ابتسم فيدور: استعجلت بالتفاؤل. لن يدعك جاقر حراً طويلاً من الزمن. أظنه يُعيد إليّ القيد. لو عرفت أنك ستصرف معي بهذه الطريقة لوجب عليّ أن

أرمي نفسي على أحد الحصانين الأشهبين وأهرب... لجمني معروفك الكاذب.
لن تفهم أن الخير يتضمن شيئاً من الشر إلا بالتجربة. لا أظن مثل هذه الفرصة
أُتيحت لي طوال هذه السنة.

من ظهر على الباب هو صبح طلق الوجه مسروراً بما يرى، وعلى صحن
البطاطا المقلية بيده قطعة كبيرة من الخبز:

- غرفتك دافئة يا فيدور.

- لا أعرف إن كنت أستهلك خطباً زائداً على الحاجة...

- من يسأل عن الخطب؟ الغابة ملأى به، المهم ألا تبرد.

- هذا صحيح يا صبح.

- كل من هذا العشاء وهو ساخن. أرسلته لك والدتي.

- حيا الله عُشخان، يسرني جداً. خذ يا مشد شاركني أنت أيضاً - قطع من

الخبز كسرة كبيرة وقدمها إليه. - اجلس يا صبح إن لم تكن في عجلة من

أمرك. - لطف فيدور الولد متوجساً من أن الوالد لا يودّ طول مرافقته له.

- ليل الشتاء طويل - جلس صبح راضياً، وأجابه بما يعني أن يطمئن: -

والدنا عرج على حفلة " الجابشه"¹

- على حفلة من؟ قطع فيدور طعامه.

- يعيش في الحي الغربي. عادوا به أمس مجروح القفص الصدري.

- من حسن حظه أنه لم يُقتل... - نظر فيدور إلى صبح نادماً على ما قال

دون تفكير، وأطرق برأسه.

- وفي القرية جثمان قتيل.

- عندي علمٌ بهذا. أخبرتني عائشة. ليوّجهه الله إلى الخير حيث رحل - رسم

¹ حفلة سمر ليلية تُقام لأصحاب الجروح العميقة والكسور للترفيه عنهم وتخفيف آلامهم،
يشارك فيها الشباب والبنات، وتُقدّم فيها منوعات فنية وألعاب مفتوحة.

فيدور إشارة الصليب بأصابعه الثلاث.

- آمين! - دعا صبح باختصار.

كان فيدور يستغرب أن جاقز لم يتشفَّ منه كما كان يفعل كلما عاد إلى القرية جريح أو قتل على أيدي الروس. وكان يريد أن يأتي على هذا الموضوع مع صبح ولكنه تناسى رغبته خوفاً من أن يسبب الحزن للشاب الذي لا يدّخر جهداً ليخفف عنه مصيبته. كلما غابت عنه رقابة والده جالسني وبحث عما يفيدني. واليوم عمل معي في تجريف الثلج وعيَّنه على الباب خائفاً من أن يراه والده. وهاهو اليوم جاءني يحمل لي الطعام، ويضيء لي لي المظلم.

انتهى فيدور من الطعام. وشرب من الماء البارد. ثم رسم الصليب، وقال:

- شكراً يا صبح على طعامك اللذيذ.

- حلالٌ عليك!

قال صبح بعد قليل:

- يا فيدور منذ وقت طويل أريد أن أسألك: نقول الحمد لله. وأنت تلمس

جيبك بثلاث أصابع، ثم تصالٍها على صدرك. وتومئ برأسك.

- إشارة الصليب وإيماءة الرأس تعنيان الحمد لله يا صبح.

- على ما يبدو أنتم ونحن ندعو إلى إله واحد.

- نعم، هذا هو يا صبح - مضمون دعائنا واحد وإن اختلفت التعابير.

- الأديغة والروس؟

- ولسنا وحدنا، بل كل من على ظهر البسيطة.

- هذا مستحيل يا فيدور.

- ولماذا مستحيل؟

- لماذا نسمةكم كفاراً إذن؟

- أهذا ما تسأل عنه؟ لم ينتظر فيدور ما قيل له، وابتسم. - هذا له معنى

- آخر. المسلمون، ولستم وحدكم، يسمون من ليسوا على دينهم كفاراً.
- أليس لهذا السبب أقول؟ - طريقتنا في الصلاة مختلفة عن طريقتكم. وأنا أرى طريقتك في الصلاة. - تصالب بين أصابعك الثلاث وتومئ برأسك دون اعتبار لمكان أو لاتجاه.
- ليس ثلاث أصابع!.. - أسرع فيدور - ألم أقل لك يا صبح أي أرسم الصليب وأدعو إلى الله؟!
- نعم قلت لي. وترسم الصليب، - ثم يقول صبح: - نحن نتوضأ قبل أن نقف في حضرة الله، ونوجه سجادة الصلاة إلى القبلة، ونرفع أكفنا إليه حين نتلو الأدعية، ونومئ إليه، ونركع أمامه على رُكْبِنَا. وثلثت أخيراً إلى اليمين وإلى اليسار.
- لاحظت هذه الأمور منذ اليوم الذي وجدت نفسي فيه بينكم. ولكن ما في قلوبنا جميعاً نحو الإله واحد يا صبح وإن اختلفت طريقتنا في الدعاء إليه. ألا تطلبون منه أن يرحمكم وينظر إليكم بعين العطف، ويحميكم؟
- نعم.
- ألا تقولون له: هذه الدنيا فانية ؛ اغفر لنا ذنوبنا متى عدنا إلى حضرتك؟
- نعم، نطلب منه.
- ألا تطلبون منه أن يفتح لكم باب جنته؟
- نعم، - صاح صبح راضياً بما سمع: - أتساءل يا فيدور من أين تعرف ما نخاطب به الله حين نقف في حضرته؟
- أعرف لأن نوايانا واحدة. وهذا ما نقوله لإلهنا، ونبتهل به إليه.
- والله ما أسمع عجب... - تنهد صبح كعجوز صغير، شاعراً بالإهانة إذ لا يعرف شيئاً مما سمع الآن. ثم سأل والعتاب بادٍ عليه: - لماذا لا تخبر والدنا يافيدور بهذه المعلومات؟

- وكيف أروي له وهو لا يسألني... - كان فيدور هو من تنهد الآن بعمق. ثم أضاف حذراً وكأن الخطاب موجه إليه. - لا أظن والدك سيفهمني ولو أطلعته. تألم صبح مما سمع، ليس بسبب الكلمة التي تخص والده، وربما لم يستطع إخفاء تأثره بها، نظر الشاب وأعضاؤه ترتجف وتتداعى إلى الأسير الذي يجلس مقابله. لماذا نُطيل أمد عذاب هذا المسكين؟ ليس في قلبه إلا الخير والصدق خلافاً لما يُتَوَقَّع ممن هو في مأزقه. يتحمل أقسى ما يوجه إليه من الكلام، وأقصى العقوبات الجسدية.

تذكر صبح أنه حين هرب فيدور في العام الماضي، بعد شهر واحد من أسره، لاحقه كل رجال القرية فرساناً وراجلين، ولم يغادروا شبراً إلا فتشوه حتى وجدوه أخيراً جالساً بين أعشاب المستنقع. وكان هو نفسه بين الجمع الذي يكزه بعضهم ويدفعه غيرهم. ولم يكن صبح يعرف وقتذاك مدى إنسانية فيدور. "كافر"، "قاتل"، "نهاب" هذه هي الكلمات التي كان يخاطب بها صبح رفاقه. وتذكر حين أعادوا الأسير إلى البيت وتركوه، كيف ضربه والده في الإسطبل بكل قوته وكيف كانت ينام في الحفرة كل هذه الأيام دون أن يتألم له. ونظر بطرف عينه إلى فيدور خجلاً من سلوكه في ذلك اليوم: خطر له أن يقول له: "اغفر لي كنت مذنباً" ولكن الفكرة الطاغية على عقله أنسته.

من بين كل الناس الذين كانوا على بابنا - يقول صبح - اثنان فقط أشفقا على فيدور: قَرَّخ وعائشة. وقَرَّخ واحد من أوفر رجال زاور حابله. ولم يكن عجباً أن كظم استيائه. وعائشة؟ أليست عائشة امرأة وعلى رأسها غطاء؟ ثم ألم يُقتَل زوجها على أيديهم؟ كانت اعترضت طريقهم وقالت لهم "سلوككم خطأ، لا رحمة عندكم، والله لن يقبل منكم ما تفعلون" ولم تتراجع مع أن بعضهم نهرها. ووالدتنا التي كانت واقفة على المسطبة تؤيد الجمع الذي أعاد الأسير الأبق لم تتأثر بكلمات عائشة. وحين تتذكر والدتنا أقوالها نادمة تقول

لعائشة: "جعلتني أشعر بالذنب مما قلت، وأقف أمام الله" وصحيح ما توافق به والدتنا على كلام قَرخ "إن اعتبرتَ هذا يا إلهي ذنباً فاغفره لي. - أن تكون إنساناً سهلاً لفظاً ولكنه صعبٌ عملاً". وانظر ما يحدث الآن. ليس في كلام فيدور ولا في سلوكه بعد كل ما جرى له أي شرٍّ ولا تفكير بالثأر. أيكون الموقف الذي وجد فيه نفسه رقيق قلبه؟ عطفه؟ ما يقوله قَرخ صحيح: لا يمكن أن تعمل خيراً إذا لم يكن في قلبك خير. ثم لا أتذكر منذ أن عرفته أنه نسي الله ساعة وغادر قلبه حتى لو كان كافراً. واسمع ماذا يقول: دعاؤنا إلى الله واحد وإن اختلفت صلواتنا. وأعجب العجائب ما قاله لي ونحن ذاهبان لجلب التراب: الله يفهمنا حتى لو تكلمنا بلغات مختلفة إليه، وإن وافقنا على نوايانا حقّقها لنا. وهو ما يقوله قَرخ: مع أن الأديغة والترك والشيشان والعرب يتكلمون لغاتٍ مختلفةً فهم يدينون بالإسلام نفسه، والله يسمع دعاءهم...

- لماذا يا فيدور لا تريد أن يسمعنا والدنا؟ سأل صبح وهو يتذكر ما قاله في شأن والده، وأضاف بسرعة: - إذا كان الله يسمع الأقوام المختلفة ذات الألسنة المتعددة ويفهمها فلماذا لا يسمع والدنا ما تقوله له؟

- ماذا قلت يا صبح؟ - سأل فيدور خارجاً من أفكاره التي داهمته. وأجاب متسائلاً عما إذا كان فهم مغزى الكلام: - أتتكلم على والدك؟ - وتابع حذراً من أن يهينه، ومُصلحاً قليلاً من كلامه: - لا أقول إنه لا يسمعني. وأنت ألا تعرف ما تسبّب في من مشكلات إذ أن قومي لم يفتدوني. أظنه مشغول البال بأمور أهم من موضوعي. لا عتب لي عليه.

- لا تقل لي يا فيدور إنك لا تعتب على من يسلبك حريتك. أتعرف ما سمعتُ قَرخ وغيره من المسنين الحكماء يقولون؟ يقولون إنهم يتصدّون لقيصر روسيا لأنه يسلبهم حريتهم الأزلية ؛ في حين لا تعتب أنت على والدنا!..

- الموضوع الذي تتكلم فيه هذه اللحظة يا صبح - ابتسم فيدور رغم أن فطنة

الشباب تُرضيه - موضوع كبير بين بلدين... وما أتكلم فيه أنا...

- يا فيدور! - قاطع صُبح ما كان يريد الرجل أن يقوله، خجلاً من صوته المرتفع: - حرية الإنسان لا تتحمل أن تكون موضوعاً صغيراً أو كبيراً!.. لا أوافقك!..

- لا أعرف يا صبح، لا أعرف ماذا تريد أن تقول.

- بَمَ يعيّرُك والدنا حين يغضب منك؟

- ألم أقل إني لا أعتب على والدك يا صبح! لماذا أقول ما لا فائدة فيه؟

- اسمع إذن ما يقول: هاجتمونا ونحن لا نعرف غير الله حتى ألجأتمونا إلى وضعٍ نحمي فيه أنفسنا فحسبُ.

- وسمعه يقول مثل هذا.

- إن كنتَ سمعت فهذا هو.

قطع صبح ما كان يريد أن يقوله. ونصَّ برأسه إذ حُيِّل إليه أنه سمع وقع أقدام. وأنصت: لا شيء يثير القلق في الفناء. كل الأنحاء هادئة إلا صوت اشتعال النار. ولا يفعل الهواء البارد الصادر من تحت الباب إلا أن يذكرك بأن الشتاء يدور في الفناء.

- هل صدر صوت أقدام؟ - شهد فيدور على إنصات الشاب، وأضاف بلا مبالاة: - لو كان صوت أقدام لما نام مشد مرتاحاً هكذا... حقاً يا مشد؟ نظر إليه الكلب بعين واحدة ورأسه بين قائمتيه الأماميتين، ولم يتحرك. ثم يا مشد، نعم! أيكون موعد عودة جاقز؟ ليس من عادته أن يفوّت صلاة العشاء.

- والدنا لا يفوّت صلاة العشاء. كانت خطته أن يتوقف في طريق عودته عند الجامع. وأنتم يا فيدور أليس في دينكم صلاة عشاء؟ سأل صبح فجأة. وعادا بلا شعور إلى موضوع الدين.

- نحن نذهب إلى الكنيسة قبل موعد صلاة العشاء. قال متردداً في افتتاح

موضوع صورة الإله التي كان فقدوها وسببت له القلق، ثم وجدها فجأة في الخريف. - نختتم بزيارة الكنيسة المسائية إخراجنا لوجه الله.

- نحن، مسلمي الأديغة، نقف أمام الله خمس مرات في اليوم. - قال صبح معتقداً أن دينه يفوق الأديان الأخرى.

- لا يعني كلامي أن مثلونا أمام الله يتوقف في المساء - أصلح فيدور كلامه بسرعة، وأضاف مع مزيد من القناعة: إن احتفظت بالله في قلبك دائماً، لا تنساه، بقيت ماثلاً أمام وجهه ورعاك بعنايته.

- يا فيدور ما قلته بالضبط هو ما يقوله ديننا عن القيامة. ما يقوله دينكم وديننا - اغفر لي يا إلهي إن كنتُ مخطئاً - هو هو. ولكن هل تعرف ما لا نفهمه يا فيدور؟

نظر فيدور عميقاً في الشاب لا يعرف ما سيقوله له، مستكثراً الدقائق القليلة التي انقطع فيها الحديث:

- أتعرف ما لا أفهمه يا فيدور؟ - كرر صبح سؤاله، واختتمه بطريقة تعجز معها عن الإجابة ولو كنت سلطاناً: - إذا كانت تعاليم دينكم وديننا متطابقة، وإنسانييتكم تطابق إنسانيتنا، فلماذا تحاربونا؟

- لا أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال يا صبح.

- وأنا أسأل يا فيدور لأني لا أعرف. ولست وحدي المشغول بهذا السؤال، بل أسمع المسنين يتداولونه في الجامع.

- أيقولون في جامعكم إن ديانيتنا تتطابقان؟ سأل فيدور عما يريد هو ولم يجب عما سُئل عنه.

- لا، لم يكتف صبح ما في قلبه - أنا وأنت فقط من يقول هذا. المسنون يقتلونك إن قلت هذا في الجامع.

- وهذا صحيح، لن يسمحوا به في الجامع.

تفكير هذا الشاب يصل إلى بعيد خلافاً لما أتوقع. قال فيدور. يتأملني بسحنةٍ متسائلةٍ قائلاً: لم تُجبني عن سؤال. كيف يمكنني أن أفيدك في هذا؟ أكنتُ أجلس أمامك هكذا لو كنت أعرف جوابه؟ وأنا عندي أسرة كسكان قريبتكم ويتظرني ولدان من جيلك وأصغر منك. وها أنتم تنتظرون نهاية الشتاء لتستقبلوا الربيع. ورائحةُ روث البهائم تدفعني إلى الانفعال حتى ليسيل دمعي وإن كنت أكنتم عنكم. وعرباتي وزلاجاتي تنتظرني، وشوكاتي الحشبية ربما صدئت. صحيح أن كلافديه ماهرة في هذه الأمور، ولن تدعها مهملة. وكيف تُعيل الأسرة إن لم تستعن بهذه الأدوات؟! وهل تعمل جارتكم المسكينة عائشة أعمال الرجال برغبتها؟.. هذا هو يا ولدي ما جرى لنا... وأنت تسأل لماذا تحاربوننا... لم يترك فيدور صبح دون جواب رغم أن الأفكار المتسارعة المتناقضة خضت كيانه، ورغم أنه ماطل في الإجابة عن سؤاله:

- هذا ما لا أعرف كيف أشرحه لك يا صبح... لا أستطيع القول إن المسنين الأديغة والمسنين الروس ليسوا حكماء. الناس الذين أيدهم في الأرض، من أيّ قوم كانوا، ومهما اختلفت لغاتهم، لا يمكن أن تختلف أهداف حياتهم. ألا يعملون في الأرض؟ أليس عرق جباههم واحداً؟ من أجل ماذا يدعو هؤلاء إلى الله؟ أليس من أجل أن تزدهر محاصيلهم، من أجل أن تتكاثر مواشيهم، من أجل صحتهم، وماذا بعد؟

- من أجل أن يعيشوا في سلام، - وافق صبح مرتاحاً لما يسمع.
- صحيح. هل ترى كيف تتطابق أهدافنا؟ ولكن ما لا نتفق عليه هو ما نتحارب لأجله. أفهم أننا نحن من يحاربكم. أتعرف ماذا قالوا لنا حين قرروا إرسالنا إلى هنا؟ الأديغة يتخذ الترك والإنجليز على هذه المسافة أرضهم حدوداً لهم على بلادنا، ونحن لن نسمح لهم. لن نسمح لهم أن يخذلونا...
ضحك صبح.

- ترى ما يحدث الآن، لم تجبني - أنهي فيدور كلامه - ماذا يمكن أن تعلق علي؟

جلس الاثنان اللذان اصطدما بالحائط المسدود الذي لا مخرج منه، بل لا منفس فيه، لأياً لا ينبسان بنت شفة. كان قلب صبح مرتاحاً أكثر مما كان عليه قبل النقاش وإن لم يجدا طريقاً لمتابعة الحديث بينهما. ولكن هل يمكن أن تجلس وكأن في فمك ماءً تتبادل النظرات مع محدثك؟ أثار صبح ثانية تنمة الحديث الذي لم يكتمل، وما زال يشغله:

- يا فيدور، لا أفهم طريقة صلاتك مع أن دعاءنا ونوايانا متطابقة. نحن نتوجه إلى القبلة متى نوينا الوقوف في حضرة الله، وأنت لا تتوجه إلى جهة معينة بل تكثفي برسم الصليب.

فهم فيدور السؤال تماماً ففرح:

- نحن نقف في حضرة صورة الإله، ونصلي له. ونرسم الصليب. ونُعزّه. ونومئ إليه بالاحترام.

- هل هناك صورة للإله؟ سأل صبح مستغرباً ما سمع.

- وكيف لا تكون له صورة؟! صاح فيدور - إنها على جدراننا يضيئها ماء الذهب ويشع منها النور حتى تُثِيرُك وتُدْفِئُك. ويمكنك أن تحملها إذا سافرت. وهناك صورٌ يمكن أن تفتحها وتغلقها. وكان عندي منها... وفقدتها لما وقعتُ في الأسر.

انتصبت أمام عينيهِ صورة الإله الذهبية التي تحت وسادة والدته فامتدَّع لونه تماماً. وفيما هو يبحث عن ذريعة للانصراف ارتفع فوق القرية صوت المؤذن يدعو إلى صلاة العشاء.

- حان موعد صلاة العشاء - نُحْضُ صبح.

- ألا يجوز أن تصلي عشاءك هنا يا صبح إن لم تعترض على أن المكان

حظيرة؟ - قال فيدور ثانية يريد أن يتأكد إن كان ضيفه يود متابعة الموضوع بعد الصلاة ليعرف إن كان تفهّم المسألة. - ها هو ماء الوضوء جاهز، ووراء الحائط تبّن نظيف يمكن أن يحل محل سجادة الصلاة.

- لا مشكلة في أن تمثّل أمام الله في إسطنبول أو غيره يا فيدور. ولكن لا تؤاخذني لا أستطيع الوقوف في حضرة الله على مرأى من كافر...

VI

قضى صبح مساء ذلك اليوم واليوم التالي، وحتى الشهر الأخير من الشتاء لا يجرؤ أن يطلب صورة الإله من أمه. ليس لأن شيئاً ما كان يقف في طريقه بل خوفاً أن يصدّمها إن طالبها بصورة إله المسيحيين التي تحتفظ بها بعناية تحت وسادتها وهي المريضة، فلا يعرف كيف يتصرف معها. إن أخفاها عنها أثارت ضجة كبيرة في البيت بحثاً عن الفاعل. وسيتورط، ليس هو، بل فيدور، في مشكلة لا مخرج منها إلى الأبد. وإن لم يتهموه فمن في أسرة برّاد يمكن الشك فيه. ووالده ووالدته يعرفان أن الصورة لفيدور إذ كانت أُخرجت من حقيبتها.

وحين كان يُطلب من عُشخان حين تتأمل الصورة المذهّبة أن تعلقها بالجدار فتزين الغرفة كلها، كانت ترفض، وتمسحها بقطعة قماش ناعمة نظيفة وبكل حرص، وتعيدها إلى مكانها.

بعد المساء الذي شكّ فيه صبح في الصورة رآها بيد أمه، ليس مرة أو اثنتين، غير أنه لم يجرؤ أن يشرح لها. لن تقبل جماعة المسلمين بموضوع الصورة التي دخلت البيت إن عرفت بالأمر. والأسرة عرضة للأقاويل من دون هذه الصورة: عندها أسير روسي. سيتهمونها بالتحول إلى الكفر، وستصبح مضغة في أفواه الناس. ومن حظ عُشخان أنها لم تُطْلِع عائشة على الصورة المخبأة. - كثيراً من المرات خطر لها أن تقوم بهذا.

قال صبح: يبدو أنني أذنب بحق والدي. أتركها تتأمل صورة إله من لا نتقبّل

دينه بذريعة الإشفاق عليها. عمل المعروف إصابة هدفين معاً كما يقول والدنا حقاً. تكسب بأحد الحجرين وتخسر بأحدهما. لم يصارحني فيدور تماماً ولكن ما رواه لي هو الصورة نفسها التي تحتفظ بها والدي، هي التي ستؤدي بك إلى جهنم حتماً. أيها البائس ما ذكرته لي وأنت تظن أنك تسدي خيراً إلى نفسك ورطك أنت، وجلب مصيبة لأمي. وهل أنتما وحدكما؟ أنا والدنا مسؤولان. غير أن أصل المشكلة في والدي. جاء بالأسير الروسي إلى البيت وأدخل كيسه إليه... وعند الحاجة يغضب والدنا علينا ويتشفى بنا. ما الخيار الأفضل أمامنا؟ كان الأفضل أن نطوي أنا وأمي الموضوع دون إشراك والدي. كيف؟ هو متورط في هذه المسألة أكثر من تورطنا نحن. إن أخفينا الصورة فسيسألنا أين ذهبنا بها، وإن أعدناها لصاحبها اتهمنا بتأسيس كنيسة في دارنا. علينا وضع نهاية لهذه المسألة مهما كانت النتائج. ووالدتنا؟ ماذا سيحدث لها متى عرفت حقيقة ما تُعزّه؟ وهذا أقوى ما يلجمني... لولاها ما أ بقيت على صورة إله الكفار يوماً واحداً في بيتنا. ما العمل يا ربي؟ أعني! أنت من يعيد الضال إلى جادة الصواب، ومن يعيد البصر إلى عينيه، ومن يرحمنا. هذا ما يقوله لنا أفندينا قايمت باسمك. ونحن نصدقه، ونحفظه في قلوبنا. ومتى عدنا فأنت موئلنا. لا تؤاخذ والدتنا، إنها امرأة سالحة. لا تفوت صلاة، ولا تقصّر عن صدقة، مخلصه لك. لم تكن عندها فكرة عما قدموها لها فأخذتها. ومن أعطاها لها هو والدنا. ولو عرف هو الآخر فأنا شاهد على أنه حريص على ألا يدفع أقرب الناس إليه إلى الخطأ. وأنا أرى والدي مخطئاً إذ مدّ يده إلى الكيس الغريب والكيس كيس كفار... نعم، نعم، كان عليه ألا يفعل هذا. ولكن ما العمل؟ لم يُطق صبراً... كانوا هجموا علينا يهبوننا، وأمام هذا المسكين قتلوا أخويه. وها هي عاتشة ترمّلت، وأمثالها كثيرات... اغفر لنا احتواء دارنا على كافر وتناؤله من طعامنا. وهذا البائس ليس إنساناً طالحاً لولا أنه كافر. إنه في ضيق كما نحن في ضيق...

ولكن اغفر لي إن زللتُ في الكلام... أعرف أن مصيبتنا جاءت من وراء هذا الكافر اللعين...

- يا ولدي، يا صبح - تنادي غوشخان ابنها الذي يتفقد نار الفرن - ألا تسمعي؟!

- ما الأمر يا والدتنا، هل تنادينني؟ - سأل صبح ولم يُفّق بعدُ من أفكاره الثقيلة.

- ناديتك يا ولدي أكثر من مرة؛ أهنأك ما يشغل بالك؟

- أنا؟ وما الذي سيقلقني؟

- هناك ما يقلقك يا ولدي. ألا أراك؟! منذ الشهر الماضي طعامك قليل، نومك قصير، ووجهك شاحب، مكتئب.

- لا تتهميني يا والدتنا بما ليس في!

- حسنٌ إن كان هذا رأيك. ولكن الأم لا تخطئ يا ولدي. لا تكتم عني إن كنت تتألم من شيء، أخبرني! أنت الوحيد الذي رزقنا الله به... إن كان والدك غضب عليك فتحملهُ؛ قائمة البقرة لا تقتل عجلها. والدك نَزَق. ولكنه سريع العودة إلى طبيعته. ولكن لا أعرف أنك فعلت ما لا يجوز... وإن شككتُ في أصدقائك فهم مخلصون لك.

- يا والدتنا لماذا تستجوينني اليوم؟ نهض صبح ليخرج من الغرفة.

- لا يا ولدي، لم يخطر لي مثل هذا... - تفزع عُشخان من ثورة الولد، فتخاطبه برقة: - ها أنت يا ولدي تُثبت صحة هواجسي نحوك. تغيرت طباعك... يا ولدي إن كنت تطلب رضاي فكلْ أفراس الشلامة هذه.

- أليس منذ لحظات تناولتُ طعامي يا أمي؟! - لم يتناول صبح ما مدّته أمه إليه، وإن أعادته كلماتها إلى وعيه.

- ماذا أكلت؟ - غمغمت عُشخان وهي تسأل نفسها - شربت بعض

الشاي البارد، وأكلت قطعة من الشلّامة خائفاً أن تعلق في حنجرتك. توقف لحظة يا ولدي. - أخرجتُ صحن شلّامة - أطيح فيدور هذا القليل منها.

تناول صبح الصحن من أمه والاستياء بادٍ عليه.

لم يتأثر صبح بجو بداية الربيع الجميل. ولما رأى فيدور يتشمس على جدار الإسطبل قال له بجفاء خلافاً للعادة:

- أظنك صرت كسولاً منذ أُطلقت ساقاك، تستريح على دفء الشمس!

- انتهيت يا صبح من أعمال الدار، وها أنا جالس منذ لحظات فقط. - ردّ فيدور بلهجة لطيفة على كلمات صبح القاسية لا يعرف تعليلها.

ولم تردع هذه اللهجة صبح، بل ازداد جلافة:

- لا تُثرثر! كُل ما في الصحن، وتابع أعمالك!

ما الذي جرى لصبح حتى تخلّق بأخلاق والده؟ قال فيدور، ولم يعلّق على الأمر المشدّد الموجه إليه.

تأمل صبح بعض الوقت الدار من على المسطبة كما اعتاد والده أن يفعل. ولكنه لم يجد عمالاً غيرَ منجَزٍ يتذرع به. تبدو من البستان الأرض التي عزّرها الحريف سوداء. وفي الزوايا غير الضاحية للشمس بقايا أكوام من الثلج الحشن كأنها تحسد ما على قمم الجبال، وقد خالطها الوحل. والغابة الملاصقة لبستان آل بَزَاد تبدو سوداء عارية بعدما نجت من الشتاء. وإن نظرت إلى يمينك رأيت وسطَ زاور حابله التي فرّقتها المنحدرات الصاعدة - النازلة منارةً الجامع تعلوها. وأطرافُ الجبل المطل على قرية زاور حابله التائهة وسط بلاد الأدبغة تمرّق السحب الضالّة، تبعد نحو "عُرْج" يلحق بعضها ببعض فلا تُفلح، وتعلم أن النهاية بانتظارها.

القرية التي أفاقت مع شروق الشمس تعيش كما تريد. وكما تتفاوت تصاميم بيوتهم ومواقع أراضيهم وطريقة عمار أسوار بسايتينهم تتفاوت أدخنة مواقدهم في

الصباح. وأما طريقة نباح كلابهم، وصياح ديكتهم، وخوار أبقارهم فمن السهل تمييز الدار التي تصدر منها. ومن المَحْدَدَة القريبة من الجامع يصدر طرق السندان كلحن يتداخل ثم يتباعد. وديكة عائشة العضوضة تردّ من مدة أخرى كالهَبْل، وبأصوات مبحوحة، على صياح ديكة قرية مجاورة.

وعالم الجبال العاري الذي ينوي الربيع كسوته يتغير، ليس من ساعة إلى ساعة، بل من دقيقة إلى أخرى. وهو مركب بطريقة عجائبية لا يفهم أسرارها غيره، حتى إنك لو جلستَ تراقبه لما أدركت كنهه. وتغيّر الألوان، وإن لم يكن لاثقاً بالإنسان، جميل في الطبيعة، لا يسمح للعين البشرية أن تملّ. يُفرح الإنسان، ويجعله ينتظر القادم الجديد من التغيرات، بل هذه التغيرات هي أساس الحياة.

ليس صبح في مزاج حسن وإن كان صباح الربيع جميلاً.

حين لم يجد فيدور ما يعمل في الفناء توجه إلى البستان يقتلع جذور الذرة الصفراء الناجية من الثلج. ينظر صبح إلى جهة فيدور الذي يدير ظهره القوي. ومع أنه يبدو كمن هجم على امرئ بريء فأساء إليه فإنه لا يجد راحة بال غير عارفٍ ماذا سيفعل بصورة الإله المسيحي التي تحتفظ بها أمه. ينزل من المسطبة ويخرج من الدار، وهو مهموم بتأخر والده الذي شعر بالشوق إليه في الجامع. ثم يعود ويرتج الباب.

لا يطيق صبح طريقة عمل فيدور في البستان. من جاء بك إلينا؟ أيُّ مصيبة رميتنا فيها؟ لا أوافق والدنا على موقفه منك ولكنه يتعامل معك بما تستحق. اقتحمت عالمنا ونحن لا نعرف من أنت ولا أصلك فمزقت تفاهم أسرتنا. ثم أشفق على هذا! لا يستحق الرحمة من يتسبب لوالدتنا المسكينة في ارتكاب المعصية!

- هيه يا فيدور، ألسنت من أكلّمه! - ينادي صبح نحو البستان - انفضّ التراب عن جذور الذرة الصفراء. لم تترك تراباً في أرض البستان.

ينظر فيدور نحو المسطبة ثم يحنى رأسه المتين المرتكز على قامة صلبة. ومرة أخرى يعود فيكرر نفث التراب عن الجذور. تنحدر دموع الشعور بالإهانة من عيني فيدور رغماً عنه وهو يخاطب نفسه: ما الذي جرى للشباب، الوحيد الذي كان موضع ثقتي وأملتي؟ ماذا فعلت به لينهشني؟ ولكنه يكتفم شعوره. فيزيد من سرعة عمله، ويتقدم في إنجازه.

- يا صبح، يا ولدي، - خرجت عُشخان التي سمعت الكلام القاسي - لماذا تتحامل على هذا الرجل؟

- هذه أنتِ يا والدتنا؟ النفث صبح إلى أمه، وردّ عليها بما يعني أنك تُسمعين الأسير كلامك - لماذا ترفعين صوتك؟

_ أنا من يتكلم عالياً؟ - استغربت عُشخان.

- ألا ترين يا والدتنا طريقة عمل هذا ال...؟

- نعم أراها، يعمل جيداً. ولكن لا أفهم لماذا تُجبر هذا المسكين على العمل.

- يا والدتنا؛ ألم أطلب منك ألا ترفعي صوتك؟! جذور الذرة اليابسة مناسبة جداً لإشعال النار.

- دَعْك من هذا! لم نصل بعدُ إلى هذا!

- ما الذي تتنازعان عليه، الأُم وابنتها؟ سألهما جاقز الذي دخل الدار دون أن ينتبها إليه.

- والدتنا تقول إن جذور الذرة الصفراء ليست صالحة للإحراق... - قال صبح تغلبه اللامبالاة، باحثاً عن مخرج من الموقف الذي هو فيه.

- حقاً. تحترق شيئاً فشيئاً بنار خفيفة، وتترك رماداً كثيراً. ولكن، بغضّ النظر عن صاحب الفكرة، أنا راضٍ عما يفعله هذا الرجل.

- نعم، نعم، يا والدنا، - استعجل صبح راغباً في أن يُطْلِع والده على أنه هو صاحب الفكرة - قلت له: إفعل شيئاً خيراً من أن تجلس تُعرّض جسمك

للشمس.

- هذا العمل كان يجب أن تقوموا به في الخريف الماضي. - لم تتراجع عُشخان، تقول لهما وهي تنصرف - لو قلعتموها في وقتها وفلحتم لكان فيها فائدة للأرض.

- هل سمعت ما عرّضت به والدتك لنا؟ - يسأل جافز ابنه ثم يلحق بمن دخلت البيت... - نعم، يا حكيمتي. لم نفلح لأننا لم نستشرك، وفاجأنا الشتاء!.. أتهزأ أمك ولكن في كلامها لنا نصيباً من الصدق. يقول المسنون: إن حرثت الأرض في الخريف استراحت أكثر. ونحن لا نجهل هذا. نوافق العمل في تأمين ملجأ دافئ للأسير ورحلتي إلى الشابسغ وهبوب رياح عاتية شتائية ففاتتنا. ليست هذه مشكلة؛ المحراث ذو الثيران الأربعة يحرثها في أقل من نصف نهار. ولكن المشكلة في الخبر الذي جئت به.

- ماذا يا والدنا؟

- ليس خبراً حسناً يا ولدي.

- جعل الانتظار الطويل صبح يعيد السؤال:

- ما الأمر يا والدنا؟

- الجيش الروسي تحرك مع الربيع.

- وهل في هذا ما يُستغرب يا والدنا؟ - بدا أن صبح يتصنع الرجولة.

- أقول هذا لأنه ليس مستغرباً. - يتراجع جافز نادماً على أنه كشف قلقه لابنه - لا نريد أن نقتنع، غير أن قيصر روسيا لم يتوقف عن محاربتنا خلال سنوات عمري الخمسين. - أخبرنا الأفندي قايمت أن زعيم الأبراز محمد أمين قادمٌ إلينا.

- وهذا القادم هل سيقبل أن نحتفظ بأسيرنا الكافر؟ قلق صبح لما سمع حتى جحظت عيناه، ونظر نحو والده لا يعرف ما سيقوله له.

- ولماذا لا يقبل؟ - استغرب جاقز سؤال ابنه أيضاً.
- يقال إنه يكره الروس جداً.
- ومن يجبهم!.. - تنهد جاقز ومنظر أخويه القتيلين أمام عينيه. وقال بعد قليل وعيناه نحو فيدور: - لا يجوز إخبار هذا بالأمر. لا أقصد أن أحداً لا يحب الروس.
- وما الذي لا يجوز أن أخبره به إذن؟
- زحفُ الجيش الروسي.
- نعم، فهمتُ... أليس الأفضلُ إعادةَ القيد إلى رجله إن كان الوضع هكذا؟
- استعجل صبح بسبب الخاطرة المفاجئة.
- يمكن أن نحرره نهاراً ونقيده ليلاً. - قال جاقز، ثم عاد فسأله مع شيء من الرعب: - أسأل يا ولد إن كنت تتوجس شراً من الكافر؟
- لا شيء من هذا يا والدنا.
- لا بأس إذن. وإلى أين يمكن أن يهرب هذا! إن لم يحاول إلى الآن فلن يحاول مستقبلاً. هيا، نحن رجلان كبيران نتابع الكافر من خلفه.
- حين دخلا إلى البيت تجمّد صبح مما رآه: عُشخان جالسة في قاعدة الموقد تمسح بخرقه ناعمة صورة الإله المسيحي المذهبة ممسكةً بما بيدها. وحين رأت المرأة الرجلين اللذين يعتمران قبعة لم تستطع إلا أن تنهض لأجلهما وإن كان أحدهما زوجها والآخر ابنها. ونصبت الصورة المفتوحة على الطاولة تريد أن تقول لهما: "انظرا ما أجملها!" وبعد قليل، وقد عاد جاقز إلى مجلسه، قالت لهما عُشخان دون أن تتوقف عند وقفة ابنها ونظراته:
- بحق الله تأمّلا جمال هذه الصورة!
- يا أمنا! - صاح صبح - لا تقولي هذا، لا تنظرا إليها، أبعداها عنكما!
- ما هذا الصراخ يا ولد ؛ هل جرى شيء لعقلك؟ ارتفع جاقز من مجلسه

نتيجة صراخ صبح.

- يا ولدي، يا عزيزي، ماذا جرى لك؟ - نهضت غشخان وأمسكت بابنها.
- هذه... هذه... - أشار صبح إلى الصورة التي على الطاولة خائفاً منها.
هذه صورة إله روسي. من نوع الصور التي في كنائس الكفار...

- ماذا؟! - حاول جاقز أن يرمي الصورة عن الطاولة وعيناه جاحظتان ولكنه سحب يده وكأفها أحرقتها - من أخبرك يا ولد إن كانت صورة إله الكفار؟
- يا لمصيتي يا جاقز، ماذا فعلت بي؟! - تذكرت غشخان أن فيدور كان قد وقف أمام الصورة يرسم إشارة الصليب ويحني رأسه احتراماً. وحين تذكرت أنها كانت تسحب الصورة من تحت مخدتها وتلاطفها صرخت ثانية بصوت أعلى.
- يا لمصيتي! خسرتُ آخرتي أمام إلهي الواحد. جلبتُ الويل والهلاك لنفسي! شللتُ يمين من أدخلها إلى بيتي. وأمطره يا ربّ باللعنات!

خرج جاقز مسرعاً من البيت لا يعرف أين يخفي نفسه. ولوح بقبضة صامته نحو فيدور الذي يعمل في البستان، ورجع مسرعاً، وصرخ مرتعباً من لعنات زوجته:

- كفى أيتها المنحوسة، كفى عن اللعنات! أظننتُ أي جثتك بإله الكفار تحفظينه في حضنك؟! أخطأت... لم أعرف... الله يسامح من يعترف بذنبه... سألتك يا ولد من قال لك إنها صورة إله الكفار.

- أخبرني فيدور أنها كانت في كيسه.
- ليُبعد الله الواحدُ الأحدُ فيدور من أمامي! أياكون جلب لنا مصيبة؟ - مرة أخرى استأنفت غشخان سلسلة لعناتها وأدعيتها.

- ألسنت من طلبتُ منها السكوت!.. - نهر جاقز ثانية زوجته، وجلس عند النافذة اليسرى تاركاً مجلسه السابق، مبتعداً عن صورة الإله. ثم قال بصوت أهدأ: - يا ولد، خذ صورة إله الكفار إلى الفرن، أحرِقها، لا تدعني أراها

صاحت عُشخان التي كانت تغسل يديها من دنس الإله وراء ابنها:

- لا تنجسِ الفرن!

يرمي صبح الصورة التي يمسك بها بين إصبعيه وراء الفرن.

- مهلاً، اهدأ قليلاً - يعود جاقز إلى وعيه - وأنت يا ولد اجلس هنا لحظة، وأنت أيضاً. لا أريد أن أضجّم الموضوع، ولكن ماذا جرى لنا؟ لماذا نتشاجر من أجل شيء أدخلناه البيت ولا نعرف حقيقته؟ هذا الشيء الذي وراء الفرن تستطيع أن تحرقه وأن تمزقه وأن تطأه برجليك. لا تدعونا نفعل ما ليس من حقنا بحجة دين الكفار. أتأمل من الله الذي ييتهلون إليه ولا ييتهل هو أن يغفر لي ما فعلت. ولا أعرف إن كان سيغفر لنا أن نعبث بمن يُعزّه غيرنا... ومع ذلك دعونا نفكر في الخروج من المصيبة التي جلبناها لأنفسنا...

ساد البيت هدوء قلق. تبادل أصحاب البيت النظرات وكلّ مرتاح في خوفه الخفيّ. وحين تأكد جاقز أن أياً من الاثنين الجالسَيْن أمامه لن يفتح فمه بكلمة تابع كلامه:

- لا تدعونا نسيء إلى أحد. ولا نذنب بحقّ أحد. صورة الكافر هذه، أنتِ من أسألها، هل أريتها لجارتنا الأرملة عائشة؟

- يا لحسن حظي إذ لم أرها لها! - صرخت عُشخان، وأضافت خجلة: - لم أتِ على ذكرها لأحد لأنّي ظننتُها مصنوعة من الذهب.

- وأنت يا ولد؟

- لم أقل لغيركما.

- إذن - قال جاقز حازماً - أعيّدوا صورة الإله الكافر إلى من خرجت من كيسه. وهنا ننهي المسألة. ومادام الله الواحد شاهدنا فسيغفمنا، سواء كنا على حق أم لا. الله يعرف ما جرى لنا. لا يجوز أن يعرف به غيرنا. وأنت يا ولد

إليك ما يجب أن تفعله: هذه الليلة ما إن تهدأ حركة الناس تعيد الصورة إلى كافرنا، وتسلمها إليه كأن شيئاً لم يحدث.

لم يعلق الابن والأم بشيء على ما قال رب الأسرة.

حين عاد صبح من لدن فيدور في المساء وقد نقّذ ما طُلب منه لم يستطع إلا أن يتجسس من على ثقب السور بعين واحدة: يقبّل فيدور بلا وعي صورة المسيح الإله، ويرسم الصليب، ويومئ بشارة الاحترام. ثم ينصبها شيئاً فشيئاً ويركع أمامها على ركبتيه...

VII

كل من يلبس قبعة في قرية زاور حابله متجمعون أمام باب الجامع مع أن الوقت هو وقت أشغال الربيع. يستمعون إلى النائب الثالث لشامل الذي أرسله إلى الأبراخ من بلاد الداغستان. الرجال يستمعون مباشرة، والنساء المسنات يستمعن واقفات إلى الجدار، والأصاغر سناً كذلك. ورغم اقتراب الاجتماع مع زعيم الأبراخ إلى نهايته فلا أحد يتحرك. ومن تحت الشجرة ينظر فيدور الذي لا هو من لابس القبعات، ولا من لابسات غطاء الرأس، ولا يعرف إن كان سيُقبّل منه ذهابه إلى الاجتماع.

يتحدث مُجد أمين واقفاً على مسطبة الجامع عن الحرب التي يشنّها قيصر الروس على الأديغة. يصرخ أحياناً بصوت عالٍ في غمرة حديثه عن الوحدة والرجولة والحرب الظالمة، فيُشهر الجمهور خناجرهم، ويؤيدونه مرددين "الله أكبر!" وحين يتوقف صليل الفولاذ يتابع مُجد أمين كلماته النارية. وفي اللحظة التي يجد فيها المجتمعون بعض الراحة يدفعهم بحركة يد عنيفة مفاجئة إلى أن يصرخوا مجدداً، فتتوجه النساء بالدعاء إلى الله.

منذ زمن بعيد يسمع فيدور بأخبار زعيم الأبراخ، قبل أن يقع في الأسر وبعده. ولكنه يراه اليوم لأول مرة. لم يكن رجلاً متقدماً في السن جسيماً كما كان

يتصوره. من هيئته يبدو متناسق القوام. والكساء الأديغي على مقاسه. وجهه نحيف كثر اللحية والشاربين. ربما يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر. صوته حاد، يتصرف باللغة الأديغية كما يشاء. ويشعل الجمهور حماسةً.

ومن مدة إلى أخرى ينجم في صدر فيدور خوفٌ يجعله يندم على مجيئه إلى هنا. قال فيدور بينه وبين نفسه: لولا أن عُشخان نصحتني أن أحضر الاجتماع وأسمع المتكلمين، ولا سيما أن النائب لا يحضر كل يوم، لما جئت إلى هنا. لا يجوز أن تعتب على الجمع الذين يشهرون خناجرهم من حين إلى حين. كلٌ حريص على حريته، ويحمي نفسه. لا تساومهم على أرضهم، لن يتنازلوا عنها ولو دفعوا حياتهم مقابلها. كيف أفهم هؤلاء ما في قلبي ولو أُنِي لستُ عدوهم؟ بأي كلام أفهم جاقز الذي قتلوا أخويه أمامه؟ ومع ذلك هل تتهم الإنسان بما ليس من ذنبه؟ ها أنا ذا أتجول حرّاً في داره، وفي بستانه. نذهب ونخطب معاً، وأحياناً أذهب إلى عند قَرَح، لا أعرف غيره. وإن امتلأ صدره غضباً فتشقى مني غفرتُ له. ما أُملي في الحياة؟ حين لا يكون أمامك الخيار فما تتظاهر به أكثر مما تقوله. وعائشة الأرملة المسكينة؟ ها هي تقف وراء النساء الأكبر عمراً. وأظنها رأيته، وتنتظر نحوي. يروون أن زوجها كان رجلاً ممتازاً يعجز اللسان عن وصف إنسانيته. لم أكن أصدّق والدي حين كان يقول: "الحرب المشؤومة مركّبة بطريقة عجيبة" تصرع الخير، وتنصر الشر. لا تفهم الخير والشر إلا بالتجربة. ها هي عائشة المسكينة نظرت نحوي مرة أخرى، هذه المرأة لا تحتاج أن تروي لها مصائب الحرب. منذ عرفتها لم تناس الخير مهما قاست من مشاق، ولم تسمح للشر أن يغلبها. ومع ذلك كيف ستُفهم هؤلاء الذين عانوا من عذاب الحرب وقضى كثيرون منهم برصاصها مأساتي أنا؟ عائشة المسكينة تتصبر وإلا فلا أظنها لا تتذكر زوجها حين تراني. وجاقز أيضاً. هو الآخر يتفصى من أحزانه أحياناً بأن يصبّ حقه عليّ. والآخرين الذين سقط

أقرباؤهم ضحايا يحدث كثيراً أن يهددونهم بقضائهم في طريقي إلى قرخ أو إلى الاحتطاب، أو في خلال عملي في البستان. الأفضل لي أن أنجو بجلدي قبل أن تشتعل نار الكراهية تماماً لدى الأديغة.

لحظة فكر فيدور بالانسحاب من وراء الشجرة أوقفته حركة إشهار الجمع لخناجرهم. وهاجمته الفكرة التي لم تخطر له قط. وبدأ سؤال يتلو سؤالاً. ما الأمر؟ ألم يظهر رجل من بين الأبراخ فيصبح القادم من الداغستان زعيماً عليهم؟! سمعت كثيراً بسيرة الناس الصالحين. فيم يتأخر تسي إبراهيم¹ عن هذا الواقف على المسطبة الآن؟ لأنه لا يلبس قبعة حج بيضاء كالنائب؟ لم يخل الناس بذكره. ومع أن الأبراخ تغلبهم الحمية كسائر أعراق الأديغة، فهم سليمو الطوية، من السهل كسب ثقتهم. وفيما هم يمتدحون الزعماء الذين ظهروا من بينهم يميلون إلى الموفد الذي جاءهم. انظر كيف يُخضعهم من لا يعرفون أصله لمجرد أن شامل أرسله... وكما أن أهل الأبراخ العليا عندهم تسي إبراهيم فعند الأبراخ الدنيا رجل زعيم اسمه نيكراس ميشك². كان بودي أن أقابله لأني سمعتهم يقولون إنه من أصل روسي ولكن من اتخذ أبناء قومه أعداء - حماك الله من أمثالهم - لن يفهمك أبداً. وعلى ما يصفونه فأنا أفضل عليه جاقز مئة مرة...

- من هذا الواقف وحيداً عند الشجرة لا يخالطنا؟ - سأل مُجد أمين حالما انتهى من كلمته. وأدار الرجال الممثلون حمية، بمن فيهم جاقز وصبح ودوداي وقرخ، رؤوسهم نحوه.

- هذا كافرُ بَراد - قال أحد الرجال.

¹ أحد أبطال رواية المطرودون وأحد زعمي الأبراخ بعد مُجد أمين. ألقى بنفسه في الوادي على حصانه.

² هو من أصل روسي كما سيأتي، التحق بالأديغة وأسلم.

- وعلام يتنصّت؟ - أشعل النارَ غيره.
- اتركوا المسكين! - ساهم ثالثٌ في الحوار.
- تقدّم إلى هنا! - أشار مُجد أمين إلى فيدور بطرف السوط، ثم نظر في حشد الرجال، وقال لهم: - وليُخرج مالِك الكافر!
- فارق فيدور أسفل الشجرة راسماً إشارة الصليب، داعياً إلى الإله، معاتباً نفسه: أيُّ مصيبة جاءت بي إلى هنا؟ ونظر إلى الجهة التي تقف فيها عائشة، وضاع منه مَنْ لم يكن يرى قبعته بين كل الرجال قرُح، وصبح ودوداي أيضاً. ماذا يريد مني هذا؟ وماذا سيفعل بي؟ لو عملت بنصيحة عائشة أن أختلط بالرجال لربما لم ينتبه إليّ من يستدعيني الآن. وهل أنا المشكلة، بل يصفّ جاقز معي. ماذا ينوي لنا؟ أرحمة أم ظلماً؟ يا رب ارحمنا كلينا جاقز وأنا.
- تباعده حشد الرجال كأنهم انشقوا، وفتحوا طريقاً لفيدور. ووقف أمام النائب دون أن يعرف إلى أين يذهب، ولماذا. ووقف جاقز دون أن يرى النظرات المختلفة التي يرميه بها الواقفون. وفي الناحية الأخرى، وعلى مسافة أقرب إلى مسطبة الجامع. - يتفهّم فيدور سُخطه عليه ولكنه لا يستطع احتقار من لا يُكرّر له الود.
- من أين أنت؟ سأل النائب.
- نسبتي أناكسيفيتش واسمي فيدور دانيلوفيتش.
- هل تعرف الأديغية؟ استغرب زعيم الأبراخ ما يسمع.
- إن كنتَ تفهمني فأنا أعرفها - حدّق فيدور الآن في عيني النائب السوداوين المائلتين إلى الصفرة.
- كيف تعلمتها بهذا الإتقان؟
- عندما تجد نفسك مضطراً تتعلم.
- ابتسم النائب.

- وإن لم تُضطرّ؟

- إن لم يكن من وقعتَ بينهم أعداءك تعلمت لغتهم.

تذكر أسلاي¹ أنه وقع مرة وهو صغير بين الأديغة فتعلم لغتهم. وفرح بها أخيراً إذ حملها في قلبه طوال هذه السنين لم ينسها. وألقى نظرة رضا على الأديغة الواقفين أمامه وقد امتثلت لعينيه صورة أبيه وأمه ورفاق طفولته. ثم أعاد النظر في فيدور، وقال في نفسه: هذا الذي استدعيته ليس رجلاً سيئاً لولا أنه كافر.

- هذا كلام حسنٌ - كرر النائب كلامه، وأضاف بعد سكتة قصيرة: - في قلبك خير.

- من الصعب أن تعيش دون خير في قلبك.

- ولماذا إذن جئتنا مقاتلاً؟

- ساقني إليكم عدم حريتي في مصري.

- وهذا كلام حقّ.

- من لا يتمتع بالصدق ضاع من بين يدي الله.

- وأوافقك في هذا أيضاً، - كان بودّ مُحمّد أمين أن يسأله عن إلهه ولكن لم يجد من اللائق توجيه هذا السؤال أمام الحشد الذي ينتظر نهاية الحوار. وربما ما كان أطال الحديث معه لولا أن محدّثه انكشف عمّا لم يتوقعه. - وما دمت إنساناً صالحاً هكذا فلم لم تقف معنا؟

- خفت أن تسألوني عن سبب وقوفي معكم. - أطرق فيدور عارفاً أن النائب رجل ظالمٌ رغم لسانه المعسول، منتظراً ما سيأمرونه به. ودعا بقلبه ورسم إشارة الصليب، وأسرع بخياله إلى الشمال البعيد، وودّع بيته وفناء داره، وأبناء أسرته واحداً واحداً. وانتصبت أمام عينيه صور رفاقه الجنود، الأحياء منهم والأموات،

¹ اسم النائب مُحمّد أمين.

الذين قيل إنهم نُقلوا إلى الشيشان والداغستان.

- حسنٌ أنك تقلق لكل هذه الأمور. - ابتسم النائب أيضاً، وفعل مثله أكثرُ

الواقفين. ولكنه سأله غير مهتم بهم: - أسيرٌ من أنت؟

- ها هو - ألقى فيدور نظرة رضا نحو جاقز، - أنا مُلكٌ ليزاد جاقز.

- أأنت أسيره أم مُلكه؟

- أعد نفسي مُلكاً له.

- لماذا أنت صامت يا جاقز؟ - لم يسأل النائب جاقزَ غير هذا السؤال وكأنه

لم يتذكره إلا هذه المرة، - هل صحيح ما يقول هذا؟

- صحيح أيها النائب، - أجاب جاقز وكأن القرية لا تعرف أنه يتصرف

تصرفاً غير ودي مع أسيره، غير خائف من أن يفضحه أحدهم.

- كنت صدقتك لولا أنني أعرف أن قومه قتلوا اثنين من إخوتك يا جاقز...

إذا كنتم تتبادلان الرضا والارتياح فلن نتدخل بينكما فنكسب إثماً... ولكن يا

جاقز إن كانت حياتكما هكذا فلماذا لا تعيده إلى قومه؟

- هو حرّ أيها النائب منذ الخريف الماضي.

- ماذا قلت لي اسمك؟ - مرة أخرى سأل النائب فيدور.

- الأديغة ينادوني فيدُر، وأبناء قومي ينادوني: فيدور دانيلوف.

- لماذا يا فيدور لا تهرب إذا كانوا حرروك؟

- حرام¹ - أجاب فيدور بسرعة، وقال وهو يرسم الصليب في قلبه خائفاً من

إظهاره: - حرام، عاهدت مالكي جاقز أمام الله ألا أفعل هذا. وإن نقضتُ

عهدي لم يقبل الله مني.

لم يملك مُحمَّد أمين نفسه إلا أن يضحك:

¹ بالعربية في الأصل.

- بَرَاد جاقز مسلم...

- لم يدع فيدورُ النائبَ يكمل ما بدأه:

- وأنا مسيحي، مخلصٌ لديني. مهما اختلفت أدياننا فإنها واحد يُظَلُّنا، وهو عبده.

انتفض رأس قائمت أفندي الذي لم يشارك إلى الآن في الحديث مما سمعه. ونظر إلى فيدور الذي أثار في رأسه أفكاراً متضاربة. قال في نفسه: مَنْ يتكلم بهذه الطريقة، كائناً من كان، إنسانٌ يسكن الله في قلبه. سمعتُ جاقز يتحدث عنه كثيراً ولكن لم أصدِّقه. لأجل هذا يقولون إنك لا تعرف الإنسان ما لم تحتك به. أليس حسناً أن تُهدي إلى الإسلام من يفهم دين الكفار على هذا النحو؟ وسيَرْضَى الله الأُحد الذين نحن عباده عن فَعْلِنَا هذا. سأتابع موضوعه دون تأخير. ولن أفعل معروفاً أفضل منه. وسأستغفر به ربي عن ذنوبي إن كان لديّ ذنوب.

أجفل صوت النائب الحادُّ قائمت:

- أسمعتم أيتها الجماعة ما قاله فيدور حتى لو كان كافراً؟ لا ينسى إله الكفار رغم أنه أسير، ولا يفقد أمله. نحن الواقفين هنا، كلنا، باستثناء هذا الكافر، من أمة الله، وهو أملنا وحامينا. إنه رحيم بعباده، عزيز، عليّ، قيوم على كل مسلم. الله ليس رحيماً بمن جاؤونا يسلبوننا حريتنا. وهو سندننا. وسننتصر على أعدائنا متكلين عليه. رددوا "الله أكبر" ثلاث مرات!

- الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر! - صاح الرجال، والنساء يرددن معهم، ثلاث مرات.

أناكسيفيتش فيدور وحده من كان واقفاً مسبلاً يديه، يرسم الصليب في قلبه، ويدعو خفية إلى ربه. وقفوا تحت سمائهم حيث إلههم المسلم، ورددوا "مين" بعد "فاتحة" النائب، بأصوات متوافقة حيناً، غير متوافقة أخرى، ناسين أن كافراً

يقف بينهم.

وحين انتهوا من اجتماع القرية، بقي النائب على مسطبة الجامع مع بضعة أشخاص يحيطون به في حين أسرع الآخرون إلى أعمالهم الربيعية. وبعد سكتة سأل النائب قائمت الأفعدي:

- أين جافز؟

- نادؤوا بَراد!

سمع جافز اسمه فتوقف واقترب منهم.

- هل تخاف على أسيرك الكافر يا جافز؟ - سرت ضحكة خفيفة على شفتي النائب - أسرع بمتابعته!

- لا يا نائب! قلت لنفسني: انتهينا من اجتماع القرية بعد ما وقفنا أمام الله في صلاة الصبح، فلحقت بأعمالي. إن كنت تحتاجني فأنا أسمعك يا نائب.

- حسن أن يكون عندك ما تعمله. العاقل عن العمل لا يحبه الله. ولكن أهم ما ينتظر الأديغة من عمل في إقليم الأديغة هو الاحتشاد الروسي. ليس أسيرك الكافر رجلاً طالحاً.

- وهذا رأيي فيه يا نائب.

- وما رُتبته؟ لم أسأله. أهو من أصحاب الرُتب الذهبية؟

- لا يا نائب.

- ومن هو إذن؟

- جندي عادي.

- والله لا تصدّق حسب كلامه أنه مجرد جندي. مارأيك يا قائمت؟

- نعم يا نائب، يتكلم بحكمة. - أضاف قائمت بحذر. - كل من في قلبه الله، كائناً من كان، يتصرف هكذا. وأنا التقيت به بضع مرات فكان حكمي كحكمك.

- لو كان عامة الناس كلهم مستهلكين، من أكلة الباستا¹ دون أن يظهر فيهم حكيم لضاقت الدنيا. قال مُحمد أمين دون أن يعبأ بخاتمة الأفندي لكلمته، وعلى مسمع من الواقفين. ثم سأل جاقز بلامبالاة: - هل أنت واثق من أسيرك الروسي؟

- لم يتصرف إلى الآن بما ينبغي ثقتي فيه أيها النائب، - قال جاقز في نفسه: ما طريقة سؤال هذا النائب طوال النهار بما يجلب الهم للقلب، غير أنه أخفى انزعاجه لأنه يعرف طبيعة النائب. أ يكون طامعاً في أن يضم فيدور إليه. إن كان خطر لك هذا فلن أدع عينيك تقعان عليه حتى لو أعدته بيدي إلى قومه. وفيدور، سامحه الله، ما الذي أتى به إلى اجتماع القرية على غير عادته؟ سمحت له أن يخرج من الدار من حين إلى حين فانظر ماذا فعل بي الآن!.. وفَرَح يظل يلاحقني في شأن فيدور يشفع له. أعجيب إن وجدت له دواءً فشفيت له رجله؟! اطلب منه الآن أن يركض تجده يركض ولو ظلع قليلاً. ولن يلتفت إليك ولو تركك خلفه.

- هذا حسنٌ، والأحسن أن يكون المسلم موثقاً أكثر من الكافر... يا جاقز، ألسنت أنت يا مبارك النسل من أتكلم إليه، كفك، عُذ إلى وعيك! - توتر النائب ولكنه تحلّم.

- لا تؤاخذني يا نائب، تذكرت أخويّ، ألا تعرفهما... قال جاقز ما لا يفكر فيه.

- وكيف لا أتذكر من جابه رصاص العدو دون تقصير في واجبه... أليس من أجل هذا أطلب منك ألا تثق بالكفار؟! الروسي يتغير رأيه في اليوم سبع

¹ الأكلة الشهيرة عند الأديغة من الدخن في الوطن الأم، وفي المهاجر من الرز والبرغل. وربما كان الطعام الرئيس لديهم. والكلمة لاتينية، *pâte* بالفرنسية مثلاً، تعني العجين وما هو مصنوع منه.

مرات فاحذر! لا ترفع الكلفة بينك وبينه! - التمتعت عينا مُحمَّد أمين زعيم الأبراخ كجمرتين. وأسمع رفاقه واحتدَّ صوته. - لا تُشفق عليه، اربطه إلى المحراث واحرث عليه. وإن لم يكنه فاطلب منه أن يحفر أسافل شجر البلوط في الغابة. هل سمعت يا جاقز؟!

- سمعتُ يا نائب، وفهمت.

- إن فهمت فهذا هو... لم يُعجبني أسيرك الكافر. يتكلم كثيراً على إلهه. لا ينسَ أننا مسلمون!

نظر قائمت أفندي واجماً في وجه النائب، ثم تحوّل إلى جاقز...

...

كان صبح وفيدور يختفيان وراء المنعطف يتضحكان حين صاحت عائشة في إثرهما:

- ألا تقفان أنتما لحظة! أركض وراءكما فلا الحق بكما.

- هذه أنت يا عائشة؟ - توقف فيدور مسروراً بوقفته - لماذا لم نسمع؟

- كيف يسمعنا، يا عجي، من صار محدّث زعيم الأبراخ! - التقت عائشة مازحة نحو اليسار حيث يقف صبح. وامتدحت ابن الجيران: - أنظر إليكما أنتما فأجد نفسي راضية عنك يا صبح، لا تتناسى طبعك الأديغي في الشارع؛ تحفظ للأكبر مكانه على اليمين. لا يهّم في العادات الأديغية أن يكون الأكبر سناً من عرق آخر. - الاحترام فوق كل شيء. أعرف يا فيدور ما تعجبك منه أنا وعجائز القرية جداً؟ أنك قابلت النائب بجراً، دون أن تتضاءل أمامه. - حقاً أكان يبدو عليّ هذا يا عائشة؟ - ضحك فيدور واختلس نظرة إلى صبح.

- نعم، أقسم بالله. - شهدت عائشة على ما تريد، ثم سألت: - ماذا قال لك؟

- لم يخرج عن حدود الأدب معي. والله شاهدي، وجمع الرجال وكان بينهم صبح. - قال فيدور، وغمز صبح، وسرعان ما واجهه: - رأيت النائب الذي كنا نسمع باسمه ولا نراه رجالاً حكيماً.

- ونحن النساء التقطنا بعض كلماته... غير أننا لم نعرف تعليل أسئلته الكثيرة إليك. - قالت عائشة ما يقلقها دون أن تأتي على ذكر من أئسدي لمقابلة النائب، ولو لم تصرّح. - كنا نتمنى ألا يصب عليك احتقاره...

- أكان يصل إلى هذا الحد أمام جمهور القرية؟ - قال فيدور بين الجد والهزل، وضحك من أعماق قلبه.

- لا عجب في هذا يا فيدور، - جزم صبح الذي لم يساهم إلى الآن في الحديث وقد تغير لونه - كان سهلاً عليه إهانتك!

- يا صبح - بدا على صوت فيدور عتابه - ليس كل الظالمين، واحفظ ما أقول في ذهنك، دون شفقة...

- هذا هو على كل حال - صاحت عائشة فقطعت ما بدأه فيدور، - انظر كيف يراقبنا كل هؤلاء المسنين الجالسين على جذع الشجرة المقطوع! لن يتكوك تمّرين دون أن يعرفوا من أنت إذا كنت لابسة غطاء رأس ترافقين لابس قبعة حتى لو ولدته أمك. ليجرف الطاعون هؤلاء! يا صبح ويا فيدور عندي دجاجة مقلّاة، تعالا تغديا عندي. وإن لم تأتيا فلن أرضى عنكما. - فارقت عائشة الرجلين وهي تُصلّح وضع غطاءها، واتجهت إلى الجانب الآخر للطريق.

...

غاب جاقز عن البيت إلى ما بعد العشاء ريثما سايروا زعيم الأبراخ النائب وودّعوه إلى ظاهر قرية زاور حابله، إلى حيث يسافر. ورغم حرصه ألا تفوته صلاة العشاء لم يستطع إلا أن يُعرّج ولو بضع دقائق إلى حظيرة فيدور.

- فيدور، هل تسهر إلى الآن؟ - حين فتح جاقز الباب مدّ فيدور يده ليعيد

صورة إلهه إلى رف الموقد - لَتَبَقَ في مكانها، لَتَبَقَ، لن تَضْرِبَنِي!

- ادخل يا جاقز، مساؤك سعيد، - أغلق فيدور صورة الإله، واستقبل القادم.

- لن أدخل يا فيدور. لم أصل بعدُ العشاء. ليس لي معك إلا بضْع كلمات.

اليوم أنا راضٍ عنك في حديثك مع النائب. شكراً لك إذ لم تتسبب لي في

إهانة أمام القرية. هكذا يجب أن تعبّر عما تؤمن به. لم أستطع الدخول إلى

البيت دون إخبارك بهذا. - رأى جاقز مصباح الأرملة مضاء، فابتسم وهو

يتوقف - ولكني مستاءٌ منك في موضوع واحد يا فيدور.

- لماذا؟ ماذا فعلت يا جاقز؟ - ارتعب فيدور في سريره.

- تدعُ عائشة المسكينة تقيم في البيت وحدها.

- حقاً؟ - لم يفهم فيدور في البداية ما قيل له، ثم تذكر ذهابهما إلى بيت

عائشة. - أعدت لنا، صبح وأنا، دجاجاً مقلّى فغدّتنا غداء طيباً، كان

شهياً!

- هذا هو؟ - استغرب جاقز ما سمعه ولم يتوقعه. ثم عاد إلى وعيه متناسياً أن

ابنه كان مع فيدور: - حسناً فعلتُ إذ دعّتك إلى الغداء... غير أن ما قلّته يا

فيدور هو أن عائشة تشعر بالملل في البيت ليلاً... ألم تفهم؟!

- ما تقوله حرام يا جاقز، لن يقبل به الله.

- ليست مثل هذه الممارسات غائبة عن علم الله. لا تهتمّ بهذا أيها المسكين!

- فارق جاقز الباب وهو يضحك ضحكةً مرئية.

VIII

منذ ذلك المساء المتأخر لم يعرف فيدور راحة البال. والحق يقال: لم يكن هذا

هو السبب الوحيد؛ فكلما اهتزت الحياة التي لا تستقر في مكان، في الطريق

المختار وغير المختار، انبثقت أفكار لم تخطر لك قط. وبالقياص إلى الموقف

الذي وجد فيدور فيه نفسه فكلها أفكار ومواقف جديدة. الطريقة التي عثر بها

على صورة إلهه، والنائب الذي هَرَّ قرية زاور حابله قبل أيام، وغداء عائشة من لحم الدجاج المقلَّى، وتغيَّر موقف جاقز منه، وإشارة الأخير إلى الأرملة، كلها عناصر جديدة دخلت في حالته.

اليوم يوم ربيعي صافٍ - عالمٌ نسي برد الشتاء. وإذا رجعت أسبوعاً إلى الورااء فالغابة التي كانت ملّت من البرد القارس الذي لا نهاية له تتبدل كل يوم بما يسرّ العين إلى الأخضر. والمرعى في ظاهر القرية ينافس بالعشب الناعم الغابة التي تعود إلى وعيها. وزاور حابله المتناثرة في سفح الجبل، والتي لم يكن يصدر عنها، إذا رجعت أسبوعاً، لا شهراً، أيُّ صوت تسمع فيها الآن أصواتاً متنوعة بقدر ما يحمل النهار الوليد. والعجيب أنه يُحَيَّل إليك أن خوار الأبقار، ونباح الكلاب، وتصاييح الديكة، تبدو لك الآن مختلفة عما قبل الربيع. أما كيفية طرُق الحداد على سندانه فلا تسمعه إلا على شكل أغنية فلاحية ربيعية كأن السندان غير مبالٍ بالحرب الجارية في إقليم الأديغة. - تمدح المطرقة النشيطة في العمل، وتعاتب العاطل عنه. والربيع يساهم في العمل كأنه الصلوات التي يرفعها المؤذن من المنارة، أو الأذان الذي اعتاد الناس على سماعه. والثلج الذائب على القمم القريبة والبعيدة ينقضُّ على الماء المتموج في نهر القرية، ويقفز الموج من فوق الأحجار، يُزيح منها ما يقدر عليه، ويدور حول من لا يقدر عليه دون أن ينسى إيماءة الاحترام. ويمكن أن تحس بأن الربيع يتدخل في حياة الصبيان والصبايا الذين يلعبون في الشارع وقرب جدران الحظائر. ويُحَيَّل إليك أن الطيور هي السبب في قدوم الربيع: من أجلها وبفضلها. - كلُّ طيور تحت قبة السماء على قدر استطاعته، وينقضُّ على رؤوس الأشجار، ورؤوس الأوتاد مستراحها. وسقوفُ الحظائر والمساطب بيوتها وأماكن شدوها، كلُّ حسب مهارته.

بمسك فيدور يد المحراث ذي الثورين بقوة. لا يستعجل ولا يلتفت إلى الورااء. وفوق قطع التراب التي قَلَبَتْها سكة المحراث يرتفع بخار خفيف. والغربان التي

تبحث عن الحشرات تقلبها مرفوفة بأجنحة سريعة وهي تتنافس عليها. والثوران، ولو أنهما غير مهتمين بما يتركان وراءهما، يجران المحراث وقد اُحدودب ظَهرهما، وعلى أشدّاهما الزبد الأبيض. يشعران بوطأة فيدور على يد المحراث، وليست مهمة الأخير بأسهل من مهمة الثورين. وهو حاني الرقبة، بارز الظهر، مشبع بالعرق.

يقول فيدور: ما أحسن ما رتبت لنا يا ربّ هذا العالم العجيب الذي أعددتَه على قدرٍ ما يلائم قاطنيه! هذا يغني فيه والآخر يبكي، والثالث يختفي منه. تزرع حكمتك في كل فصل من فصول السنة، وكذلك في أيامها. يتبع الليل المظلم النهار المضيء. ترسل أشعة الشمس حيناً، ثم تحجبها بالغيوم. تهب الرياح من حيث لا ندري، تحمل معها الجذب، وتنتثر المطر. يصدف أن تُحسن إلينا الطبيعة وأن تجلب لنا البؤس. أنت من يتحكم في البرد والحر والصحو والمطر. ولا أمل غيرك في العالم، بل لا يستطيع أن يكون. ها أنت أرسلت لنا ربيعاً دافئاً بعد الشتاء القارس. كلٌّ يفعل الخير بقدر استطاعته، يُحسن إليك آملاً فيك فيحسن إلى نفسه. هذا الثوران وأنا لا يمكننا أن نعيش إن لم نشتغل. وهذه الطيور التي تتصارع من جوعها ورأي على الهوامّ تحسن إلى الطبيعة بصراعها. اغفر لي أنني أوجع لحم الأرض بسكة محراثي. لو غابت عنها يدنا لغدت بوراً، كتلة من الحشيش...

- إيه يا ثوريّ لا تتكاسلا! - يلاطفهما فيدور - سنفرح غداً، أنتما وأنا، بما نفعل اليوم. إن أمرعت الذرة دقتما من نتاجها. وأكلتما سوقها اللذيذة... يقال إن كلَّ ضيق ينتهي إلى فرح.

بؤسي أنا، يمسح فيدور العرق عن جبينه بطرف ثوبه دون أن يتوقف عن العمل، متى سأتحور منه؟ لا تؤاخذني على طريقة سؤالي يا إلهي، أظن له نهاية كما له بداية. لا تحرمني من الأمل وازرع فيّ القوة. ولا تقطع أمل من

ينتظرونني. ولا تُدخل الشر في قلوب من لا يتقون بي. أنا نادم على أي حلفت لجاقز بصورتك المنيرة التي أعدتها إليّ شاهداً على صديق كلامي. لماذا أقسمتُ له على أي لن أهرب؟! قَيْدَنِي بِاسْمِكَ عَلَى مَا لَيْسَ فِي قَلْبِي. ولكن لو لم أفعل هذا لبقِي القيد الخشبي على رجليّ. فرح الإنسان وحُزنه متجاوران على نحوٍ صعبِ الفهم. لو كنتَ تعرفُ أيُّهما ستصيب... وحتى لو كان الأمر هكذا فأنا راضٍ بما حُمِّلْتَنِي. ولكن اغفر لي مهما فعلت في ساعة اليأس. ألم تر نظراتِ النائب الذي تَمَلَّقَنِي بالكلام المعسول؟ كان كمن سيقتلني وهو ييشّ لي. ماذا قال لجاقز يا ترى حين استوقفه؟ أمضيا النهار كله معاً، ولما عاد عَرَجَ عليّ قبل دخوله إلى البيت، ولم يكتُم رضاه عني. أكون رجولاً إذ يروي جوابي على سؤاله؟ كانت عائشة أتت لي على هذا الخبر... لاتدع القاتل يعرف أنه قاتلٌ إن مثَلتُ أمامه. لا تنس إلهك الأحد فهو من يزرع فيك القوة مهما فعلوا بك، وسيكون سندك... ماذا ينوي لي جاقز بخصوص عائشة؟ ليس لنا في الأشهر القليلة الماضية شاغلٌ سواها. أعجيب إن أعدتُ بناء سورها المتهدم، أو قطّعت لها بعض الخطب، أو جرفت لها الثلج من أمام بيتها؟ ما لا يملُ جاقز من الحديث فيه هو دجاجها المقلّى. إن كان هذا هو المهم فأنا لم أكن وحدي؛ تناولته معي صبح ممتدحاً لِدَنَّتِهِ. أطعمتني عائشة أشياء كثيرة لا تعرفها وليس الدجاج وحده. يقول لي جاقز إنك تتركها تبيت الليل وحدها؛ ماذا تنوي يا جاقز بهذا الكلام؟ إن كنت تقصد أنها بلا رجل، أرملةٌ فهذا ليس سراً. لا تخبرني بما أجهله. أنا أشفقُ عليها، ولو كان الأمر بيدي لأبعدتُ عنها مصيبتها، لا عنها فحسب بل عن كل الأرامل. وإن قلت لي إنك رجل وحيد فأنا أفهم، لا أكتُم أن هناك ما أشتهيه كأَي رجل آخر...

- إيه يا أيها البائس! - يرمي فيدور المحراث جانباً - أرهقْتُكَ في الأرض وأنا أحكي لك أوجاعي. وأنت - يلوم الثور الأيسر وهو يجانبه، يمسح على ظهره

— لن تنبس ببنت شفة. أنت قف الآن في الجانب المحروث من الأرض ودع رفيقك يأخذ مكانك، دعه يستريح قليلاً. كلُّ مخلوق، إنساناً كان أم حيواناً، يستحق الشفقة. هذا ينوء بحمل الدنيا، والآخر يستحقّها. يداً بيد تسيران معاً، ويصبح العمل سهلاً عليكما.

ظهر قرخ وجاقر فجأة من وراء فيدور الذي يتكلم إلى ثوريه. قال قرخ الذي يعرف أن فيدور يحب استقباله بالتحية الأديغية:

— سلام عليكم¹ يا فيدور!

التفت فيدور بسرعة بوجه باشٍ وقد عرف صاحب الصوت:

— هذا أنت يا قرخ! وعليكم سلام. وأضاف بسرعة كي لا يُخرج جاقر: وأنت معه يا جاقر!

— وأين أذهب إن لم أكن معه؟! — غمغم جاقر غير راضٍ عن طريقة السؤال. ثم وأضاف خجلاً من قرخ: ومعنا دوداي أيضاً.

ولما لم ير فيدور من ذكروا اسمه نظر نحو مربط الخيل: كان مربوطاً إليه، مع حصان جاقر، ثلاثة أحصنة.

— إن كنت تشناق إلى دوداي قلت لك أين هو — ابتسم جاقر لأن فيدور لا يطبق رؤية دوداي — عرّج على أخته.

قال فيدور لنفسه: ما أشد شوقي لدوداي! ثم أصلح كلامه متوجساً مما خطر له:

— وكيف لا تزور أختك، من حظ الإنسان في هذا العالم القبيح أن تكون له أخت.

سأل جاقر فيدور غير عابئ بما يقول الأخير:

¹ بالعربية في الأصل.

- ماذا تنوي لهذين الثورين، هل انتهيت من الفلاحة؟
- لا يا جاقز، وكيف أترك العمل غير منجز؟ أغير موضعي الثورين.
- يريد أن يُريح الثور الذي قدماه في الأرض الطرية - قال قرخ بدلاً من الحراث، ونظر في وجه فيدور بوجه طلق كما يفعل عادة.
- حين غيّر فيدور موضعي الثورين وعاد فأمسك بدفة المحراث، نادى قرخ الحراث:
- اسمع يا فيدور، دعني أنا أحرث قليلاً.
- ماذا جرى يا قرخ؛ لماذا توسخ نفسك في الأرض؟ - لم يقبل جاقز.
- رفع قرخ كمي كسائه، وزمّ طرفيه في زنار الفضة الرفيع، وتفل في راحتيه، وأمسك الدفة بقوة تُطمئنك على العمل الذي سيقوم به، ثم قال:
- وأيدينا يا فيدور ليست غريبة عن الأرض. إن كنت فلاحاً يا جاقز فأمسك برأسي الثورين.
- لن أفعل ولو وضعت أمامي خزاناً من الذهب!
- أليست فلاحاً؟
- نعم، فلاح.
- ولماذا إذن؟
- قلق فيدور لجدال الرجلين فأسرع:
- ثوراي يا قرخ لا يحبان الإمساك برأسيهما.
- وهل عجيب ألا يحبّان؟ - يضحك قرخ - وأنت تجرّ على أفعال كثيرة لا تحبها. يا فيدور سيُسّر ثوراك إن أمسك جاقز برأسيهما.
- لن تراني نفّدت هذا الطلب لأنيّ إنسان يا "تّعانا قرخ" - لم يكتف جاقز ما في قلبه وإن تظاهر بالمزاح.
- من يعمل مجبراً يا جاقز لا يجد متعة فيه. - يضحك قرخ دون أن تحمل

كلماته معنى المناكدة. ثم يمسك دفة المحراث ويقول: - بسم الله، ليهوّن علينا الله عملنا. هيا اسحبا! كان بوّد فيدور حين كان قرخ يدعو إلى الله قبل أن يشرع في الحراثة أن يرسم كالعادة إشارة الصليب، ولكنه وافق الفلاح بسرعة، مستعيداً أمام جاقز وعيه:

- نعم يا قرخ، باسم الله. سهّل الله فلاحتك!

لم يفهم جاقز في البداية سبب نطق فيدور عبارة "باسم الله". ثم فسّرت الكلمات التي قالها وراء الحرّاث ملاحظته، وقال ناسياً ما ملحوا به إليه:

- لو سمع الأفندي قايمت دعاءك إلى الله لما وسّعته الدنيا يا فيدور. يسرني، ولكن هل تظن أن "تبغانا" الأبخاخي الذي وجّهته إليه قد انتبه؟ - يضحك جاقز - أذنه لا يسمع بها، صهلت فرسٌ فيها! - انظر بربك كيف يُمسك دفة المحراث! - طريقة فلاحية حقيقية، - لم يكتف فيدور ما لاحظته بعينه على الحرّاث كأنه يتكلم من قلب جاقز.

- ما الذي تُسمّعي إياه يا فيدور - يقول جاقز بصوت أقوى راغباً في إسماع قرخ - ألا تنظر اعوجاج الخط. في أحسن الأحوال يرجع إلى حيث نفق... الحق يا فيدور، - يسأل كأنه تذكر شيئاً كتموه عنه: - هل رددت مع تغانا هذه الـ "باسم الله" أم خرجت من فمك عفوية؟ لن أعتب عليك مهما أجبتي. الآن فهم فيدور أنه وقع فجأة في موقف حرج.

السؤال السريع يحتاج إلى جواب سريع. وهو مثل طرقي العصا. بَم سِرْد؟ أحد الطرفين "نعم" والآخر "لا". ومهما قلبتها، أو نكستها، أو رفعتها، فهمما الجوابان. وبالنسبة لمن يقف فيدور أمامه يمكن أن يجيب بأحدهما دون أن تطرف له عين لأن طريقة الإجابة كطريقة طرح السؤال. إن كنت سمعت الكلام فلماذا الرغبة في الاستقصاء بالسؤال؟ الكلام كالعصفور المقلع، من الصعب الإمساك به.

قال فيدور: أفهم ما يريد جاقز. لا أعرف إن كان الأفضل أن أجيبه بما سيسره فيتركني. إن أطلعته على حقيقة ما في القلب تماماً فلا أعرف كيف سيكون ردُّ فعله. لو لم يكن ما قلته في قلبي لما خرج من فمي. وأفترض أنه خرج عفواً. إذن هل من أمامي هو من سيميز براءتي من سوء طويتي؟ إن سأل حتى يجعل من الجواب فرحة فلن أبتَر فرحته. من سيتوسط بيننا كي يميز ما قلنا وفعلنا نحن الاثنين؟ من غيرُ الله - ارتعب فيدور - يراقبنا وهو يعرف طوايانا؟ لا أحد يفوق الله عزَّةً وعلوًّا! اغفر لي ما خطر لي نحوك! ارحمني وافهمني!

- إن وعدتني يا جاقز ألا تعتب عليّ فلن أكتملك ما في قلبي حقيقةً. - قال فيدور وهو يرسم الصليب في قلبه - لم أستطع إلا أن أوافق قرخ بأي لغة كانت لأن في ديانتنا أيضاً طريقةً دعاء قرخ.

لم يُظهر جاقز عدم ارتياح لما سمع:

- لن أعتب عليك إن قلتَ الحقيقة. بل الله نفسه لن يقبل منا.

- نعم يا جاقز، نعم - مرةً ثانية رسم فيدور الصليب بينه وبين نفسه، ووافقه، - الله يكره الكاذبين. ليحمننا الله من أمثالهم.

- لا تحفُ مني يا فيدور، أدِرْ ظهرك وارسم الصليب، - قال جاقز متفهماً مشاعر من يحفظ الله في قلبه هذه اللحظة، واختتم بسرعة: - ولكن لا تُظهر رسمك الصليب لقرخ. من يعرف ماذا سيخطر له... وأنا أيضاً لا تُرنيه كثيراً. الأفضل ألا تُبرز نفسك من بين من وقعتَ بينهم. ومرةً ثانية طلبَ آخر: أسمع قائمتَ أفندي مزيداً من "باسم الله"! وليس وحده بل أبق هذه الـ "باسم الله" على شفتيك كلما خالطتَ جماعتنا الأبراخ الأجلاف. ولماذا تبخلُ بها وأنت لا تشتريها ولا تبيعها... حين مرّ قرخ لا ينوي التوقف صاح وراءه جاقز: يا تغانا! كفاك عملاً تشم روائح مؤخري الثورين. احرص على حذائك وإن كنت لا تبخل بقوتك!

- لو طلبت مني أن أحرص على الثورين لسمعتُ كلامك. قال قرخ لمن وراءه.
لا تهم لحذائي! سوق "بشاده" مليئة بمثله. وإن كانت بعيدة فسوق "جتونه"
الروسية أقرب.

- هذه هي طبيعة قرخ، - قال جاقز يغلبه المديح، غير عابئ بما لمّحوا به إليه
- لا يترك عملاً باشر به دون أن يقهره.

- هذه طبيعة حسنة يا جاقز - فرح فيدور لما سمع، وأضاف إليه رآيه: - لا
يسعدني العمل غير الناجز. وأظل أتشوق إلى العودة إلى العمل الذي أبعدونني
عنه.

- والله أنا أكره أيضاً العمل غير المكتمل - يزعجني إن كان سبب استدعائي
عنه غير وجيه... حقاً يا فيدور أتكون عاتباً على قرخ، غافلك فأخذ منك
العمل.

- ولماذا أغضب على قرخ؟ نعمل في عمل واحد.

- وأنا إذن؟

- وأنت لست عاطلاً يا جاقز. نتمُّ ثلاثتنا بالعمل نفسه.

- والله لن تقول أصدق من هذا يا فيدور! - حين شرع الحراث يقترب أدفأ
جاقر راحتيه متحمساً، ولامه دون حقد: - وأنت يا فيدور واحد ممّن دفعونا
إلى البطالة... هيا أعطني دفعة المحراث يا تغانا! لا تظن أني من أولاد الأمراء
الذين يكرهون العرق!

- لن أستطيع أن أزعم أنك سليل أمراء يا بَراد! - يسلم قرخ الدفعة لصديقه -
ولكن ينطبق عليك تسميتك بالغراب الدافئ¹ يا بَراد جاقز، يا مبارك النسل،
ضَمَّ طرفي الكساء! - يصرخ وراء من يخطو بثبات وراء المحراث. - ستملؤه

¹ كناية عن الكسل لأن الغراب يضمّ جناحيه إذا اشتد الحرّ ولا يتحرك.

بالغبار.

- لم يجر لهما شيء، هيا أسرع. يكفي أن أنفضهما - كلما ضغط جاقز على دفعة المحراث أجبر الثورين أن يحنيا ظهريهما، ويمطا عنقيهما، وأسأل لعابهما. وكلما انقادا له ازداد تجبراً عليهما. - قلت لكما أيها الكسولان أن تسرعا! آل بَراد ليسوا من سلالة الأمراء. هذا صحيح، بل فلاحون من عامة الناس. - غير أنهم لا يسمحون لأحد أن يصفهم بالخمول. هل أنا الغراب الدافئ؟ أَلستما من قِبل لهما: أسرع!

- ما يفعله هذا غيرُ صحيح يا قرخ! - قلق فيدور، واستقبل غيرَ قادرٍ على السكوت جاقز الذي يسوق الثورين، واعترض طريق الدابتين اللتين تلهثان. - أرجوك باسم الإله، باسم الله يا جاقز أن تُريح الثورين، وتستريح أنت. - ألا تعجبك طريقي في الحراثة يا فيدور؟! - يسأل جاقز مُسِنِداً المحراث إلى الحافة المحروثة، ويثبّن نفسه - أنا أحرث ولا أتظالِع مثل تغانه. هل فهمت يا تغانه أن عليك غرز السكة ما أمكن؟! -

- أفهمني ثورك جيداً أسلوكك في الفلاحة يا جاقز. - يسمّونه ثوراً لأنه ثور! إن كانا تعباً فاربط مكانهما الثورين الآخرين يا فيدور. - لا يا جاقز، لا. - استعجل فيدور قلقاً - لا تُذنب بحق الثورين. قاما بنصبيهما من العمل. حرثا نصف الكرم. - وقف تحت النير الذي على الثورين فرفعه بكتفه لتخفيفه عنهما. وشرع يمسح على جبينيهما، ويواسيهما. - استريحا، خذا كفايتكما من الهواء. لم يبق لكما إلا بضعة خطوط... أَلتتما متعبان من السرعة...

- أتاَملكما فأراكما، أيها الرجلان الضخمان، مدعاة للضحك، - ينادي دوداي المعتمد على سور البستان بصدرة - تحرثان بدلاً من الكافر فيسخر منكما من يراكما. هيا ابنتنا تناديكما، تدعوكما إلى غداء طيب. لا تدعا

...

لم يمكث فيدور أكثر من ساعة في البستان.

بعدما انتهى من حراثة البستان سرح ثوريه من تحت المحراث وهو يُشيد بهما ويمسح على ظهريهما، وأطلقهما إلى حيث يرمى رفيقهما في سفح الغابة. وحين خرج من البستان والمحراث على كتفه يمشي لصق الحدار كي لا يفتح برجليه درباً في الأرض المحروثة، استند على الجدار ب صدره كما فعل دوداي، وتأمل ما أنجزه طويلاً. أمامه البستان المحروث حديثاً يتصاعد منه بخار بلا حدود. منظر يسرّ العين، ويُفرح القلب، يزرع في الصدر الطيبة حتى لئسيك التعب. البستان الجبلي الغايي الذي كانت تضيع فيه عيشة المرء وحيداً، ويبحث اليأس في النفس، نظر إليه الآن نظرة أخرى. وابتسم لسماء الربيع، ونظر إلى الغربان على رؤوس الأشجار بعدما شبعت من الهوام. وهو راضٍ عن الثيران الثلاثة التي عملت معه، وعن الرابع الذي يحك رقبتة بالحائط.

- لا شيء أمتع من العمل!، - رفع فيدور عن سور الحظيرة صدره، وقال بالروسية مثقناً عمله. رسم حذراً أن يراه أحد إشارة الصليب للبستان المحروث، وأوماً برأسه. ودعا إلى الله أن يزرعوه بسلام ويحصدوه بسلام. ورسم مرة أخرى الصليب متحمساً من أعماق قلبه، خائفاً أن يرفع يده. وأوماً إليه إيماءة خفيفة.

حين خرج دوداي من البيت وقد احمرّ وجهه من الشرب¹. رأى فيدور وأمامه الطشت والإبريق، وقد فرغ من غسل أطرافه ووجهه. سأل دون تحية ودون احترام، وبلا خبث أيضاً:

¹ يتكلم على شرابٍ خاصٍّ بالأديغة، أسمك من الباخسمه التي تصنع عادة من الدُخن أو من الذرة الصفراء.

- كأنك تَوْضَّأت؟ تفوتك صلاة الظهر أيها المنحوس!
- ليس سيئاً أن تتوضأ وتقف في حضرة الله وتصلي... - قال له محاولاً إيفهامه أنه نقض صلاته بالشرب، ولكن لمح إليه لاحقاً دون مناكدة: - هل يسمح أطرافه بالخرقة من يتوضأ؟
- ما أعجب ما أسمع؟ - صرخ دوداي مما سمع دون تَوْعُّع - وهل تعرف هذا أيضاً؟
- إن تَرَفَّعت على من تجالسهم لم تستطع معاشيتهم يا دوداي. نهض فيدور غير عابئ بما قيل له وبمن يقف على رأسه. وفيما هو عائد بعدما صبّ ماء الطشت وراء الجدار، لا أمام البيت، أجابه دون أي استعجال: - وأنا أعرف أشياء أخرى غيرها.
- والله ما أسمع عجب! - تراجع دوداي قليلاً واستند إلى عمود المسطبة، ولم يملك إلا أن يسأله: أتكون قد صليتَ حقاً؟!
- ولماذا لا أصلي¹؟ - قال فيدور، واستدرك مرتعباً في قلبه: - ليست الصلاة صعبة إن تقبلها الله.
- أخاف أن تنشر المسيحية - بصق دوداي إلى الخلف - بين الأديغة بمثل هذه الأقوال والمواقف. صحيح يا فيدور؟!
- لا فرق بين إسلام ومسيحية إن تحفظ الله في قلبك وتخلص له. - لم يتراجع فيدور عما سيقوله - اعتقداً ما تؤمن به!
- وأنت بَمَ تَؤْمَن؟
- وهل تسأل عن هذا؟ - بإلهي - جزم فيدور.
- ونحن مخلصون لإلهنا. - تتم دوداي. - ثم سأل لا يُطيق صبراً: هل تستطيع

¹ الصلاة في الأصل، وفي الممارسة المسيحية، تعني الرجاء والدعاء.

- يا فيدور أن تصنع من نوع مشروبكم الأبيض؟
- أنا لا أعرف علام تتكلم؟ - تظاهر فيدور بأنه لا يعرف حقاً ما يسأل عنه.
- ألا تعرف؟ والله عجيب، أسأل عن مشروبكم الأبيض الذي يشبه الباخسمة عندنا... لا أعرف ماذا تسمّونه "سامفون"؟ نحن نسميه "العرق"¹
- تقصد "الساموغون" - قال فيدور: لماذا يلحّ هذا في السؤال؟!
- هذا هو بالضبط، أصبت!
- هذا حرام، لا سمح الله - هزّ فيدور يديه أمام عينيه - هذا مما يقال فيه: لا تبحث عنه إلا إن كنت مضطراً، هذا دواء للمجانين، حرام! هذا له عواقب خطيرة...
- اسمعوا ماذا يقول! لم ألتق بروسّي غيرك يذمّ العرق الذي يصنعه قومه! - صاح دوداي ثم خفض صوته متودداً إليه: - اصنع لي ولو مقدار كأس مهما كانت العواقب. سأكافئك، بل أنفذ لك ما تريد.
- نظر فيدور تحضّه الفكرة التي غزت رأسه في وجه من يقف أمامه. داهمت رأسه فكرة الهروب التي غابت عنه في نصف العام الماضي، ووجد نفسه بين القوم الذين هو منهم. وانتصب أمام عينيه واحداً تلو الآخر رفاقه الجنود وأبناء قريته. ثم عاد إلى وعيه، ورجع إلى وجهه لوّنه معللاً حديث دوداي بالشكر. ولكن قرخ الذي نادى من عند قائمتي الباب لم يدع فيدور يكمل كلامه:
- ما الأمر يا دوداي؟ ماذا تطلب من فيدور بهذا الإلحاح؟
- لا يا قرخ، ليس عندي مثل هذه النية البتّة. - غمز دوداي فيدور، وتراجع عن طلبه.

¹ بالعربية في الأصل.

IX

- يا ولدي يا صبح، تعال قليلاً...

رجعت عُشخان دون أن تضيف شيئاً إلى البيت.

عاد صبح على مضض إلى البيت لأنه لم يكن راضياً عن مقاطعة عمله إذ كان يساعد فيدور في ربط الثورين إلى العربة، ولكن ما العمل؟ والدته تطلبه! كانت جالسة على الأريكة ويدها متصالبتان على صدرها كما كانت تفعل حين تريد أن تخبره خبراً مزعجاً.

- أسمعك يا والدتنا - قال صبح دون أن يتجاوز الصوفا التي على المدخل، وسأل: - هل هناك ما يُقلق؟

- لا أعرف كيف أقول. ليست مصيبة كبيرة على آل بَراد... ولكنها تخصنا مع ذلك.

جلس صبح على طرف الصوفا مهموماً بما سيسمع، وسأل والدته قلقاً:

- قولي يا والدتنا، أسمعك.

- كان الأفضل ألا أقول يا ولدي... ولكن بالي مشغول فلن أستطيع كتمانها... أليس الكلام - لعنه الله - ما لا يفارق القرية.

- لا تُفني نفسك يا أمنا!.. علينا أن نذهب إلى الغابة لجلب الحطب. أيتعلق الخبر بوالدنا أم بي؟

- ولماذا يتعلق بكما، بفيدور!

- وما الأمر؟

- ذهبت إلى دكانة "بجانه" لشراء الملح فقبل لي إن لفيدور المسكين قريباً من الجن.

- ألم يخبروك أنه يبكي حيناً ويغني حيناً في الليل بصوت مسموع!

- نعم يا ولدي، قالوا لي... يا لمصيتي، من قال لك هذا.

- لم يخبرني أحد يا والدتنا - أجاب صبح أمه كاتماً أن ما سمعه مدعاة للضحك.

- من أين تعرف إذن؟

- رأيته بعيني.

- صرخت عُشخان بأعلى صوتها، - لماذا تذهب للاحتطاب مع من عنده قرين من الجن؟

- اطمئني يا والدتنا، - فهم صبح أن في المسألة مبالغة، - فيدور المسكين كما خلقه الله، ساذج، بريء، إنسان صالح، وليس له قرين من الجن. كفاكم، اتركوا الأقاويل وكلام الناس!

- لماذا تقول إذن إنك رأيته بعينيك؟

- أكثر من مرة رأيته فيدور ينقّس عن حزنه بالبكاء.

- بصوت عالٍ؟

- رأيته يذرف الدمع دون صوت.

- يا حسرتي، يا مسكين - لم تستطع عُشخان إلا أن تتألم مع أنها ارتاحت لعدم صحة الخبر الذي جاءت به. تهرز رأسها، - الحق معه، يشناق إلى أسرته... بديهي أن تشناق إلى أسرته! لا أستطيع إفهام والدك أنني إن غبتم عن عيني ساعة واحدة أقلق لأني لا أعرف ماذا حدث لكم في هذا العالم المضطرب... احمنا يا رب، ما أصعب أن تجد نفسك في موقف فيدور!.. وما قصة غنائه يا ولدي؟..

- وهذا صحيح، الغناء يخفف عنه حزنه.

- حقاً، صحيح. يهتمون الإنسان بما ليس من ذنبه. ادعُ إلى ربك ألا تصبح مُضغّة في أفواه الناس. لن يرحموك سواء كنت مسيحياً أم مسلماً. من حقه أن يغني. الإنسان إن لم يغنّ أو يتغنّ بينه وبين نفسه ينفجرُ ضيقاً! وأنا أغني سواء

كنت في مزاج حسن أم سيء.

- يقول فيدور إنه متعلق بالعزف على الأوكورديون أكثر من الغناء.

- أيعزف على الربابة؟

- لا، هو يذكر اسم آلة عجيباً... ربما اسمها "بالايك".

- ألم تستطع يا صبح أن تحفظ هذا الاسم الوحيد؟!

- أما قلت لك "بالايك"! يقول: لو وجدتها لساعدتني على مزيد من التنفيس عن ضيقي.

- حقاً، صحيح... من أين نأتيه يا حسرتي بما تسميه "بايك"؟

- بالايك، صحح صبح الاسم. - ثم أضاف بعد قليل: - يقال إنها تباع في الأسواق الروسية؟

- وهل هي غالية يا ترى؟

- والله لا أعرف.

- ألن يبادلوه بديكين روميين سمينين إن أرسلت والدك إلى السوق معهما؟

- يبادلونهما بكل سرور، ولكن لا تُسمعي والدنا، لن يتسامح معه!

- وهل سيترك الرجل المسكين محبوساً في القرية حتى ينفجر؟

- سنذهب إذن لجلب الخطب يا والدتنا، - نهض صبح.

- اذهبا يا ولدي؟ صباحنا جميل. - جفلت غُشخان: - الله حريص على

عباده فاحرصا على نفسيكما يا ولدي... ولا تبتعدا عن حدود القرية كثيراً.

ولا تتوغلا في أعماق الغابة. لو كان والدك في القرية لما قلقْتُ.

- اطمئني يا والدتنا. لن نتأخر!

خرجت غُشخان من الغرفة ما إن صار الخطّابان على الطريق، ويدها سلة

صغيرة. وخاطبت من في العربة دون تمييز:

- يا صبح ويا فيدور، خذا هذه الزوادة الصغيرة. لا تتأخرا. الله حريص على

عباده فاحرصا أنتما أيضاً على نفسيكما. - تابعتُهما بعينيهما مع دعاء إسلامي.

سلكت عربهُ الثيران طريق الغابة بلامبالاة كما ترتفع الشمس إلى كبد السماء متمهلة. وقرية زاور حابله التي نهضت مع نهار العمل ما تزال على قدميها منذ وقت طويل: الناس الذين انتهوا من فطورهم كَفَّ الدخان عن مواقدهم. والذين أرسلوا مع الراعي مواشيهم أفنيةً بيوتهم فارغة. ويُسمع في أرجاء القرية من هنا وهناك نداء العجول الوليدة تحنّ إلى أمهاتها. وقفزت مهرة سمعت صوت عربية من أحد شوارع القرية. وحين رأت قرني الثور الكبيرين تجاوزتهما مسرعة غير مهتمة بهما.

- مسكينة هذه المهرة - علّق فيدور على ما يرى - ضلت طريقها.

- لم تعبأ بنا ولو أنها ضالة - قال صبح.

- ما العمل إذن؟ - كلٌّ يبحث عن رائحة جنسه - تنهد فيدور. - تحاول أن تعثر على من فقدتها.

وفي منعطف الشارع الآخر ظهر عدد من الأولاد:

- فيدور كافر، قال أحدهم.

- فيدور كافر، فيدور قَزَق¹ وافقه غيره.

- اسكتوا يا قليلي التربية! - نهر صبح الأطفال الذين يتبعون العربية.

- كفى يا صبح - قال فيدور - لا يصفوني بما لا أستحق. سيتعبون ويتركوني...

نظر صبح إلى من بجانبه:

- نعم، نعم - وافق على كلام فيدور - لا شيء يعيب في ما يقولون.

¹ النطق الأدبي لكلمة قوزاق.

خرج عجوز من باب داره:

- طلبتُ منكم أن تسكتوا يا قليلي الإيمان. - لَوْح بالعصا للأولاد. - لماذا تثيرون الضجة في القرية؟

- يا جدّ، أليس فيدور كافرًا؟ - تشجّع كبيرهم وسأل.
- صحيح كافر.

- لماذا إذن...

- ليس كل الكفار متشابهين. - يضم العجوز الأولاد إليه مهتمًا بالموضوع. ويشير بطرف العصا إلى العربة التي تبتعد، - ما ذنب هذا البائس؟ المذنب غيره. - المذنب هو من أرسله إلينا محاربًا. هيا يا أحبائي لا تسيئوا إلى هذا المسكين!

خرجت عربة الثيران من القرية، وخلفت وراءها ظاهرها، وولجت الغابة. وخلال هذا الوقت كله لم يتبادل الجالسان في العربة أي كلمة ولو أُنهما يتشاركان في الفكرة نفسها.

الطبيعة جميلة، ناعمة وهادئة. وغابة الربيع تضجّ بالأغاني المتنوعة للطيور. والشمس تلعب بالأوراق من خلال أغصان الأشجار التي لا تسعها الدنيا من الفرح لعبة الطميمة مع العربة. وعجلات العربة تفرقع كسلى في الغابة التي تمر عبر قرون الثورين على الطريق الضيق. والثوران، وإن بدّوا مرتاحين، يصوّتان رغم صعوبة معرفة ما يُضمران في داخلهما. وتُسمّع من بعيد أصوات طائر الوقواق المستيقظ مع البصل الأخضر الذي اقترب موسمه. وتسمع من عمق الغابة نباح كلاب قرية بج حابله البعيدة قليلاً باتجاه الجبل.

- مضى على حياتك معنا يا فيدور سنتان - قال صبح الآن - وهناك شيء واحد لا أفهمه.

- ما الذي لا تفهمه يا صبح؟

- أنت تصمت حتى لو رموا إليك كلمة جارحة لا تستحقها، وتصبر عليها...
هل يجوز هذا؟

- ما الذي يجعلك تقول هذا يا صبح؟! سأل فيدور برقة ثم ابتسم.

- ألم تسمع ما قال لك الصبيان؟

- سمعت - مرة أخرى ابتسم فيدور.

- لماذا قلت إذن إنه ليس في كلامهم ما لا تستحق؟

- يا صبح، يا أخي الصغير، أفهم ما تريد أن تقوله... ولكن أريد أن تفهمني
ولا أدعك تقول كلاماً سيئاً. ما الذي قاله الصبيان ولا ينطبق عليّ؟ أأست
كافراً في مقاييسكم؟!

- أنت إنسان ولو كنت كافراً! - جزم صبح.

- لا أظن الأطفال لا يعرفون أن عندي يدين ورجلين ورأساً... - لم يسمح
فيدور لصوته الناعم أن يعلو - ما قالوه لي لا ينم عن حقد.

- ومتى كبروا؟

- متى كبروا عاملونا بمثل ما ربيناهم عليه.

- والله يا فيدور أسمعك فأراك عجباً... على رأيك: من يرمك بالحجر فارمه
بالجبنه!

- وهذا ليس مستحيلاً... حياك الله يا عجوز آل بجانه. وأنت أيضاً يا صبح.

حيتماني من الأولاد الذين ليس في قلوبهم خبث ولا ظلم.

- لا أعرف ماذا أقول لك بشأن الخبث، ولكني لا أوافقك على رأيك في
الظلم.

- ولماذا لا توافق؟

- لأنهم يقولون ما سمعوه بشأنكم وحفظوه في قلوبهم.

- تمام يا صبح، تمام. الآن اقتربت من الحقيقة. ولماذا لا يأتون على ذكر أقوام

أخرى بالشر! هاهو النائب مُجَّد أمين المرسل من الشيخ شامل من الداغستان
اتخذوه زعيماً ولو لم يكن من قومهم.

- هذا يحمي أرضنا معنا. - قال صبح راضياً.

- أنا محتلّ، هل فهمت الآن يا صبح؟

- في ما قلته شيء يستدعي التفكير... ومع ذلك...

- لا يا صبح، - استعجل فيدور - لا تستدرك بـ "ومع ذلك"! لو كنتُ

مكان هؤلاء الصبيان وغيرهم لقلْتُ الكلام نفسه. ولكن كان الأفضل

للطرفين، الروس والأديغة، ألا يكونوا في الموقف الذي هم فيه الآن. وإذا كان

الله قَدَّر الأمر وانتهى فعليك الرضوخ لما يَحْمَلُكَ. سأتحمل إذ لا أمل لي. غير

أني أرى في حديثنا شيئاً غير صحيح...

- ماذا ترى فيه؟ - لم يدعُه صبح يكمل كلامه.

ضحك فيدور.

- لماذا تضحك؟

- سأقول لك ما يُضحكني... رضيتُ بوصفهم لي بالكافر، لستُ مسلماً.

ولكني أضحك من وصفهم لي بالـ "فَرْق"...

- لماذا؟ أَلستَ قوزاقياً؟

- ليس كل الروس قوزاقاً.

- ولماذا تربّي لحية قوزاقية؟

- ليس كل الملتحين قوزاقاً. ألا تتذكر أنني لم أكن ملتحياناً يوم جاء بي والدك؟

- نعم، لم تكن بلحية.

- أنا من الروس الحقيقيين الذين يعيشون في الشمال. ولكني لست ممن يميزون

بين الناس حسب أعراقهم. ولا يهمّ أن يكون لكل المؤمنين بالله ديانات مختلفة،

وليعيشوا حتى يقفوا في حضرته. هل تميز الشمس بيني وبينك بدفتها؟

- لا يا فيدور ؛ من أين للشمس أن تَمَيِّز؟
- الشمس لا تَمَيِّز.
- تمام يا فيدور.
- وأنت أَسْمَر يا صبح.
- صحيح يا فيدور.
- وأنا أبيض.
- نعم أنت أبيض يا فيدور.
- إذن يا صبح حين تقرر قطرة الماء أن تدخل حلوقنا هل تسألنا إن كنا بيضاً أم سُمراً، أم من أي دين أنتم؟
- لا يا فيدور. وكيف لقطرة الماء أن تسأل، كل الناس يحتاجونها.
- مرة أخرى يا صبح - أثار وجه فيدور بالفرح - هل تتعرق حين تعمل؟
- أتعرقُ وقت العمل، ووقت الحرّ.
- وأنا أيضاً - شهد فيدور على صحة الكلام، وسأل: - هل ما تتعرقه عرقُ أَسْمَر؟
- كيف أرشح عرقاً أَسْمَر إن كنت أَسْمَر!
- وأنا هذا رأيي، لن يرشح مني عرق أشقر لأني أشقر.
- والله عجيب ما نتكلم فيه يا فيدور... متى فكرتَ خطرت لك أفكارٌ كثيرة.
- العالم مرّكبٌ بطريقة عجيبة. والإنسان أعجب منه أيضاً.
- لم يمض نصف ساعة على توقُّفِ الثورين في مرعى الغابة حتى علا في الغابة أصوات الفؤوس. يقتلع صبح الشجرة اليابسة التي وجدها قريباً من البركة.
- وهناك غيرَ بعيد عن موقفِ الثورين يعالج فيدور شجرة أخرى. لا يزال ذهنه صبح مشغولاً بالأفكار التي طُرحت على الطريق أكثر من قطع الأشجار.
- وأحياناً يُنصت إلى صوت فأس فيدور.

لا يمكن إلا أن تُوافق قَرْخ، يقول صبح. المسكين فيدور رجل حكيم. يصل عقله إلى أمور كثيرة. أما رحمته فتشمل العدو والصديق. لا يُقيم ثوراً من مقعده بل لا يُفزع فراشة جامئة. يحاول دائماً أن يجد طرف خيط من الخير يساند به من يؤاخذه أشدّ المؤاخذه من أجل موضوع المؤاخذه نفسه. إذن كيف يستطيع إنسانٌ من هذا النوع أن يرفع السلاح؟!

- هل تسمع يا صبح؟ - يصيح فيدور - هل للشجرة التي تقطعها فسائل تجدها؟

- ماذا تقول؟ - يردّ صبح، ثم يرد على السؤال: - والله لا أعرف، لم أدق النظر. ها هي يا فيدور وجدتها.

- احذر أن تؤذي الشجرة الوليد. هل ترى يا صبح ما يحدث؟ الشجرة وهي تكاد تموت واقفةً تفعل الخير بشجرة بديلة.

بدا لصبح أن الفأس المرفوعة تتوقف أحياناً. نظنها شجرة يابسة ولكننا نؤلمها على ما يبدو من حيث لا ندري. وليست الشجرة اليابسة وحدها بل بديلتها أيضاً. لا أظن الغابة مسرورة لما نفعل... لو كان الأمر هكذا لما قطع فيدور شجرته. هل انقطع صوتُ فأس فيدور؟ لا، يستنّها. أظن أنه لم يتبقّ له الكثير. صحيح أنه لا عرقَ أَسَمَرٍ أو أشقر حين تعمل. وليس عند الماء أو الشمس تمييز. وليس وحدهما، فالخبز والشجرة أيضاً لا يميزان.

صدر من الناحية التي يعمل فيها فيدور صوت شجرة تسقط. وصدر الصوت نفسه بعدما سرّع صبح من إيقاع فأسه. مسح صبح العرق من جبينه بطرف كُمّه. انظر يا فيدور! ابتسم صبح وهو يتذكر فيدور. وصاح وهو يقف على رأس الشجرة التي قطعها لا يستطيع الصبر على ما خطر له:

- الشجرة أيضاً تفعل المعروف على ما يبدو يا فيدور. نُظَلْنَا، ونصنع منها أشياء لحياتنا، وتُدْفِننا فيما هي تحترق.

- نعم يا صبح، نعم. فكرت جيداً. ما له سنٌ حادة إن كان فأساً أم خنجراً أم سيفاً أم سكيناً ظالمٌ. أنت فعلتَ خيراً إذ احتفظت بالخير في قلبك مدة رفعت فأسك. وكل أنواع الشجر لها فوائد كثيرة. ولكنها تحرقنا إذ نتصور أنها تنفعنا فتدفئنا دون أن تظلمنا... والجمرات التي تتطاير منها تحيل الخطيرة إلى رماد.

- إذن يا فيدور ليس كل ما فيه فائدة خالياً من الضرر كالإنسان لا يخلو من الشر - يغرز صبح فأسه في الجذع ويسأل فيدور.

- لم تخطئ يا صبح - يسكت فيدور قليلاً ثم يستأنف: - وهذه الشمس التي لا تميز ليست دون ضرر. تأتي بالحلل، وتحرق المحصول والخضرة من سطح الأرض.

- وقطرة الماء إذن؟ - يرتعب صبح.

- وقطرة الماء كما تردُّ الروح يمكنها أن تُغرق الإنسان. والمطر يضرُّ أحياناً، والنهر فيفيض، ويدمر القرى، ويجرف المحاصيل.

امتلاً قلب صبح باليأس. وجلس على طرف الشجرة المقطوعة. ومسح قطرات العرق الدقيقة من الجبين الذي لم يبرد بعد. ولم يخطر له، كما في السابق، أن يفحصها فهي سمراء أم شقراء. قال لنفسه: ما كان عليّ أن أعود فأسال فيدور عن معاني كلماته بدلاً من أن أحتفظ بها عذبة في قلبي. وحُيِّل إليه أن غابة الظهيرة المملأى بالأصوات المتعددة صمتت في هذه اللحظة حاملة رعباً خفياً. كان بوّد صبح أن يبقى مع فيدور، لا أن يكون وحده. وما إن انطلق قلبه إليه حتى ناداه فيدور:

- ما بك يا صبح لا تقول شيئاً؟

- وماذا أقول يا فيدور؟ أفكر في أقوالك.

- هكذا؟ - أعادت الرهبة الخفيفة في صوت الشاب فيدور إلى وعيه. - لا تيأس يا صبح بهذه الحجة. لا داعي لليأس بإذن الله. لأجل هذا يقول مُسْتَوْنَا

إن العالم مركب بطريقة عجيبة، وأعجبُ منه الإنسانُ القلق. تعال نقطع هذه الشجرة. ثم نتابع شجرتك.

كان صبح مرتاحاً إذ أعادته الخاطرة السيئة إلى فيدور رغم أن غابة الظهيرة التي كانت تعبت فيها الشمس راسمةً من الظلال أشباه أقدام الكلاب لا تحمل خوفاً خفياً. وبعدما استغرق قطع الأشجار بعض الوقت أضاف فيدور فجأة إلى كلامه غير المنتهي:

- هل تعرف ما يجب أن تتفهمه يا صبح؟ الخير في الدنيا أكثر من الشر. هكذا اختار لنا إلهنا حياتنا. يظل الخير يغلب الشر فيتقدم الإنسان في حياته ويتطور. احفظ هذا في قلبك، لا تنسه... لماذا لم تأت على ذكر شجيرتك البديلة؟ أيمكن أن تكون خربتُها؟

- لا يا فيدور، - رفع صبح رأسه فجأة دون أن يعرف ما يسأل عنه - لا تزال على حالها، خضراء لم تسقط منها ورقة واحدة... ما الأمر يا فيدور؟
- حسنٌ إذن. وهذه إحدى الأرواح الصغيرة التي تضع الغابة أملها فيها. أدعو الله أن يُبنيها.

- آمين يا فيدور - أتبع صبح راضياً من كان يرسم الصليب.

حين ظهرت العربية من منعطف شارع القرية استقبلت عُشخان الحطابين:
- الحمد لله أنكما رجعتما أخيراً!!... ما سبب تأخركما يا صغيري؟ تجاوز الوقت العصر.

قفز صبح من حمل الحطب الكبير، وفتح باب الدار دون أن يرد على كلام والدته. ثم قال:

- ألا ترين يا والدتنا حمل الحطب الكبير؟!

- نعم، أراكما جئتما بحمل كبير. سيفرح والدك حين يرجع... ولكنكما

تأخرتما يا ولدي مع ذلك... لا تكرر هذا في أيام غياب والدك!

- ابتعدي يا أمنا لحظةً حتى يُنزل فيدور حزمة الحطب.

- ولماذا حزمة حطب؟ - تتفحص عُشخان حزمة الحطب الكبيرة التي رُمي بها

من العربة. - حطب يابس ممتاز. لا مثيل له لقلبي البرك... ألا يستطيع الثوران

اللذان جاءا بهذه الحزمة أن يدخلها بها إن لم ترميها هنا؟

- نودُ إيصال هذه الرزمة إلى صاحبتهما. قال فيدور.

- ومن صاحبتهما؟

- عائشة.

- وهل ذهبت معكم عائشة لجلب الحطب؟ - قالت عُشخان فجأة غير

راضية عن عدم إفراغ الحطب الممتاز في دارها.

- يا أمنا - سأل صبح متصبراً، محاولاً ألا يُغضب والدته. - ألا يرضيك كل

هذا الحطب! أليست هذه الكومة الكبيرة من هذا النوع؟

- نعم يا ولدي، نعم. جئتما بحمل كبير... أأنت يا ولدي أم فيدور من

خطرت له عائشة المسكينة؟ - تابعت عُشخان بعينيها فيدور الذي يحمل

الرزمة الكبيرة.

- لا يهمّ صاحب المبادرة. - قال صبح وهو يسرّح الثورين من تحت العربة. -

المهم أننا جلبنا حطباً لعائشة.

- نعم يا ولدي نعم. حسناً فعلتما إذ لم تحرما عائشة من الحطب. كسبتما ثواباً.

ذهبت قبل قليل إلى الدكانة، أما رأيتهما؟

صبرت عُشخان ريثما اغتسل الحطابان، وأكل كلٌّ منهما وحده في غرفته، فلم

تقل شيئاً. وبعدها انتهى صبح من طعامه ومن دعائه إلى الله لام والدته:

- يا أمنا، حين نذهب أنا وفيدور إلى الغابة نأكل معاً، وحين نحشّ العشب

نجلس على مائدة واحدة. وحين نعود إلى البيت يأكل كلٌّ وحده...

- يا حسرتي، لا أعرف يا ولدي. ما تأكلانه كلاكما أطبخه في قدر واحدة.
قل هذا لوالدك.

- وأنت أيضاً قولي له. أليس عيباً أن نتجنب الرجل الذي عاش معنا سنتين
فصار منا؟.. فيدور أسير، صحيح نصّفه بالكافر، ولكنه ليس رجلاً سيئاً.
- إياك أن تسمعك جماعة قايمت أفندي تقول مثل هذا! - ارتعبت عُشخان
مما سمعت. ثم سحبت كلامها: - لو كان فيدور مجنوناً هل كنا سمحنا له أن
يختلط بنا؟ هيا تعال، سنطلب من فيدور بشارة!
- وأي بشارة؟

- أتنما المسكينان تعبتما في الغابة حتى لم تعد عيونكما ترى. لم تنتبها إلى ما
هو معلق بجدار الحظيرة، ربما ظننتماه شريطاً من البصل.
- وما هو المربوط إلى جدار الحظيرة؟ نخض صبح، وتبعته أمه.
فيدور جالس إلى الجدار الذي عُلِّقت به البالالا يكا بعدما فرغ من الطعام،
ومشد مضطجع أمامه. يتشمس مرتاحاً لشمس الربيع المنحدرة إلى المغيّب.
- فيدور، يا فيدور، - صاحت عُشخان - هات بشارة!
- هل هناك خبرٌ سارٌّ يا عُشخان؟ - نخض فيدور كأهم سيخبرونه بإطلاق
سراحه.

- نعم يا فيدور، هات البشارة!
صُبح مسرور لا يتكلم.
- أي شيء أعطيك؟.. - تلهّف فيدور. ثم أسرع بالقول: سأتيك متى ذهبنا
إلى الغابة بحطب ممتاز كالذي جلبناه لعائشة.
- وأنا أقبل. - رضيت عُشخان.
- وأكبر من حزمة عائشة وأحسن - أضاف صبح.
- وهل يحتاج هذا إلى تأكيد يا صبح؟!

- قالت عُشخان: انظر إذن يا فيدور إلى ما هو معلق وراءك!
تحمد فيدور حين التفت فرأى البالالايكاللماعة وراءه. تفحصها كأنه يقول:
هل يجوز لي أن أمسّنها؟ ومدّ يده إليها بحذر.
بعدها وقف فيدور برهة، استدار وقال:
- من أين جاءت هذه؟
- جاءك بها قَرخ - أجابت عُشخان راضية - وودعته.

X

يحدث كثيراً أن يصل الإنسان إلى جدار يسد الأمل حين يعتاد على مأساته.
لم يحدث أن نسي أناكسيفيتش فيدور يوماً واحداً في سنوات أسره المنطقة التي
جاء منها وقومه ولو اعتاد على حياة الأسر. ولم يخلُ من عادات قومه،
وطبائعهم، وممارستهم دينهم، ونمط معيشتهم، وأعراسهم، وزفافهم، ومآتمهم،
وطريقة غضبهم، وضحكهم، وغنائهم، وبكائهم. ستصادف في القوم الآخرين
الذين ستجد نفسك بينهم كثيراً مما لا تعرفه. وإن تقبّلتها فما ستعتاد عليه أكثر
مما لا تعتاد. ستعتاد على بعضها بإرادتك، وعلى غيرها رغماً عنك، وعلى
البعض الثالث بين بين. ولكن ما العمل؟ ليست الدنيا مركبة مما ترغب فيه
فحسب.

قال فيدور في السنوات الماضية موسياً نفسه بنفسه: الأديغة الذين وجدت
نفسي بينهم ليسوا من النوع الذي لا يمكن التعايش معه. وها هم، دون أن
أدري السبب، بدؤوا يدعوني إلى تناول الطعام معهم. ولم يعودوا يهمسون كما
في السابق مديرين ظهورهم إليّ. ولا يكتمون أخبار الأسرة فرحاً كانت أم حزناً.
وكثيراً ما يلجؤون إليّ في مواقفهم الحرجة وفي أسئلتهم. ألا يعرف جاقز مواعيد
زراعة البطاطا والذرة، وهل ستتلج أم تمطر؟ ألا يعرف أسعار جلود البقر
والخراف في السوق إن لم يستشري؟ ومن أين لي أن أعرف جودة القماش

النسائي الذي لم تمتد يدي عليه كل هذه السنوات وجماله، و درجة ملوحة الملح الذي يشترونه من دكانة بجائه، وجودة الفاصولياء التي يجنوها من البستان، حتى دواء من يؤله رأسه؟ في هذه المسائل تستشيرني عُشخان وعائشة، بل الجيران أيضاً. لا أستصعب الأمر، حسنٌ أن تنفع الناس. ولكن عند مَنْ أجد جواباً لمسألتي؟! شكراً لقرخ لأن البلالايكا التي جاءني بها تزيج عن رأسي بعض أفكارٍ، وتنقّس عن ضيقي. لا أسمع جاقز بخاصة من بين مَنْ أنا أسيرهم صوّتها، ولا أحد يمنعني من العزف عليها أو يشكو منها. أحياناً وأنا أعزف عند جدار الحظيرة تفتح عُشخان النافذة. ويجلس صبح بجاني باسمًا. ويتجمع الصبيان والصبايا من الجيران على السور. وتأتي عائشة إلى أرض الدار تحمل مكنتها. ولا يخلو الأمر ممن لا يُطيقوني. وليسوا قليلين من يقولون "كرهناك من وراء صوت آلتك الكافرة التي تصدع رؤوسنا"، ومن يلوحون لي بقبضاتهم. من العيب أن تؤاخذ هؤلاء. الحرب أوهنت قلوبهم... إذن كيف أعيش هكذا أحمي بعضهم، أساندهم في مأساتهم في مناسبة وغير مناسبة، وأنا لا أنفع نفسي في شيء، وأهلي، وجيراني، لا يعرفون أين أنا؟!!

أفكار فيدور المتضاربة، ولا سيما الأسئلة الأجوبة الأخيرة منها، جعلته يترك سور الحظيرة. ثم أعاد البلالايكا بحذر شديد عبر الفتحة التي تُسدّ شتاء بكمية كبيرة من التبن، وتُسدّ صيفاً بكيس خشن. وانصرف.

- لماذا يافيدور توقفت مبكراً عن العزف؟ - صاحت عُشخان من النافذة.
- ألا يكفي يا عُشخان قعودنا عن العمل والقرية تسخر منا؟.. - أمسك فيدور بالشوكة غير عابئ بما سيردُّ به على المرأة، حانياً رقبتها، ودخل إلى فناء المواشي، ودار حول حِمْل الحشيش الذي أتوا به أمس من مرعى الغابة، وجعلوا منه كومة مستديرة، وأصلح وضع الكومة من تحت ومن فوق بقفا الشوكة وأصابها.

ما يُقلق فيدور لاحقه مرة أخرى كذبابات آخر الصيف اللجوجة مع أنه كان ينوي التخلص من الأفكار التي داهمته عبر العمل. كان يجمع بعض ما سقط من الحشيش بطرف الشوكة ولكن هذه الحركة هاجت أفكاره دون أن يدري. غرز الشوكة في الكومة دون أن يدري ما يفعل بنفسه وسحبها، ثم أسندها إلى طرف الكومة.

اتهم فيدور موسم البطالة الصيفية الباعثة على الضيق، ولكن ما علاقة هذا بحاله. استند بصدرة على السور الذي يفصل القسم المزروع بالذرة الصفراء المزدهرة، وتنهّد بعمق. ها هي الذرة تنمو، والربيع مضى، الصيف يلتفت مودعاً. وبدأت أشجار الغابة تتبدّل إلى الأصفر والأحمر. وثلوج الجبل تتغير دون أن تدري. وحان موعد قلع البصل والثوم، وقطاف الفاصولياء والفلفل. والخريف يخطر للناس كعصفور ملوّن الجناحين، وسيحمل معه أعماله الخاصة به يبدؤون موضوع عرس صبح على سبيل المزاح ويخوضون فيه أكثر من ذي قبل، وأظن الخريف سيحمل معه هذا العرس. ها هو صبح رجلٌ آن أوأُنّ زواجه. وستتلو العرسُ أسرةً صغيرة، وسيمتلئ البيت بالصغار. ولن تسع الدنيا عُشخانَ من السعادة. أيمن أن يلين قلب جاقز حين يبدأ الأحفاد الصغار يتنازعون الجلوس في حضن عُشخان؟ وهل سيسفّق عليّ؟ لن أنسى له معروفه إن تحلى بالرحمة فأطلق سراحي... وأنا صارت بناتي في سن الزواج. الكبيرة في سنّ صبح. أليس من الحظ السعيد أن تشهد فرح أولادك؟ لیسعدك الله يا بُنتي!.. سأكون في عرس الصغيرة إن لم ألحق بعرسك...

- أهذا أنت يا مشد! - قطع الكلب الذي لامس رجله أفكاره العذبة. - أين أنت إلى الآن؟ هل كنت على طريق صبح تنتظره؟

أفزع فيدور غياب الجواب عن السؤال الموجه إلى الكلب. وطاف الفزع بارداً أوصاله، وأثار سؤالاً آخر: ماذا إن لم يعد صبح من حيث سافر؟ لا خير وقد

مضى أسبوع على غيابه. جاقز ليس مشكلة، عاش أكثر من نصف عمره. واجتاز الأفراح والأحزان التي تمر بالإنسان عادة. وهو راضٍ إن شهد عرس ابنه وحسب. يا ربي، لا يزال صبح غضاً، إحمه، لاحترم البشر من إنسان طيب مثله! لا يزال عرسه ينتظره، ما إن يحلّ الخريف. أعم الرصاص الروسي عنه وأصمّه يا رب، واجعل طرف الحرية ينبو عنه! أعدّه إلينا سالماً سوياً... إن عاد جاقز وحده مصاباً فأنا من سيبتلى..! أعدّ يا رب صبح سليماً معافى حتى لو كنتُ من سيدفع الثمن! ولا أخصّ الأديعة بالدعاء بل أبناء قومي الروس أيضاً. رقق هؤلاء أيضاً نحو من هجموا عليهم ويسلبونهم أرضهم...

رفع فيدور جسده عن السور وقد خُيِّل إليه أن أحداً ناداه. الدار هادئة وقت الظهيرة. الدجاجات التي أخلتها الشمس الحارة، والديك معها، جائئة أسفل مخزن الحبوب. ولم يعد يُسمَع صوت طيورٍ على أعالي الأشجار. لجأت الكائنات جميعها، بما فيها الذباب، إلى الظلال. أما القرية فلا يُسمَع فيها إلا صوت المؤذن يستعرض نشاطه أمام الله. ولم يبق كلب واحد فيها على شراسته، ولا خوار عجل إلى أمه. — جميعهم أخلهم ضيق الصيف. ولولا فيء كومة الحطب العالية لربما لم ينم فيدور ب صدره على سور الحظيرة. وسوقُ الذرة الصفراء جافة تماماً، جاهزة لاشتعال النار فيها لولا أن هواءً حاراً خفيفاً يمرّ عبرها.

قال فيدور: هذه هي الحال! الصيف ينقضي وهو يعصّ من خلفه بالحرّ، لا ينوي أن يلتفت إلى الوراء. وأنا؟!.. أنا من لا نوايا عنده؟ أنا من يفارقه الجميع!.. قلبي أنا على الجميع، يتألم لأجلهم، ويشفق عليهم، أتمنى الخير لأصدقائي وأعدائي... ولكن من قلبه علي؟! لم يعد يسأل عني أحد إلا كلافديه المسكينة وأسرتي الصغيرة. وهؤلاء الذين أنا في دارهم أصلي من أجلهم؛ ما حاجتهم إليّ لولا عرقُ جيني وكُدُ يميني؟! حاولوا أن يبيعوني وأن يستفيدوا بعض المال مني فساقتني ثلاث مرات إلى البيع ولكن لم يشتري، ولم

يسأل عني أحد... أين الجنود الذين صرخوا ورائي واعددين إياي بالحرية؟ الله أعلم إن كان هؤلاء البؤساء ما يزالون أحياء! وما أخبار كلافديه المسكينة التي أُنفي نفسي من أجلها؟ أما تزال هذه التي غبت عن عينيها كل هذه الأيام مخلصاً لي؟ أتراها نسيتني وأطلقت العنان لقلبها؟

هجم الدم الحارّ على جبهة فيدور، حتى انتفض من فوق السور. وأمسك رغماً عنه بالعمود بيديه. أيمكنها أن تفعل بي هذا فتُخرج البنيتين وتخرجني وكأن ما عليّ لا يكفيني؟! أنا، وإن كنت في آخر الدنيا، مخلص لها قلباً وروحاً. لا تخلو هذه الأنحاء من الأرامل، وبينهن من تعذّني، جداً أو هزلاً، أن تصبح موئل راحتي إن اعتنقت دينها. ولكني، ولا أعرف إن كان موقعي صحيحاً، لا أبدي لمن أي اشتاء. ها هي عائشة التي تعرف أن زوجها فارق الحياة منذ عدة سنين لا تزال وفية لزوجها... ويظل جاقز يشجعني على التودد إليها. وإذا كانت عائشة وفية لمن تعرف أنه لن يعود فأنت يا كلافديه التي لا تعرف وضعي لا بد أن تخلصي لي، ولا بد أن تنتظري حتى يتبين الأمر... يا إلهي ماذا ينوي لي جاقز بإطلاقي على راحتي؟ أيردعه أنه جعلني أقسم أمامك أم ينوي لي شيئاً آخر؟ أئمسك بي إلى الأبد مربوطاً إلى النير لا أنتمي إلى هنا ولا إلى هناك مجرد أنه رفع القيد الخشبي عن رجلي؟ ليس هذا عدلاً! ألسنت يا ربّ من يقول إن هذا غير جائز؟ أقسمت أمامك تردعني كلماتك اللطيفة والحازمة. وهذا القسم هو ما يمنعني أن أقول وأن أفعل ما أريد... إن حللتني من قسمي ومنحتني الحرية فأنا حاضر من هذه اللحظة لأجد في نفسي القوة على تنفيذ ما قررته. لا تظن أنني أعيش مع من وجدت نفسي بينهم محروماً من الرجولة، خالياً من أي عزم، ومن الخجل أمامهم. هؤلاء، ولا تجهل أنت هذا، الرجولة شرفهم، والجبان كربه إليهم. ولماذا أتنازل أمامهم فأتصاغر؟ أعترف أنه ما كان عليّ أن آتي بالسلاح إلى مكان ليس لي فيه شيء. وأصلي من أجل أن يغفر

لي من قَضَوْا برصاصي، وأكفّر عن خطاياهم. ولا أعرف بِمَ أسوّغ إحراق قري بعضهم... إن قلت إني كَفَرْتُ عن ذنوبي بسنين أُسْريَ فرما أكذب عليك، ولكني لم أدخر جهداً، وأنت شاهدي، تواضعت لهم وانقذت وتصارغْتَ... لا تظنّ أني استرجعت شجاعتي الآن لأنني كنت أشعر بنفسي حرّاً بروحي وبقلبي وبأطرافي. أنت الشاهد الوحيد، حين جاؤوا بي أسيراً، وحين كان القيد الخشبي على رجلي، وحين حُبست في مخزن الحبوب الخشبي، وحين كانوا يطوفون بي وأنا خائف منهم، لم أسمح لفكرة الحرية أن تفارقي. ولكني لن أسمح لأحد أن يتخذ مني ممسحة لرجليه سواء كنتُ بريئاً أم مذنباً. وأنت امنحي القوة لتحقيق هذا، ولا تسمح لي أن أخطئ في التصرف... صبح وقرخ وجاقر ودوداي، وأكثر رجال القرية في الجبهة الآن، ولا أخبار عنهم إلى الآن حسنةً أو رديئة. انشُر السلام بين الطرفين المتحاربين، هذا أُملي أنا في استرداد حريقي. وإن لم يحدث هذا ورجعوا بعربات نقل الموتى فلن أتحمّل المزيد من نواح نسائهم... ومهما خطر لي من أفكار فأنا أتوسل إليك من أجل أمر واحد: صبح على وشك أن يرى فرحته فأعِده سالماً!

حين قفز مشد من مكانه وهجم على السور ينبح نباحاً فَرِحاً خرج فيدور من أفكاره، وسأل الكلب وهو ينظر في الجهة التي يتوجه إليها صوت الكلب:

هل سمعت وقع خطوات؟ أم هو صوت بكاء؟

نظر فيدور وقد امتقع وجهه من الأفكار التي راودته. لم يكن في أي جهة ما يمكن أن تشكّ فيه. الشمس تغلي في كبد السماء، والهواء الحار الخفيف يجعل أوراق الذرة الصفراء تتهامس. ويحرق أطراف الأعشاب البرية وراء البستان. ويجفف الأرض. ارتفع فجأة في شمال القرية نباح كلب، ولم يجبه أحد. أما مشد فقد عاد بكل هدوء إلى سريره من الحشيش اليابس وكأنه لم يقم للصوت.

- هذه طبيعتك يا مشد - لام فيدور الكلب باللغة الروسية التي لم يستعملها

خلال نصف سنة، - تنصب أذنك فستمع، ثم تصمت كأن الأمر لا
يعنيك... - إن كنت ضجراً فتعال، - أضاف باللغة الأديغة، - لن أعتب
عليك.

وفي اللحظة نفسها نادى عائشة من الباب الصغير:

- يا فيدور أنظر إليك فلا تعجبني طريقة استراحتك على السور تحت هذه
الشمس القائظة ؛ هل يؤلمك شيء؟

- تفضلي يا عائشة! - استقبل فيدور الجارة، - لست مريضاً، كنت أراقب
عرانيس الذرة.

- هل كنت تعدّها؟ - سألته بطريقة لا تعرف معها إن كانت تمزح.

- وكيف يمكن عدّ كل هذه العرانيس!

- أقول هذا لأن اعتمادك على السور طال... - خجلت عائشة من طريقة
سؤالها فسحبته.

- ألا تدخلين يا عائشة بدلاً من أن تقفي!

- لا مانع أن أدخل. هل عُشخان في البيت؟ لماذا لا يصدر أي صوتٍ من
الدار؟

- ربما تكاسلت من الحرّ.

- نعم، حرٌّ يبعث على الضيق. إن كانت عُشخان تستريح فلن أزعجها. ما
أسعد من تستطيع أن تضع رأسها على الوسادة في هذه الظهيرة الحارة! لو
أغمضت عيني في النهار لقضيت ليلي وعيناي تلمعان من الأرق.

يرفع نهدا عائشة المدوران المتينان الثوب القطني الملون. والغطاء الأبيض الذي
تعصب به رأسها يُيدي وجهها أشد بياضاً. وخصرها الدقيق كالحاتم يتعالى
على ردفين مدوّرين. والنسيم الرقيق الذي يتسرب من الباب الصغير نصف
المفتوح يعبث بذيل الثوب الرقيق الذي يتجاوز الركبتين. وإحدى اليدين

البيضاوين تعتمد على قائمة الباب فيخيل لفيدور أنها تمس كتفه. وعيناها العسليتان الفاتحتان تتأملان وجهه تريدان أن تحكيا ما تريدان ولا تستطيعان. - ألا تدخلين يا عائشة، لماذا أنت واقفة؟ - بدا من صوت فيدور خجله. - لا بأس أن أدخل، ولكن إن كانت عُشخان تستريح فلا أريد إزعاجها. لم تعد رجلا فيدور قادرتين على المزيد من الوقوف في حضرة عائشة. وقال لها وهو يريد أن يصرفها، دَعَك من أن يُدخلها:

- عُشخان تستريح.

- أليس من أجل هذا لا أريد الدخول... - ألقت عائشة نظرة ودّ على فيدور، ثم تشجعت وقالت له:

- وأنت لن تنظر إلى خارج الباب حتى لو متّ ؛ لا أعرف ماذا تفعل طوال الوقت في هذه الدار المُعَمّة!

- يا عائشة، ما تقولينه حرام، لا تغمطيني حقي، كثيراً ما دخلتُ دارك، وبيتك. وذقتُ من طعامك...

- ليس هذا ما أقصده! - قاطعت عائشة فيدور الذي بدأ حديثاً مطوّلاً - أقصد أنك لا تأتي حين تخطر لي... - استدارت عائشة مسرعة وانصرفت.

- يا عائشة، ما تقولينه حرام. أنتِ تُذنبين بحقي... - صاح فيدور وراء المرأة التي ابتعدت بقوامها الرشيق.

- لا تقلّ يا فيدور! - أجابت عائشة دون أن تلتفت.

بقي فيدور مدة واقفاً أمام باب الدار لا يعرف ماذا يقول وماذا يفعل. ثم بحث حوله كمن يسرق شيئاً، خائفاً أن يكون أحدٌ سمعهما.

XI

- ألا تقف يا قرخ! - استدار قايمت أفندي بعد صلاة الظهر، وقال له - لي معك حديث قصير.

قايمت مغمضٌ عينيه يتلو أدعية كأنه سيقى في الجامع إلى صلاة العصر، ولا يتحرك. والمصلون الذين كانوا وراءه وإلى جانب قرخ غادروا الجامع بأحذية خفيفة. وقرخ الذي أنجز صلاته هل يعيدها؟ يسوّغ جلوسه بتمتة بعض الأدعية. وفي لحظة انقطاع الدعاء يقول لنفسه: ماذا يريد مني الأفندي، وماذا ينتظر ليخبرني؟ ثم يستأنف الدعاء شاعراً بأنه يُذنب إذ تتخلل الأسئلة دعاءه. يشعر بأنه لم يبق في الجامع غير الاثنين ولكن لا يجذب الالتفات.

تحرك رأساً كتفي قايمت النحيلان. مد يده بحرص شديد ودون أي استعجال وأغلق المصحف المفتوح. ومسح براحتيه الدقيقتين على جسده. وأعاد ما بين يديه ولا يثقل عليه، مُعزّاً إياه إلى رفّ الحراب. وتلمّسه ثانية على نحوٍ يُشهد قرخ على احترامه الزائد له، وحنى له رأسه حنية خفيفة. وقال لقرخ وقد صار مقابله بعدما تراجع بضع خطوات معتبراً ترك القرآن بهذه السرعة قلة احترام له:

- تقبّل الله صلاتنا!

- آمين! - وافق قرخ راضياً في نفسه الأفندي.

وبعد قليل قال الأفندي قايمت:

- لا أجد يا قرخ من المناسب الحديث داخل الجامع في الموضوع الذي استبقيت لك لأجله. انتظر حتى نخرج من فناء الجامع.

- كما تريد يا أفندي!

- كيف يكون لي الخيار في هذا يا قرخ. ما نقول وما نفعل بإذن الله، وكما يأمرنا ويرشدنا. قل آمين يا قرخ!

- آمين! - قرخ جاهز للجواب.

لم يبق أحد أمام باب الجامع. انصرف الجميع وتفرقوا في القرية يناديهم الخريف الناعم إلى العمل. وتبدو أقفاء قبعات الرجال من بعيد. وعلى زاوية الشارع الآخر يجلس عجوزان على قرم شجرة وقد أسند كلٌّ ذقنه على طرف

العصا. ويُسمع من على ضفة ساقية صوت امرأة ذات لسان سليط. وأيقظ هذا التعنيف من قبل المرأة بعض الكلاب الكسلى. صدر من طرف القرية أصوات بضع طلقات مسدس فانتفضت الكلاب.

- من هذا الذي يرمي جزافاً؟ اعترض الأفندي، وحُيِّل إليه أنه سمع عزف أو كورديون.

- الصوت يأتي من حيّ دوداي.

- وأنا شككت في هذا الاتجاه.

ومرة أخرى صدرت أصوات طلقات متتابعة.

- هذا تجاوزٌ للحدّ!.. - رفع قائمت أفندي وجهه النحيل الحكيم، وقال للشباب الفارس الذي يقترب منهما: - هيا يا ولد أسرع واعرف ما يجري! من هذا الذي يرمي عبثاً في هذه الظروف السيئة؟!

- هذه الطريقة في الرمي طريقة دوداي... - صرّح قرخ باسم من يطلق النار ولو أنه يعتبره باعثاً على الحزن. ثم أضاف: ولكني لا أعرف ما جرى له.

- وهل تسأل عما جرى له؟ - التمعت عينا قائمت أفندي الآن، ثم أجاب بنوع من العتاب وهو يكظم غضبه:

- ربما فقد صديقكم رشده من الباخسمة؟

- عاد الفارس الذي أرسله قائمت أفندي مسرعاً:

- لا خطر يا قائمت!

- من الذي يطلق؟

- دوداي!

بدا على وجه قرخ استياؤه من ذكر اسم صديقه ولو أنه كان يشك فيه. وكان يريد أن يقول شيئاً ولكن سؤال قائمت أفندي قطع مشاركته:

- لماذا يبدد دوداي طلقاته بلا جدوى بدلاً من أن يصبّها على الروس الكفار؟

- ليس دوداي وحده يا قايمت - أجاب الشاب بما رأى متجاوزاً سؤال قايمت الذي لا يعرف جوابه.

- ومن معه؟ سأل قرخ.

- جاقز، والروسي الكافر فيدور.

-وماذا يفعلون؟ - نظر قايمت أفندي في وجه قرخ نظرة عتاب تقول له: هل تسمع...

- جالسون على مائدة تحت شجرة. يطلق دوداي النار، ويعزف فيدور على البالالا يكا.

- خمنتُ هذا... - تتم قايمت أفندي، ثم رفع صوته: - كل الناس صاروا عُشاق السلاح... لا شيء يلجمهم!

- يا ولد أسرعْ واثني بحصاني المسرح. - قال قرخ للفارس قلقاً من الخبر الذي سمعه. ونطق بضع كلمات غاضبة: - لماذا يصطحبون معهم فيدور؟ - حين ابتعد الفارس توجه إلى الأفندي يذكّره: - أسمعُك يا قايمت بشأن الموضوع الذي كلّمتني عليه.

نظر قايمت بعينين حكيمتين قلقتين كأنه يقول لقرخ: لا تؤاخذني! وأزاح دون استعجال قطعة الحجر دون أن يعبأ بالإجابة. ومرة أخرى أنصت نحو الجهة التي تصدر منها أصوات إطلاق الرصاص، وقلق للأمر:

- كفى يا قرخ، في وقت آخر... كنت أنوي أن أتكلم معك في شأن أسير بَراد جاقز... لاحقاً، ليس هناك شيء مُلحّ. الأفضل أن تُطلّ على أولئك الذين يطلقون النار بلا معنى. وكنت أريد باسمي... هل يجوز اللعب بالطلقات التي نجدها بمشقة!..

لا يعرف قرخ تفسير الخبر الذي جاءه، ولا يفهمه. كيف وقع بين هؤلاء؟ وإن أودى من يحبون الباخسمه بفيدور إلى السُّكر؟ كنت سمعتُ في هذا الربيع

دوداي يتحدث إلى فيدور في شأن المشروب الروسي. حين يذهب إلى بازار "جتونه" الروسي لا يعود إلا وقد شرب منه سراً. الزجاجة التي اشتراها مرة انتزعناها منه ودفعناه إلى كسرهما في إحدى الزوايا. لا أستطيع أن أجزم أن جاقز مولع بالمشروب، ولكنه يشرب إن وجده ولو قليلاً... ولماذا يطلبون من المسكين فيدور أن يعزف على البالالايكاً؟.. لا يجوز أن تعتب على قائمت أفندي. أيُّ أفندي يقبل منك أن تقف أمام الله سكران، تعبت بالمسدس بدلاً من أن تقف أمامه طاهراً؟ الحق أتساءل ماذا كان قائمت يريد أن يخبرني بشأن فيدور؟ خبر سعد أم خبر نحس؟ لم يسمح فيدور للناس أن يتكلموا عليه بسوء. وكيف تتكلم بسوء على من ليس في قلبه إلا الخير؟!

توقف قرخ على باب دوداي. تحت شجرة الإجاص الكبيرة أمام البيت مائدةٌ عامرة بأطياب الطعام. وعليها دوداي وجاقز. وغير بعيد عنهما يجلس فيدور على كرسي منخفض رجلاً على رجل. وفي حضنه طرف البالالايكاً. وعلى يمينه قدح كبير من الباخسمه. ويبدد دوداي قدح ملون مليء بالشراب، ولا يخفى أنه يلقي خطبة على شرف الشراب. — يهزّ القدح، ويرفعه. ثم ينهض ثقيلاً متأثراً بالشراب:

— فيدور اعزف لي ريثما أشرب هذا القدح على شرف قائمت أفندي الذي لا يحب الشراب!

جاقز يضحك وقد توهج وجهه من الشرب، ودوداي يشرب، وفيدور يعزف. وأطفال الحي يتلصصون من ثقب السور. وشمس الخريف لا يُعجبها ما ترى فتبتعد من فوق أغصان الإجاصة.

— أحسنت يا فيدور! يقول دوداي بالروسية بعد أن يحتسي الكوب الملون الكبير، رافعاً إياه بكلتا يديه. ويضيف بالأديغية: — ونحن لا نجهل لغتك. أحسنت العزف. ولكني عاتبٌ عليك يا فيدور، لا تستطيع أن تُجهز على

الباحسمه الممتازة.

- اتركه يا دوداي لعزفه. - لا يوافق جاقز أخا زوجته.

- لن أتركه يا جاقز!.. - ينهض دوداي من المائدة ويتجه نحو فيدور. يحمل كوب الباحسمه الكبير. - لن أقبل منك يا جاقز ولو أنك صهري!.. خذ يا فيدور! الباحسمه بجانبك طوال النهار، اشرب! إن لم تشرب أيها الكافر سليل الكلاب، هل ترى هذا!.. - يهزّ دوداي بيد واحدة المسدس، ويطلق إلى الأعلى.

- دوداي هل فقدت عقلك؟ - يقفز قرخ من على الحصان، ويسرع إلى تحت الشجرة. ماذا تفعل؟ هات المسدس!

- هذا أنت يا قرخ؟ - يلتفت دوداي بوجه محمّر مسروراً بمن سمع صوته. - خذه، ولكنه فارغ.

تفقد قرخ المسدس الفارغ، ووضعه كما هو مفتوحاً بين فرعي الشجرة.

- من حظنا أنك جئت يا قرخ، تأخرت - قال جاقز.

- وهل أرسلتم ورائي حتى آتي؟

- نعم أرسلنا وراءك ولكنك أطلت صلاة الظهر. يا دوداي كفاك، أرجوك، كافرنا هذا لن يقبل الشرب.

- والله ليشرّب!

- يا دوداي! قال قرخ بصوت حازم دون غضب - لا تُلجّ على فيدور! الرجل لا يشرب، لماذا تجره؟

- إن كان هذا رأيك يا قرخ، - أبعد دوداي كوب الشراب من أمام فيدور - لن نخاصم من لا يشرب. ولكن سأقول لكما ما أستغربه: لم أصادف إلى الآن روسياً لا يشرب، ولا بعوضة لا تلدغ. فيدور، إن تركنا قايمت أفندي جانباً، شيخ حقيقي. كلّ إذن يا فيدور. واعرف لنا بعد أن تفرغ من الطعام.

- ما جلوسكما إلى المائدة اليوم في يوم العمل هذا؟ - سألهما قرخ دون أن يتوجه إلى أيٍّ منهما. ونظر بطرف عينه إلى فيدور الممسك بالآلة متألاً لحاله. وأزاح من أمامه قذح الباخسمة - لا أفهم سرَّ نشوتكما.

- ستفهم متى قلنا لك - قال جاقز.

- حين يرفع قذح الباخسمة يا صهر!

- لماذا تجبروني، أنا لا أشرب.

- نعرف أنك لا تحبها، ولكن نرضى أن ترشف منها رشفة. - لم يتراجع دوداي.

- لن أذوق قطرة منها!

- ستندم يا قرخ. - كرر جاقز بلامبالاة. - جئنا مساء أمس بخبر جيد يسرك ويسرنا. وكيف لم تسمع به إلى الآن!

- لم يصدر من المصلين خبر جيد أو سيء، - لم يعرف قرخ تفسير ما يسمع.

- أنتم ما حاجتكم إليه، توجهونا إلى قتال الروس مع أدعيتكم... اسألوا إذن أهل بج حابله!..

- ولماذا أهل بج حابله؟

- يا جاقز، لا تدعنا نذنب بحق الصديق، إرو له!

- صباح أمس يا قرخ، حين كنت تصلي وراء قايمت أفندي، - بدأ جاقز منشراحاً للخبر - التقينا أنا ودوداي برفقة ثلاثين من أهل بج حابله بنجارين من قوم فيدور في الغابة. ولم نسمح لأحد من الأحد عشر جندياً أن ينجو بجلده. ألا يحق لنا أن نحتفل بكأس لأجل هذه المناسبة؟!

ليس لأول مرة يسمع فيدور هذا الخبر، بل منذ الصباح. منذ أن جلس الرجلان إلى المائدة ليس لهما شاغل غيره، ويزيدهما قوة استماع فيدور إلى الخبر. - ولهذا لم نكن نبخل بالرصاص. ومع أن فيدور امتص صدمة الخبر ويرثي في قلبه جنود

قومه فإنه لم يستطع إلا أن يتألم لهم الآن أيضاً. ولم يُبدِ على حاله الحزن ولو عصر الألم قلبه مرة أخرى. وهو جاهز للعزف على البالالا يكا إذ لا أمل له. عاد إليه شيء من الروح حين رأى قرخ، غير أنه قلقٌ لجواب السؤال الذي طرحه عليه. هل يوافقهما؟ وإن وافق أبناء قومه فليس في الأمر ما يدعو للعجب... جاؤوهم محاربين، يسلبونهم أرضهم، يصنعون حطب غابتهم، يحشّون عشبهم، ويشربون ماءهم... ولكن قلبي تألم مع ذلك لأبناء قومي المغلوبين على أمرهم، ولا أنساهم. هذان الجالسان أمامي أوأخذها على أمر واحد: لو لم يرووا أمامي البطولة التي اجترحوها ضد أبناء قومي بتلذُّدٍ لا نهاية له! وها هما الآن يعيدان الخبر، يتنافسان على روايته. ماذا سيكون رأي قرخ يا ترى؟.. لن أعتب عليك يا قرخ مهما قلتَ لهما. من البديهي أن توافق أبناء قومك!

- لم تعلّق بشيء يا قرخ؟ - قلق دوداي.
 - ولماذا لا أعلق؟
 - لم نسمع شيئاً.
 - ليس ذنباً أن تقتل من جاء لقتلك، - قال قرخ، وأضاف بعد قليل: - ولكن الأفضل ألا تقتل أحداً...

- اسمع يا جاقز ماذا يقول! - استغرب دوداي ما يسمع.
 - في كلام قرخ نصيب من الصحة يا دوداي... - مدّ جاقز يده إلى الشراب لا يُطيق صبراً، وسمع تنهيدة فيدور. - وها هي تنهيدة فيدور تشهد... ولكن لا نعرف من سيتكلم من أعماقنا... أنا ما كنت أفضل شيئاً على أن يكون أخوأي على قيد الحياة، كانا سنداً لي... ولو كان جاري المرحوم أحمد حياً، ولم تترمل عائشة...

- صحيح يا جاقز - يوافق دوداي الصهر.

- ولم يكن هذا الكافر المسكين ليجلس أمامنا مشتتاً الحرية.

- صحيح يا جاقز.

- لا أريد أن أسيء إليك يا قرخ، غير أنني لا أوافقك على كل ما تقول.

- كيف توافقني على كل ما أقول - لم يُصّر قرخ على رأيه - وديانا الفانية ليست مركبة بالطريقة التي نريدها تماماً. ولكن كان الأفضل أن يكون غائبونا بخير.

- كان أفضل... - كرر جاقز كلام قرخ وهو يتميز غيظاً. - ولكني أفهم سبب عدم ارتياحك لهذا الخبر... وربما كان هذا السبب في شرطي الباخسمة.

- لماذا؟ ما الذي لا يعجبك في انتصارنا يا جاقز؟ سأل دوداي.

- فيه شيء لا يسّر يا دوداي. فهم قرخ ما أريد، لماذا لا يقول قرخ؟

- في قلبي أشياء كثيرة يا جاقز.

- إذن سأقول لك: ما فعله اثنان وثلاثون مقابل أحد عشر لا تعدّه بطولة منا؟!

- الخاطرة التي غزت رأسك فيها نصيب من الصحة.

- ما أعجب ما يقول هذان! - صرخ دوداي، ونخض غاضباً، ورفع مسدسه من بين فرعي الشجرة. وغمغم - ما وصل إليه هذان من أفكار...

- ولكن يا جاقز، - تابع قرخ دون أن يعبأ بمقاطعة دوداي له: - الحرب لا تعترف بعدد كبير أو صغير. كان بإمكان هؤلاء الروس الأحد عشر أن يقتلوكم أنتم الاثنين والثلاثين... فطمئن قلبك إذن؛ لا شيء يردعك الظلم عن فعله.

- اسمع يا فيدور ما يقول هذان! - ناداه دوداي وقد وجد فيه سنداً.

كان فيدور جالساً كصخرة بيضاء مصبوبة. ولم يتحرك.

وبعد قليل تذكّر جاقز ما كان قاله مُجد أمين النائب بشأن أسيره، وصبّ عليه حقه:

- لماذا أنت جالس يا فيدور؟ ألم يبق في دارنا ما تعمله؟ اذهب واشتغل!
نهض فيدور لا يُظهر فرحه بالأمر وإن كانوا غضبوا عليه.

XII

لا يعرف فيدور أين يذهب بنفسه بعدما تداخل خبر مقتل الجنود الروس على يد جافز وصحبه بالتودد العلني للجارة الأرملة إليه. في أسوأ الأحوال ليست الأرملة عائشة مشكلةً. إن قابلتها بمثل عُنجها الهازل انتهى الأمر إلى اللقاء القادم دون أن تدري. وأحياناً يطفو ما جرى إلى الذاكرة حلواً.

أناكسيفيتش فيدور ليس جديداً على رؤية قتلى من الروس ومن الأديغة في الحرب، وليس قلبه غريباً عن التألم من أجلهم. وإلى الآن لا يفارقون مخيلته. ولا تفارق صيحاتهم وأناهم أذنيه. ولا تفارق مخيلته أيضاً القرى التي أحرقوها... ولكن ربما أضيفت المناسبة التي طُلب منه فيها أن يعزف على آلهة فرحاً بالقتلى الروس إلى وضعه اليائس في الأسر، فهي تتثقل عليه جداً ولو أن من كانوا السبب فيه نسوه منذ زمن بعيد. وفيما هو يرثي الجنود الروس وإن لم ير طريقة مصرعهم، لائماً نفسه إذ يتخيل نفسه معهم، يجد في البكاء عليهم والبكاء على شخصه تنفيساً عن أزمته. وربما كان هذا هو السبب في أن البكاء يتكرر من وقت إلى آخر، جالباً له حالة من نوبة عصبية تَهزّ كيانه كله.

لم يتوقف المطر الخريفي البارد الناعم منذ ثلاثة أيام. والأشجار تتعري بدلاً من أن تلبس جيداً استعداداً للشتاء القادم. وأغصانها ترتدي لوناً أسود، وتزداد قساوة. والمطر الرطب حتى رؤوس الأعشاب اليابسة حتى لامست الأرض. ومشى عليها وضحكته تسري فوقها. وتتبدد زينة القمم البيضاء في المطر الذابل. وأصوات السواقي الصغيرة التي كانت تتناثر كقُت عن الصراخ عبر الهواء الرطب. وزاور حابله تُطلُّ على الخريف الأزرق مرتجفةً بمحمول من خلال حظائرها المغطاة، وأهرائها الخشبية، ومنارتها العالية. وتسمع بعد انتظار مشوّق

لها ما يُشعرك بالحياة فيها، سواءً كان نباح كلاب، أم خوار أبقار، أم تُغاء خراف.

يغلب على فيدور ثقلُ الخريف الرطب. وما يسدّ عليه المنافذ أفكاره اللامتناهية. يستلقي على ظهره فوق فراش التبن. ينظر عبر النافذة ويدها متصلبتان تحت رأسه. — عيناه مثبَّتتان على منتصف سقف الحظيرة. ومنذ زمن بعيد احترق حطب الموقد فتصدر منه بصعوبة رائحة دفيءٍ يبرد. ومع أن الوقت صباح خريفي متأخر فالحظيرة لا مظلمة ولا منيرة. ومنذ زمن بعيد اعتاد على هذا المنظر إذ فقد اهتمامه بما يجري في العالم. ومشدّ يفترش أرض الحظيرة. ورغم أنه يبدو نعيسان فهو ينظر أحياناً بعين واحدة إلى فيدور المعتمد برأسه على الجدار الطيني الداعم للموقد.

هكذا سيكون مصيرك إن كنت سيء الحظ، يخاطب فيدور نفسه. أجبروني أن أغني لمأساتي على البلالايكا في الوقت الذي أعمل فيه على التآلف مع من وقعتُ أسيراً بينهم. إن كانت المشكلة تتعلق بشخصي فلا مشكلة، أتلاءم معهم إن أردت، وأغني إن طفح الكيل بي. أعيش بما يتناسب والوضع الذي أنا فيه. ومهما قالوا لي أو فعلوا بي فأنا أستحق. كان عليّ ألا أوقع نفسي بين أيدي هؤلاء حين جرحوا رجلي وسقطتُ أسفل الشجرة. وكان الأفضل أن أقاومهم حتى يقتلوني إذ كنتُ في وعيي. ومثل هذه الفكرة كانت تراود جاقز لولا أن قرخ حال دونه ودونها... يا حسرتي يا قرخ، لماذا أشفقت عليّ ساعتها! لو قتلتموني لاسترحنا أنا وأنتم منذ زمن بعيد... انظر ماذا حدث لي الآن. سفكوا دماء أبناء قومي التعساء فأعزف فرحاً بمأساتهم... ما فعلته في ذلك اليوم حرام وذنْبٌ حتى لو كنتُ مضطراً. لا أحد يشفع لي هذه الفعلة. وأنت أيضاً يا إلهي لن أغفر لنفسي ولو غفرت لي! أنا أفكر، وأهتم لأسئلة تتعلق بي من نوع: لماذا لا تزال في مكانك، لماذا لا تهرب وتلتحق بقومك؟! وهذا أيضاً

لن أقبله منك. لماذا لا تزودني بصلابة ومهارة تعينني على أن أفعل هذا؟ لا تُجيبني، ولا تساعدني. أخبرني إن كنت كرهتني ؛ لماذا تقودني في الدنيا لا أهنأ بحياتي، ولا أموت فأستريح؟

فزع فيدور من صيحة قلبه فقفز من مكانه. وابتعد مشد من المكان بسرعة غير عارفٍ ما يجري. هوى فيدور أمام صورة الإله على ركبتيه، وقال له بصوت عالٍ مع إيماءة الاحترام:

- يا إلهي، قلتُ رغماً عني ما لا يجوز فاغفر لي! ما كان يحق لي إن وقعتُ في ضائقة وأنت لي، ليس أن أقول ما قلتُ إذ وقعت مرغماً بين غير أبناء قومي، بل أن أفكر فيه يا إلهي العزيز، يا إلهي العليّ، يا مَنْ يتوسل إليه الجميع ولا يتوسل هو إلى أحد ؛ فاغفر لي يا إلهي الرحيم! - تنهمر دموع فيدور، وتجري على شفثيه حتى ليشعرُ بملوحتها. يرسم دون توقف إشارة الصليب، ويومئ برأسه. - أستحق لو عاقبتني بموقف أقسى مما أنا فيه. وإن قلتُ لي إنك ستختطف مني القلب والروح اللذين خطر لهما ما خطر نحوك فأنا راضٍ عنك. وإن قررت أن تنقلني من دنياي الفانية فأنا جاهز من هذه اللحظة. ولكني لا أقصد بهذا أن أحول ضيقي إلى الفرج. ومهما فرضت عليّ فهو حلي! اغفر لي واحمني واشملي برعايتك!.. - قَبِل فيدور صورة الإله ثلاث مرات، ولمسها بجبينه، ومسح عليها براحة يده، ونهض. ثم عاد فجلس على فراش التبن مستنداً إلى حائط الوقاية.

فيدور شاحب الجسم كله حتى أطراف أذنيه، لا يصدر عنه صوتٌ أو نأمةٌ حتى كأنه كَفَّ عن التنفس. وإن أضيف إلى لحيته البيضاء راحتاه الرقيقتان المسبلتان على فخذه فهو شخص انثُشل من حضرة الموت وأُجلِس. ومشد لا ينام في مكانه من أرض الحظيرة. يتأمل وجه فيدور على قائمته الخلفيتين مستعداً لتلبية نداءه.

يعود فيدور إلى وعيه حين يلمح مشد:

- ما الأمر يا مشد؟ أنت مقيم معي؟ أسبب لك الحزن وكأنه لا يكفيني أنا.
هل تعرف لماذا؟ - ينهض فيدور. - تقتلنا البطالة فتتسلل إلى رؤوسنا الأفكار السيئة.

- جلستنا هذه غير مقبولة - يسأله بالروسية بعد سكتة: - هل فهمت؟ ثم يضيف بالأديغية باسمًا: - كيف لك أن تعرف الروسية وأنت غير روسي؟! تعلم أنت أيضاً، وأنا لست أديعياً غير أني أعلمها.
جلس فيدور إلى باب الموقد وقال لمشد:
- سندفئ غرفتنا قليلاً.

اشتعلت نار الحطب في الموقد، وبعد قليل صار جُؤ الحظيرة مؤنساً. صحح فيدور أفكاره فيما يمد يده إلى النار ويقبّلها. ولكنه نهض من تلقاء نفسه دون أن يسمح لها أن تسيطر عليه:

- لا معنى لأن نبقي جالسين، نستهلك الوقود عبثاً. إن سخّنا بعض الماء نفَعنا. ما رأيك أنت يا مشد؟ وأنت لا تقعد عاطلاً عن العمل هكذا. اذهب وتفقدِ الدار! وانبح إن رأيت غريباً. لا تعصّه ولا تؤلمه!

نهض مشد متثاقلاً كأنه فهم ما قيل له، وقضى بعض الوقت وراء فيدور يبحث ما في الأرض. وتمسّح بضع مرات برقبة من لا يوليه اهتماماً. وخرج من الحظيرة. ولما لم يسمع فيدور النباح الذي ينتظره قال:

- في وجه من غيبي ينبح في هذا الجو الرديء؟! يا إلهي لا ألوم أحداً. ألوم نفسي فحسب...

سُمع من جهة الحظيرة وقع أقدام ناعمٍ فقال فيدور دون أن يلتفت، ودون أن يسمي المخاطب، ظناً منه أن الصوت قوائم مشد:

- رجعت سريعاً!

- أين كنتُ يا فيدور؟

- استدرِك فيدور بسرعة:

- هذا أنت يا صبح؟ - أصلح فيدور الموقف خجلاً: - كنت أتكلم إلى مشدد... ألسْتُ وحدك؟ ادخلا واجلسا!

دخل إلى الحظيرة رجل في الثلاثين تقريباً يفوق صبح ضخامة. وتفحص فيدور بنظرة حادة، وسأله:

- هل أنت فيدور؟

- نعم، تفضَّل، الأديغة ينادونني: فيدُر. وقومي ينادونني: فيدور دانيلوفيتش. ونسبي هو أناكسيفيتش. وأنت من؟

- أنا لستُ من هذه القرية زاور حابله. ونسبي هو دَعُجي¹ واسمي جامبج. ومن قرية نَجْقوه حابله، إن كنت تعرفها.

- هل قلت نَجْقوه حابله؟ - ارتفع صوت فيدور من اسم القرية. ودون أن يقول له من أين يعرفها انتصب في خياله إحراقها في غارة ليلية. وازداد رعباً على رعب إذ توجس أن يكون قادماً للانتقام. وفكر أن يرسم الصليب ولكن لم يجد تصرفه مناسباً أمام الرجل الذي لا يعرفه.

- نعم، نَجْقوه حابله. قبل سنوات أحرقتها جيشكم دون أن يتركوا فيها أي سقف. من طريقة سؤالك أخمّن أنك كنت بينهم، غير أنني لا أعرف إن كانت رجولتك تسمح لك أن تقول الحق... - جلس جامبج على المقعد الوثير الذي أشاروا به عليه في الجانب الآخر. وأدار الخنجر الفضي إلى الجانب الآخر كي لا يتعثّر به.

نظر فيدور إلى صبح بما يعني الاستفسار عن نية هذا الرجل الذي جاء به

¹ الأصم الصغير.

إليه. ولكنه أجاب على ما سئِل عنه مُشهداً على عدم حاجته إلى من يساعده:

- لا يتحدثون عن رجولة في الحرب غير العادلة.

- حياك الله على أنك لم تتستر بالحفرة، فهمتُ، - قال جامبج وسكت قليلاً، ثم أضاف. - لم يُخطئ قرخ؛ أثبت أنك مستقيم.

- ما شأن قرخ بالموضوع؟

- أم جامبج وزوجة قرخ أختان. - قال صبح الذي لم يتدخل إلى الآن في الحديث.

- هكذا إذن؟ - سأل فيدور على نحوٍ لا تعرف معه إن كان يستغرب أم لا.

- في الليلة الماضية جاء جامبج إلى قرخ في عمل. - أضاف صبح إلى كلامه. - لم يقبل أن يسافر دون أن يراك.

- حياه الله إن جاءني بنية حسنة... - لم يستطع فيدور أن يخفي توجّسه في كلامه وإن كان ارتاح لما سمعه.

- ما المهم في أن تكون نيتي حسنة نحوك أم غير حسنة؟ - ضحك جامبج من بين لحيته وشاربيه الأسودين حتى بدت أسنانه البيضاء. - ما سيجري لك جرى وانتهى. أنت تعيش على هامش الحياة تحمل اسم الإنسان ولا تحمل... لو التقينا في معركة لكان الكلام بيننا للخنجر المسلول... ما الفائدة في أن تطعن الخنزير المقتول بسكين؟!

- ما تقوله لي فيه شيء من الصحة ولو أنك تُهينني.

- لا أهينك، أقول الحقيقة.

- هيا نمش يا جامبج! - قلق صبح - ينتظروننا... فيدور إنسان طيب غير ما تتخيل أنت.

- وهذا الكلام مما قاله قرخ لي. ووافقه خالتنا. وسمعتة في دكانة بجانّه، وأنت شاهدتي. ولكن القتلّة النهايين ليسوا أناساً صالحين. لا يجوز أن ينسى فيدور أنه

واحدٌ منهم، وكان واحداً ممن أحرق قرانا!

- لو كنتُ نسيتُ أيها الضيف لاختبأتُ في تلك الحفرة التي تكلمتُ عليها...
- قال فيدور دون أن ترتجف له عضلةٌ، وأضاف: - أنا لا أقاضي أحداً، من يجب أن يقاضوه هو أنا.

- هذا صحيح، ورجولةٌ منك - نهض جامبج منصرفاً - لا تظن أني جئتُ إليك للانتقام. كنت أريد أن أنظر في وجه من يحارني بلا سلاح، وأستمع إليه... هيا يا صبح إن كانوا بانتظارنا... ولكن أريد يا فيدور أن أسألك سؤالاً أخيراً: هل أنت قوزاقي؟

- هل ترى عليّ سمات القوزاقي؟

- لأني لا أفهم سرّ لحيتك وشاربيك.

- أنا روسي صميم.

- لماذا إذن لحيتك...

- هذا مظهر كسلٍ بغياب سكين حلاقة حادة، - ضحك فيدور وهو يمر بأصابعه على لحيته. - ربما اعتدنا عليها...

- إن كنت تريد يا فيدور، - انتفض جامبج من رغبته الدافئة في مساعدة أحد، - حلقْتُ لك الآن لحيتك وشاربيك.

- لا اعتراض لديّ حتى لو في هذه اللحظة.

- بُلَّ وجهك ببعض الماء الدافئ واجلسْ! - خلع جامبج خنجره، وبدأ يسنه بالحجر.

سكب فيدور الماء على وجهه:

- لا داعيَ أيها الضيف، لا تؤاخذني، لا أريد أن أحلق دون علم جاقز.

- ألسْتُ رجلاً فلا تتحكم في لحيتك وشاربيك! ماذا أسمع؟ - صرخ جامبج.

- لم تفهم أيها الضيف، - نظر فيدور في وجه جامبج يقول له بعينيه الزرقاوين

اللطفيتين - هل كنت بقيتُ في الأسر لو كنتُ حراً؟!

حين سمع جاقز بعد بضعة أيام خبر لحية فيدور وشاربيه، صاح فرحاً:

- هذا هو الرجل الذي لا يحنت بوعده! لن يخذلك إن وثقت به. أين فيدور المسكين؟ - هات سكينه الحلاقة يا ولد - يخرج جاقز من الغرفة وينادي: - فيدور، أين أنت؟

- ما الأمر يا جاقز؟ أنا هنا، - خرج فيدور ويده عدة شبابات.

- ما هذه التي بيدك يا فيدور؟

- صقّارات مصنوعة من الأعواد يا جاقز.

- وماذا ستفعل بها؟

- صنعتها لأطفال الجيران.

- هذا حسنٌ، ولكن... سيصرعوننا، هذا يصقّر والآخرُ يرد عليه...

- وبإمكانني أن أصنع لهم عصيّاً برؤوس خيل، ودُمى.

- أظن هذا أحسن شيء.

- الصّبيان يحبون الخيل. ولكن أن يصفروا بالصفارات خيرٌ من أن يتشاجروا.

- كما تريد يا فيدور، ليس هذا مشكلة. سمعتُ أنك تريد أن تعود إلى وجهك

الحليق، هل هذا صحيح؟

- إن قبلتُ أنت فلا مانع عندي.

- يا مبارك النسل، لماذا لم تخبرني إلى الآن وأنت، كما يقال، لا قوزاقي ولا

أديغي. بلّ وجهك بالماء الدافئ والصابون، واجلس هنا. - يسّ جاقز موسى

الحلاقة التي أخذها من ابنه، ويختبر حدّتها بلحيته هو. - هل أنت جاهز؟ ما

أسهل هذه المهمة أيها المنحوس! أيجوز أن تغطي مثل هذا الوجه النحيف

المتناسق، ونحن لم نلاحظه، بلحية الماعز؟! سأهَيئ لك وجهك على نحو ترمي

عائشة المسكينة نفسها حباً عليك! قل بسم الله إن أردت أو ارسم الصليب، لا يهمني أيهما فعلت. ولكن بما أني مسلم - فليغفر لي إلهك - سأقول بسم الله.

حين دنا جاقز وبیده موسى الحلاقة الحادة من فيدور الجالس على مقعد منخفض تذكر فجأة أخويه القتيلين، ارتجفت يده، والتهبت عيناه. ثم نادى صبح خائفاً أن يتصرف مع الكافر ما ينجل منه:
- يا ولد، يداك أخفّ من يديّ، احلق ليفيدور!

XIII

- انظري هناك، - ها هو جاقز على النافذة باسماء، - حين أقول أنا شيئاً تتهميني بأني أبالغ.

- رأيت، رأيت... - لم تبعد عُشخان عن قِدر الباستا التي تعجنها بالمهرسة¹.
وتمت على نحوٍ يُلاحظ منه عدم رضاها: - لا أعرف فيم يتحادثان، مضى عليهما أكثر من ساعة...

- ثم تحامين عن عائشة متى قلت شيئاً! - لام جاقز ثانية من وراءه، وصاح في الوقت نفسه: - اسمعي كيف تضحك عائشة!.. ستهدم طرف السور بصدرها، يا مباركة النسل!

- اترك النافذة يا جاقز! إن رأيك ظنا أنك تراقبهما، عيب.
- هذان اللذان أراهما لا يحتاجان إلى مراقبة، أظن القرية كلها تراقبهما... والله عجيب أمرُ فيدور، ظهر رجلاً آخر عندما تخلص من لحيته وشاربيه.

- وأنت هذا رأيك يا جاقز؟

- نعم، لماذا تسأل؟

¹ ما يُسمّى في الأدغية "بلاغ"، وهي قطعة خشب مسطحة لها يد متوسطة الطول، لخلط مكونات الباستة إلى ما يشبه العجين.

- تجعلني أشكّ.

- أيّ شكّ؟

- لا أعرف!..

الكلام الذي بدأ بمزحة جعل جاقز ينتفض. حُيِّل إليه أنهم يسلبونه، على مرأى منه من وراء النافذة، شيئاً خاصاً به. اضطرب قلبه وهجم الدم الحار على صدغيه، وتشنجت أطرافه، على نحو يدفعه إلى الخروج عبر النافذة لولا أن عنده من يحسب حسابه.

من سيسبون مني، ومن سأحمي؟ قال جاقز. إن كان الأمر يتعلق بفيكتور فهو مُلكي كما هذا البيت، وهذا الحصان المربوط، وهذان الثوران. من غيرُ الله، يمكن أن يطمع فيه؟ لا أقول إنه لا شأن لي بالمرأة التي تتغنج أمام أسيري. إنها تركته صديقي المرحوم أحمد. تقيم وسور بيتها ملاصق لسور بيتي، وحيدة وعندها أسباب كثيرة تدعو إلى الإشفاق عليها. ولا شيء يدعو لمؤاخذتها إن وجدت ملاذاً لها وتزوجت إذ بقيت امرأة وحيدة في ريعان شبابها. مهما كانت أرملة كاملة لا يعيبها شيء فهي زوجة سابقة لمحارب قتيل، ولذا لا أحد يطمع فيها. أمرٌ واحد يميّز عائشة من سائر الأرامل: ليست ممن عندهن كثيرٌ من الأيتام. ولكن، وإن كنت أمزح مع فيكتور أحياناً، فلن أقبل والله، ولولم يبق رجل أديعي في العالم غيري، أن تتغنج لأسيري الكافر! هل هذا السلوك مقبول؟ كلٌّ من يفعل مثلها مصيرها نار جهنم... حتى في حياة المرحوم أحمد لم تكن هذه جديرة بالثقة، ظلت تبسم لنا. لم أر منها ما يؤخذ عليها، ولكن مع ذلك...

- ألا يزالان واقفين؟! - احتدّ صوتُ عُشخان الآن.

- والله لا يزالان...

غرزت عُشخان المهترسة في قدر الباستا، واقتربت من النافذة. يحاول فيكتور

الذي ظهره إلى جاقز وُعُشخان أن ينصرف من أمام باب دار عائشة ولكن ما تقوله عائشة ضاحكةً يوقفه. ابتعدت عُشخان عن النافذة غير مرتاحة لوقفه جاقز ونظراته، وعادت إلى قدر الباستا. وبدأت تعمل في خلط الباستا، ثم غضبت ولما تنته:

- العمل في القدر لم ينته، والنار خمدت، ولا حطب!.. ما الذي يريده فيدور؟
- هيه - التفت جاقز. - قلتي إنك بحاجة إلى حطب؟ أين الولد؟
- ذهب إلى دوداي... ما الذي يبغيه الكافر؟ - سألت عُشخان مرة أخرى بصوت أعلى.

- سأتيك أنا بالحطب الآن، - قال جاقز، ثم توسّل إليها: - أستحلفك بالله ألا تسيئي إلى هذين!.. انظري، انظري كيف يتبادلان الغنج ويتواددان!.. هل يجوز أن تقطع عليهما هذا الموقف من أجل الحطب؟ الآن حالاً...

- لن تأتي بقطعة حطب! - خرجت عُشخان ويدها المهترسة التي يتصاعد منها البخار، وصاحت من على المسطبة وكأنها لم تر ما يدعوها إلى التوبيخ: - يا فيدور، فيدور، أين أنت؟

- أنا هنا يا عُشخان، أنا راجع - خرج فيدور مستعجلاً من وراء جدار البيت، وشهد على المكان الذي كان فيه ولو أنه ليس خافياً: - نادتي عائشة فذهبت.

- هل هناك ما يُقلق؟

- لا يا عُشخان. كل شيء على ما يرام بفضل الله. وعائشة في أحسن حالاتها كما تعرفون. تحب المزاح.

- ولماذا نادتك؟

- طلبت مني أن أشحذ لها السكين ففعلت.

- بديهي أن تنفذ طلبها يا فيدور، - قالت عُشخان بصوت غاب عنه

الغضب دون أن تعرف السبب. - إن لم نساعد نحن عائشة المسكينة فمن يساعدها. المسكينة ليس لها سندٌ غيرُنا. طوال النهار في البيت وحيدة، تتشوق عيناها إلى أن ترى أحداً يزورها. - وأضافت بعد وقفة: - يحزنني أنها تعتاد الثثرة بسبب وحدتها...

- لا أعرف إن كانت كثيرة الكلام، - لم يستطع فيدور إلا أن يكمل: - عائشة امرأة مزوح.

- نعم، نعم، أغبطها على هذا، لا تيأس.

- ما الذي يدفع عائشة إلى اليأس ونحن جيرانها؟ - خرج جاقز من البيت وقد تذكر كومة الحطب التي أمام الفرن، وأضاف باسمًا: يا فيدور خذ لُعُشخان بعض الحطب الناعم لتشعل به النار، لم تستوِ الباستا بعد.

- نزل جاقز من المسطبة الطويلة أمام البيت وهو يثبت القبعة على رأسه، معتدًا بنفسه. ونفض جزمته بعقب سوط الثيران بضع مرات. وأعاد الزنار إلى مكانه بعدما ظن أنه فارقه. وأراح الخنجر الفضي الذي لا ذنب له إلى اليسار. وحين صار وراء البيت واطمأن إلى أن أحداً لا يراه أطلق الحرية لعينيه أن تتمعنا جهة مسطبة بيت عائشة. ما تراه عينه الآن مختلف جداً عما كان يرى قبل قليل من النافذة. كلُّ ما في دار عائشة من الباب، والمسطبة، حتى الأشجار، مغمور بالشمس. وخيل إليه أن الديك الذي قفز فوق السور وصاح استرجع صوته القوي.

تساءل جاقز: وأين عائشة؟ ربما دخلت البيت وقد ارتوت عيناها وقلبها ولسانها. ألا تخرج من البيت حالما يظهر فيدور في الدار، لا أعرف إن كانت تشم من بعيد رائحة الكافر. هل تصدِّق يا ثرى بعض ما أُلح لها بخصوص فيدور؟ والله هؤلاء النساء اللواتي يرتدين غطاء الرأس سهلات الانخداع بالرجال ذوي القبعات... أيجوز إن لميحت لك بشيء على سبيل المزاح، أن تتصنعي إلى

هذا الحد أمام من ليس من جنسك، وأبناءً جنسك لن يقبلوا منك التماذي في هذا السلوك. إن اكتشفتناك من في بيتي، التي تراك كأختها الصغيرة، اقتلعت شعرك، وثقتك... ونحن ليس المرحوم أحمد وحده من يلجئنا عما نقول ونفعل. ولكن فيم نحن أحرار؟ القلب لجوج نحو ما يطلب... بل من أين لك أن تعرفي لماذا أقول لفيدور ما أقول؟ لا تنخدعي بالكافر. متى سمعت أنكما ارتكبتما الحرام أمرتُ بتقييدكما ورميكما في الماء!..

خرجت عائشة من البيت وهواء الخريف الناعم يعبث بأطراف الثوب الملون. ونزعت من حبل الغسيل في أرض الدار بضع قطع دون أن تلتفت إلى حيث يقف جاقز مديرة خصرها الدقيق إليه. تداعى قلب جاقز حلواً حلواً في تلك اللحظات القليلة وهو يعرف ما حدث له، لا يستطيع أن يلجم مشاعره. وحين عادت فالتفتت إليه بنهديها المدورين الصلبين التمتعت عيناه وقد تمكّن الدوار من رأسه. ولما استدارت الأرملة الجارة التي تعصب شعرها بشريطة خضراء نحو جاقز، ودخلت البيت دون أن تنظر إليه، قرر أن يشعرها بوجوده فنهر الكلب الذي لم يكن ينوي النباح:

- كفى يا مشد ؛ دوختنا بنباحك!

التفتت عائشة، ولكنها لم تتوقف.

قال جاقز: ما الذي جرى لها حتى تدلل نفسها؟ تُراها لم ترني؟ بغضّ النظر عن مناداتي الكلب فالعصفور على رأس الشجرة تراه... ربما استحييت من ثوبها الرقيق شبه الفاضح. ألسْتُ في النهاية رجلاً وهي امرأةٌ مهما كانت نواياي نحوها أو نواياها نحوي؟ من تحيّه لا يتركك دون ردّ... مهلاً، مهلاً. أليس هو الثوب الخفيف ما كانت تلبسه حين كانت تتدلل على فيدور، وبالإشارة الأخضر نفسه كانت تعصب شعرها؟ وأظنها كانت بلا جوارب! واثق أنها لم تكن تلبس غير هذا. - كانت دخلت البيت وطرفاً ثوبها مضمومان بين

فخذيها... لا شيء يعدل أن تلحق بها إلى الغرفة وتصرعها على الفراش قبل أن تجد الوقت لتحادثك!.. أنا أمزح ولكن أخاف أن يفعل هذا فيدور المحروم من النساء عدة سنين. لماذا تتملّصُ مني؟ من جهتي لا أعرف. ولكنها جاهزة تماماً من أجل فيدور. من جهتي عندها ما تحجل منه ولو لم يبق إلا زوجتي. أما من جهة فيدور فمن تحسب حسابه؟ هو مثلها وحيدٌ بائس لولا أنه كافر. يبقى سرُّهما بين الاثنين. ثم هل هما مثلنا نحن، من يهتم بهما؟

تلمّس جاقز لحيته وشاربيه وبوّه لو كان بيده مرأةً يتفقد بها هيئته. تنهد وهو ينوء بأفكاره المتعارضة. نظر باتجاه باب الجيران، لم تخرج عائشة. لا يبدو إلا الثوب المعلق الذي ينشف على حبل الغسيل. مرة أخرى ارتسم أمام وجهه منظر فيدور وعائشة يتحادثان. ما الحديث الذي استغرق منهما ساعة كاملة حتى القرية انتهت إلى وقفتهما؟ ومرة أخرى سأل جاقز نفسه. لست وحدي من استاء منهما، حتى عُشخان كادت تنفجر. أظن أن فيدور كافر مخادع بخلاف ما حكمْتُ عليه. حملنا على الوثوق به حتى دخل إلى قلوبنا، اقتحمها. ليس إلى أسرتنا الصغيرة فحسب بل إلى القرية كلها تقريباً. ظل يرمي بالجبنه من يرحمه بالحجر حتى تآلف مع الجميع. لا أتكلم على قرخ الذي تعلق به منذ اليوم الأول. من كان يعرف أن شخصاً مثل دوداي ينقلب موقفه منه؟ أيّ سرٍّ بينهما؟ كثيراً ما رأيتهما يتهاامسان. - يتوجه نحو قائمت الذي كان إلى جانبه - لا يصدف أن أقابله دون أن يسأل عنه. قبل أيام حين جمعنا في داور حابله زعيمُ الأبراخ النائب سأل عنه قائلاً: "ماذا يفعل كافرُك، ليس مجنوناً" كان بودي أن أجيبه: هل كان يتآلف معنا لو كان مجنوناً، ولكن لم أجرو. أتكون طبيئته نتيجة وجوده في موقف صعب أم وُلِدَ وهي في دمه؟ أظن المسألة تشبه العلاقة بين طرفي العصا.

جعل الصوت الذي صدر من خلفه يلتفت. وسأل من كان قادماً والمشط

الحشبي على كتفه:

- أهذا أنت يا فيدور؟

- نعم، يا جاقز. كنت أريد أن أنظف محيط جدار الحظيرة.

- الخريف يتبدل، الوقت وقت الأعشاب البرية اليابسة. حسناً فعلت إذ تذكرته.

- إن كان محيط حظيرتنا نظيفاً سرّ من يراه. سأبتعد قليلاً عنك كي لا يؤذيك الغبار.

- لن تضرّني أنت... - قال جاقز راغباً في فتح حديث مع فيدور. ثم سأل فجأة عما كان يقلقه: - الحقُّ يا فيدور لم أشأ أن أسألك في حضور عُشخان؛ فيمَ تحدثتما، أنت وعائشة، طوال ساعة كاملة؟ لا بأس إن كان سرّاً. - نظر إليه نظرة ودّ وحنان.

- لا، لا سرّ بيننا.

- ماذا قُلتما إذن؟

- سأقول لك يا جاقز.

نظر فيدور مرتاحاً بعينيه الزرقاوين الهادئتين نحو دار عائشة، ونظر جاقز في وجه فيدور متلهفاً على ما سيقول الرجل الذي صار وجهه النحيف المريح جذاباً بعدما حلق لحيته وشاربيه. ما أَرشق هذا الوجه! حتى لحيته التي تشبه عُثْنون الماعز كانت مناسبة لوجهه. وحين خلّصته مما على وجهه تبَيَّن عن وجهه أشدّ جاذبية. أنا وهو من عمر واحد. غير أنه أحدثُ مني سنّاً مظهرًا. ما أشدّ تناسُقَ ذِقِهِ وشفثيه وأنفه وعينيه وجبينه ووجنتيه! وكتفاه تتناسبان مع جذعه الدقيق، ومع يديه. لولا أنه يعرج قليلاً لكان ممن يقال فيهم: ليس فيه ما يتنافر مع غيره.

- إن كان سرّاً فلا ضرورة أن تقول - قال ثانية لفيدور وإن كان مظهره

المتناسق لا يعجبه.

- لا يا جاجر، لا تأخذ عنا هذا الانطباع، لا سرّ أخفيه، - كتم فيدور قلقه للشك الذي يساورهم نحوه. وأضاف إلى كلامه: - انظر هناك، هل ترى تلك الثغرة في سور بيت عائشة يا جاجر؟

- وكيف لا أراها، بل أنا مهموم بها.

- هذه هي التي كنا نتكلم فيها؟ - ابتسم فيدور ثانية في وجه جاجر بعينيه الصافيتين المهادنتين، وأضاف محاولاً أن ينزع من نفس محدّثه الشكّ الذي لا أساس له: - ألا تعرف متى بدأت عائشة مزاحها... كانت تقلّد الفتيات الصغيرات اللواتي رقصن في العرس قبل أيام.

- وما الذي أوصل عائشة إليهنّ؟

- والأرامل مضحكة عندها.

- وهي؟ هل تظن نفسها صبية؟

- تجهّز نفسها لترقص في عرس صبح.

- يا إلهي، أدعو أن يتحقق كلامكما. - فرح جاجر لما سمع. - وهذا سيأتي كأنه اليوم، سنرى ما يحدث.

- ليست عائشة وحدها من سترقص يا جاجر، - جعله كلام جاجر يرتفع بجسده، - أنا أيضاً سأرقص في عرسه.

- وأي رقصة سترقص؟

- سأرقص رقصات روسية وأديغية.

- أنا واثق منك في الرقصات الروسية، ولكن كيف سترقص رقصات أديغية؟

- تعديني عائشة أن تعلّمني.

- هاه!

- نعم.

يسرني أن ترقصا في عرس ابني. قال جاقز. أدعو الله أن نشهد نحن وأنتم فرحه. أيّ فرح أكبر منه للأب والأب! يا إلهي امنحني العمر من أجل أن أشهد فرح ابني الوحيد! واجعل الناس يهتفونني، واجعلني أهنتهما أيضاً. لا أظنك غافلاً عما يقول هذا الكافر الذي يقف أمامي. ما أحسن أن يقاسمك الناس أفراحك وأحزانك، سواء كانوا من دينك ومن قومك أم لم يكونوا! لا أظن إنساناً على وجه البسيطة لا يتذوق جمال الرقص واللحن إن لم يكن مجنوناً.

- أتظنني لن أرقص رقصة الأديغة يا جاقز؟ - أضاف فيدور السؤال إلى ما كان بدأه بثقة. - مهما اختلفت رقصات الناس فهي كنبضات قلوبهم، بعضهم نبضه سريع، وغيره خفيف. لم يخلق الله أحداً عاجزاً عن فهم هذا الأمر إلا الغافلين.

صرخ جاقز مستغرباً ما سمع:

- من أين عرفت ما في قلبي يا فيدور؟
- وأنت أيضاً فكرت في هذا؟
- نعم يا مبارك النسل فكرت!

...

قضى جاقز نصف النهار تتردد في ذاكرته حلوة سيرة العرس المرتقب لابنه الوحيد. لا يعرف إن كان السبب في الفرح كون عائشة جزءاً من العرس، وصلى المغرب والعشاء دون أن يفتح أحداً، حتى عُشخان، بالموضوع. ولم ينس عرس ابنه في كل دعواته إلى الله.

عندما حان موعد صلاة العشاء ووقف جاقز على السجادة، وداهمه السؤال: كيف ستعلم عائشة فيدور الرقص الأديغي؟ قصر السؤال دعاءه وابتهاله إلى الله حقاً.

أعاد جاقز سجادة الصلاة المصنوعة من جلد الماعز إلى الجدار، وخرج من

البيت بسرعة. يخترق ضوء قنديل عائشة بصعوبة ظلمة الليلة الخريفية. كان قلبه قد خطا نحو بيتها آملاً أن يتحقق من صدق الفكرة التي راودته، ولكنه ركض نحو الحظيرة على رؤوس أصابعه ليعرف أولاً إن كان أسيرُهُ فيها. ونظر بعين واحدة من الثقب السري في الجدار: فيدور يبتهل إلى الله فاتحاً علبة صورة الإله، ويرسم الصليب، ويومئ برأسه.

تراجع جافز من وراء الحائط شاعراً بأن ما يفعله أمام صورة الإله عيب، خجلاً من عدم الثقة بأسيره. ليلُ الخريف المظلم، حتى لا ترى من يمد يده إلى عينك، طويلاً رغم أنه يزحف في الظاهر بعيداً عن زاور حابله. ولا يُسمع في القرية التي تبدو واقعة في حجرٍ، وقَعُ أقدامٍ بشرية، بل حتى نباح كلاب. ولولا بضع قناديل هزيلة، ومن بينها قنديل عائشة، كانت تتغامز في القرية لبدأ العالم دون روح. جعلت الظلمة المخيفة جافزَ يندسُّ في البيت ناسياً رغبته الجارفة في التسلل إلى بيت الجارة الارملة لائماً نفسه وناصحاً إياها بأن مثل هذا فات أوانه.

XIV

في الوقت الذي يتقاطع فيه الخريف والشتاء وهما يتغازلان، يحمل الوقت أحياناً أياماً جميلة يستغربها الناس. ومثل هذه الأيام الدافئة تُظلُّ اليوم زاور حابله. الناس عادة يحبون هواء الصباح النقي، غير أن قلب أناكسيفيتش فيدور لا يطاوعه. — أسرة بَراد: جافز وعُشخان وصبح، وبمن فيهم عائشة — لم يُحس فيدور بتعكُّر مزاجه طوال الأسابيع التي كانت الأسرة تزور فيها سوق قاي حابله في مضيق "فُجبس" الذي يلتئم يوم الأحد من أجل لوازم عرس صبح، وطوال انشغاله هو بأعمال الدار من الداخل. ولكنه حين بقي وحده في الدار الخالية هجمت عليه نوبة من آلام الرأس والقلب بدلاً من أن يستريح ويستمتع، حتى ليسقطُ منه ما يمسك به.

لم يستطع فيدور الجلوس في مكانه المعتاد من سور الحظيرة حيث يتدفأ على أشعة الشمس. ولم يعد صباح الخريف، ولا شمس الصاعدة، ولا القمم البيضاء تمر أمام عينيه. بقي في أرض الدار بعض الوقت يتبعه مشد حيثما توجه. ثم اقترب من ضفائر الذرة البيضاء والفلفل المعلقة بين خزائ الحبوب والمسطبة، واستدار نحو الباب الصغير. وكما يفعل عادة حين تخضه أفكاره استند فيدور بصدرة على السور. و قفز مشد من فوق السور، ربما من أجل ألا يبقى وراءه، وأقعى مقابله في الجانب الآخر منه. وأجبر إقعاء الكلب ونظرته فيدور على أن يبتسم ويقول:

- ما الأمر يا مشد ؛ هل تراني لأول مرة؟

اكتفى مشد بمرّ رأسه والابتسام في وجهه كأنه يطلب منه ألا يفكر في شيء، ولم يتحرك. أجاب فيدور، وقد وجد من يتوجه إليه بالكلام، على نظرات الكلب:

- نعم يا مشد، نعم، لا داعي للقلق!

خففت الكلمات المعدودة التي توجه بها فيدور إلى الكلب عنه وطء أفكاره، ولكن آلام أعضائه، ولاسيما أنه يعتمد بثقله على السور، هاجمته كأنها ستفكك. حياته الآن تقتصر على تنفسه ولا يحس بإشراق الشمس.

قال فيدور: لماذا تراجع جاقز؟ طلب مني أن أستعد للسفر معه إلى السوق. وحين وصلنا إلى باب الدار، ورأى عائشة انطلقت، غير رأيه. هل عجيب إن بقي البيت والفناء خاليين؟! مضى على حياتي معكم بضع سنوات لم أر خلالها بيتاً أديغياً مغلقاً، ولم أسمع أحداً سرق مال غيره في ما بينهم. وأعرف أن بيت عائشة مفتوح. لو رافقتكم إلى السوق لرّوحت قليلاً عن نفسي، وكسبتم أنتم ثواباً. ألا تتقون بي أن أرافقكم في الطريق وأدور معكم في السوق؟ كيف تركتموني إذن وحيداً في الدار؟ ها هو القيد الخشي الذي كنتم تستعملونه في

مثل هذه المناسبات ملقى الآن على سطح مخزن الحبوب. أتراكم نسيتموه؟! بالنسبة إليّ يحصي جاقز كل خطوة أخطوها، وغالباً ما لا يتطابق كلامه وفعله. أما صبح وغُشخان وعائشة فلا أشك فيهم. يعاملونني بكل براءة دون أن ينسوا أحياناً أنني غريب ولو دون تلميح. ومثل هذه المعاملة أجدها من الجيران وصبيان القرية باستثناء دوداي. يحبني الأخير أن أثرثر وهو يبتسم لي ويستجوبني على نحو خفي. ولا أعد شراب الساموغون المسكر بينها، ولا أشك فيه من هذه الناحية. يطلب مني أن أعلمه كيفية صنعه بحجة أنه سيصب منه في كأس الباخسمه التي يشرب منها قايمت أفندي. لماذا أتبخ لك المجال لتسخر من هذا الرجل الصالح ولو إكراماً له؟ لن أعلمك إياه بل لن أدع عينك تقع عليه. يحاول أن يُسكِّره بطريقة خبيثة انتقاماً منه إذ يظل يذكره بمواعيد الصلاة، فيجعل الناس يسخرون منه! هذا حرام كائناً من كان الضحية. أأكون جاقز كلف دوداي أن يراقبي؟ فعل معي مثل هذا في العام قبل الماضي... لا أعرف إن كنت أفترى عليه، ليس حسناً أن تبالغ في شكك في الإنسان. — الله الذي يدعو إليه الناس ولا يحتاج هو إلى أحد لا يحب هذا السلوك. ولا يجوز أن أستثني نفسي، لا يُقبل ما لا يريده الله... ثم ما الذي يخطر لي وقد وثقوا مني؟..

نبح مشد، ربما لتعبه من جلسته، على قط الجيران الذي يتصيد الفئران أسفل الجدار. وكان هوى فيدور مع تصرف الكلب إذ يخرج به من أفكاره: — هذا هو يا مشد! هو أيضاً يصيد. أنت وأنا العاطلان عن أي عمل. تعال، ربما نجد في أرض الدار ما نفعله... مهلاً، مهلاً، لا تقفز من فوق السور، تعال أدخل من الباب! — قال فيدور الكلمات الأخيرة بالروسية شاعراً باللذة في أعماقه، عارفاً أن أحداً لن يسمعها.

لم يجد فيدور شيئاً مهماً يفعله في الفناء. تشاغل بعض الوقت بإعادة ترتيب

الخطب اليايس المكوّم وراء حائط الحظيرة. وأصلح وضع الرّزة على باب البستان دون أي ضرورة. وحين نظر نحو دار عائشة فرأى سقف الحظيرة الذي أصلحه هو وصبح قبل أيام فرح بما فعله كما فرح أمس وأول من أمس. وخلخل لحيته التي كان عليه أن يخلقها اليوم ففرّكها مستمتعاً دون أن يعرف السبب. من حظه أن في حياته مع الأديغة مثل هذه المرأة وإن كانت تتصنع أمامه أحياناً. هي واحدة من أفراحه وآماله، كما هو صبح، حين يضيق القلب بهمه أو لا يضيق. وتُقصّر أيام أسره، وتُلطّف ليالي أرقه. وليست طيبة عُشخان بعيدة عن الإسهام في التخفيف من وطأة حياته، ولكنها تؤيد زوجها غالباً. وأنا لا ألومها في هذا، وكيف وهي تُطعمني وترعاني وتشفق عليّ. وأحياناً تقف في صفّ ابنتها من أجلي فتلوم زوجها. وأما أخوها الأصغر دوداي فلا تسمح له أن ينطق بسوء ضدي.

ولماذا تعتب على جاقز؟ هو رأس آل بَراد، تقول إليه قضايا الأسرة كلها، وتصدر عنه. من مهمته ترتيب ما تكسبه الأسرة، وطريقة الكسب. وأنا عضو اضطراري في الأسرة، أتقاسم معها خيرها وشرّها وإن كنت غريباً عن القوم وعن الأسرة. ويتحملون معي، بإرادتهم أو بدونها، مأساتي. لا، لا أريد أن أتحامل عليهم. حرام أن تتهم امرأً بما ليس ذنبه. ليس هذا رأي أبناء قومي الروس، بل الأديغة أنفسهم يرونه. وقامت أفندي، عبد الله، لا يفارق هذا الكلام لسانه. لا أظن الروس والأديغة ينفردون بهذا الرأي، بل هو موقف كلّ من يؤمنون بالله.

ثم إنهم لم يصحبوني إلى السوق... هذا سوق أديغي وليس روسياً. ربما لو كان سوقاً روسياً ما قلت ما أقول. من يحتاجني في السوق الأديغي؟ ولو صحبوني إلى سوق "جتونه" الروسي لما بدر مني تصرف سيء. ويعدني جاقز أن يصحبني إلى هناك مترجماً. ودوداي هو من لا يتركني البتّة، وحين أقول له: وإن

عرفني الروس؟ يجيبني: لن نجعلهم يتعرفونك، لا أعرف ماذا سيقول لهم وماذا سيفعل حيالهم. بديهي أنك حين تسمح للباخسمة أن تلعب برأسك سينطق لسانك بمثل هذه الأقوال. ولكن، إن صدف وصحبوني إلى سوق الروس فتعرفوني، لن يحدث بيننا سوء. أقول هذا ولكن أأستطيع تجاهل أبناء قومي؟ أليست روسيا، ماذا بإمكانني أن أفعل؟ ومن سيتعرفني؟! لو كانوا سيتعرفوني لكان عليهم أن يفتدوني، بدلاً من أن يُسمِعوني كلاماً جارحاً حين كان أسري يدور بي يعرضني لعل أحداً يدفع له... يا حسرتي يا كلافديه البائسة! لولا أنك وابتنائي عندي لعرفت ماذا أفعل. ها قد سمعت أن عدداً من الأسرى الروس مثلي وقفوا إلى جانب الأدبغة ويحاربون معهم. ويقال إنهم أسلموا وتزوجوا من نساء أدبغيات... أيمكن أن يحدث مثل هذا؟ ولماذا لا يحدث؟ ها أنا أيضاً كلّمني قايمت أفندي بضع مرات في هذا الشأن. وكنا اتفقنا أن نعيد البحث في الموضوع. لا أعرف سبب عدم مجيئه، اللهم إن لم يترجع. كان قال لي: فكّر جيداً ولا تستعجل! ربما يمهلني مزيداً من الوقت للتفكير. صحيح يا قايمت، صحيح، ليس هذا موضوعاً يُتسرع فيه...

ارتفع صوت المؤذن فوق القرية يذكر أهلها بصلاة الظهر. وقال أناكسيفيتس فيدور كما اعتاد مع صوت المؤذن بالروسية:

- حان موعد صلاة الأدبغة، وأنا سأصلي إلى ربي.

غسل فيدور يديه ولو لم يتوضأ على الطريقة الإسلامية، وصب الماء على وجهه. ثم عاد إلى الحظيرة فوقف أمام صورة الإله: تلا أدعية، ورسم الصليب، وأوماً برأسه. وحين صلى صلاته المسيحية، سخّن على نار سريعة الطعام الذي تركوه له وهو بضع قطع من اللحم مع الحساء. وقبل أن يجلس إلى مائدته أخرج للكلب غدائه وناداه:

- أين أنت يا مشد؟ تعال كُل!

استلقى فيدور بعد الغداء، - وحين هجمت عليه أفكار الوحدة نهض وخرج من الحظيرة. وبقي في الدار بعض الوقت مصالياً يديه وراء ظهره وكأن الدار له. ثم وجد عملاً يتناسب مع يديه: قلب ضفائر الذرة والبصل والفلفل إلى جهة الشمس الدافئة. ولما لم يجد عملاً آخر بدأ الوقت يطول عليه، ينتظر عودة رواد السوق، يتساءل عن تأخرهم. أيُّ عودة أتكلم عليها؟ الشمس كادت تتوسط السماء، والسوق في أوج غليانها الآن. مدّ فيدور يده إلى نافذة الحظيرة، وأخرج البالالايكا. وضعها تحت إبطه، ووقف بعض الوقت ينظر نحو القرية المجاورة وكأنه لا يعرف ما سيفعل بالآلة. ثم علّق الآلة بيد خفيفة إلى الجدار، وانصرف إلى إكمال دمية الرجل الأديغي التي يصنعها. كانت الدمية الخشبية شبه جاهزة، ولكن حين وضع السكين الخاصة بها في المسنّ، أبعدها وقد فقد الحماسة لبقية العمل.

لماذا أترك نفسي تُهبة للأفكار؟ قال فيدور. سأعزف على البالالايكا بهدوء كما أريد دون أن أجعل أطفال القرية يجتمعون عليها. تعالي هنا يا حبيبتى - أنزل الآلة من الجدار، أنا وأنتِ لن يمل أحدنا من الآخر طوال العمر. شكراً لقرخ الذي جاءني بك، فهمّني. لن يُهديني أحدٌ أعلى من هذا. حين أترنّم مع الحانها الرقيقة تُنسني أصعب أيامي. وتخفف عني حملي.

مرّ فيدور بأصابعه على فتحات الآلة واحدةً واحدةً بكل حرص، منصتاً إلى الحانها. ثم بدأ العزف بالإصبع الوسطى يمرّ بها عليها. انكبّ أناكسيفيتش بصدرة على الآلة بعينين مغمضتين. ومال برأسه على نحو يُنبئك بتفاعل قلبه معها. يقفز مع اللحن حيناً ويهمد معه حيناً. - يعزف على مهل. يجعل العذاب المتجمع في الصدر يردد مع الآلة. يتجاوب الرأس مع العزف فينتفض أحياناً ويهدأ أخرى. يضع أذنه عليها فينصت إليها. ثم يبعدها بسرعة كمن أزعجته. وفجأةً يقلب اللحن الناعم الرتيب إلى لحن حزين مؤلم، ويردد معه "الليل

ينادي، الليلُ ينادي أيام الشباب في أرضنا الطيبة حيث أحببتُ، وسمعتُ آخر جرسٍ " لا يرفع جدّة اللحن الهادئ، ولا يدعه يفلت منه. يقدمه إلى حبه دون أن يصل هو إلى من يطير إليه. يُجهش بالبكاء، والصدر ينشج، وينطفئ الملل والضيق شيئاً فشيئاً: "كثيرون منا لم يعودوا أحياء، كانوا شباباً مَرَحِين. صوت ليلي، جرس ليلي يصدر ضجيجاً عظيماً "

لو لم يستقبل مشد الفارس الذي توقف أمام الباب ما عاد فيدور إلى وعيه. وحين يرفع رأسه يرى قائمت يترجل من الحصان:

- كفى يا مشد، أنسيّت قائمت أفندي؟ - ويسكب حفنة ماء على وجهه كي يخفي دموعه ، ويستقبل الضيف: - تفضّل يا قائمت، تفضل ، نشارك سعيد، وتقبّل الله صلاتك!

- نتفضل بالخير إن شاء الله - أجاب قائمت أفندي مسروراً لاستقباله ممن ليس من قومه بالأديعية. - وليتقبّل الله صلاة المسلمين، الله أكبر.

- آمين - أجاب فيدور مسرعاً وفي قلبه إلهه المسيحيّ .

- وكذلك قولك "آمين" حسنٌ. ولكن كان الأفضل أن تكرر معي "الله أكبر"، - قال الأفندي غير مُلْزِمِ المخاطَب.

- اغفر لي يا أفندي، - أجاب فيدور كمن كان ينتظر هذا الكلام، - من أجل أن تقول "الله أكبر" يجب أن تكون على دين الإسلام.

- أهذا رأيك؟ والله هذا أيضاً كلام حق، - قال قائمت أفندي وقد وجد مدخلاً للموضوع الذي جاء من أجله، وسأل عن غيره كأنما يقول له: أماننا الوقت لتكلّم في هذا: - لماذا داركم خالية؟ أين آل بَراد؟

- في سوق قاي حابله، يا أفندي.

- الأسرة كلها؟

- نعم، وليسوا وحدهم، وعائشة معهم.

- خطر لي هذا حين غابا، الأب والابن، عن صلوات اليوم.
- من سوء الحظ أنهم ليسوا هنا إن كنت في حاجتهم.
- حسنٌ لو كانوا هنا. ولكني آتٍ إليك أنت.
- تفضّل إن كان إليّ أو إلى من أنا أسيرهم، إن لم تجد حرجاً في هذا المكان وراء السور، حيث الشمس الدافئة.
- إذا كان عليك أن تبقى تحت رعاية الله يا فيدور، - جلس قايمت أفندي على المقعد الذي قُرب إليه - فليس هناك مكان حسنٌ ومكان رديء.
- وهذا رأيي يا قايمت.
- لأن الله الذي تؤمن به وتُخلص له يتكلم من قلبك يا فيدور، - يجيب قايمت أفندي مغتبطاً بما سمع، ويدعو لنفسه في قلبه إلى الله: "اللهم سهّل المهمة التي جئت من أجلها، وحققها لي، واجعلي أنتزع من المسيحيين هذا الكافر الذي يجلس مقابلي، وزد المسلمين واحداً، وبهذا ننافس دين هؤلاء ونحملهم على أن يحمذك". وأضاف إلى ما قاله: - إن كنت تتذكر يا فيدور الموضوع الذي لم نكمله في ذلك اليوم، جئت الآن لإكماله.
- وكيف لا أتذكره يا قايمت، أتذكره جيداً، لم أنسه يوماً واحداً.
- ليغمرك الله بعطفه! نعم، عليك أن تتألف مع من تعيش بينهم. تقول الحق، وتتصرف على نحو صحيح. وأين تذهب هاجراً من تعيش معهم؟! أعجبتك طبائعهم وعلاقاتهم. وتعلمت لغتهم. وتفهممت إنسانيتهم. وكما أخبرتك في ذلك اليوم استشرت أفندياً عالماً كبيراً فأجابني إنه ليس حراماً إذا طواعك قلبك في ما تفعل وكنت راضياً عن نفسك. وأنا لم أكن أجهل هذا ولكني استفتيت في ما أعرف فلم أخطئ.
- سامحي يا أفندي إذ أستلم الحديث منك. - قال فيدور حذراً - في آرائك شيء صحيح. ولكني لا أوافق على نقطة منها.

- وما التي لا توافق عليها؟ - يسأل قائمت أفندي بلطف، ويقابله بصوت أكثر ودّاً كما عادته: - لماذا؟ قل لي، لا تدعني أخطئ.

- قولك "وأين تذهب هاجراً من تعيش معهم؟!".

- ألا تفهمه؟

- كنت تقبلته يا أفندي لو لم أقع مُكرهاً بين الأدبغة.

- هذا قولٌ حقٌّ. لم يدعك إلهك تخطئ. هذا الموضوع الإلهي الذي نتكلم فيه

لا يجوز البتة أن يدخل فيه الإجبار من الطرفين. - من جهتك ومن جهتي -

هذا ذنبٌ وحرام. قلتُ هذا لأن قومك لم يسألوا عنك. أعرف كثيرين من

أمثالك يفتدوهم بكثير من المال. ولكني سأعتبر كلامي زلةً لسان وأراجع عنه.

إن كان هذا رأيك في الموضوع فأنا أستطيع أن أعبر بطريقة أخرى. نحن صغارٌ

جداً بالقياس إلى الناس الكبار الذين لهم من يعودون إليهم. وأعرف أنهم غيروا

دينهم. وقد أرسل لي واحدٌ منهم رسالة.

- من هو؟ استعجل فيدور.

- لا داعي للعجلة، سنتطرق إليه.

- ولكن يا أفندي كنت أود أن أعرف من يهتم بي. أئضمر لي الخير؟ لا أعرف

إن كان من سيفتدونني يتابعون موضوعي، قال فيدور بقلبه مستمتعاً، ثم نظر

في وجه قائمت بمزيد من الاستعفاف.

- نحن لا يتجه إلينا من لا خير في قلبه. - نظر قائمت أفندي في وجه فيدور

بوجه حكيم لطيف. - ونحن نعدك من هؤلاء. ولكن ربما قدر الله العليّ الذي

يبتهل إليه الناس ولا يبتهل هو إلى أحد هذا. دفعتني إلى الاستعجال

فأخطأت. سنستأنف الكلام في هذا الموضوع في يوم آخر لأننا لن ننتهي منه

اليوم. اقترب موعد صلاة العصر... من أرسل لك الرسالة هو لا يينسك

تيوفيل.

- ومن هو هذا؟ - مرة أخرى سأل فيدور بسرعة.
- وهل يُعقل ألا تسمع اسم قائد الجيش لاينسك تيوفيل؟
- لم أسمع في جيشنا الروسي هذا الاسم.
- وكيف تسمع وهو ليس قائداً؟! - ابتسم قائمت أفندي حتى سرت الابتسامة على شفثيه الجميلتين. - هو يحارب في صفوفنا. ومعه إنجليز وفرنسيون وبولونيون وهنغاريون. وهو من بولونيا على ما أسمع. حين أبلغناه باسم أسرتك نسبك إلى قومه.
- لا أعرف إن كنت من قومه... تتم فيدور على نحوٍ يُشعر بعدم ترحيبه، ثم أضاف بكلام مفهوم: - يسألوني إن كنتُ بولونياً، غير أنني لا أعرف، حتى لو أجبرتني، أين تقع بولونيا... وماذا يقول؟
- وكيف أعرف؟ ما أرسله إليك مكتوب بالروسية. لو كان بالعربية لترجمت لك. اقرأها تفهم ما فيها، وتُطلعنا عليها... واسم لاينسك الآن هو توفيق بي، واعتنق الإسلام...
- أخذ فيدور الورقة المطوية بعدما سمع خبر آخر المعتنقين للإسلام. فتحها، وبدأ يقرأها:
- "يا مواطني العزيز! أخبرني أناسٌ موثوقون أنك مخلصٌ لبولونيا. أخبرك أن جيشي في قفقاسيا، وأن سكانها استقبلونا بالترحيب. قررنا أن نؤلف جيشاً من الهاربين من الخدمة في الجيش الروسي ويعيشون بين الشراكسة، ونحارب الروس من أجل حريتنا. وأنا واثق من أن الجيش البولوني سينمو عدده لنستطيع أن نحارب به. وستأتي الأسلحة والعتاد والملابس من أوروبا. وأما الطعام فنجدناه ويزيد عن حاجتنا. ولا بد أنك تعرف أننا اصطدنا بالعدو أكثر من مرة وأصابنا ببنادقنا منه مقتلاً. يا بن بلدي العزيز، الآن عرفت ما يمكن أن أكتبه باختصار. ولذا تصرف تبعاً لما يمليه عليك قلبك. واخدم وطنك بما تستطيع، وبما تستحق

بلادك بولونيا. وفكّر بنفسك في أفضل خدمة يمكن أن تؤديها لبلادك. عُذّ إلى بلادك حيث سُسْتُقبَل كأخ، أو اشرح لهم أنك تخدم في جيش العدو إلى وقت محدد. واعمل مع الضباط البولونيين على إلحاق الأذى بهم بقدر الإمكان. رُدّ عليّ بأقرب وقت ممكن. وأظن أنه لا حاجة إلى أن أنبهك إلى ضرورة الحذر. ليغمرك الله برعايته إن كنت مخلصاً لبلادك بولونيا. العقيد لاينسك¹.

حين قرأ فيدور الرسالة قلبها بعدما انتهى من التفكير في ما سيفعل بها. ثم مرّ عليها بسرعة ممطلاً في الوقت، ومعيداً التفكير.

لم يستطع قايمت الذي كان جالساً إلى الآن لا يقول شيئاً أن يصبر:

- ماذا في رسالة توفيق بي إن لم يكن سراً؟

- هذه الورقة ليست موجهة إلى شخص واحد يا قايمت. - قال فيدور كأنه يعرف ما فيها منذ زمن بعيد - وليس ما فيها سراً. ينادي لاينسك أبناء قومه البولونيين طالباً منهم محاربة روسيا.

- وأنت ما رأيك شخصياً في ما كتبه لك توفيق بي؟ سأل الأفندي ثانية وكأنه لم يسمع ما أُجيب به.

- أظن العقيد لاينسك أخطأ في فهم أصل أسرتي. أنا لست بولونياً. كثيرون يخطئون مثله. ولكني روسي صميم. كان جدي في زمن ما عبداً في بولونيا فأبقى الناس عليه اسم ماله أناكسيفيتش. هذه هي باختصار علاقتي ببولونيا.

- والله لا أعرف، أنت أدرى مني إن كان هذا وضّعك. - لم يتعلق قايمت

¹ المصدر: لاينسك: "الجبليون القفقاس وحروبهم ضد روسيا من أجل الحرية". وشهادة

القائد البولوني للفوج الأوربي في القفقاس، تيوفيل لاينسكي الملقّب بـ "توفيق بي" من جزأين. وي. فيلسين: "زانه سفر في سياسي ومحارب من أجل استقلال الأديغة" المجلد 10. إيكاترينودار عام 1904. المؤلف.

أفندي كثيراً بإجابات فيدور. — ولكن أَسْرانا الروس والهاربين من الجيش الروسي التحقوا بجيش توفيق بي.

— أنا لا أستطيع أن أفعل هذا، — جزم فيدور دون مواربة.

— لماذا؟ تصبّر الأفندي الذي شرع عيناہ تقدحان شرراً.

— لا يطاوعني قلبي أن أحارب أبناء قومي الروس الذين أنا منهم. هذا حرام.

إن فعلتُ هذا فلن يرضى الله عني. ولن يقبل مني من يسمع الخبر.

— هكذا؟ — ارتجف حاجبا قائمت أفندي الأثنويان الرفيعان. — إن كان هذا

رأي قلبك فلا بد أن الله علماً به... ولكني نفذت التزامي دون إجبار وبعلم الله.

ولما كان توفيق بي سيزور نواحيها فالقرار لكما. ولكن فكّر مرة أخرى لأن ما

تكلمنا فيه قبل أيام واستأنفناه اليوم، لم ينته بعد. وإن حدث هذا واعتنقت

ديننا فقد فتح الله لك باب جنته. واعتبر نفسك قد دخلتها.

— الدنيا الفانية يا أفندي كلها أفكار. — قال فيدور بلا اهتمام — إن لم تفكّر

صعبت عليك الحياة.

— نعم، صحيح يا فيدور، نحن في دنيا فانية... لا تنغّر بهذه الشمس وأوراق

الأشجار المتنوعة الألوان والقمم البيضاء! الدار التي سنعود إليها هي دار الفرح

وروح النور... — حين سُمع صوت المؤذن يدعو إلى صلاة العصر قال قائمت

أفندي وقد وجد حجة ممتازة: — حان موعد صلاة العصر حيث سنقف أمام

الله، وأنت يا فيدور فكّر في ما قيل لك.

XV

في مساءٍ مبكّرٍ، عاد جاقز إلى البيت وقد أوشكت أن تنتهي إعدادات العرس،

وليس هناك ما يُقلِّقه جدياً، وهو ينتظر الأسبوع الذي سيتوجه فيه موكب الرقة

إلى بج حابله.

يقول جاقز: أليس من حُسن الحظ أن تشهد فرح ابنك في هذا العالم المضطرب

حيث يُقتل هذا ويُجرَح ذاك، ويُفقد آخر. ولا نجهل من ستصبح كُنتنا ولا إلى أي أسرة تنتمي. ولم يتجه الولد في اختياره إلى بج حابله دون معرفتنا وموافقتنا. وهل يمكن أن تكون لتسي حاتري¹ ابنة قليلة التربية! إنه أحد رجالات الأبراخ. وليس للأبراخ فحسب فهو ليس دون أعيان إقليم الأديغة كله إن لم يكن فوقهم. ولا يحسب النائب مُحمد أمين حسابه فقط بل يخشى منه. هذا حسنٌ، حسنٌ، لا يجوز أن تفتح الباب للنائب المنافق يفعل ما يريد. هذا الأخير كم تطاول عليّ قبل مدة بحجة أيّ أحتفظ بالأسير فيدور معزّراً. ألسنّ المخوّل بأن أنسّبه إلى جيش لا بينسك البولوني أو لا أنسّبه؟ ما شأنك بي تهددني قادماً من داغستان البعيدة؟ كان اختيارك حسناً يا ولدي. ونحن وأهل زاور حابله سنبقى تحت راية حاتري.

توقف جاقز: أي عزف أوكورديون يصدر من بيتنا؟ أيمن للولد أن يخطو خطوة دون استشارتي ودون التقيد بالمواعيد المحددة؟ هذا مستحيل! حتّ جاقز الخطأ غير قادرٍ على مجازاة قلبه. وأبعد بطرف قدمه الكلب مشد الذي استقبله على زاوية البيت. ولكنه عاد إلى وعيه لحظة قرر أن يجري قليلاً دون الاكتفاء بالمشي. قال جاقز: أظن أن عُشخان وقد جرفتها الحماسة والفرح وجدت آلة أوكورديون قديمة فشرعت تعزف عليها بعض ما تحفظ من الحان. وأين فيدور يا ترى؟ لا أحد في بيت عائشة. ومزالج نوافذ البيت الخارجية ما تزال على حالها مفتوحة. ما أمهر عجوزنا في العزف! حقاً من البديهي أن تعزف وتغني وترقص مع العزف حين يكون القلب مترعاً بالعاطفة! تفقد جاقز أرض الدار، ثم صاح:

- فيدور، أسأل عنك، أين أنت؟

¹ أحد آخر زعيمين للأبراخ، قفز على حصانه من الجبل إلى الوادي تكفيراً عن أخطائه في قيادة الأبراخ. ويتردد اسمه كثيراً في رواية "المطرودون" لمؤلف هذه الرواية، وترجمة مترجمها.

- حين تجاوز جاقز موضوع السؤال وفتح الباب رأى عجباً: عُشخان على الأريكة والآلة في حضنها. وعائشة وفيدور يرقصان على أرض الغرفة يتوافقان ولا يتوافقان. عائشة تقوم بدور الرجل فتُجبر فيدور على الإسراع أمامها وهو يعرج حتى الإجهاد. والثلاثة منهمكون حتى إن أحداً منهم لم يرفع رأسه نحو الباب. وعائشة بقوامها الرشيق وبوجهها الأسمر الجميل تدفعه إلى بذل كل جهده حتى لو كان لا ينسجم معها تماماً.

- ارفع كتفيك يا فيدور، ولا تبالغ في تحريك يديك!

- التصفيق، مزيداً من التصفيق!.. - حين يسمع الراقصان التصفيق يكفان عن الرقص. ويتوقف صوت الأوكورديون، ويتوسل جاقز: - تابعي يا عجوز، لا توقفِي العزف!

- أتعبتُماني كلاكما!.. - تعيد عُشخان الآلة إلى وسط الفراش متظاهرةً بالإرهاق.

- والله يا فيدور أنت راقص ماهر، - يضحك جاقز، أين تعلمت الرقص الأدبيغي؟

- اسألني أنا يا جاقز، وليس هو، - تقول عائشة وقد انفرجت أسارير وجهها وتورّدت. ثم ترجو العازفة بسرعة: - يا عُشخان، تابعي العزف، أريد أن أرقص مع جاقز.

- دَعْلِك من هذا الهراء يا عائشة! - هذا لا يستطيع الرقص مع عزي، يظل يجرجر قدميه!.. - ابتسمت عُشخان في وجه عائشة مُشعرةً إياها بأنها تمزح فحسب. وأضافت: - دعوه يرقص في عرس صبح!

- والله لن أرقص! - أسرع جاقز بالجواب - لن أدع القرية تسخر مني قائلين إنه مسرور بزواج ابنه.

- إن لم ترقص أنتَ فعندنا من يرقص! - فيدور جاهز.

- ولماذا لا ترقص وقد اهترأ حداثي على تعليمك. - قابلته عائشة بالمزاح.
- أعدك يا عائشة أن أعوضك حذاءك من هدايا العرس - قالت عُشخان.
- مهلاً، مهلاً، لا تدعونا نوزّع جلد الدب الذي لم نصّده بعد... - قال جاقز غير راغب في متابعة هذا الحديث.
- نحس فيدور وقد فهم من طريقة جاقز في الكلام أنه لا يجوز أن يبقى بعد في البيت فنهض من مجلسه:
- سأتابع أعمالي.
- قالت عائشة بعد قليل:
- وأنا لا أعرف لماذا لا أغادر، لا يزال باب قُنّ الدجاج وباب الحظيرة مفتوحين.
- شيعت عُشخان الجارة الأرملة، ثم عادت، وسألت الزوج:
- ما الأخبار في القرية يا جاقز؟
- أليست القرية ملاءى بالأخبار؟!
- وماذا يقولون؟
- إن لم يجدوا موضوعاً ابتكروه... - تنهّد جاقز.
- هناك ما يُقلقك يا جاقز.
- أليست الحياة كلها بواعث قلق؟
- لم يظهر أخي الأصغر منذ البارحة.
- دوداي ليس في القرية.
- وأين هو؟
- استدعاه النائب.
- وماذا يريد منه؟
- إن صدق الخبر فقد وشّوا به متّهمين إياه بشرب الباخسمه.

- وهل النائب مهتم بمثل هذه القضايا؟
- لا شيء لا يتدخل فيه!
- حسناً يفعل... - قالت عُشخان، ثم غضبت في سرّها: - وهل أخي وحده من يحب الباخسمه في زاور حابله؟ ما شأن الداغستاني القوموق بنا؟ أنا لن أقبل بهذا، ولا دوداي يقبل... وأنت يا جاقز ما رأيك؟
- وأنا لا أقبل، ولا قبل به من سمعوا الخبر. - توقف جاقز برهة ثم أضاف: - ليس الجميع طبعاً.
- والله أحدهم وشى بأخي الصغير!..
- وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟!
- أياكون الواشي قايمت أفندي؟
- لا تتهمي قايمت أفندي بما لا يفعل بذريعة أنه لا يحب من يبالغ في الباخسمه. قايمت أفندي رجل مهذب، هادئ، طيب القلب.
- من إذن ؛ أياكون قرخ؟
- قرخ أحد رجالات قريتنا. لا تفكري في أن تأتي على ذكره بالشرّ يا عجوز، لن أقبل منك!
- سامحني ؛ من هو إذن؟
- أياً يكن، فالحق أن دوداي وشى به، وأنه كان يبالغ في الشرب. سنكثير من الباخسمه وماء العسل في عرس ابننا. انصحي أخاك أن ينتبه إلى نفسه.
- وهذا الأمر فكرت فيه - بان من صوت عُشخان الحاد عدم موافقتها على كلام الرجل. - أريد أن يتم عرس ابننا الوحيد على أحسن وجه، افتتاحاً واختتاماً.
- وعلينا مراعاة الأسرة التي تأتي منها بالعروس... - أيد جاقز المرأة.
- نعم، هذا مفروغ منه! - سمعت عُشخان ما تريد تماماً.

- الحق - تذكّر جاقز: - أين الولد؟

- ربما يتابع أعماله، خرج من البيت قبل أن تعود أنت.

تنهد جاقز مرة أخرى، وهزّ رأسه بضغمرات.

- والله يا جاقز أنت تُخفي عني شيئاً!

- وماذا يخفي أحدنا عن الآخر؟

- وكيف أعرف... عدتَ مرحباً جداً، والآن تفر!

يا حسرتي يا عجوز، ابتسم جاقز في سرّه، ما أعجب تركيبتك أيتها النساء! ألم تري المرأة الممشوقة القوام، البضاء الوجه، السوداء الشعر التي خرجت من بيتنا؟ نحن الرجال خلقنا الله على نحوٍ مُحسّن معه بمفاتن المرأة. ساحيني، أقول أمامك في الفترة التي يؤسس فيها ابننا أسرة، غير أنني لا أستطيع أن أنتزع من رأسي... يا أحمد المسكين كان الأفضل أن أحل محلّك من أن يحدث لنا هذا... وأنت اغفري لي، وإن استطعتِ فاغفري لعائشة ما فعلته رغماً عنها... هذا السلوك، رغم أنه حرام، لم يُخلق إنسان يمكنه الوقوف في وجهه. يا إلهي - لا تخلق لنا مثل هذا الإنسان.

- لا أعرف فيمَ نتحدث. - خرج جاقز من الأفكار التي غمرته، - هيّا أطعمينا إن كان عندك شيء جاهز!

- بكل سرور، وكيف لا يكون؟ - نهضت عُشخان بخفّة، وجّهزت مائدة. - ما زلت على ما أكلت ظهراً. أطعمتُ صبح وفيدور. و قبل أن تعود بقليل أكلنا أنا وعائشة.

ريثما تناول الرجل طعامه، وعلى عادة عُشخان أن تكون جاهزة لأن تتناول ما تحتاج إليه، تقف جاهزة تماماً إلى جدار الفرن. ومن مدة إلى أخرى تلقي نظرة على زوجها دون أن يدري. مع أنها تجاوزت الخمسين قبل مدة فالقوام الرشيق والوجه المتطاوّل الجميل، يمنعانك من أن تعطيها هذا العمر. ولو لم تكن هشة

تجاه المرض لكان كل شيء على ما يُرام. ورغم هذا الوضع فقد ربّت الولد وأنشأته. ولست أنا بعيداً عن المساهمة في تربيته، غير أن الأم تبقى أمّاً... تذكر جاقز أيام كانت عُشخان عازبة في شرح الشباب. وقال: كانت دائماً وسط حلبة الرقص بسبب طريقتها الرائعة فيه. وكل من يعتدّ برجولته في القرية يتمنون أن يراقصوها. وحين يأتيهم ضيف يكلفونها أن تراقصه رقصته الأولى. وليس قليلاً ما راقصها هو نفسه. وحين يشرعون في رقصة " الوُجْ¹ " لم يحدث مرة أن لم يكن الأول في مراقصتها مع أن شباب القرى الأخرى يُهرعون نحوها ليحظوا بيدها. والمغازلون؟.. كانوا يأتونها، لا من زاور حابله وحدها، بل من بـج حابله وداور حابله وقاي حابله... وقد أزاحتهم جميعهم، واختارتني أنا... - لماذا لا تقولين شيئاً يا عُشخان؟ - قال جاقز وهو يشرب من اللبن المخمّر² فوق فتّة اليقطين.

- وماذا أقول؟ كل شيء بخير بفضل الله. - نعم يا عُشخان، نعم - أبعد جاقز المائدة من أمامه شاهداً على أنه فرغ من الطعام. كل شيء سيكون على ما يرام إن انتهت إجراءات عرس الولد على خير.

- كنت أود أن تنتهي مراسم عرس الولد على نحو حسن قبل قدوم شهر رمضان... - تنهدت عُشخان، واختتمت بما يشغل بالها: - وقيل إن الجيش الروسي استأنف نشاطه...

- وهل يطلب الجيش الروسي أن نمتنع عن إقامة الأعراس؟ - بدا على صوت جاقز أن المرأة نطقت بما يشغل باله هو تماماً. ثم واسى نفسه متراجعاً عن

¹ رقصة يمسك فيها الشاب بيد الفتاة على نحو لطيف.

² هو في الأصل مصّل الجبن المغلي المضاف إليه الحليب. ويُحتفظ به في أوعية خاصة حتى يكتسب الحموضة. وهو مرغوب جداً مع الكوسا أو اليقطين المسلوق.

- كلامه: - ما العمل إذن؟ أليس لهذا قالوا: عرسٌ أحدهم ومأتمٌ غيره...
- لا سمح الله، - صرخت عُشخان - ليمضِ عُرسنا على خير! ولا يَقمِ أيُّ مأتمٍ في القرية... ما أقوله هو هواجس نساء القرية.
- ليس في ما تقلنه ما يعيب. ولكن بما أن الحياة حياةٌ فمن لا حظَّ له يقضي في الحرب، وغيره يوقف عرسه، وثالثٌ ينتصر حظه في العرس. عجباً ماذا أقول؟! لتحفظي الخير في قلبك. وادعي إلى ربك بالخير. لا يزال على قدوم رمضان شهر كامل. ولم يبق على الموعد الذي حدده الولد إلا خمسة أيام أو ستة. حسناً يا عجوز، هذه ليست مشكلة، لي عتبٌ عليك.
- فيم تعتب عليّ يا جاقز؟ ارتعبت عُشخان مما سمعت.
- في قلبي عتبٌ عليك... - نظر جاقز في وجه المرأة بشيء من الخبث - ليس لمرة أو مرتين، بل منذ شهر...
- لماذا يا جاقز لا تُصارحني بما في قلبك عليّ؟ - التفقت عُشخان وهي ترفع المائدة.
- ألسْتُ من ينام منذ أكثر من شهر على الأريكة القديمة لا يُغمض له جفن؟
- قال جاقز وهو يبتسم، وأضاف: - ما المانع أن نُذكّر أنفسنا بأيام شبابتنا؟
- سألت عُشخان وقد احمرت وجنتاها مما سمعت:
- أهذا عَتْبُك؟
- ولماذا إذن؟ حتى لو قلبتِ الآن، هذه اللحظة، فلا مانع عندي.
- ابتعد عن طريقي! ألا تحجل من نفسك في هذا العمر يا عجوز!
- آه يا عجوز، لا تحرمي نفسك تحت ستار الخجل. ستندمين. اسمعي!
- حضّري نفسك قبل أن يبرد حماسي!
- لا الوقت مساءً ولا ليلٌ كما يقال، كفى، لا تُخجلني...
- يا عُشخان، متى خطرْتُ على البال فهي لا تميز ليلاً من نهار.

- حسناً، في وقت لاحق، ها هو الولد راجع...
- وجدت حجة جيدة، - غمغم جاقز، - هاتي الإبريق والطشت لأتوضأ،
اقترب موعد صلاة المغرب.
- علّق جاقز سجادة الصلاة المصنوعة من جلد الماعز المدبوغ بعدما صلى
المغرب، وقال للمرأة وهو يهمّ بدخول الغرفة:
- أظني سأصلي العشاء في الجامع.
- يفوت وقت صلاة المغرب في الخريف القصير أسرع من دجاجة سوداء نشيطة،
فيحين موعد صلاة العشاء. أظلمت الدنيا ريثما تفقد جاقز من على المسطبة
أرض الدار، وريثما خرج منها أظلمت الدنيا. مضى باتجاه الجامع، وحين وصل
إلى المنعطف وراء السور اتجه إلى اليسار. أوصله الطريق الذي اختص به منذ
زمن طويل إلى ما وراء بيت عائشة. وفيما هو يسير، طرق النافذة بالإيقاع
الذي اعتادا، كلاهما، عليه، ودخل باب الغرفة المفتوح:
- أطفئي المصباح يا عائشة!
- لماذا يا جاقز ؛ هل هناك من يتبعك؟ ألا يجوز أن يرى أحدنا الآخر؟
- فيما بعد، لاحقاً... - ما إن نطق بهذه الـ "فيما بعد" حتى تذكر العبارة
نفسها التي سمعها من زوجته، فابتسم دون أن يُخفي عن الأرملة الشابة التي
تقف أمامه.
- ما الأمر يا جاقز؟ هل ترى فيّ ما لا يُعجبك؟
- لا، كل ما فيك يعجبني.
- ولماذا تضحك إذن؟
- تذكرت بعض ما قاله دوداي - غير جاقز الموضوع.
- وهل يتعلق الكلام بي؟
- لا شيء من هذا يا عائشة، أبعدي مثل هذه الأفكار عن رأسك. من

يستطيع أن يقول عنك شيئاً، لا دوداي ولا غيره، في حضوري وفي غيابي.

- أنت، بعد الله، الوحيد الذي أشاركه أسراري يا جافز.

- وفيدور؟ أين تذهبن بفيدور؟

- هذا المسكين لا تقل له شيئاً، لا تتخذة خصماً... - ثم قالت وهي تتدلل

على جافز: - هذا المسكين، ألا تظنه لن يشتهي امرأة يوماً ما؟ - أنا وأنت وراءه.

- إياك بهذه الحجة أن تقعا يوماً في...

- لماذا يا جافز؟ ألم يبق رجل في العالم غيرك؟

- لا تقولي لي مثل هذا يا عائشة في الوقت الذي احتاجت رغبتك فيك... -

رضخ جافز لما لُمّح به إليه بين المقتنع وغير المقتنع.

- ولماذا لا أقول لك؟ زوجتك معتلة طوال عمرها. أأظّل أنتظر نهايتها؟ وأنا

أريد أن أكون محظوظة. المسكين فيدور رجل متناسق، رجل ممتاز... لو عرفت

أنه سيبقى عندنا إلى الأبد لتزوجته دون اعتبار لروسيته ومسيحيته، ودون اعتبار

لك، ولكل ما يمكن أن يقول أهل القرية عني.

- نعم، نعم، فيدور رجل متناسق وممتاز. يوافق جافز الآنشي الآن دون أن

يدري السبب وقد ارتخت أوصاله. ثم يتوسل إليها: - أطفئي النور يا عائشة!

- سأطفئ المصباح يا جافز... - حين تقول عائشة ما اعتادت أن تقوله في

مثل هذا الموقف وتدير ظهرها يخلع جافز ما عليه، ويرتمي على الفراش

الجاهز. ويضيف إلى كلام المرأة التي تتعري في الظلام دون استعجال: - ولكننا

نأثم أمام الله في ما نفعل... هو الوحيد الذي سيفهمنا، والوحيد الذي

سيديننا...

XVI

استقبل فيدور حسب العادات الأدبغية الرجل الذي توقف عند الباب:

- تفضّل يا قرخ، تفضل!

وخرج جاقز من الغرفة:

- تفضّل يا قرخ، تفضل! - كرر كلمات فيدور. وقابله، خلافاً للعادات

الأديغية، بعتابه الودود؟- ليس من عادتك أن تزورنا كثيراً، ولست راكباً.

- والله يا جاقز مضى وقت غير قصير على آخر لقاء بيننا... - أجاب قرخ،

ثم أضاف على مضض: - بعد أن قتلتم الجنود النجارين الروس في الغابة...

- هذا الحادث مضى عليه زمن طويل. كان في بداية الخريف. وبعده قمنا

ببعض العمليات ضد الجيش الروسي.

- وهذه سمعت بها. - لم يكثر قرخ بالموضوع.

- ولم يكن بقي كثير على إرفاق فيدور به. - يقول جاقز ما يريد، ولا يهتم بما

يقول من يدعوه إلى الدخول. والله كان رجلاً ضخماً.

- وماذا كنت ستفعل به؟

- أقول لك ما كنت سأفعله... والله يا قرخ من أذكر اسمه كان رجلاً ضخماً.

يكرر جاقز ثانية سعيداً. - يا مبارك النسل لم أستطع قتله بضربة خنجر واحدة

رغم أنه كان جريحاً.

- جاقز، كفى يا رجل... - يُشعره قرخ بعدم رغبته في متابعة الحديث ولو لم

يغيّره. ويقول لفيدور الذي يتبعهما: - يا فيدور هات لنا مقعدين من البيت.

- تعال، ادخل إلى الغرفة. هل نبقى في أرض الدار؟ - لا يقبل جاقز.

- لا يا جاقز، أنا مشغول. بالإضافة إلى أننا نستمتع بالهواء. ونتكلم قليلاً. -

يقول قرخ ثم يلوم جاقز حين يبتعد فيدور لجلب المقعدين: - يا ربي، يا

جاقز، كم مرة تكلمنا في موضوع هذا البائس فيدور! لا تتكلم في حضوره على

المظالم التي تُرتكب بحق الجنود الروس، في الوقت الذي هو مخلص لكم من

أعماقه.

- لماذا يا قرخ ؛ أتشفق على الجنود الروس؟
- لا أشفق على من يحاربونا بالسلاح. - جزم قرخ بما لُمَّح به إليه. وبعد سكتة أضاف: - ربما أشفق على من لا يقاتلوننا. نحن وهم أناس!
- من الذين يحاربونا بالسلاح؟
- إسألني بصيغة أخرى: من أرسل هؤلاء إلينا؟
- ليس لأول مرة أسمع هذا الرأي: هو قيصر الروس.
- ماذا تريد إذن؟
- ما أريده يا قرخ هو مزيدٌ من إشهار خنجرك على أعدائك.
- أنا أعرف يا جافز متى أشهر سلاحي ومتى لا أشهره. - كظم قرخ غضبه ولكن بدا على صوته رغباً عنه استياؤه من هذا التعريض.
- يا عجي يا قرخ، ماذا جرى لنا كلينا اليوم؟ وما التلميحات التي نتبادلها؟
- والله صحيح. - كان قرخ مرتاحاً لقطع الحديث الذي ثار بينهما فجأة. -
- وها هو فيدور راجع. - نظر في وجهه كالعادة بوجه طلق، وسأله وهو يلتفت باسمًا إلى جافز: - كيف تسير أعمالك يا فيدور؟ هل يُهينونك يا صديقي العزيز؟
- لا يا قرخ، لا أعرف لماذا تظن هذا. لا يزعجونني بل يتوددون إليّ.
- فرح جافز لما سمع:
- هل سمعت يا تغانا؟
- والله سمعتُ.
- ثم تتهمني أني أسيء معاملة هؤلاء!
- أنا أم أنت من يقول؟ - مرة أخرى أوشك الصديقان على استئناف الجدل. غير أن جافز تراجع كأن لم يحدث شيء.
- وكيف تكون أنت؟ أنا أبداً وأنت تهاجمني.

- لا تبدأ الجدال إن كنت تعرف من نفسك هذا.

- اليوم أعاهدك باسم الله!

- وغداً؟ يضحك قرخ.

- سنتصرف تبعاً لما يحدث غداً، ونتكلم ؛ أليس صحيحاً يا فيدور؟

- تمام جافز، تمام¹! وسيأتي غداً يوم آخر. وما سيجلبه معه صعبٌ أن نعرفه.

- اليوم الجديد يمكن أن يحمل معه خبراً جديداً.

- الأفضل أن يكون خيراً. أضاف فيدور.

تفحص قرخ فيدور عسى أن يرى فيه شيئاً جديداً. وكان يود أن يسأل، غير أن حديث بَراد جافز الذي لا ينتهي ظل يقطع أفكاره وينسيه إياها ولم يفسح له المجال. وأخبره أن فيدور خلق لحيته وشاربيه ولكن لم يلاحظ عليه شيئاً من هذا القبيل.

لم يعد وجه فيدور متطاولاً متناسقاً نظيفاً كما كان الناس يصفونه، عليه لحية قصيرة وشاربان غير طويلين خلافاً للأيام الماضية. قال قرخ، ربما حلقها فاليوم وجهه محببٌ وأجملٌ من البارحة، لولا أنه بالغ الشقرة لصار كالأديغة، وممتلئٌ مما يدل على أنه استعاد عافيته. وأعضاؤه متينة التركيب. وما يُضفي عليه طابع الحزن هو عيناه الزرقاوان غير الواسعتين. وتشهد ملابسه أن حياته مرتبة، نظيفة. وتليق به القبعة الأديغة المرقطة التي ربما كانت لجافز. وطرفا البنطال ملمومان في جزمته القديمة. وعلى الطريقة الأديغة تماماً يتبدل شريط البنطال غير طويل. تلائم فيدور مع الأسرة التي يعيش فيها، ومع الحي والقرية. يا حسرتي ما المتعة في أن تسقط من بين أبناء قومك وتنسجم مع الأغراب؟ حتى قطعة السحاب لا تفترق عن صاحباتها مع أنها قطعة سحاب فحسب، إلا أن تُمزقها أطراف

¹ تمام دائماً بالعربية.

صخور الجبل. والعصفور الساقط من سره يظل يصرخ وينادي والشمس دليله، ومن يسلبه الحرية عدوّه. وأنت يا فيدور؟ ماذا يعتمل في قلبك وأنت تعيش معنا؟ أنظر إليك فأرى كل شيء: حياتك وتيهك وأسرك، كأنه على ما يرام. قد يكون هذا صحيحاً. ولكني لا أصدّق طبيعتك اللطيفة وهدوءك ووجهك الممتلئ. لم تسقط من أعلى الشجرة فجأةً ووقعت بيننا وحدك. حتى ورقة الشجرة تظل تلاحق بنظراتها أمها الشجرة وتبكي حتى تيس. والصدى يظل يتخطى القمة والغابة بصوت مدوّ محاولاً أن يقلّم نفسه لمن يصطدم به. وأنت ما أصلك؟ إن أطعموك أكلت وإن حرموك صُمت. وإن طلبوا منك أن تعمل عملت. وإن لم يطلبوا منك أطعت مالكيك كاسباً ودّهم. أأنت وحيد ليس عندك من يقلق عليك؟ وأسرتك؟ وزوجتك؟ وأولادك؟ وإن افترضت أنه ليس عندك منهم فأين أبناء قومك؟

تقوم في قلب تغانه قرخ نحو فيدور، دون أن يدري كيف، أفكارٌ غيرُ حسنة من اتجاه واحد. لم يعد يريد شاربيه ولحيته المحبوبة، ولا شقوته البهية، ولا طلعته المريحة. وشيئاً فشيئاً تغلبه طبيعته الحامية غيرُ الأصيلية. ولو كان في مكان آخر لصارحه بكل ما خطر له دون رحمة.

- يا قرخ - ينادي جاقز - أراك اليوم لست على ما يُرام.
- ما الذي يجعلك تقول هذا يا جاقز؟ - خرج قرخ من أفكاره - لستُ اليوم في مثل هذه الحالة، لا أعرف من أين استنتجت.
- ما يدفعني إلى القول هو أنك نسيتمنا كلياً أنا وفيدور.
- هكذا؟ والله لا أعرف... - غيرُ قرخ موضوع الكلام مانحاً نفسه الفرصة للتفكير، ولم ينس تعريض محدّثه: - من يعيش هذه الأيام في مزاج حسن؟!..
ولكني سأصارحك بحقيقة ما يشغلني: لم يكن خبرُ لحية فيدور وشاربيه صحيحاً كما تناقلوا في القرية.

- ما الذي جرى للحية فيدور وشاربيه؟ - سأل جاقز وهو يتفحص أسيره، ثم صاح وقد فهم أصل الموضوع: حقاً هذا ما تقصده؟ ولماذا أهل القرية مهمومون؟ لا أنا ولا فيدور اهتم بالموضوع... - ثم اختتم بعد قليل بكلام حاسم: - عائشة هي من لم تقبل، وهي التي نشرت الخبر في القرية.
- وما شأن عائشة بالموضوع؟ - لم يستطع قرخ إلا أن يسأل.
- يا مبارك النسل، يا قرخ، من أجل هذا أطلب منك أن تكثر زياراتك إلى حيتنا... فيدور يُعجب عائشة متى كان حالاً حديثاً.
- لماذا إذن لا يستمر في حلاقتها؟
- هذا السؤال يمكن أن يجيب عنه فيدور.
- ليس موضوعاً مهماً جداً، ولكن مع ذلك لماذا أسأل فيدور؟
- إن كان وجهي الحليق يُعجب عائشة يا جاقز، - أجاب فيدور من جاء على سيرة الأرملة الجارة متجاوزاً السائل - كيف أُميّز نفسي من الأديغة الذين أعيش بينهم؟
- هل سمعت يا قرخ؟
- سمعت والله.
- هذا إذن أصل حكاية لحية فيدور وشاربيه. أحسنت يا فيدور! - امتدح جاقز فيدور باللغة الروسية، وأردف بلغته الأديغية: - هكذا، لا تميّز نفسك من الأديغة ولو لم تكن أديغياً!
- أعدك يهذا يا جاقز. وأنت أيضاً يا قرخ - لم يدعهما فيدور ينتظر.
- غضب قرخ جداً من الكلمات المتملقة التي سمعها. وصرخ جاقز وقد لان قلبه:
- نعم، هذا هو يا فيدور، ولكن لا تنس عائشة بهذه الحجة. وخفّف لحيتك وشاربيك قليلاً كما نعرفك. ولا تجعلهم يرونك بلحية الماعز الجرداء.
- من جهة عائشة لا أعرف - انخفض صوت فيدور ثم عاد وانتفض، غير أني

أتعهد بالبقية.

- هذا كلام رجال يا فيدور! - هكذا يجب أن تعيش. - مرة أخرى صاح جاقز راضياً.

لم يتحمل قرخ المزيد من توافق جاقز والقاعد إلى جدار المخزن فيدور كأنما تواطأ.

فيدور هو من لا تتحمله النفس البتة. قال قرخ، ليس كلامه خالياً من الصحة إن حاكمته من موقف الأسير الذي هو فيه. ولكن الكلام المبالغ في عدوبته يكسر القلب، ويوحى إلى العقل بما لن يخطر له. ماذا جرى لفيدور؟ في نصف العام الأول، رغم جرح رجله، لم يكن متملقاً إلى هذا الحد. وليس قليلاً ما هرب، وأعادوه، وتلقى الضرب المبرح. وأنا كنت بين الاثنين حاجزاً وسيطاً. والآن انظر ما يحدث! - يشربان معاً، ويتبادلان الابتسام. لا أريد بهذا أن يتضاربا فلا يلتقيا ثانية. لا يجوز أن ينسى الإنسان احترامه لنفسه ورجولته ما دام حياً حتى في أصعب المواقف، بل لو ساقوه إلى الإعدام... هل الظرف هو السبب أم جاقز من غير آراءك؟ ونحن لسنا أحراراً بأنفسنا ولكننا لا ننحني أمام المصاعب. نصارعها وتصارعنا.

- اسمع يا فيدور - قال جاقز - اعزف لنا على البالالايك، أنعش قلوبنا!

- كما تريد يا جاقز، قفز فيدور من مجلسه.

- كفى! - لم يقبل قرخ - لم آت لأتسامر معكما.

- لماذا ذنَّبَ حصانك مشتعل دائماً يا تغانه؟ - سأل جاقز غير مسرور بما قاله ضيفه، ثم أضاف وهو يبتسم في وجهه، راغباً في عدم جرح شعوره: - لا أتذكر أننا أنت وأنا جلسنا في السنة الأخيرة.

- أنا أرسلوني في مهمة.

- ها، ما أسمع غريب! - يتعجب جاقز كأنه أساء الفهم، ويسأل: - من في

زاور حابله عنده مثل هذا النفوذ؟

- في القرية مثل هذا، وفي بيتنا.

- أأتكون "جانسور" أرسلتك؟ لو أخبرت من في بيتي لم تجد من اللائق أن يشغلوك هكذا.

- حتى جاموسنا يهيج في السنة مرة من الحرّ والذباب! يضحك قرخ، - ألا يجوز أن نسمح لمن في بيتنا أن ترسلنا مرة في مهمة؟!

- هل تسمع يا فيدور ما يقول هذا! أظن الساعة اقتربت. - صرخ جاقز. وسأل غير مصدّق: - بم كلفتك؟

- تريد أن تدعو فيدور إلى غداء طيب.

- يا فيدور، يا مبارك النسل، الناس بحاجة إليك ونحن لا نعرفك - يُبرز جاقز عمداً بعض الغيرة، ثم يعود فيصحو: - أرسلوا وراءك تغانه قرخ أحد رجالات زاور حابله.

- ليس فيدور وحده المدعو، - قال قرخ من أجل ألا يتوجس جاقز أو يشعر بالإهانة، - وأنت أيضاً يا بَراد.

- يسرني أن تدعوا فيدور يا قرخ، - إن قررت أن تجلسوني على طاولة أسيري فأنتم مخطئون. قال جاقز في نفسه، - دعوته ودعوتي سيان. اليوم يجب أن أذهب إلى داور حابله. خذ معك البالالايك يا فيدور.

- لا، لم يقبل أيضاً قرخ، - سنجلس ونتحدث.

- إن كنتم ترون هذا، - أخفى جاقز تغير سُحتته - فأنتم أحرار.

حين ظهر قرخ من اليمين وفيدور من اليسار من المنعطف استقبلهما جمع من الأولاد يتراکضون. ويجري وراءهم صبي صغير أعرج لا يستطيع اللحاق بهم. والصبيتان اللتان بقيتا عند الجذع القديم على باب الدار تراقبان، ربما لا تريدان الانطلاق مع الأولاد، من يدري. ربما تخجلان أو تخافان.

- يا فيدور اصنع لنا صافرات! - كان الصبيان يتصايحون.
- ير فيدور براحة كفه على رؤوس الصبيان ويقول لهم:
- أنت صنعت لك، وأنت أيضاً، وأنت. الوحيد الذي لم أصنع له هو ذاك الذي يركض ، - يفتش فيدور جيبه - أين هي؟ ها هي! - يُخرج الصافرة التي بُشّخن الإبهام. ويسأل من يعدو إليه: ما اسمك يا صغيري؟
- اسمه أصفر، - يردّ الصبيان معاً.
- دعوه هو يقول، - لا يستطيع قرخ إلا أن يشارك في الحديث.
- ما اسمك يا صغيري، قل لي - يجلس فيدور أمام الصبي.
- أصفر! - يجزم الصبي الآن.
- عفارم، أحسنت! - يوافق فيدور صوت الصبي. - ستصبح رجلاً. - خذ، لا تُعطِ هذه الصافرة لأحد.
- لماذا لا تقول شيئاً للجد يا أصفر؟ لام قرخُ الصبي الذي اختطف الصافرة ووضعه في جيبه. - أنسيت ما يُقال في مثل هذه المناسبة؟!
- شكراً لك! - قال بسرعة، وهرب بالاتجاه الذي أتى منه.
- قال قرخ بعدما مشيا مدة:
- الصبيان اعتادوا عليك.
- نعم اعتادوا عليّ - فيدور مسرور - كفّوا عن مناداتي بالكافر.
- ليس في تصرف هؤلاء ما يُستغرب يا فيدور، هم يقدّون فحسب. يرددون ما يسمعون. - كان بودّ قرخ أن يصارحه بما في نفسه حقيقة، ولكن لم يجد من المناسب أن يقوله في الشارع.
- - ولماذا أستغرب؟.. - اكتفى فيدور بالتنهد، ولم يُضِف شيئاً.
- لم يُلحَ قرخ بما يقلقه من جهة فيدور ريثما جهزوا المائدة، وحين جلسوا إليها. كانا يأكلان وكأهما لا ينويان مثل هذا. يتكلمان بضع كلمات لا تتعلق

بالمائدة، ولم يكن قرخ متحمساً دون أن يعرف السبب لمصارحة فيدور. وكلما أعاد التفكير رويداً رويداً هجمت الوسائس على قلبه. هل أتهم فيدور بما ليس من ذنبه؟ ها نحن طوال النهار معاً، وعلى المائدة، ولم يتصرف معي كما يتصرف مع جاقز. يحترمني ويدعوني إلى احترامه، وصوته غير عالٍ، ولا يردّ عليّ معارضاً. ويتصرف بكلامه وفعله ويجلس بوقار كضيف أتى من قرية أخرى. لماذا إذن يتصاغر أمام بَراد جاقز إلى هذه الدرجة حتى ليكادُ يصبح ممسحة تحت رجله؟ الآن من تتصرف معه بلطف يرد عليك بالأسلوب نفسه؟ وهذا رأي من آراء الحياة، وعادة من عاداتها ولو كانت روسية، لن تستطيع انتزاعها منه مهما حاولت. ألا يمكن أن يكون ما يحمي فيدور إلى الآن هو ما اتخذته طبيعة في نفسه؟ هل يفيدني إن عَنَّقْتُهُ على ما لا يعجبني فيه أم لا يفيدني؟ لماذا إذن لا يهرب إذ امتلك حريته؟ لأنه اعتاد على الحياة حيث حلَّ أم هناك ما يقيِّده ولا نعرفه؟

- لا تؤاخذني يا فيدور، لا تعجبني عِشْتُكَ - لم يستطع قرخ إلا أن يصرح ضيفه.

- وأنا لا تعجبني أيضاً - وافق فيدور سريعاً، لم يتوقع قرخ أن يسمع هذا الجواب غير المنتظر. ولكنه لم يغيّر موقفه لهذا السبب بل صمم وسأله:

- ولماذا إذن صبرت كل هذه السنين؟

- وماذا بيدي يا قرخ؟ - أضاف فيدور وقد تشبّثت نظراتُ عينيه الزرقاوين الحزینتین مما سمع.

- تتوجه إلى أبناء قومك.

- واثني فرص كثيرة لأفعل هذا بعدما أعادوا القبض عليّ في المستنقع، وستحین مثل هذه الفرصة اليوم وغداً وبعد غد بإذن الله... ولكني لن أستطيع.

- ولماذا لن تستطيع؟

- أعطيت عهداً.

سمع قرخ الآن ما كان يتوجس منه ولا يستطيع المجاهرة به. وسأله باسماً معتقداً أن من أعطى له العهد هو بَرَاد جاقز:

- من عاهدت؟

- عاهدت الله، من يضرع إليه الكثير من الناس ولا يضرع هو إلى أحد. - وكرر فيدور مرة أخرى مُفهِماً محدثه، خائفاً أن يُقَاطَع كلامه: - هذه المسألة، صَدِّقني يا قرخ ليس فيها إكراه. حين لم أجد من يفتديني وهربت وألقي القبض عليّ اعتبرت ما حدث لي مسألة بتَّ الله فيها. ورضخت لأمره، فعاهدته تاركاً الأمر له. أنا من قرر؛ صَدِّقني يا قرخ. لا أحد أجبرني!..

- ولماذا لا أصدِّق؟. - أشفق قرخ على فيدور كما لم يفعل في الصباح، ولأمره: - إذن حققت هكذا لجاقز ما يريد؟

- ليس جاقز! - ارتعب فيدور. - رضختُ لما كتبه الله عليّ. أنا عبده، وقُرْبانه، وما يَحْمِلُنِيه هو حملي.

لمس فيدور جبهته ليرسم الصليب، وانتبه بسرعة فأسبلها.

- لماذا تقطع صلاتك، - قال قرخ، وأشاح بوجهه كي لا يراه، - لا ضيرَ من رسم الصليب، ارسّمه! - وأردف بعد قليل: - يا فيدور، إن قبلتَ عهدك مع الله فلا تعليق لي عليه، أنت صاحب القرار. وأنتَ من سيجيب عليه... ألا تُذنب بحق من ينتظرونك؟

- من ينتظرنني غيرَ كلافديه وابنتاي المغلوبات على أمرهن؟.. - تنهد فيدور عميقاً. - وهؤلاء أظنهن امثثلن لأمر الله... حين فقدوني أظنهم بلّغوهنّ أبي قضيتُ في شجاعة عظيمة...

سرى الفرح على وجه تغانه قرخ مع أنه لم يسمع ما يسره. وسأل فيدور فجأة وقد أحس بالدفء في عينيه:

- هل تعرف الكتابة؟

- ماذا؟.. - تعلمت هذه المعارف البسيطة في الكنيسة.

- يا ولد! - صاح قرخ إلى خارج الغرفة. - هات ورقة وقلماً.

دخل مراد إلى الغرفة حاملاً ورقة وقلماً. وسلمهما لهما وخرج.

- ماذا ستفعل بهما يا قرخ؟

- أكتب إلى أسرتك بضع كلمات تخبرهم فيها أنك حيٌّ تُرزق، وأنت في أسر

الأديغة. لماذا لم يخطر لنا إلى الآن أن نفعل هذا؟.. - أضاف قرخ دون أن تدري من يلوم حقاً.

- وماذا بعد أن أكتب؟ - سأل فيدور وقد نفذ إلى أعماق نية قرخ.

- سأسلمها للبريد متى ذهبت إلى سوق جتونه الروسي مهما كلف من ثمن...

ولكن لا يجوز أن نخبر أحداً بالأمر. - نظر فيدور نحو الغرفة التي خرج منها

مراد، فقال قرخ: - اطمئن! أنت وأنا فقط من يعلم بالأمر.

قال فيدور لقرخ حين خرج بعد الظهر من باب الدار:

- شكراً لك، لا داعي أن تخرج لتودعني. لن أنسى أبداً معروفك يا قرخ لأني

أمل أن يفهمه الله. ليس مهماً أن أكون حياً أو لا أموت، المهم أن يجد من

ينتظرني بعض الأمل... لم نفعل شيئاً دون علم الله.

- نعم يا فيدور، نعم. اطمئن! سأحاول منذ الغد تنفيذ ما وعدتك به. يا ولد،

يا مراد، شيع فيدور إلى بيته!

- لا يا قرخ، لا تشغل الولد، ليست المسافة بعيدة، سأعود وحدي. - قال

فيدور وابتسم. وهمس له بشيء من الخبث: - ما الأمر يا قرخ؟ ألا تثق بي؟

- اعتبر يا فيدور أنني نسيت منذ اليوم، أنت رضخت، وجعلتني أَرْضُخ. -

يضحك. - يا ولد سلم هذا الرجل إلى من استلمته منه حياً سليماً!

لا يتذكر فيدور يوماً شعر فيه براحة نفسية كالיום. حين كتب بضع الكلمات

حُيِّلَ إليه أنه ألقى عن ظهره صخرة ثقيلة. ويرى الدنيا الآن بعين أخرى كلياً. الشوارع عريضة، والقرية جميلة جداً حتى لَتَخطفُ منك العين. وهو حرٌّ روحاً وجسداً كأنه لم يعد إلى بيت بَرَاد.

استقبل جاقزُ فيدورَ على مدخل الباب مخفياً أنه كان بانتظاره:

– أهلاً بك، طال غيابك!

– تحدثنا في موضوعات شتى حتى انقضت الظهيرة – أجاب فيدور بأول ما خطر له من الكلام.

– أراك سعيداً جداً... هل سقوك من الباخسمه؟

– ألا تعرف يا جاقز أني لا أحبها؟

– حقاً أنت صامدٌ أمامها. أقول ربما... من يعرف؟ ماذا غدّوك إذن؟

– كانت مائدة جانسور عامرة يا جاقز. أحزني أنك لم تحضرها. لم أنها بما أكلت... لم يغب شيء عن المائدة، من العصيدة والباستا واللحم المقلي والبرك واللبن المخمّر.

– والبرك المسلوق بالماء الساخن الذي أحبه؟

– وهذا كان كثيراً يا جاقز.

– والله عجيب... لا أعرف ماذا ينوي آل تغانه بحقك. أضافوك بأفضل مما كانوا سيضيفون به النائب؟

– وقبل هذه المرة، حين دَعَوني كانت مائدتهم عامرة يا جاقز.

– أليس هذا ما أقصده. آل تغانه كُرماء، لا تستطيع منافستهم... – لماذا يُعزّون أسيري الكافر؟ لا هو نائب، ولا هو من آل تسي¹، ولا هو لا يينسك قائد الفرقة البولونية، دَعك من قايمت أفندي. قال جاقز في نفسه. الأديغي

¹ إشارة إلى أن أحد آخر زعيمين للأبزاخ كان من أسرة تسي.

الساذج متى رأى أحداً من غير قومه احتار كيف يكرمه... - والله يا فيدور أكلت جيداً من خير آل تغانه رغماً عنهم. - كان بوّ جاذباً أن يقول شيئاً لفيدور ولكن لم ير الوقت مناسباً: - حسناً، ليس هذا مهماً، عائشة مشتاقة إليك، أرهقنا بالسؤال عنك أيها المنحوس، أخبرها بعودتك. والله كرهتُك أنت وعائشة يافيدور...

XVII

- ما الأمر يا عُشخان ؛ أهنأك ما يُقلِّقك؟ - نادت عائشة المرأة التي كانت تجول بعينيها على الباب.

- وكيف لا يقلق الإنسان في هذا العالم المضطرب إن لم تر في دارك لابس قُبعة؟! لا أعرف أين ذهبوا كلهم... أليكون فيدور عرج عليك؟ - لا، لم يأت!.. - وكيف يذهب فيدور إلى أي مكان ما لم ينته من أعمال بيتكم؟ ها هو يعالج شيئاً على زاوية جداركم منذ الصباح، لا أعرف ماذا يفعل.

- حقاً، نسيت - وضعت عُشخان راحتها على جبهتها ونظرت باتجاه الزاوية البعيدة حيث يشغل فيدور - كنت أريته أمس الأعمدة العوجاء راغبةً في ألا يراها على حالها الضيوف الذين سيحضرون عرس الولد. لم ينسها!

- وهل يحتاج فيدور أن ترشديه إلى واجبه! - أسرعت عائشة قائلة، سعيدة بما تُكرِّئ له في قلبها، وإعجاباً به بادٍ عليها. ولم تستطع أن تكتم السبب في أنها تغبطه: - محظوظةٌ مَنْ عندها مثلُ هذا الزوج!..

- تَبّاً يا عائشة؛ ماذا تقولين؟! - مع أنها كانت مرتاحة لامتداح جارها الأرملة لأسير الأسرة فقد سألت وهي مترددة بين أن تتقبل كلامها أو لا تقبل. ثم أضافت تُعرِّفها بنفسها أكثر: - ولم يكن المرحوم أحمد زوجاً سيئاً. كان رجلاً غيوراً مستقيماً يعمل على إغناء أسرته الصغيرة، حتى بدأت الحرب اللعينة

فقضى المسكين فيها.

وقفت عائشة في فناء الدار دون أن تجيب وكأنها سهت. غمغمت محتجة إذ لا ترى في الدار لابس قبة. ولم تعد ترى شيئاً أمامها. كيف ندبر أمورنا إذن؟ مضى أكثر من اثني عشر عاماً على فراغ الدار من الرجال. ترقلت في الخامسة والعشرين من عمري. أنت في أسوأ الأحوال عندك ثلاثة تبرز أعالي قبعاتهم من دارك... وزوجك الجبان حين ينظر نحونا وقد نسي نفسه فحن لنا عينان أيضاً كما لك. حتى لو كان من يجعلك تشتهين قبيحاً فلن يفهمك، يحيل إليك أنهم سيسلبونه منك فيثيرون غضبك. حين كان عندي "أحمدي" الخاص بي لم أتحدث إلى لابس قبة، بل كنت نسييت إن بقي في الدنيا رجال... حين تكون أرملة تظهر احتياجات كثيرة في الدار: الحطب، سقف الحظيرة، البستان غير المحروث، الباب المخلوع، أسافل الأعمدة المتعفنة... من يعرف إن كان هناك نواقص أخرى؟ من أين لك أنت يا غُشخان أن تنتبهي إلى مثل هذه الأمور. يلاحظ رجال دارك ما تريدان قبل أن تتكلمي. حين تطالعين الرجال كلما احتجت لأي خدمة منزلية فأني امرأة محرومة مثلي لا بد أن يجعلوا الحرام يراودها دون أن تدري كيف، ويدفعونها إلى الخطأ... اغفر لي يا أحمد... كان الأفضل أن أتزوج عقب خسارتك من أن أنجرّ إلى الحرام... لا يستوي الحرام المسروق والعلن... ولكن كيف لك أن تجدي لنفسك الحلال إن كان الرجال يتعدون عنك في الحلال؟ الحرب اللعينة تُفني رجال القرية، وتدفع الأرامل إلى الاشتواء. وأنا كيف أنفرد عن هؤلاء البائسات؟! ولكن لا أتهم أحداً ظلماً. حتى لو كان ما أفعله يا أحمد من ورائك حراماً فأنا أعترف به من نفسي.

- هل أنت صماء يا عائشة؟ ألا تسمعين؟ - صاحت غُشخان مرة أخرى مهمومة بتظاهر عائشة بالصمم. - ماذا فقدت في الفناء؟

- لو كان في داري من يلبس قبةً لما نسيْتُ أبداً أي شيء مهما صغراً! -

أجابت عائشة وقد انتفض قلب الأرملة الملتهب دون أن يتميَّز صدقُها من كذبها، وأضافت قبل أن تجد محدثتها الوقت للرد: - جازر وصبح دخلا قبل لحظات إلى القرية يلحق أحدهما بالآخر ولا يلحق.

- نعم يا حسرتي، نعم يا عائشة، - أجابت عائشة ببراءة وإن كانت فهمت التلميح الخبيث لجارتها، - لابس القبة سنْدٌ للابسة الغطاء. ما العمل، أفهم مأساتك... لماذا يا عائشة نتحدث والجدار بيننا؟ تعالي نتكلم قليلاً، هذا صباح جميل. لا تغبطين من رأيتهما الأب وابنه. ظلا ينجل أحدهما من الآخر فلا يجلسان ليتباحثا في شؤون العرس، ويوسّطي كلٌّ منهما عند الآخر، مسكينان يلهثان وراء المهمة التي أمامهما.

- ليس ارتداؤك قبة سهلاً على ما يبدو. - تخرج عائشة ضاحكة من أرض الدار، وتكلّم نفسها وهي تُحكم إغلاق الباب كأنها مسافرة إلى بعيد: - ونحن، لابساتِ الغطاء المجنونات، نشتهيهم!

تذكرت عُشخان كيف جعلت فيدور وعائشة يتراقصان قبل أيام. قالت عُشخان: كانت عائشة في ذلك النهار ترتدي ثوباً ملوناً جميلاً. وها هي الآن ارتدت ثوباً آخر أخضر. وتعصب رأسها بقطعة من القماش نفسه... لماذا هذه الأناقة وهي لا تخرج من البيت أو من الدار. مهلاً، مهلاً، أفني هذا اليوم رأيث؟ أليست تتعج من هذا الربيع؟ الحقّ ألا تشعر بالبرد والثوب الرقيق ملفوف على وركها لأن الشمس تشرق في حين أننا في الخريف؟ والله في ما كان يقوله جازر شيء من الصحة وإن لم أكن أصدقه. المرأة مسكينة، ضعيفة. أظنها عشقت فيدور. بديهي أن يحتفظ قوامك ووجهك وردفاك بالجمال إن لم تخلفي أولاداً ولم تربي. انظر كيف تأتي ممثلةً دور الأرملة اللعوب! لهذا يقولون: من مات هو الخاسر، والباقي يعيش حياته على نحو ما... يا حسرتي يا "أحمدي" المسكين. عشت حياتك تكدح هنا وهناك، وتلهفت على عائشة هذه كثيراً

من المرات. لم تدع بائعاً يخرج من القرية دون أن تشتري لامرأتك الصبوح شيئاً ولو كُشْتَبَاناً، سواء كان معك مال أم لم يكن. وأيّ سوق ترتاده كنت تفعل كذلك. ليفتح لك الله باب جنته حيث رحلت!

- زعمت أنك غير قلقة يا عُشخان ولكن شيئاً والله يسلبك راحة البال. - وصلت عائشة تحتلس الخطا وتضحك برقة دون أن تحمّل كلامها عتاباً، ولملحّت لها: - أأنت من لا تحتاجين إلى لابس قبة؟

- ما يُدريك أيتها الثرثرة الصغيرة بحاجتي؟ سألت عُشخان الضيفة القادمة وهي تنظر إليها بوجهٍ طلقٍ. ثم قررت جازمة وقالت: - لماذا أنت متأنقة جداً اليوم؟

- أترينني لأول مرة اليوم؟ - نلتمع عينا عائشة، ويضحك طرفاً شفتيها.

- أراك كل يوم.

- ولماذا إذن؟

- أنت جميلة.

- أتشتهيني؟

- كُفّي عن هذا! وهل أنا رجل لأشتهيك؟

- لو كان هؤلاء يفهموننا!.. - تقول عائشة لافطة نظر فيدور.

- اسكتي ؛ القرية كلها تسمعنا، - استعجلت عُشخان.

- لو كان في القرية من يسمعي لصعدتُ إلى المئذنة وصرخت! - تقول عائشة

وتضحك على نفسها. وتُسرع بالإضافة: - مضت سنوات كثيرة نتحمل الحياة

دون رجل... ليست هذه مشكلة. - ثم تُغيّر ما بدأته فجأة: - أقول لك ما

يُقلقك يا عُشخان. بدأت تصدعين رأسك بالعروس التي لم تصل إلى بيتك

بعد.

- ليتنا انتهينا مما ننتظره! - نظرت عُشخان في وجه الأرملة المتأنقة وكأن كل

شيء بيدها. وصرخت: - والله حزرت يا عائشة! تعالي إلى البيت، لماذا نحن واقفتان هنا؟ سنتكلم براحة دون أن نسمعنا أحد.

- لا أستطيع أن أحتبئ من هذا النهار الجميل خوفاً من أن يسمعي أحد. ألا يكفي كم سجنت نفسي في البيت؟ انظري يا عُشخان! - صرخت عائشة حتى أجفلت المرأة التي تقف أمامها - كيف تلمع الشمس على الجذع العاري لفيدور!

- أربعتني يا عائشة، ماذا حدث لك! ألا تخجلين؟! كيف لا يعرق ظهر الرجل الذي يشتغل...

لم تكن هذه المرأة هكذا، ما أشد ما تغيّرت إلى امرأةٍ وقحة! قالت عُشخان. لا أتذكر منذ أصبحت جارة لنا أي رأيت منها قلة احترام لنفسها. وفي خلال حياة المرحوم أحمد كانت خجولة حتى لانستطيع إخراجها من عزلتها إلى الكلام. وحين قُتل الزوج غابت عن الوعي مدة، فما أكثر ما كنت أزورها وأطعمها وأواسيها. وانظر الآن ما أشدّ انفتاحها على العالم، ولا سيما حين أصبح فيدور يلتفت إليها. سواء اتَّهمنا الرجال أم لا فهذه طبيعتنا نحن النساء... أيجوز أن تنخدعي بأي رجل يتسم لك أو يلتفت إليك؟ هذان الاثنان، صحيح ما يقول جافز، ليتهما ما تسببا لقريتنا بفضيحة!.. لا أقول لعائشة المسكينة أن تقعد مكمومة الفم والأنف. أفهم أن قضاء اثني عشر عاماً وحيدة لا يُعَمِّض لك جفن في الليل، ليس أمراً سهلاً. لو كان عندها ولد يخفف عنها أفكارها وقلقلها، كما عندنا، لما كانت هناك مشكلة. إن لم يكن عندك ما يردعك فلا بد أن تسرح عيناك إلى الآخرين، وستشتهين أموراً كثيرة نسيتها... ليت قايمت أفندي أنجز ما ينويه بحق فيدور هذا، أعني دعوته إلى اعتناق الإسلام، وطوبنا موضوعه! لو انتهى الأمر هكذا لما حجبت عنه عائشة يوماً واحداً... أما كان خيراً لو وُفق هذان إلى الارتباط. أليس حسناً أن يكون عندك جار من

هذا النوع الشَّعِيل؟ لن ينسى معروف آل بَرَاد يوماً، وأشهد أنا بنفسى...
أعجيب إن كانت في السابعة والثلاثين؟ ليست في السابعة والأربعين. ما تزال
في سن الإنجاب إن تزوجت... لماذا لم تُنجب إذن لأحمد المسكين؟! من منهما
العقيم؟ أ تكون عائشة؟ لا سمح الله! متى كانت المرأة عقيماً تحررت أخلاقها، لا
شيء يردعها مما يخطر لها!.. ما أغرب ما تصرفت معي قبل أيام! لم يكف أن
رقصت مع فيدور تتغنج له بل طلبت أن أسمح لها بالرقص مع جاقز... تبا! لا
يجوز أن ترفعي الكلفة مع هذه المرأة اللعوب. ألم تسمعي تعليقها على منظر
الظهر العاري للكافر!

- يا عُشخان، عُشخان، - صرخت عائشة تهزُّ الجدار بينهما، - أين أنتِ
بإذن الله؟

- نعم يا عائشة، نعم. في كلامك لي نصيب من الحقيقة، حين يكون في
ذهنك ما يقلقك تشردين عن الموضوع.

- إن كنت تقصدين العرس فلا تهتمي، سيأتي موعده كأنه اليوم.
- اطلبي من الله الواحد الأحد أن يسمح بهذا، أبتهل إلى من يدعو إليه البشر
ليلاً ونهاراً، وهو الغني عن كل أحد بالتيسير. ولكن موضوعاً آخر يشغل بالي.
ما الذي يشغل بال هذه المرأة مُهَبَّة المرض غير موضوع العرس؟ قالت عائشة.
ليتني كان عندي ولد يأتيني بعروس ولو كان أقطع اليد أو أعرج! كنت فضَّلته
على مال الدنيا. ما الذي يشغلك حتى لا يفارقُ ذهنك؟ من يوم ما عرفتكَ
تجمعين إليك ما تستطيعين من المال بحجة عرس صبح. تحملين زوجك حتى لو
كان يخونك على أن ينفذ لك ما تريدين. ولكنه لا يُطيعك في أمر واحد؛
وهل يملك نفسه فيطيعك؟! أقصد تخطيه لك وطمعه في. أنا من يجب أن
تخجل أم أنت؟ نسيتِ أنتِ إن كانت ظهور الرجال أو صدورهم تعرق...
تتظاهرين بالخجل والإحراج، وتعاتبنيني إذ طلبت منك أن تنظري إلى فيدور

المسكين الذي كان رجلاً كاملاً. كان الأفضل لك أن تضيي زوجك إليك فلا يعترض طريقي إلى فيدور. هددني العام الماضي بأنه سيفشني إلى مجلس الشيوخ توؤدي إلى فيدور فدفني إلى الخطأ...

ليت علاقة ما كانت بيني وبين المسكين فيدور!.. كلانا بريء كما ولدتنا أمهاتنا... ولكني يا إلهي أعترف بأن لي في ما فعله بي به زارده جافز جزءاً من المسؤولية. ربما لو لم أضعف أمام أصابع الرجل حين عبث معي في المرة الأولى ما استسلمت له... فافهمني واغفر لي هشاشتي... أيُّ شاغل لا تجرؤ هذه المرأة على البوح به؟ أتكون تشكُّ بعلاقتنا أنا وجافز؟ ممنع أن تكشفني عن حقيقة الأمر قبل أن تلمح هي لي به فتناكفها! أنا لم ارتكب أي خطأ. والله شاهدي. كسروني إذ كنتُ مضطرة... ثم ماذا يقول الإسلام؟ أيقول إن لك الحق أن تستمتعي وحدك بصدرٍ ذكوري دافي؟ للرجل الحق في أربع نساء إن كان قادراً على إشباعهن. ولكنه يدعو أيضاً إلى ألا يطمع الرجل في من ليست له. أنا من راودته عن نفسه أم هو من دفعني إلى الخطيئة؟ صارحيني إن كنت تشكين في، افتحي فمك وستسمعين جوابي!

- ما يشغل بالي يا عائشة - خرجت عُشخان من الفكرة التي جعلتها تتردد، - أضيفت إليه مشكلة دوداي...

- وماذا جرى لدوداي؟ - قالت عائشة لنفسها مع أنها تعرف المشكلة " أهذا الذي أرجو من الله أن يأخذه إلى حيث لا رجعة من شغلت بالنا من أجله؟ " - أما سمعت أن النائب زعيم الأبراخ استدعاه إليه؟ - قالت في نفسها " ما حاجتك إلى معرفته إن كنت لا تعرفين " - وما بدأته عُشخان بمأساة اختتمته بفرحة: - يقال إن له مهمة مع النائب.

- وأي مهمة؟

- زعمائنا يضطلعون بمهمات كثيرة، ربما يحتاجون إليه في واحدة منها...

- ولماذا لم يستدعوا جاقز؟ - تغابت عائشة وسألت.
- ولماذا يستدعونه؟ - أسرع غُشخان بالرد خائفة على الزوج، قلقاً. ثم استدركت: - ألا تتذكرين أنه جاء إليه في العام الماضي، وصحبه معه، وحلّ ضيفاً معه حيث سافر؟
- حين سأل عن فيدور؟
- كان في الموضوع شيء من هذا أيضاً، ولكن ليس لهذا السبب وحده... فيم يحتاج النائب إلى أخي الأصغر يا ترى؟
- في مثل هذه المناسبة قالوا: "من تأت على ذكره تجده على عتبة الباب" - رأت عائشة الفارس الذي ظهر من وراء منعطف الشارع - ها هو دوداي قادم... سأنصرف أنا إذن. لم أشرع في تجهيز غدائي... - قالت عائشة كمن تنتظرها أسرة كبيرة، وحثّت الخطأ إلى ما وراء سور الدار.
- كانت غشخان مرتاحة لانصراف الأرملة الجارة.

...

- لم تتوجه غُشخان بأي كلمة إلى أخيها ريشما انتهى من طعامه. ولما كان من عادته أن يشرب الباخسمه بعد أن يأكل جيداً فقد سُرّت غُشخان لعدم طلبه لها، وسألته:
- ألم تدخل إلى بيتك؟
- هل عليّ أن أبادر إلى لقاء المرأة وأنا أمرّ بباب دار أختي الكبيرة؟
- حياك الله. ماذا قال لك من استدعوك؟
- ثرثارون!! - غمغم دوداي. وبعد قليل أغلق على الموضوع: - لا يعون ما يقولون ولا ما يفعلون.
- ألا أنهم طلبوا منك الكفّ عن الشرب؟ - لم تكتم غُشخان ما كان يقلقها - لا يسمعون أحد غيرنا، قل! لن أبوح لأحد. بل لن أطلع حتى جاقز وصبح.

- وأنت لا تنكحي جرحي... - لم يرفع دوداي عينيه.
- كفى يا أخي، فهمت... - تنهدت عُشخان، ثم صرخت حتى إن أخاها ارتعب من الصوت: - ماذا ينوي هذا "القوموق"¹ اللعين لنا حتى يستدعيك ويعاقبك جسدياً؟! ما كنت أريد أن أصل إلى هذا الحد، ولكن أنحن من وجدنا في الأبراخ كلها ليعاقبنا يا صغيري؟ كل هذه المشكلات وراءها، إن كنت أعرف أم لا أعرف، لسانُ قايمت أفندي.
- لا تتهمي أحداً بما ليس من ذنبه.
- ماذا جرى لكما، أنت وزوجي، حتى تحاميا عن هذا القميء قايمت أفندي؟
- حين أخذوني إلى ساحة المحكمة كان هو الوحيد الذي وقف إلى جانبي.
- آه، هكذا؟! - سألت عُشخان وقد تغَيَّر كلُّ ما فيها حتى لَشَكَرُ أنها كانت هي التي تَقَرَّع بعينيهما وصوتها قبل لحظات. وأردفت بسرعة: - لا يُضَيِّعُ الله الواحد الأحد معرفته! لا تنغَرَّ بنحافة قايمت أفندي وضالة جسمه، كنتُ أعرف أنه يتحلَّى بالرجولة! حيَّاه الله، بيَّض وجهنا. يا صغيري هل بقي في هذه الأيام رجل من بين الأديغة لا يحتسي من الباخسمه؟! يا أخي الصغير، يا شبيهه روحي، ما نتحدث به وحدنا يبقى بيننا، في كل الأحوال عليك أن تكفَّ عن هذه الطريقة في الشرب! ها نحن، سيكون عندنا قريباً عرسٌ، وليست الباخسمه التي ستحضَّر لهذه المناسبة قليلة. والبرميلان الخشبيان جاهزان. وأنت من جهتي المضيف في المناسبة، أنت الوحيد الذي أعتمد عليه...
- عُشخان، كفاك ندباً!..
- نعم يا أخي الأصغر، نعم. إن لم أذكِّرك، قائمة البقرة لا تقتل عجلاً، فمن يذكِّرك؟! الحق نسيْتُ: ألم يكن تسي حاتري الذي سيصبح قريباً في المحكمة؟

¹ نسبة النائب مُحمَّد أمين، والقوموق من فروع الداغستان.

- تسي والنائب ليسا على وفاق.
- وكيف يكونان على وفاق؟ - قالت عُشخان مرتاحة - و" القوموق " اللعين يقول إن أخي الأصغر سَكِير؟!
- وما شأني أنا؟ هم يتنازعون الزعامة... - تتم دوداي غير راضٍ عما سمع. وأضاف: - ليست هذه مشكلة يا عُشخان. هناك خبرٌ آخر.
- ماذا؟ اللهم خيراً!
- الروس انتهوا من الحرب.
- هل توقفوا عن محاربتنا؟
- ليس في نواحيننا... بل حرب القرم. يقال إن جيوشهم تندفع إلينا الآن.
- ما الذي يبحث عنه هؤلاء ولم يجدوه حتى يبقوا في حرب دائمة؟ - انكسر صوت عُشخان، وامْتَقِعَ لَوْحاً. وواست نفسها وأفكارها الحفِيَّةَ تَهِيمَنَ عليها: - ليت هذا الولد فرغ من تأسيس أسرته!.. لم تأت بخبر حسنٍ يا أخي.
- وما حيلتي أنا يا عُشخان؟.. ماذا بيدي؟ متى تزوج ابن أخي الوحيد أنْجَزْتُ متطلبات الزواج، وتكفَّلْتُ بحفلات الرقص، ورقصت فيها، وحمَّسْتُ الناس للفرح، وجمعتهم...
- نعم، يا أخي. من عندنا غيرك يقوم بهذه الأعباء؟ ولكن لي سؤالاً آخر يا أخي: هل تعرف بِمَ ستجيب إن سألوك عن المكان الذي استدعوك إليه؟ هؤلاء لهم حراس كثيرون، وأنت لم تقبل أن تنضم إليهم حين عرض عليك. وإذا سمع حاتري الذي سيصبح قريبنا سيكون مسروراً لهذا الجواب.
- وهل كان أعضاء المحكمة ضُمَّاء؟! - سأل دوداي مستغرباً أن يغيب هذا عن أخته، وراضياً نوعاً ما عن الفكرة.
- المهم ما تقوله أنت، لا غيرك. والآن رجاء آخر: أستهلفك بالله ألا تخبر فيدور بانتهاء حرب القرم وزحف جيوش الروس نحونا. سيضطرب قلبه للخبر،

وتدفعه إلى ارتكاب خطأ ما.

- ولماذا؟ - انتفض دوداي برأسه الثقيل الذي تغطيه قبعة سوداء، ثم ابتسم وأضاف: - إن كان يودّ الرجوع إلى القيد الخشبي فليتوتر! سيظهر في القرية من يُجرّبه وإن لم أخبره أنا. وأين هو الآن؟
- ربما عرّج على الأرملة الجارة... من عادته أن يفعل هذا إن لم ير رجلاً في البيت... - قالت عُشخان متشفية من عائشة أكثر من تشفيها من فيدور.
- وكيف لا يفعل وقد تركتموه حراً... أنا أعرف ما يستحق!
- كفى، ما ذنب المسكين فيدور؟!

XVIII

لم يُخطئ دوداي في خبر حرب القرم. وأول من أوصل الخبر إلى أناكسيفيتش فيدور واحدٌ من صميم آل بَراد، هو صبح. لم يخبره بنبأ خبيثة. سمع الرجال المجتمعين في طرف سور المحكمة يتحدثون - ومن أين له أن يعرف ما اتفق عليه أمه وخاله - فأخبر الأسير المسكين عسى أن يُنعش قلبه.

لما سمع فيدور الذي كان يقضي أيامه متفائلاً بالورقة التي أرسلها قرخ إلى مقاطعة بولوغودسك بخبر انتهاء الحرب في القرم وقدم الجيوش الروسية غابت الراحة عن نفسه كما توقعت عُشخان. حين أظلم المساء الخريفي وعاد فيدور إلى حظيرته ارتقى أمام صورة الإله. لا يتذكر فيدور أن الأمل في الحرية انتعش في قلبه خلال بضع السنوات الماضية كما في هذه الليلة. كانت آماله في الحرية مشتتة دون جذور، تموت مع مرور الأيام والليالي. والسبب في العهد الذي قطعه على نفسه أمام الله، والسبب في تصديق جاقز هذا العهد، واحدٌ من هذه الآمال الخائبة.

يجل فيدور: إن كان الخبر الذي وصلني صحيحاً فإنك يا إلهي تفتح لي ثلثة أملٍ في حياتي. ولو لم يكن الناس الذين وصلهم الخير مهمومين به لما تكلموا

فيه! صحيح ما يقال إنه ليس هناك خبرٌ يخفى. هل سأعيش عمري إذن مع غير قومي دون جذور ودون أن يعرف أحدٌ خبري؟! لا أقصد أن الناس الذين كان حظي أن أعيش بينهم أشرار ظالمون بلا رحمة؛ إن قلت هذا أكون أذنبت بحقهم وحقي وحقك، وأكون جلبت لنفسي إثماً عظيماً. لا أكنتم أنهم جشَموني صعوباتٍ وعذاباتٍ في السنوات الأولى من أسري. ولكنهم، وأنت تعلم، لم يَحْمِلُونِي ما لم نَحْمِلْهُمْ، وقد غفروا لي ذنوباً كثيرة كانوا يستطيعون معاقبتي عليها. وكلما أتوا إلى زاور حابله بقتيل قضى بسلاحنا كان من حقهم أن ينتقموا مني. ولكن مجمل القرية كانوا دائماً أعقل من بعض الأفراد المندفعين. لم يحاسبني أحدٌ بذريعة أنك فعلت بنا هذا وأنت قلت هذا، ونحن نرد عليك بذلك. وحين كانوا يهينونني كانت تسنح لي، كما يقول الأديغة أنفسهم، فرصٌ للانتقام. ولا ألومهم إذ ينادونني بالكافر لأن هذا اللقب هو من ينادون به كلٌّ من ليس من دينهم. ونحن نسميهم مسلمين. كان الأفضل للطرفين ألا يتبادل الإهانات هكذا. من يهوَ السخرية تصرعه السخرية وتقض عليه... والآن أيضاً أودُّ أن أصارحك بشي مما في قلبي يا إلهي العزيز، لا أقول إنه غائب عن علمك ولكنني أظن أني إن بُحْتُ لك بما يشغلني فسيهون عليّ... هذا يتعلق بما كان ينويه بحقي قائمت أفندي. كان هذا في الاجتماع الثالث بيننا حين كان يفاوضني لأعتنق دين الأديغة. لم يكن بقي على اختيار مقاومتي إلا القليل؛ فاعف لي وارحمي واحمني وادعم قلبي. لن أكنتم عنك، كنتُ قطعْتُ الأمل منذ هذا الربيع في الحرية. وكانت تأتيني مواقف أنسى فيها وجودك... فاعف لي مثل هذه الخواطر التي كانت تسنح لي. وفي واحدة من هذه اللحظات الشيطانية راودتني فكرة اعتناق الإسلام. وسأُكاشفك بأحد مغرباتي عليه: من دخلت بيننا كانت امرأة... وهي عائشة التي قتل الروس زوجها. هذه التعيسة لا تستحق أن تحاسبها، لا ذنب لها. امرأةٌ شابةٌ بقيت في هذا العالم وحيدة لا سند لها...

سأبوح لك بسرٍّ من أسرارها لم أكتشفه لأحد، ولا أظنه خارج علمك، ومع ذلك... كانت قالت لي "سأهرب معك وأعتنق دينك برضاي إن قبلت بي" ولكن لما لم تشجعني أنتَ على الهروب لم أستطع أن أحقق لها هذا العرض. لا ألومك ولا أبحث عن المذنب. لو ضعف قلبي أمام عائشة وأغواني عرضها لربما جلبت لهذه المرأة الصغيرة، من يدري، التعاسة... وبغضِّ النظر عن هذه المغامرة فإن هذه المرأة الودود جانبها الحظ كليا. وجاقز، لماذا أكتملك، مستتراً تحت قبعته، يبتزها متهماً إياي، فيأثم معها، ولكن لا يظنُّ أننا لا نلاحظ شيئاً.. الحق أن عائشة لم تكشف لي عن سيرة جاقز، بل لم تلمح لي. لا شأن لي بما يحدث بين الاثنين إن كان خيراً أم شراً. لو لم تكن أسرتي تنتظرني، ولو كانت من قومي ومن ديني، لكنت رافقتها في طريق الحياة دون أن ألمح لها بشيء، متجاهلاً ما أعرف عنها لأن من يجبرونها على الإثم يغفرون لها... إن كنت أقول ما لا يقال فافهمني وارحمني يا إلهي الرحيم. لا أهتم بكون من آتي على ذكرها ليست من ديني ولا من قومي. فهي إنسانٌ أيضاً، لها روح، وتتألم، وفيها رحمة.

ولا ألوم قائمت أفندي رجل الدين من ديانة أخرى. لم يُجبرني ولا عاداني ولا سمح لأحد أن يعترضني حين قلتُ له إني لا أستطيع تبديل ربي، ولا انتزاعه من قلبي، ولا نسيانه. كان قد بشَّ في وجهي قائلاً إنّ من هو مخلص لربّه إنسانٌ صادقٌ، ولم نفترق على جفاء. أشاد بي في الأعراس، وفي حفلات "الجابشة"، وفي المآتم، وسباقات الخيل. ولا أتذكر أنني حييته فلم يردّ التحية. ليس في يد قائمت أفندي مهمةٌ تربويةٌ إلا مدرسة القرية، غير أن فطنته تصل إلى أمور كثيرة، ولا حدود لدفته ولرعايته. وفي زاور حابله رجال حكماء كثيرون آخرون، منهم بَجَنه مامي، وبَرْجَحْت لالو، ومَشْفَشْأ غُأَتِج، ودُبْجَن بُشِماف، وحَجْمَفَه شوماف. وتَعَانَه قَرخ؟ قَرخ وحده قرية كاملة. وكيف تلوم بزاد جاقز الذي قتلنا

اثنين من إخوته؟! وصُبحَ هو من يعدل الجميع! وفي زاور حابله شباب كثيرون يُكْرِمون المسنّين ويتحلّون بالرجولة. هؤلاء الأديغة الذين أعيش معهم، ولو أنهم يحتفظون بي أسيراً، ليسوا كما نظنهم، وأنا أشهد على هذا يا إلهي! ارحمهم يا رب من الجيش الذي يقال إن قيصر الروس يحشده حولهم، واغمرهم بشفتك. أتوسل إليك أن تحمي الأديغة المساكين الذين أُجبروا على حمل السلاح لأن من شأنك أن تساند البريء.

مضت ساعة على خلود فيدور للنوم ولا يساوره النعاس البتّة. عيناه تلمعان في ظلام الحظيرة التي حبس فيها نفسه. ومضى بعض الوقت على "الصلوات" التي أتبع بها المؤذنُ أذانه لصلاة العشاء. ولا بد أن المصلين آبوا إلى يوتهم. كان من عادة جاقز أن يمرّ في طريقه إلى البيت حين ينتهي من صلاة العشاء، وهو قلق لعدم سماعه صوته. كان يراقب أسيره خلال السنة التي رفع فيها القيد عنه. والآن كفّ عن الشك فيه بعدما وثق به، ولكن ربما يحتفظون معه بنظرة فيها شيء من الشك. وكانت عائشة أفهمته مواربةً هذه المسألة.

وجد فيدور عذراً لمن كان ينتظره دون وعيٍ قائلاً: ربما وجد مصباحي مطفأً فلم يشأ إزعاجي. لو زارني لسلاّني عن مللي. كان يصدف أن يُطلعني على نحو عفوي على أخبار القرية. ولا أصدّق أن المصلين لم يبلغهم خبر انتهاء حرب القرم وتوجّه الجيش الروسي إلى هنا. رُوي الخبرُ في أماكن التقاء الناس، وفي الأسواق، والجوامع، والكنائس، وانشغل الناس به. ونشر بينهم الوجوم والحمية والقسوة. ربما هذا هو السبب في أنه يغيب عمداً... صدف كثيراً أن أيقظني رغم أن مصباحي مطفأ... وأنا لست أقل اهتماماً بهذه الأخبار، فانظر إن كان هذا حسناً!.. ألا يكفي أنك احتفظت بي سنين أقود الكلب إلى المنهل لأسقيه؟! أتذكر حين عثرتم عليّ في المستنقع كيف سُقتني إلى البيت تصدمني بصدر الحصان فتصرعني، ثم أقف على قدميّ لتنهال على ظهري بالسوط؟

سنةً كاملة قضيتها والقيد على رجلي محشوراً في خزان خشبي للحبوب. و كنت تنكأ جروحي حين تتشفى من حقدك عليّ فتشكّ في أبي فقدتُ الإحساس بالألم. وهل تتذكر ما كنت تفعل بي حين يمتنع قومي عن افتدائي؟ أنا لا أنسى أنك في آخر مرة عرضتني عليهم فلم يجيبوك حاولت أن تقتلني على مرأى منهم... والإهانة التي ثلجتها بي في موضوع عائشة ليس من السهل التغاضي عنها. هل أجد نفسي يا ترى يوماً قادراً على أن أردّ لك بعض ما فعلت بي؟.. الصوت الآخر الذي صاح منه هو أجفله، فنهض فجأة. مشى متلمساً، مصطدماً بما في طريقه حتى وجد شمعته فأضاءها ووضع أمامها صورة الإله ووقف حيالها. قال له: اغفر لي كلمات الشر التي تكومت في صدري. فارحمي واغفر لي. ما كنت أريد أن أفكر فيها، دعك من أن أنطق بها. سمحتُ للخير الذي توهمت أنه سيحمل لي الحرية فجأة أن يحدعني. لا أبرئ نفسي، ولكن ربما ما خطرت لي هذه الكلمات لولا الضيق الذي أنا فيه. أعرف أنك تُحبي الإنسان الذي وقع في أسوأ الظروف متفائلاً، وتواسيه وتنصحه، وتسندة، ولكني لم أصبر رغم ذلك فاغفر لي إذ أثمتُ. ما قلته لا ينطبق على عرق الأديغة بل على رجل واحد... وأفهم أنه ليس مجبولاً على الظلم وحده فقد حمتني طبيته مرات كثيرة. ماكان عليّ أن أسمح للشر أن يغلبني، وأن أتناسى الخير. فاغفر لي.

فرح فيدور حين سمع مشد يחדش الباب. واقتحم هواء الخريف النقي باب الحظيرة. وأطلت عليه السماء المقمرة بالنجوم المتألّلة.

- ماذا يا مشد؟ لماذا أنت أيضاً قلق؟ لماذا حبسنا أنفسنا هنا؟ الطبيعة جميلة ؛ لنخرج إليها!

الليل الخالي من الحركة، والذي يبتّ في القلب رهبة خفية، مخيّم على الأرض، وإن كنت لا ترغب فيه. ولا نسيم يهزّ، ليس أوراق الأشجار، بل رؤوس

النباتات اليابسة. لا يُسمع من القرية شيء لا ينتمي إلى الليل، ولا ينبعث من ظاهرها. ماء الجبل هو الوحيد الذي يتعد بقطراته خائفاً أن يوقظ العالم. ذهب فيدور يتبعه الكلب إلى طرف الحظيرة الأخرى دون أن يعرف السبب. بدا لعينيه بيتٌ عائشةٌ من بين الأشجار التي تشنجت في ليل الخريف. وبيت بزاد وخزانة الحبوب، وجناح المواشي. وإسطبل الخيل، حتى الحيوانات التي فيها، كلها هادئة. ومن الفسحة غير الكبيرة من الطرف الآخر يرى بيت بجانه، وحظائر بيت بَرَجَتْ، وبيت مَرْتَفَوْه غاغنه التي قُتل زوجها في الحرب قبل أيام، كلها في أمان. وصوت البوم الذي مزق سكون زاور حابله فجأة جعل فيدور ينتفض برأسه.

قال فيدور: لا شيء أكرهه إلّا من صوت البوم! ما العمل؛ هو أحد عناصر الوجود. ولو حاولت نفيه عنه لما استطعت. وإن تغلبت عليه حُرِمَتِ الدنيا منه فحسب. ولكن ليته لم يخالط ليلتي القلقة...

لام فيدور مشد الذي دار حوله وإن لم يكن موجّهاً إليه تماماً:

- ها نحن قَلِقَان ولكن لا أحد في الطبيعة يشاركنا قلقنا!

انقطع فجأة صوت البوم الذي تشاءم منه منذ بدأ. واستاء فيدور من طريقة السكوت هذه. أنصت بعض الوقت وانتظر. وحين زال صوت البوم من الليل خيم النور الخفي للقمر على القرية من جديد. وأثار الشهاب وهو يهوي راسماً خطأً وهيباً قلب فيدور ثانية، قال: ها هو شهاب ثانٍ احترق من جهة الشمال، وتبعه شهاب آخر... أتساءل ماذا جرى للشهب الليلة؟ إن كان صحيحاً أن حياة الإنسان تشبه حياة النجوم فما هم ثلاثة أشخاص، وهذا رابع هووا من على ظهر البسيطة. إن كان في قلوبهم الخير فليفتح لهم الله، من أي عرق كانوا، باب جنته! أيُّها من بينها يا تُرى نجوم الشمال؟ ربما هي المحيطة بأسرة النجوم الأخوات السبع. كنت أراها كثيراً في قريتي. والنجمةُ المَعْرُفَةُ لم

تكن بعيدة عنها من الجهة الأخرى. ها هما المجموعتان أراهما، ويمكن أن أتصور قريني الصغيرة بينهما... هل ستقع عيناها يوماً ما؟ وربما وصلت إليها الورقة التي أرسلها قرخ من أجلي. وإن لم تصل فالיום أو غداً سيعرفون خبري! يا كلافديه المسكينة ساحبي، أنا أتفهم ما تعانينه... من أجل هذا يقولون إن الفرح يحمل معه الحزن... ألسْتُ حياً وإن كنتُ أسيراً عند الأديغة؟! إن تحلينا بالصبر وانتظر كلَّ الآخر فسيجمعنا الله. ثقي بهذا ولا تفقدي إيمانك به إذ متى فقدته فقدت الأمل. هذا الإيمان الذي عندي، والله سندي، يُحييني، ويجعلني أتحمّل أقسى الصعاب التي تعترضني. ويُجَنِّبني الذنب والخطيئة والحرام والحسد.

حين عاد بذاكرته فيدور سنة إلى الورا ونقّس عن ضيقه قال لمشد مرة أخرى:

- انقضى معظم الليل، ارتخ أنت أيضاً، وأنا سأغفو قليلاً.

بقي فيدور يتقلب طويلاً لا يستطيع النوم. ومع تلؤن السماء الشرقية بالأحمر فحسب غرق فجأة في النوم. ولولا الطرُق على الباب لطال استغراقه في أحلامه العذبة.

- من الطارق؟ انتفض فيدور.

- جاقز! سمع صوته القوي.

- حالاً جاقز، حالاً!.. لا أعرف إن كان الباب مغلقاً.

- ما نومك في أكثر أيامنا ازدحاماً بالعمل يا مبارك النسل؟ اقتربت الظهيرة.

- نادى جاقز من خلل قائمة الباب. - وأنت ابتعد عني! دفع الكلب برجله متشفياً منه.

- حالاً يا جاقز، حالاً، استغرقت في النوم...

- نمت مفكراً في ما لا ينفعل!.. - قال جاقز كأنه يعرف سبب أرقه - كل

لقمة، وأتينا برميلين من الماء البارد قبل أن يضعف. توقف لحظة. شدّدت

على عائشة، وأقول لك أيضاً: ليس من عادتنا نحن آل بزد أن نُعلن خبر الزواج حتى تصبح العروس في الدار وتدخل البيت. ولذا أنت لا تعرف شيئاً عن الموضوع مهما سألوك، وأياً سألك. هل فهمت؟

- فهمتُ يا جافز، لم أسمع شيئاً ولا أعرف!

- هكذا أحسن... من يعرف كيف سيتصرف أهل بَج حابله؟ سيتكون الوفد المكلف بجلب العروس من أشد رجال القرية وشبابها. وسيكون دوداي المشرف عليهم. اسمع يا فيدور، تفقّد أرض الدار من جديد متى رجعت من الماء إن بقي فيها ما ليس مستويّاً تماماً... يا ربّ لو لم تُمطر في هذه الأيام الثلاثة ريثما ينتهي العرس!

- لن تمطر إن شاء الله، - قالت عُشخان.

- وأنت ما رأيك يا فيدور؟

- ليس في السماء دلائل مطر.

- وأنا هذا رأيي. إن لم تمطر فالفسحة أمام البيت مستوية كالمرآة.

- قل إن شاء الله يا جافز. - تُصَحِّح عُشخان كلام الرجل. - هو القيوم على كل شيء.

- خيرٌ لك أن تهتمي بتحضير الباخسمة من أن تتدخل في شؤون الرجال!

...

أمضى آل بزد نصف نهارهم إلى الظهيرة بمشقة لا يعرفون ماذا يفعلون: لا يستطيعون البقاء داخل البيت، ولا يَرون من اللائق قضاء الوقت في أرض الدار. ومن عُشَي على عينيها كلياً وهي ترقب ناحية بج حابله هي عُشخان. من مدة إلى أخرى تنسلّ من الغرفة وتقف على المسطبة العالية وترصد، وتعود كما خرجت دون خبر. ولا تكف عائشة عن الحركة. تنادي هي الأخرى من دارها مهمومة بغياب الخبر.

- يا مباركة النسل! - ينادي جافز عائشة - خيرٌ لكِ أن تأتي وتهدئي مَنْ في بيتنا قبل أن تفقد رشدها، من أن تنادي من وسط دارك.

أوّل من سمع أهازيج زفة العروس من بعيد وقت هبوط الظلام فنصب أذنيه هو مشدّ. ثم فيدور. أما عُشخان وعائشة فقد ركضتا بحدسهما إلى المسطبة دون أن يناديهما أحد.

تقترب أمزوجة الزفاف، ويدعو بالخير كل من مرّ بهذه التجربة ومن لم يمرّ. وتنشر بين من يزفون العروس إليهم الفرح والتفكير والقلق. حين وصل الموكب ترافقه الأغاني وإطلاق الرصاص إلى الطرف البعيد لسور بزاد عاد جافز إلى وعيه:

- أسرع يا فيدور، وافتح البوابة الكبيرة على مصراعيها. وأنت يا عجوز آل بزاد لماذا أنت واقفة؟ هل تنوين الانكشاف على العروس قبل المراسم المألوفة¹؟
- وأنت؟ أنت ماذا تنتظر؟ عُد إلى مقرّ زعامتك ولا تُخرج العروسين². وأنا سأعود إلى مقرّ الحماة. ليجعل الله الخير في خطوات العروس الصغيرة، وليحقّق لآل بزاد كل ما في العالم من خير! اذهبي أنت يا عائشة واستقبليهم!

XIX

لم يحدع الخريف المتأخّر آل بزاد حتى لو كان الصباح مشجعاً لقلقهم. - الجو دافئ ولطيف. والعروس مثله جميلة بشوش، حلوة الطباع. القرية التي ولد فيها الفرح تبتسم لها الجبال القريبة والبعيدة فتقاسمها أفراحها بقممها البيضاء، تتعالى على أطراف أصابعها وكأنها تستقلّ ما تراه. وأشجار غابة ظهر المرتفع المحيطة بالقرية والتي لم تنفض بعد أوراقها الخريفية الملونة

¹ تقدّم العروس إلى حماتها بزّقة خاصة ترافقها موسيقى خاصة أيضاً في آخر مراسم العرس، ولا يجوز لإحدهما أن ترى الأخرى قبل هذه المراسم.

² أما الحم فلا يرى كنته، ولا يجتمعان على مائدة إلى ما بعد أشهر أو سنين.

تتهامس في الأنحاء القريبة والبعيدة، بل في الناحية التي يحتشد فيها الجيش الروسي، بأصواتها الذهبية الخفية، تبتهل إلى الله من أجل أن ينصهر نصيب العروسين في قالب واحد. وأمواج الجبال التي تسكب ماءها إلى الجميع وتوزع أصوات أمواج مياهها الفضية في كل مكان تضحك من بين حواف الصخور. والشمس التي توزع دائماً أشعة فرحها على كل الناس ترتفع إلى عنان سماءها دون أن تقول "من هم هؤلاء، ومن أي عرقٍ من البشر؟"

في دار آل بزاد تغلي سبع قدور من اللحم وما يقابلها من الباستا، بالإضافة إلى الخراف السبعة التي تُشوى على عجلة دوارة. والقادمون لتهنئة آل بزاد يحملون إليهم أقراص السلامة والبرك والحلوى و "العُرْبِيَّة"، وغيرها بالإضافة إلى ما يجَهِّز في بيت الأسرة. وتُنزل من العربات الخرافُ المقيّدة والديكة الرومية التي ليست أصغر من الخراف، ويُطلقونها في جناح المواشي من الدار. وبقيت ساعتان أو ثلاث على دخول قائد الحفلة الذي طرفا كسائه ملمومان في الزنار الفضّي وكماه مرفوعان إلى ما قبل المرفقين. يدخل إلى حلبة الرقص ممسكاً براية العرس الرفيعة القصيرة إلى حفلة اللذين جمعهما النصيب، ويهئنهما. والشباب الذين سيحتلون حلبة الرقص، على ما تفرض عادة الأديغة، حتى لو حضروا من غير دعوة، يجمعون من القرية عدداً من الفتيات في موعد محدد. وحين يوصلوهن يُدعَيْن إلى غرفة العروس على مرأى من أصحاب العرس. ومن يأتون من القرى المجاورة يُعرفون من أحصنتهم المربوطة إلى أماكنها المخصصة لها والعربات المسرّحة خيولها. يأتي الناس إلى حفلة الرقص أحياناً أو مثنى أو ثلاث. وعلى عادة الأديغة يملأ الصِّبْيَانُ والفتيات الصغار أرض دار العرس.

الأكابر سنّاً بقيادة قايمت أفندي، القانعون بمكانهم المألوف، يجلسون في أوسع غرفة من الدار يَرِينُ عليهم ما تفرضه أعمارهم عليهم من احترام لأنفسهم وطلاوة في ألسنتهم. وفي الجانب الأيسر تجلس إلى حائط البيت العجائز

الموقَّرات أمام أنظار المسنين غير المبالية. والرجال أشباه الكهول القائمون على خدمة المسنين ليسوا بعيدين عن نافذة المسنين المفتوحة. والنساء اللواتي لا يتناسين احترامهن لأنفسهن جالسات مع غيرهن من المسنات. والشباب الذين يختلسون النظر إلى الفتيات اللواتي يُدعَيْن إلى غرفة العروس يقفون في أرض الدار البستان غير بعيدٍ عن المكان الذي ستعقد فيه حلقة الرقص.

دوداي هو من لا يعرف الراحة. هو المضيف المكلف من أخته وصهره بالاستقبالات. ولا يجهل دوداي أن هذا التشريف ما كان ليصله لو أن أحد شقيقي بزد كان حياً. وأنا كسيفيتش فيدور واحد من خمسة رجال يأتمرون بأمر دوداي حتى إن كلمته لا تصل إلى الأرض كما يُقال. يوصل اللحوم المقطعة التي تملأ الأوعية الخشبية، ودلاء الماء، ولوازم الباستا في القدور التي تقف النساء على خدمتها. ويطلب من الفتيان جلب حزم الحطب إلى النار. ويُصدر التعليمات إلى الطباخين.

- لا تبالغوا في تحوية الحطب، قَرِّبوا الأطراف الملتهبة من النار.
- الغابة ملأى بالحطب. - تناكده عائشة.
- ودارنا ملأى بالحطب، لا يتراجع فيدور.
- لماذا أنت حريص على مال آل بزد؟
- هل سمعت الأديغة يقولون: ما تحرص عليه يحرص عليك. يريدون أنه ينفعل يوماً ما.

- أليست تقوله لي وإن لم أسمعه... - تلتفت عائشة مع ضحكة خبيثة نحو فيدور. ثم تقول له محاولةً تمويه ما قالته على مسمع من الواقفين: - كان الأفضل من هذا أن تقول بسم الله، وتصب الدلو في القدر. - إلهكم الإسلامي شاهدي على هذا يا عائشة، لا أتحرك في عرسنا دون أن أنطق بها.
- آه يا أيها المسكين، ما أتعسك! من أين آتي بمثلك؟..

- يا عائشة اهتمي بأمر الباستا، حرّكي القدر كي لا يحترق ما فيها... - يقول فيدور وقد اختلط جُدهُ بهزله ، ثم يوكّد على رفيقه الشاب: - لا تدع عائشة تحتاج إلى الحطب اليابس. ولا تُكثّر منه. سنبقى دون حطب في الشتاء.

- اسمع ماذا يقول هذا! - تقول عائشة للمرأة التي إلى جانبها وهي تحرك الباستا، وتظاهر بالاستغراب: - بزاد جافز لا يستطيع حصرَ أملاكه. والآخر يجمع له المال؛ ييخل حتى بقطعة الحطب!

- ماذا تظنين أنت يا عائشة؟ - يغمز فيدور رفيقه الشاب وهو يعيد ترتيب الحطب. - قطعة الحطب تُشعل بها نار ؛ إن لم أحرص أنا على أموال بزاد فأنت لن تفعلي أبداً.

- لن تقول أصدق من هذا يا فيدور! - عائشة تحب الحديث جداً. - يا حسرة ؛ لو ضمننتُ ألا تحترق الباستا لتركّت جيراني بلا حطب.

- إن كان عند الجيران فأنت أيضاً عندك. إن كنتِ تريدين أن تؤذي نفسك فافعلي هذا! - فيدور مُصرٌّ على موقفه، سعيدٌ من أعماقه.

- صحيح يا فيدور، صحيح. - ليُهلِكني الله قبلك وقبل آل بزاد! - تضحك عائشة، - إن لم يسبل منكم نَقْط... اسمع يا فيدور، أفضلُ من هذا كله أن تستعد للرقص. سنرقص معاً في عرس آل بزاد ونجعل من ينظر إلينا يفغر فاه عجباً، ومن لا يصفق لنا يعجز عن الوقوف، ومن لم يرنا يبق حسرةً في قلبه، ومن تزوجوا أجعلهم يندمون على زواجهم، ومن تزوّجن تحطم أنت قلوبهن، ومن يريدون تأسيس أسرٍ يموتون حباً فينا. ألا تتذكر اتفاقنا يا فيدور؟

- وكيف لا أتذكر؟ وجافز وعُشخان يعلمان به.

- اسمع ماذا يقول؟! - كأنهما والداك! ترفع عائشة صوتها معاتبة. لا يفارقان لسانك في فرح أو حزن!

كان فيدور يود الرد على عائشة، غير أن دوداي لم يُمهله:

- أين أنت يا فيدور؟ اخرج لحظة من بين النساء!

سأل أحد الضيوف المسنين القادمين من قاي حابله:

- أهذا هو الأسير الكافر ليزاد؟

- لم تخطئ يا كبير، هذا هو، - أجابه أحدهم.

- والله لو لم أسمع اسمه لما خطر لي أن يكون هو. انسجم معنا بلسانه،

وبطبيعته. - هزّ العجوز رأسه كمن تذكر مناسبة محزنة، وأضاف بعد قليل: -

حسنٌ أن تنسجم مع من تعيش معهم ما دمت إنساناً مهما ساموك من العذاب. الله يرى عذاب كل إنسان ومعروفه. والله سرّني وضعه.

- هذا البائس الذي تأتي على ذكره يا جبريل، - يوافق قائمت أفندي الضيف،

- حادثته في كثير من المناسبات. إنسان صالح لولا أنه سليل كفار. ما العمل؟
ماحمله الله جملته.

- صحيح يا قائمت، صحيح. الله يرى المحسن والمسيء. لا أحد يغيب عن عينيه في دنيانا. إن كان رجلاً صالحاً فالله لا يميز بين الناس. سيغفر له ما ارتكبه من ذنب مرغماً.

- أيّ ذنب سيرتكب هذا؟! - قال قائمت أفندي محاولاً تلطيف موضوع

فيدور الذي ثار فجأة في المجلس: قيل له: اذهب وحارب فأتى!

- ألا يكفي انه أتى ليحارب؟ - سأل عجوز آخر تغلبه الحميّة.

- يكفي، - أجاب جبريل بدلاً من قائمت أفندي، - ولكن ما يُقال من أن

المضطر لا يشعر بمرارة ماء مرارته صحيح. ما أسهل أن تُهين الإنسان يا باتري!

ولكن نسيان الإهانة صعب. وهذا تعرفه إن وقعت مكان المسكين فحسب، حين تفهم ما يختلج في قلبه.

- هذا كلام حقّ يا جبريل، ولكن ألم يحاربنا مع ذلك؟ - لم يقتنع العجوز

باتري.

- حاربنا من أشعلَ الحرب بيننا!.. - ارتفع صوت جبريل رغم محاولته كظم انفعاله، ثم أضاف حريصاً على نفسه، ودون سخرية: - لم أصادف إلى الآن من يكره حياته. الحرب ليست حفلة رقص في عرس، لا أحدَ يترك أسرته معتقداً أنه سيستمع بالحرب.

- ولكن يا جبريل، من يعرف، أليست آمال الإنسان عريضة؟
- آماله عريضة لأن الله يُبقي عليها. - أجاب جبريل مؤيداً رأي رفيقه. ثم أكمل باسماء: - والله يا باتربي لم نتفق أنت وأنا في هذه المسألة خلال السنوات الماضية، فلماذا نصدع رؤوس غيرنا؟ لئنْه النقاش هنا! سنكمل متى عدنا إلى داور حابله.

- هذا صحيح يا جبريل، ومع ذلك... - لم يملك باتربي إلا أن يقول. وفي هذه اللحظة تحرك الناس أمام واجهة البيت، وسمع صوت عريف حفلة الرقص: - أيتها الجماعة، يا ضيوف عرس آل بزاد! تجتمعوا على نحوٍ توسعون معه حلبة الرقص. الشباب على يميني والبنات على يساري. قفوا بحيث يرى بعضكم بعضاً. العادة أن يفتتح عريف الحفلة الرقص بقدمين رشيقتين، ولكن بما أن في عرس آل بزاد رجلاً أرشق مني رقصاً، وأخير لساناً، ولا ضرورة لأن أتكلم على رجولته وفطنته، فالقرية والأسرة ترجو تغانه قرخ أن يفتتح العرس. هيا يا قرخ! وهيا يا عازف الأوكورديون، وعازفي الشبابات، وعازف الإيقاع. وأيتها الحضور لا تتكاسلوا في التصفيق. يتوجه العريف على رؤوس أصابعه نحو الجهة التي يقف فيها الأكابر سنأ. ويصحب تغانه قرخ إلى وسط الحلبة مثيراً حماسه للرقص، ملتفاً من ورائه حيناً، وراقصاً أمامه حيناً. - لا أسمع التصفيق! صبقوا، لا تخافوا على أكفكم!

احتل الساحة قرخ الذي شرفوه بالرقصة الأولى وبأجمل بنات الحفلة. يتحكم قرخ في الجسد الذي ناهز صاحبه الستين دون مبالغة في الحركات. يخالف بين

القدمين وكأنهما تمسان الأرض ولا تمسان. يرقص شبابه ثانية إذ يقفز قلبه متحمساً غير معترفٍ بالعمر. يراقص الفتاة متودداً إليها في الوقت المناسب، ثم راجعاً إلى وقاره. ولم يخطئ العريف في اختيار أفضل من تراقص قرخ في زاور حابله. تُسيطر على القامة الجميلة التي كأنما سُحبت من الخاتم كما يتحكم المرء في عود ربيعي فلا يشعر المشاهدون بأي حرج يصيبها. والشباب الذين مُنحوا بعض الحرية يصفقون دون وعي. وإن بدر من أحدهم أيُّ سلوك غير لائق أمام الكبار رماه العريف بنظرة تعيده إلى وقاره. ومن يبخل على كفيه ينبّهه بنظرة واحدة فيعود إلى نشاطه. وبالقياص إلى الشباب الفاترين حماسة فوضّع الفتيات اللواتي في سن الزواج مختلف. — هن واقفات وكلٌ واحدة منهن أجمل من الأخرى، يُخفين حرارة قلوبهن وراء طريقة تصفيقهن الحذرة براحات ناعمة، وبطباع حلوة ودودة، وخطود متورّدة.

يُشعر قرخ الفتاة المراقصة له بانتهاء جولة الرقص بإيماءة رأس خفيفة راضية، ثم يُعيدها إلى المكان الذي أخرجها منه، ويخرج من الحلبة محافظاً على خفته وهدوئه. ثم يدخل العريف الحلبة بعد أن يشير إلى العازفين أن يتوقفوا.

— أيها المحتفلون بالعروسين الشابين، يا من أدعو لهم جميعاً بأن يحتفلوا أيضاً بأعراسهم. قال دوداي: إن لم أفتدِ قرخ صديقي الذي رقص في عرس ابن أختي، يا من جعل الله يومه مئةً، فإن صديقه في رعي الخيل يقدم أفضل حصان عنده. مهلاً، مهلاً أيتها الجماعة، هذه هي البداية، والآن اسمعوا مرة أخرى. مامسر جبريل الذي أدعو أن تطول كل نبضة من نبضات قلبه مئة يوم ومئة ليلة، لا يتداول الأبرأ وحدهم حكمته، بل كلٌّ من في إقليم الأديغة، ولو أنه كان تقاعد عن الرقص لشيخوخته قرر أن يشارك في عرس زاور حابله، مسترجعاً شبابه مرة أخرى، ويرقص طرف عصاه بدلاً من قدميه، فقطع كل هذه المسافة من داور حابله. يقول إن تغانه قرخ افتداني مرات كثيرة، وباسمه

يقدم هذه الساعة الفضية إلى العروسين الشابين. ليعوّضك الله يا جبريل عن هديتك مئة ضعف. ونحن إن شاء الله نأتيكم في مناسبة خير، لا إلى أسرة مامسر التي أنت عميدها وحدها، بل إلى كل داور حابله! مهلاً يا جماعة، لم ينته الأمر هنا. هل ترون هذا؟ - يُري للحضور وللواقفين في الحلبة تمثال رأسين متجاورين لرجل وامرأة مصنوعاً من الخشب - لا أحد في زاور حابله يجهل صانع هذا التمثال، ولا حتى في الجوار، من الله في قلبه، ولم يكرهه أهل زاور حابله تماماً إلى الآن، ويُحييه الأمل، أناكسي فيدر ؛ قال: إن مددت يدي إلى جبني فهو مثقوب، وإن مددتها إلى المواشي التي أجمعها في جناحها فليست المواشي لي. وليس من تعلقهم من الطيور لك وإن هجمت واختطف بعضهما، وفكر. وما ابتدعه مما جادت به نفسه أمام عيونكم. والآن نظرتُ إليه ثانية فهي نسخة من العروس تُعني عن النظر إليها إذ لم يسمحوا لنا إلى الآن أن نراها... هيه يا دوداي ماذا تقول؟

- فيد، فيد! - ردد بعض المشاركين في الحفلة.
 - نعم، فيد بالتأكيد! - يوافقهم العريف أيضاً، ويشمر عن ساعديه ويضيف:
 - ولكن هناك اختلافاً وحيداً، لا تحزن يا فيدور، أظن العروس التي رُقت إليكم أجمل من التمثال ، حياك الله يا فيدور! وقرخ راضٍ عنك. وها هم الضيوف الكبار، وبينهم جبريل في الغرفة الخاصة بالمسنين، يشير إليك إشارة رضا، ناظراً في الوقت نفسه إلى غريمه باتري، يقولون: ليعوّضك الله، وإهكم معه، عما تبرعت به مئة ضعف. ولتتوقف الحرب، وليعدّ إليك وأنت حي ونحن أحياء من صاروا بعيدين عنك! نستأنف الرقص ؛ هيتا يا صالح إلى الحلبة. أتأملكُم فلا أرى بين رفاقك من هو أجدر منك. استعدوا لتقديم هداياكم. - مدّوا أيديكم إلى جيوبكم! لا تبخلوا بالقروش التركية الصفراء، ولا بالروبلات الروسية

الصدئة¹، ولا بالعملة الإنجليزية النادرة. ما من عملة لا تُقبل في سوقنا الأديغية وفي السوق الروسية، حتى الأفغانية والفارسية، بما فيها فئة العشر كوبيكات، مقبولة مادامت تحمل اسم النقد. وإن خبأتم نقودكم، كما فعل دوداي، فابحثوا في مرابط خيولكم. وأعيدوا النظر في حظائر أغنامكم. وليست أفناء مواشيكم خالية، وبالإضافة إلى الذئب الذي يفترسها فنحن لا نكره الخوّارات². دعونا نؤسس أسرة الشابين اللذين يتمتعان بسُحتنين لطيفتين كالخريف الناعم الذي يغمر أرض الدار؛ كلٌّ بما تجود به نفسه. وعازفونا ليسوا جشعين، وهؤلاء يقدّرون القرابات. ولكن، باستثناء الراقصين - المرحين - المغازلين وأنا لا تُبعدوني عنهم، لنعط كل ذي حق أجرته. ليس بيننا اليوم من لا يفتديه من دعوه إلى الرقص، واحتل الحلبة، إن كان فقيراً أم غنياً، وإن كان المبلغ متفاوتاً. كلنا سواسية كما يقول الله، ومن عرق واحد.

عرس آل بزاز في أوجه. والمشاركون فيه لا ينقص عددهم إن لم يزد. جاقز وغُشخان وفيدور الذي صار واحداً من الأسرة، أحسن إليهما من بيده الملك في الموضوع الذي كان يشغل بالهما وهو يوم العرس الخريفي. لا سحابة في كل السماء تتابع الشمس الآيلة إلى الغروب. والحلبة أمام البيت مستوية كالمرآة كما يقول جاقز. اليوم الخريفي يوزع حسناته من خلال أشعة الشمس الناعمة. وأصوات الأوكورديون والشبابة التي تتناثر تتعالى إلى جهة القمم البيضاء، والأبعد من هذه القمم بالانتظار. والغابات التي تسري على المرتفعات والتي تتخلص أشجارها من أوراقها دون ألم تشهدُ وقفُتها الهادئة على ارتياحها لما ترى. الطبيعة في ظاهر قرية زاور حابله جميلة وآمنة حتى إنك لا تعرف إن كان في العالم حربٌ، وأن أرواحاً بشرية تُزهق من الطرفين لولا أن الأديغة يقاومون في

¹ في الأصل قطعة من فئة خمسة كوبيكات.

² جنس البقر.

جهة ما من الأرض. الوقت مناسب للاستمتاع والمرح فالقلب يفرح، والأقدام ترقص.

لا يهدأ قلب عُشخان كمن تُحرم من شيءٍ ما رغم أنها تجلس في البيت محاطة بالنساء المسنات، تمثل دور الحماة المدللة، ومع أنها تصغي بعناية إلى ارتفاع صخب الحفلة، وكلُّ ما يقوله عريف الحفلة وما يفعله يتسرب من النافذة المفتوحة، ومع أنهن يريّين أمور العالم لا يفوهنَّ شيء من أخباره، فهي لا تسمع شيئاً منها، ولا تعباً بمن يدخل أو يخرج. يحيل إليها أنهم أحرقوا اللحم في القدور، ولم يُضججوا الباستا، ونسوا أن يضيفوا الملح إلى الحساء، والفلفل المطحون إلى العصيدة، وماء العسل إلى الباخسمه.

- بالله عليكم، لاتؤاخذنني - تقول عُشخان للعجائز، - لستُ مطمئنة إلى الطباخين، أخاف أن يكون الرقص استهواهم. ولا أعرف ماذا سيقول لي العجوز الذي حبس نفسه في الغرفة إذا رأي. سأنتقدهم.

- ولم لا؟ - وافقتها إحدى قريباتها من العجائز.

- لا، لا تذهبي إليهم، سيظنون أنك لا تتقين بهم. - قالت غيرها.

- هؤلاء الراقصون الكثيرون مستعدون أن يلهثوا عشرة ثيران! - غمغمت أخرى كانت صامتة إلى الآن، منقّسة عن ضيقها.

تسللت عُشخان من الغرفة، ويداهما تحت إبطيهما، دون أن تجيب على أيٍّ منهن، سواء أعجبتها ما قالت أم لم تعجبها، متدركة بأنها لا تتدخل في شؤون غيرها، ووقفت على حافة المسطبة. كان كلُّ ما رآته، من الراقصين والطباخين، والمدخنين في زاويتهم، مريحاً. يا إلهي الواحد الأحد، قالت عُشخان، فرّق هؤلاء الذين جمعتهم على خير راضين جميعاً كما جمعتهم. وبارك في خطوة العروس الأولى إلى بيتنا. واجعلها تألفنا، واحمنا وأطفالنا من الجيش الروسي الذي يقال إنه قادم إلينا. ولو عرفنا أننا سنعيش هكذا في سلام وراحة بال وحظ

سعيد جزرتُ لهم، ليس عشرة ثيران، بل مئة. رَفَّقَ قلوب الناس لنا كما قلوبُ هذا الحشد!

ظهرت عائشة من زاوية البيت ويدها مغرفة خشبية كبيرة:

- يا عُشخان، الله جاء بكِ إليّ - صرخت عائشة من الفرح - أنا أبحت عنك هناك من النافذة، وأشير إليك...

- وكيف تشيرين إليّ يا عزيزتي وأنا واقفة هنا؟!

- نعم أشرت، أعرفُ ما أفعل، ولكن شَبّهْتُك بإحداهنّ.

- هل هناك مشكلة؟ - امْتَقِعْ لون عُشخان.

- لا، لا تجزعي. ألا ترين؟ كل شيء على ما يرام. والجميعُ مرحون، نحن جاهزون لتقديم الطعام متى أمرتم!

- وماذا إذن؟

- أنا الوحيدة التي عندها ما يحزنها بين هذا الحشد.

- وما الذي يحزنك؟ هل أزعجك أحد؟ قولي!

- نعم أزعجني، وأنتِ ممن أزعجونني - تقول عائشة على نحو لا تميز جدّها من هزلها.

- وكيف يا عائشة يجرحون قلبك في مثل هذا اليوم؟ - وما علاقتي أنا بالأمر يا عزيزتي؟

- لا تنسي كلامك، سَتُظْلَم الدنيا قريباً.

- نعم يا عائشة، نعم، كان الأفضل أن نقدم الطعام في النور والناس يرون ما يأكلون. أين دوداي؟ نأديه من أجلي! لماذا لا ينتبه إلى هذا؟

- لا تخافي، لن تُخطئ ملاحظتهم أفواههم. ليس هذا ما أقصده.

- وماذا إذن؟ ألا يجوز أن تذكره بالاسم؟

- من الذي كان تكفل أن يسمح لنا أن نرقص أنا وفيدور معاً؟

- أهذا ما تشكين منه؟ ابتعدي عني! لا نهاية لمزاحك. ظننت أن مشكلة حدثت بينكم فارتعبت.

- وهل تظنين الرقص مزحة؟ - تدلّعت عائشة منسّقة بين حركة رأسها وجذعها الجميل. - أريد أن نرقص أنا وفيدور قبل حلول الظلام. وفي كل الأحوال انتشر خبرنا في القرية... وأين جافز؟ وهو واحد ممن وعدونا أن نرقص أنا وفيدور، ونكث بوعده. حبس نفسه مع المسنين بذريعة أن عنده كَنّة. سُمع صوت عريف الحفلة الحاد:

- أيتها الجماعة التي أدعو الله أن يجعل لها العرس الذي نحن فيه خيراً! يرسل لي فيدور من يخبرني أنه سيعتّب علينا إن لم نسمح له بالرقص في عرس صبح الولد الوحيد لهم، أعني آل بزاد. وليس من طرفه وحده بل تأتيني طلبات من الطبّاخين الرجال والنساء. ولا يُلْمُني هذا الحشد من الفتيات الجميلات إذ تقول عائشة إنها إن لم ترقص فلن يغرّد قلبها ولن تنشط قدمها. أين هي عائشة التي يأتون على ذكرها ولا نراها؟ إن كنتِ لن تُلقِيِ المغرفة ومهرسة الباستا من يدك فأعطيهِما لمن تثقين به، وتعالِي إلى الحلبة؛ جَدِّدي شبابك!

- هل تسمعين يا عُشخان؟ تضع عائشة المغرفة في يد عُشخان. - لا تظني أننا فقدنا الأمل في الرجال! ثم همست في أذنها مسرعة: - افندونا! لا تهينوا فيدور المسكين أمام القرية كلها... - ثم تصرخ إلى من وراءها - إن كنتم بخلاء بأصحاب القرون التي في داركم فسأرسل إليكم الفحل الجديد المعلوف الذي في دارنا...

- كيف نهدي بعضنا بعضاً يا عائشة؟ - سيسخرون منا!
- ليس من الضروري في هذا أن نتهاذى! - غضبت عائشة مرة أخرى - بالنسبة لفيدور الوحيد بيننا الغريب فهو هدية احترام!

حين أُعلن أن عائشة وفيدور سيرقصان معاً تحرك كلٌّ من في الدار: الواقفون في

أرض الدار، والجالسون في الغرف، والواقفون يدخنون، والطباخون. ومن لا يعرفون الرقص يخافون أن يُدعوا إلى الرقص فيختبئون من العريف. ولم يبق في البيت إلا بضعة فتيات من وصيفات العروس، وبضعة مستنّين ومسنات. المسطبة العالية تعجّ بالنساء، ومن لم تتسع لهن يقفن على المقاعد الخشبية المنخفضة. والصبيان على رؤوس الأشجار.

التهب العازفون حماسة من جديد. وارتفع صوت التصفيق النشيط، والعريف لا يملك أن يبقى في مكانه فيقتحم الساحة. يرقص مع فيدور مشيراً إليه بإيمانه إشارة التشجيع. ثم كأنما لا يجد من اللائق أنه ترك عائشة وحيدة مع الرجال يتصنع أمام عائشة فيعتذر إليها. ودون أن ينسى فيدور فيرقص معه. وتدور عائشة الحلبة وكأنها ليست تلك التي كانت مولعة بالمزاح. وفي كل انثناء وانعطافه تحرص على جسدها أن يظهر منه شيء. تتورد وجنتاها وينشرح وجهها. تقول للرجال بقلبها: "انظروا إلى أي مدى ما أزال حلوة الطباع ولو لم أكن إلا أرملة"، وتقول للبنات: "إن كانت كل البنات مثلكن فحسبُ فلن أدعكن تقتربن من محيطي، بل لن أسمح لكن أن تنظرن من ثقب الباب". آه لو لم تكن رجل هذا البائس فيدور معاقة لأراكم كيف يكون رقص الأديغة! انظروا كم هو جذاب! من يستطيع أن يقول إنه ليس سليل أبٍ وأمٍ أديغين؟! ولحيته الخفيفة وشارباه تليق به الآن أكثر، تضفي عليه ملامح أديغية أوضح من ذي قبل. انظر كيف يوائم يديه ورجليه مع اللحن الأديغي، وكيف يتكيف بخصره الممشوق!.. لو أن الله أعطاني إياه لطوّعته بيدي كما يُطوّع العجين، ولا اتخذته زوجاً يُسيهم اسمه الكافر... ولو لم يتحقق لي هذا لهربت معه ووافقته كما يريد مني تماماً؛ أليس الحب بلا حدود، إنه لا يسأل عن أصلك ولا يعرف تمييزاً، ومن يميّز يدفع حياته على فعلته!..

- والله يا جاقز - لا يستطيع باتري تقبّل فيدور - لا يوقّر المسلمون تصفيقاً

من أجل "كافرك"؟!.. ما هذا؟

- ألم تسمع يا ضيفنا كيف ترجّى من نطقت اسمه قائلاً: دعوني أرقص في عرس ابنتا الوحيد؟! - سأل أحد مسيّي القرية.

- عرفاء الحفلات يقولون الكثير، - عارض باتري محدّثه - كلام هؤلاء الشياطين عديمي الإيمان غير مقبول.

- لا أريد أن أدخل في جدال معك يا باتري... - ابتسم جبريل، وأضاف بعد سكتة: - لو كان الأمر بيدي ما سمحت لك أن توجه كلمة سخيفة بحق عريف الحفلة الذي تأتمر القرية بأمره. كلٌّ ماهرٌ في صنّعه. هل يصدّق من يعرف مشغولاتك إن قلتُ له إن هارون باتري دباغ سيء؟ ومن نغتابه الآن هو من هذا القبيل... ثم إنه لا مجال للمقارنة بين العرس الذي نحن فيه وبين الجامع الذي تصلي فيه.

- نعم يا جبريل، ماذا تقول؟ الله لن يقبل كلامك، - تصلّب باتري مما سمع وقد فهم أصل الموضوع - لا أجادلك في موضوع الصنعة، ولكن في هذا الشأن...

- نعم يا هارون، لا تتعجل الأمور. لا أقول ما لا يجوز بحق الله. ولكن لا أريد أن أجمع بين الاثنين: الفرح والدين، وأقارن بينهما، ولو أنهما كليهما من عند الله. ليس أصحاب الدين الواحد فحسب من يحتفل بالعرس، هكذا يقول الله نفسه. الفرح والحزن، لا تُخطئ: الفرح والحزن لا يميزان بين الناس. من يدعّمك فهو حليفك. كيف كنت ستتصرف لو حضر أديغة مَزْدَغ¹ عرسنا؟ وهم أديغة، ولكنهم مسيحيون. أظن الله غافلاً عنهم؟ نعم يا قائمت ما رأيك أنت؟ - يسأل ثانية قائمت أفندي الذي لم يساهم إلى الآن في الحديث.

¹ أديغة مزدغ مسيحيون إلى الآن، ومزدغ تعني الغابة الصماء لكثافة الغابة.

- كلُّ هذا يا جبريل مما قرره الله وانتهى. - يقول راعباً في عدم الإساءة إلى الضيفين، وبيضيف بسرعة: - ربما كان الله ساق إلينا هذا المسكين الذي دُعي إلى الرقص. وربما كان الله قرر أن يراقص عائشة بعد المغفور له الشاب أحمد...

انقطع صوت العزف، ووصل صوت عريف الحفلة إلى المسنين:

- أنتم يا من حضروا فرحنا! عُشخان التي نقاسمها فرحها تشتري فيدور وعائشة بأكبر ثور في دارها بدلاً من أن تخرج من زاور حابله، وتفتش في ظاهرها. تتجاوز من يمدون أيديهم بالفدية، وتعود إلى آل بزد قائلة: لن نفتقر إن أعطينا نحن أنفسنا بأنفسنا.

- هل تسمع؟ - يصرخ من مكانه حكرينه باتري ملوحاً بطرف عصاه - لم يتبرع أحدٌ بافتداء الكافر الذي غضب عليه الله، فافتدته ربة البيت.

- مهلاً، مهلاً يا حكرينه، لا يزال جلدُ خروفك نصف مدبوغ فلا تستعجل! - يعرضُ مامسر جبريل بالصدق، - اسمع بقية كلام عريف الحفلة.

- أيها العرس، أيتها القرية، لا تدفعوني إلى الاستعجال، - يناديهم العريف، - وإلا فسيلتبس عليكم المتبرعون وما تبرعوا به!.. لندعُ إلى الله أن يعوّضَ تغانه قرخ السومة الفضية¹ بمئة، ويتزوج ابنه مراد، فنفرح له ونقيم له مثل هذا العرس. وأرسل إلينا بجان مامي قائلاً إنه لا يستطيع الحضور لأنه في جداد، ولكنه فيما يتبرع بمهرة أحسن فرسٍ عنده للعروسين اللذين ربطا حظهما بأوثق طريقة للرباط، يفتدي فيدور وعائشة. ندعو لك يا مامي أن يكونَ حزنك خاتمة الأحزان، ويعوّضك الله عما جادت به نفسك ألفاً، وتعيش شيخوخة سعيدة يا كبيرنا. هل ترون هذا الزنار الفضي؟ هذه هدية دُعجي جامبج القادم من قرية نحقوه حابله! أدعو لك أن تعود إليك هديتك بالخط على قدر قيمة فضة

¹ الروبل بالأديغة.

الزئار. لتعشُ حياة سعيدة مع أسرتك، وليبارك الله في خطاك إلينا حتى لتوازُن
خُطوتك السَنَة فتعيش شيخوخة سعيدة.

- سبحان الله، سبحان الله! ¹ الأديغة يفقدون صوابهم حين يلتقون بغريب
عنهم... - يَهْزُ حَكْرُنه باتربي رأسه مغمض العينين، ولا يعود يرى المسنين مثله
الذين يستمعون إلى العريف...

XX

إذا كان نصيب العروسين أن يعيشا سنين كثيرة فإن أيام العرس تنقضي،
حسب غنى أهل العريس، بثلاثة أيام من الاحتفالات إلى سبعة، دون أن تشعر
بها.

ظل أهلُ زاور حابله وسكان القرى المجاورة، والبعيدة، يتحدثون في عرس آل
بزاده شهوراً رغم أنه انقضى بثلاثة أيام لا سبعة: عجز الناس عن التعبير عن
كثرة الأموال التي دُفعت فيه من مواشٍ وغيرها، والأطعمة المتنوعة التي تكفي
حتى لألف مدعوٍ، وتعداد الضيوف الذين جاؤوهم، ومهارة العازفين على
الأوكورديون وغيره من الآلات، وذلاقة لسان عريف الحفلة، ولكنهم ينسون كل
هذا حين يبدؤون بسرد رقصة فيدور وعائشة. يسري الخبر يبالغون في مالم يروه،
ويُضيفون إلى ما سمعوه من عندهم، حتى يتحول الخبر إلى خرافة لا تصمد
للواقع.

مشاركة فيدور في العرس كأنه واحد من الأسرة، ورقصه فيه كأى رجل أديغي،
وإهداؤهم إليه باحترام دون امتداح، كل هذا ثبّت قدمي فيدور بين الأديغة، ولم
تنفعه في قضية حريته، بل لم تفتح له أي خلل يرى منه أملاً. ولم يكن قليلاً ما
يصله من الأخبار هائماً، وأكثرُ منها ما كان يدور بين مختلف أوساط الناس،

¹ بالعربية في الأصل.

محوّراً عن الأصل، ولم يصل إليه.

ليس ما يُقلق أناكسيفيش فيدور هو الأخبار التي عادت إليه ولم تعد. هذه تنور ثم تنطفئ، ثم يظهر كل يوم ما هو أعجب من خبر سابقه. أحدهم، أطول عمراً تبعاً لما يتضمنه، والآخر بلا جذور فيضيع بأسرع مما ظهر. الموضوع الذي لم تعد له نهاية البتة هو موضوع فيدور خلافاً لبدايته. من الصعب انتزاع الحرية من كل إنسان يحترم نفسه. وإن كنت تريد إعادتها له، سواء رضيت أم لم ترض، فمن الصعب أن تتخلى عنها. ولكن إذا كان أناكسيفيش فيدور فقد الأمل حين أبعادوا عنه حريته فقد كان قيد نفسه بالعهد الذي قطعه أمام الله قبل الوقت الذي سبق اكتسابه الثقة من آسريه. ولم يكف هذا بل أضاف إليه عهداً أمام جاقز.

وكما كان النهار الخريفي معكراً ففيدور مكثّر المزاج. ومنذ أول من أمس لم يُبق السماء الجاثمة بثقلها على الأرض من قوة لأطراف فيدور. تتنافس الندبة التي على الرجل الجريح والأفكار التي في الصدر على التسابق إليه. الأفكار التي لا تنتهي تُنسيك كل شيء وإن كانت الرجل الجريح تؤلمك، والرأس مصدوعاً، أو عندك شكاوى أخرى.

ما أثقل الطبيعة التي غطّت سماء حياتنا، قال فيدور، لا هي تمطر، ولا هي تُثلج. ليت الشتاء قديم وتبعه الربيع القصير! في الشتاء يصعب ارتياد المضائق والأودية، ينزل فيها الناس والخيول. وتحوي المدافع المحمولة في الوادي بكل طاقتها فاقدة السيطرة على عجلاتها المتسارعة. وينتقص الشتاء من شجاعة كل إنسان. متى ستصل إلى هنا الجحافل الروسية التي يُقال إنهم يأتون بها من القمر؟ وإن وصلوا فسيعيدون سجن في البيت بحجة مناسبة وسأقضي الشتاء فيه. ألسن عارفاً بطبيعة جيشنا؛ ستصعب عليهم طُرُق بداية الربيع! يمكن أن تسترد حريتك في الصيف — الخريف الصاحي الذي يمر في غمضة عين؟..

ليترككم فرغتم من احتلال ما تريدون وارتاح الجانبان!.. وأنا، الحق أقول، هل سأبقى طوال عمري لا من هنا ولا من هناك، وحيداً أتشوّف إلى الحرية؟! يا رب لا تتصورني أفف أمامك عاجزاً بلا حيلة. أعرف أنك شفيت رجلي المجرّوحة، وأزلت القيد الخشبي عن رجليّ، ومنحتني ثقة من أنا أسيئهم. ولا شيء يحدث في دنيانا العارية دون علمك. ولكن إن قلت لي قبل حلول الشتاء: افعل ما تريد فقد رفعتُ عنك عهدك، فعندي من الأمل والقوة ما يضعني على طريق حريتي، فأقطع بها طريق الساعات الخمس. وأنت من تعرف ما يمكن أن يحدث لي على الطريق. ومهما حمّلني فأنا راض، ولكن عندي هدفاً من بين أهدافي لا أكتمك إياه. أحببت الأديغة الذين أتيتهم عدوّاً، لا أقول كلّهم فأكذب على نفسي... صبح وعائشة وقرخ، وبجانه مامي، ومامسر جبريل، ودعجي جامبج... والأطفال الذين يلعبون بصافراتي، ومن اشتركت في حفلاتهم المرحّة: الجابشة. ومن رقصت في أعراسهم. وجاقر ليس امرأ طالحاً، وليس محروماً من الشفقة. لا أتذكر أنه أهاني مرة فلم يكفّر عن إساءته بمعروف ما. وعُشخان؟ هذه شفقتها ورزقها بلا حدود. هي وصبّح، هما، بعدك يا ربّ، من أطعماني حتى استرجعتُ عافيتي. ودوداي ليس رجلاً سيئاً. ولا يفتقر إلى الرجولة، ولكن خلافاً لأخته عُشخان، تغلب عليه طبيعته الظالمة نحو الأجانب عن قومه. ولا أقصد أنه يصب غضبه دائماً عليّ. ولكن إن تألم قومي تألمت لألمهم. ولا أظن "فُتاس" عروسَ صبح امرأة سيئة. كل أهل القرية، وكل القادمين من القرى الأخرى هنّوه، وقاموا بأداء مراسم العرس. ولكن لا يُسمح لنا، جاقر وأنا، أن تقع أعيننا عليها لأننا أكبر أفراد الأسرة التي انضمت إليها "فُتاس" سنّاً. تغسل وتمسح وتكنس. تظل عائشة تمدحها فتصفها بأنها لطيفة، مهذبة. لو أتيح لي أن أراها قبل أن أرحل لبقيت ذكرى حلوة في نفسي. أنت يا ربّ كما تقرر، ولا أجادلك. وإن حدث أن أرسلتني اليوم في

طريقي إلى الحرية لم أملك إلا أن تكون هذه التي صارت شريكةً صبح محبوباً إلى نفسي. الليلة إن لم تسمح للثلج أن يسقط فهمتُ أنك لا تعترض طريقي، سأتذرع بحجة متابعة الثيران، وليست الحجة قليلة لأنشغل بها طوال النهار، وأعرف إلى أين أتوجه. وسأنجو بجلدي.

خرج فيدور من الحظيرة، ونظر إلى السماء: الدنيا على حالها لم تزد ولم تنقص، ينساب ندى خفيف كما كان قبل ساعة. التغير الوحيد هو أن المصايح المضاءة تتزايد في زاور حابله. وصوت المؤذن، خلافاً للماضي، يُسمع من النهار المعكر كأنه يتصامّ عنه، وغاب نباح الكلاب المتجاوبة عن القرية.

إن لم تُثلج الليلة وهذا اليوم فهذا يعني أن من تضرعت إليه استجاب لي ولن يسمح للثلج أن يسقط هذه الليلة أيضاً. وأنا ألسْتُ جاهزاً في أي لحظة؟! فإن ركبت طريق حرتي على ظهر حصان فستحقق لي ما شجعتني عليه. ولكن قبل أن أفعل هذا أودّ أن أودّع صبح وعائشة ولو لم أصارحهما بنيتي، غير أنني لا أعرف كيف سأفعل هذا. وكان الأفضل لو التقيتُ بقرخ، ولكن لا أعرف كيف سيكون ردُّ فعله...

خرج جاقز حالاً من وراء الحظيرة وهو الذي لا يؤدّه فيدور البتة في حين كان مشغولاً بالتفكير في طريقة الاجتماع بمن كانوا على باله.

- ما الأمر يا فيدور - سأل جاقز دون حقد بل غارقاً في ما كان يشغله هو - ألا تستقرّ أنت أيضاً في حظيرتك؟ والله مساؤنا ثَقِيل، هذا الجو المعكر لا يواقي صحي، ليتها أثلجت وانتهينا من هذه الحالة!

- هل تتوقع يا جاقز أن تُثلج؟ - جفل فيدور من الحاضرة التي تقلقه.

- الأفضل من هذه الحالة أن تثلج.

- أليس الوقت مبكراً على الثلج يا جاقز؟ ألا يؤثر الثلج في علف مواشينا؟

- يا فيدور إن أثلجت فمشينا والثلج يتقصّف تحت أقدامنا خيرٌ من أن تبتلّ

أطراف سراويلنا.

- ولكن يا جاقز؟

- ما لذي يقلقك يا فيدور؟ أنت من صار يكره الثلج الآن؟

- لا يا جاقز - أسرع فيدور بالرد، ثم أضاف: - ربما نسيته.

- والله لا أعرف يا فيدور ولكن لا أفهم حالي هذه الليلة. ولم أستطع أداء صلاة ليلة الجمعة في الجامع. سأصليها في البيت وسأوي إلى الفراش.

جرى خيرٌ إذ ودَّعتُ هذا الرجل وهو في حال جيدة وكَلَّمْتَه. قال فيدور، ربما كان الله قدَّر لي هذا الوداع. ولكن ليته لم يتكلم على الثلج فيذكره بما لم يحدث بعدُ. لن تثلج بناء على طلبك إن لم يقرر الله. أكيد لن تُثلج، لن يفعل الله بي هذا في الوقت الذي اخترته لتحقيق نيتي. يكفي أن أسوق الثيران إلى المرعى قرب الغابة ولا أعود. متى قطعْتُ الطريق الجبلي القصير - كان روى لي دُعُجي جامبج الضيفُ الذي التقيته قبل أيام لدى قرخ - فسأصل إلى قلعة شَبَج مساءً. لم يكن الأمر يستحق أسر سنوات لو تشجَّعتُ. مهما كان طريقُ حريتي قصيراً فالأمر بيد الله الذي أوحى إليّ بهذه الفكرة، وأقنعني بها. لا يمكن أن يتحقق ما ليس له علمٌ به.

بدأ فيدور يقتنع بالفكرة التي خطرت له أمس فجأة، ولكن لها جذوراً عميقة. يقرر شيئاً فشيئاً أن ينفذ الفكرة غداً إن صدقت توقُّعاته. ولا ينسى أنه سيبلِّغ صبح وعائشة، وطريقة التبليغ. إن طلب صبح فالمسألة محلولة: سيخرج صبح من الغرفة. المشكلة في طريقة الالتقاء بعائشة. يستطيع أن يعرِّج عليها بهدوء متى خلد آل بزداد للراحة ؛ ولكن من يعرف؛ ربما يكون جاقز عندها في البيت؟!!

لم يستطع فيدور أن يبقى في الحظيرة. اجتاز أرض الدار وعلى كتفيه سِترة ووراءه مشد دون أن يعرف تعليلاً لما يفعل، واقترب من الباب الصغير. نظر جهة

بيت عائشة، واستنتج من مصباحها المضيء أنها لم تنم بعد. وكما يفعل فيدور عادة حين ينوء بأفكاره استند على الجدار المبلول، ولكن صوت الباب الذي صدر جعله يرتفع عنه مسرعاً. ولما كان من وقف على المسطبة صبح فقد أفرجه اللقاء به:

- هذا أنت يا صبح؟

- نعم يا فيدور؛ أهنك ما يشغل بالك؟

- لا شيء يقلقني، كنت خرجت لتفقد جناح الأغنام. كيف حال جاجر؟ كان أخبرني البارحة أنه غير مرتاح.

- والدنا يتعب. صلى ونام.

- وكيف لا يتعب والحياة صعبة، - أجاب فيدور كما يريد، وسأله عما يقلقه:

- هل تتوقع أن تثلج الليلة يا صبح؟

- نظر صبح إلى السماء وقال: - والله لا أعرف ماذا ستفعل. ولكن لا أظنها ستثلج.

- وهذا رأيك أنت أيضاً؟ - فرح فيدور وأضاف حذراً ما قاله لجاجر تماماً: - أتمنى لو لم تثلج من أجل أن نوثر علف مواشينا. - تفضل إلى عندي يا صبح نجلس قليلاً ونحدث!

- لا بأس في هذا، غير أن الوقت متأخر.

- وهذا صحيح يا صبح. تصبح على خير!

- وأنت من أهله يا فيدور.

تابع فيدور بعين ودود من كان يعود إلى الغرفة: يا رب اجعل صبح في عداد الأسر الجديدة السعيدة، واحمه من الجرائم التي تُرتكب في ديانا الفانية، ولا تغفل عنه رحمتك، وانظر إليه دائماً بعين العطف. إن كنت تتذكر أي أسأت إليك فسأخفي! واغفر لي يا ولدي أي لم أطلعك على سري. أنا راضٍ

عنك، وليرافقك حُسْنُ الحظ!

فيدور الذي نسي أن مشد يتبعه رجع مسرعاً وهو يذرف الدموع ودلف إلى الحظيرة. ورسم أمام صورة الإله إشارة الصليب ثلاث مرات. وارتمى على فراشه المحشوّ بتبن الشعير.

أعاد الكلب الذي كان يخدش الباب متوسلاً فيدورَ إلى وعيه.

- تعال يا مشدّ، تعال سامحي! - مسح فيدور على رأسه، ثم ضمّ الكلب المبلول إلى صدره وجلس على المقعد الوطيء لأياً دون كلام. وقال له بالروسية وهو يصرفه عنه: - أنت الوحيد الذي أودعُ عنده أسراري ولذا سأصارك بما في نفسي. ولكن كيف تساعدني إن قلتُ لك؟ اذهب إلى قرب الفرن وجفّف جسدك. وإن رفضتْ فعُدّ إلى مجلسك الجافّ.

مرة أخرى لم يستطع فيدور البقاء في الحظيرة. خرج منها مغطياً كتفيه بالسترة كأنه ترك في الفناء ما يشفق عليه. ودار حول الحظيرة الخلفية دون أن يتوجه إلى الباب، وقفز من فوق سور دار عائشة. وتوقف بعدما مشى بعض الوقت شاعراً بأن ما يفعله غير لائق. ولكن الضوء الصادر من الغرفة سحبه من مكانه شاعراً بالقوة في نفسه، وطرق النافذة بحرصٍ شديد:

- من هذا الذي يطرق نافذتي في منتصف الليل؟! - صرخت عائشة من الغرفة.

- أنا يا عائشة، هذا فيدور.

- فيدور، هذا أنت؟ تعال، التفّ من جهة الباب!

الغرفة دافئة، والفرن محشوّ بالخطب.

جلس فيدور في صدر الموقد على طرف المقعد الذي أُشير إليه، وعائشة تتأمل ضيفها بوجه طلق. وتقول له شبه باسمه:

- اجلس مرتاحاً على المقعد يا فيدور. ستقع من عليه!

- هذا؟ - تراجع فيدور وتمكّن من مقعده، وسألها خجلاً جداً: - هل تعرفين يا عائشة سبب مجيئي؟
- هل هناك ما يُقلق؟ - سألته رغم معرفتها بعدم وجود ما يُقلق.
- لا، لا شيء بفضل الله.
- ولماذا إذن لا ترتاح في حظيرتك... هل يسألون رجلاً عن سبب قدومه حين يزور امرأة في منتصف الليل؟
- ولكن يا عائشة... - تلعنم فيدور مما سمع.
- هات سترتك المبلولة يا فيدور لأجففها، - استلمت عائشة السترة التي خلعتها دون اعتراض، وعلقتها بالكروسي القريب من الفرن. - اجلس يا فيدور إلى المائدة لأني جهّزت الليلة طعاماً طيباً.
- وضعت عائشة صحناً كبيراً مليئاً ببرك الجبنة المسلوق. وأحضرت معه من القشدة والبصل المحمّس:
- ما الذي يعجبك أن تأكل مع البرك المسلوق: القشدة أم البصل المحمّس؟
- لا بأس إن خلطتهما. - استردّ فيدور أنفاسه وهدأت أعصابه. ولم يدعها تُلحف في الدعوة.
- ها! صرخت عائشة مسرورة - هذا كلام رجال! الله الذي لا إله إلا هو جمعني وإياك في ظرف اضطراري. وليس في هذا إثْمٌ ولا حرام!.. آه منك يا فيدور؛ أمثالك يُعدّون على الأصابع! طردت بزاد جافز من نافذتي كأني أعرف أنك قادمٌ، وجهزت هذا البرك المسلوق الذي أصله من الشابسوغ وأنا أتشفى منه. ولو تأخرت قليلاً، وأنت ترى الآن أنه دافئ، لكان برّذ. لا تنتظر هنا وهناك يا فيدور، أغلقت الليلة كل ما يدعو إلى الخوف. جعلتُ من تزوّج ابنه، ولا يستطيع إرضاء حاجات زوجته لا يجرؤ على طرّق نافذتي بعد الآن، بل على النظر إليّ. قلّ له "سأشكوك إلى عُشخان وأستنفرها ضدك!" كلّ

أنت، كل، لا تحجل، هنيئاً مريئاً.

- وأنتِ؟.. لم يجد فيدور إزاء الخبر الذي غمروه به غير هذا السؤال يوجهه إلى عائشة.

- وأنا ماذا؟

- أتساءل إن كنتِ تناولتِ طعامك.

- شكراً يا فيدور... - انفعلت عائشة لما سمعت ولكنها كتمت انفعالها، ولم تُخفِ قلقها رغم أنها كانت تكلم نفسها. - الحمد لله أن أحداً تذكّرنا... أنا ماذا يا فيدور؟.. نحن النساء ضعيفات، تنتعش روح الواحدة منا حين تتناول الطعام مع الرجل الذي صنعه لأجله، ونشبع. ثم حين يبدأ يمدح ما طبخناه لا نشعر بالجوع يوماً كاملاً.

- والله يا عائشة أقسم دون مجاملة أن ما آكله طيب.

- هل فهمت الآن يا فيدور؟

- لا تظلميني يا عائشة، فهمتُ منذ زمن بعيد - يبتسم فيدور، ويغمز البرك الذي سكب عليه الدسم والفلفل الأحمر بالقشدة.

- ولماذا إلى الآن كنت تترفع عن بعض أطعمتي؟!

- لا يا عائشة، لا. - جفل فيدور وإن كتم انفعاله، - ما أتكلم عليه شيء آخر.

- جعلتني أبوح لك بما في قلبي كثيراً بهذه الحجة... - أنا الآن حالاً... - دخلت عائشة الغرفة الأخرى دون انتظار تتمة كلام فيدور.

توقفت قطعة البرك المحمولة بسيخ من الخشب عند ذقن فيدور، لم تصل إلى فمه - ومع أنه كان قد فهم لُبَّ كلام المرأة منذ زمن بعيد فما تزال عيناه على الباب الموارب، وينتظر ما سيحدث وقد خفض لقمته. وأبعد المائدة من أمامه باحثاً عن مخرج. لم يجد أي مخرج مما كان سهلاً عليه في السابق، ويندم على

مجيئه قائلاً لنفسه: "وهل جلبني الطاعون إليك"¹. أجب العار لنفسي وكأني لست رجلاً، ولم يبق في قلبي شيء من الحنان الدافئ... هل هذا معقول؟ الله نفسه لا يقبل، دعك من الناس الذين يسمعون!

يتداعى قلب فيدور وهو ينصح نفسه ويغضب عليها للمرأة التي ظهرت من وراء الباب. ويلتهب وجهه الذي يصعد إليه الدم الحار. ولا يعود فيدور الذي نسي دفء المرأة من سنين قادراً على السيطرة على حرارة أعضاء جسمه المتوتبة. والقلب الحار النابض يحترق دون نار.

حين خرجت عائشة بقوامها الرشيق وتهديتها الصلبيين وأناقتهما من بين دفتي الباب انزلق فيدور عفواً من مقعده. وحين جلست عائشة مقابله ومدت إليه يدها الرقيقة داخ رأسه. ثم عاد إليه وعيه لم يتأخر. وكرر الكلمة نفسها دون أن يعرف السبب:

- هل عرفت لماذا جئت يا عائشة؟
- يا فيدور، يا شبيهه روحي، قل لي ما شوقتي إليه هذا المساء، وأرحني!
- سأقول لك يا عائشة لأني واثق بك.
- وهل كنا سنجلس وحدنا في غرفة واحدة لو لم يكن أحدنا يثق بالآخر؟! -
- أوقفت عائشة الآن اليد الجميلة التي كانت تمدّها. وامتنع وجهها الطلق قليلاً.
- وقالت له بمزيد من اللطف والحرص: قل يا فيدور!
- جئت أودّعك...
- ولماذا تودّعني يا فيدور؟ - شحب وجه عائشة تماماً. - هل ارتعبت من قسوة جافز؟
- لا، ألا يكفي؟.. أودّ أن أغرب من هنا الليلة إن لم تُنلج.

¹ الطاعون بخاصة، وتليه الكوليرا، رمزان للمصيبة عند الأدعية لشدة ما عاونا منهما.

- هذا ما كان يجب أن تفعله منذ زمن بعيد!

- نعم يا عائشة، نعم... ولكن كان لي عهد أمام ربي فلم أستطع أن أنكث به.

- والآن؟

- الآن يُحَيِّلُ إِلَيَّ أن الله أعطاني أملاً. إن لم تُثَلِّجْ فالليلة موعدي. لا تؤاخذيني يا عائشة. أفهم كل شيء... أفهميني يا عائشة؛ لو لم تكن عندي أسرة أعود من أجلها لربما ما أقدمتُ على هذا... العهد الذي قطعتَه على نفسي أمام الله لا يجوز إلا أن أنفذه أمام أسرتي... وأنت تعرفين أن ما في صدري ليس قطعة حديد باردة.

- أفهم يا فيدور، أفهم... ومع ذلك يهمني أنك فهمتني... لا أريد أن أسلب أحداً سعادته وإن سلبوها مني... - تداعى قلبُ عائشة، وحين لمست يداها يدي فيدور سحبتهما وكأتهما أحرقتها. - لا أريد أن أسلب أحداً سعادته حتى لو كان بوّدي أن أفعل هذا. لو كنت أريد أن أفعل هذا لهدمت منذ زمن طويل أسرة جاري بزاز. لم يطاوعني قلبي البتّة في ما فعلتُ لولا أنني دُفِعْتُ إلى الخطأ مكرهة. شكراً على ثقّتك فيّ يا فيدور. وأنا لولا ثقّتي بك لما أطلعتُك على الإثم الذي دفعني إليه بزاز جاقز. مع السلامة يا فيدور؛ ليجمعك الله بأحبّابك على خير. سأدعو لك اليوم والأيام التالية أن يحقق لك مرادك!

- حياك الله يا عائشة - نهض فيدور، - لن أنسى أبداً طعامك ومعروفك وطيبة قلبك.

- رافقتك السلامة يا فيدور، أدعو لك بالخير، الله حريص على عباده فاحرص على نفسك... - انفجرت عائشة باكياً، ووقفت على الباب بعض الوقت ورأسها على كتف فيدور، ثم رفعته فجأة عنها، وسألته وعيناها في عينيه: - لماذا اشتربتَ عدم سقوط الثلج؟

- إن لم تثلج الليلة يا عائشة فهذا يعني أن الله وافقني على مرادي.
- إن كان هذا رأيك فمع السلامة يا فيدور. ولكن قلوب النساء في هذا الموقف متشابهة. لن أدعو لك طالبة من الله ان تثلج أو لا تثلج... - وما إن تجاوز فيدور الباب حتى قالت في إثره وقلبا يتلوى ألماً: - يا إلهي أعِدْ هذا الرجل إلى قومه سالماً، ولا تترك زوجته وحيدة كما بقيتُ أنا...
...

أيقظت ريح منتصف الليل فيدور. وحين قفز من فراشه وفتح باب الحظيرة قذفت الريح في وجهه الثلج الرطب البارد. وفي هذه اللحظة لام نفسه محملاً إياها الذنب: هناك ما كان يجب أن أخدم به الله ولم أفعل. يا حسرتي ؛ مرة أخرى حرمت نفسي من الأمل...
فكرة معينة لم تفلت من فيدور. خطرت له عائشة فجأة فيما يحدث نفسه: كان نادماً على البوح لها بسرّه فمن يدرى...

XXI

الصباح الشتائي التالي جلب لفيدور شيئاً آخر غير الثلج من فرح وحزن و قلق وصراع نفسي...

بعد الثلج العاصف مع الريح أطلّت الشمس الحمراء من السماء خجلة نادمة على ما فعلت، فجاءت بصباح لطيف. ومع أن الثلج لم يكن مهيمناً على الطبيعة فقد غطى الأرض على نحو يكشف أيّ خطوة يخطوها كائنٌ. وكسا بالأبيض أغصانَ الأشجار وأسافل الجدران وأكوام الحشيش وسطوح البيوت والجبال القريبة والبعيدة، حتى مآذن الجوامع.

أنجز فيدور خدمة المواشي في أرض الدار وهو يواسي نفسه ويقول لها: ربما كان الله قدّر هذا. فكّر في المجرفة وراء الباب يسلي بها نفسه عن قلقه ولكن

الشمس التي هي الشَّعِيلَةُ الأولى في الكون، كانت شرعت، وهي تضحك من فوق الدنيا، تكشف الأرض من تحت الثلج وتبلل سطح الحظيرة، وتنفض أغصان الأشجار، فلم يستطع إلا أن ينظر جهة بيت عائشة الذي قلبه فيه منذ الصباح مواسياً نفسه بأن هذا ثلج عابر. ولم تكن عائشة حبست نفسها في البيت، فمنذ الفجر حين وقعت عينها على الثلج الوليد، كانت عينها نحو بيت آل بزد. لم تكن بحاجة إلى ذريعة لتزورهم، ولكن كيف تفعل هذا في الصباح الباكر؟! كانت تعرف أن فيدور الذي أتاها البارحة مودّعاً لم يغادر البيت - ما إن خرجت من البيت حتى وصلتها دلائل حركة في بيت بزد. رأت مؤخرة رأس فيدور يبدو من وراء كومة الحشيش اليابس، وكانت واثقة أن فيدور المخلص لقوله وفعله سيلجمه الثلج. ولكنها حين وقع نظرها على فيدور، وهي تقول لنفسها: من يدري ربما هرب بجلده في الليل قبل أن يبدأ الثلج بالتساقط، فرحت حتى كأن قلبها سيقفز من صدرها كمن عثرت أخيراً على قريب عزيزٍ جداً عليها. ومسحت دموعها.

وكان في قلب فيدور المشاعرُ نفسُها نحو عائشة، ولكن كان بوده مقابلتها قبل أن يقف النهار الجديد على قدميه تماماً، وقبل أن تدخل إلى بيت جاجر كعادتها الصباحية. ولذا كان لبعثه عن المجرفة سبب ولو أن الشمس والثلج القليل ضراً مسعاه. لم يكن يرى من اللاتق، ليس أن يجد حجة فيذهب إلى بيت عائشة، بل أن يعرّج إلى الباب الصغير ويناديها ؛ فبعدها تصارحا بما في قلوبهما كما لم يحدث سابقاً غلب حياء الرجل على حديث الحب الصريح. ولكنّ على فيدور، وقد وجد نفسه في ضيق بشأن سرّ هذه الليلة، أن يقابل عائشة، وليقل الناس ما يشاؤون!

وجرت الأمور كما سيشاء الله وكما يريد فيدور. حين غرز الشوكة التي لم يعد بحاجة إليها في كومة الحشيش وبرز من زاوية البيت، رأى عائشة تأتي مسرعة

جداً إلى بيت آل بزداد. كان يود أن يرحب بالمرأة طلق الحيا ولكنّ إسراعها ، وكأنها غير عائشة الليلة، لم يعجبه، وزاد في الأمر رعبه من عدم ثقته. لم تكن المرأة المتجهة إلى باب الجيران الصغير، والتي كانت تنادي في الأيام الخوالي من مسطبة بيتها، ترى أي شيء أمامها.

تنح فيدور.

- هذا أنت يا فيدور؟ - سألت عائشة دون أن تتوقف وكأن شيئاً لم يحدث. - صباح الخير. استيقظت في صباح الشتاء وتوجهت أسألك إن كان عندك قداحة، ولكنك لا تدخن!

- يا عائشة... - حمل الخوف الذي يتنامى في الصدر فيدور على النداء.

- ماذا يا فيدور؟ - التفتت عائشة التي تخطته ببضع خطوات.

- هل عندك حطب مقطّع؟ - غير فيدور بسرعة الموضوع الذي كان يريد أن يترجاها من أجله، ولم تنقص له طلاقة وجهه.

- بفضل الله عندي كل ما قطعته لي من حطب في هذا الخريف، لم أستهلك عوداً منه. - من على مسطبة البيت أجابت عائشة. ثم توقفت وسألت فجأة:

- هل أهنتك على الثلج الذي جاء به الشتاء يا فيدور؟

- لا شيء يحدث في العالم دون علم الله يا عائشة... - كان فيدور يود أن يضيف شيئاً ينعش به قلب عائشة ولكن الأنثى اختفت بين قائمتي الباب دون أن تلتفت إليه.

حُيِّل لفيدور أن الأرض خسفت به حيث يقف، وتصور الطبيعة البيضاء اسودّت. ثم عاد إلى وعيه ونظر باتجاه الإسطبل حيث حصانا جافر وصبح.

لم يتأخر الوقت لأثب على أحد الحصانين وأهرب، قال فيدور. لا شيء غير الموت لا مخرج منه. سيقبل الله مني أي تصرف لأني في أزمة. لم يرسل الثلج إليّ إلا عقبة أمامي، ولكن لأنه كان يعرف أنني بُحت بسري للمرأة المسلمة فرمما

منحني الحق في أن أحمي نفسي... كل النساء متشابهات بغضّ النظر عن أديانهم وأقوامهم. لا تختلف عواطفهم ولا قراراتهم ولا إنسانيتهم ولا شفقتهم ولا "شرائيتهم". لا شيء يدعوهم عند الضرورة إلى مراعاتك. ألم تر كيف تصرفت معي عائشة؟ هل أنا في وضع يسمح لك أن تعتي عليّ وتلوميني؟! ما إن تخبر جاقز بنيتي حتى يمسك أول ما يقع في يده ويقفز من الغرفة... لماذا لا أزال واقفاً؟

ولكن فيدور لم يستطع أن يتجاوز حظيرته التي ينام فيها. أسرع إليها ووضع صورة الإله على صدره. ومدّ يده إلى البالالايك، ولكن يده تراجعت عنها وقلبه يتألم خائفاً أن يفتضح أمره أكثر مما ينبغي. وأدخل السكينة الحادة في طرف جزمته فمن يدري في أي موقف قد يجد نفسه فيه؟.. وألقى في جيبه القداحة التي فوق الفرن. جاقز، حصان جاقز هو الذي سيثب على ظهره! ليس في القرية حصان يسبقه، لا حصان صبح، بل حتى حصان دوداي.

قال فيدور: قضيتُ ليلتي أنتظر الثلج بدلاً من أن أنفذ مرادي بسرعة؟ - لماذا لا أنجو بجلدي؟! لو غرزت مسماراً في حافر حصان صبح كي لا يلحقوني عليه كنت تجاوزت الأنحاء القريبة ريثما يجدون عييه!.. والآن ليس هذا صعباً عليّ... أليس البيت في أمان؟ ربما أُنجم عائشة المسكينة ظلماً...

ارتعب فيدور الذي كانت أعصابه في غاية التوتر حين انفتح باب الغرفة بسرعة، ولكن ما سمعه أبعد القلق عنه:

- يا فيدور - نادى صبح من على المسطبة، - جهّزْ حصان والدنا وحصاني!
- هل هناك ما يُقلق يا صبح؟ - لم يستطع فيدور إلا أن يسأل رغم أنه ليس من المؤلف سؤال من يستعد للركوب.

- لا يا فيدور، - أجاب صبح بكل سرور. - علينا أن نذهب إلى قاي حابله. سنعزي أسرة عجوز من معارفنا توفي قبل أيام.

- هكذا؟ - ارتاح فيدور لما سمع ولو أنه ليس إلا خبر موت. - لا تؤاخذني يا صبح هل توفي في فراشه أم في الحرب؟

- انتقل إلى جوار ربه قانعاً بالمئة والعشرين سنة التي عاشها دون أن يبقى طريق الفراش إلا ثلاثة أيام.

- ليس سهلاً أن تعيش في هذا العالم الثقيل مئة وعشرين عاماً وأنت راضٍ. - يشد فيدور حزام حصان جاقز جيداً. - ليفتح له باب الجنة! مثل هذا الإنسان يستحق أن تهنئه لا أن تعزي من أجله. وأنا لو سمحتم لي أن أصحبكم لرافقتكم... - قال فيدور، ولكنه تراجع بسرعة. - والله لا أعرف كيف سيغادر كل الرجال الدار.

خرج جاقز بأقدام صلبة من البيت:

- هل الحصانان جاهزان؟ - سأل دون أن تميّز مَنْ مِنَ الاثنين، صبح أم فيدور، هو المسؤول. وقال بعدما ركب: - والله يا فيدور ما كنا في حاجة إلى هذا الثلج الذي أوكل الأرض، غير أن أحداً لم يستشرنا في الأمر... اركب يا ولد! نحن سنصل إلى قاي حابله ونعود مع الظهر.

خرج الفارسان من الباب يتبع أحدهما الآخر وصارا على الشارع. ثم غابا وراء المنعطف، والكبير على اليمين والصغير على اليسار.

وقف فيدور برهة لا ثمناً نفسه بعدما خرج الفارسان مع أن صدره عاد وامتلاً بالهواء وكأن الدار اتسعت لخروجهما. وحين انقطعت الأصوات من جهة الباب، ولم تتحرك عائشة، ذهب فيدور نحو الباب الصغير لملاقاها لأن مَنْ جاءت تستعير قداحة لا يمكن أن تُطيل الجلوس. - يبدأ يعالج الباب كأن به عيباً، يفتحه ويُغلقه. ومن يدسّ أنفه في كل شيء في مثل هذه المواقف هو مشدّد. يخرج من وقت إلى آخر من الباب، ويعود، يُقعي أمامه كأن يريد أن يقول له شيئاً، ويظل يتفرّس في وجهه.

يقول فيدور: هذه حالنا يا مشد، لأجل هذا يقولون: لا تتكلم في ما لا تعرف، ولا تتهم أحداً بما ليس ذنبه. ليس في من ودّعناها من الدار شيء مما دار في خلدي، بل أيُّ شيء يدعو للريبة. لا شيء لم يخطر ببالي في شأن عائشة البريئة ظناً مني بأن نظراتها لم تكن ودية. حياها الله ؛ حمّني مهما خطر لي من هواجس سيئة نحوها، ولم تُفشِ سري لأحد. الأفضل أن تثق بالإنسان. لا تعدّ نفسك إنساناً متى بقيت على ظهر البسيطة دون ثقة بأحد. عدم الثقة يُحرّك، يُسلمك للسيل دون إرادتك. حين لا تثق وقت فرحك ولا وقت ضيقك فلن يثقوا بك في أيّ من الموقفين. أظن شيئاً من هذا القبيل جرى لي مع عائشة. أصررت أن أفضي بثرثري إلى المرأة البريئة. ولو لم أكن واثقاً منها لما زرتها في منتصف الليل.

أغلق فيدور الباب وأرتجه خلافاً لعادته ثم انصرف عنه. ولكنه توقف ما إن استدار بوجهه نحو الباب. التفت إلى حيث كان واقفاً كأنه ترك شيئاً فيه. لمس صورة الإله التي أخفاها في جيب السترة، ورسم الصليب بسرعة. وشعر بثقل السكين التي دسّها في عنق جزمته. هجم عليه سؤال الشك وهو يظن أن قلبه لان عن ذي قبل. "مهلاً، مهلاً. لماذا بقيت عند عُشخان من ليس في بيتها قداحة؟ متى اجتمعت امرأتان لم تتركاً موضوعاً لم تخوضا فيه. ليس مستبعداً أن تبوح عائشة الآن بما لم تكشفه للرجال. إن كنتَ محظوظاً كانت العروس الجديدة معهما حتى تتورعا عن الكلام المسيء أمام الشابة... على ما يبدو فأنا رهئُ عائشة. وجب عليّ أن أتصرف بما تلميه عليّ..."

مرة أخرى وقف فيدور إلى جانب الباب الصغير الذي لا عيب فيه يتظاهر بإصلاحه، أذناه مفتوحتان نحو باب البيت، ويرى ما يحدث من خلفه ويشعر به. انتفض مشد قبل أن يصدر صوت الباب، واستقبل عائشة التي صارت على المسطبة. وفي اللحظة نفسها لاطفت عائشة الكلب مُسمِعةً من وراءه

يدير ظهره:

- ماذا يا مشد؛ أنت الوحيد الذي بقي لي على البسيطة يستقبلني بالترحاب...

- لا تبالي يا عائشة، لم تصلي إلى هنا... - استدار فيدور.

- ولماذا لم أصل يا فيدور؟.. أيّ معروف فيك؟.. ماذا لاحظت في هذا الباب منذ الصباح؟! اتركني أخرج منه.

- يا عائشة... - فهمت عائشة نظرة فيدور المتوسلة.

- دعني أولاً أخرج من دار بزد، عيب إن رأونا، - قالت عائشة دون أن تتوقف. - ثم قل ما تريد... هناك ألف عين ترصد وألف أذن تنتصت. أتظن أن عُشخان لا تتابعنا من النافذة؟.. - خرجت من الدار، ومشت بضع خطوات، ثم أجابت فجأة على ما كان يقلق فيدور منذ الليلة الثلجة: - لا تتابعني من أجل سرّك، لم أبح به لأحد، ولن أبح.

- شكراً يا عائشة... - قال فيدور بصوت لا ينكر جميل المرأة الرشيقة التي تحجل من عدم ثقة فيدور بها، والتي تبتعد الآن بقامتها الممشوقة.

- لست يا فيدور! - توقفت عائشة وقالت بصوت لا ينم عن حقد - قلّ لزوجتك كلافديه متى التقيت بها الكلام نفسه بلساني... - ثم أضافت بعتاب أشد: - إن كنت رجلاً فلماذا أنت في دار آل بزد متحججاً بنذر الثلج؟

- يا عائشة لن يقبل الله منك هذا الكلام إن سمعه.

- ولماذا لا يستجيب من تخاطبه إلى طلبك؟

- يا عائشة!

- لا تقل يا فيدور. لا أريد أن أسمع. - خرجت عائشة من الدار حاملة معها حزنها - عتابها.

فارق فيدور الباب الصغير وكلام عائشة يؤلم قلبه. دار في أرض الدار عدة

مرات لا يرى أحداً ولا شيئاً فيها، ثم أوى إلى حظيرته يلوم نفسه ويحملها العتب. وأعاد إلى أمامه صورة الإله التي كانت في الصدر، ورمى إلى الرف السكينة التي كانت مخفاة في ساق الجزمة. وجلس على المقعد مغمضاً عينيه، ضاماً رأسه بين راحتيه الرقيقتين.

أستحق لومك يا عائشة. لا ألومك، قال فيدور، ولكني لستُ على هذه الدرجة من السوء. لم يقولوا عبثاً إن الكلام الطيب ليس سهلاً. "ماذا تقصدين بقولك: "إن كنت رجلاً؟" إن كان مجابهة الرصاص وأسنة الرماح، وتعتقدين أنها هي الرجولة فليست مجابهتي لها قليلة. — واجهتها في نواحي باطوم، وأنحاء قارص، وأمام الجيش التركي. وكنتُ ممن حاربوا في بلاد فارس. وفيما أنا فرح لنجاتي منها أصابني رصاص الأديعة فوقعتُ في الأسر. ليست الحرب، قتلُ إنسانٍ، حملُ المأساة بحربة بندقيتك، رجولةً. هذه يمكن أن يقوم بها العاقل والمجنون، والقوي والضعيف. الإنسان يُخلق لينشأ على الأرض ويعمل عليها، وليس ليمارس الظلم. والأخير منها، أعني الظلم، تعرفون مصادره تماماً: الفئوس، والنيران، والماء، والشمس، والصاعقة، والرصاص، ورؤوس الرماح، والريح، والصقيع، حتى فعلُ الخير. وهذه كلها بعلم الله. وتذكروا ما يُنتج الرعب. يقول لكم: أبعادوا المظالم التي تخطر لكم، وانسوها. أنتِ تعيّريني بأني لستُ رجلاً، تقولين "إن كنت رجلاً"... أتكونين تقصدين مسألة إرضاء شهوة المرأة؟ أنا لا أشك أنها ليست غريبة، ولكنك تعرفين جيداً أنني لا أرى من اللائق أن يتوزع الرجل على امرأتين. أعرف أن القرآن يسمح للرجل بأربع نساء، غير أنه يشترط العدالة بينهن. نحن لا يمكن أن تكون قضيتنا كما نريد. — يقف بيننا اختلاف الدينين... ومع ذلك ورغم حنانك وجدارتك بالثقة أقول لك شكراً لأنه الوحيد الذي أستطيع تقديمه لك... والموضوع الثاني، موضوع الثلج، هو أمر إلهي فكان من الممكن ألا أصرحك به. والأفضل ألا

تعتبريه ذنباً عليّ...

قفز فيدور من مجلسه ورسم الصليب، وأمسك بالبالايكا، وفيما هو يعزف ويردد مع اللحن تَبَّهه نباح الكلب. فرأى قرخ يترجل أمام باب الدار على مرتبط الخيل. وخرجت عُشخان إلى المسطبة.

- اسكت يا مشد! - استقبل فيدور الضيف وهو ينهر الكلب ويلومه. - هل صرتَ مجنوناً، ألا تعرف قرخ؟! - استلم فيدور السترة التي رفعها قرخ من ظهره، وغطى بها الحصان. - تفضل يا قرخ، على ما أراك أنت تأتي من مكان بعيد. - صحيح يا فيدور، صحيح. ولم أعرج على دارنا بعد، - قابل فيدور بشاشة قرخ بمثلها، وقال للكلب: - نسيتني يا مشد. ربما ارتعبتَ من سترتي السوداء الطويلة.

- تفضّل يا قرخ، تفضل، - استقبلته عُشخان.

- نتفضل بالخير إن شاء الله يا عُشخان، أين جاقز، لا أراه.

- ليس بعيداً، ذهب مع صبح إلى قاي حابله، وحن وقت رجوعهما، تعال تفضل إلى الغرفة!

- ليس عندي عمل مهم، أنا على طريق. كان فيدور ترجاني من أجل عشة دواء فجئته بها. - أخفى عنها ما شغله طوال البارحة.

- ما الذي يزعج فيدور؟

- أخبرني أنه يعاني من الأرق فجئته بشيء من الدواء من داور حابله. - لم يكشف عن المكان الذي كان فيه. ثم توجه إلى فيدور القادم بعدما وضع شيئاً من الحشيش اليابس أمام الحصان: - هيا يا فيدور هات لي الكيس الصغير المعلق بطرف السرج.

- يا حسرتي يا قرخ، من يأتيه النوم في هذه الأيام؟! - هزت عُشخان رأسها،

- نقضي ليلتنا نتأوه مهمومين بالحرب اللعينة التي يشنونها علينا... نحن عشنا

ما عشناه وانتهى أمرنا غير أننا قلقون على من بدأ حياته الزوجية الآن... تعال يا قرخ وادخل الغرفة. والله لن أدعك تغادر الدار، وقد دخلت، دون أن أقدم إليك طعاماً ما. وأنت أيضاً يا فيدور!

- يا عُشخان كيف سلوك العروس الجديدة؟ - سأل قرخ بعدما انتهوا من الطعام.

- سأجيبك يا قرخ عما سألت عنه بكل سرور، - سُرَّتْ غوشخان من صوتها الذي فيه شيء من الرياء وشيء من الرضا. - لذيذة، لطيفة، مهذبة، الخلاصة هي امرأة من ذهب.

- وكيف يري رجل من رجالات الأبخاز تسي حاتري ابنه سيئة؟! - وافق قرخ ما سمعه، - "على قياس والدها وتفصيل والدتها". سررتني جداً، جداً. بيتك عامر يا عُشخان، سقيتني شاياً طيباً، و"السلامة" ساخنة طرية. أنا سأتابع طريقي. لن ننتظر المسافرين إلى قاي حابله. سأرشد فيدور إلى طريقة استعمال دوائه. ثم إلى داري. ليبقى بيثكم مفتوحاً ولندخل إليه بالخير يا عُشخان. وليحمل من يخطو إليه السعادة والأدب. وليترك فيه من يخرج مثلهما. ولتعيشوا، مستنوكم وشبابكم، معاً فيه.

- حياك الله يا قرخ. - ليحقق الله لأسرتك مئة ضعف مما تمنيت لنا. - حين خرجت عُشخان من الغرفة تودع الضيف قالت لفيدور: - يا فيدور، لا تنسنا في شأن دواء الأرق، نحن أيضاً محتاجون إليه. جافز وأنا نعاني من هذه العلة اللعينة.

لم يفهم فيدور مناسبة الورقة المطوية التي قدمها إليه قرخ وهما في الحظيرة، فسأل:

- ما هذه؟

- وما يُدريني؟ - ابتسم قرخ بشيء من الرياء في وجه فيدور، - تخبرني متى قرأتها.

نظر فيدور إلى ما كُتِب تحت الورقة المطوية التي فتحها بأصابعه الرقيقة، ونظر إلى قرخ برأس منتصب، ورسم الصليب بسرعة، وفتحها.

خرج قرخ من الحظيرة ليترك الفرصة لفيدور يقرأ الرسالة على راحته.

"يا "فيدوري" الغالي الحبيب، - يقرأ فيدور ما في الرسالة، - يا فيدور دانيلوفيتش الذي لا مثيل له، نحن فرحون لأنك، أينما كنت، على قيد الحياة بصحة جيدة. نفرح ونبكي معاً. وندعو إلى الله من أجلك أن يُطيل عمرك ويجعل الناس الذين وقعتَ بينهم، والذين لا نعرفهم، يتفهمونك ويُشفقون علينا، نحن أسرتك، ويطلقون سراحك بسرعة من أجلنا. ويشاركني في الدعاء جيراننا وأهل القرية وكل من سمع خبرك. أخبرونا أنك قُتلت في الحرب فبكيناك غير أننا لم ننسك ساعة واحدة. نحبك أنا ومارفوشي وليوباشي. ونعانقك ونقبلك بقوة وحرارة. تسأل عن البنيتين فأخبرك أنهما تشبهانك كما كانتا في صغرهما. في خريف العام الماضي تزوجت مارفا من الابن الأوسط لصديقك بروتاسوف نيقولا سيمينوفيتش (المسكين قُتل في نواحيكم قبل أربع سنوات¹) إن كنت تتذكر فبافلوش هو الذي صار صهرنا. وهو شاب ممتاز. والأسرة التي انتمت إليها أسرة جيدة. وقبل أن تصلنا رسالتك بشهر رُزق ماروفوش وبافلوش بصبي. وسموه باسمك فيدور. وليوباشي صارت شابة ولا خطيب واضحاً لها إلى الآن. ولكنها مصرة على عدم الزواج قبل أن تعود وتحضر حفلة زفافها. وأنا لا بأس بحالي، ألا يجب علينا أن نعيش! تخليث عن كل شيء وتفرغت لتربية ابنتينا. ولم أسمح لأحد أن يتكلم علينا بسوء في غيابك. ما أخبارك الأخرى غير ما كتبت؟ كلما سمعنا وقع أقدام على عتبة بيتنا توقعنا أن تكون رجعت. أخبرنا إن أمكن مرة أخرى بحالك وعيشتك. نعرف أن الأسر

¹ القوسان من المؤلف.

ليس متعة. ومَن وقعت بينهم أناسٌ مثلنا وإن لم يكونوا من ديننا ومن قومنا، فافقِعْ بحياتك معهم وكَيِّفْها مع حياتهم، وأنت أدري بهذا ولا تحتاج إلى نصيحتي، واصبرْ لأنه يقال إن الحرب وصلت إلى نهاياتها. وسنكون على ما قرره الله لنا، وسيفهمنا ويغمرنا بعطفه. ألا تكفي الأرض الخالية في نواحينا حتى يسوقوكم إلى أرض غريبة ملعونة! ربما كانت هذه مشاعر أثوية ولكني سأنفجر إن لم أُنْجَ بها... مرة أخرى عناق قوي وقبلات حارة. زوجتك كلافًا وابنتاك مارفا وليوبا وحفيدك الصغير فيدور، وصهرك بافيل الذين يُضْمرون في قلوبهم كل المحبة الصادقة لك".

بعدما مرَّ بعينيه سريعاً على ما كُتِب في الورقة بدأ فيدور يقرأ ثانية ودموعه تتمرد عليه. ولكن الضجة الصادرة من الدار تَبْهتته. وحين نظر من خلال نافذة الحظيرة الضيقة رأى حشداً من الفرسان أمام باب الدار. وسمِعهم ينطقون اسمه، وحاول أن يخرج وهو يُخفي الورقة فمنعه قرخ:

- اهدأ، لا شأن لك بما يحدث. وهذه الرسالة أخفيها في مكان أبعد. ولا تخطُ خطوة واحدة إن لم أُنْادك!

- ولكن يا قرخ، - قلق فيدور عميقاً، - ليس جافز وابنه في البيت. ليست نوايا من على الباب حسنة.

- ألا يراعي هؤلاء المتجمعون عند الباب عاداتٍ أو أصولاً إن لم يكن جافز في البيت؟ وهل خلت القرية كلها منها؟!

- يا لمصبيتنا يا قرخ - أسرع غُشخان إلى المسطبة - ماذا ينوي كل هؤلاء الفرسان الذين هجموا علينا؟ ليس على ألسنتهم إلا اسم فيدور.

- اهدئي يا غُشخان، - أجب قرخ وهو يدري إلى أين يذهب ولماذا. - هؤلاء من جيش لاينسك...

وعائشة وقفت على باب دارها وعلى كتفها شالٌ.

- هل أنت بزاد جاقز؟ - سأل الرجل الواقف وسَطَ خمسة فرسان بلباس كامل، والذي يناهز الثلاثين من العمر.

- ألا يعرف هذا الواقف إلى جانبك أني لست بزاد جاقز؟ - أجاب قرخ باختصار.

- هذا ليس بزاد جاقز يا تيوفيل، - استعجل من أُشيرَ إليه بطرف السوط، - بل تغانه قرخ.

- ترجّلوا وتفصّلوا سواء كانت نواياكم حسنة أم لا. - استقبلهم قرخ على الطريقة الأديفية غير مهتم بمن أُشيرَ إليه بطرف السوط. هذه الأسرة التي تقفون على باب دارها أسرة محترمة لها قيمتها، وإن كان جاقز غائباً فلن يطول غيابه.

- مطلوبنا هو أناكسيفيتش فيدور دانيلوفيتش - لا يتراجع لاينسك تيوفيل محروساً بالفرسان الأربعة عما يطلب. - هل يُحتَفَظ بأسيرٍ مثله في الدار؟! -

- لا أعرف إن كانوا يحتفظون به... - ابتسم قرخ. - أعرف أنه يعيش مع هذه الأسرة.

- أنا أناكسيفيتش فيدور دانيلوفيتش - خرج فيدور من وراء مخزن الحبوب. وعائشة من جهتها ابتعدت عن الباب ووقفت غير بعيد عن قرخ، ونزلت عُشخان من المسطبة وقد استردت شجاعتهما، ووقفت إلى جانب جارتها.

- هل وصلتكم رسالتي يا فيدور دانيلوفيتش؟ - سأل لاينسك بصوت ألطف عن ذي قبل.

- وصلتني وقرأتها.

- ولماذا لم تُجِبي إلى الآن؟

- لم يُعجبني ما فيها.

- ولماذا لم يعجبك؟

- لا أحارب أبناء قومي.

- هل تريد أن يقتل الروسُ الأسرة التي تعيش فيها وأنت تأكل من خيرها وتشرب، وتعزف على البالالايكَا؟

- أتساءل ما هذا!.. - لم تُطق عائشة صبراً على تعريضهم بفيكتور. - من أنت حتى ترتب أمور هذا الرجل المسكين وتنتزع منه اللقمة التي يطعمونه إياها؟

- يلجمني أنك امرأة، أحترمك - ابتسم لاينسك، ورفع جسده قليلاً عن السرج واضعاً يده على صدره إشارة احترام، - الأفضل لك يا أختي ألا تتدخل في أمرنا.

التفت الواقفون إذ سمعوا وقع حوافر خيلٍ من ورائهم. وصل جاقز وصبح، ووقفوا أمام الباب.

- لماذا يا قرخ ويا فيكتور لا تدعُونا هؤلاء الفرسان إلى البيت؟ - سألهما جاقز. - والله يا جاقز لم نقصّر في دعوتهم، - ضحك قرخ، - هؤلاء ليس لهم نية في الترحل. هؤلاء عندهم طلبٌ.

- وماذا يريدون؟

- يلحّون على فيكتور يا جاقز - مرة أخرى تدخلت عائشة مُرغمة.

- ماذا تريد يا لاينسك الآن أيضاً؟ - احتدّ جاقز. - أما أخبرتك قبل أيام في داور حابله أني لن أسلمك فيكتور؟

- ما أتابعه ليس بعيداً عن اهتمام النائب مُجد أمين.

- وليكن! - ترجّل جاقز، ومدّ لجام الحصان إلى ابنه، - وما ستقوله له هو الكلام نفسه الذي قلته لك. إن أحببت الدخول أنهيها الموضوع هنا.

- لم ننتهِ! - همز لاينسك وهو منفعل حصانه، وشد اللجام فأغدّ الحصان السير. - سنستأنف المحاكمة.

- أنا جاهز في أي وقت تحدده! - صاح جاقز وراء الفرسان.

يولد الخبر بكل سهولة، ويختفي تبعاً لصدقه.

خبر المواجهة بين لابينسك تيوفيل وبزاد جاقز لم ينقص إن لم يزد منذ الثلج الخريفي المبكر وإلى ما بعد شهرين من السنة الجديدة. يتباطأ قليل لا نهاية له، كحياة زاور حابله الحاملة. يختفي أحياناً بسرعة، ويعود أحياناً فينبثق من تحت الأرض، لا يستشير أحداً. وينتشر في الشوارع بين الخبر الجديد والقديم. يقتحم المضافات، والمشاعل وحفلات الجابشة، ويتكلمون عليه في اجتماعات الصلاة.

خبر أناكسيفيتش فيدور ولابينسك تيوفيل، وبينهما جاقز وعائشة وقامت أفندي وقرخ ودوداي، لا يزال في القرية كأنه ولد اليوم مع بعض الزيادات رغم مُضيّ شهرين على ولادته في زاور حابله، ليس لأن الناس لا يجدون موضوعاً للسمر في ليالي الشتاء الطويلة، بل يعود كل شيء إلى ما لحلاوة الخبر وجِدَّته من معان. ثم إنَّ من تسبب فجأة في موضوع البلدين هما شخصان، وسكان زاور حابله الذين هم وسطاء البلد الثالث منغمسون جدياً في الموضوع. — كانوا وسطاء وأسناداً وحماة. ولم يتصدَّ هؤلاء لترتيب أمور البلدان الغربية. ولكنهم لا يقفون على الحياد وفي أرضهم تدور مآسي الحروب، فيبينون رغم تحمُّلهم عبء الظلم عن تعلقهم بالعدالة روحاً وقلباً بهذه الوساطة.

مرة أخرى انتصبت أمام عيني فيدور في نهاره الثقيل مجريات الشهرين الماضيين كأنها جرت اليوم...

... ما إن جلس جاقز الذي عاد من السفر إلى الغداء حتى صاح موفد المحكمة من أمام باب الدار دون أن يترجل:

— أبلغونا بسرعة — ابتسم جاقز كأنه غير مهموم بالخبر. ولما حاول صبح الخروج لاستقبال الموفد لم يقبل والده: — اهدأ يا ولد! ليس في أرض الدار من

يستحق أن أقابله حسب تقاليد الأديغة.

- تفضّل يا "جتيب"، لماذا لا تترجل؟ - وصلّهم في اللحظة نفسها صوت فيدور من النافذة المفتوحة.

- مطلوبى هو بزاز جاقز!

- وهل يتخلّى مَنْ مطلوبُهُ بزاز جاقز عن روح الأديغة في نفسه؟

- يا فيدور، ما كنت أريد أن أقول هذا - غضب الفارس الذي حُبل إليه أنه أهين - هل أنت عارف بالتقاليد الأديغية أكثر مني؟! لماذا تُلح عليّ أن أعاملك وفق التقاليد الأديغية؟

- ربما في ما تقول لي يا جتيب نصيب من الصحة... إن لم تحترمني فمَنْ أنت واقف على باهم أسرة أديغية. كان بودّي أن تحترم نفسك أيضاً.

- اسمعوا ما يقول لي هذا!.. - يشد الفارس لجام الحصان بعنف فيقفز.

- ليس ما يقال لك خارجاً عن الأدب، - يقترب من الباب جاقز الخارج من الغرفة. - إن كانت إنسانية فيدور لا تؤثر فيك فأنا أيضاً أدعوك إلى الدخول.

- إن شاء الله نتفضل على خير يا جاقز، - يترجل الآن الموفد مُبيناً عن أديغيته، رجلاً ضخماً ممتلئ القامة، ويضيف بسرعة: - أنا موفد من المحكمة، بلّغوني أنك و"كافرك" مطلوبان.

- والله إن لم تعبأ بإنسانية فيدور وأديغيته - أجاب جاقز دون أن يهتم بالخبر الذي جاؤوه به، - فلن أقبل منك يا جتيب أديغيتك - احترامك من طريقة ترجّلك.

- ولكن يا جاقز...

- ولكن، - قاطع جاقز الموفد وقد فهم ما يريد أن يقوله، - بينك وبين من سمّيته "كافرك" كثيرٌ من حيث الإنسانية.

- أنت تهينني يا جاقز!

- من تخلى عن أديعيته أهان نفسه منذ زمن بعيد. هيا يا ولد أسرج لنا الحصانين. سنطّلع على ما ينوي لنا هؤلاء حقيقةً.

وبعدما انصرف الموفد، وفيما جاقز وفيدور يركبان، جاءت عائشة تسبقها أول كلمة لها:

- لا تتراجع يا جاقز! استمعت إليكما فوجدتُك تشفيت لي من الموفد البدن.... وأنت أيضاً يا فيدور. لا تخافا أحداً غير الله. رغم أنني امرأة - قالت في أثر الفارسين المبتعدين - لن أدع أحداً يُهينك ولو لم يبق غيري.

- أتظنين أنهم يحاكمون فيدور وحده يا عائشة؟ - جاقز المسكين أيضاً تحاملوا عليه، - احتدّت عُشخان من أن زوجها لم يلقَ سنداً. - اذهب يا ولدي واتبعهما أنت أيضاً، ربما احتاجا إليك.

- ولا تنسَ عجوز آل بجانه، ومامسر جبريل. - تضيف عائشة، وتقول لنفسها: - والله سأذهب أنا بنفسي، وليفعلوا ما يريدون ؛ أخلعون عني غطاء رأسي؟! وأنت أيضاً عُشخان تعالي معي.

- عجباً، هل تذهب الأسرة كلها إلى المحكمة يا عائشة؟

- وما المانع؟

- لا أعرف... كأن من يرتدون قبعة لا يستطيعون حماية أنفسهم.

- وهل تتعلق حماية شرفك بقبعة أو بغطاء رأس؟!

- لا، لا يتعلق... - قالت عُشخان، ووجدتُ حجةً بسرعة: - ولكن لن

أستطيع أن أترك العروس الجديدة وحيدة في البيت...

- هذا أمرٌ آخرٌ يا عُشخان. أكيد لن تتركها وحدها - ثم قالت عائشة

بسرعة: - حقاً يا عُشخان ألا يمكن إخبار قريبكم تسي حاتربي؟

- ولماذا لا؟

- ولماذا لا تخبرونه إذن؟

- لن يدير لنا تسي حاتربي ظهره إن أخبرناه، غير أن جافز لن يقبل إذ سيعتبرونه ناقص الرجولة.

- صحيح، صحيح. لا تُجْنُ قرية بكاملها. والجماعة ليست كلها مجانين. لن نستطيع أن نرسل إلى بج حابله من يحمل مشكلتنا. أنا ذاهبة إذن إلى المحكمة. كانت شمس الظهيرة تُعَامِدُ زاور حابله. وربما كان مضى على انتهاء المؤذن من أذانه قرابة الساعة حين انطلقت عائشة وعلى رأسها غطاء دافئ واسع يصل إلى كتفيها. كان الجو الذي يُسمع فيه صوت الهواء يعضّ بارداً رغم أن الشمس تأكل من الثلج. وماء الثلج الذي لم تستطع الشمس امتصاصه يعيق حركة المسافرين. - تمضي عائشة إلى المحكمة متجنباً الثلج الذائب الموحل، محتارة أطراف الطرق الجافة. ومن تصادفه - رجلاً كان أم امرأة - تروي له الخبر دون أن تتوقف. وتُطْلِعُ عليه من تراهم وسط دُورهم. ومن يتبعها ليسوا قليلين.

توقفت عائشة متعجبة مما ترى حين برزت من منعطف الشارع الذي يقع فيه الجامع والمحكمة. رجال زاور حابله متجمعون كأنهم جاؤوا عن بكرة أبيهم. وعددٌ من مستنات الحي الذي يقع فيه الجامع واقفات عند جدار حظيرة قرخ، وبينهن ثلاثٌ أو أربعٌ من عمرها.

قالت عائشة: لم يجتمع هذا العدد من الناس حين زارنا زعيم الأبراخ النائب مُحمَّد أمين. أهؤلاء مصلّون مؤمنون بالله أم يتشقّون، أم مساندون مشفقون؟ ولا أرى بينهم جافز ولا صبح ولا قرخ ولا دوداي. وبجانه مامي أين هو؟ وما مسر جبريل أيضاً؟ وفيدور، فيدور المسكين؟ ربما مع جافز... ها هما حصاناهما مربوطان إلى العمود. واللذان إلى جوارهما أظنهما حصاني قرخ ودوداي. إن كان هذا فلا مشكلة، بوجودهما، بعد الله، لا داعي لليأس. وهذا أليس مُّراي؟

- تعالي عائشة، تعالي، - نادتها إحدى العجائز، ولا متها: - لماذا لم تظهري إلى الآن؟ كنا في سيرتك قبل لحظات.

- والله لا أعرف ما حقيقة نوايا الفرسان الذين جاؤوا إلينا. - لم تدعهم عائشة ينتظرها. - أثاروا جلبة كبيرة في حيننا. والآن جاؤوا بالمنحوس فيدور إلى هنا. يا ترائي لا أرى قرخ بينهم، أين هو؟

- دخلوا إلى المحكمة، ومعهم جامبج ابن أختي الكبرى.
- ها، إذن جاء دُعجي جامبج أيضاً؟ - فرحت عائشة لما سمعت. - ما أحسن هذا! يكون فيدور المسكين كسب سنداً.

لم تتحمل العجوز الصغيرة ذات الكتف المائلة، والتي لم تقل شيئاً إلى الآن:
- يا حسرتي بِمَ هؤلاء مهمومات... مَنْ سيق كافّر، ومن ساقوه كافراً. أنا ظننتُ أن حدثاً خطيراً جرى في القرية فجئتُ من أقصى مكان. ليذهبوا جميعاً إلى حيث لا رجعة! تركوا ابنتي الوحيدة أرملة مع جيش من الأولاد.

- وهل أنتِ وحدكِ يا "خمّساد"؟ - احتدّت عائشة.
- أقول هذا لأني لستُ وحيدة.
- أنتِ، في أسوأ الأحوال، ورثتِ عن صهركِ ثلاثة أولاد يافعين. أما أنا فما حالِي؟ - عادت عائشة سريعاً إلى وعيها إذ أن صوتها انكسر.
- ولماذا إذن؟

- يجب أن تكوني إنسانة يا خمّساد، إن لم تكوني إنسانة فلا أحد يتصرف معكِ بإنسانية.

- وهل ستحسنين إلى من قتل زوجك؟
- لا، غير أنني لن أتهم مَنْ ليس عنده ثأري.
- أظنكم تدللون هذا الكافر لهذا السبب.
- يا خمّساد! - احمرت وجنتا عائشة - لا تجبريني أن أتكلم.
- لا تتشاجرا! رفض الحضور.

كانت قاعة المحكمة الفسيحة التي فيها تسعة رجال أو عشرة تضج بالحركة.

لايينسك تيوفيل وقايمت أفندي جالسان. والآخرون موزعون على ثلاث مجموعات. إحداها في صفّ لايينسك، والأخرى تدعم فيدور، والثالثة على الحياض، صامتون كأنهم يقولون: من ينتصر يكن ثورنا.

يسأل لايينسك وقد لفّ رجلاً على أخرى، مُظهراً ابتسامته:

- حسب كلامك يا أناكسيفيتش فيدور انتهيت بهذا.

- نعم أنهي كلامي هنا كما أخبرتك صباحاً والآن. - كلام فيدور حازم.

- وإن طلب منك بزاد جاقز أن تفعله ؛ ألن تفعل؟

- لم يحدث أن لم أنفذ من أنا أسيرُه بزاد جاقز شيئاً طلبه. ولكن في هذه المسألة، والله شاهدي، لن أنفذ طلب أي إنسان.

- هل تسمع يا جاقز؟

- نعم، هل يقول ما لا يجوز؟

لا يتذكر لايينسك تيوفيل، وقد مضى عليه سنتان في إقليم الأديغة، أنه وجد نفسه في موقف مشابه. أخرج من الغابات المحاريب البولونيين من الجيش القيصري الهاربين من الخدمة. وحرر الأسرى لدى الأديغة. والقليل ممن امتثلوا لرسائله التحقوا به. من لا يجد طريقاً إليه هو أناكسيفيتش فيدور الواقف أمامه: لو لم يؤيد بزاد جاقز أسيره لكسّره منذ زمن بعيد. ولو عرف أن الأمور ستؤول إلى هذا الوضع لما اهتم بالموضوع كل هذا الاهتمام. ولا يتعلق تحقُّق الهدف الذي جاء من أجله إلى بلاد غربية بفيدور، ظنه بولونياً من اسم أسرته. لم يعد تيوفيل يستغرب موضوع الأسير، ما لا يفهمه هو سلوك من يسفك دمه لأجلهم. وإذا كان يفهم عناد جاقز الذي لا يغير موقفه فإنه لا يعرف تفسيراً لصمّت قايمة أفندي.

- بزاد وأناكسيفيتش - يقول لايينسك - أعرف اتجاه رفاقهما، ولكنك لم تقل شيئاً طوال النهار يا قايمة؟

- أسمعكم - يجب قايمت بعد تفكّر، - فلا أرى في أجوبة من سألتهم أيها الضيف ما يعيب. كلهم يتعاملون ضمن شريعة الأديغة.

- ما سمعته عجيب... - نهض لايننسك، ثم قعد وقد أعاده إلى وعيه جلسة قايمت الهادئة ووقفه الآخرين المرتاحة، ثم قال متصنعاً الابتسام: - إن كنتم تحبون قاتلكم إلى هذه الدرجة فلماذا لا تطلقونه تبعاً لما تقول إحدى آيات القرآن؟

- أنت لا تخطئ أيها الضيف في ما يقول القرآن، - الآن فقط ابتسم قايمت أفندي وعلى وجهه يسري النور، - جاء في السورة الثامنة من القرآن الذي أنزله الله على المسلمين، والتي تسمى "الأنفال"، وفي الآية السبعين منها، ما يلي: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ بل امتدح في موضع آخر من يطعمهم أسوة باليتامى والمساكين، فقال ﴿ويطعمون المال على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾.

- على ما يبدو يا أفندي - يتكلم لايننسك الآن جدياً، - لا نعيش دون علم الله الرحيم الذي اهتديت إلى دينه.

- إن كنت تؤمن بالله الذي يبتهل إليه الجميع ولا يبتهل هو إلى أحد فهذه هي الحال أيها الضيف.

- دعونا إذن نفعل أمراً واحداً، - قال تيوفيل مخفياً الرياء الذي داخله، - لنقف أمام الحشد المجتمعين أمام الجامع حتى أطلعهم على المهمة التي جئت من أجلها. ولنتصرف على رأي الناس!

- ليس حسب رأي الناس وحدهم - أصلح قايمت أفندي كلام تيوفيل، بل حسب ما يُلهم الله قلبَي جاقز وفيدور. وعلى كل حال لنذهب، فهؤلاء لم يتجمعوا دون علم الله.

صعد لايننسك على المسطبة العالية أمام بناء الجامع وقد بدا من نظرتة ومن وقفته اعتداده بإفضاله على الأديغة ومساندته لهم. ونظر من فوق رؤوس الرجال مانحاً لسكنته الطويلة المعنى الذي يريده هو. ومرّ أمام ناظرية حشد النساء الواقفات في زاوية من سور الجامع. ورأى بينهن المرأة التي جادلته صباحاً على باب آل بزاد، فتعمّق سوء مزاجه برؤيتها.

لم يتحرك أيّ رجل ريثما تكلم لايننسك تيوفيل على سبب قدومه إلى زاور حابله، وعلى المعروف الذي يقدمه للأديغة من أجل حريتهم، وعلى التضحيات التي يقدمها جيش المتطوعين الذي يقوده. ولم يقاطعه أحد بكلمة نابية. كان أكثر ما يهمّ الواقفين وينتظرونه هو مصير فيدور لأن أهل زاور حابله لا يسمعون ما يقوله للمرة الأولى إذ يبدو كأنه يتكلم بلسان النائب مُجّد أمين. ولم يكونوا قليلين من يقولون: مَنْ من الناس الذين لم يأتوا من بلاد غريبة - سواء كانوا أتراكاً أم إنجليزاً أم فرنسيين أو داغستاناً - ليسوا بين هؤلاء الرجال، وأنت انضمت إليهم! ورغم اختلاف أفكار أهل زاور حابله المتعارضة لم يكونوا يستطيعون أن يغلقوا آذانهم في وجه الكلام المنمّق لتيوفيل. كانوا يعرفون أن لايننسك تيوفيل أتى من بولونيا البعيدة، وغيّر دينه الكاثوليكي في تركيا إلى الإسلام، وسمّى نفسه توفيق بي، ويعرفون طريقة وصوله إلى هنا. ولكن لم يؤلوه أهمية كبيرة، كما تأمل هو، ربما لعدم تصديقهم التبدّل السريع لدينه. وكانوا يضحكون، دون أن يُبدوا ضحكهم، من طريقة رفعه ليديه وارتجاف شفّيته أثناء الدعاء. وكانت أوضح عباراته عبارة "الله أكبر" فينفّر منه حين يرفع به صوته عالياً فتشعر معه أنه لا يقبله في سريره.

-... موضوع أناكسيفيتش فيدور هو كما أطلعناكم عليه - اختتم لايننسك خطابه الطويل. وتصرّفنا يتعلق برأيكم أيتها الجماعة. نحن لا نجبر أحداً على أن يفعل مرغماً. من ندعوهم إلينا هم أمثال رفاقي وأمثالي ممن يؤمنون بحرية

الأديغة، ولكن لن أخفي عنكم: لست من أصحاب أمثال تلك الطباع. حين ناقشنا فيدور طوال الوقت لم نستطع أن نحمله على إدارة وجهه نحوكم. لا ينسى قومه الذين يحاربونكم، قلبه متعلق بهم. من عنده مُدَاخَلَة؟ أسمعكم يا جماعة.

سُئِلَتْ بضعة ساعات ولم يتحرك أحدٌ من الواقفين. وبعد بعض الوقت نادى لابينسك ثانية:

- أسمعكم يا جماعة.

الرجال صامتون يتصاعد منهم دخان السجائر.

- لماذا كل هؤلاء الرجال واقفون؟ - نادى عائشة من بين جمعها على نحو لا تدري معه أتخاطب النساء أم تعيّر الرجال.

نظر الرجال الصامتون الذين وجدوا في كلامها حجة ممتازة نحو النساء. وأسرعت عائشة فأغلقت فمها عارفة أن سلوكها غير لائق في حضور الرجال.

- أغلقي فمك يا عديمة الإيمان! هَرَّ بجانبه مامي رأس عصاه جهة النساء، وقال للابينسك: - لي كلمة: نطقَت بأقوال كثيرة جميلة بحق الأديغة أيها الضيف، حيّاك الله. وأفهمْتنا سبب مجيئك من بلادك البعيدة، وتغييرك دينك - لا أعرف إن كان إلهك يرضى لك - وفهمنا مصدر اسمك التركي. جاء قبل أعوام بصحبة النائب واحد من أمثالك، لا أذكر إن كان اسمه جيمس بيل¹ وأظنه إنجليزيًا، وإن لم أخطئ فقد كان معه شخص فرنسي...

¹ بريطاني قضى أكثر من سنتين في القفقاس بصفة تاجر (1837 - 1839) وكتب مذكرات مفصّلة بعنوان: يوميات جيمس بيل، وورد ذكره في رواية "خان جري" للكاتب نفسه، والمترجم نفسه.

- اسمه فونفيل¹ يا كبير - أسعف أحد الحضور المتكلم.

- نعم، هذا هو. ووصل إلى قريتنا الأتراك ذوو السراويل القصيرة. وقابلت غيرهم أيضاً ولكني نسيْتُ أسماءهم. وإن كنتم تتذكرون فالشيخ شامل أرسل قبل مُحمَّد أمين نائبين: النائب حاج مُحمَّد، والنائب سليمان أفندي. وكل من خالطنا كانوا مهتمين بقضايا الأديغة غير أن هذه القضايا لم تُحلَّ. والمسكين زانه قوه سفري² يخدعونه من كل الجهات، ويدورون به... لا بأس هذه قضية بلاد، بِمَ يمكن أن نساهم فيها؟... دعونا نبت في المسألة التي نخضُّنا!

- وهذه يا كبير قضية بلاد، - لم يستطع لابينسك إلا أن يتدخل.
- لا أقول يا ضيف إن قضية القرية ليست مرتبطة على نحوٍ ما بقضية البلاد - لم يدعهم المتكلم ينتظرونه، متظاهراً بتأييد ما قيل له. ولكن على ما أرى - ولا أعرف رأي الجماعة التي أمثل أمامها - كنت أودّ ألا نطوّر موضوع القرية إلى أبعد مما يستحق. إن سَمِينَا فيدور أسيراً فليس جديداً علينا. تألف معنا متحملاً المشاق، ولا أقول إنه لا يعانيتها الآن. أحزاننا أحزانه، وأفراحنا أفراحه. أقتنعنا أنه واحد منا أصالة وإن كان من دين وقوم آخَرين. ولما كان من طبع الأديغة مساعدة من يقع في ضيق فإننا لم ندع، نحن أبناء القرية، بزاد جاقز يحتاج أحداً. ولذا لا أرى شخصياً ما عبّرت عنه أيها الضيف بعبارات من قبيل "لا ينسى قومه، قلبه متعلق بهم" عيباً فيه. احتفاظك في قلبك بجبك لقومك وأنت أسير لدى أعدائك رجولة. ولا أرى من المناسب تعيير الإنسان بهذا. وهم يودّون

¹ وكان محارباً، كتب مذكرته أيضاً، واختتم ماشباش إسحق روايته "حجر الرحي" وترجم إلى العربية في دمشق. و "المطرودون" ترجمه مترجم هذه الرواية، ونُشرت في مايكوب عام 2017، بفقرة من مذكراته تصف موقف عبور للبحر الأسود.

² من الشابسغ، ورد ذكره في أكثر من رواية للكاتب، وسيُتردد ذكره في ما بقي من هذه الرواية، يُضرب به المثل في الحكمة.

إقناعه بالدين الإسلامي، ولكن حين فهم قايمت أفندي - ﷺ - أنه لا يريد، لم يرغمه. أليس حسناً، مهما كنت، أن تقبل إلهك الخاص بك؟ ومثل هذا الإنسان لا يتصرف نحو غيره إلا بالمعروف. إن لم يكن يريد فلا مانع، لا إكراه في الأمر. هذا ما أريد أن أقوله إن كان أهل زاور حابله سيفهموني.

- صحيح يا كبير، نوافك! لم يتصرف معنا فيدور بما يستحق أن نعاديّه لأجله. دعونا ننهي الأمر على هذا! صاح الواقفون بين مؤيد ومعارض.

امتّقع وجه لاينسك تيوفيل على نحو ملحوظ.

وقال قايمت أفندي لمن هم أمامه:

- إن كنتم توافقون الكبير بجانه مامي على ما قاله فسنعتبر موضوع فيدور منتهياً هنا. حيّاكم الله، بإمكانكم الانصراف.

بحث لاينسك بين الرجال المنصرفين عن فيدور ونادى:

- يا أناكسيفيتش!

- أسمعك يا لاينسك، - توقف فيدور.

- أيها الروسي أناكسيفيتش، - قال لاينسك بالروسية كاظماً غيظه، - لا تظنّ قومك سيغفرون لك خيانتك! لم يُجب فيدور.

- ماذا قال لك هذا، - سأل جاقز.

أجاب قرخ الذي كان يعرف بعض الروسية بدلاً من فيدور الذي كان يتتسم:

- وجهه إليه كومة من الكلمات الجافة.

- ما العمل إذن؟ - ابتسم جاقز أيضاً، - لَوْحٌ بقبضتك لمن لا تقدّر عليه!

... لم يستطع فيدور إلا أن يضحك من أعماق قلبه بصوت منخفض رغم مرور مدة غير قصيرة على ذكرياته، ورغم أن ما يفكر فيه لم يكن خيراً ساراً. التفت حين نصب الحصان الذي كان يركبه وأمامه أربعة ثيران يعود بهم من

ظاهر القرية، أذنه، قائلاً في نفسه: قد يعدُّني من يسمعي مجنوناً. ليس في الربيع الجميل القريب منه غيرُه وغيرُ مشدِّ والثيران الأربعة. الشمس الحامية تتجه إلى الغروب شيئاً فشيئاً كأنها غيرُ عابئة بالطبيعة الخضراء الناعمة، وبالأشجار المبرعمة البيضاء المحمرة، وبغيرها من الألوان المتدرجة. ابتعد فيدور مرة أخرى عن ذكرياته قائلاً في نفسه: أيُّ خيانة لا تغفرها لي يا لاينسك؟! ها قد اقتربتُ من الستين ولم أقترب شيئاً من هذا. مرت عليّ مناسبات كثيرة كان يمكن أن أخون فيها لو أردتُ غير أيّ لم أستطع. ولماذا يجب أن تفكر فيها؟ ها أنا الآن، هل كنت قادراً لو أسرعتُ بحصاني إلى عمق الغابة على العثور عليّ؟ كنتُ قادراً دون أن أسيء إلى من أعيش بينهم بمثل هذا السلوك إلى جعلك تفعل هذا بنفسك — لا أزعم أيّ لم أفكر في أيّ كنت قادراً على الهروب إلى أبناء قومي بحجة الحرب لو تطوعتُ في جيشك، غير أن هذا لم يعد مخرجاً وأنا في مثل وضعي اليوم...

- فيدور، يا فيدور! دعنا نركب الحصان! — أخرجه من أفكاره الفتيان اللذان استقبلاه في حيّته وهما يرجوانه راكضين.

مد فيدور يده إلى الأسفل فرفع أصغرها إلى حارك الحصان، وبالحركة الثانية رفع الأكبر فأردفه وراءه. وقال لهما:

- تمسّكْ بي جيداً يا أيوب، وأنت يا شوماف تشبّثْ بعرف الحصان! — يؤكّد على من يركب أمامه ويمسح على شعره كأنه سيُسرع بالحصان الذي يخفف من سرعته.

XXIII

ربيع الأبراخ، وعلى الأخص جانبُ الجبل المتجه إلى الجنوب، ينتصب أمام عينيك خلال أيام دون أن تدري، متغنّجاً لك بمشاهد متنوعة.

ربيع هذا العام 1858 لم يتأخر إن لم يسبق موعده. يُخيّل إلى فيدور أنه سبق

سلفه بأسبوع تقريباً. كل ما يتراءى للعين أينما نظرت: نحو الغابة، أطراف القرية، والنهر، ونحو الجبال المتراصّة، ونحو السماء العالية، يسرّ القلب وينعشه، ويُسيك الشرّ. والنهار اللطيف الذي لا يرافقه نسيم يهز حتى رؤوس الأعشاب يملاً الدنيا بالفرح. وسطوح التّبانات التي نجت من الشتاء الذي كان قليل الثلوج، وسطوح البيوت المصنوعة من القصب المضفور والخشب الرقيق، وسطوح الحظائر، والإسطبلات، وغيرها، حتى ضفاف الأنهار العمودية، منسجمة مع الربيع المتفتح حتى إنه لا يخطر لك أنها غريبة بل صارت جزءاً حقيقياً منه.

اخضرت أوراق الأشجار اليوم أكثر من البارحة، قال فيدور. ها هي الغابة التي تلتف على الجبل القريب لم تبق فيها شجرة لم تكتس بالخضرة، اللهم إلا أشجاراً يابسة معدودة. كلها، صغاراً وكباراً، شاحخة تستدعي الأنظار. وأشجار البلوط القليلة في ظاهر القرية التي تأوي المواشي إلى ظلها في الصيف ما أشدّ ما تتصنع الآن طباع العرائس! وليست المواشي وحدها التي تحب ظلالها، والسواقي التي تنبع منها، بل الرعاة وعابرو السبيل. هل ترى هذه الأشجار كيف تعيش لعمل الخير؟ وتباب البرقوق تلك؟ إنها ترتدي ثياباً بيضاً ناصعة. وما يسمى مُستراحات للذئاب فيتجنبها الناس تحتاج إليها الذئاب أو الدببة. سيمضي في شهر أيار القادم تسع سنوات على وقوعي في الأسر ولا أتذكر مثل هذا الربيع في أشدّ أوقاتي شقاء وأكثرها راحة. نعم، نعم، لا شيء يُذم من هذا الربيع، ربيع الأديفة جميل، منعش للروح... ولكن في هذا الجمال البريء نوعاً من التعاسة...

تألم قلب فيدور، انسلّ بسرعة من دنيا الجنوب الساحرة مستنداً على السور، وارتمى بقلبه نحو الشمال الذي لم يخطُ ربيعاً إلى الآن أي خطوة على الطريق. فتش بقلبه أرض داره التي كان الثلج يتناثر فيها، وشوارع قريته، والأماكن التي

كان يحشّ فيها الحشيش، والغابات المنيرة التي كان يصطاد فيها. وفيما هو يتأمل الشمس الحمراء المستديرة التي تتوسط السماء الباردة الممزّقة بقطع السحاب الباهتة نَبَّه الصوت المنادي:

- يا فيدور، أناديك فلا تسمعي، - نادت من فوق المسطبة عائشة التي تودّعها عُشخان.

- هذه أنتِ؟ - سأل فيدور.

- أنا، كما ترائي، كنت ناديتكِ أيضاً وأنا في طريقي إلى هنا.

- آسف يا عائشة، آسف، لم أسمعكِ.

- لا مشكلة يا فيدور في هذا، ما حالك مع الربيع؟

- ربيعنا جميل يا عائشة.

- ليس هذا ما أسأل عنه.

- ماذا إذن؟

- ألا يثير فيك الربيع الجميل الحمية أيها البائس؟... ألا يزلزل كيائك؟

- آه يا عديمة الإيمان ماذا تقولين؟ - جفلت عُشخان مما سمعت. - أنتِ

تُسمعين العروس الصغيرة، وتُخرجين فيدور.

- لماذا يا عُشخان؟ أنتِ جعلتِ من نفسك عجوزاً يائسة، ولكن ألم يبق لمن

ذكرتِ اسمه قلبٌ؟.. - خرجت عائشة من الدار تضحك وتلتفت إلى الوراء.

- اسمعوا ماذا تقول هذه!.. - ارتقت عُشخان في البيت مسرعةً.

هناك أمور كثيرة تُقلِّق أناكسيفيتش فيدور المستند إلى السور بالإضافة إلى الربيع

الوليد. وأشدّ هذه المقلقات الحربُ القادمة مع الربيع. أهو فيدور أم الأديغة من

تأنيهم المصيبة؟ الخوف من تقصير مدة الأسر يجلب له الفرح...

هذا هو السبب في قولهم إن الدنيا مركبة على طريقة متنافرة، هزّ فيدور رأسه.

عرسُ هذا ومأتمّ ذاك. هذا يركب حصاناً والآخر راجل، هذا في الأسر وذاك

حرّ... يا إلهي لو حدث ما سيحدث وأتى من سيأتي وارتحنا يوماً ما. غير أن رماح هؤلاء القادمين حادة، وسيوفهم قاطعة، ورسا صاتهم عديمة الرحمة... ستصل نيرانهم التي كنا نحرق بها قراهم إلى زاور حابله وبعج حابله وقاي حابله وداور حابله، وستتحول هذه الأماكن الجميلة إلى وطن في الذاكرة. وسيخيّم الحزن فوق هذه الجبال ذات القمم البيضاء، وتلك السماوات الزرقاء. ماذا ستفنعني حريقي إن تهدّم عالم الأديغة الذين أكلت من خيرهم هذه السنوات؟ لن يكون فرحي النابع من مأساة هؤلاء فرحاً في ما تبقى من عمري. وإن حدث هذا فكيف أعود إلى أسرتي وأنظر في عيون زوجتي وأولادي؟ يا إلهي ارحمني وارحم الأديغة الذين أعيش بينهم! لا أمل لنا غيرك.

قال فيدور فجأة مرة أخرى حين رفع رأسه وبدت لعينيه الجبال البيضاء: " في الجمال البريء مصيبة " وعصر الألم قلبه دون إرادته.

قال فيدور: يا ربّ ماذا سيحمل لي هذا الربيع الجميل القادم " أهو فرحٌ مماثل له أم حزنٌ مماثل لما في صدري؟ مهما تصرفتُ معي الدنيا التي حرمتني حريقي فلن تكون جميلة لي ولا مخلصّة. من أين سيأتيني حزنٌ أشدُّ من القلق الذي يقلب دفة الشمس إلى برودة، وضوء النهار إلى ظلام، وغناء عصافير الربيع إلى مرثية. حسناً، لا أعرف، لا يتألم لحمٌ من فقد روحه وتوقّف نبضه وأسبل جفنيه. وماذا تختلف عيشتي وتنقّسي عمن يوصّف بأنه ظالمٌ بلا روح ولا يبحث عن ثواب؟ أهو حضور هذا الربيع الجميل أمام عيني؟ أم امتلاء بطني بالطعام؟

ابتعد فيدور عن السور بسرعة كأنه أحرقه، ونظر نحو البيت الموحش الخالي إلا من غُشخان وقُتاس ولم يتجاوز ببصره بيت عائشة المحروم من الرجل. وطفا على سطح القلب بارداً غيابٌ جاقز وصبح منذ البارحة. وليسا وحدهما بل خرجت مجموعة من الفرسان بقيادة مامي عجوز آل بجانة صباح أمس بينهم

قرخ ودوداي وماسر جبريل. وحين سأل عن الموضوع أُجيبَ بأنهم سيشاركون في مؤتمر بداية الربيع الذي يقام في قاي حابله، فلم يهتم كثيراً رغم أن القلب تألم قليلاً. وأضيف إلى سبب ارتياحه هدوء بال عُشخان وعائشة ونساء القرية. حين لا يعود من خرج صباحاً على نية الرجوع مساءً تثور هواجس كثيرة في القلب. وحين يمضي الليل فيتبعه الصباح وترتفع الشمس فإن أسئلة كثيرة بلا جواب هجمت على الفكر تثير مخاوف كثيرة لا تخطر على بال.

حدث أن غاب جاقز وصبح عن البيت كثيراً. الأكبر جاقز كان يغيب أحياناً أسبوعاً كاملاً. ولم تكن عُشخان تقلق حين يكون برفقة قرخ ودوداي. ولكنها كانت تتظاهر بالغضب وترفع صوتها بالاحتجاج متى مضت ثلاثة أيام. وحين يمضي أسبوع لا تستقرّ في البيت.

لا يستطيع فيدور تفسير راحة بال عُشخان هذا اليوم. لم تخرج من البيت إلا مرة واحدة منذ الصباح. وهذه المرة حين ودّعت عائشة فارتقت المسطبة. ربما كانت تريد أن تقول لفيدور شيئاً يتعلق بغياب رجال بيتها لولا أن منعها الكلمات المرحجة التي تفوّهت بها عائشة. ولا يرى عائشة التي كانت السبب في إخراج عُشخان تتظاهر كما في مرات سابقة بأنها تلمّ شيئاً من أرض الدار، ولا باب بيتها مفتوح، وباب دارها مرتجّ.

على قلق فيدور: القرية خالية في هذا النهار الربيعي الجميل. وأين صبيان القرية الذين صاروا أصدقائي وصباياها؟ والكلاب ألا تنبح؟ والديكة ألا تصيح؟ والمؤذن لماذا صمت؟.. ما أقوالي وما الأفكار التي تغزو رأسي؟.. ها هم الصبيان والصبايا يلعبون في الشمس؛ ألا تسمعهم؟ وصافراتي على أفواههم.. ولا الديكة صمتت، ولا الكلاب كفّت عن نشاطها. هل الذنب ذنب القرية إذا صمت القلب فكفّت الأذن عن السماع؟.. الشمس دافئة، والعشب أخضر، والأشجار التي تفتحت براعمها حديثاً بيضاء حمرة. والسماء صافية.

والقمم البيضاء مرتاحة، والطيور تغني للطبيعة بأصوات مختلفة. وحيثما نظرت تسرّ الطبيعة الكريمة العين، وتروي القلب... إقليم الأديغة طبيعة جميلة! ربيع وصيفه وخريفه وشتاؤه متنوع رغم السماء الواحدة التي تُظللها، ورغم الشمس الواحدة التي تنيرها... والطبيعة في نواحيها ليست أقلّ جمالاً بثلجها الناعم رغم غلبة البرد عليها. حتى لو سقط الثلج عليها حالاً فإن ثلوج قممها المشمسة التي تتلون باللون القاتم تنبئك بأعاليها المدببة بقدوم الربيع. ومن هذه الثلوج تفوح رائحة البرد، وتشم الأرض الرائحة تحت الثلج. وتصدر الرائحة من صفيح الرياح... ماذا في نواحيها من أخبار يا ثرى؟ هل وصلت رسالتي الثانية إلى زوجتي وأولادي الأعزاء؟ يا رب أسألك أن تحفظ حياة أسرتي مهما جرى هنا أو هناك. احفظ سلامتهم وصحتهم، ولا تُحبط أملهم. واغفر لي إن خطرت لي خواطر سيئة أو قلت ما لا يجوز. ولا تُنسني بلاد الروس التي ولدت فيها مهما كانت بلاد الأديغة كريمة وجميلة، واحملي إليها. ومهما اخترتني بأصعب المواقف فلا رجاء لي سوى هذا... ديانا العارية جميلة طليقة لطيفة... ومع ذلك لا تدعني أترك ورائي الأسرة التي رزقني بها في هذه الدنيا. وأشبعني من رؤية أولادي.

طاف أرجاء الدار بضع مرات لا يجد فيها ما يُنسيه الخواطر الجارحة المؤلمة. يُزجج الأشياء من أمامه ولو أنها في مواضعها، ويرفعها ثم يضعها. وكان هدوء البيت مما يُفاقم قلقه. وحين يضاف هدوء دار عائشة إلى هدوء داره لا يعرف أين يذهب بنفسه. كان يرضى لو فتح أحدهم الباب وكلمه بلطف أو نخره. ومع أن زاور حابله كسائر القرى تعيش الآن ربيعها الجديد فهناك ما يُزعجه فيها وإن كان لا يعرف التعبير عنه. ما هذا؟ أتكون الطبيعة الجميلة المرائية تبالغ في عُنجها الذي لا يُطيقه هو؟ أيّ جمال صامت لا يستطيع وصفه؟..

" في الجمال الكريم مأساة " - خطرت لفيدور هذه الكلمات فجأة، ثم كررها

في نفسه. أيُّ فكرة جارحة علقتْ بي؟ أقول رغماً عني: لماذا يجب أن يختلط الجمال بالمأساة؟ أليس الصواب أن الدنيا لا تُرى بعيني وحدها؟.. صدر صوت باب، ونادت عُشخان:

- يا فيدور أين أنت؟

- ها أنا يا عُشخان!

- لماذا يا فيدور لا تقول شيئاً منذ الصباح؟

- وماذا أقول يا عُشخان؟

- يا حسرتي، لا أعرف ما ستقول... أنا مهمومة بعدم قُدوم غائبينا، قارب الوقت الظهيرة...

- هل تقصدين جماعة صبح؟.. - سأل فيدور كمن لا يهتم كثيراً بالموضوع، وأضاف بسرعة: - حان موعد وصولهم. ولا داعي بفضل الله للخوف أو القلق. الطبيعة كما ترين جميلة ولطيفة ولا قسوة فيها. - لم يستطع فيدور دون أن يدري إلا أن يهمس له قلبه: "والجمال البريء يحمل مأساة".

- نعم يا فيدور، الطبيعة جميلة ولطيفة، - وافقته عُشخان بسرعة. وأضافت إليه ما يُقلِّبها: - ولكن تأخر هؤلاء يقلقني، ولستُ وحدي، كذلك العروس الصغيرة جعلت من غيابهم همًّا.

- إطمئنَّا يا عُشخان، بفضل الله لا يحدثني قلبي بسوء. ليكن في قلبك الخير في هذا الجو الجميل، لا يحدث ما يسوء.

- لينطق فمك بالخير يا فيدور بفضل الله! نعم، سنتفاءل... هؤلاء لم يذهبوا إلا إلى مؤتمر قاي حابله.

حين عادت عُشخان إلى الغرفة وقد هدأ قلبها نوعاً ما أسرع فيدور إلى الحظيرة لا تفارق ذهنه كلمات "الجمال البريء يحمل مأساة" ووقف أمام صورة إلهه يرسم الصليب ويدعو: لا أظن أن الكدر الذي داخل قلبي غائب عن علمك.

وأنا لا أعرف إلى من سيتجه هذا الشر المحتمل ؛ إليّ أم إلى غيري؟ هكذا تردُّ إلى الدهن بلا منطق. ولا أستطيع النسيان. ارحمني واعطف عليّ. احم الجميع سواء كانوا من أمتك أم لم يكونوا. إن أملت الأسرة الغريبة التي أوقعتني فيها تأملتُ أنا أيضاً. وإن جرحتني جرحتهم.

انتفض رأس فيدور من الصوت الذي صدر من الفناء. دعا إلى الله أن يغفر له دعاءه غير المكتمل وخرج من الحظيرة. ولما نظر رأى ثلاثة فرسان يقفون على باب الدار. وعرف الحصان الرابع الذي يقودونه: حصانُ صبح. توقف فيدور وقد سرت برودة إلى قلبه. وجعله ما سمع يلتفت:

- يا أمنا، أين فيدور ؛ لا أراه؟

- يا ولدي، ألم تعد ترى شيئاً أمامك؟.. ذاك هو فيدور... يا فيدور بالله عليك لم يعد الولد صبح يسمع ما أقول، ولم أعد أستطيع كبحه، توسَّلْ إليه ألا يرتقي أمام رصاص العدو، أن يحتمي منه. قل: الله حريص على عباده فكن أنت حريصاً على نفسك...

- يا أمنا اهدئي قليلاً، أرجوك، - يتوقف صبح الذي يحمل بندقيته وبندقية والده على كتفه، - دعيني أخرج من الدار وأنت رابطة الجأش!

- نعم يا صغيري، نعم، سأدعك تخرج، - عادت عُشخان إلى الوعي، - تحلَّ بالرجولة، لا تدع أحداً يقول إنه أظهر الجبن في حضرة والده. لا تخرجنا أمام الناس، وأنتم أيضاً يا أولادي. - تنادي الفرسان الذين تقف عائشة إلى جانبهم، - إن شاء الله تعودون إلينا سالمين.

- يا صبح!.. - انكسر صوتُ فيدور وقد أحس بمأساته وبالقلق على الشاب المقبل على الحرب.

- هذا هو يا فيدور، - قال صبح دون حقد، - ما كنتَ تتوجَّس منه جاء مع الربيع، مع السلامة يا فيدور! - يعانقه ويهمس في أذنه. - انصح النساء

اللواتي سيبقين في حضرتك وطمنهن!

- انظر ماذا يفعل هذا! - صرخ أحد الفرسان الثلاثة. يعانق أحد من يحاربونا.

- يا أخي الصغير، يا من أفديه بروحي، لا تقل هذا! - تلاطف عائشة على غير عادتها البتة الفارس الذي لم يتقبل المعانقة، لا تريد الإساءة إليه، - ليس هذا البائس كما تتصورونه. ليتكم عرفتم ما يغلي في قلبه! ليس ما يصيب صدره الآن رصاصة أديغية واحدة ولا روسية واحدة، تجرحه، تقتله...

حين ابتعد الفرسان الثلاثة عن الباب صلى فيدور راسماً الصليب لكل الفرسان دون أن يخشى من عُشخان التي تقف وراءه، ودون أن يعبا بأن يراه مسلم آخر غيرها.

ولولا أن عُشخان انفجرت بكاءً ودخلت الغرفة حين غاب الفرسان وراء منعطف الشارع لربما ما ترك فيدور مكانه حتى تغيب رؤوس القبعات. عصر الألم قلب فيدور من البكاء الصامت للأُم التي ترسل ابنها إلى الحرب متسلحة بالصبر. واقتربت منه عائشة وواسته:

- لا تُفِن نفسك يا فيدور!

- ولكن يا عائشة...

- قلتُ كفى يا فيدور. لن تستطيع أن تغيّر شيئاً في الموضوع.

- ولكن يا عائشة، - قال فيدور ثانية، ونظر إلى المرأة نظرة استعطاف، - ألا ترين ما يحدث لكم ولنا؟..

- كلا الطرفين بلا أمل يا فيدور... ربما قدّر إلهكم وإلهنا أن يحدث هذا. أنا سأخالط هؤلاء لحظة.

لا يتذكر فيدور كيف أمضى نصف نهاره، ولا كيف انصرم مساءه، ولا كيف قضى ليلته. قضى كل وقته باستثناء دقائق غفوته في الدعاء إلى الله. ولم يفارق

باب بيت يزداد طوال هذا الوقت والصباح التالي له. ومشد الذي أحس بفراغ الدار ظل فيدور وراء فيدور المتابع لأعماله.

- يا فيدور، أين أنت؟ - نادى عُشخان كعادتها دائماً من على المسطبة.

- أنا هنا يا عُشخان، - قابل فيدور نداءها كما فعل أُمس وأول من أُمس وطوال سنوات أسره التي قاربت التسع.

- يا فيدور لا تؤاخذني، لم تذق منذ البارحة لقمة، تعال وتناول طعامك. - لستُ جائعاً.

- لا تقل يا فيدور، - لم تقبل عُشخان. - تعال، المائدة جاهزة.

رسم فيدور الصليب قبل أن يمد يده إلى ما على المائدة، ثم بسم على الطريقة الإسلامية. توسلت عُشخان بعدما تناول فيدور بضع لُقَم:

- بالله عليك يا فيدور أن تأكل بكل طاقتك. تجعُلني هكذا أتصورك أنت وصبح وجافر تأكلون معاً، لا تحجل!

- لستُ خجلاً يا عُشخان، أنا أكل بحريتي.

- نعم، نعم يا فيدور، لا يجوز الحياء أمام الطعام. أريد أن أسألك عن أمر: أظن أن رُسمك الصليب وراء ظهور جماعة صبح له فائدة؟ ألن يتصدى هؤلاء لرصاصاتكم الروسية؟.. ألن يتفهَّمنا إلهكم؟ ألن يشفق علينا؟

- نعم يا عُشخان، أتأمل أن يفهمكم إلهنا ويرحمكم. دعوت إليه البارحة والليلة وهذا النهار.

- أدعُ إليه يا فيدور، أدعُ؟ إن كان إلهكم لن يفهمنا، إن كان لا يراعي إلهنا، فليس لنا أمل إلا فيه وهو الذي يتهل إليه الجميع ولا يتهل إلى أحد. هل تسمعين يا عروس، - تنادي عُشخان من خلال الفرجة بين مصراعي البابين - ماذا يقول فيدور؟ يقول إن إلههم، بعد إلهنا، سيسمع شكوانا ويستجيب لنا. كل يا فيدور، كل وادعُ إلى ربك. لا أظن أن في إقليم الأدبغة إنساناً

يستجيب لدعائه ويراعيه أكثر منك. واشمل بدعائك ابن دوداي الأصغر، ومن أجل قرخ، ومامي عجوز آل بجانه، ومامسر جبريل، من أجل الجميع، الجميع، جميع من خرج من قريتنا. نعم، ومن أجل والد عروسنا، الرجل الزعيم المرموق في الأبراز حاتري. ومن أجل كل أقاربنا. لا تميّز بين إلهكم وإلهنا، لا بد أن نسمعنا أحدهم.

- نعم، نعم يا عُشخان، - رسم فيدور الصليب بعدما تناول طعامه، وقال الحمد لله. - لم يبق لنا أمل اليوم إلا إلهنا وإلهكم.

- هل تسمعين يا عروس، - مرة أخرى نادى عُشخان من الغرفة الأخرى - ما يقول فيدور؟ وأنت أيضاً ادعي إلى الله يا عروس.

مضت ثلاثة أيام ثقيلة دون أخبار، على آل بزاده، وعلى أهل القرية.

لم يكن فيدور يكفّ عن الدعاء بقلبه إن نام أو استيقظ، أو اشتغل أو استراح. ورغم أن ربيع الأديغة كان يزداد جمالاً فإنه لم يعد يراه، ونسي أن الطبيعة جميلة في مكان آخر، فإن صوت المأساة التي حملها صباح اليوم الخامس فيما هو بين الأمل واليأس على الباب الخارجي أربع فيدور.

وبعدما انقضت ساعة أو ساعتان على الحادث، عند الظهيرة، حين ظهر من منعطف آل بزاد الجثمان المغطى بكساء أسود يتبعه فرسان ومشاة، انقطعت أنفاس فيدور مخمناً أيكون جثمان صباح أم جاقز؟..

XXIV

اليوم موعد توزيع ملابس صبح.

اجتمع أقرباء آل بزاد وجيرانهم، وأتراب صبح، وأصدقاء جاقز، ومن جاؤوا من القرى الأخرى، على مائدة عزاء آل بزاد من أجل أن يدعوا مرة أخرى لمن رحل عن الدنيا، ويجددوا ذكره، ويؤبّوه بكلمات مؤثرة.

الجميع، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، الكبار سنّاً والصغار، متفرون في

مجموعات. وهكذا تفعل النساء اللواتي لا يساهمن في إعداد المائدة. يقفن في أرض الدار كالرجال: الأكابر سنّاً في البيت، والأصاغر متجمعات مقابل الرجال على طرف المسطبة.

شخصان يبدوان من بين الرجال متأثرين حتى غابت عنهما ملامح الحياة: جاقز وفيدور. وليس دوداي أيضاً بمنجاة من التأثر بمصرع ابن أخته، وهو الذي سجّاه ونقله من أرض المعركة، ولكنه بالقياس إلى الأولّين محافظ على شيء من رونقه. بل يُخيل إليك أنه هكذا. لا أحد غير دوداي يعرف طريقة موت صبح، ولا كلماته الأخيرة. أوّل من رأى صبح وقد انغرز في صدره الرمح الروسي هو دوداي. ومن قتل قاتِل ابن أخته هو دوداي. وما قاله صبح الذي كان يسلم الروح كلمات معدودة: "لا يؤاخذني والدي ووالدتي، أنا راضٍ عنهما... وكذلك قُتّاس... إن رزق آل بزاد بطفل فسّمّوه باسم عمي الأصغر أيوب. هذا ما حدث معي يا فيدور، لا أهتمك..."

كرر دوداي أكثر من مرة كلمات صبح الأخيرة، في موكب الجنازة وبعدها. وانتشرت في القرية، ووصلت إلى غيرها. ولكن دوداي أخفى كلمة منها. حذف من الكلمات الموجهة إلى فيدور كلمة "لا أهتمك"، وبقية الكلمات "هذا هو يا فيدور ما جرى لي..." فهمها كلٌّ مفسراً الذنب كما يريد. وبعدها ظهرت في القرية آراء من قبيل "الكافر يقيم مع آل بزاد يطعمونه ويدللونه، الله كرّهم".

لا حدود لما اعتمل في قلب فيدور من أحزان، وما دار في الرأس من أفكار، منذ أن تبين أن الجثمان المغطى بكساء أسود الذي ظهر على شارع آل بزاد هو جثمان صبح وحتى هذا اليوم السابع على الجنازة. كان عالم الأديغة — الروس انتهى بهذا الحدث عند أناكسيفيتش فيدور.

في هذه الدقيقة، حين سمع صراخ الرجال والنسوة فحسب، فهم فيدور أنه لو

ضحى بحياته من أجل الأديغة، وأنه لو قابله الأديغة بالمثل، فهو ليس من قومهم، وأنه عدوهم، وأنه لا يجوز أن يبقى بينهم، يوماً بل ساعة واحدة، وأن عليه أن ينجو بجلده حالياً... ولكن، لم يكن هذا الهم الأول لفيدور ساعة أخرج الجثمان من البيت. كان بكى متمسكاً بقائمتي الباب إلى أن انتزعه قرح من بينهما. وكان قد خطر له مرات كثيرة أن يهرب، حين بقي وحيداً بين مجموعات الرجال الناقمين عليه، وبقي غريباً في الدار تزداد غربته شيئاً فشيئاً لولا أن مآتم صبح ومأساته كانتا تلجمانه. وكان بين ما يمنعه من الهرب احترامه لتغانه قرح، وحرص الأخير عليه، ونظرات غيره - ليس الناس كلهم متشابهين - اللطيفة، وتألمهم لحاله. وإذا كانت عائشة تقف في صف النساء فقد كان يحس بحرصها وقلقها عليه...

وبجانه مامي؟ العجوز مامي هو أول من أودع قلبه الطمأنينة المتفائلة الأولى مقابل أفكار فيدور المتضاربة وقلقه، ومقابل من يثيرها، ومقابل نظرات بعض الرجال الذين لا يُكَنّون له الود. حين قال لهم: "هذا البائس لا ذنب له، لا تُفرغوا عليه غضبكم واحتقاركم، ولا تؤاخذوه!" حُيِّل إلى فيدور أنه اطمأن رغم نظرات العداء الموجهة نحوه...

وكان هذا في الدقيقة الأولى، الساعة الأولى، اليوم الأول من مأساته. واليوم، رغم أن الأفكار المتصارعة تهيمن على فيدور، يُحَيِّل إليه أن الحاضرين توزيع ملابس صبح ينظرون إليه نظرة أخرى، على مبدأ أن الزمن يداوي كل شيء.

يقول فيدور: صحيح أن الأيام السبعة ليست وقتاً طويلاً ولكنها تزرع في القلب ما يهدّته ويلطّفه. ثم إنه بعد أن يُخْرِج الجثمان من البيت ويورأى الثرى تبدأ الطمأنينة تلامس قلوب أصحاب المآتم ومن تحمّلوا معهم المصاب... ولكن جافز المسكين الذي أرى حاله لا يمكن أن يشمل هذا المبدأ البتّة... يا

حسرتي يا جاقز، جاقز! أيُّ مصيبة حلّت بنا ونحن نخاف أن ينتزع كلُّ منا ما في قلبه نحو الآخر، ونلعب معاً لعبة " الطميمة " ؛ أيُّ ولد عزيز فقدناه؟! لو لم يكن إلا ما يعتمل في قلب المسكينة عُشخان!.. لن تغفروا لي أبداً ما حدث ولو لم يكن لي ذنبٌ فيه! أفهم ولكن ماذا بيدي؟ الله حمّلي، ولن ألومكم على هذا... نعم، نعم، لا نقاش في هذا الموضوع. لن أنجو من جاقز ومن دوداي عقاباً على ما حدث لنا!.. العهدُ عهدٌ، وما قلته في حضرة الله قلته وانتهى... لن يحمّلي مصيبة ومشقة أكبر من هذه، الأفضل أن أبتعد من هنا... انظر كيف ينظر إليّ تسي حاتري من طرف عينه... ودوداي لا يُطيعني، كأنه يريد قتلي.

تسي حاتري الذي قُتل صهره يبرز من بين من يقف بينهم، ليس بقوامه المتين فحسب بل بنفوذه المتناسب مع زعامته للأبزاخ. وهو يكمم ما يغتلي في قلبه ولو كانت الأسئلة التي توجّه إليه في مسألة الأديغة كثيرة، وأجوبته ليست قليلة. يتساءل حاتري: ماذا ستتحمل الأرملة الحامل التي لا تعدو الحادية والعشرين من عمرها، وكيف ستعيش عمرها، وكيف ستنسجم مع الأسرة التي غاب عنها زوجها. ثم إننا مهما اجترحنا من بطولات في وجه هذه الجيوش التي يحشدونها حولنا فلن نستطيع الانتصار عليها. والترك والإنجليز، والفرنسيون أيضاً، يخذعوننا فيدفعوننا إلى الحرب قائلين: حاربوا، احموا بلادكم، دون أن يقدموا لنا عوناً يُذكر. وأما النائب الداغستاني فروحه معلقة بالبلاد التي جاء منها. ولو فكرنا بمصالحتهم والانحناء لهم نكون حاربنا كل هذه السنين من أجل حريتنا عبثاً. وإن فعلنا هذا فماذا سيقول لنا الآلاف من شهدائنا؟.. لن يغفروا لنا جُبننا!.. ألن تظهر في العالم إذن دولة عظمى تسند الأديغة؟ ما أصعب أننا بقينا تحت قبة السماء ونحن قوم ضعاف، كانت جودة أرضنا سبباً في دمارنا، لا راحة لنا ولو مقدار شهقة واحدة إلا من خلال رجولتنا! إن هجمت علينا جيوش

القيصر لا نستطيع دفعها فماذا سيكون مصير ابنتي؟.. سيكون مصيرها مصير القرية... ولكن لاحقاً...

- لا تؤاخذني يا حاتري، يا من ندعو الله أن يتقدمنا طويلاً، أسألك لأني في ضيق، - قال بجانه مامي بعد أن تناول الرجال طعامهم ودعوا إلى الله - ما أملنا أمام من اقتحموا أرضنا؟.. أعرف أن سؤالي سخيّف ولكن حين ينوء القلب بحمله يجبرك على أن تقول الكثير... أظن أن رأي زانه سفرني الداعي إلى مصالحة روسيا أقرب إلى الصواب...

- وما تقوله يا كبير ليس غائباً عن أذهاننا - يجب تسي - حين نقول لروسيا: اسحبي جيوشك من إقليم الأديغة ولتتصالح تردّ علينا "سلموا أنفسكم، الأرض لنا، وتعيشون بيننا" لا يترك لنا فرجة ترى منها العين شيئاً، ولا تسمح لنا بمناقشتها.

- على ما تقول هناك إكراه في الموضوع... - قال بجانه مامي، وسعل سعلة خفيفة كأنه غير قادر على إكمال ما بدأه.

- صحيح يا كبير، هذا ما يمنعنا أن نقول ما نريد.

- إذن تعرف مثل هذه الدولة العظمى روسيا - مرة أخرى سعل مامي على غير عادته، وماطل في الاستراحة، ومسّ بإصبعيه الرقيقتين طرفي شاربيه - كيف تتصرف نحو قوم غير كثير العدد مثلنا. - وأضاف بسرعة: - نحن لا نعرف ما تقولون أنتم، وما نعرفه نحن ها هو: فيدور بن أناكسي استقرّ بيننا وإن لم يكن من قومنا...

الكلمات التي وصلت إلى فيدور على غير انتظار سرّعت نبض قلبه، وآلمته، وهيّجته وإن كانت منحتة بصيص أمل.

تبادل المجالسون النظرات إثر الكلام الذي قاله بجانه مامي. وكان بينهم من تبادلوا الإشارات بالركب تحت المائدة، ومن تبادلوا نظرات صامتة معبرة. وبينهم

من أعجبه كلام الكبير، ومن لم يعجبه، ومن أثاره، ومن حمله أن يخفض رأسه. وكان الجميع ينتظرون جواب تسي حاتري ولو أن كلاً مال إلى الجانب الذي يفضله. ولكن السؤال الذي تواطؤوا على توجيهه إلى الزعيم الأبراهيم لم يحمله على الصمت. فأجاب كما يفعل أحياناً دون عناد، محترماً التقدم في العمر:

- ما تأتي على ذكره يا كبير أمرٌ آخر. فيدور يعيش معنا مُكرهاً.
- أليس هذا ما أقوله أيضاً - لم يقل بجانه مامي الآن ما يريد بالضبط..-
ونحن كنا سنعايشهم مكرهين، ولكن لو صالحناهم لحافظنا على أولادنا وعلى أنفسنا وعلى القوم كلهم.
استعجل قائمت أفندي:

- دعونا ننتهي من الموضوع. ليحمنّا - نحن الأديغة القلائل - الله الرحمن الرحيم الذي يتضرع إليه الناس ولا يتضرع هو إلى أحد. وما يحملنا إياه حملنا. ولندع لمن عاد إليه، صبح، أن يكون مثواه الجنة. ادعوا إليه وردّوا معي. - حين رفع الأفندي يديه إلى السماء قلده الجميع دون استثناء. وبعد أن تلوّ الدعاء، أضاف قائمت: - ليجعل الله الطعام الذي تناوله المشاركون في العزاء طعام الجنة. وليجعل هذه الفاجعة خاتمة الأحزان لآل بزاد ولكل الأديغة! وليجمعنا الله كثيراً في مناسبات غير المصائب.

كان فيدور في أرض الدار مشغولاً بأمور المأتم. وكلما أتيح له أن يتوقف في ذهابه أو إياه أنصت إلى كلام الرجال بقدر ما يستطيع، يحفظ في قلبه ما يُقال فيه خيراً أم شراً. ولم يُفوّت خاتمة النقاش الذي دار بين الزعيم الأبراهيم تسي حاتري وعميد زاور حابله بجانه مامي. وفهم استعجال قائمت أفندي على ما لم يعجبه من نقاش الرجلين. وقد جرح هؤلاء مرة ثانية قلب فيدور المجروح.

لم يكن قد بقي في دار آل بزاز إلا القليل من الناس كالعادة بعد ظهيرة اليوم السابع، يوم توزيع الملابس. كان مضى وقت طويل على توزيع لحم الماشية مع الدخن الذي تُصنع منه الباستا. وغسلت النساء الشابات الأواني بقيادة عائشة. وزُفعت من أرض الدار الموائد المستطيلة التي نصبوها من أجل الضيوف. والأقارب يستعدون للانصراف. ونساء الجيران ينصرفن مثني وثلاث...

حان موعد انصراف جماعة تسي حاتري. ولكن أليسوا أقرباءه، ألا يترك فيهم ابنته، لا يمكن أن يسبق الأغراب في الرحيل، فيؤخر نفسه عمداً. وهل سيبقى دون أخبار والدنيا ملأى بها. وإن كنت تريد الحديث فالموضوعات كثيرة. والماهر في طرح هذه الأخبار هو بجانه مامي ولكنه انصرف بعدما صافح تسي حاتري مودعاً بمظاهر الاحترام الزائد. وقامت أفندي بقي إكراماً لتسي حاتري وإلا كان اتخذ طريقه منذ زمن.

تحت شجرة الإحصاص الكبيرة في طرف الدار يجلس حاتري وقامت وقرخ ودوداي وجاقر. جاقر أفنته المصيبة ونحف جسمه حتى إن منظره يربك. وغارت وجنتاه، ولونه أصفر كأن لم يبق في جسده نقطة دم. ومن المحجرين المسودّين تكاد تظهر عياناً منطفئتان لا روح فيهما. وانحنت رقبته المتينة المنتصبة. واحدودب الظهر. تتقاذفه أحزان المأساة، ويتنهد ناسياً أنه ليس وحيداً. ويهز الرأس.

- ربما كان الله إذن قد قرر هذا، - قال قامت أفندي، - كن رابط الجأش يا جاقر، ولا تُفني نفسك، لست وحدك، كل إقليم الأديغة في هذه المأساة. تنهد جاقر عميقاً على نحو يقطع نياط القلب، ولم يتكلم.

- دون أن يكون لنا ذنب، - يضيف قامت إلى كلامه، جاءنا الغزاة بالمصيبة. لست وحدك يا جاقر، لست وحدك.

لم يُطق جاقز صبراً فانفجر:

- ولكن لماذا كرهني الله يا قائمت؟ - استعداد جاقز وعيه بسرعة وإن انكسر صوته: - سامحوني... يا حسرتي، لحق ابني بأخويّ الصغيرين... أياكون الله لا يسامحني على وجود هذا الكافر في داري؟! - لمعت عينا جاقز المنطفئتان، وارتفع طرفا كتفيه، واحمر قفا عنقه حتى تورّم.

- أين كان فيدور حين قُتل أخواك؟ لم يكن في دارك، - حين قال قرخ هذا، وافقه جاقز وقد انطفأ غضبه:

- وهذا صحيح... - ولكنه أضاف بسرعة: - ولماذا إذن استرجع الله مني ابني الوحيد؟

أجاب قرخ حين امتنع الحاضرون عن الإجابة:

- وهل كانت دار بجانه مامي داراً لإيواء الكفار؟ قُتل ابنه في الحرب. - أين هو هذا الذي تأتون على ذكره؟ - سأل حاتري لينهي النقاش. - لم يظهر طوال النهار...

- كان الكافر قبل قليل أماناً يرتب المقاعد، - قال دوداي وجفوته نحو المذكور واضحة من صوته.

- رأيْتُ رجلاً أشقر عليه كساءٌ أسود ؛ أهذا هو؟ - تظاهر تسي بأنه لا يعرفه. - والله ما شككت فيه البتة لو لم تخبرني... - أعرج الرجل اليسرى قليلاً، أليس كذلك؟

- نعم، نعم. - شهد دوداي، وتمتم: هذا القدر...

- هل أكل هذا البائس يا تُرى؟ - سأل قائمت أفندي. - في مثل هذا الأمر لا اعتبار للدين والعرق، يجب إطعامه كائناً من كان، لا تدعوننا نذنب بحقه. تنهد جاقز ولم يُعقب.

- أكل، نعم أكل. - قرخ راضٍ عما سمع، - كان مع أترابه على المائدة

الأخرى.

- والله يا قايمت لا أعرف، - صرخ جاقز ثانية يمزقه ما في قلبه، - كيف ستعيش أنا وهذا الكافر في هذه الدار بعدما حدث لنا...

- استقام قرخ لِمَا سمع:

- ألا تعرف ماذا تفعل به؟ سأل دوداي.

- وكيف لا أعرف؟.. - لمعت عينا جاقز.

- بعه لقومه. - اقترح تسي.

- لا يشترونه.

- خذه مرة أخرى!

- أنا أعرف ما سأفعل به... - مرة أخرى تنهد جاقز.

انتفض رأسا قايمت وقرخ من الكلام الدائر، وانكمش فيدور على نفسه كأنه يتلقى ضربة سيف. خيل إليه أنه فقد الأمل نهائياً عند هذه الكلمات فقرّر أن ينجو بجلده مع أول فرصة مهما كانت ضئيلة.

وفي اللحظة نفسها تجمعت على المسطبة النسوة اللواتي يرافقن تسي حاتري، فانقطع النقاش بين الرجال، ونهض الزعيم الأبراهيمي مخفياً ارتياحه لسير الأمور على هذا النحو، وأمسكوا لقايمت أفندي لجام حصانه فركب ولو أن بيته في منتصف القرية. وكلفوا دوداي بمرافقته مودّعين إياه بإشارات الاحترام.

قال جاقز حين بقي هو وقرخ وحدهما:

- هذا هو يا قرخ ما جرى لنا... ما الفائدة مما تبقى من حياتي أنا؟

- تحلّ بالصبر والقوة يا جاقز! وخفّف عن المسكينة عُشخان أيضاً. ولا تدفع بكتنتك الشابة إلى اليأس. مرة أخرى أقول لك: لم يحدث لك ما لم يحدث لغيرك. أفهم ما تريد أن تقول. ونحن لا نعرف ما ينتظرنا غداً. وابني مراد صحيح أن الرصاصة عميت عنه ولكنهم جاؤوني به وعلى يده ضربة سيف...

ما يدفعني إلى أن أقول هذا هو أن ما قلته بشأن فيدور: "أعرف ما سأفعل به" لم يعجبني.

حين رأيا فيدور يقترب منهم مطرق الرأس وهو يجتاز أرض الدار توقفا عن الحديث. جلس فيدور أقرب إلى قرخ، وارتمى على صدره كما فعل يوم جاؤوا بالجثمان، وعلا بكأؤه:

- هذه يا قرخ المصيبة العظمى التي جرت لنا... - ييكي ممسكاً بصدغيه والدموع تنهمر، وينتحب.- من أين آتي بـ "صبحنا" بأخي الصالح؟ أي يد ظالمه، أي قلب قاسٍ قضى على يديه!..

بعد ما بكى فيدور مدة وهو يهز رأسه وينتحب قال جاقز الذي لم تبق عنده دموع ييكي بما بطريقة لا تعرف منها إن كان عن حقد أم عن براءة:

- كفى، أَسَكْتُ! - ليس في الحرب ظالم وشفيق... ها قد بدأ الليل يجلّ، تابع أمور المواشي!.. - تابع جاقز بعين قاسية فيدور المنصرف يمسح دموعه. وسأل قرخ: - هل تصدّق بكاء هذا الكافر!..

- نعم، أصدّق يا جاقز، اتّق الله، ولا تذنّب بحق الرجل! - لا أصدّق.

- ألم تر الرجل ييكي من أعماق قلبه؟

- هؤلاء عِرْقُ كلاب! - صرخ جاقز بقلب ملتهب غاضب. - خربتُم بيتي!.. لا أستطيع أن أعيش إن لم أزهق روحه أو روح أحد أبناء قومه!..

لم يرد قرخ على الرجل الغاضب مع أن ما سمعه ألمه كأن أحداً ينهش لحمه. وغيّر الموضوع ليُعيد جاقز إلى وعيه. وكظم نفسه بعض الوقت محاولاً تهدئة صاحبه مع أنه لم يكن يريد أن يجلس في حضرة المنكوب أكثر مما جلس. وحين نهض لم يستطع إلا أن يصارحه بما في قلبه نحو فيدور:

- أفهم يا جاقز ما يدور في خلدك، لا شيء لا تردعك المصيبة الكبيرة عن

فعله. ستملاً قلبك بالكثير من المشاعر سواء كانت خيراً أم شراً. ما تحمّلتَه أنت في مأساة أخويك ثم ابنك قليلون من يتحملونه. ولكن ما يحملني على قول ما أقول هو كلامك "أعرف ما سأفعل بفيكتور". لن أغفر لأيّ شخص يؤذي الرجل الذي لا يعرف غيرَ ربه إن كنتَ أنت أم غيرك. ولا القرية تقبل.

لم يفهم جاقز في البداية ما سمع، واحتبس لسانه، ثم سأل:

- ما الذي جرى يا قرخ؛ ألا تثق بي؟..

- لا جعلني الله أشكّ فيك! غير أنني لا أتكلّم في موضوع لا أساس له، - جزم قرخ، ثم سكت قليلاً وأضاف بصوت ألطف: - ليجعل الله صبح آخر المآسي لكم يا آل بزاد! كان شاباً ممتازاً كان ذا شفقة، وكان يحب فيكتور المسكين كما لو كان أخاه الأكبر. وما قاله الله لا يتجاوزه إنسان ولن يتجاوزه. لئنه الله الأحَد قضية كنتكم على خير، وليوقف أمامكم صُبح صبيّاً صغيراً محل والده كما دعا الناس لكم! ليجمعنا الله على الخير!

- حيّاك الله يا قرخ، - ارتجف صوت جاقز ثانية وهو يتقطع.

XXV

كما عدّ أناكسيفيتش فيكتور تصرّف بزاد في إحدى المرات قبل تسع سنين، حين حمّله على حارك الحصان من دار آل بزاد، نوعاً من التغريب، رأى كل ما رآه اليوم أشد غربة: الإسطبلات التي بناها فيها، وخزان الحبوب الخشبي، وجناح المواشي، والبوابة الكبيرة، والباب الصغير، والتفاحة التي زرعتها على زاوية البيت، وأشجار الإجاص والكرز والجوز، وسور البستان الذي لم يكتمل. وحُيِّل إليه أن قبة السماء الزرقاء لم تعد تُظلّه، والقمم البيضاء القرية البعيدة، وغابة المرتفع المتنوعة الألوان المناسبة أمامه، ومغذنة القرية الصاعدة في السماء، لم تعد تظهر لعينه. وفيكتور بلا قلب ولا أمل يرتعب حين يتحرك أمامه أو خلفه شيء خارج أفكاره الجوفاء.

لم يأت يوم على فيدور فقد فيه كل أمل كهذا اليوم، يوم وزعوا ملابس صبح. الآنّ الناس تفرقوا وبقي هو في الدار دون عمل يشغله أم لأنه فقد إلى غير رجعة من كان أمله وسنده الوحيدين أم لأن طريق حريته الوحيد انقطع فجأة؟ السؤال وما يدور في الذهن من أمور أخرى واحد: ظلمة العزلة التي تنتظر فيدور. وفي زاور حابله عائشة وبجانه مامي وقرخ وعند الضرورة قايمت أفندي، وغيرهم من أصحاب القلوب الرقيقة. ولكنه لا يثق بهذين الرجلين الضخمين المديرين ظهريهما يتهامسان: جافر ودوداي، كما يثق بالأولين.

لست بعيداً عن فهم ما يعتمل في قلبي هذين، يقول فيدور، لا تتعلق مصيبتكما بي فحسب، بل أنا من الجهة التي تأتي منها. أنا واحد من تلك الجهة بدني ولغتي وطباعي وعاداتي... ولكن إن سألتكموني وصدّقتكموني فلن أدعكم تفكرون هكذا: أنا في صدّقكم قلباً وروحاً وعدالة. - كيف أفهمكم هذا! لو لا ما تركته في بلادي: أسرتي التي تنتظرني، لو لم تكن كلافديه الحبيبة تنتظرني، لو لم يكن قلبي يحنّ إلى ابنتي، المتزوجة منهما ومن تنتظر الزواج، وحفيدي فيدور الصغير. ولولا أن قريتي الجميلة "نيكولينو" التي تقيم وسط الغابة، وساقيتي الصغيرة "ونجي"، وأراضي الفلاحة، وأراضي الحشّ، والسماء الباهتة التي تُظِلُّ كل هذا، والليالي القمرية والشمس اللعوب، تنتصب دائماً أمام عيني... ولكني ما كنت أستطيع أن أستجيب للمهمة التي جاءني بها لاينسك والتي يمكن أن يقوى عليها جسدي ولا يقوى... يا رب، يا إلهي اغفر لي إن كانت خواطري آثمة لأن المستجير ليس هناك ما لا يقوله وما لا يفعله. وانزع الشرّ من قلب جافر الذي هدّدني وسط حشد الرجال قائلاً: "أنا أعرف ما أفعل به" أيّ سرّ بين هذين الرجلين في يوم الحزن الذي يرقق القلوب؟ إن كنت غريباً إليكم، إلى دوداي، وإلى غيره فرضاً، فلسْتُ أعدّ نفسي غريباً عن صبح، ولا أحد بين الطرفين يحملني على أن أعده كذلك!... حتى لو لم يكن صبح قريبي بالدم كما

هو قريبكم فقد صار جزءاً من جسدي أتا لم كما تتألمون. أتوسل إليك يا رب أن تحرف قاتل صبح عن سراطك الذي بثخن الشعرة فُتسقطه في جهنمك... غلبت فيدور دموغه، وبدأ ينصت باهتمام أكبر إلى الكلمات التي يحملها النسيم الخفيف من جهة جاقز وإن لم يفهمها تماماً.

-... والله لا أعرف يا دوداي، - تنهد جاقز مرة أخرى، وهز رأسه، - لم يُخطئ فيدور في ما يذكّرانه به، - كيف سأبقي على صنف الكلاب هذا في داري... - ليس هناك ما لا تقبل به وتعتاد عليه يا جاقز، لا تستعجل عليه، - قال دوداي بعد قليل، تذكر ما كان قال له صبح وهو يسلم الروح بخصوص فيدور. - أفهم، ولكن...

- لا يا دوداي، لا!! - صرخ جاقز غير متحمل ما يقال له، ثم أتبع بصوت منكسر عن حنجرة ممرّقة: - لن أستطيع أن أحيأ إلا أن أزهق روح هذا أو روح أحد أبناء قومه...

- يا جاقز اضغط على جرحك. لم يسترح صبح المسكين بعد في قبره. لم يمض إلا سبعة أيام على تسليمه روحه إلى بارئها... ولا أعرف إن كانت أختي البائسة ستتحمل، لا تزال طريحة الفراش... والكنة تعرف حالها، وهذه حرام، ستدخل بين عشية وضحاها في المخاض.

- وأنا، - نهض جاقز لا يطيق قعوداً - من سيرحمي أنا؟ - لطم فخذه ثم هوى على مقعده.

ابتعد فيدور بهدوء عن مجلسه، - ودخل جناح المواشي مختفياً وراء مخزن الحبوب، وبدأ يجمع بقايا الحشيش التي تركتها المواشي، ولم يكن ليسمع أقوال دوداي وجاقز حتى لو أنصت. ثم ما حاجته إلى أن يسمع الحديث جالباً الألم لقلبه!؟

نظر دوداي إلى صهره الذي ترك جسده على راحته فاقداً السيطرة على نفسه.

وتألم قلبه لمنظر الرجل الغاضب المنهار. ثم قال خائفاً من أن يرتكب الصهر حماقة ما سيكون هو المسؤول أمام الله:

- أنا أذنبُ بحق صبح المسكين يا جاقز...

- ماذا؟ - استقام ظهرُ جاقز.

- نعم يا جاقز، نعم - خفض دوداي رأسه، - لا أعرف لماذا فعلتُ هذا.

- كتمتُ كلاماً قاله صبح بشأن فيدور.

- ولماذا؟.. وأيّ كلام تكتمه؟

- " هذا يا فيدور ما حدث لنا، أنا راضٍ عنك... " - هزّ دوداي رأسه، وتنهد وقد ارتسمت الفاجعة أمام عينيه، - هذه آخر كلمات صبح.

- نعم، هل قال " أنا راضٍ عنك "؟

- لم أضِف كلمة ولم أنقص.

- لماذا إذن أخفيت آخر كلماته؟

- وما السبب وراء كلماتك أنت يا جاقز؟

- وماذا تريدني أن أقول لمن قضى ابني وأخوأي على أيديهم؟!

- وما فعلتُه يا جاقز سببه أنه قضى على يد الكفار...

تغير لون جاقز، وتسرب الدم القليل الذي في وجنتيه فامتقع لونه. وبعدما جلس مدة يهز رأسه قال بوجهٍ أقرب إلى الارتياح:

- إن كان في ما كتمته شيءٌ من الصدق فكلانا نذنب بحق صبح وفيدور.

- صحيح يا جاقز، صحيح. - استعجل دوداي، - الله يسمعنا. - لماذا أقول

غير الحق، هذه هي - انكسر صوته، ثم صحا، - آخر كلمات صبح.

- هذا أمر آخر... الله لن يقبل أن أعادي من كان صبح الراحل يودّه...

ولكن يا دوداي أريد أن أقول لك، لا حاجة لأن تصبح هذه مسألة القرية. لا

يمكن أن نُضمّر الخير لقتلتنا. والله لن يقبل منا. ومن يسمع الفكرة ينفر

منها... جلس جاقز بعض الوقت تُثير الأفكار المتضاربة قلبه وتهدئها، ثم سأل:

- أين فيدور يا تُرى؟

- ذاك هو يعمل شيئاً ما في جناح المواشي.

- استدعه، تعال يا فيدور لحظة!

نفض دوداي غير متحمل رؤية فيدور قادماً:

- أنا سأدخل إلى الغرفة، سأجلس قليلاً مع النساء.

كان جاقز مرتاحاً لانصراف أخي امرأته، ولكنه أخفى ارتياحه:

- هل ناديتني يا جاقز؟ - سأل فيدور كعادته.

- نعم، اجلس هنا، ليس بعيداً عني. أريد أن أبلغك آخر كلمات قالها

الولد بخصوصك.

- أعرفها يا جاقز.

- ومن أوصلها إليك؟

- سمعتها في المأتم.

- هل قالها لك دوداي؟

- سمعت أنها من طرف دوداي، فلما سألتها أكّدها.

- لا تعتب على الولد يا فيدور!

- إذا لم أعتب على صبح في حياته فلماذا أعتب عليه في مماته؟! - قال فيدور

بهدوء، ثم نظر إلى جليسه نظرة تساؤل.

- لم يقل لك دوداي الحقيقة.

- وما الذي يمكن أن يكون أصدق مما قال صبح باسمي يا جاقز؟

- نعم، هناك ما هو أصدق، كنتم عنك دوداي أن صبح فارق الحياة راضياً

عنك.

- من يكتم الحق فهو مذنب. لو عاش صبح أخي الصغير، ولو غير راضٍ

عني، لما فضّلتُ عليه شيئاً آخر، ولما حُجبت عنه شيئاً مما أستطيع.
نظر كلٌّ من جاقز وفيدور الجالسَين متقابلين في وجه الآخر وكأنه يراه للمرة الأولى. وجعلهما الخجل من العيب الذي بدا في عيونهما يُطرقان برأسيهما.
تنفس جاقز عميقاً وقال:

- ما العمل إذن؟ ربما كتب الله على كلينا ما حدث.

- لا يجري شيء في العالم دون علمه. - وافق فيدور.

الرجلان اللذان جمعتهما المصيبة تبادلا النظر ثانية، وكلٌّ في قلبه شيء. ومع أن كلاهما كان حريصاً ألا يزرع الشك في نفس الآخر فقد كان يبدأ مشاعره على نحو مختلف عن الآخر، ثم ينتهيان عند نقطة واحدة.

ليس جاقز من الناس الذين يتذكرون لكل إنسانيتهم، قال فيدور. هو يحمي ابنه ويحمي براءتي. وإذا كان لا يذمّ دوداي الذي لم ينقل إليه الخبر فهو يدينه من طريقة ذكره له. وما شأننا به أنا وجاقز وصبح؟ حدث ما حدث، ولا يتكلمون على من مات بالسوء. صحيح ما يُقال من أن المصيبة ترقق قلب الإنسان. ويبدو هذا من كلام جاقز وجلسته ونظراته. لماذا كان يصرخ قبل نصف ساعة إذن؟ ولماذا قفز من مقعده؟ يا ربّ كيف سنعيش معاً في دار واحدة بعد هذا الذي حدث؟ وبأي عيون ستواجهه؟ إن لم يتصف جاقز باللطف ولم تغلبه الرحمة؟ أنتظر حتى ينقذ بي ما هددني به أمام جمع الرجال؟

وجاقز من طرفه يقول: يا ربّ لماذا أنا جالس كأّن لم يحدث شيء في حضرة من قتل قومه أخويّ وابني الوحيد؟ أترجاه أن يسامحني لأنهم أشاعوا عنه ما لا يستحق وجعلوا الناس ينظرون إليك نظرة سوء؟ نحن ندين القيصر ونكره الجنرالات، ونحملهم المسؤولية. هذا صحيح، ولكن أليس هؤلاء من ينفذون النوايا الشريرة لهم، ويجلبون لنا المصيبة؟! أيّ رحمة يستحقها هؤلاء؟ ما يستحقه الذين يتظاهرون بأنهم مرغمون على محاربتنا ثم يهجمون علينا كالبحر

هو أن يُقتلوا كما تقتل الكلاب... ومع ذلك رحمهُ مَنْ داخلَني؟ كيف سأقضي مع هذا وقتي في دار واحدة وقد جرى ما جرى؟ الله لن يقبل مني والقرية أيضاً. ما يقوله الناس: " مصيبة آل بزد مصدرها الكافر الذي يحتفظون به في دارهم " صحيح. يا حسرتي أقول ما أقول من ضيق صدري ولكن ما علاقة هذا البائس بميتة صبح؟ كيف أمّدي يدي على من كان ابني يحبه كل هذا الحب؟! اغفر لي يا إلهي إن كان ما أقوله خطأً، وارحمي! أنا أعرف ما سأفعل بهذا ولكن لا أعرف رأيك أنت. دوداي جاهز تماماً متى أومأَتْ له برأسه بالموافقة. افهمني، وامنحي القوة ولا تدعني أخطئ! إن أمرتني أن أطلقه أطلقته، وإن طلبت مني قتله لم أتوان...

- إن لم تعد تحتاجني يا جاقز - يقول فيدور - سأخرج لملاقاة القطيع، حان موعد عودته.

- نعم؟ - سأل جاقز بعدما فهم على هواه.

- قلت لك سأستقبل القطيع إن لم تعد بحاجة إليّ.

- طبعاً ستستقبله، - قال جاقز، - وفيما يتابع فيدور المنصرف خرجت منه الكلمة التي لم يكن يريد أن يخرج: - لا تبعد! التفّت فيدور، ولم يعقب على كلام جاقز.

كانت شمس الربيع الكبيرة بدأت بالانحدار حامية كأنها ستحرق أعالي شجرات الإلجاص في دار عائشة. وحين بقي جاقز وحده في الدار بعدما انصرف دوداي دار أرجاءها لا يجد فيها ما يرتاح إليه، وكل ما يلوح أمام عينيه يذكره بصبح. وحين عجز عن البقاء فيها، ولحظة دخوله البيت، رأى شجرة الكرز التي برعمت حديثاً، والتي كان هو وابنه زرعاها قبل سنين، انتكأ جرح القلب من جديد. واتجه بقلبه إلى قبر صبح، وأنصت إلى الجهة التي يحتشد فيها الجيش القيصري. ونظر جهة غادر فيدور يغلبه الشك. ومع أنه لم يكن راغباً في

البقاء في البيت الذي فارقه ابنه الوحيد فقد أجبره وقع أقدام صبح وصوته اللذين لا يزالان في الدار على العودة إلى البيت الفارغ.

حين صدر صوت الباب أسرع الكنة فُتّاس على عادة الكنات في عدم الظهور أمام الأحماء فاخفتت. ووقف جاقز على رأس فراش عُشخان ولمس جبهتها من غير كلام، وأبعد شعرها عن وجهها. وابتعدت عن المرأة التي جفت مآقيها لا يستطيع البقاء عندها مزيداً من الوقت. وجلس بجانب الموقد الفارغ من النار. وتنفس عميقاً:

وبعدما غربت الشمس بدأ الظلام يخالط الغرفة. ولم تُطق عُشخان وحشة الصمت:

- لماذا لا تقول شيئاً يا جاقز؟

- وماذا أقول؟..- أجاب جاقز بعد صمت. ما حدث لنا فاجعة. وتنهّد مرة أخرى. ربما كان الله قدّر لنا هذا. ما حدث لنا مأساة ولكن علينا الصبر من أجل ولدنا، تحلّي بالصبر يا عُشخان... سأشعل المصباح...

- لا، لم تقبل عُشخان، - هذا يُريحني أكثر من النور... - يا كنة أشعلي أنت مصباح غرفتك. يكفيني أنا الضوء المنبعث من خلل الباب... ما أخبار "كافرنا"؟..

لم يتحمل جاقز السؤال فغضب:

- لماذا كلّكم مهمومون به؟!

- لم يكن فأل خير لنا، خرب بيتنا من ورائه.

- ولكن ماذا تنوين بحقه لاحقاً؟

- ليتني أعرف... أنطلقه كرمى للولد؟..

- ها! ارتفع جاقز من مجلسه لِمَا سمع.

- أكرّم خاطر صبح المرحوم لأنه كان يحبه...

- أتريدون أن أطلق من قُتل ابني على يد قومه بدلاً من أن أزهق روحه؟! كيف تستطيعون أن تقولوا هذا؟! - خرج جاقز من الغرفة غير قادرٍ على التحمل.
مرة أخرى هاجمت جاقزَ المأساة التي لَزمت الصمت في أرض الدار الخالية.
ووقت الصلاة الذي يبهث فيه النور يولي. وتنظر إليه السماء الصامتة يبضع
نجوم. ومصابيح القرية تنير في مجموعات هنا وهناك.

أين هذا الكافر يا ترى؟ داهم القلق الحامي رأس جاقز. وما أسرع ما ارتاحت
المواشي وهي تكاد تدخل الدار! من يعرف ماذا يخطر للكافر؟ أيكون استفاد
من مصيبتنا وهرب؟ ونافذة حظيرته معتمة، ومشد مخنف... إن فعل بي هذا...
أسرع جاقز فنزل من المسطبة ومشى بضع خطوات إلى باب الحظيرة المفتوح
على مصراعيه. ورأى في العتمة فيدور وهو يرسم الصليب ويبتهل إلى إلهه،
ونفض مشد الذي شكّ في أمر سكوته من صحن الموقد.

- أنت لا تُفوّت صلاتك إلى ربك، أليس كذلك؟
لم يقطع فيدور صلاته إلى أن انتهى منها، ثم أجاب بصوت لطيف مختلفٍ عن
نبرة السؤال:

- الأفضل أن نمثل أمام الله في أيام الفاجعة أكثر من غيرها يا جاقز.
وأشعل المصباح.

غيّر جاقز موضوع ما قيل له:

- هل سقيت المواشي؟

- بفضل الله قدّمت لها ما تحتاج من خدمات يا جاقز.

عصر الألم قلب جاقز: يريدون مني أن أطلق هذا الرجل سليماً معافى في حين
قضى ابني برماح جنود قومه! هذا مستحيل. من يمد يده إلى عينك مدّ يدك
إلى روحه!

- الآن حالاً!.. انصرف جاقز من باب الحظيرة وعاد سريعاً بالقيد الخشبي.

ورماه أمامه حتى إن مشدّ ارتعب من وقّعها: - هيا البسه، وهات المفتاح!

بعدما لبس فيدور القيد دون أن يعلّق بشيء، وأعاد المفتاح، سأل جاقز:

- ألم تعد تتق بي يا جاقز؟

- سأنام أكثر اطمئناناً متى رأيتك مقيداً. - رمى جاقز أسيره بنظرة جافية.

- إن كان هذا دواءك يا جاقز فلتصبح على خير... - لم يترجع فيدور عن موقفه رغم القيد.

وانصرف جاقز دون أن يسمح له قلبه المنفعل بسماع ما قيل له.

في ظهيرة اليوم التالي، أسرع صبي على حصان فتوقف على باب تغانه قرخ:

- أسرع يا قرخ ترجوك عائشة أن تأتي إلى بيت بزاز. يقتلون المسكين فيدور!..

لم ينتظر قرخ إسراج حصانه فركب حصان الصبي. ولم يفهم في البداية ما يحدث

في دار آل بزاز: جاقز جالس على طرف المسطبة حاسر الرأس، وصدر قميصه

مفتوح، ورأسه المخلوق حديثاً معصور بين راحتيه، وعائشة واقفة على رأسه

ويدها وراء ظهرها، ومعها بندقية. وغُشخان على النافذة لا تسمع حديثهما.

عبر تغانه قرخ مسرعاً من جهة البستان، ورجلان آخران جاءا من البرية

الفارغة. ووراء مسطبة البيت يقف فيدور والقيد على رجله.

- ماذا جرى لك؟! - قفز قرخ من الحصان، وأسرع إلى جاقز وعائشة.

- أستحلفك باسم الله يا قرخ أن تأخذ مني هذه البندقية، - تُقدّم عائشة

البندقية لقرخ، - لا أعرف ماذا أصاب جاقز... يقول إنه لا بد أن يُزهِق روح

المسكين فيدور... أصمّ أذنيه عن كل ما أقوله... هات يا جاقز مفتاح القيد!

- ابتعدي عني يا عائشة!.. - قال جاقز بصعوبة وهو يهز رأسه دون أن

يوليهم نظره.

- يا حلوتي! - أفهم قرخ عائشة بنظراته الودودة أنه راضٍ عنها، - شكراً لك.

هيا ادخلي الغرفة، إلى النساء، وطمئنيهن!

وصل بجانه مامي يلهث من إسرعه، وعاتب جاقز ملاحظاً التوتر في داره وإن كان غير مطلع تماماً على ما حدث:

- عيب يا جاقز أن تمد يدك على رجل مقيد.
- لم أمد يدي عليه يا مامي، - لا يزال جاقز جالساً يحتضن رأسه المطرق. -
- وإن ظننتني هكذا فسامحني... أكاد أنفجر!
- اصبر! - ينصحه الجار العجوز - لست أول من يُفجّع بعزير، ألسنت رجلاً؟ لا تفضح نفسك في القرية، ونحن لا نجعلنا مُضعة في أفواه الناس. وما هذه البندقية التي تحملها يا قرخ؟
- ليس فيها رصاص يا مامي.
- لا تُرني إياها ولو كانت فارغة، أبعدّها!
- تنهد جاقز على نحو يمزق جوفه، ثم توسّل:
- يا قرخ، أبعد عني هذا الكافر قبل ان أرتكب جريمة...

...

- لم يمض على ما حدث في دار بزاز إلا ثلاثة أيام.
- حين دنا جاقز من باب آل تغانه قابله مشدّ فقال له:
- وأنت هل انتقلت إلى هنا!
- تفضّل يا جاقز، تفضّل! - استقبله قرخ كأنّ لم يحدث شيء بينهما، -
- كيف أحوالك، ما أخبار ناحيتكم؟
- ناحيتنا في سلام بفضل الله... - استعجل جاقز بالإجابة كي يتحاشى الحديث في شأن أسرته: - وأنتم؟ كيف حالكم؟
- ونحن كما قلت بخير، تفضّل إلى البيت!
- والله ما جئت ناوياً أن أجلس عندك يا قرخ، ولكن لن أكنم ما جئت لأجله... البيت فارغ والدار كذلك، ولم أعد أطيقهما، يقتلني الضيق... أفكر

في ما حدث في ذلك اليوم فلا أعرف سبباً... لولا عائشة لارتكبت دون أن أشعر جريمة بحق فيدور...

- دون أن تشعر؟!

- ليس تماماً يا قرخ... ولكن القلب الهائج يُنسيك ما تفعل... كنت أيضاً عند بجانه مامي، وجئتُ إليك، ساجاني!

- وما شأننا نحن يا جاقز بالموضوع؟.. - قال قرخ، وأضاف بعد سكتة: - إن كنت تشعر أنت بخطئك...

- أين فيدور المسكين؟ - غيّر جاقز موضوع الحديث. - أودّ أن أراه، وأن أعيده إلى داري.

لم يستطع جاقز صبراً حين صمت قرخ:

- أراك لا تقول شيئاً يا قرخ!

- من سألت عنه ليس في البيت.

- وأين هو؟ - وضع من صوت جاقز عدم ارتياحه للجواب.

- فيدور ومراد ذهبا للاحتطاب.

- هكذا!.. أسيري على ما يبدو يجد ما يشغله... لتهناً به!

- وكيف أهنأ به؟

- يفلح لك الأرض، ويأتيك بالخطب...

- يقابلون من يحسن إلى الأرامل بالشكر، لا باللوم.

- عمل الخير للأرامل خير،... - تفحص جاقز أرض الدار، - ولكن والله

ليس ما في دارنا من الأعمال قليلاً... بلغ فيدور متى رجع، ولو في منتصف الليل، أن يعود إلى بيتي. ولا تؤاخذني يا قرخ على اتّخاذي لك رسولاً.

- ولماذا أؤاخذك يا جاقز إن قلت ما تريد؟.. أظن الأفضل لو قابلت فيدور بشخصك...

- ولماذا أقابله؟! هل نسي الدار التي خرج منها؟ وحين رأى مشد قال له بنبرة
الطف: - تعال يا مشد، أنت أيضاً ارجع إلى دارك. انظر كيف يتعد ضاماً
ذيله بين فخذيه!.. هل طعام كلاب قرخ ألدّ من طعام دار جاقز يا أهلك؟!
- ربما يا جاقز - قال قرخ وضحك. ووافقه جاقز مرغماً بصوت أجشّ.

...

في ذلك اليوم، وفي المساء تماماً، ما إن حلّ الظلام حتى قال قرخ لفيدور بهدوء:
- اجمع أشياءك كلها يا فيدور، ودعنا نرحل قبل أن يهيج علينا جاقز. لا
حاجة لتوديع الأسرة والمصافحات. ولا يجوز أن يعرف أحدٌ بوجهتنا.
قفز فيدور من مجلسه وقد فهم ما انتظره بقلبه طوال هذه السنوات، والذي تحمّياً
له على نحوٍ مفاجئ. وجمع في الكيس صورة الإله والبالا لا يكا وموسى الحلاقة
والمعلقة والسيخ، والرسالة التي أرسلتها له زوجته. وفي لحظة ربط الكيس أخرج
صورة الإله، ورسالة الزوجة، وأودعهما جيب قميصه بحرص شديد. ورسوم
الصليب ثلاث مرات وقال:

- أنا جاهز يا قرخ!

- إن كنت جاهزاً فاخرج من جهة البستان، وانتظري عند البلوطة التي على
مدخل الغابة!

دخل فيدور مسرعاً، يعرج حيناً، ويقفز أخرى إلى البستان. وبعدما ركض مدة
التفت. وحين وصل إلى شجرة الإحاص الكبيرة عند البئر توقف. استند إلى
الشجرة المثقلة بالثمار وتفحص الدار التي أقام فيها في الأيام الأخيرة، ودور
الجيران. ثم جعله همٌّ كان نسيه ينتفض برأسه فجأة - نظر إلى الناحية التي
يقيم فيها آل بزد. ونظر بأسى إلى حيث يرقد صبح. وانتصبت أمام عينيه
صور عائشة وعُشخان وجاقز. تنهد وقال: " لا ألومكم وأنتم لا تؤاخذوني ".
وبعدما رسم لنفسه الصليب صلى لكل من جاقز وصبح صلاة خفية، ناظراً

إلى جهة حيّ الأول وقبر الثاني.

خرج فيدور من البستان ملتفّاً حول السور ووصل إلى البلوطة التي دلّه عليها قرخ. ووقف قليلاً ملفوفاً بالقلق المصحوب بالشك. وداخله رعب بارد: أيمكن أن يكونوا ضلّلوا قرخ، أيمكن أن يخلف بوعده؟ انتهى أمري. لن تعود عُشخان وعائشة وغيرهما يثقون بي، ولو لم يقتلني جاقز، وسيتبدد أمني كله في هذه اللحظة. "يا رب، أنت من بيده كل شيء ساعدي وارحمي إن بقي لي عندك شيء من الشفقة، واحم قرخ من كل ما قد يؤذيه..." وفي هذه اللحظة رأى قرخ يقترب متخفياً حاثاً حصانه. تشوّف فيدور، وانتفض قلبه وفرح.

اجتاز قرخ وفيدور على الحصان في بضع ساعات طريق الغابة إلى قلعة "شَبَج".

...

ولحظة بدأ عمود الصبح ينصدع شُعب صوت النهر الضيق البعيد السريع بأمواجه الفرحة المتراقصة. وصلاً خلال نصف ساعة إلى جانب النهر. وظهرت على ضوء الفجر الباهت قلعة "شَبَج" الروسية على المرتفع الأجرد. وترجلا من الحصان.

- الضفة الأخرى يا فيدور - أشار قرخ بطرف السوط، - ضفة حريتك. هذا النهر نهر صاحب بلا خطر. لا تخش منه. إن عبرته ممشياً بداية النهر ما أمكن سهلاً عليك. وإن سئلت من قبل أبناء قومك فليس لك مساعد أو شريك من الروس أو الأديغة. أنت نجوت بنفسك.

- فهمت، - قال فيدور ولكنه حزن فجأة. لم يكن يريد مفارقة قرخ الذي كان كأخيه. ثم إنه لم يكن يريد الإساءة إلى جاقز: مهما كان فالمسكين دفع ثمناً غالباً. - ما يغتلي في قلب جاقز، والحجر الثقيل الذي على صدره، والضيق الذي يكابده، أنا مشفق عليه، مشفق جداً.

- صحيح ما قلته يا فيدور. كثيراً ما يتظاهر جاقز بأنه ظالم وجشع بل لا وسيلة للتفاهم معه، ولكنه في قلبه إنسان آخر.
- أعرف، وسأشتاق إلى عائشة وعُشخان... ومن سيصنع صافرات للأولاد؟ غمزه قرخ بشيء من الخبث:
- أنا، أنا سأصنعها لهم. تعلمت جيداً كيف أصنعها.
- تعانق الرجلان كما يفعل أخوان ولدتهما أم واحدة. وضماً وجنتيهما الدافئتين.
- وجاقز؟
- هذا المسكين لا تهتم به يا فيدور. سأعطيهِ جاموساً وسأريح باله...
- قال فيدور ثانية:
- حياك الله يا قرخ. لن أنسى طوال عمري ما فعلت لأجلي.
- رافقتك السلامة يا فيدور،- مع السلامة يا قرخ.
- النهر الصغير يثير ضجة عالية، ومن وراء المرتفع أطلّت الشمس.

أفبس الكتاب الثاني

I

صيف عام 1859 الحار...

نار الحشيش اليبس تثب إلى الأعلى ثم تهمد، وما يبقى بعدها هو الرماد الأسود الذي يخترن الحرارة. ثم تحرق النار الحشيش من هنا مرة ومن هناك أخرى فيرتفع الدخان. وحيثما هب الهواء خفيفاً تهب أصداء المأساة التي مرت مرتجفةً في الأعواد نصف المحترقة زرقاء. والرماد الأسود المتبقي بعد النار لا يمنحك راحة البال ؛ يقربك من الراحة ولكنه يحمل معه القلق من إمكان تجديد المأساة...

تقترب الحرب القفقاسية التي تجاوز عمرها الخمسين عاماً من نهايتها. الشيشان والداغستان استسلمتا. والإقليم الأديغي يجابه وحده الجيش الروسي في غرب القفقاس. وبعدها أُسر شامل في الداغستان ونُقل إلى روسيا صالح النائب مُجد أمين الذي أرسله إلى الأبخاخ ونُقل بدوره إلى الإمام الذي أخلص له طوال عمره. ولقي زانه سفرني زعيم الشابس وجه ربه. والناخوي، والشابسغ والويخ الذين تحتشد أمامهم جيوش روسية مدججة بالسلاح من جهة البحر الأسود، ومن يسار ضفة نهر بشزة صاروا في موقف حرج. والأبخاخ الذي صالحوا الروس ظاهراً هم في موقف لا يدعو للأمل. والجيش الذي يحتل أرضهم بحجج مختلفة يقتلع الغابة، ويفتح الطرق، ويبني القلاع. يقاومونهم، ويجادلونهم وفجأة تسيل الدماء، ويعود الصلح، ثم يشتبكون...

الأيام الأولى من شهر آب حارة بالقياس إلى الشهر الماضي مع أن الصيف يقترب من نهايته. ليس في السماء سحابة تائهة، ولا تهب نسمة تحرك أوراق الأشجار. والشمس التي تقترب من الظهيرة وهي تعض بلسانٍ من نارٍ تجبر

الدنيا على الاستسلام لضيق لا تعرف الخروج منه. ولا تحتاج الطبيعة إلى هذه الشمس فيقليم الشابسغ تحترق بنار الحرب. وإن نظرت من ضفة نهر أفسس ففي السهل وعلى الجبل الأيسر تتردد أصداء الرصاص والقذائف. - الناس الذين يطاردهم الموت يلتجئون إلى الغابة التي تحمي أرواحهم. وكل لابس قبعة ظل يحارب العدو ويتراجع حتى أوجد لكل أبناء أسرته وأقاربه مأوى في الغابة. وحين تنفرج فسحة ما من الأمل ينضم هو أيضاً إلى أسرته تحرقه الإهانة.

لم يدخر دُعجي جامبج جهداً هذه الأيام ليحمي أرضه وقريته. وأرواح أكثر أصحابه تنير ما حول أرض المعركة. حارب معهم غير عابئ بالمرفق الذي نَبَتْ من فوقه ضربه سيف. وحين شعر بأن وضعه ميؤوس منه التحق بأسرته الصغيرة في الغابة حاملاً بندقيته التي لم يبق فيها إلا طلقة واحدة.

كان دُعجي جامبج في الثلاثين حين تزوج. وبدلاً من أن ينقاد، كأبي لابس قبعة، للحب الجميل الذي ينمو في صدور الرجال اتجه إلى حيث يختبر الرجال رجولتهم ويحمون أنفسهم. وعلى جسده، بالإضافة إلى جرح مرفقه الخفيف، جرحان ثقيلان. وقبل أن يتزوج، وبعده، عاش في عمق مأساة الأديغة. ولم يجد الوقت للاستمتاع بفرحة الابنة التي رُزق بها قبل ثمانية أعوام.

قال جامبج وهو يجتاز الغابة الكثيفة: أين هما، "سُورْت" و"أفيس" يا ترى؟ أيمن أن تكونا وصلتا إلى زاور حابله؟ إن كانتا وجدتا ملجأ لدى خالتنا فسنفكر إلى وقتها في حلٍّ ما... أَلن يجلب لنا زانه قره باتر الذي يقال إنه ذهب يصالح الروس السلام؟ لن يدعوا أحداً من الشابسغ في أرضنا إن لم نُقيم فيها مثيلاً للسلام الذي أقامه الأبراخ. إن أنجز زانه قره باتر ما لم يُنجزه المرحوم

والده زانه سفري فيسينقذ إقليم الأديغة كله... وما يسمى "مجلس الأديغة"¹ الذي يسعى لتأليفه مطلب صحيح. وما الفائدة من أن يكون عندك زعماء بلا دولة؟ مضت سنوات كثيرة وزعماء الأديغة يتنازعون بينهم على لقب الأذكي والأحكم فيهم... كنا نتجاهل أقوال زانه سفري غير أن رأيه في مُجد أمين النائب تبيّنت صحته ؛ فبعدما استسلم للروس متذرعاً بأنه صالحهم بهم استغل هؤلاء الفرصة فبدأ جيشهم يحتل أرض الأبخاخ.

جلس جامبج على شجرة متداعية في طريقه. وأسند رأسه والبندقية في حضنه إلى غصن مكسور. ثبته أصداء تصايح الغربان أحياناً الغابة الغافية، ثم تستقر الغابة الهادئة على نحو يؤلم طبله الأذن. يفكر جامبج وهو يتأمل من خلال الجفون المرهقة والعرق الذي يسيل من الصدغين على اللحية والشاربين بلون الكستناء. قرية بج حابله التي أوت إليها سورث وأفبس، والتي أحرقتها الجيش الغازي أمس كانت القرية الثانية التي التجأت إليها أسرته وأحرقت خلال هذه السنة. وكانت القرية الثالثة التي حوّلها رماداً في السنوات السابقة هي نجقوه حابله. هنا ولد جامبج وسورث، وهنا تبادلا أول نظرات الحب. واحتفلا بعرسهما، وولدت فيها صغيرتهما أفبس، وشاركا في معاناة القرية الكبيرة.

مرة أخرى، كل يوم حين يتذكرها تترأى لجامبج النار التي أحرقتها... تتناثر أصوات استغاثة الناس الذين أفاقوا من نومهم الهادئ. والنار التي أضرمت في البيوت المسقوفة بالأغصان المضفورة يتناثر لهيبها وأصواتها المريعة. والكلاب تعوي وتصارع، والأبقار تحور. والقرية التي حاصرها كوخارينكو من كل الجهات لا يُسمح لأحد بالخروج منها: النساء يصرخن، والأطفال يبكون. والرجال

¹ ما يشبه حكومة وبرلماناً ألفه قبيل النكبة الكبرى الأبخاخ والشابسغ والويخ وفرغ من الأباطة، ولم يستطع الوقوف في وجه الغزو، وأُحرق بناؤه لاحقاً. يتردد ذكره كثيراً في رواية المطرودون للكاتب نفسه.

يجاهون جيش الأعداء. والمخرج الضيق الذي فتحوه للقرية يتم من خلاله إخراج الناجين من النار والرصاص فيختبئون في قلب الغابة. وكانت أسرة جامبج الصغيرة: زوجته وابنته الصغيرة، من بين الناجين...

ليعتبر من يقولون إنهم لم يَحْزَروا نار جهنم - يتنهد جامبج ثقيلاً - أنهم رأوها في تلك الليلة. ما أشد عذاب تلك الليلة! والأيام التالية، الأشهر، والسنوات، لم تكن أرحم إن لم تكن أفسى. والقرى الثلاث التي أحرقوها أمس كانت مأساتها بلا حدود... كيف سينجو الجنرال كوخارينكو القوزاقي منقذ هذه المجازر من عقابه حين يقف في حضرة الله القيوم... يا إلهي أعد هذه المأساة التي جاء بها إلى الأدبغة الذين أنت في قلوبهم بالخير والسلام، إليه هو شخصياً وإلى سائر الجنرالات!

انتفض رأس جامبج كأن صوتاً صدر من يساره، فأنصت. ولكن غراباً نقض سكون الغابة بنعيقه ولم يكن في الأنحاء صوت إنسان. وحين أغمض جفونه وعاد إلى أفكاره الثقيلة انتفض جامبج من جديد للصوت الذي وصل إليه.

- لا تخافي يا صغيرتي، هذا صوت غرابٍ فحسب... ها أنا سأهزّ الشجرة حالاً لتساقط منها ثمار الإجاص الناضجة... ابتعدي يا صغيرتي كي لا تقع على رأسك!

قفز جامبج من مكانه حين تعرّف صوت "سُورْت". رأى زوجته على قمة شجرة غير عالية. فدوّى صوته في الغابة:

- يا سورت، ها أنا جامبج!! - وركض باتجاه شجرة الإجاص التي تؤوي أسرته. وأسمعهم صوته كي لا يُرعبهم: - ها أنا ذا، ما الذي جاء بكما إلى هنا؟.. أنا في طريقي إلى زاور حابله ظناً مني بأنكما فيها... يا بُنتي الصغيرة!.. - يخطفها ويضمها إلى صدره، وتُهرع إليه زوجته النازلة من على الشجرة. وما إن يلامس رأسها كتف زوجها حتى تنفجر بكاءً. يواسي جامبج زوجته. -

كفى، اسكتي يا سورت، بإذن الله التقينا من جديد. لا داعي لليأس... ادعي إلى الله، قدّمي له معروفاً، ها قد أنقذنا مرة أخرى من براثن الموت!

- نعم يا جامبج. كل الفضل يعود إلى الله، ولولا فضله كان قُضي علينا في زاور حابله أيضاً.

- وهل أحرقوا زاور حابله؟! صرخ جامبج من هول ما سمع.

- نعم... حين رأينا جيش العدو يتجه إليها لم ندخلها بل التجأنا إلى الغابة.

- إذن قد تكون خالّتنا المسكينة قضت فيها! - جلس جامبج والطفلة يميناه على جذع شجرة، وبعدما جلس مدة يهز برأسه قال: - أي مصيبة نعيشها... أيكون حان موعد انقراض الأديغة...

حين رأت سُورت الدم ينزُّ من مرفق زوجها أخرجت الإشارب الخفيف الملون من الكيس. وبعدما انتهت من لقِّه على ذراعه تذكر جامبج أنه كان أول هدية جاءها به من سوق "أَبْن" الروسي، فاعتصر الألم قلبه.

- دعني أفحص جرحك يا جامبج!

- لا حاجة، لا يزعجني... هل تفرّطين في إشارب جديد من أجل جرح سطحي؟! ونظر في وجهها باشاً، مذكّراً إياها بأن هذه الهدية أدخلت السرور يوماً من الأيام على الأسرة الجديدة.

- لا يا جامبج، لا تقلّ هذا، - لم تستطع سورت إلا أن تجيب الرجل بنظرة دافئة تحمل الذكرى، - ليس عندي في الدنيا أغلى من هذه الصبية ومن هذا الإشارب، ولكن ما حاجتي إليه إن لم أخفف عنك جرحك به؟!!

لا يُبدي جامبج ارتياحه للملمس راحتي سورت الناعمتين، ويصّر الطفلة الجالسة في حضنه إلى صدره كأنه خائف عليها. ويفكر في ما ينتظر الأسرة وما أمامها من مخرج. وحين ترى الطفلة "أفبس" أمها تجمع ثمار الإلحاح تقفز من حضن أبيها، وتبدأ تساعد أمها. وتقول لنفسها كعجوز صغيرة:

- وهذه إجابة ناضجة... انظر إليها يا تات، - تقرّبها من والدها، ثم تعود مسرعة إلى تحت الشجرة، وتقول لأمها وهي تجمع الثمار: - لا تطي الثمار يا نان، لا تهرسيها... إن جمعناها صارت زاداً لنا ؛ أليس كذلك يا تات؟ - نعم، يا بُنتي، نعم، - يصحو جامبج من أفكاره فيتعجب من سرعة نمو ذكاء هذه الطفلة في نصف العام الأخير.

- لم نجد طوال البارحة مثل هذه الإجابة، أليس كذلك يا نان؟

- اجمعي يا أفس، اجمعي، إجابص لذيذ.

- ليس لذيذاً فحسب، بل مثل العسل. ثم سألت أباها مصححة كلام أمها:

- أليس صحيحاً تات؟

- نعم يا بُنتي، نعم، لم تخطئي. - يذوب في الفم.

ملأت الأم وابنتها الكيس إجابصاً، وعادتا إلى جانب الأب. النهار يبتعد عن منتصفه. من بعيد، من حيث تشرق الشمس، ومن حيث تغرب، تُسمع أصوات المدافع. وتُسمع من حيث كان جامبج راجعاً أصوات اشتباكات بالبنادق غير قريبة وغير بعيدة. التصقت أفس الصغيرة بأبيها شاعرةً بخاطر قريب. وسألته مشيرة بيدها إلى مصادر إطلاق النار:

- هل من يطلقون النار هم من جرحوك؟

- لا تخافي يا أفس، - مسحت سورت على رأس ابنتها، - لا داعي لليأس بوجود أبيك معنا!

- نعم يا بُنتي، - وافق جامبج زوجته وهو يتناول بندقيته - لا سبب لليأس بعون الله، غير أننا لن نجلس هنا مكتوفي الأيدي.

- وأين نذهب؟ ماذا تنوي يا جامبج؟

- سنبحث عن مأوى... متى اهتديتُ إلى ملجأ - بيتاً كان أو قرية - أوصلتكما إليه. وأنا، سأمحيني يا سورت لن أدعهم يصفوني بالجن. سأعود إلى

رفاقي الذين فارقتهم...

- لا أعتب عليك يا جامبج، - صارحت سورت زوجها بما في قلبها نحوه -
زماننا زمان ثقیل... أين تذهب مفارقاً أصحابك؟ ثلاثتنا نحمل ما كتبه الله
علينا...

الطرفان المتجاہان في مضيق الأبراج لا ينوي أيّ منهما التراجع. الأديغة الذين
تجددت قوتهم فصلّوا الجناح الأيمن من جيش " نيجيغورودسك " القيصرى.
ومن اليسار، حين فهم الجنرال " غرايه " أنه إن دبّ الذعر في جيشه فقد
يُحاصر الجيش الذي عبر الوادي مجهداً أوفد الضابط " ماخاتازه ":

- حالاً، أوقف من عبّروا الوادي. وليساعدوا الجانب الأيمن من الجيش!
لم يكن المكان الذي أوفد إليه ماخاتازه بعيداً. - ليس أكثر من غلوة حصان.
انحدر الفارس المبلّغ من القمة بسرعة، وتوغل في الغابة. وما إن ظهر من وراء
المنعطف حتى قابله مقاتل أديغي بالبندقية. ومع صوت الطلقة صقرت
الرصاصه أمام الجبين. ومع الجري وقع سيف ماخاتازه على رقبة دُعجي
جامبج. ولحقت طلقة مسدسه بسورت التي كانت تُهرع إلى ما وراء الشجرة
فصرعتها. لم يتوقف الضابط المبلغ عند ما حدث له. والتقى بجنتي ضحيتيه
وهو عائد من تنفيذ مهمته. وما رآه الحصان جعله يتسمر في مكانه: فتاة
صغيرة تدور حول الجثمانين وهي تبكي. تهزّهما، تناديهما...

حين رأت أفس الفارس عادت إلى وعيها وهجمت على بندقية والدها.
ولكنها لم تستطع حملها فسقطت منها. وما هو إلا أن صارت على صهوة
الحصان لا تعرف كيف حدث.

- نان، تات، يحطفوني!.. - تصرخ أفس وتلطم وترفس برجليها. تهجم على
وجه القاتل وتعض يده. - كفى يا ابنة الوحوش! - يلطم ماخاتازه يد الصبية
وهو ينهرها بلغته الكرّجية. ثم ينقلها من صهوة الحصان فيضمها تحت إبطه

ورجلها تلوحان في الهواء وتصرخ. ويضم يديها ويكفهما عن الحركة. — ألم أطلب منك أن تكفي عن العض! — ينتزع ماخاتازه جلده من بين أسنان الصبية...

يثير منظر الفارس العائد فضول المقاتلين — وجنتا ماخاتازه الممزقتان ويده اليمنى يسيل منها الدم. ويقفز من على الحصان والصبية تحت إبطه، ويرميها أمام الحشد بحركة هائلة.

— ما هذا الذي نراه يا ماخاتازه؟ — سأل أحد الجنود بطريقة لا تميزها فهي جد أم هزل.

— نعم، حقاً — قال معاون الضابط¹ تريشكوف. — لم تأت بواحدة تناسبنا ما دمت جئت بها. واحدة تعجبنا بصدرها وخصرها.

حين رأت أفسس الرجال المدججين بالسلاح أحاطوا بها يضحكون دب اليأس إلى قلبها، فقعدت في مكانها وانكملت على نفسها كما تفعل الجراء حين تشعر بالهزيمة، كانت فقدت قواها التي شهدت بها مصرع أبويها، واختطافها. وغطت يديها المتسختين وجهها.

مرّ بالحشد نيقولايف بافلوفيتش غرايه، قائد جيش نيجيروغودسك ، فتباعد الجنود ليُروه الفتاة الصغيرة. قال الجنرال مُشعراً إياهم أن الخبر وصله:

— يبدو أن الضابط ماخاتازه أدى مهمته برجولة وجاءنا بصبية أسيرة... يا لها من طفلة مسكينة، رثة الثياب. ثم اقترب منها وسألها: — يا صبية، يا صبية، ما اسمك؟

لم تقل أفسس شيئاً، وبقيت جالسة تغطي وجهها بيديها:

— عندها اسم، أيمن أن تكون بلا اسم؟ — قال الجنرال أيضاً بصوت اللطف.

¹ يجري الكلام هنا على رتبة قوزاقية أدنى من رتبة ضابط. يُفهم من السياق أنه منقذ أو مبلّغ أوامر الجنرال.

وحين لمس يديها ثارت أفسس، ولم يحمل الجنرال عليها لسوء تصرفها بل غطاها بمزحة: - ما هذه الضربة ؛ يداك كالحديد يا صاحبة الأنف الكبير! .. نعم، كل من لا يعرف لغتك لا يمكنه أن يجيب على هذا السؤال.

- نادوا أناكسيفيتش العجوز، - ابتسم تريشكوف، - تعلّم شيئاً من لغة الأديغة خلال أسره.

- لا داعي لاستدعاء أناكسيفيتش، - قال الجنرال وهو يخرج من الساحة التي فيها أفسس - خذوها إليه، واعرضوها على الدكتور بلوتالوف. سنفكر غداً إن عشنا بمصرها. - هيا كلٌّ إلى مكانه في المعركة! - ولكني أحذركم: كل من يسيء إلى هذه الصبية كأنه أساء إليّ.

II

لم تكن الصبية أفسس بحاجة إلى أن تخبرها بما حدث لأبيها وأمها مع أنهما تفهم ما جرى لها وما سيجري، ووقعها بين أناس أغراب. وكان أشد ما يُخيفها عدم وجود أي لابس غطاء رأس، كائنةً من كانت، بين مجموعة الرجال المدججين بالسلاح. ولكن بعدما انصرف الجميع عنها وبقيت مع ضابط ذي لحية وشوارب كستنائية وعرفت أنه سيصبح سنداً لها نظرت إليه واجمة وقد أظلت وجهها براحة كفها. خفق قلبها الصغير شاعرة بلطفه، وشبّته مظهره بمظهر والدها، وتعبيره عن سروره، بتعبيره، ولا سيما لحيته الشقراء.

- تعالي يا بُنتي الصغيرة، تعالي - قال الأمير العقيد أميلاخفاري معتقداً أنها ستفهم لغته الكرّجية أفضل من غيرها. - سأخذك إلى أناكسيفيتش فيدور، وأطعمك...

حين سمعت أفسس اللغة الكرّجية تذكرت لغة ماخاتازه الذي كان عنيفاً معها فعاولها فجأة الرعب الذي عاشته معه، فقفزت تحمي نفسها من المتحدث. وتراجعت راكضة ووقفت وراء الشجرة بما يعني أنك لن تأخذني إلى أي مكان،

وتمسكت بها بقوة. والآن فقط أمعن الأمير أميلاخفاري النظر في وجه الصبية. الأنف الأقي الذي لم يتخذ شكله بعد متناسق مع الوجه النحيل الوسخ من الدمع والغبار. ومن تحت الحواجب الجديدة غير السوداء وغير الشقراء تبرز عينان عسليتان واسعتان تُضفيان مزيداً من مظهر النحافة على الوجه. ومع أنها تحمي نفسها بالنظرة المملأى بالرعب والخوف فإن براءة الانسان فيها وشفقته تبرزان منها طالبة بدون صوت أن يفهموها... ولم يستطع الأمير أميلاخفاري الذي لم يُكنّ الودّ للأديغة طوال عمره أن يمنع قلبه من التألم لحالها. فتوقف يائساً لا يعرف ماذا يفعل بالطفلة.

- لا تقترب مني، لا تمسني! - تصرخ أفس، وتركل بقدميها الصغيرتين من تحت الشجرة.

ضحك أميلاخفاري مرتاحاً لطريقة دفاع الطفلة عن نفسها، ثم ابتسم لها. وقال: تبدأ حماية المرأة لشرفها وعرضها من أطراف أصابع رجلها وأطراف شعرها مهما كان أصلها وعمرها. ما الذي لم يعجبها في الوقت الذي ظننت فيه أننا وجدنا أساساً للتواصل؟ حتى هذه على صغرها لا تُخفي أنها من الأديغة المتمردين. انظر كيف تحدّق في كأنها ستقتلني! ولكنك طفلة بغضّ النظر عن أصلك. ما ذنبك، لن آخذك بجريرة قومك، سأساعدك.

- أكونين ارتعبت من مكالمتي لك بلغة خاطفك يا بُنتي الصغيرة؟! - خاطبها أميلاخفاري بالروسية، وسألكمك بلغة أخرى إن كان يناسبك. لا تخافي مني، تعالي، سأطعمك. - لم تردّ الطفلة، وخيل إليه أن نظرتها لانت. - الآن أفهم، جلب لك ابن قومي مصيبة... ما العمل؟ الحرب ظالمة! الرصاصة لا تميز بريئاً من مذنب، يستوي عندها من تُصيبهم... تعالي سأصحبك إلى فيدور، وهو يعرف الأديغة. - مدّ لها أميلاخفاري يده اليمنى، وقرع باليسرى صدره: - أنا اسمي فانو، وهنا ينادوني إيفان غيفيتش. وأنتِ قولي لي اسمك؟ أنا اسمي فانو ؛

هل فهمت؟

فهمت أفس أن مَنْ أمامها يُكَيِّن لها الخير وإن لم تفهم كلامه. وشيئاً فشيئاً أبعدت يدها عن الشجرة، ومدَّتها. واتجهت أنظار الجنود الواقفين غير بعيدٍ إلى أفس وفانو اللذين يمشيان يداً بيد نحو النقطة الطبية - المطعم حيث أناكسيفيتش فيدور. تجاوزا مطعم الضباط المتطاول، وحين اقتربا من العيادة نادى فانو:

- يا فيدور دانييلوفيتش، أسرع، انظر من جئتك به!.. طفلة أديغية...

أناكسيفيتش الذي خرج من العيادة تعرج رجله اليسرى يقبونه بالعجز لهيئته غير أنه لم يتجاوز السادسة والخمسين. توقف فيدور حين رأى الطفلة، ثم أسرع ماداً يديه كمن يخاف أن يضيع منه شيء، وركض قليلاً، وخاطبها بالأديغية:

- يا مصيبي! صغيرةٌ من هذه الحلوة؟ سننوةٌ من هذه التي أتوني بها؟

تسمرت أفس حين سمعت كلاماً بلغتها دون أن تعرف ما يجري. ثم انتزعت يدها من فانو كمن تهرب من خطرٍ، واستقبلت العجز الأشيب. ولكنها توقفت فجأة، والتفتت إلى فانو. وابتعدت عن المكان، وارتقت في حضن العجز الذي قرفص أمامها.

- نعم، نعم يا عصفورتي الصغيرة، ربما أفزعك هؤلاء القوزاق الملتحون. يضمها فيدور إلى صدره، ويمسح على ظهرها الرقيق. - لا تخافي منهم، سأتصدى لهم... نعم، نعم يا بُنتي الصغيرة، خطفك هؤلاء ؛ ما أبشع ما فعلوا! لا شك أنك جائعة، سأطعمك حالاً.

كانت أفس التي غسل لها فيدور يديها ورجليها ووجهها ورأسها جالسةً إلى صحن الحساء الكبير، وفي يدها كِسرةٌ خبز كبيرة. وعلى المائدة نفسها، ومقابل أفس يجلس فيدور.

- لا تستعجلي يا بُنتي، - يلاطف أناكسيفيتش فيدور الصبية، - انفخي

عليها، لا تدعيها تحرق. وكلي معها الخبز. حسناً تفعلين، أنت تأكلين أحسن من فانو.

أعادت أفس المعلقة وبقايا الخبز بعدما انتهت من الطعام، ومسحت شفيتها، ونظرت في وجه من أطعمها وابتسمت له.

- لماذا لم تقولي الحمد لله يا بُنتي؟ سألها ماذا يقول الأديغة حين ينتهون من الطعام. - ألم تسمعيهم يقولون مثل هذا!

- سمعت... تات ونان كانا يقولانها... - تنهدت أفس قليلاً.

- قولها أنت أيضاً إذا كان أبوك وأمك يقولانها.

- الحمد لله والشكر.

- عفارم، أرضيتني الآن. - مسح فيدور براحته على رأسها، وقال: - ذكّرنا أنا وفانو باسمك لأننا نسيناه!

- ألم أقل: أفس!

- نعم، تذكرت... اسم جميل، - يتوجه إلى فانو ويخاطبه بالروسية: - هل سمعت يا محترم؟

- وكيف لا أسمع؛ أفيزا!..

توجست الصبية من نُطق اسمها بالروسية فرفعت رأسها جافلة، ثم كررت اسمها كمن تنبههما إليه:

- أفس!

- عفارم يا بُنتي، ذكّرنا جيداً به. - ضحك فيدور سعيداً، وأضاف مشيراً إلى فانو: هؤلاء لا يعرفون لغتنا أنت وأنا. هؤلاء يتكلمون الكرجية، ويعرفون الروسية. أنت وأنا لا نعرف الكرجية. وسأعلّمك يا أفس بعض الروسية حسب الإمكان، ولن أنسيك الأديغة...

دخل الدكتور بلوتانوف إلى الغرفة مستغرباً ما يرى، وسأل بوجه بشوش:

- ضيفهُ مَنْ هذه الصغيرة التي أراها؟

تجمعت أفس على نفسها كقطعة رشيقة واختبأت خلف فيدور. ونظرت نحو فانو، ولم يرغب الداخل عن نظرها.

- هذا الرجل الداخل إلينا واحدٌ منا، - قال فيدور وهو يبحث بيده عن الطفلة التي اختبأت وراء ظهره. - هو سيرغي بيتروفيتش، يشفي المرضى، قولي له اسمك ليعرفك.

تفحصت أفس الدكتور بعينها الحادتين من وراء فيدور دانيلوفيتش بسرعة، ونطقت اسمها:

- أفس.

- يا له من اسم جميل! - صاح الطبيب، وفهمت أفس أن اسمها أعجب الطبيب، فبشّت للسائل.

- قولي له أيضاً اسم الأسرة. أقصد ما كانوا ينادونك به في القرية. قولي له للطبيب، - ترجّى دانيلوفيتش الطفلة.

ابتعدت أفس من وراء ظهر العجوز مع أنها كانت ما تزال تُمسك يده:

- نحن من أسرة دُعجي، ومن قرية تُحقّوه حابله.

- ما أحسنك أيتها الصبية! أنا اسمي سيرغي بيتروفيتش. ونسبي بلوتالوف. ربّت الطبيب على رأس الصبية وابتسم لها.

...

تنام أفس وأنفها ملاصق للوسادة. وكلُّ من في القلعة نائمون إلا الحراس. غير أن فيدور لا يأتيه النوم مهما حاول ومهما نصح نفسه. بقي في الفناء بعض الوقت ثم توجه إلى النهر. سأله الجندي الحارس:

- ما الذي يُقلِّقك يا فيدور، لماذا لا تنام؟

- رجلي تؤلمني، أتوقع أن يتغير الجو، أروضها قليلاً، - لم يصرّح الجندي

العجوز بما يشغل باله.

جلس فيدور على عادته حين يريد أن يختلي بأفكاره على الصخرة تحت شجرة البلوط الكبيرة. أمواج النهر تتجاوب، والنجوم تلمع في السماء. والنجوم الليلة كبيرة خلافاً لليلي السابقة، بشوشة، تتهامس وتتغامز.

كلّ يرى الحرب من جانبه. غير أن فيدور دانيلوفيتش رآها من الجانبين. ولم يتوقف الأمر هنا فقد عانى منها في داخله كما لم يعانها غيره، وفهمها. وهل سنوات الأسر التسع قليلة؟! تذكر في هذه اللحظة كيف جُرحت رجله، وكيف وقف تغانه قرخ في وجه بزاز جاقز فمنعه من قتله. لطّفت طيبة فيدور وإخلاصه لعمله من قسوة جاقز، حتى صار كأنه عضو حقيقي في أسرته. وعامل ابنه صبح معاملة أخ صغير له. وحين قضى صبح في الحرب كاد فيدور يقع ضحية انتقام جاقز الذي لم يندمل جرح فقده أخويه في الحرب. ولولا مساعدة قرخ لما تمكن فيدور من الالتحاق بأبناء قومه. أوصله إلى ضفة النهر وقال له:

- انضمّ إلى جماعتك! وأيُّ إنسان يسألك تحييه أنك أنقذت نفسك بنفسك! كان تغانه قرخ وصبح، وعائشة جارة آل بزاز أناساً طبيين. ولم يكن جاقز امراً طالحاً لولا أن فقده أخويه وابنه هيجه. لا، لا، قال فيدور لم يكن جاقز سيئاً. كان إنساناً كريماً، وكادت الحروب التي لا نهاية لها تقلبه وحشاً غير أنها لم تُفلح.

تذكر فيدور مرة أخرى ما كانت قالت له أفس: "نحن من آل دُعجي، ومن قرية نحقوه حابله". صحيح، جامبج من قرية نحقوه حابله... تذكرت... كان زارني مرة من أجل أن يراني ويتعرفني... وكان أبداع في الرقص في عرس المرحوم صبح. كان رجلاً متين البنيان طافح الوجه واسع العينين. ما قرابته إلى أفس يا ترى؟ أبوها؟ عمّها؟ أم مجرد رجل من الأسرة؟

حين وقعت عينا فيدور أول مرة على أفس خيل إليه أنه كان يعرفها في وقت من الأوقات. وهل من صنع لمن دمي من الصبايا قليلات! وكانت واحدة من أتراب أفس روت له أخبار دماهن مرات كثيرة. وصدف أن ضحك كثيراً لهذه الأخبار.

وبالإضافة إلى صنع الدمى كان فيدور دانيلوفيتش يحب كثيراً أن يعزف لمن على البالالايك.

وقد شارك فيدور نفسه الأديغة في دفن كثيرين من ضحايا الغزو الروسي. والآن يشارك هو نفسه في دفن الضحايا الروس المقتولين على أيدي الأديغة. وفي الجانب الآخر تبكي الأمهات أبناءهن، وفي هذا الجانب، الجانب الروسي، تفعل الأمهات الروسيات ما تفعل الأمهات الأديغيات.

لماذا جاءني الله بهذه الطفلة؟ ما حاجتي إلى أفس؟ هل جاءني بالمصادفة؟ لا، لا يحدث شيء بالمصادفة... لا بد أن يكون بعلم الله... ثار في صدر المحارب العجوز حسد من الهواجس.

حُيِّل لفيدور دانيلوفيتش أنه لم يقض وقتاً طويلاً على الصخرة الدافئة حين رأى اختفاء النجوم في الجهة الشرقية من السماء...

اجتمع ضباط جيش نيجيغورودسك في المساء حين خفت حدة المعارك النهارية. - وبحثوا في مصير الصبية الأديغة الأسيرة. وقرروا، كما العادة في السابق، أن تربي الفتاة الأديغة الأسيرة الوحيدة في الجيش حتى تصبح قادرة على الاعتماد على نفسها. وأن يجمعوا لها كل شهر من كل جندي عشرين كوبيكاً، فينفعها المبلغ المجموع متى صارت كبيرة.

كانت حصيلة كلام نيقولاي بافلوفيتش غرايه مختصرة:

- الطفلة الشركسية ابنتنا منذ اليوم، نربيهما، وننشئها.

- اسمح لي يا نيقولاي بافلوفيتش، يا من أحسن الله إليه - سأل بالبوتسييف

مسؤول الديانة الروسية في الجيش — كيف نربي الفتاة التي ليست من ديننا دون أن نعمّدها؟

الضباط الذين لم تصل فطنتهم إلى موضوع التعميد أثّارهم كلام الكاهن متجاوزين كلام القائد، غير أن يد الجنرال المرفوعة هدّأهم:

— وسنجد وقتاً لهذا، لا تستعجلوا!

إذا كان في الجيش شخص لم يعجبه القرار المتخذ بشأن أفسس فهو فيدور دانيلوفيتش. — سمع الخبر فتلقّت حواليه حذراً، وتمتم:

— لا يمكن أن تجبر سليلة أبناء الجبال والغابات المتمردين على أن تصبح جزءاً من قومك... — وبعد قليل اشتعل غضبه من كلام بالبوتسييف: — كيف تعمّد من ولدت من زواج إسلامي؟!

تذكر فيدور كلام قائمت أفندي له في إحدى زيارته:

— كيف هي حياتك في نواحيننا يا فيدور؟

— حسنة، أعيش في حالة جيدة.

— هل تعجبك أرضنا، وسماؤنا؟

— نعم، تعجباني.

— إذن ماذا يشير عليك قلبك في الاهتمام إلى ديننا؟

عبّر فيدور عن رأيه صراحة وهو يعرف أن عدم إجابة الأفندي بما يرضيه تشبه الحكم بالانتحار:

— دينكم دين جيد، الاعتقاد بأن لجميع الناس إلهاً واحداً رأي صحيح. غير أن

ديني هو دين أبي وجدي وجدّ جدي، دين أرضي، إن هجرته كان خيانة مني.

— صحيح يا فيدور، نطقْتَ حقاً. إن لم تخلص لدينك صعب عليك تقبّل دين

آخر. كلامك صحيح. الله وحده هو من سيحكم بصحة كلامنا كلينا.

— هل أبعد هذه؟ — نظر فيدور إلى الرف الذي عليه صورة الإله.

- ولماذا تبعتها؟.. أمام من ستبتهل إذن؟!

كان قايمت أفندي كلما قابل من لا يتقيد بالدين قال له متخذاً من فيدور مثلاً:

- انظر كيف يحافظ فيدور على دينه! أنت لا تحترم الله رغم أنك مسلم. وكلما غضب أحد أبناء القرية على فيدور، أو فكر في إهانته حرص قايمت أفندي على حماية الأسير مبرزاً احترامه له. وحين ألح لاينسك على ضمه إلى جيشه لمحاربة الروس أبناء قومه كان قايمت أفندي أول من وقف في وجه البولوني، وأول من حماه باسم الله.

أفبس لا تزال صغيرة، طفلة، يقول فيدور. قد تعتق ديننا المسيحي إن حميناها بقناعتها... ساعدها وارحمها وأقنعها يا إلهي العزيز!

III

تبينت أفبس عما لم يتأمله منها الضباط. مع أنها لم تكن تبعد خطوة عن العجوز فيدور، ولم يتكلما إلا باللغة الأديعية، فقد تعلمت في الشهر الماضي بضع كلمات روسية: "لا" و"خذ" و"هات" و"ابتعد". وكانت تُهرع إلى البيت حين ترى الجنود الروس يتضحكون ويُقبلون نحوها يتكلمون بغير لغتها، فتراقب من خلال النافذة. وعندما تطمئن إلى أنهم لن يروها تتخذ من خلل السور مرصداً. وحين يرونها على النافذة أو تُهرع إلى البيت ينادونها "أفيزا" بدلاً من "أفبس"، ومن يحمل شيئاً من الحلوى يضع لها منها على عتبة الباب. وليسوا قليلين من يشناقون إلى أطفالهم فيأتون بحجة عيادة الطبيب بلوتالوف إلى بناء المشفى الذي يقيم فيه فيدور وأفبس. ورغم أن أفبس لم تكن تألف هؤلاء فقد كانوا يُسرّون برؤيتها والمسح براحتهم على رأسها، وتقديم بعض الحلوى إليها من قطعة سكر أو غيرها، ويستمتعون بمخاطبتها لهم بالروسية: "ابتعد!"

كانت أفس تنطق الكلمات الروسية إن كانت في محلها أم ليست بطريقة مكسرة، فلا يستطيع فيدور أن يكظم ضحكته، فتغضب الصبية. ولكن العجوز فيدور يتفهم الموقف، ويقول لها: وأنا أيضاً كنت أتكلم الأديغة مثلك. ويُسمعها كيف لم يكن يستطيع ربط الكلمات، فتضحك أفس راضية. ويصفو قلبها لفيدور.

كان لأفس شخصان في الجيش، بالإضافة إلى فيدور، يتقبلهما قلبها: أحدهما بلوتالوف الذي كانت تناديه "سيغي بيتوفيتش" بدلاً من "سيرغي بيتروفيتش"، والآخر من كانت تشبهه بأبيها "فانو أميلاخفاري". وحين تراه من بعيد تخرج من الدار التي لا تخرج منها عادة بمفردها وهي تردد "فانو قادم"، "أمالافي قادم"، فتستقبل بيديها الصغيرتين الممدودتين الأمير أميلاخفاري. ولا تترك يديه سواء كان واقفاً أم ماشياً، ناسيةً فيدور البتة. وفي مثل هذا اليوم وتاليه تُقيم أفس في البيت، وتلعب في أرض الدار لا تسعها الدنيا من الفرح. وحين يصدف أحياناً أن تنقطع زيارات فانو تشكو إلى فيدور قائلة: "أمالافي نسينا". ومتى غلبها الضجر والكآبة جلست لا تردّ على كلام أو نداء، سائدةً رأسها براحتيها الصغيرتين، وأفكارها وتأملاتها موجهةً إلى القمم والغابات الظاهرة لعينيهما، والتي تصدر منها أصوات المدافع.

ماذا تتذكر أفس حين تكون في هذه الحالة من الحزن؟ أيّ فرح تعيشه طفلة لم تر إلا الحرب منذ شهدت النور حاملةً اسم الإنسان! تنظر إلى الجهة التي تمرّق فيها حوافّ الجبال السحب الباهتة. في هذا العام، والعام الماضي، وفي الشهر الماضي الذي بقيت فيه يتيمة الأبوين، وفي هذه اللحظة، وهي تستشرف المكان الذي تدوّي فيه المدافع الروسية، وتترّجّ طلقات بنادق الأديغة، تعود قريتها لحقوه حابله تنتصب حلاًماً صعب التأويل أمام عيني أفس. في ذلك الوقت لم تكن أفس تجاوزت الرابعة. لم تكن تعرف أن حرباً دامية تُشنّ على الأديغة باستثناء

بعض مفردات الحرب التي تسمعتها أحياناً. وما تتذكره هو الكلب الأصفر الكبير الذي يحمل اسم "مشدّ" المربوط أمام بيتها... ثم تصل أصوات إطلاق نار ليلية... فتحترق البيوت... ويتصايح الناس... وتُخرجها أمها من البيت على صدرها... ويهربون من الدار... ومشدّ الذي لم يجدوا وقتاً لإطلاقه هائج... ينبح ويعوي...

لا تنسى أفسس إلى الآن عواء الكلب...

كارثة إحراق القرية هذه، جرت لأهلها أيضاً حيث لجأت الأسرة. ولما كان الوقت نهاراً هرب الناس إلى الغابة مع هجوم الجيش الروسي... وشهدت هي وأمها هذه المأساة نفسها في زاور حبله... ثم قتلهم أمّها وأباها أمام عينيها... انتفضت أفسس غير قادرة على تحمّل وطأة الفاجعة، ولكن منظر الإجاصة التي قُتل والدها تحتها امثل أمام عينيها ثانية. الشجرة ملأى بالثمار، والثمار تحتها كثيرة بين الحشيش. هي وأمها تجمعانها... تحمل الثمار الناضجة إلى والدها... تجلس في حصنه... وبعدما انتهتا من الجمع تجلس أمها إلى جانبها... الغابة الخريفية هادئة، ولو لم تصل إليهم أصوات المدافع البعيدة لكان عالم الأديغة دون صراعات وحروب، ولعاش أبوها وأمها، ولا عاشت هي بين الغرباء... انتشل نداء فيدور أفسس من خيالهما:

- شاريك، شاريك! ينادي فيدور الكلب، - تعال، سأطعمك.

تُهرع أفسس من النافذة إلى المسطبة وقد سمعت شيئاً في غير محله، وتقول لفيدور:

- ليس اسمه شاريك يا فيدور.

- ماذا إذن؟ - يستغرب فيدور ما يسمع.

- اسمه مشدّ.

- وكيف يكون مشد ونحن نناديه شاريك.

- قلت لك مشد يا فيدور! منذ اليوم سنناديه مشد.
- إن كان هذا رأيك فسنناديه "مشد" يا أفسس. وهذا اسم جميل، - يقدم فيدور الطعام إلى الكلب متسائلاً عن مصدر هذا الاسم الجديد "مشد". -
- كان عندنا في زمان ما كلبٌ بهذا الاسم...
- ونحن كان عندنا كلب بالاسم نفسه! - أسرع أفسس بالقول فرحة، ثم أضافت بصوت منكسر: - ولكنه احترق في النار.
- أيّ حريق؟
- أطرت أفسس برأسها الصغير ولم تجب. ثم سألتها من جديد:
- أيّ حريق؟ هل احترق بيتكم؟
- مرة أخرى أطرت أفسس، ولكن حركة رأسها لم تستطع أن تخفي ما في قلبها:
- حريق قريتنا - وأشارت إلى صف الجنود المتقدمين على قمة المرتفع، - أحرقتها هؤلاء الأشرار... كانت نانا تقول إن الأسرة لم تجد الوقت لإطلاق الكلب من قيده.
- هكذا إذن!.. - بدأ فيدور كلاماً ثم سكت. وبعد قليل أكمل: - ومثل هذه الحوادث ممكنة. الحرب تجلب كثيراً من المظالم. لا أودّ أن يسيطر الظلم عليك... ثم لا أريد أن يسمعك أحدٌ تسيئينهم بالأشعار. وما سمعته أنا لن أفشيّه.
- هل أنت خائف؟ - فاجأت الصبية فيدور.
- ولماذا أخاف؟ ولكن لا أريدك أن تقولي ما ليس مفيداً.
- أليس صحيحاً إذن أن هؤلاء أحرقوا قريتنا وقتلوا أمي وأبي؟! - التمتعت عينا أفسس الصافيتان وسؤالها يزيد في عمرها الحقيقي، وارتفع رأسا كتفيتها الصغيرتين.
- صحيح يا أفسس، صحيح. - استعجل فيدور راغباً في تهدئة الصبية، -

ولكن الصدق يولد الجريمة.

حين سمعت أفسس كلمة "مجرم"، ولم تعد تستطيع تذكر نسبة ماخاتازه الذي قتل أباه وأمه، تذكرت أنها كانت تسميه "المجرم"، فاحتد صوتها الناعم:

- المجرم لن يُعَفَّر له إجرامه.

- كل من يرتكب ذنباً يقفُ أمام الله أخيراً.

جلس فيدور بعض الوقت وقد أفاق على ألم يعصر قلبه بعدما تطرقت الصبية إلى كثير مما لم يتوقعه، وهو يعاني من وطأة الأفكار المتضاربة. ثم قال راغباً في تغيير الموضوع:

- حسناً يا أفسس، سأروي لك خبر كلي صاحب الاسم نفسه "مشد"... كنت في ذلك الزمن، كما أخبرتك، أسيراً في أرض الأديغة...

- يا أناكسيفيتش، فيدور دانيلوفيتش أين أنت؟ - حين نادى بلوتالوف من النافذة، قطع سرده.

صاحت أفسس بروسيته المكسرة بدلاً من فيدور:

- سيغي بيتوفيتش، نحن هنا، عند مشد.

ملأت ضحكة أفسس أرجاء العيادة ربما لأنها نفّست عن كرب قلبها الصغير أو لأنها لعبت مع الكلب. وركضت في الفناء الخلفي معه وهي تردد على مسمعه "لم يعد اسمك شاريك بعد اليوم، بل مشد؛ هل سمعت؟". ورقيا المسطبة ونزلا منها. وأحياناً تسرع أفسس إلى الغرفة فتحمل لمشد شيئاً من مخزونها من السكر. وتُلْقِمه إياه مستمتعة بقفزه لتناوله.

لا يملك الجنود الذين يرون لعب الصبية والكلب إلا أن يتوجهوا بأنظارهم إليها؛ إذ لم ير هؤلاء مشهد فرح مثله منذ زمن بعيد.

- انظروا كيف يلعبان!

ويقول أحدهم لنفسه:

- الإنسان ينسى كل شيء؛ ها هي الصبية تستردّ حياتها الطبيعية.
تلين قلوب الجنود الذين تحول الصبر في نفوسهم إلى ندبة دائمة، ويغمر الفرح وجوههم.

كان قلب فيدور في الدار التي ترك فيها أفس رغم أنه كان يساعد الدكتور بلوتالوف الذي يعالج رجالاً جريحة. كانت الأفكار التي أثارها تغيير الصبية المفاجئ لاسم الكلب تعود به إلى نواحي الأديعة. وكان يُضاف إلى هذا الجندي الذي عادوا به أمس من الجبهة بجرح أليم، وغيره ممن على أجسادهم طعنات الحراب.

قال فيدور: أن لا تكون حراً في نفسك مأساة. وكونك مغلول القدمين، أو محروماً من الحرية سيّان. ربما كان الأسر أثقل من الموت ولو أنني لم أقع في مثل هذا الموقف. في السنوات الست الأولى من الأسر كنت سأفارق الدنيا مبكراً لولا مشد... كان يتأمل وجهي حين تسيل دموعي من الإهانة، وكانت دموعه أيضاً تسيل... يا حسرتي يا أفس، أيتها الصبية السيئة الحظ، أيّ نحس جاء بك أنت أيضاً!.. ما الذي ذكرتك أنت أيضاً بالكلب مشد الذي كان مربوطاً في زمن ما إلى باب بيتكم؟.. إن كنت تفضّلين تسميته "مشد" فليكن! سنغير اسم شاريك إلى مشد...

انقطع صوت لعب أفس ومشد. نظر فيدور من خلال النافذة قلقاً بعض الشيء. وفي اللحظة نفسها سمع صوت عراك الكلب وعتاب الصبية. خرج فيدور مسرعاً من الغرفة يعرج، كان ما يراه عجباً: أطلقت أفس الكلب على ماخاتازه الواقف على الباب.

- عضّه يا مشد، عضّه! - تضرب الضابط بما يقع في يدها من حجر أو تراب. - لا تدع ماخاتازه يدخل، عضّه!

- أيها الجندي أناكسيفيتش! - ينادي ماخاتازه شاعراً بالإهانة من طريقة

استقبله، - لماذا لا تزال واقفاً؟ أبعد هذين!

- وماذا أقول لهما؟ يعبران عما في قلوبهما نحوك، - ينزل فيدور من المسطبة وهو يهمهم لمن يقف على باب الدار. - كفى يا أفس. لا تضربي الضابط!.. مهلاً يا مشد؛ اهدأ قليلاً!

تعود أفس مسرعة إلى البيت وهي تعبر عن استيائها حين يدخل ماخاتازه، وتلتفت، وتقول:

- مجرم، مجرم!

- ما الذي تقوله لي هذه؟ - يغمغم ماخاتازه أيضاً.

- ألا تسمع نسبك، تقوله لك بالأديغة. - يمّوه فيدور على معنى الاسم الذي تناديه به أفس. ثم يخاطب الكلب الذي هدأ، راعباً في تغيير موضوع الحديث:

- هيا يا مشد، عدّ إلى مكانك!

- يا مشد، مشد - تنادي الصبية التي رقيت المسطبة، -: هذا المجرم قتل أبي وأمي. عُضّه، لا تغفر له!

ينادي تريشكوف الذي يلتف حول البناء، متحملاً اللغة الأديغة التي يتخاطب بها فيدور وأفس بصعوبة:

- أفسدتم أخلاق الصبية الشركسية المتمردة، اتركوها!.. وأي اسم تنادون به شاريك؟! هل أنسوك لغتك الروسية في الأسر يا فيدور؟.. أليست مهمتك التي كلّفناك بها هي أن تعلّمها الروسية وتعوّدها على الحياة معنا؟

تظاهر أناكسيفيتش أنه لم يسمع شيئاً.

IV

كبرت أفس على نحو ملحوظ في الأشهر الثلاثة الماضية. وتقبّلت اللغة الروسية دون أن تُبدي تقدّمها فيها. وأصبحت تحب فيدور بخليط لغتها الأديغة الروسية.

- روسيتك جيدة يا أفسس، - امتدح فيدور الصبية في أحد الأيام. ثم قال لها بحذر: ولكن لا تنسي لغتك الأديغية!

تنهدت أفسس ويدها على صدرها كعجوز حقيقية، وقالت بعدما انتظرت مدة زامة شفيتها:

- لن أنساها يا فيدور!

- بديهي أنك لن تنسيها. - كان فيدور راضياً عما سمع، - ألسيت أديغية؟

- نعم، أديغية!.. - قفزت أفسس من مجلسها ودارت وراء فيدور وأحاطت عنقه بذراعيها. - ولكن كلّمني أنت بالأديغية، وأنا سأكلمك بالروسية.

- وهل سيقبل منا تريشكوف؟ - امتزج جدّ فيدور وهزله.

- هذا القبيح يثرثر كثيراً، لا تهتم!

- لا أهتم، ولكن لا أريد أن يأتي على سيرتنا بالسوء.

- نعم، من لا يحب نفسه لا يذكرك بالخير!

- حقاً؟ تعجب العجوز فيدور مما سمع - من أين تعلّمت هذا؟

- ألا تتذكر ما قاله لنا أمالاف بخصوص تريشك؟

- نعم، ولكن لا تتخذي من تريشك محاذياً يا أفسس.

- ومن يهتم لأمر تريشك؟! - صرخت أفسس معبرة عن احتقارها. - الأفضل

من هذا يا فيدور أن نلعب لعبة "حاجب - جبخوا"¹، هل تتذكرها؟

- وكيف لا أتذكرها!.. - قال فيدور وهو يهز الصبية المتعلقة التي تركب

ظهره: - "حاجب - جبخوا"

مرة أخرى تذكر فيدور دانيلوفيتش زاور حابله، وهيئته الذكرى ثانية: كيف

¹ وتُسمّى في الأردن، وربما في غيرها "شُفت القمر؟" لعبة يدير فيها اللاعبان كلٌّ ظهره

للآخر ويتماسكان بالأذرع، فيرفع أحدهما الآخر في الهواء، مرددين عبارة: حاجب - جبخوا.

كان الأطفال يستقبلونه ما إن يظهر في الشارع، يطلبون منه أن يصنع لهم صافرات، وأن يركبهم ظهره، ويلعبوا معه لعبة "حاجب جبخوا"، ويعزف لهم على البالالايك. وحين كان يلبي للصبيان الأديغة طلباتهم يُخيل إليه أنه رجع إلى قرينته نيكولينو ويلعب مع أبناء أخته وغيرهم. ويهمس: "يا رب أنا راضٍ عنك في فرحي، أنا تحت عين رضاك".

وكلما رأت أفسس الدكتور بلوتالوف يدخل الغرفة ففزت من ظهر فيدور كأنها لم تر الطبيب منذ زمن بعيد مع أنه مسح على رأسها في المساء، واستقبلته مشتاقة إليه مبددة وحشتها بقدمه:

- سيغي بيتوفيتش، - تأتي به ممسكة بيده، - تعال، اجلس هنا، ربما تعبت. - وحين تُجلسه ترتاح على فخذه.

- احكي لي الآن يا أفيزا كيف قضيت نهارك!

- يا سيغي بيتوفيتش! - يظهر من صوتها عتابها.

- هل ارتكبت خطأ يا أفيزا؟

- ليس اسمي أفيزا!

- نعم، نعم، سامحيني يا أفسس!

- الآن لفظت اسمي صحيحاً يا سيغيه بيتوفيتش!

- إذن لي عتبٌ عليك أيضاً يا أفسس.

رفعت أفسس رأسها الصغير فجأة، ونظرت عيناها في كل اتجاه، والتفتت إلى فيدور تسأله بعينيها إن كان يعرف سبب عتبه عليها، وتأملت وجهه من تجلس في حضنه. واستعرضت ما جرى البارحة خائفة أن تكون ارتكبت خطأ ما فيها. لم يمت أحد في المشفى اليوم ولا البارحة، ولم يُثقل إليه جريح حرج. وأصوات المدافع التي كانت تأتي من وراء النهر، ومن جهة الجبل خفت. ولم تطلب من مشد أن يتعارك مع أحد. وهو في مأواه حبسه المطر الخريفي البارد.

- ماذا يا سيغي بيتوفيتش، هل أساء إليك تريشك؟ - كلُّ مهموم بأوجاعه كما يقال، تسأل الصبية التي لا تودّ معاون الضابط.
- لا يا أفسس، - نظر الطبيب نظرة مأكرة نحو فيدور. وقال بما يعني أنه لا يمزح، - كلُّ من في الجبهة سواء كانوا ضباطاً وجنوداً يكسبون ودَّ الطبيب.
- لماذا يا سيغي بيتوفيتش؟
- السبب أنه إن جرح أحدٌ بالمصادفة، - أجب فيدور بدلاً من بلوتالوف. - فسيحتاجون الطبيب.
- ها! - لمعت عينا أفسس بالحقد والفرح. - يخاف "مخاج" المجرم وتريشكا أن يؤلّهما جسداهما؟ - ثم صرخت لا إرادياً: - ألم يتألم أبي وأمي إذن حين قتلهما المجرمون؟
- ضم سيرغي بيتروفيتش الصبية إلى صدره، ومسح على شعرها نادماً على الكلام الذي كان بدأه.
- واستعجل فيدور:
- اصبري يا أفسس، اهدئي... بديهي أن يتألموا، هل هناك من لا يتألم؟
- بلى! المجرم لا يتألم!.. - وسألت الطبيب كي يؤيدها: - أليس صحيحاً يا سيغي بيتوفيتش؟
- بلى يا أفسس، بلى، اهدئي... ولكن ماخاتازه وجد نفسه في خطر أن يقتله أبوك. أليس صحيحاً يا فيدور؟
- صحيح يا سيرغي بيتروفيتش... في الحرب...
- والدي كان يحمل بندقية ولكن أُمي لم تكن تحمل... - لم تدع أفسس فيدور يكمل كلامه.
- وهذا رأيي أنا - وافق فيدورُ الصبية - الحرب تقتل البريء والمذنب... - وبعد وقت غير طويل سأل الطبيب محاولاً الخروج من النقاش الذي انخرط فيه.

- كنت تتكلم على ما أظن يا سيرغي بيتروفيتش في موضوع آخر.
- نعم، موضوع آخر يا فيدور... ولكن لي عتباً على أفس.
- وما هو؟ تنظر أفس مستغربة إلى فيدور. وتلوم الطبيب مِرَّةً نفسَهَا. — أنا لم أخطئ، أليس كذلك يا سيغيه بيتوفيتش؟
- مَنْ إذن الذي لا يستطيع نُطق اسمي؟ — نقر بلوتالوف بطرف إصبعه أرنبه أنف أفس. ثم كرر اسمها بنُطق روسي حقيقي: أَلَسِتِ أَنْتِ يا أفيزا؟
- وأَنْتِ يا سيغيه بيتوفيتش، لا تنطق اسمي صحيحاً؛ أليس كذلك يا فيدور؟
- نعم يا أفس لا يستطيع. — وافق فيدور الصبية ضاحكاً، ومازحها: سنغرمه! — بأي حجة؟ — تقفز أفس من فخذ الدكتور، وتعود إلى فيدور.
- هل من عادتكم أيها الأديفة أن يهدي من يطلق اسماً ثوباً إلى صاحب الاسم؟
- هل سمعت يا سيغيه بيتوفيتش؟ — ترقص أفس أمام بلوتالوف وهي تتغنج له.
- نعم، سمعت، ولكنّ عليك أيضاً، على ما يبدو، أن تهديني أيضاً ثوباً.
- ولكن... — تماطل أفس في الكلام، ثم فجأة: — ولكنك أنت كبير وأنا صغيرة.
- وما المشكلة في هذا؟.. إن كنت كبيراً — يغمز الدكتور لفيدور — فسأفصل لك ثوبين، وأَنْتِ تفصلين لي واحداً. اتفقنا؟
- ولكن ليس هذا ما أعنيه بكلامي.
- وماذا إذن؟
- أنا صغيرة يصعب عليّ نطق اسمك بالروسية صحيحاً.
- وأنا؟ — يضحك سيرغي بيتروفيتش وهو يتأمل وجه الفتاة برضا. — أنا يصعب عليّ أن أنطق اسمك لأنني كبير، ولا أعرف الأديفة.

- تعادلنا إذن يا سيغي بيتوفيتش، لا أحد مدينٌ للآخر.
- أنا أغفر لك ولكن لا أعرف إن كان فيدور دانيلوفيتش سيغفر لك مناداته بفيذر.
- وفيذر لم يكن يستطيع في البداية نطق اسمي بالأدغية... - تبرى أفسس نفسها.
- إن غفرت لي أفسس - لم يدعها فيدور تنتظر - فأنا أيضاً أسامحها. ولكنك تعرف من لن يغفر لك.
- من يا فيدور دانيلوفيتش؟ - يسأل بلوتالوف مع أنه يشك في من يتحدثون عنه. وينظر إلى أفسس بما يعني: ألم تسأليني؟
- نعم يا سيرغي بيتروفيتش هناك من لن يسامحك. - يكشف أناكسيفيتش فيدور خبثه: - من الذي ابتكر لشاريك اسم مشد؟
- أنا يا فيدور، أنا - تقفز أفسس، وتفرح. - مهما غرّتموني من أجل مشد فأنا جاهزة.
- وبم نغرمك؟ - يقول الدكتور، - نجوت من الغرامة لأنه ليس من العادة كسوة الكلب ثوباً.
- سأعوّض مشد بطعام جيد إن لم يكن الكلب لا يُكسى. تفرح أفسس بالفكرة التي ابتكرتها.
- هكذا! أفحمتنا. إذن - يُخرج بلوتالوف قبضة من السكر من جيبه - خذوها وافتدي نفسك بها.
- تنثر أفسس قطع السكر على المقعد، وتبدأ تقسمها إلى حصتين متجاهلة الرجلين الجالسين معها:
- هذه لي، وتلك لمشد...
- وأنا؟ تحرميني إذن! - نادى فيدور الصبية.

- هذه لمشد، وتلك لي... - بعدما وزعت أفسس السكر دون أن تبأ بما وُجّه إليها من كلام قالت وهي تضع كل حصة في جيب مستقل: - وأنت يا فيدور لن نحرمك من السكر، أظن أن سيرغي بيتروفيتش يعطيني منه لآخر مرة؟..

- حسناً، انتهى عتي عليك. نطقَت اسمي جيداً. - صاح بلوتالوف.

وكانت أفسس راضية جداً عن نفسها لعدم خطئها في نطق اسم الطبيب.

بقي فيدور والطبيب وحدهما حين دخلت أفسس غرفتها. ولكن فيدور لم يستطع إلا الإطلال على أفسس التي كانت ملتفة باللحاف الصوفي الناعم. وانتظر الرجلان الصبية التي كانت تنادي من حين إلى حين من خلال الباب الموارب ريثما نامت. اقترب فيدور من الباب على رؤوس أصابع رجليه، وترك فتحة بين مصراعي الباب، وتنهد:

- لا أعرف كيف أعبر يا سيرغي بيتروفيتش، هذه الصبية المسكينة تجعلني أحياناً أتشاءم من شيء مجهول... ذكية جداً...

- وأنا أفكر في الأمر. يا فيدور دانييلوفيتش... ألم تر إلى أين وصلت فطنتها في حديثنا القصير معها؟ أخاف أن تذوب بيننا وهي في سنٍّ مبكرة... وكان من الضروري أن يأتي بها ماخاتازه، كانت ستضيع في الغابة.

- لا، ما كانت لتضيع... - تنهد فيدور مرة أخرى بعمق. - كان الأفضل أن تجد نفسها بين قومها مهما كانت ظروفهم صعبة من أن تقع بيننا. فهمت جيداً طبيعة الأديغة في سنوات. هؤلاء خُلِقوا لحريتهم وأرضهم. حقاً كانوا يقابلونا باشتباك الصباح وانفراج المساء، ولكن هذا هو السبب في أننا لم نستطع السيطرة عليهم طيلة هذه السنوات. يتمتعون بالرجولة والثبات والصدق والرحمة، دون أن يعني هذا أنهم يخلون من الكذب والظلم والجبن. صحيح أن اسم الإنسان يجمعنا وإياهم، ولكن علاقاتهم فيما بينهم مختلفة جداً عن علاقاتنا نحن الروس فيما بيننا. هؤلاء رجالهم ونسائهم، وشبابهم وفتياتهم، لكل

منهم مكان محدد في المجتمع. مُستو هؤلاء يحظون بعناية خاصة، ليس لأنهم يميزون أنفسهم بل إن احترامهم لأنفسهم يمنحهم هذه المكانة. ووقارهم، وشرفهم؟ هذان فوق الجميع لا يعدلوهما بشيء. ثم إني لاحظت فيهم طبعاً عجبياً: يتقاسمون أفراحهم وأحزانهم، ليس على مستوى القرية فحسب، بل على مستوى القرى المتجاورة. لم أر أحداً يبني بيتاً بمفرده. حين يعلن أنه يحتاج إلى متطوعين للعمل تأتي القرية كلها فإذا بالبيت قائم... والضيوف؟ لا يمكن منافستهم في هذا الشأن. أيُّ شخص يطرق بابهم، وإن لم يكن معروفاً، يستقبلونه ويقدمون له أفضل ما عندهم من طعام. ولا يسألونه قبل ثلاثة أيام عن سبب مجيئه...

- ومع كل هذه الفضائل يا فيدور - نظر بلوتالوف نظرة خبيثة إلى محدّثه - فارقتهم!

- لا عجب في هذا يا سيرغي بيتروفيتش، - لم يتوقف فيدور طويلاً عند هذه الملاحظة - لا شيء يعدل أصلك... من ذكّرني بما قلّته هي أفس الصغيرة... كيف تتصور سلوك الصبية الصغيرة لولا أني أتكلّم الأديغة؟!

- أما كانت تحمل نفسها على التكيّف مع الأمر الروسي؟ يسأل سيرغي بيتروفيتش رغم معرفته باختلاف آرائهما.

- هل تظن أنها كانت ستبكي وتتعب من البكاء فتزخخ؟ إن كانت هذه وجهة نظرك يا سيرغي بيتروفيتش فأنت مخطئ.

- كيف كنت تتعامل معها إذن؟

- سأسألك وسيكون الجواب سهلاً. السنونوة إن هجرت الطبيعة الحرة ودخلت إلى البيت ماذا تفعل بها؟

- تفتح لها النوافذ والأبواب لتعود إلى الطبيعة التي جاءت منها.

كان فيدور يقول في البداية: "سنطلق الصبية على راحتها كما نريد، ونربّيها"

والآن بعدما صار قريباً منها تغيّر رأيه: "الإنسان، الطفل ليس طيناً تكيّفه كما تشاء، الله وحده من يجبله". ومرة أخرى فكّر العجوز فيدور: "ربما كنت متُّ لو تركني جاقز وقرخ في ساحة المعركة على حالي جريحاً. الحقُّ أن من يقضي في ساحة الحرب تُغفّر له ذنوبه، ويدخل الجنة، ولو حدث هذا ما كنت تعذبت تسع سنوات في الأسر. ولا متعة في هذه الدنيا التي عدتُ إليها إذ لم ألتحق بأسرتي، ولا أعرف ما ينتظرنني في المستقبل، ولا أعرف متى ينتهي درب ذنوبي في الدنيا". فكر فيدور العجوز في شأن أفس: "كيف ستنسجم الصبية مع من قتلوا أباهما وأمهها، وأحرقوا بيتها، وسلبوها أرضها؟ هل يمكن أن تصبح واحدة منهم؟" فكر هكذا ثم صرخ من تلقاء نفسه: "مهلاً، مهلاً؛ ما الموضوع الذي تتحدث فيه؟ لماذا تخوض في ما لا تعرفه؟ يا رب اغفر لي تدخّلي في ما لا علاقة لي به، وارحمني!..."

صدر صوت أديغي من الباب الموارب. قطع الرجلان الحديث وأنصتا. وحين فهما الموقف تبادلوا الابتسام. تتكلم أفس في المنام:

- مشد، هذا تات لا تعضه! ليس هو المجرم... نعم نان، نعم، لن أطبل بقائي هنا، سأعود سريعاً. لماذا نان...

- ينهض فيدور ويترجم لبلوتالوف إلى الروسية: كيف ستذوب فينا من تقول هذا الكلام! يجب التفكير في حلٍّ لموضوع الصبية... يا صغيرتي لأنك ترين حلماً. انقلبي إلى الجانب الآخر. محدتك عالية على رأسك الصغير. نعم، نعم يا صغيرة، لا تقلقي... - يسمع سيرغي بيتروفيتش أصواتاً من الغرفة الأخرى. جاء العام الجديد 1860 بثلوج غزيرة منذ اليوم الأول.

تقدمت دُعجي أفس في تعلم اللغة الروسية حتى إن من يسمعها يستغرب. وكما تثرثر بالأديغية تفعل بالروسية. وحين ترى ماخاتازه وتريشكوف تكف عن التحدث بالروسية نكاية بهما، وتنهرهما بالأديغية. ثم تجبل كرة من الثلج والطين

وترمي الجورجي الذي جاءها بالمصيبة. وتعدّ تريشكوف شاباً فتمد له لسانها. وتعبّر له بتقاطيع وجهها عن احتقارها له.

الطبيعة هذا اليوم بيضاء ناصعة. لم يترك الثلج الناعم مكاناً لم يصل إليه. والشمس الحمراء الكبيرة تنظر من سمائها عروساً ناعمة حمرة الوجه. ولا تحبّ من وراء الجدار نسمةً نائمةً كما تفعل أحياناً. ليس الجو بارداً ولا حاراً. وأغنية الثلج الأبيض الناعمة تتردد في الطبيعة دون صوت كأن الحرب انتهت.

فيدور العجوز حاسر الرأس. وقبعته وفراؤه فوق كومة الثلج. يجرف الثلج الخفيف من أرض الدار ناثرًا إياه على الأجانب. وقد فتح طريقاً للباب الصغير. ولم ينس بيت الكلب مشد المغمور بالثلج. والآن يفتح طريق زلاجة للحظيرة التي تؤوي حصاني العيادة. ارتقت أفسس المسطبة ترتدي فرواً روسياً صغيراً، وشالاً صوفياً يتدلى طرفاه، وفي يديها قفازان. ولما كان الثلج والشمس يمنعاها من النظر فقد استدارت وصاحت بخليط من الأديغية والروسية:

- يا فيدور، الشمس لا تدعني أنظر!

يظل العجوز فيدور يجرف الثلج وينادي من هي خلفه:

- هل نهضت من النوم؟

- نعم، نهضت.

- وهل غسلت يديك ووجهك؟

- نعم، غسلت.

- وهل أكلت؟

- نعم.

- تلبسين جيداً؟

- نعم.

- إذن سنذهب حالاً لجلب الماء.

- ولكن أما قلتُ إن الشمس لا تسمح لي بالنظر؟! -
 - ستعتادين، لأنك خرجت تَوّاً من الغرفة.
 - مشد، يا مشد! - تنادي أفس - أين مشد يا فيدور؟
 - لا تدعي تريشكا يسمعك - يمزح فيدور مع الصبية. - لا تتكلمي بالأديغة.
 - لَيسمعني! هل سيمنعنا هذا القبيح من أن نتكلم بلغتنا؟..
 - وهذا رأيي أنا. - ينتهي فيدور من جرف الثلج، ويمزح ثانية مع أفس وهو يغرز المحرفة في كومة الثلج. - ما شأنه بنا؟.. - ثم يضيف: - لا تنادي مشد عبثاً، اصطَحَبَه سيرغي بيتروفيتش إلى الصيد. أسرعي إليّ وساعديني في ربط الحصانين إلى الزلاجة.
 خرج فيدور العجوز والصبية أفس من العيادة جنباً إلى جنب فوق التبن الناعم على الزلاجة. يتناثر قليل من الثلج الناعم من تحت الزلاجة ومن حواف الحصانين. ونسيم الصباح النقي يعبث بالوجه مؤلماً أحياناً. ومن الأفران الثلاثة لبيوت منعة شَبَج - غيورغييف يرتفع دخان الحطب السريع. ومن النهار الوليد للمنعة يرتفع خوار أبقار ونباح كلاب.
 - هل تشعرين بالبرد؟ - يسأل فيدور فرحاً بالصبية التي تورّد خذاها - غطّي وجهك بالقفازين كي لا تنفحك الريح.
 - وكيف أبرد مع فرائي وشالي الدافئتين؟
 ارتعبت أفس من أصوات بضع طلقات بنادق صدرت من حدود المنعة.
 - لا تخافي يا أفس، - قال فيدور مطمئناً للصبية. - هذه بنادق صيد.
 - أليست طلقاتٍ بندقية سيرغي بيتروفيتش إذن؟ - ثم صرخت وقد تعرّفت صوت صديقها الكلب: - هل تسمع؟ هذا صوت مشد!
 - وأنا أرى هذا، ربما يصيد الأرانب.

- ألا خوف أن تصيب طلقات سيرغي بيتروفيتش الكلب؟
- لا يُطلقون النار وراء الكلب الذي يلحق بالأرنب. - أنهى العجوز قلق الصبية.

ولم تستطع أفسس إلا أن تؤكد:

- نعم، يحرصون على كلاب الصيد.

وريثما ملأ فيدور الخزان بالماء لم تدع أفسس شيئاً في الجوار لم تتأمله. وكان قلبها من حيث تدري ولا تدري في ما وراء النهر الجبلي الصغير: غابات وثلوج وجبال لا يحيط بها النظر.

- أين بلاد الأديغة يا فيدور؟

- هل سألت عن اتجاه بلاد الأديغة؟ - أجاب فيدور حذراً بعدما فوجئ بسؤالها متظاهراً بعدم الاهتمام بسحنة الصبية العابسة المعبرة عن فطنتها. - الجانب الآخر، والمكان الذي نملأ منه أراضٍ أديغية يا أفسس.

- ومنعة شَبَج - غيورغييف أيضاً؟

- نعم.

- لماذا ليس فيها من الأديغة غيرك وغيري؟

- الأديغة تراجعوا باتجاه الجبل.

- لماذا؟

- لم يستطيعوا الانتصار علينا.

- ألا أنهم ضعفاء؟

- نحن أكثر عدداً، وهم قليلون.

- فيدور، لماذا لا تتكلم الأديغية ؛ ألسنا وحدنا؟.. لا تخف من تريشك. هو يغضب لأنه لا يعرف الأديغية. - ثم تهدئ أفسس نفسها بنفسها: - كان سألني قبل أيام عن اسم الماء بالأديغية.

- ألم تجيبه؟ - يستغرب فيدور ما يسمع.

- طلبت منه ألا يزعجني.

- هذا تصرف غير صحيح.

- لماذا غضب منك إذن؟

- لأن عقله محدود.

- إن كان محدوداً فليرب نفسه!..

لم تقل أفس شيئاً حين خرجا من سهل النهر ورقيا الرابية. كانت عيناها إلى الوراء تبحثان في الجبال المكسوة بالغابات، وتحث الحصانين على الإسراع متحدثة إليهما في حين أن أسئلتها لا تفارق ذهنها. وكانت جلستها في هذه اللحظة تؤلم القلب.

قال فيدور: لا يجوز أن تجلس الصبية في هذه الحالة ؛ يجب أن أجد ما يشغلها. لم يصارحني سيرغي بيتروفيتش ولكنه عبر عما في نفسي: أنت تُطلق العصفور الذي يدخل إلى الغرفة خطأ مشفوعاً بالشفقة حتى لو كنت تود الاحتفاظ به. وهذه الصبية لم تأتنا عصفوراً تائهاً. جاؤنا بها بجناحين مكسورين. ساعدناها، وعاد إليها وعيها، فلماذا نحتفظ بها فنذنب بحقها، فنسلبها حريتها؟ ليحتفظ كلُّ بما منحه الله، وليبق في قومه مهما كانوا.

- جانبُ الجبل جميل، تنهدت أفس.

- والجانب الذي نعود إليه ليس بشعاً.

- ولكن الأديغة لا يعيشون فيه يا فيدور.

- أهذا ما تريدن قوله؟ تراجع فيدور عن موقفه. ثم يضم إليه الصبية ليموه موقفه ويهزّ رأسي كنفيتها الصغيرتين، ويصبح حائاً الحصانين: - ونحن ألسنا أديغة؟ سننهي الحرب وسيقوم بيننا السلام! لا تيأسي يا أفس. سنستقر على حال ما إن شاء الله... حان وقتُ عودة أمالاني. متى عاد من تفليس

فسيضغط على تريشك وماخاتازه، وسيكون عوناً لنا.

الكلمات التي قيلت في خصوص العقيد أميلاخفاري أرعبت فيدور فجأة. - لم يكن هو وغيره يجهل أن الأمير الجورجي لا يُكَنّ الود للأديغة.

V

- استدعوا لي الضابط ماخاتازه ومعاون الضابط تريشكوف، - طلب الجنرال نيقولايف بافلوفيتش غرابيه حين سمع أن سلوكهما مع أفس غير ودي. وبعد قليل عاد فنادى الحاجب الذي يخرج من الباب: - والجندي فيدور أناكسيفيتش أيضاً.

نيقولايف بافلوفيتش غرابيه من أشهر جنرالات الحرب في روسيا. عمل في الشيشان والداغستان، وأظهر فيهما فعالية السلاح الروسي وبسالة الجندي. وكان بين من أسروا الإمام شامل. وفي السنوات الأخيرة يحارب على جبهة الأديغة حاشداً فيها جيشه. وهو يتقن الحرب، ويتحلى بالرجولة والرحمة والإنسانية. ولكنه ينسى الرحمة والطيبة وتغلبه القسوة حين يحشد جيشه في أرض العدو ويؤمن أنه يحمي شرف بلاده. ولا يعني إحرازه أكبر الانتصارات وأصغرها، وتراجعها أحياناً في وجه العدو أن لا يثمن قيمة جنوده. ولا يخفي أمام ضباطه وجنوده إذا كان عدوه قد تجلّى عن شجاعة. يربي جنوده على الشجاعة مُشيداً بشجاعة العدو. وإذا كان يسفك الدم كسائر الجنرالات فإنه يحترم الأديغة. ويعتبرونه ممن يتحلى بالرحمة والفهم عند الضرورة. وما دفع الأديغة إلى هذا الاستنتاج موقف الجنرال الروسي من إخلاء قتلاهم من ساحات المعارك. لم يكن يقف في طريقهم، بل إنه لم يكن يقبل أن يأخذ منهم المواشي التي يحتاجها الجيش يسوقونها إليه لمبادلتها بالجثامين. ولم يكن يسوّف تبادل الأسرى ساعة واحدة. وهو لا يعرف الرحمة تجاه من يفقد إنسانيته ويمارس الإجرام بحق أيّ من الطرفين. لم نأت إلى هنا قتلة ولا قاطعي طريق بل نعادي

من يعاديننا ونحارب من يحاربنا. كانت هذه افتتاحية خطابه وخاتمتها. ولكن هذا لم يكن يمنعه من إحراق القرى الأديغية.

ينفذ قائد جيش نيجيغورودسك مهماته على أكمل وجه حتى لو لم يهتم بموضوع الصبية الأسيرة. واليوم الذي ينتظره يأتيه بمشاكل كثيرة غير متوقعة. الجيش الذي لجمه الشتاء لا يحارب فعلياً، ولكن مشكلات التموين والطعام لمن يودعونك أملهم ليست قليلة حين تكون قائداً. لا يعني إعطاء السلاح لأحد أن تدفعه إلى الحرب فحسب بل عليك تربيته وتنشئته وتدريبه. كل إنسان بغض النظر عن انتمائه، أديغياً كان أم روسياً، يُقَيَّم بفهمه وعقله. ولكن الأفضل، قال الجنرال، ألا تُنسى من تعتمد عليه ثقتك به. ومن هذه الناحية أنا راضٍ عن ضباطي وعن جنودي. لم يخذلوني في شأن الصبية الأديغية. لا يستحق من قتلت الحروب التي لا نهاية لها إنسانيتهم أن تحاسبهم. من الصعب السيطرة على من اعتاد رائحة الدم... ولكن أظن أن هذين اللذين أستدعيهما متَّهَمان ظلماً. إن كانا مذنبين لمتهمنا ونصحتهما، فأردعهما قبل أن يرتكبا حماقة.

دخل الرجلان المطلوبان ماخاتازه وتريشكوف إلى المكتب، وحييا الجنرال. تفحص الجنرال الضابطين كأنه يراهما لأول مرة. الجنرال وماخاتازه يعرف أحدهما الآخر منذ عدة سنوات. أما تريشكوف فيمكن القول إنه كمن يراه لأول مرة ؛ إذ لم يمض عامٌ واحد على انضمامه إلى جيشه، أي في الشهر الذي جيء فيه بالأسيرة الأديغية. وتريشكوف بالقياس إلى ماخاتازه الرجل الكهل الممتلئ شابٌ رشيق في حدود الثامنة عشرة. لا هو أشقر ولا هو أسمر، تتناسب لحيته الحديثة مع وجهه المتطاول، ويمكن القول إنه نصف الرجل

الجورجي الغليظ الواقف إلى جانبه. وهو ابن أحد الأتامانات القوزاق¹، والده صديق للجنرال، أرسلوه إلى جيشه بعدما صار معاون ضابط. وهو يتيم الأب والأم تبعاً لأوراقه. رباه منذ سن العاشرة الجيش الروسي الذي حارب في الشيشان.

- لا تقف! - قال الجنرال للضابطين أمامه، وبعدما جلسا بدأ الجنرال الحديث مناوياً حول الموضوع: - لم نأت إلى هنا قتلًا ونهابين بل نعادي من يعادينا ونحارب من يحاربنا. في الحرب تحدث سلبيات كثيرة. وتجري أمور غير متوقعة. وإن تحدثت عن شخصي فأنا لا أعدّ العدو عدواً حتى يُشهر عليّ سلاحه. وأنتم تعرفان هذا. لم أستدعكما لقضية حربية، ولكن ما سأتى على ذكره هو من نتائج الحرب. ما يشغل بالي هو موضوع الفتاة الأديغة التي تعهّدتنا بتربيتها...

حين بدأ الجنرال بموضوع أفس انتفض الضابطان برأسيهما، وسأل ماخاتازه:

- هل جرى شيء لأفيز؟

- فتاتنا التي نربيهما لم يحدث لها شيء. - طمأن الجنرال الضابط سريعاً. غير أن سبب استدعائكما هو موضوعها. لن نذهب بعيداً، سنبدأ باسم صبيتنا. ليس اسمها أفيز، بل أفس. أليس هكذا تسمي الصبية نفسها إن لم أخطئ يا نيقولايف سافيليفيتش؟ - يسأل معاون الضابط الشاب.

- تماماً أيها الجنرال، - نهض تريشكوف.

- اجلس، - ابتسم غرايه في نفسه خفيةً. - إن كان هكذا فسنلبي للصبية ما تطلب دون إساءة إليها. ولا نُلقوا على اللغة الأديغة التي يخاطبها بما فيدور أناكسيفيتش. لا يمنع هذا الصبية من تعلّم الروسية. لا يقبل أحد حتى الكلاب

¹ زعيم محلي عند القوزاق.

أن تنتزع منه لغته الأم. أفس صبية ذكية تتعلم الروسية بسرعة. وستصبح واحدة منا تماماً. ما رأيك أنت يا بيسو بيساريونوفيتش؟ - حاول ماخاتازه الوقوف فلم يسمح له الجنرال.

- من جهتي يا نيقولاي بافلوفيتش لا أتوقع من الصبية أن تصبح هكذا. لا تُسأحي.

- لا تؤاخذ الصبية يا بيسو بيساريونوفيتش! - ما يعمل في قلب الإنسان كثير، وهذه أمور يتكفل الزمن بأن ينسيها إياها.

- لا، لن يُنسيها الزمن. يا نيقولاي بافلوفيتش! حملت الكلمات الأخيرة للجنرال الشاب الرشيق تريشكوف على الانتفاض. - أنا قُتل أبي وأمي في الشيشان. ولن أنساها ولو تأثرت لهما!

- أفهم، أود أن أتفهمك يا نيقولاي سافيليفيتش. - قال غرابيه ملاطفاً تريشكوف الذي لم يعد يتحمل الحزن. وبعد وقفة قصيرة استأنف: - ولكن الأفضل ألا تدع الرغبة في الثأر تهيمن عليك. لا أظن أحداً في البلاد التي تجري فيها حرب يخلو من الحزن والألم.

- لا أقصد أمثالنا الذين في ساحات المعارك يا نيقولاي بافلوفيتش.

- أفهم يا سميي، أفهم، - لم يغير الجنرال نبرته وإن قوطع. - ليس من في ساحة الحرب، بل ما لا تستطيع تحمله هو مصيبة أسرتك. وهو نفسه ما حدث للصبية... أنت في أسوأ الأحوال تفرّج عن همك في ساحة الحرب، ولكن ما أمل الصبية التي بقيت لا أحد لها هنا أو هناك؟ من المسؤول عن المصيبة التي حلت بها؟ - اضطرب الضابط ماخاتازه على المقعد شاعراً بذنبه نحو أفس. ثم ارتاح قلبه قليلاً لِمَا يسمع - إن قلنا إنها ليست مسؤولية الضابط ماخاتازه فأنا مشمول بالبراءة. أنت وغيرك ومن هم أكبر منا كثيراً، ويضاف إليها مصيبتك ومصيبة الصبية، ومصيبة الآلاف من الطرفين الذين قضوا في

الحرب، والآلاف من مشوهيها، وعذابات من طردوا من الأرض مشمولون بالقضية... - جلس الجنرال بضع دقائق يهز رأسه، ثم اختتم كلامه. - نحن محاربون مخلصون لالتزامنا أمام السلطة القيسرية وأمام البلاد، ولكن لو أن كل من سفكنا دمه سينتقم...

الثلاثة الذين يحملون رتباً متفاوتة - الجنرال والضابطان - انتصب أمامهم موضوع يستحق أن يتفكروا فيه. لم تكن الأفكار التي طرحها الجنرال مفاجئة له ولا للضابطين الآخرين. كل إنسان، تبعاً لإدراكه، ولنمط حياته، ولإنسانيته، تنتصب أمام شرفه الأفكار التي تقلقه، وتلك التي تريجه. وسواء كنت فطناً أم غيباً فأجوبة هذه المسائل مختلفة، وستختلف اختلاف أنماط المعيشة. هؤلاء نصبت الحياة أمامهم قضايا كثيرة تبعاً لما عاشوه. ومع أن تريشكوف وأفيس ينتميان إلى أصليين مختلفين فإن المصيبة التي حدثت لكل منهما في مكانين مختلفين واحدة. وما جرى لهما نتيجة للحرب من جهة الشيشان ومن جهة بلاد الكرج. ومن تأذت أسرة قوزاقية وأسرة أديغية. ومن تسبب في المصيبتين الحرب التي تشنها السلطة القيسرية في القفقاس.

ومع أن الأشخاص الثلاثة جمعتهم هذه الفكرة الواحدة فإنهم كانوا يفارقونها برؤى مختلفة ويعودون إليها. وغالباً ما لا يرضخون لما يخصهم. ما فعله ماخاتازه يتعلق بمهمته الحربية. ولو لم يقتل من أطلق عليه النار لربما كان هو الضحية، ولكن المرأة؟ لو عرف أن من اختبأ وراء الشجرة كانت امرأة لما أطلق عليها من مسدسه. ولو عرف أنه سيجد بين الجثتين فتاة صغيرة لما اقتترف ذنباً لن يغفره لنفسه أبداً...

ما العمل؟ يقول ماخاتازه. ربما كتب الله على جبيني أن أقترف مثل هذا الإثم... ولو فهمتني الطفلة التي يمتئها فترميني بالحجر لربيتها كابنتي مكفراً عن ذنبي بدلاً من أن أسمع لعنائها. ما يقوله الجنرال صحيح. في الحرب تظهر

الشجاعة والجريمة والإنسانية. لو كنت تعرف ما سيقابلك منها...

ومع أن تفكير تريشكوف نيقولاي مشابه لتفكير ماخاتازه فقد كان مختلفاً أيضاً. كانت الحرب السبب في مصيبته كذلك. وهو نفسه لا يعرف ما كُتب على جبينه. في أي مكان ستظهر إنسانيته ولا إنسانيته؟ ما فائدة أن أحمل معي ثأري ممن لا ذنب لهم، ينصح نيقولاي تريشكوف نفسه؟ هل قليل ما انتقمتم لأهلي في نصف العام الأخير؟ كنت ممن ملؤوا ساحات المعارك بالجثث وأحرقوا القرى... وإن لم يكف كلُّ هذا للتنفيس عن حقدِي فأَيّ انتقام أجري وراءه؟ ولستُ بريئاً من مأساة الصبية ولو لم أشارك فيها. ألسْتُ من كان يسفك الدم في ساحة الحرب يومذاك؟!

ولكن، ما كان ذنب أُمِّي وأبي؟ اغفر لي يا إلهي العزيز، ربما كان هذا هو السبب في أني لا أطيق كل من يتكلم بغير لغتي... أفهم يا إلهي العليّ أن الصبية التي ليست من قومي بقيت مثلي... ولكن مع ذلك...

أوقف من دخلا المكتب أفكار الضباط الثلاثة.

امتقع وجه أفس، وما إن رأت الضابطين اللذين لا يودّانها حتى اختبأت وراء فيدور. وتشبّثت بيده بقوة. لم يفهم فيدور سبب جلوس الضابطين مع الجنرال كما أنه لا يعرف سبب استدعائه. وفي الحال هجمت على ذهنه أفكار كثيرة تتعلق به وبأفس. تحدثنا أنا وسيرغي بيتروفيتش في ما ننويه بشأن أفس. ولا أحد غيرنا يعرف بالموضوع. ماذا فعلنا أنا وأفس هذا اليوم وفي الأيام الماضية؟ قال في نفسه: ليفعلوا معي ما يشاؤون على ألا يتصرفوا بما يؤدي صبيتي. لماذا يجلس هذان في حضرة الجنرال؟ والطبيب بلوتالوف قال أكثر مما قلت... هو أيضاً يحب الصبية كما أحبها. ماذا ينوي هؤلاء بحقنا؟ إن عرفت أن نيتكم نحونا سيئة فلن ترونا مرة أخرى أنا والصبية. ماذا تفعلون بنا إن عبرنا النهر وانضممنا إلى قومها؟.. ولكن فأسي ستقع قبل هذا على عنق أحد الضابطين!

- هل جئت يا أفس؟ - استقبل الجنرال نيقولاي بافلوفيتش الصبية بوجه طلق. وأشار إليها. - تعالي إليّ، ألم تذكريني؟

- اذهبي إلى نيقولاي بافلوفيتش، - قال فيدور حين رأى الصبية لا تتحرك في حضرة من يجالسان الجنرال، وشدها.

تركت أفس يد فيدور، ودارت حول مكان جلوس ماخاتازه حذرة، وعبرت أمام تريشكوف بسرعة. وارتمت في صدر الجنرال حتى لا يمسك بها أحد الضابطین. وقال نيقولاي بافلوفيتش مسروراً من عناق الصبية الحار:

- لم أرك منذ أكثر من شهر. ما أسرع ما كبرت! كيف حالك؟ من المؤكد أن فيدور لا يسيء إليك.

- لا، - تنظر أفس المديره ظهرها إلى فيدور العجوز كأنها تستغرب ما تسمع، في حين تلقي نظرات عدائية نحو ماخاتازه، وتمدّ لسانها لتريشكوف.

- لا تقفي مديرة ظهره للضباط، سيعتبون عليك. - همس نيقولاي بافلوفيتش للصبية مسمعاً الحضور. أظنك لا تكنين الود لهما... أتحافين منهما؟

- لا أخاف! - أدارت أفس رأسها الصغير، ومدت لسانها ثانية لتريشكوف مستمدة الثقة ممن تجلس في حضنه دون أن تلقي بالاً إلى ماخاتازه.

- ولماذا تخافين، - وافق الجنرال الصبية، - هؤلاء من أناسنا. هما ضابطان عندنا. لن يسيؤوا إليك، سيعاملونك معاملة حسنة. أليس كذلك يا بيسو باساريونوفيتش؟ وأنت أيضاً يا نيقولاي سافيليفيتش. أديري لهم وجهك. حسناً فعلت. ستصبحين فتاة ممتازة تنفذ ما نقول لها، لا تعتي يا أفس على الضابط ماخاتازه، ولا تحقدي عليه، هو رجل صالح، رجل يتحلى بالرحمة... لم يترك وحيدة في الغابة...

- لا تكمل - صرخت أفس وقد التهاب وجهها الأسمر الصغير. - المجرم رجل شرير! قتل أبي وأمي. - وبعد قليل أضافت بصوت أشد أنكساراً كمن

استعادت وعيها: لا تأتِ لي على دُكر الآخر: - وتريشكا ليس امرأ صالحاً.

- أنتِ تعبتين على الضابط ماخاتازه ولكن، - ابتسم نيقولاي بافليوفيتش وهو يتفحص وجوه الجالسين كأنه يريد أن يقول: اغفروا لمن عندها مأساة، - وما علاقة تريشكوف بالأمر؟

- يطلب مني ألا أنادي كلبنا باسم "مشد"، - جزمت أفس.

- وهل يركض إليك مشد إن ناديته بهذا الاسم؟

- نعم حفظ اسمه جيداً. ومشد اسم جميل. وأنا ناديته به - وافقها تريشكوف.

- ولكن تريشك لا يقبل مني أن أتكلم مع فيدور بلغتي الأديغية.

- بل "تريشكوف" صحح فيدور للصبية.

- تريشك، لم تغير الصبية موقفها.

- لا تعتب على الصبية يا سميي! - لم يتمالك الجنرال نفسه إلا أن يبتسم،

ونصحه مموهاً بالمزاح - اعتبره اسم دلال.

احمرّ وجه تريشكوف، ونظر إلى ماخاتازه. وألقى نظرة ساخطة على فيدور يريد

أن يقول له: أنت المسؤول عن كل هذا. كان بوّده أن يقول لقائد الجيش إنه لا

يجب نبرة السخرية، غير أن الأخير رفع يده في وجهه.

- لا حاجة! - سكت الجنرال قليلاً وأكمل: - لئعدّ كلُّ التفكير في مأساته.

من المعيب أن تطلب من الصبية عدم التكلم بلغتها. ولا يجوز البتة الحقد على

من لا يستطيع نطق اسمك. ما سنهتتم به هو تربية الصبية، ولن يقبل الله منا أن

نرميها بنظرات ساخطة أو ندفعها إلى اليأس. هذه في مرحلة تفتح فهمها. ما لا

تفهمه اليوم تفهمه غداً. إن كانت تفهمنا فشكراً لها ويبقى معروفنا عندنا.

ننهي كلامنا هنا. حياكم الله على خدمتكم وعلى رجولتكم، وعلى إنسانيتكم،

أنا راضٍ عنكم.

خرج الضابطان من المكتب بعدما حيا الجنرال.

- وأنا راضٍ عنك يا فيدور دانيلوفيتش في موضوع الصبية اليتيمة. تحافظ على صدقك، وتكسب ثواباً، ولا يمكن إلا أن تشفق على ماخاتازه وتريشكوف. مشكلة بيسو فيساريونوفيتش ماخاتازه أصعب من مشكلة سمِّي، يقول "سمِّي" كي لا تفهم أفس. إنه في عذاب لن يخلص منه مادامت أمام عينيه. يتألم ولا يجد مخرجاً من أزمته.

- لا يقصّر في شيء - وافق العجوز فيدور الجنرال دون ذكر اسم من يتكلمون عليه، - لا يمر يوم لا يأتي فيه إلى العيادة بحجج مختلفة، يأتيها بالحلوى. ما العمل؟ قد يكون الله كتب عليه أن يحمل هذا الشعور بالندم... أما الذي لا يدع الآخر يرتاح يا نيقولايف بفلوفيتش فهو الثأر. يحزنني أن قسوته تغلبه.

لم يقل الجنرال غرابيه شيئاً رغم أنه وافق العجوز فيدور في قرارة نفسه. لم يكن يريد العودة إلى الموضوع المؤلم. ما مصير الصبية التي تجلس في حضنه؟ كيف سيتصرف أبناء قومها متى ذاب الثلج وقدم الربيع؟ أيضاً لوهم؟ لا أحد من طرفنا، وعلى رأسهم الجنرال إيدوكيموف، ينوي شيئاً من هذا، لا يريدونه. يرسلون إلينا الأمر تَلَوْ الأمر يطلبون إنهاء الحرب بسرعة، وإركاك الأديغة أمامنا، كأنهم يجهلون طبيعة الجبال في الشتاء. كيف يمكن إركاك هؤلاء الذين يحمون أرضهم وبلادهم وحررتهم وشرفهم، حتى لو لم يكن بيننا إلا مأساة هذه الصبية؟ كم أدرنا الحرب بأن نخدع زانه سفري، ونصدمه بالنائب مُجد أمين؟ والآن يخدعون ابنه زانه قرة باتر، وينشرون الفرقة بين زعماء الأديغة. سنرى إن كان سيحل السلام أم لا بمناسبة الزيارة المرتقبة للقيصر ألكسندر الثاني...

قطع قلق الصبية أفكار غرابيه الجنرال، وسألها دون تخطيط على سبيل المزاح من أجل التمويه على نسيانه إياها:

- ما أشد نحافتك يا أفس ؛ ألا يطعمونك؟! أم لا يُعجبك ما يطبخه طباخو

الجيش؟

- لا أريد حساء الشوندر والكرنب! - بادرت أفسس بالجواب.

- لماذا؟ رفع الجنرال حاجبيه دهشةً.

- يغطيه شحم الخنزير! - لم تدعه ينتظر الجواب، وأكّدت: - وكذلك اللحم المقطّع المقلّي.

- هكذا؟ - رجع الجنرال فسألها، ثم أضاف ما يريده تحديداً: - لن أقبل منهم أن يُطعموك ما لا تحبينه! قولي إذن ما الذي تريدينه.

جلست قليلاً لا تعرف كيف تعبر بالروسية فقالت لها بالأديغية.

- الباستا والشبس!

- ماذا قالت يا فيدور؟

- ما ذكرته أفسس أيها الجنرال أكلة أديغية... حين تمبّ الريح من الجهة التي يقطن فيها الأديغة تمتنع عن الطعام.

- تشناق إلى قومها... - قال الجنرال بعد مدة. - كلٌّ يرى رائحة قومها طيبة... ما قلته الآن أشد الأخبار مدعاة للحزن يا فيدور. لا تتقبّلنا على ما

يبدو، ما العمل؟

- لا أستطيع أيها الجنرال أن أدّعي أنها تتقبّلنا تماماً - كان فيدور يريد التراجع عما قاله ولكنه عجز عن مقاومة ما في نفسه. - غير أنها مع ذلك لا تنسى قومها. لا أكنتم أني أجد صعوبة من هذه الناحية. لا أقصد أنها لا تطيعني، بل قلبها في تلك الجهة.

- ونحن لم نأت إلى هنا بإرادتنا، - قال لنفسه كي لا يفهم الصبية. وأجاب على ما لم تكن أفسس راضية عنه: - سأوصي طبّاخيناً ألا يُطعموك لحم الخنزير. لست وحدك، أنا أيضاً لا أحب هذا الدهن. ولم أكن أحبه في طفولتي. أما الآن فامتنعت عنه البتة. ساحني يا فيدور، ألا تستطيع أن تطبخ لها شيئاً من

وجباقتهم؟ هل بقيت مأسوراً عند الأديغة كل هذه السنين عبثاً؟

- هذا سهل، - فرح العجوز فيدور كأنه كان ينتظر هذا السؤال، - ولكن أصدر أمراً للطباخين أن يسمحوا لي!

- أخشى إن عودناها أن نلبي لها كل ما تريد ألا تستطيع العيش معنا أخيراً، - تظاهر الجنرال مرة أخرى بأنه يتجاوز الفكرة، ولكنه أنهى بقرار حازم: - إن لم تجهّز لهذه الصبية بعض ما ترغب فيه من الطعام أذنبا بحقها. اطبخ لها في الشهر مرتين أو ثلاثاً طعاماً أديغياً. وسنرى النتيجة. ولكن لا تحرمي إن أعددت لها من الحلوى.

في أحد الأيام قابل كاهن الجيش غيورغي بالبوسيفف الجنرال معيراً الموضوع أهمية خاصة، وأخبره صراحة بما يُقلقه: - الصبية الأديغية الصغيرة تحتاج إلى تعמיד إن كانت ستبقى ابنة جيشنا.

- نعم، ستبقى ابنة الجيش، ولكن لا تستعجل على ما طلبت!

- مضى أكثر من نصف عام على حياتها معنا.

- لم تعتد علينا بعد.

- وكيف تعتاد علينا من لا تعرف رسم الصليب!

- علّمها، امسح على رأسها، أَلِفْ قلبها، لا طِفْها!

- لو عرفت أن الصبية المسلمة يمكن أن ترسم الصليب لما اكتفيت بالمسح على رأسها، كنت حملتها على راحتي!

- لا تمسح على رأس الصبية وفي ذهنك كلمة "مسلم"!

- يا نيقولايف بافلوفيتش! يا ربي، ثِقْ بي، لن أفعل هذا أبداً! غير أنني أعدك أن أُكسبها قلباً روسياً إلى الربيع.

- إن فعلت هذا فسأعده من أعظم ما حققنا في إقليم الأديغة من انتصارات،

- بدا من لون الجنرال ارتياحه لما سمع وإن لم يكن واثقاً تماماً من تحقيقه،

وابتسم: - اعتنِ بها، إجهد معها، وسنرى النتيجة...

VI

نهاية السنة التي أتت بكميات كبيرة من الثلج لم تكن تريد توديع البرد رغم أنه لم يبق لها من الشتاء إلا شهران. ومنذ أيام أضيف إلى هذا البرد ريح الشمال فلم يعد البرد الذي يُحرق أرنبة الأنف يسمح لك أن تمدّه خارج البيت. تجمد الثلج الذي تصفر فوقه الريح اللئيمة حتى ليستطيع أن يحمل العصفائر الصغيرة. ورغم أن الطبيعة الجهممة تدعو الإنسان إلى اليأس وهي تشر الجليد من على سطح الثلج فالغرفة التي تقيم فيها أفسس تشيع فيها حرارة الحطب اليابس.

يطل البيت على الجنوب بنافذتين. وفي هذه الجهة المحمية من الريح اجتمعت ثلاثة عصفائر على جدار البيت. وأفسس جالسة على النافذة تتدفأ بالشمس مسندة رأسها الصغير براحتيها. وبعد مدة طار عصفوران تاركين ثالثهما دون سبب على العود البارز من وسط الثلج، ضاماً رأسه إلى صدره، وجامعاً الذنب إلى جسده حتى تحوّل إلى كرة.

لم تكن أفسس مهتمة بمن يدخل أو يخرج من غرفة فيدور، ولا بنار الحطب المتأججة. ولا بماء الغسيل في القدر الكبيرة، ولا كانت تسمع صوت سنّ السكين، ولا صوت تقطيع اللحم، بل بالعصفور المتخلف عن رفيقيه. لم يكن وحيداً بل كان معه في البداية رفيقان.

- لماذا لا تتحرك؟ - تسأله أفسس بالأديغية، وتنقر الزجاج. ارحل، لا تدعهما يسبقانك، إلحقّ بهما!

في البداية لم يفهم فيدور العجوز الذي كان يقطع اللحم الصوت الذي يسمعه. بل حُيِّل إليه أنها كلمته، فقال دون أن يرفع رأسه عن عمله:

- نعم، صحيح، أنا أطبخ وجبة سلطانية...

لا تسمع أفسس ما قيل لها. - ما يشغل بالها شيء آخر. تقف على مقعد

- وتجلس على حافة النافذة على ركبتيها، وتقرع الزجاج بقوة:
- لا تدعي رفيقيك يسبقانك، ستندم أيها المجنون الصغير! - تتلهف أفس،
- وحين لا يفهم العصفور الوحيد كلامها تنادي فيدور وهي تبكي من قلبها: -
- فيدور، ألا تنبّه، سيقى وحيداً إلى الأبد.
- حقاً، إلى من تتكلمين يا أفس؟.. - يفرع العجوز مما يرى - انزلي من النافذة، ستسقطين!
- ألم أطلب إليك الرحيل، ستبقى وحيداً! - تقف على الحافة، وتقرع الزجاج بقبضتها، لا بأصابعها.
- مهلاً يا أفس، مهلاً... - يركض فيدور إلى النافذة يعرج، ويضم أفس، ولكن لا يرى شيئاً قرب جدار البيت.
- إلى من تتكلمين، ومن الذي تركوه؟
- ألا ترى هذا العصفور الصغير؟ ها هو على رأس العود!
- هذا هو؟! ظننتك تتكلمين إلى أحد.
- نعم أتكلم إلى العصفور ؛ ألا روح له؟ ولكنه لا يُصغي إلي... تركه أهله!
- ربما طرده!
- ولماذا؟ لم يتصرف تصرفاً خاطئاً.
- لماذا يعرض نفسه للبرد إذن؟
- هو حزين لسبب ما.
- ربما.
- يا فيدور، هذا القط القبيح يتصيد، سيفترسه! - هجمت أفس على الزجاج تصرخ وتبكي. - يا مشدّ أين أنت. لا تدع القط يفترس العصفور!.. -
- أقلع العصفور قبل أن يجد القط المرقط الفرصة للوثوب. ودوّت فرحة الصبية في أرجاء البيت: - تشفيت منك أيها القط! لم يدعك تقتنصه، تلتهمه!..

- هذه هي الحياة يا أفسس، ليست سعيدة تماماً كما نتأمل. كلُّ وما يستطيع أن يقتنص منها... تعالي يا أفسس ساعديني، سنطبخ الشبس باستا. العجوز فيدور والصبية أفسس منهما كان وقد شُتمّا عن ساعديهما في تقطيع اللحم. والباستا التي على الفرن على وشك الغليان. والنار المفتوح بأبها قليلاً تقصف بالجمرات القافزة¹.

- أتعرفين يا أفسس ماذا يعتقد الأديعة متى بدأت النار تُطلق هذه الجمرات؟
- لا، ليجعله الله خيراً؛ قل لي.
- إن كنت لا تعرفين فسأعلمك بسرور. - بيتسم فيدور مستغرباً طريقة كلام الصبية العجائزية، - يقولون: علامة قدوم ضيف، اللهم اجعله خيراً!
- ربما أمالاف عائد، - أسرع أفسس بالتخمين.
- الآن وقت وصوله، غير أنني أعرف من سيأتي ليشاركنا الغداء. وأنت لا تجهلينه.

- من هو؟
- فكّري، تذكّري!
استقرت عينا أفسس السوداوان الصافيتان في مكان بعيد علامة على استغراقها في التفكير. ثم أسرعت بالصراخ:
- نعم، هو نيل!

- ومن هو نيل؟ - نصب فيدور رأسه إذ لم يعرف من هو.
- ألا تتذكره؟ - تستغرب أفسس - ألم يطلب مني الجنرال أن أناديه جدّو نيل؟
فيدور مرتاح لِمَا سمعه الآن وإن لم يتذكر ما قالته الصبية، وتساءل: متى كان بينهما مثل هذا السرّ؟ الصبية لا تخطو خطوة دون علمي. ولا تتكلم إلى أحد.

¹ في الأصل: تب شس، ويعني الجمرة الراكبة. ويعتقدون أنها دليل على قدوم ضيف.

ليس في هذا الجيش من أثق به إلا بلوتالوف سيرغي بيتروفيتش. وعلى رأي أفسس صار فانو أمالاف واحداً منا فأين نذهب به؟ متى عاد من تفليس صارت مهمتي مع الصبية أسهل. أسأله أين اقترح الجنرال هذا الاسم؟ أم أن أفسس ابتكرته؟ كان الأفضل من كل هذا لو كانت هي صاحبة الفكرة. كانت تشهد بهذا على أنها استقرت بيننا بمشاعرها، واعتادت علينا وارتاحت... لا أعرف، لا أعرف. كيف ستتكيف معنا هذه الصغيرة التي لا يفارقها القلق وهي تدرك ما لا يدركه جدي؟! إذا كنا نخدعها ونخدع أنفسنا فهذا هو الأسوأ. التفاحة الساقطة من أمها لن تنمو على شجرة أخرى. كل إنسان له أرض خاصة وُلد فيها وُربِّي. ومع أن شمساً واحدة تشرق على الجميع فإن شعاعاً واحداً هو ما يُدفنه ويُحييه. والحبوب التي تُنبثها أشعة شمس في أرض أهله، والحليب الذي يقدمه حشيشها، والفواكه التي تحملها أشجارها والفوائد الأخرى التي تقدمها هي أساس حياته، وهي نخاع عظامه، وقوّته. وهذه إن ذاقها في غير أرضه فلن يحس بفائدتها ولا بحلاوتها.

- لا أتذكر يا أفسس - خرج العجوز فيدور من أفكاره، - قد يكون قال لك هذا... إن كان قلبك يطاوعك فناده بهذا الاسم. نيقولايف بافلوفيتش رجل ممتاز. يتمتع بالرحمة.

رفعت أفسس رأسها فجأة كما تفعل عادة حين تسمع ما لا يعجبها، أو تريد أن تعبر عن أمرٍ يُقلقها. ورفعت كتفيها الصغيرتين فتتأنا. ولمعت عيناها السوداوان الصافيتان.

- هل قلتُ شيئاً أزعجك يا أفسس؟

- لماذا لا يُعيديني الجنرال إلى قومي إذا كان إنساناً صالحاً كما تقول؟

أسقط السؤال المفاجئ قطعة اللحم من يد فيدور. وحين أفاق من الصدمة لم يستطع إلا أن يسأل الصبية ذات الرأس الصغير المنتصب وهو يلجم القلب

الذي فاض فجأة:

- أنسيّت أن لا أحد يسأل عنك؟

- إذا فقدت أُمّي وأبي فهل زال الأديغة من الوجود؟

قفز فيدور من مجلسه باحثاً عن ذريعة ينهض لأجلها:

- الباستا تفور!

ظل العجوز فيدور بعض الوقت يعالج الفرن. ثم قلب النار ، والتفت إلى أفسس وهو يغسل يديه. ثم عاد بحذر شديد إلى تقطيع اللحم في حين تنظر هي أحياناً من طرف عينها إلى فيدور مخفية ذنبها كأنها ليست صاحبة الجواب الجاف، وتتمتم:

- قطع اللحم أكبر مما ينبغي.

- ستصغر متى سُلقت. - لا يعدم العجوز جواباً.

- أليس ما تطبخه يا فيدور عصيدة تحوي قطعاً صغيرة؟

- نعم.

- إذن قطع اللحم إلى قطع أصغر إن كنت تريدها عصيدة لذيذة.

- من أين تعرفين كلّ هذا يا أفسس؟ - يسألها فيدور وقد هدأ قلبه والارتياح بادٍ عليه.

- علمتني نانا.

- هكذا سنصغّر القطع.

- وهل عندك من البصل والثوم والفلفل ما تطبخه معها؟

- أسأليني ما الذي ليس عندي! - يضحك فيدور وقد عاد قلبه إلى طبيعته.

ويغمز أفسس. ولكن لا أعرف إن كان سيُعجب جدّو نيل إذا جاءنا ضيفاً.

- سترى إن لم يعجبه إذا أضفت إليها ما ذكرت! - عادت أفسس أيضاً إلى

مرحها. ثم تقول للعجوز مطيئة خاطره: - ساجني يا فيدور إن كنتُ أسأتُ

إليك. لن أتكلّم على جدو نيل أكثر ممّا قلتُ.

- أعرف ما تتكلّمين عليه يا عصفوريّ الصغيرة. أهذا أول يوم يسببون لنا فيه الحزن؟ نحن اعتدنا على هذا، وأنتِ روّضي نفسك عليه، ما زلت في بداية العمر. وأنا لا أخلو من القلق على جهة الأديغة التي تتحدثين عنها... ولكن لا داعي لأن تتكلّمي إلى أحد في هذا الموضوع. سنرى ما يحدث إلى الربيع. امثّل لعيني أفس من جديد العصفور الذي كان على طرف العود، والقط الملون الشرير يزحف ببطنه على الجليد. تُتابع بعينها مسرورة العصفور الذي طار. وتساءل عنه بعدما هرب من أمام عينيها:

- يا فيدور، أياكون العصفور الصغير الذي أفلت من مخالّب القط وجد أهله؟
- وأين يبتعد عن أهله! لا أصلّق أن في الدنيا من لا يعيشون أزواجاً. حتى الذئب يتخذ رفيقة.

- نحن لسنا ذئاباً، ومع ذلك فنحن اثنان.

- صحيح، ما الذي يجعل منا نحن ذئاباً. نحن نتمتع بالرحمة. خلقنا كليلنا الله ولو كنا من أصلين مختلفين. وجمعنا، وسنعيش كما يُملّي علينا. وسنُرضيه بسلوكنا. وسأريّك إن أمكن حتى تكبري.

- وبعدها؟

- بعدها نرى ما يحدث.

- وهل سنبقى إلى حينها في جيش جدو نيل؟

- هذا علّمه عند الله، ربما نبقى... الحرب تمضي إلى نهاياتها...

ملاً فيدور العجوز وأفس الغرفة برائحة اللحم المحمّس الطيبة وهما يتحدّثان ويتعاونان. والباستا التي فرشوها في الصحن الواسع تجمد نافثةً البخار. وأفس تتصرف كربة بيت صغيرة بعدما أنعشها الطعام الذي اعتادت عليه في صغرها. يمد فيدور المعلقة إلى العصيدة غير واثق من نجاح الطبخة لاختبار الملح.

ويقدّمها إلى أفس:

- جرّبي ملوحتي، لا أعرف أنا...

- المالح كافٍ ولكن الفلفل قليل.

- هذا كثير على ضيفنا. - ييشّ العجوز في وجه الصبية. - اذهبي ومشتطي شعرك من جديد، وارتي ثوباً نظيفاً!

في الموعد المحدد دخل الجنرال نيقولايف بفلوفيتش غرابيه يرافقه الدكتور سيرغي بيتروفيتش. وصاح:

- ما أطيب رائحة الطعام التي تملأ البيت! هل أنت يا أفس من طبخت؟

- لا، فيدور هو من طبخ! - أعلنت أفس راضية، - وأنا ساعدته.

- أنت إذن صبية مهذّبة. خذي هذا مني! مدّ الجنرال لفافة حلوى كبيرة إليها.

جلس الأربعة إلى المائدة. كانت طريقة تحريك الجنرال لأصابعه وهو يرسم الصليب مع همسه عجيبةً إلى أفس ولو أنها لم تكن أول مرة ترى صليباً يُرسم. وفعل الدكتور بلوتالوف الأمر نفسه. ولم يتأخر العجوز فيدور عنهما.

- وأنت ماذا يا أفس؟ - سأل الجنرال الصبية.

- ونحن حين نجلس إلى الطعام نقول: "بسم الله" - مدّت أفس يدها إلى الطعام مشدّدة على نطق البسملة. اكتفى المسيحيون الثلاثة بالابتسام، ولم يعلّقوا بشيء.

VII

لم يكن في الجيش غيرُ فيدور يفهم الصبية أفس ويفهم حاجاتها ويمكن أن يقيّمها. ومهما كان الجنرال غرابيه والدكتور بلوتالوف، وغيرهما من الضباط والجنود رجالاً صالحين، يعاملونها معاملة حسنة، فكلّ يعيش حياته متحملاً الواجب الذي عليه بقدر إمكانه. هذا يسوق الجيش إلى ساحة المعركة، والآخر يداوي المرضى، وغيرهما يُقتل ويُجرّح. والأب غيورغي لا يتوقف عن رسم

الصليب. وما خاتازه الذي لا يعرف كيف يكفّر عن ذنبه يعيش بين نار الحرب ونار الشعور بالذنب. ويبقى الشاب تريشكوف ظالماً نحو القوم الذين تنتسب إليهم أفسس ولو أن قلبه لان الآن للصبيّة.

ما هذا؟ قال العجوز فيدور، يكادون يرون الصبيّة في الشهر مرتين أو ثلاثاً. لا يمكنك أن تفهم الصبيّة وترضيها بمسحة رأس. كل يوم يلاحظ نمو عقلها. وتصعب أسئلتها، لا عليّ، بل على أكبر المتعلمين، الإجابة عنها. اليوم أريها على قدر استطاعتي، ولكن غدأ؟ أعرف أن نيقولاى بافلوفيتش رجل طيب، وأعرف أن على الصبيّة أن تتعلم الروسية (من هذه الناحية تثرثر بها كالسنونوة؛ فلا نظلمها!)¹ وأعرف أن عليها أن ترسم الصليب متى أفأقت، ومتى نامت، ومتى أكلت. ولكني لن أستطيع أن أطلب منها نسيان أصلها والغناء لمن تركب في عربتها والإخلاص لمن تأكل من خيره. وإذا كانت هذه نيتكم نحوها وحشدتم مقابلها الجيش الروسي كله فلا أظنكم تتفاهمون معها. حين يأتون إلى البيت يجرو كلب يعلمونه أولاً اسمه، وما يجوز وما لا يجوز. ثم يصبح مخلصاً لصاحبه على قدر حسن معاملتهم وتربيتهم له. لا أدعي أن الجيش لم يحتضن الصبيّة ولم ترتح هي إليه. معاملتنا لها في الحقيقة تكافئ أمام الله ما أذنبا بحقها فحسب. ومن الناحية الأخرى فإن ما نسعى إليه الآن أصعب مهمة. لا يستوي الإحسان إليها وطلب اعتناق ديننا منها. كلُّ إنسان له معروفه ولكن تغيير الدين والولادة من جديد سيّان. يعتب عليّ الأب غيورغي عبثاً. مع أن عليك أن تحي العود وهو طري وأنت تقول: "ارسمي الصليب"، "تعلّمي صلاة: يا أبانا... فلن تحقّق نتيجة مهما ضغطت على الصبيّة التي ليست من قومك. من حظنا أن أفسس لم تسمع كلامنا. أفهم أيها الأب غيورغي فلا تقلق! ولكن

¹ القوسان من المؤلف.

الله لا يجب، وأنت تعرف، كل ما يحدث بالإكراه، دون أن يعني هذا ألا أساعدك بقدر استطاعتي. ولا أفعل هذا لأجلك ولا لأجلي بل من أجل الله العليّ."

- أين أنت يا أفسس؟ - نادى فيدور بالروسية نحو الغرفة المجاورة بعدما خرج من أفكاره وهو يرسم الصليب. - ماذا تفعلين؟
- أعلم الدمية الروسية التي جاءني بها جدو نيل أن تنشد "يا أبانا..."، وأجعلها ترسم الصليب. نادى أفسس من الغرفة.
- حسناً تفعلين، دعيها تنشد، لا تتركها بلا دين!.. قولي لها "دزه"¹ ودعيني أسمعها.

- تعالي يا ماشا، أسمعين ما يقول فيدور؟ ابتهلي إلينا! ابدئي! مهلاً ألم أقل لك أن ترسمي الصليب قبل أن تبدئي، - لا ترى أفسس فيدور الواقف إلى جانب الباب يُصغي. هذا ما يجب أن تفعله: ضمي أصابعك الثلاث في كتلة واحدة، قربيها أولاً من جبهتك. ثم إلى صدرك، وأخيراً المسي جانب كتفك اليمنى، فاليسرى. مرحى لك أنت مطبعة، رسمت جيداً. والآن قولي "يا أبانا" أسمع فيدور! سيُتني عليك!

يبتعد فيدور عن الباب على رؤوس أصابعه، ويُنصت وهو يكس أرض الغرفة.

- لا تخجلي، إن أخطأت فسيصحح لك فيدور. أليس كذلك يا فيدور؟

- نعم يا أفسس، نعم.

- اسمع، لست أنا، ماشا هي من تتكلم، - تغيّر أفسس صوتها وتنطق: "يا أبانا الذي في السموات لِتُقَدَّسَ اسمك، ليأت ملكوتك، ليأت ملكوتك،... خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا...".

¹ جيش بالأدبغة.

حين أنهت أفسس ما كانت تمليه على الدمية امتدحت ماشا دون أن تفهم أنها إنما تمدح نفسها:

- عفارم، ألقيت جيداً! والآن هل تعرف يا فيدور ما سأجعل الدمية الأديفية تقول: "قل هو الله!" هيا يا "سراس" قولي! لن يفهم فيدور ولو أصغى، - تخاطبها باللغة الأديفية.

- ولماذا لن أفهم؟ أظننني أني نسيت الأديفية؟ - ينادي فيدور متعجباً مما سمع.

- اسمع إذن. قولي يا سراس، قولي ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾! قل هو الله أحد. الله الصمد، لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد¹ مرحى يا سراس لفظت جيداً. هل فهمت يا فيدور؟ وقفت أفسس إلى جانب الباب ممسكة بكل يد إحدى الدمييتين، الروسية والأديفية، تنظر نظرة خبيثة.

- وكيف أفهم، - العجوز فيدور يصالب ذراعيه - ما لم تقوله بلغتنا؟ - قلتُ بلغة القرآن.

- من علمك لغة القرآن؟

- علمتني نانا! كانت تقرأ حين ننام... إن شئت شرحت لك المعنى بالأديفية. - نعم، ليست معرفتها زيادة.

- ها هو المعنى بالأديفية إذن: الله رحيم، الله واحد، الله سند، ليس له أولاد، ولا أب. - وبعدها وقفت قليلاً بوجه متوهج سألت: هل فهمت يا فيدور؟

وكيف لا أفهم! ما قلته عجيب... - ثم قال لنفسه: - أنا فهمتُ غير أني لا أعرف إن كان الأب غيورغي بالبوسيف سيفهم.

- ولماذا لن يفهم؟ - نصت أفسس برأسها كما تفعل حين تسمع ما لا يوافقها.

¹ النص القرآني بالعربية.

ورفعت رأسيَ كنفيتها: - إذا كنا أنت وأنا حفظنا "يا أبانا" فليحفظ الأب
غيورغي "قل هو الله" أيضاً!

- هذا صحيح... - ولكنه رجاها مرتعباً مما قاله: - ألن تصعب عليه لغة من
ليس موفداً من الله؟

- وأنا ألم يصعب عليّ "يا أبانا"؟ ومع ذلك حفظتها!
- أنت فتاة مهذّبة يا أفس. أنا راضٍ عنك. تعلمت كيف ترسمين الصليب
وكيف ترتلين الصلاة. لست وحدي من يرضيه هذا بل كل من يسمعك،
وسيتعجب.

- وتريشكا أيضاً؟

- وتريشكا أيضاً، وسيُثني عليك الجنرال نيقولاي بافلوفيتش، غير أن الأب
غيورغي سيكون أكثر الناس فرحاً بإنشادك...

مع أن أفس انتهت من التعبير عما في قلبها، وعادت تلعب مع دُميتها فقد
تفكّر فيدور في الأمر المفاجئ الذي عَرَضَ له. رسم الصليب بضع مرات مرتعباً
من موافقته الصبية على الدعاء الإسلامي. ودعا إلى الله أن يغفر له ما قاله عن
حسن نية.

يقول العجوز فيدور: ما أعجلني هو أني كنت راغباً في أن أفعل خيراً لأجلك.
ثم إن كلامي لم يكن خارج علمك. لا ننساك حين نغيب عن حضرتك. نفعل
كثيراً مما لا نود فعله مدفوعين باللهفة على مكان آمِنٍ نلجأ إليه، يُضاف إليه
عدم الرضا والجهل والسداجة. أعرف أنك لستَ من وراء هذه الحرب، ولا
نحن. كلٌّ من يفكر في شن الحرب التي هي الخراب، كائناً من كان، ظالمٌ روحاً
وقلباً وتحملاً. ولولاها لما حدث لي، ولهذه الصبية ما حدث. لا أتحدث عن
نفسي فقد عشتُ ما عشت بمعروفي وبدنوبي. وإن قلت هذا فلا أنذكر يا إلهي
العزير أني قلتُ أو فعلتُ بإرادتي أمامك وأمام أي إنسان ما لا يجوز. وحين

أُسرتُ، لم أنسك ساعة واحدة وإن وافقت من أسروني أو أكلتُ من طعامهم، كنت مخلصاً لك بقلبي وبروحي. وأما الآن فحياتي في يديك، ولا تخفى عليك. اغفر لي، لن أذنب بحق الصبية التي ليست من قومنا. وهي السبب في أني بين النارين ولو أحرقتاني. هل تتصرف على نحو صحيح مع التي وجدتُ فينا مأماً؟ أليس الأفضل أن نصارحها بما نؤويه لها من أن نتسلل إلى قلبها بالخديعة؟ لا أريد أن أتهمهم ظلماً فالحق أني طوال سنوات أسري التسع، وأنت أدري بهذا، لم يُكرهوني على اعتناق دينهم. وكثيراً ما رأوني أرسم الصليب علامة على أنك في قلبي... قل لي، جئني الخطأ في ما سأسلك مع هذه الصبية. قلب الإنسان الواحد لا يتسع لدينين!..

- يا فيدور، - تنادي أفس من وراءها بالروسية، ويصحو فيدور من أفكاره،
- تخاصمت ديميتاي.

- ماذا جرى لهما؟

- تتنازعان على اللغة. كلتاهما لا تعرف إلا لغتها.

- ما تقولينه عجيب، - نظر فيدور إلى الدميتين الروسية والأديغية اللتين تدير كل منهما ظهرها للأخرى، وهزّ رأسه، وابتسم، - ما جرى لهما هو أنهما لا تتفاهمان باللغة، أليست هذه مأساة؟

- طبعاً مأساةً ألا تستطيع مكاشفة الآخر بما في قلبك. - توافقه أفس بكل جدية.

- إذن يا أفس أنت وأنا محظوظان أكثر من هاتين الدميتين. نتكلم اللغتين، ونتصارح بما في قلوبنا.

- هذا بديهي. في كل الأحوال أنا أعرف الروسية، وهذه لا تريد البتة أن تتكلم الأديغية. - لامت أفس الدمية الشقراء. - وهذه الأخرى ليست صالحة، إنها عنيدة.

- على ما يبدو يا أفسس فهُمُهما محدود. لا تزالان طفلتين، ربيهما وعلميها...

- لا أدّخر جهداً. - تتمم أفسس جدياً، - ولكن، كما كانت تقول نانا، لا ينجح أمرٌ فيه إكراه...

تألم قلبُ العجوز فيدور الآن أيضاً. ورسم الصليب وهو يفارق قائمة الباب. هل سمعت يا إلهي العزيز ما قالت الصبية؟ كيف نغمض عينينا ونرغمها على تقبّل ما في قلوبنا وما ليس فيها ؛ فنأثم بحِفّها؟

VIII

أفاقت أفسس بدلاً من أن تستمتع بالنوم في الصباح البالغ النعومة. لم تفهم في البداية أين تنام. كانت عاداتها حين تستيقظ مبكرة أن تحمل محدتها وترتمي في حضن فيدور العجوز الدافئ غير أن فراش الأخير كان مرتباً تماماً. وكانت الوسادة المربعة الصغيرة تستقر وحيدة على الفراش. وبالبالا لا يكا ملجأ فيدور في حزنه وفرحه معلقةً بالجدار. وأشعة شمس الربيع تعبت في الغرفة، والباب نصف مفتوح.

أنصتت أفسس - لا يصدر أي صوت من الغرفة المجاورة.

- فيدور! - ولما لم تسمع جواباً قلقت. - فيدور أين أنت؟

ليست الغرفة وحدها بل الخارج أيضاً مريع. الرعب الذي داهمها جعلها تقفز من السرير بتياب النوم. فتحت الباب على مصراعيه. وهجمت على النافذة. - لم تر في أرض الدار ما يُطمئن. باب الحظيرة مفتوح إلى آخره. والعربة ليست في مكانها المألوف. وما زاد قلق الصبية هو بندقية فيدور - هي أيضاً ليست وراء الباب.

ركضت أفسس إلى الخارج. وكانت الدار الخالية مصدر خوف.

- مشد، يا مشد!

والكلب لم يُحب.

اضطرب قلبُ أفس كما لم يحدث البتة في الأشهر التي قضتها في الجيش الروسي. وصاحت باتجاه العيادة وهي لا تسمع صوتها من بكائها:

- سيرغي بيتروفيتش!.. سيرغي بيتروفيتش!

خرج بلوتالوف من العيادة، وارتقى إلى المسطبة جنديً على عكازتين. ونظر غيظه عبر النافذة.

- أين فيدور يا سيرغي بيتروفيتش؟

- هل استيقظت يا أفس؟ يلاطف سيرغي بيتروفيتش الصبية المرتعبة. - لم يذهب فيدور بعيداً، سيعود سريعاً. لماذا لم ترتدي ثيابك يا أفس؟ هيا أسرع، عيب أن تبقي في ثوب النوم الرقيق في حضرة الجنود. أنت الوحيدة، على قول فيدور، التي ترتدي غطاء رأس بين لابس القبعات.

انكمشت أفس قليلاً في البداية خجلةً حين سمعت كلاماً على ثوب النوم النسائي الرقيق. ثم نظرت من نافذة العيادة المفتوحة، وركضت إلى الغرفة. ومدت رأسها من الباب الموارب وسألت:

- مشد أين هو؟

- ومشد مع فيدور. حان وقتُ عودتهما. البسي واغسلي يديك ووجهك. وفطورك على الطاولة.

حين دخل سيرغي بيتروفيتش إلى الغرفة كانت أفس جالسة إلى الفطور وقد نفّذت تعليماته كلها. ومن طرفي الإيشارب الحريري المعقودين عند ذقنها تبدو خصلات شعرها الرقيقة. ومن الغرفة الأخرى يبدو فراشها مرتباً. ومن خطوط ماء الإبريق الرفيعة على أرض الغرفة الترابية تعرف أنها كنستها.

- اجلسي، لا داعي أن تنهضي، - قال الطبيب بلوتالوف مسروراً لمظاهر الاحترام على الطريقة الأديغية التي تبديها الصبية نحوه. - أنا دخلت هكذا

دون سبب معين.

- غاب فيدور طويلاً أيها الطبيب سيرغي بيتروفيتش، - قالت أفس وهي ترفع المائدة. ونظرت بعد قليل إلى الغرفة الأخرى وأضافت: - ليس من عادة فيدور أن يحمل بندقيته إذا ذهب إلى مكان ما...

صدر صوت عربة من أرض الدار.

- أظنه صوت عربته ومن معه... - خرج سيرغي بيتروفيتش من الغرفة مسرعاً، وتبعته أفس. خرج أحدهم وحده من العربة بمعونة من يعصب يده وفيدور، والآخر أخرجه ثلاثة رجال على مرأى من أفس التي عرفت أن جرحه خطير. كانت كتفه ورجله اليسرى معصوبتين.

- ماء... اسقوني ماء... - يتوسل.

- نيقولاي، حالاً يا ولدي، - يرجو فيدور الشاب الجريح، ويتوسل إليه. - سيعاينك حالاً الدكتور سيرغي بيتروفيتش.

تعرفت أفس صوت تريشكوف نيقولاي. انفعل قلبها، واضطربت رؤيتها. لا تفهم لماذا لا يسقون هذا الذي يتوسل الماء بهذا الإلحاح.

تُسرع أفس إلى الغرفة وتخرج شيئاً من الماء. وتدخل العيادة وهي تسكب الماء على نفسها غير عابئة بالكلب الذي يتبعها. بقيت بعض الوقت وراء الرجال الثلاثة الذين يعتنون بالجريح. ثم دلتهم على نفسها من خلال عتابها لهم على حرمان تريشكوف من الماء:

- فيدور لماذا لا تسقون تريشكوف ماءً؟

التفت فيدور العجوز ورأى الماء الذي تمدّه أفس فجزع:

- لا تقفي هنا يا أفس!

- خذوا منها الماء، وقربوا قطعة القماش المبلولة من شفتيه... - قال لأفس الطبيب المديّر ظهره: - لا أخاطبك يا أفس، بل فيدور، أنت عودي إلى

غرفتكَ...

كان قلبُ أفسس في العيادة ولو أن جسدها في أرض الدار. ولم يكن على المسطبة من تكلمه أو من ترتاح إليه. ولما لم تجد في الفناء من يفهمها غير العربِة المربوطة إلى الخيل، ومشد، فقد تذكرت الكلب وسألته:

- أين كنتم يا مشد؟.. كيف جُرح المسكين تريشكا؟.. لا تقلق يا مشد، تريشكا سيُشفى... ألم تسمعه يطلب الماء... متى طاب تريشكوف فامتنع عن إزعاجه بالنباح يا مشد. هل توافقني؟.. تعال لن نترك العربِة الجاهزة أمام الباب كأنها بلا مأوى... ونعيد بندقية فيدور إلى مكانها.

بعد قرابة ساعة ونصف عاد العجوز فيدور إلى الغرفة. ركضت الصبية المهرقة من الترقُّب إلى جوار الفرن حين سمعت صوت دخوله:

- ما أخبر تريشكا يا فيدور؟ هل سقيتم المسكين ماءً؟

- كل شيء على ما يرام يا أفسس، اطمئني، - حين كان فيدور يشمر عن ذراعه حملت أفسس الإبريق، ووضعت الطشت أمامه، - تريشكوف نيقولاي لا يزال شاباً في مطلع عمره، جسمه متين، نتأمل أن يقف على رجله في غضون شهر... وأما سؤالك إن كنا سقيناه ماء فهذا وضعه يا أفسس: أفهم أنك جزعت لحال الجريح فأشفقت عليه ولكن من جرحه خطير لا يُسقى، بل تُمسح شفتاه بخزقة مبلولة كما كان يطلب سيرغي بيتروفيتش... نيقولاي لا يزال شاباً في مطلع العمر، سيُشفى. سندعو إلى الله أن يُشفى.

وقف فيدور أمام صورة الإله المعلقة في زاوية الغرفة، ورسم الصليب. وفيما هو يتضرع إلى الله ويُتمتم شعر بوقوف أفسس إلى يمينه. ورأى رسمها للصليب. ولم يُبدِ شيئاً.

- الآن يا أفسس - قال فيدور العجوز بعدما فرغاً من الابتهاال إلى الله - سأستلقي قليلاً لأنني أشعر بالنعاس.

- وكيف تنعس دون أن تأكل يا فيدور؟

- أكلُ بعد أن أستريح قليلاً.

جهزت أفسس الفراش بسرعة. وقلّبت الوسادة عدة مرات فنفتحتها. وحين شرع

العجوز يخلع حذاءه هجمت عليه:

- هات، أنا سأخلعه عنك.

- لا، لن تقدرني عليه.

- هل تظني صغيرة جداً؟ لماذا لا أستطيع؟

أرتجحت أفسس الباب حين نام العجوز، ووضعت فردي الحذاء في الطشت

لتغسلهما. وحين سمع فيدور صوت الطشت صاح:

- اتركي الجزمة، أنا سأغسلها!

لم تُحر أفسس جواباً. وبعدها قامت بواجباتها أفرغت ماء الطشت. وعلقت فردي

الجزمة على قائمتي الباب غير بعيد عن بيت الكلب. ولم ترفع عينيها عن

العيادة ما دامت في أرض الدار.

لم تر في الفناء من تسأله عن أخبار الجرحى ولا سيما تريشكوف. ولم تجد

مسوغاً للذهاب إلى الطبيب سيرغي بيتروفيتش، ولكن صوت انفتاح نافذة

العيادة لفت انتباه أفسس. أشار إليها سيرغي بيتروفيتش. وحين هُرعت إليه

وضع إصبعه على شفثيه بما يعني أن لا تثير ضجة، وهمس في أذنها:

- أراك لا تسألين عن تريشكوف يا أفسس!

- أخبرني فيدور أنه سيُشفى. - همست هي الأخرى في أذنه.

- إن أردتِ سمحي لي لك برؤيته. انظري إلى هنا، - ها هو، هل تريته؟ نائم.

لم تحتج أفسس إلى الوقوف على رؤوس أصابعها. نظرت بعينيها السوداوين

الصافيتين عبر النافذة فرأته على السرير الملاصق للجدار. وجهه شاحب تماماً

كأن لم تبق فيه قطرة دم. وعيناه مغمضتان، ويتنفس بصعوبة.

- سيُشفى... - قالت أفسس، وأبعدت بصعوبة وجهها الممتقع عن النافذة. ثم كررت كلمات فيدور الأولى الباعثة على الأمل: تريشكوف نيقولاي لا يزال شاباً، في مستقبل العمر...

لم يكن لدى فيدور الذي لم ينم أكثر من ساعة، وأفسس، حديث طوال النهار إلا حديث العيادة. والعجوز، وإن كان لا يبدي انفعاله أمام الصبية، يرتعب كلما سمع صوت الباب. ولا يجد راحة في البيت إلا في اللحظات القليلة التي يعود فيها من عيادة الشاب الجريح. وفي هذا الوقت تثير أسئلة أفسس التي لا نهاية لها ونظراتها الحزينة أفكاراً كثيرة غير متوقعة من حيث لا يدري.

لستُ أشكو، يقول العجوز، تحملت كثيراً من هذه المصائب، جُرحتُ وشُفيتُ، وأُسرتُ وعدت منه. وحدث أن أُهنتُ وأن كُرمِت. مهما كان جلد الإنسان سميكاً وتحمل ما تحمل فما أسهل أن يتمزق. من السهل جرح أمثال قلوب أفسس الصغيرة، ولكن شفاءها صعب. ليتها لم تسأل كيف جرح تريشكوف. جرحه أبناء قومك. لا أستطيع أن أدعي أنهم ظلموه. أفسس فتاة حكيمة، ولا أظن أن هناك ما لن تفهمه، ولكن كان الأفضل لها ولي ألا تسأل. كان من الممكن أن تعرف أن مصيبة ما تنتظر الشاب المنحوس. ما أكثر ما نصحناه وما عاتبناه!.. لماذا ترمي شرارة حيث لا ضرورة فُتُحرق نفسك بها؟ ليس من الرجولة أن تغير ليلاً على قرية هادئة بحجة أنك ستنتقم لأملك وأبيك. هذا عيب. ما ذنب الأطفال والنساء والمسنين؟ إن سمع قائد الجيش ما فعلتم الليلة فلن يقبل منكم... حين تنهد العجوز فيدور ثقيلاً من الأفكار التي داهمته نظرت أفسس العابسة واجمة. وسألته.

- ألا تتق نيقولاي تريشكوف يا فيدور؟

- الله وحده يا أفسس - نهض العجوز بصعوبة وأمسك بالبالا لا يكا المعلقة على الجدار، وتذكر من جلبها له، قرخ، - بعد الله أنا واثق من تريشكوف الفتى

المنحوس... سُشْفى، لا يزال شاباً... يا حسرتي يا أفس يا بُنتي، يا لَدُنْيانا المركبة بطريقة تؤلم القلب!.. لا تميز إنساناً من غيره، لا تسأل إن كنت غنياً أم فقيراً، من عرق كثير العدد أم قليله، يصل البؤس إلى الجميع، ويهزّ الجميع، - شدّ العجوز أوتار البالالايكاً بإهمامه بطريقة تعبّر عن رغبته في التنفيس عن كربه، وشيئاً فشيئاً امتلأت الغرفة باللحن الحزين.

زادت ألحان البالالايكاً الحزينة قلب أفس وهناً على وهن. تلتصق بظهرها النحيف بالفرن الذي تجلس إلى جانبه كأنها تريد أن تدفن نفسها في حفرة ما. وحيدة، لا أهل لها، والوحيد الذي يمكن أن تحدّثه مستغرق في عزفه، يبكي من آله، لا يتكلم.

- فيدور! - أغلقت أفس بلا شعور فوهة الشبابة. - كفى، توقّف! - أفس يا بُنتي!.. هل تبكين؟! - يصحو العجوز حين يرى دموع أفس، ويضرم إليه بقوة الصبية التي تكاد تنفّس، يمسح الاثنان دموعهما وقد اتحد حزنهما.

IX

صدّق تريشكوف توقعات الدكتور بلوتالوف والعجوز أناكسيفيتش فيدور والصبية أفس وغيرهم من رفاقه في الجيش بأن شبابه سينقذه من الموت. لم تدعهم الرّجلُ المجرّحة ينتظرون شفاءها طويلاً لأنّ العظم بقي سليماً، في حين بقي طريح الفراش بسبب كفه. وشبابه يقاوم الجرح الذي يرفع حرارته. ويتوقع انتصاره.

أفس هي من لم تفقد الأمل البتّة. لا يمر يوم منذ أن تحسّن وضع الجريح دون أن تطمئن عليه مرتين أو ثلاثاً. ولكن هذا لم يمنعها، ولو لم تسأل فيدور، من أن تخمّن سبب تعرضه للجروح. كانت قد سمعت المرضى في المشفى قبل أيام يتحدثون فيه مواربةً. وأشدّ ما استغربته هو أن قائد الجيش عبّر عن استيائه،

وأعلن أنه سيعاقبه ما إن يقف على رجله. ومع ذلك يتوقعون كل يوم أن يزور الجريح. - ينظفون المشفى، ويمسحون أرجاء الدار.

تبسم أفسس في وجه الجريح وتقول: كيف يمكن معاقبة هذا المسكين؟ ثم إنه فعل ما فعل، وكسب الذنب المستحق. ودفع ثمن ظلمه. وما يقوله فيدور صحيح. الثأر أعمى عديم الرحمة، لا يجوز الاحتفاظ به في الصدر. فكّر في الألم الذي تسببت فيه، وما كان سرتدّ عليك... ما كنت لتتردع دون أن تقلع عين أحد، ويكسروك بالمقابل...

- هل قلت شيئاً يا أفسس؟ - يسأل تريشكوف.

- ماذا؟

- تبسمين!

- توهّمت!

- تفكرين في موضوع ما.

- عندي ما أفكر فيه.

- حسنٌ إن كنت تتفهمين هذا... كان بودي أن أقول لك منذ بعض الوقت يا أفسس، - أزاح نيقولاي باليد اليمنى السليمة عُرتّه، - اغفري لي إساءاتي إليك... لا ذنب لنا أنتِ وأنا... ولا تعني على المسكين ماخاتازه بيسو. لا يعرف راحة البال سواء كان يراك أم لا... ربما كان الله قدّر لنا ما حصل لكلينا...

- وما حدث لك الآن أيضاً؟.. - نهضت أفسس بسرعة وقد شحب لونها.

- إلى أين ذاهبة يا أفسس؟

- هل عليّ أن أبقى طوال النهار هنا؟.. - انصرفت أفسس ورأساً كتفيها الصغيرتين ناتئتان. وحين وصلت إلى قائمة الباب استدارت وأضافت بصوت أنعم، - الأفضل من هذا أن تفكر في ما ستقول للجنرال نيقولاي بافلوفيتش

- حين يأتي لزيارتك... ماذا ينفعني ماخاتازه إن أتيتم لي على ذكره؟! حين دخلت أفسس إلى غرفتها بحثت عن العجوز فيدور فلم تجده. وخرجت دون أن يسمح لها ما يعتمل في قلبها بالبقاء. كيف لم تره؟ ها هو يشحّ عجلات العربة. ومشدّ مُقْعٍ إلى جواره دون أي نفع. بقيت أفسس بعض الوقت صامتة على المسطبة. ولم تستطع إلا أن تنظر نحو المشفى.
- هذه أنت يا أفسس؟ سألها العجوز حين دنت منه دون أن يرفع رأسه عن العجلة: ما أخبار مريضنا تريشكوف إن شاء الله؟
- مهموم بما سيجيب به الجنرال إن سأله... - تظاهرت أفسس بالابتسام، ثم لم تُخفِ الخبر الجديد الذي لم يصل إلى أحد: - هل تعرف يا فيدور ما يقول؟
- سأعرف إن أخبرتني.
- ندم على ما فعله.
- وأخبركِ أنتِ أيضاً بهذا؟! - رفع العجوز رأسه بسرعة، وأجاب على سؤاله:
- إن كان أخبر شخصين بما في قلبه فهو يقول الحقيقة. هذا حسن. يتخلص قلب الإنسان من الظلم.
- أنا لا أُصدّق!
- لماذا؟
- لماذا طلب مني إذن أن أسامح المجرم؟ - رفعت أفسس رأسها مع قامتها المشدودة. ونتاجت كتفها.
- إن كان قال لك هذا أيتها الصغيرة فهذا حسن. وهو يصحو. ويودّ لو يُصحّيكِ أنتِ أيضاً. ألم نتفق أنا وإياك أن نعيش هكذا؟
- نعم اتفقنا، ولكن هذا لم يكن عادلاً.
- العدل والظلم يمكن أن تفهمهما بأشكال مختلفة. هذا يتعلق بالقائل، ومن يُقال له. ما يمنح الحياة للإنسان هو الرحمة وليس الظلم. أنا فرح لأن

تريشكوف بدأ يفهم هذا.

- حسنٌ يا فيدور إن كان هذا رأيك.. سأطيعك... ولكن لا أتحمل رؤية المجرم!
لا أعرف... أنا أريد ولكن لا أريد أن أسمع سيرته.

"أنا أريد ولكن لا أريد أن أسمع سيرته" كرر فيدور كلمات الصبية. تذكر ما كان قاله جافز لمامي وقرخ - "بالله عليكم أن تُبعدوا هذا الكافر عن وجهي، لا تدعوني أذنب بحقه!" "من يتسببون في ذنوب الإنسان هم الجنّ. قال فيدور. والوحيد القادر على هزيمته هو الله. ها هو الجنّي البغيض داخل الصبية..."

- يا فيدور، توصلت الصبية بصوت حنون - أخبرني حين يقرر نيقولاي بافلوفيتش زيارة تريشكوف.

- وما حاجتك إليه؟ - قد يكون بينهما حديث خاص.

- لا أسرار لمن يزور المريض، - قالت أفسس واختتمت بنظرة خبيثة: - يا فيدور لأن تريشكوف يخاف من الجنرال.

في اليوم نفسه، قرب الظهيرة تحقق لأفسس ما تريد. رأت الجنرال غرايه يدخل دار المشفى فركضت تستقبله:

- من هذه التي أراها ؛ أهى أفسس؟! - قابلها الجنرال بالترحيب - كنت آتياً إلى طرفكم.

سمّر الخبر الذي سمعته أفسس لا يحير جواباً. ثم بادرت بالإفصاح عما يشغل بالها:

- كيف تأتني إليّ في حين ينتظرك هناك تريشكا؟

- أين هو سمّي هذا؟ - سأل الجنرال كأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع. - يقال إنه يختبئ مني في المشفى.

- كان جرحه خطيراً... - استعجلت أفسس بالإجابة لا تعرف السبب: -
والآن هو أحسن.

- هكذا! إذا كانت حاله تحسنت فهيّا. انظري ما سأفعل به!

تمنّعت أفس من السير مع الجنرال ويدها في يده:

- تعالي يا أفس، تعالي. ماذا يفعلون عادة بمن لا يسمع الكلمة؟

- ولكن... رجله فقط هي التي شُفيت... لا تزال كتفه تؤلمه.

- عند تريشكا حجة ممتازة... - الجنرال يضحك، ويمسح على رأس الصبية. -

تعالي، في كل الأحوال نعود المريض.

ما إن دخل الجنرال الغرفة حتى دفع أفس أمامه وتوقف هو أمام قائمتي الباب. وقال لتريشكوف أمامه المعصوبة كتفه:

- من حُسن حظك يا سَمِّي أن أفس دعمتْك. أنا أعرف ما تستحقه! -

يلالط الجنرال تريشكا الجريح فيما يجلس على الكرسي الذي أشاروا إليه،

ويومئ إليه بيده: - اجلس يا ولدي، اجلس. أنظر إليك فأراهم قد أنحفوك

جداً، وغيّروا لون وجهك. وربطوا يدك إلى جسمك. جعلوك في غاية

الرشاقة... ثم كيف حالّك وجرحك؟

- الجرح يطيب يا نيقولاي بافلوفيتش. ونظر إلى الطبيب كأنه يريد منه

مساندته، وشمل بنظرته الصبية. - شكراً للطبيب سيرغي بيتروفيتش وفيدور

دانيلوفيتش، لا يدخران جهداً.

- وأفس؟ - ييشّ الجنرال في وجه أفس الواقعة عند جانب السرير. - أليست

أفس بينهم؟ لم تأتِ على ذكرها؟

توهّجت وجنتا تريشكوف حين ذكر اسم أفس. وأسبل جفنيه خجلاً. وبدأ له

أن الأرض تحسّف به. وأمسك بيده الرطبة الرقيقة المسند الحديدي البارد

للسرير.

أنقذ سيرغي بيتروفيتش موقفه:

- أفس لها شأن آخر. يا نيقولاي بافلوفيتش. لم تترك مريضاً لم تنفعه.

- وهذا هو سبب سؤالها ؛ خيّل إليّ أنّها هكذا. إنّ لم تنفعكم فمن عندنا ينفعكم، أليس كذلك يا أفس؟

- الله، ثم سيرغي بيتروفيتش، ثم أفس من شقوني يا نيقولاي بافلوفيتش. -
أجاب تريشكوف بدلاً من أفس. سهرت على راحتي يوماً طوال شهر كامل.
- لهذا أقول إنّ أفس فتاة مهذبة رحيمة. - أثنى الجنرال مرة أخرى على الصبية. - تعالي يا أفس لن نثني على سمّي ونحن نعرف تصرفاته غير الحسنة. ما إنّ يشفى، ويخرج من المشفى حتى نفكر في ما سنتصرف به في حقه. وإلى وقتها لابد أن يكبر عقله، ويتحكم بسلوكه. لو كنت محلك يا سيرغي بيتروفيتش لاستعملت معه أشدّ الحُقن إيلاًماً، - خرج الجنرال من المشفى وجده يخالط هزله.

أفس تقيم في البيت راضية بتصرف الجنرال مع تريشكوف، ولكن دون أن تُبدي ارتياحها. كنست من تلقاء نفسها، ليس بطلب من فيدور، بل حتى تلميح منه. ومسحت، وسقت الورود التي على النوافذ. والآن تقف أمام المرأة الجدارية: مشطت شعرها ووضفرتة، وأصلحت وضّع أطراف غطاء الرأس كما كانت تفعل أمها، وبلّت بريقها إصبعها، ومسدت بها حواجبها. الجنرال رجل صالح: عاد نيقولاي تريشكوف رغم معرفته بإجرامه، ومازحه... ولكن لا أعرف إنّ كان سينقذ ما عرض له به عن طريق المزاح...

ليس لأول مرة يرى فيدور العجوز وقفّة أفس أمام المرأة. في هذا الشهر بدا اهتمامها بالمرأة أكثر مما مضى. بدأت بالإضافة إلى المرأة تغسل ملابسها بنفسها، وتُغني بهندامها، ويغلبها حياؤها، وتحرص على نفسها في ما تقول وتفعل. هذه هي الحياة، قال فيدور، لا يضيع ما تزرعه الطبيعة الإنسانية في كل إنسان. هذه التي لم تزل طفلة لا تسمح لنفسها أن تنسى أصلها. كيف سنعيش معاً حين تكبر أيضاً؟! لم نتعامل بصدق مع الصبية منذ اليوم الأول.

لماذا قيّدناها قيداً غير مرئي واحتفظنا بها نلقئها ما في نفوسنا، ونحملها على أن تتصرف كما نريد؟ إذا كانت فقدت أباه وأمها أفلم يبق في العالم أحد من قومها؟ لا تحتاج إلى أكثر من غلوة حصان لتعود إلى قومها. الأديغة يحمون أيّ إنسان منهم كائناً من كان أهلها. إن أوصلناها إلى ظاهر إحدى القرى فسيحضرها أول بيت يفتح بابه. وإن لم أفعل هذا كفى أن أخبر تغانه قرخ الذي خرجت من عندهم، ولن يتأخر البتة في التلبية.

لا أحد يعرف هذه الصبية كما أعرفها أنا، ولا أحد يستطيع معرفتها والتفاهم معها مثلي. صحيح ما يقال من أن العود يُخنى وهو طري. ولكنك مضطر أن ترضى بكثير مما لا توده باختيارك. وسترضخ لكثير مما كنت تأباه. الحق أن الجنرال رجل صالح رحيم طيب القلب لا يستحق اتهاماً بما ليس فيه. ولكن لا أرى معروفة ورحمته ومتابعته في شأن هذه الصبية صحيحة. لا يمكن أن تجعل منها روسية إن أتيتها بكتابات تعلّمها لغتنا وأدعيتنا وطريقة صلاتنا، وعمدتها في الكنيسة. وفي هذا الشأن يُفني الأب غيورغي بالبوتسييف نفسه عبثاً. ليس تعلم طريقة الصلاة شيئاً مهماً. — يتقبّلك الله عبداً من عباده متى تقبّلت الدين بقلبك، وآمنت به، وأخلصت له. وبقيت على اعتقادك مهما وقعت في أسوأ الظروف. فطنة أفسس سريعة ولذلك لا تعدو أن تكرر ما يلقيها الأب غيورغي. وتفعل هذا مضطراً، لا من قلبها. لماذا إذن هرب الأب من البيت راسماً الصليب حين أصرت الصبية عليه قائلة: ولماذا لا أتلو أدعيتي الإسلامية؟ ماذا أنتم ؛ تأتون إن أردتم وتهربون إن لم يعجبكم؟ إن ابتمست لكم الصبية امتدحتمونا وإن صادفتم لحظة حزن منها هربتم واغتمتمونا. ليست هذه دمية مطيعة تجلس وتقوم على مشيئتك. من السهل أن تعرف ما في قلب الصبية نحونا من تصرفها مع الضابط المسكين ماتهازه. إلى من ينتمي الضابط ماتهازه؟ أليس إلينا؟ كيف لكم أن تعرفوا بأي لغة تتكلم أفسس في الحلم وأنتم

لا تقيمون معها في بيت واحد؟ بين دُماها الأربع ثلاثٌ يحملن أسماء أديغية. تكلمهن بالأديغية، وتدللهن. وتتوسل إليهن وتلاطفهن. ومن غضب الله عليها هي الروسية التي تحمل اسم ماشا. تبدأ بإجبارها أن تتعلم الأديغية وتقرأ " قل هو الله " فتعنفُها، وتلطمها، وتطلب من الدمى الأخرى أن تصارعها وتقاتلها. وحين أقول لها: لا تفعلي هذا، حرام عليك، تجيبي: وأنا ألا أستحق الرحمة؟ ألسْتُ مظلومة؟ فتلومني. لا يجوز أن نحاصر الصبية فنُذنب بحُجَّها. مهما أطعمت الذئب عاد إلى الغابة... اغفر لي يا إلهي العزيز مقارنتي الإنسان، أيَّ إنسان، بالذئب! ثم أين أذهب بهذه الصبية التعيسة؟ صارت جزءاً من روحي... أتتذكر، ليس هذا دون علمك، ما أسدى بنو قومها إليّ من معروف من أجل أن أعود إلى هنا؟..

X

- يا فيدور، عاد فانو أميلاخفاري! - خرجت أفس من الغرفة مسرعة.
 - يا أفس، يا بُنتي، ما أشد ما كبرت - استقبلها أميلاخفاري الأمير. قفزت إلى عنقه، ودار بالصبية عدة مرات، ورفعها وأنزلها بضع مرات. دعيني أتأملك، اشتقتُ إليك! ما أسرع ما كبرت! ألا تلاحظ يا فيدور كم كبرت في هذين الشهرين؟!

- نعم، ألاحظ أيها الأمير، - لا تتسع شفتا فيدور السميكتان للفرح. - ولكن ما بطراً من تغرُّ على من تراه دائماً قليل، وما يمرّ به من أحداثٍ أكثر.
 - ما الأمر يا فيدور، هل أنت قلق على أفس؟ ألا تسمع كلمتك؟ - ييشّ الأمير فانو للصبية. ويريت عل رأسها. ويُخرجها من الغرفة ممسكاً بيدها إلى جانبه.

- ليس بيننا بفضل الله شيء من هذا إلى الآن أيها الأمير. يبتسم فيدور لأفس. - لا أعرف نيتها الحقيقية، تتصرف الآن كفتاة ناضجة.

- فيدور!.. - صرخت أفس على نحوٍ لا تعرف معه إن كانت مرتاحة لهذا الوصف أم لا. وتدير ظهرها للعجوز.

- ولماذا لا تتصرفين كفتاة حقيقية يا أفس؟! - يقول الأمير - ألهذا ارتديتِ غطاء رأس؟.. انظري ماذا أرسلوا لك معي.

تقف أفس على رأس صندوق الكرتون الكبيرين اللذين أدخلتا إلى الغرفة لا تعرف بأيهما تبدأ. الصندوقان متشابهان في الحجم واللون والتعبئة. نظرت أفس بطرف عيناها إلى فيدور كأنها تسأله بأيهما تبدأ. وفيما هي مترددة بينهما تسأل أميلاخفاري بعينها.

فيجيب الآخر:

- افتحي مَنْ نظر إليك أولاً.

- ولكن الاثنين ينظران إليّ... - لم تدعهم ينتظرونها.

- ما محتواه أفضل - يمزح فيدور.

- وكيف أعرف ما محتواه أفضل؟ - تمد يديها على الصندوقين. وتبدأ تهزّهما.

- هذا أثقل!.. - التمعت عينا أفس.

- أعرف ما يستحقان - فتح الأمير فانو الصندوقين.

زاحت عينا أفس لما رأتا: الأثقل منهما مليء بالماندرينا والبرتقال. ومن الثانية تبدو ملابس. وفوق الملابس دمية كرجية ترتدي ثوباً أسود طويلاً وغطاء رأس يناسبه. وقفت أفس لا تعرف ماذا تتناول أولاً، ثم سألت وهي تعرف أنها مجرد دمية:

- ما هذه؟

- هذه دمية كرجية، أرسلتها لك أنا ألكساندروفا.

- ومن هي؟ - تسأل أفس عن صاحبة الاسم.

- أنا ألكساندروفا زوجتي. تحدثتُ عنك لها فعبرت عن رغبتها في رؤيتك.

وسألت عنك. وأرسلت تحياتها لك معي.

- لماذا لم تصحبها معك إذن؟

- كان يمكن أن أصحبها.

- ولكنك في حرب.

- تبادل العجوز فيدور والأمير أميلاخفاري النظر. وسأل فانو بسرعة حتى لا يلاحظ فطنة الصبية وبراءتها.

- هل أعجبتك الدمية؟

- نعم، - وأضافت بعد قليل: - تشبه الأديغة.

- هذا بديهي - فرح الأمير أميلاخفاري مرتاحاً لما يسمع، راضياً بدور الدمية في التقريب بينهما. - ألسنا، سكان القفقاس نعيش في أرض واحدة، ومتشابهين؟

- لماذا تحاربون إذن؟ - بدد السؤال المفاجئ للصبية الفرح الذي نجم في صدر الأمير.

- استعجل العجوز فيدور:

- يا أفسس، ألم أقل لك مرة إنه تجري في الحرب أمور كثيرة لا يريدونها الناس؟ أتظنين أننا، الأمير فانو وأنا وأنت، أحرار في أنفسنا؟ من ننفذ أوامره هو من يحكمنا.

- هل تقصد الله؟ - استغربت أفسس ما سمعت أكثر وأكثر.

- لا، لا - ارتعب العجوز فيدور، ورسم الصليب. - من أتكلم عليه غير الله... حرام أن يخطر لك مثل هذا نحو إلهنا العلي العزيز. يا أفسس، وأنت يا محترم أيضاً دعونا نرسم الصليب...

ما جعل الأمير فانو ينسى كل ما قيل هو طريقة أفسس في رسم الصليب. ترسم الصليب مواجهةً صورة الإله التي في زاوية الغرفة، وتغمغم. نظر الأمير إلى فيدور

متعجباً مما يرى، وأغلق الآخر فمه بإصبعه يحذره من أن يقول شيئاً للصبيّة.
بعدما دعت أفسس إلى الله طلبوا منها أن ترتدي الثوبين اللذين جلبا لها من
تفليس، داخلّة وخارجة إلى الغرفة ومنها. وجعلوها ترتدي البلوزة مع التنورة،
والإيشاربات الثلاثة بحجة أنها تناسبها. والحذاء الأصفر كان على قياسها، أما
الأسود فكان كبيراً عليها. - وحين خلعتة علقت عليه:

- في العام القادم سيكون على قياسي.
- لا تهرئي الحذاء الآخر بهذه الحجة، احرصى عليه! - مزح العجوز فيدور
معه.

- وإلى أين أذهب فيهرئي الحذاء!
- لا أقول إنك غيرُ رشيقة، غير أن من الأفضل ألا تجرّ ثيابك. اخلعي عنك
هذا الثوب والحذاء، كفى، يناسبانك جيداً. والإيشارب أيضاً.

- يا فيدور، ما أشد ما صرت بخيلاً!
- ولماذا صرتُ بخيلاً؟

- لا تطلبُ مني أن آخذ إلى تريشكا المسكين شيئاً من المندرين أو البرتقال...
- لأجل هذا أنا بخيل؟ خذي له، خذي! ها هو الصحن املئيّه له. ويمكن أن
يقدم منه للمرضى.

- ماذا حدث لتريشكوف نيقولاوي؟ - سأل أميلاخفاري.
- حقاً أنت لا تعرف يا فانو ما حدث له! - أسرع أفسس بالردّ. - كاد
يدفع حياته وهو يثأر لأهله.

- وما حاله الآن؟
- شفيت رجله، وكنفته تكاد تشفى... إن كان محظوظاً فلن يشفى سريعاً.

- لماذا؟ يتعجب الأمير مما يسمع، والعجوز فيدور يتسّم.
- هدده الجنرال بإلقائه في السجن.

- لا تخلطي، لم يقبل فيدور - لم يقل هذا.
- لا أخلط! كان قال له: متى خرجت من المشفى فسنفكر في ما سنفعل بك.
- هذا موضوع آخر. - يقول العجوز، - هيا تابعي إلى حيث تذهبين.
- سأذهب يا فيدور - تتوقف عند الباب، - ولكن هل تعرف ما سأسألك؟ يمّ
- يُعاقب من يرتكب جرماً في الجيش؟ - من يرتكب جرماً يرسل إلى السجن، -
- أجاب أميلاخفاري بدلاً من المسؤول.
- هل سمعت يا فيدور؟ لماذا إذن تريد أن تنقض كلامي؟
- لا تلطّخي حذاءك بالوحل.
- فيدور!... - نظرت أفس من خلل الباب بسبب ما سمعت.
- يتبادل الأمير أميلاخفاري والعجوز فيدور حين يقيان وحدهما في الغرفة
- الابتسام وهما يتذكران سلوك أفس وتصرفاتها. الصبية اليتيمة يفكر كل في
- فرحها وحزنها وبؤسها حسب ما يخمن مصيره هو. لم يخلق الإنسان ليعيش
- مكتفياً لا يحتاج إلى شيء فحسب. يجب أن يكون لكل إنسان مكان وأسرة
- وقرية وبلاد تبعاً للمكان الذي ولد فيه، والعالم الذي يحيط به. إن لم يزرع في
- العالم شجرته الخاصة به، ويفتح طريقه، ولم يجد أملاً، فهو مثل كسار الزبادي¹ لن
- يتأصل في المكان الذي يحلّ فيه، ولن يجد السماء جميلة، ولا الشمس دافئة،
- ولا الماء عذباً. يتسم لمن يتسم له، ويلطف من يلاطفه، ويتأمر على من
- يتأمر عليه. ولكنه يعيش متأملاً ما يشتهي، مساوياً آماله بالروح، معتبراً إياها
- قصة جميلة، واجداً فيها الأدب والحياء والفرح والحزن والملل.
- هذه هي حالنا كما ترى يا محترم، - قال فيدور وقد تخلص من خواطره،
- وبدا فرحه من لحيته البيضاء وشاربيه، - يسلي بعضنا بعضاً فندفع الملل عن

¹ مرت الكلمة في بدايات الرواية. وهو نبات طائر الزهرة كالفن، مثال في الحقة، ينقل الأخبار في المعتقد الأدبي الشعبي.

أنفسنا. نجد كل يوم ما نقول وما نفعل.

- هذه التي أراها تبعد الملل عنك، - سرت رعشة فرح على وجه أميلاخفاري. ومرة أخرى هزّ رأسه متعجباً، - كبر جسدها جداً. وتغيرت ملامحها جذرياً. ولكن أشدّ ما استغربته يا فيدور هو أن تسرع إلى صورة الإله، وترسم الصليب عندها. أظن الأب غيورغي لن تسعه الدنيا من الفرح.

- يُخيفني أيها الأمير نموّ فطنتها يوماً عن يوم بما لا يتناسب مع عمرها وجسدها. ثم إن هذه الملاحظة بدت أوضح ما تكون في الشهر الذي قضاه تريشكوف في المشفى.

- لم يكونا على وفاق؟

- لا لم يكونا، ولكن ها قد رأيت بعينيك، وقبل أن تأتي كانت خرجت تواء من عنده. غافلتني بحجة ما وذهبت في غاية أناقتها تعود. - ابتسم العجوز فيدور، وأسرع يلمّح له مبرئاً نفسه: - لا، لا سمح الله لا أرى فيها ما يعيها. لا أحد في جيشنا أصغر عمراً من تريشكوف مراسل الجنرال.

- الشاب عادة يشم رائحة الشباب يا فيدور.

- وهل يستوي قلب الشاب وقلب العجوز يا محترم! نحن نماريها كل يوم قائلين لها: افعلي هذا ولا تفعلي ذاك حتى تكرهنا. أنا أعرف ما تحتاجه الصبية أكثر مما يعرف تريشكوف رأس الدجاجة المتمرّد.

- هل تريد أن تقول إن الصبية طلبت شيئاً لنفسها ولم تستطع أنت تحقيقه لها يا فيدور؟

- ليس هناك ما طلبته ولم ينفذ لها في الجيش. ولكنها أبلغتك أنت ما تريد، وفي الوقت نفسه وجدت ذريعة لك.

- دعني أذكرك ما قالت لي!

- ألم تلمّح لك أنك تشارك في الحرب؟

- نعم تذكرت، لمحت لي مرتين.

- ما قالته في المرة الثانية ليس لأول مرة أسمع، كلما أتينا على ذكر الروس عارضتني به.

- كان عليّ اصطحابُ أُنّا ألكسندروفنا. عدت إلى هنا وهي تترجاني وتتابعني بنظراتها. ما تحتاجه أفس هو صوت أنثى، نظرة دافئة من امرأة يا فيدور دانيلوفيتش. - تنهّد أميلاخفاري عميقاً - لم نسمح للصبية أن تعبّر عما في نفسها. من أين تأتيها بلاسة غطاء رأس في هذه الدنيا القبيحة؟ وسأل الأمير بعد قليل: - حقاً يا فيدور دانيلوفيتش ألا يمكن أن نربي أفس في قرية نيقولايفسك؟

تشجع فيدور كأنهم كانوا ليتزعوا منها الصبية. ولمعت عيناه خلافاً للعادة. ونظر نحو صورة الإله كأنه يطلب منه العون. ثم عاد فنظر إلى الأمير.

- ما اقترحته الآن هو المستحيل تماماً! - نهض العجوز غير قادر على الاستمرار في الجلوس. أزاح الصناديق الكرتونية. وأبعد المقعد الذين كان يجلس عليه عن مكانه. - لا تُسمع الأب غيورغي إن كان من الممنوعات، تنقّد له ما يريد بالضبط. يقول إنه سيقدمها إلى الكنيسة ليرتبّوها هناك... كيف ترمي الصبية المسلمة بين العجائز المسيحيات بحجة أنها ترسم الصليب؟ لو لم يبق غيري يا فانو لما أطلعت بالبوتسيف على الموضوع.

- أسانديك في هذا يا فيدور دانيلوفيتش! - وافقه أميلاخفاري من قلبه. - لسنا وحدنا، الجيش أيضاً لن يقبل.

- إن لم يرضخوا للبوتسيف...

- ما أسمع عجب... أنا ظننتك أنت والأب غيورغي تتعاونان على تربية الصبية لاعتناق المسيحية.

- لا علاقة للبوتسيف بأفس! - حسم فيدور الموضوع، ثم غمغم من تحت

- شاربيه: - كلما رآها شاجرها بذريعة أنها لا تتمسح بجبته، ولا تقبل يده، ولا تسمح له أن يمد يده إلى جبهتها.
- أليس الجنرال مطّلعاً على سلوكه؟
- لا أظن الجنرال عارفاً بالأمر. مهما خلا من الإنسانية فهو خادم الربّ. أتورع عن أن أشي به.
- لا يعني هذا النميمة يا فيدور. إن لم نساند الصبية فسيقتّر شعورها نحو ديننا.
- وهل تعرف يا محترم ماذا يقول أيضاً؟ - استعداد العجوز فيدور شجاعته - يريد أن يعمّد أفس.
- إن كانت الصبية ستبقى لنا فهذا أيضاً في انتظارنا. ولكن لا يجوز إجبارها.
- أليس من أجل هذا أقول ما أقول... لي عندك إذن رجاء يا محترم. أعطوني أفس وسرّحوني من الجيش. سأريها مع أحفادي.
- اطلب مني أي شيء غير هذا يا فيدور دانيلوفيتش، - جلس الأمير لأياً، وقال بصعوبة: - ولكن لا تتأمل مني تلبية طلبك بشأن الصبية.
- لم يُبدِ فيدور تعجُّبه مما سمع. ولكنه تساءل عن سبب عدم تلبية رجائه. ألا نك ترغب في أن تأخذ أفس لك؟ كيف ستتقبل الصبية التي تنتمي إلى الأديغة الذين تكرههم، وتُشهر عليهم سيفك دائماً؟ ألا يكفي ما صببت من نقمتك عليهم؟ حين يسمع الأديغة اسمك الكرجي يُهرعون إلى خناجرهم... ثم تريد أن تأخذ الصبية اليتيمة تربيها!..

XI

ذوّبت الريح التي هبت مع الأيام الدافئة الأولى للربيع الثلج وجففت الأرض. وتكاد بقايا الثلج المتسخة بلون الوحل، المتبقية في أسافل الجدران ووراء المرتفعات، تذكرك بأن شتاءً مرّ من هنا. وتتسارع بدايات الأعشاب في الأماكن الضاحية للشمس إلى الظهور. وترى الوعي في الأشجار التي جمّدها

أشهرُ البرد الماضيةُ من خلال أغصانها. وتُسمع هنا وهناك أصوات المواشي التي خرجت من الحظائر. والطيور لا تتسع لها الدنيا معتزة، تدّعي أنها هي التي جلبت الربيع.

الجو جميل، طيب لولا الحرب. لا ترى في المنعة غير من يلبس قبعة أو يحمل سلاحاً. يذهبون في أرتال إلى جهة الجبل التي تصدر منها أصوات النار. منهم الفرسان ومنهم المشاة، والعربات تتبعهم. وأفبس تنظر وتنصت من وراء الشجرة التي وراء السور. وما لا تفهمه شيء واحد، تسأل تريشكوف:

- ياتريشكا، لماذا ينشد الجنود المتجهون إلى الحرب؟

- النشيد يرفع من روح القتال، ويعنح الصلابة للجندي.

- ألا أنهم يخافون أن يُقتلوا؟

- لا يخطر لهم مثل هذا. الجميع يظنون أنفسهم سيعودون سالمين.

- هذا عجيب.

- ثم إنهم متى شرعوا يقتتلون بالسلاح الأبيض يصرخون بأعلى أصواتهم.

- ألا أنهم يخافون؟ - تسأل أفبس ثانية.

- ألم أقل إنهم يرفعون من شجاعتهم.

- هل قتلت إنساناً يا تريشكا وأنت تراه؟

- لا يتقاتلون معصوبي العيون.

- أعرف أنهم لا يفقدون النظر في ساحة الحرب، سألتك هل قتلت إنساناً؟

- لو لم أقتله لكان قتلي.

- إذن أليس رأيك يتفق مع رأي المجرم؟ - لمعت عينا أفبس السوداءوان

الصافيتان، وسألت ترفع جسدها قليلاً عن الشجرة اليابسة.

- لا أعرف إن كان رأيي يتطابق مع رأي ماخاتازه، غير أنني أعرف أنه نقد

المهمة التي كُلف بها. تجري في الحرب أمور مريعة كثيرة، ولذا لا أوافق على

اتهام المحارب بكل حادث من هذا القبيل.

- هكذا إذن؟! - صرخت أفس لم تكظم استياءها. وقالت لمن تركته وهي
تهرب من أرض الدار. - وأنت تدافع عن نفسك جيداً.

- يا أفس! - صاح وراءها، ولكن الصبية لم تردّ.

كان فيدور وراء السور يجهّز العربة ويسمع الحديث الذي يجري بين الصبية
وتريشكوف. ويرى أفس التي انسلت من الدار لا ترى شيئاً في طريقها،
وعادت إلى الغرفة تبحث بعينها عن شيء ما، ثم خرجت. ويتسم قائلاً في
نفسه: ستعرفيني متى احتجت إليّ ووقتها تُهرعن للقائي.

ما أعند هذه الصبية، يقول فيدور. لا نستطيع أن نُسيها ما في نفسها مهما
توددنا إليها. ليت تريشكوف شفي وغاب عن وجوهنا. لا أريد أن أتهمه ظلماً
ولكنه يحرّض الصبية دون قصد. كيف نُنسي أفس، سواء وافقناها أم لم نوافقها
مأساتها في الوقت الذي ترى فيه حملة البنادق، وتعيش في ساحة مواجهة
حقيقية. والمشفى يؤكّد مشاهداتها، والضابط ماخاتازه ماثلاً دائماً أمام
عينها؟! هذا ما ذكرني أيها الأمير أميلاخفاري بما قلته لك قبل أيام. ماذا كان
يضرّكم لو سلّمتم إليّ الصبية وسرّحتموني؟ التعميد الذي لا يفارق لسان الأب
غيورغي، اغفر لي يا إلهي، لا ضرورة له! كم بيننا نحن المسيحيين ممن يرسمون
الصليب ولم يُعمّدوا! كنت ربّيتها في أسرتي دون أن أذنب بحقها أو تذبوا، ولا
تتعبوا من أجلها ولا أتعب، دون أن أهيئها، بل دون أن تحطّ ذبابة عليها.
تقول لي: لا تتأمل أن ألي لك طلبك. ليس عجيباً أن يقول لك الجنرال: اترك
تربية الصبية اليتيمة للعجوز فيدور، فأين كنت إلى الآن؟ هربت إلى ديارك
وقضيت فيها أشهر الشتاء الثلاثة ناسياً إن كنا لا نزال أحياء. لا تتأمل الآن إذ
جنّتها ببيع الهدايا أن نعطيك الفتاة خالصة لك. نحن نمنحها محبتنا ورحمتنا
وإن لم يكن عندنا من المال ما نغريها به. نحن نفتح قلبها على اللطف والجمال

والطيبة. وإن تجاوزتم كل هذا وحاولتم انتزاع الصبية مني فأنا أعرف كيف أتصرف معكم.

- يا فيدور! - هُرْعَتْ إليه أفس، - أين ستذهب؟

- أين أذهب إلا إلى جلب الماء؟

- وأنا ذاهبة معك.

- تعالي، ولكن لا أعرف إن كنتِ تركتِ تريشكوف على الشارع.

- تريشكوف يقول الكثير، دعه على الشارع!

- هل تخاصمتما؟

- لا، لم نتخاصم... يدافع عن القاتل.

- هكذا! اركبي إذن... - ثم تسأل بعد وقفة: - ألن تتسع العربة لتريشكا إن اصطحبناه إلى الماء؟ ما رأيك؟

- ليركب إن كان يريد... - تظاهرت أفس بعدم الاهتمام بمن ذكروا اسمه رغم رضاها بما سمعت. ثم أضافت مشفقة عليه: - طوال النهار على الشارع وحده.

- وأنا أرى هذا، يروّج عن نفسه، تعال معنا يا نيقولاي نستق من الماء.

منذ زمن بعيد لم يشهدوا مثل هذا اليوم اللطيف. الشمس تنظر من سماءها الخالية من أي غيمة دون أن تترك مكاناً لا تغمره بأشعتها. وليس في الجو أيُّ نسمة تجري فوق الأجمات التي نجت من الشتاء. والغابات الجبلية التي لا تحيط بها العين، والسهول الواسعة القليلة، والمرتفعات المتناسقة غير العالية لم يتذكرها الربيع إلى الآن، غير أن الجو يعبر عن رغبته في أن يفعل هذا. والنهر الجبلي الصغير الجاري في طريق عربة الماء يتناثر مرحاً غير عابئ بالمأساة التي لُقّت أرض الأديغة. والأعشاب الوليدة على جانبي الطريق تستغرب واقفة على رؤوس أصابعها ما تراه.

العجوز فيدور وأفس جالسان جنباً إلى جنب. وتريشكوف جالس إلى

جانبيهما ورجلاه تتدليان. يكتُمُ الألم الذي تسببه كل حركة طائشة للعربة. يعض على شفتيه، ويمسك العربة باليد السليمة بقوة. انتبه العجوز إلى ألم الشاب حين بدأ الطريق الذي خربته الشتاء يخض العربة بعنف، فقال دون أن يلتفت:

- يا نيقولاي يا ولدي أنت تتحمل الألم ولكن العربة تخضُّك.
التفتت أفس التي لم تُفقه بكلمة إلى الآن بسرعة. وتلهفت بعدما أحسَّت بألم الشاب الجريح:

- توقف يا فيدور!

خرج نيقولاي من العربة. وابتسم لأفس خفيةً متظاهراً بإصلاح وضع الكتف الجريح. ومطَّ اليد السليمة التي تحدت من الإمساك بجسم العربة. وقال للعجوز:

- سأتبعكم، لم يعد مدخل النهر بعيداً.

- وأنا أيضاً، قفزت أفس من العربة.

- لا تقتربا من ضفة النهر كثيراً. - أمرها فيدور جازماً.

مدَّ نيقولاي يده إلى أفس يريد أن يمسك بيدها غير أنها لم تسلّمها. ولما دخل العجوز إلى النهر بالعربة بقي أفس ونيقولاي وحدهما على الضفة. وبعدما وقفا مدة قال نيقولاي:

- الجؤ جميل اليوم.

- انظر يا تريشكا إلى تشابهِ لون الماء ولون السماء!

- لأن السماء تنظر في الماء، - أجاب نيقولاي اعتباطاً، ثم ضحك.

- لا تضحك، كلامك صحيح.

- لا أضحك، - يُصلح وضعه - وهذا ما يُخيّل إليّ أيضاً. انظري يا أفس

كيف تحمّر أعالي هذه العيدان الصغيرة. - يمد نيقولاي يده إلى رؤوس الأعواد

على الضفة. - تستقبل الربيع.

- لا تكسرهما، حرام!

- إن كان هذا رأيك فلن أمد إليها يدي.

- أحب أن أسألك يا نيقولاى عن شيء. هل عمّدوك أنت؟

- كيف أكون مسيحياً دون تعميد؟ ولست وحدي، كل من في جيشنا مسيحيون. ومنهم الجنرال ، وفيدور، وسيرغي بيتروفيتش.

- وهل فانو أميلاخفاري أيضاً مسيحي؟

- نعم، يجيب تريشكوف على أسئلة أفس كأنه لا يعرف ما وراؤها وإن كان يعرف.

- وكيف عمّدوك؟

- من يتذكر؟ كنت صغيراً جداً.

- كيف سيعمّدونني وأنا الكبيرة؟!

- أهذا هو سؤالك؟ لا أهمية لكبير أو صغير في المسألة. سيصحبونك إلى الكنيسة. وسأكون أنا والجنرال وفيدور وفانو غيفيش أميلاخفاري والطبيب سيرغي بيتروفيتش وآخرون حاضرين. وسيعمّدونك في حضورنا وهم يُشدون لك، ويصلّون لأجلك.

- ما تقوله صحيح. كل هذا رواه لي فيدور. قل لي إذن: هل القاتل مسيحي أيضاً؟

الفارسان اللذان وقفا على الضفة الأخرى لم يدعا الفرصة لتريشكوف حتى يجيب. وسألت أفس وهي تشكّ في ما تراه:

- من هذان، وماذا يقولان؟

- فارسان أديغيان. قال تريشكوف وهو يعرف أنه ليس في موقف يسمح له بالكذب. ولكنه أضاف عارفاً بعدم صحة ما يقول: - يحياننا.

- لا تُلقَى التحية بالقبضات المضمومة! - لم تقبل أفس! وفي اللحظة نفسها سُمع صوت إطلاق المسدسين من الفارسين فخفضت الصبية رأسها.

- لا تخافي يا أفس، لن تصل لطلقاهما إلى هنا. - وقف تريشكوف يعترض طريق الرصاصات أمام أفس.

أسرع فيدور إلى البندقية حين سمع أصوات الطلقات القادمة من المرتفع. ولكن الفارسين الأديعيين اختفيا في الغابة كما ظهرا سريعاً. ورغم انتهاء الخطر فقد بقي الخوف الذي تركاه قريباً في الجوار.

- يا نيقولاي، - ينادي العجوز الشابين من جهة مدخل النهر حيث هما. - ابتعدا عن الضفة! - أسرع فيدور بالصعود من النهر واقفاً في العربة والبندقية على كتفه. - اركبا؛ هذا مكان خطير!

- يا فيدور جرح نيقولاي، - كانت أفس بدأت بالكلام، غير أنها لم تجد الوقت لتُكمل.

- لن يحدث له شيء ونحن في هذا الموضع، أمسيك بي جيداً! - حثّ العجوز الحصانين فأسرعا.

جرت العربة مدة والماء ينسكب عليهم. كانت أفس متشبثة بالجانب الأيسر للعجوز بقوة فنظرت بضع مرات إلى وراء. ولم تكن ترفع عينيها عن طريقة جلوس تريشكوف. مرة أخرى التفتت أفس، ولم تصبر:

- فيدور، لا أحد يلاحقنا!

- اسكتي! - غضب العجوز ثم تمت بعد قليل معيداً الحصانين إلى وعيهما. - لا شيء لا يخطر لأمثالهما... يمكن أن يكمننا لنا من الأمام في حين نظنهما على المرتفع.

بدت بيوت المنعة. خرج من العربة تريشكوف الذي لم يعد يطيق آلام كتفه. كانت أفس تنظر نحو الجهة التي يركب فيها نيقولاي ولم تفكر في الخروج كما

قبل الآن. ومع أنها كانت متشبثة بالجانب الأيسر من العجوز وعيناها إلى الجهة التي يأتيان منها فقد كان قلبها في الجانب الآخر من الجبل الذي رقيته الفارسان الأديغيان. كانت ترى في تلويحهما بالقبضات، وفي إطلاقهما النار، ثم سرعة اختفائهما، ما يجعلها تتوجس، غير أنها لم تكن تفهم ما يجري. ثم إن معلومات فيدور أنه لم يبق في المنطقة التي يحتفظون بها فيها أحد من الأديغة، وأنهم التجؤوا جميعاً إلى الجبل، كانت تدور في رأسها مثيرة الشك...

- انظري يا أفسس هناك! - قال العجوز فيدور - أليس هذا مشد الذي يجري لاستقبالنا؟

- نعم، هو مشد. - وشهد تريشكوف بروسيته لأنه لا يُتقن نطق الاسم الأديغي.

- يا نيقولاي، - لم تقبل أفسس ما سمعت. - ليس "ميشيد" بل "مَشْد". متى ستتعلم كيف تنطق اسمه صحيحاً؟..

...

مضت عدة أيام على ما جرى لهم على ضفة النهر.

ومع أن الوقت كان يمضي، والموضوع مُنتهٍ في نظرهم، فقد سمع فيدور السؤال الذي كان يخشاه:

- يا فيدور - سألت أفسس بعدما لجأ كلُّ منهما إلى الفراش بقليل - لماذا كذبت عليّ قائلاً إنه لم يبق أحد من الأديغة في نواحيها؟

- لم يخطر لي مثل هذا، كيف أخدعك؟.. - لم يكن فيدور مرتاحاً للعودة إلى ما جرى رغم استعداده لهذا السؤال. - أنت تعرفين دون أن أخبرك أنه لم يعد للأديغة وجود في نواحيها.

- من أين جاء الفارسان الأديغيان إذن؟

- هل تقصدين الفارسين الأديغيين يوم الاستقاء؟ - سأل كأنه غير مهتم كثيراً،

وأُسرع بجواب مختصر: - كيف لا يوجد فرسان أديغة هنا؟ ألسنا في أرض أديغة؟.. كفى... نامي!

كان لدى أفبس أسئلة أخرى ولكنها أطبقت، وقد أجهشت بالبكاء، شفتيها الصغيرتين.

XII

كلما ازداد جمال الجبال في الربيع تعمقت مأساة الأديغة وازدادت أوضاعهم سوءاً. لا يستطيعون مجابهة الجيوش القيصرية التي حاصرتهم من الجهات الأربع. - يخسرون قرية إثر قرية - يحرق الجيش وسائل العيش حتى يقطع طريق العودة أمام الناس الذين التجؤوا إلى الجبال. لم يبق للأديغة الذين يفتقرون إلى المدافع والذخائر إلا السيوف والخنجر. وكل يوم يمضي تنقص قواهم. ويفقدون الأمل. ولا يألو من يحمون أرضهم جهداً مع أنه ليس من المناسب الحديث عن الرجولة في مواجهة من عنده العدد والسلاح الكثيران. يماطلون إلى آخر ما تبقى لهم من وقت على أرضهم مجاهدين آلة القتل.

وتركيا التي حرّضت الأديغة السُدّج سريعي الانخداع طوال عقود من السنين، والإنجليز والفرنسيون، يختبئون وراء الذرائع. يسيطون أيديهم إليهم بالأمال الكاذبة ثم يقبضونها. وشامل ونائبه مُحمّد أمين الذي أرسله زعيماً للأديغة يعيشان أحسن عيشة في روسيا باسم الأسرى، وقد ضما أسرتهما إليهما.

لا خبر في أي مكان في بلاد الأديغة إلا خبر الزيارة المرتقبة للقيصر ألكسندر الثاني إليهم. وهذا سبب استعجال الجحافل الروسية على إنهاء الحرب، وهو أيضاً السبب في دمار الأديغة. ولكن لو كان كل شيء يجري في الحرب كما تريد لما سمّوها حرباً¹. وحياة أفبس بكاملها جزء من هذه الأحداث. أفبس التي

¹ تعني كلمة الحرب في لغة الأديغة التضارب أو تبادل الضرب.

لم تكن تعرف بوجود القيصر، أو بزيارته إلى إقليم الأديغة، كلما أشرقت شمسها تأنيها الأيام بما يصدع رأسها، وما يحير عينيها، وما يُنسيها كل هذا ويمنحها الفرح. وتجد ما يشغل فكرها كلما حان موعد النوم وحتى يستغرقها النوم. بل ترى هذه الأفكار في أفراحها وأحزانها. وما يعود إليه كل سلوكها، سواء من أجل أن تحترم نفسها، أو أن تُشفق على شخص ما، أو يربّوها على أسلوب عيش الغرباء الذين صارت فيهم وقد حصروها في زاوية واحدة، إن رضيت أم لم ترض، هو قلبها: ما يأمر به أو يدعها تقبله...

العجوز فيدور نادم بعد فوات الأوان على اصطحاب أفس ونيقولاي إلى جلب الماء. يقول: من أين سقط هذان الفارسان أمام عيني الصبية المنحوسة؟ تغيرت أفس منذ ذاك اليوم إلى صبية أخرى. - تعود إلى طبيعتها التي كانت عليها في نصف العام الأول، والتي جهدنا حتى حملناها على نسيانها. نقص طعامها وكلامها ولعبها. ورجعت إلى عادة الجلوس إلى النافذة والغرق في التفكير. وإذا كان وجود نيقولاي تريشكوف يسليها أحياناً فالرجل شفي وعاد إلى الجيش. ولم تعد راغبة كما في السابق في نمط الحياة الروسية التي صارت جزءاً منها، وفي الدين. وهي ترسم الصليب بفتور وإن أخفت شعورها. وإن لم تُدكرها فهي تتناسى الصلوات النهارية والليلية أو تجد ذريعة للتخلص منها. لا أريد أن أتحامل عليها فهي تستقبل الأب غيورغي بوجه طلق تنفيذاً لرجاء الأمير أميلاخفاري وإن لم تقبل يده. من حسن حظي أن أميلاخفاري وسيرغي بيتروفيتش يساندانني في موضوع الصبية. عتبت عليك مرة يا أميلاخفاري، ولكن بعدما فكرت أتساءل كيف كنت أربي الصبية لو سلّمتني إياها وسرّحت من الجيش؟ حقاً ليس في نواحيننا قضية أديغة، بل لا يعرف الناس بوجود أمثالهم على الأرض... ومع ذلك، اغفر لي يا إلهي، كيف كنا سنأتي بالصبية إلى حضرتك فنعمّدها بحجة أنها ترسم الصليب وتتلو الصلوات، وهي التي لم تقبل

في قلبها الدين المسيحي؟ ستعتاد علينا يوماً ما كما يقول الأب غيورغي... ها هي تقيم معنا، تقول بقولنا، ولم تعد تميز بين الأطعمة كما كانت تفعل سابقاً... ولكن مع ذلك انظر ما يخطر لها، وكيف تتصرف.

- أفسس يا بُنتي، - ينادي فيدور العجوز الصبية الجالسة إلى النافذة، - لا تجلسي هكذا داعمةً ذقنك بيديك. هذا ليس فأل خير. هيا اخرجي قليلاً وتنفسي هواء نقياً. المساء جميل، وأنا سأخرج بعد قليل.

تخرج أفسس دون تعليق ويدها المقعد الصغير. وتجلس على طرف المسطبة حيث ترى الغابات الجبلية المترصّة. لن تتأخر الشمس في الاختفاء وراء الجبل. صحيح أنه مساء حارٌّ ولكن الهواء يبرد كلما انحدرت الشمس. وقلة شَبَج التي تودّع نهارها تغَيِّرُ أصواتها. الأبقار العائدة من المرعى تنادي عجولها مشتاقّةً إليها. والإوزات التي تجهّز أماكن هجوعها تصرخ من هنا وهناك. وأحياناً يرتفع نباح الكلاب. أما مشد فهو مستلقٍ أمام أفسس، رأسه على قائمته غير عابئ بشيء. وحين يصدر صوتٌ غير مألوف لديه من جهة الشارع ينصب أذنيه وينصت.

تنظر أفسس نحو الجهة التي يصدر منها صوت الماء، وتنتصب أمامها أحياناً صورة الفارسين الأديغيين، ولكن من لا يفارق خيالها هو نيقولا تريشكوف: ثلاثة أشخاص ينزلونه من العربة... يتوسل الماء... ينظفون جرحه ويضمّدونه... يمسحون شفّتيه بالقماش المبلول... جبهته ساخنة، ويهذي.

مضى على تريشكوف الذي منحوه وهو في الجبهة رتبة أعلى أكثر من شهر. ولم ينفذ الجنرال تهديده بسجنه لعدم امتثاله للأوامر. لو كانت أفسس في البداية تعيب على الجنرال عدم التزامه بوعده فالآن تعد تصرفه صحيحاً. ماذا كانت الفائدة من سجنه؟ ولكن انقطعت أخباره منذ زمن طويل. لا أعرف إن جرى له شيء آخر أيضاً.

- أراك تتشمسين يا أفس؟ - دنا منها الطبيب فقطع الأفكار الجديدة للصبية. - وأنا محتاج للهواء، سأجلس إلى جانبك إن لم يكن لديك اعتراض.
- وكيف لا تحتاج إلى الهواء النقي يا سيرغي بيتروفيتش! - قالت أفس كعجوز صغيرة حقيقية. - أنت لا تفارق المشفى طوال النهار.
- يحدث مثل هذا يا أفس - ابتسم الطبيب في سره خفية عن الصبية. - وأنت قليلاً ما تخرجين من الغرفة، لم نعد نراك.
- أنا أخرج، - قالت أفس تبرئ نفسها، ثم تنهدت دون إرادتها.
- لي عتبٌ عليك وإن كنت تخرجين يا أفس، لم تعودى تزورين المشفى كما كنت تفعلين في الماضي. - لمح الطبيب لها بنيقولاى تريشكوف دون ذكر اسمه.
- وقتها أيها الطبيب، - لم تسمح لها براءتها بكتمان ما في نفسها، - كنت أعود تريشكوف لأن وضعه كان حرجاً. لم أكن وحدي، كان الجنرال يعود أيضاً... والآن كفّ الجنرال عن عيادة أحد... - كانت تريد أن تبرئ نفسها بهذا ولكنها لم تنجح.
- لن أسمح لك بأن تنسي إلى الجنرال ما لا يستحق يا أفس، كان في المشفى قبل أيام. لم يدع أحداً لم يسأل عنه.
- وأنا؟ أسرع أفس. - لماذا لم يزرني؟
- وكيف كان يزورك وأنت والعجوز فيدور عند الأب غيورغي في كنيسة ميخائيلو-أرخانجيلسك؟ سأل عنك الجنرال، وتكلم إلى مشد، وفرح وارتاح خاطره حين أخبرناه بأنك في الكنيسة. وواعد بأن يصحبكما في المرة القادمة.
- هكذا! - ازدهت أفس فرحاً حتى لا تعرفها.
- نعم يا أفس، نعم، - شهد الطبيب ثانية على ما قاله، وسألها: - هل تعجبك الكنيسة يا أفس؟

- جميلة، كل ما فيها من الذهب، - أجابت أفس، ثم أضافت بعد قليل: -
ولكن يا سيرغي تصدر منها دائماً رائحةٌ ما.

خرج العجوز فيدور من الغرفة وعلى ذراعه غطاء رأس، ومدّه إلى أفس:

- غطي كتفيك، سيؤذيك البرد. لا أعرف إن كنت قطعت حديثكما يا
سيرغي بيتروفيتش. غَبَطْتُكما على جلستكما فخرجت.

- لا، لم تقطع. - نظر الطبيب نظرة مخادعة في وجه فيدور وابتسم، - كنا
نتكلم في موضوع كنيسة ميخائيلو-أرخانجيلسك. أفس تعجبها الكنيسة،
ولكن رائحة ما تصدر عنها لا تعجبها.

- هذه رائحة قناديل الشمع يا أفس، - يجلس العجوز على المقعد الذي أتى
به من الغرفة - ألم تقولي إن قناديلنا تُصدر وهي تحترق تلك الرائحة نفسها!

- هل تشم يا فيدور هذه الرائحة حين تشعل قنديلك الشمعي؟ - أفس
مهمة بأن تجد جواباً أكثر من اهتمامها بالأسئلة. - إذن ستصدر من قناديل
الجنرال الرائحة نفسها. - تجيب أفس نفسها بنفسها كما تريد.

- ليس هذا مشكلةً، ستعتادين يا أفس على هذه الرائحة. - يقول الطبيب
للصبية وقد فهم أساس المشكلة. ويلتفت إلى فيدور. - متى دخلتِ إلى الكنيسة
ووقفتِ في حضرة الله، فأكّدي له ما في قلبك من الإخلاص، وأعلميه أنك لا
تنسينه.

- ولكن يا سيرغي بيتروفيتش، - تقطع أفس كلام الطبيب وعيناها على
فيدور العجوز، - هل أنت حُرٌّ في أن تدخل إلى الكنيسة وتبتهل إلى الله دون
أن تعتنق المسيحية ويعمدوك.

- ألم يقل لك الأب غيورغي أنك تستطيعين ذلك إذا آمنت بالله في قلبك يا
أفس؟ لا يجوز أن نعيد الكلام في هذا الموضوع؛ أليس كذلك يا فيدور؟

- وهذا رأيي أنا، - قال فيدور دون حماسة، وأضاف وفي نفسه أن يضحك

من الموضوع: - لا تفكري في هذه الأمور يا أفسس. لا تُفني نفسك في أمور غير مهمة. سنعيش وما كتبه الله لنا مفروض علينا.

- هل تعرف يا فيدور أن نيقولاي بافلوفيتش سيأتي إلى الكنيسة؟

- ومن هو نيقولاي بافلوفيتش؟ سأل فيدور قبل أن يستوعب الاسم غارقاً في أفكاره المتضاربة.

- يا فيدور هل نسيت الآن الجنرال نيقولاي بافلوفيتش؟

- لن يقبل الله مني إن نسيت الجنرال نيقولاي بافلوفيتش. - ضحك فيدور وهو يعود إلى وعيه. وقال ما يريد: هو: - لا شك أن الجنرال نيقولاي

بافلوفيتش سيأتي وقتَ تعميدك. وسيأتي الأمير أميلاخفاري وضباط آخرون...

- ليس هذا ما أقصده يا فيدور. وعدنا نيقولاي بافلوفيتش أن يرافقنا في

إحدى زيارتنا إلى الكنيسة. صحتُ أفسس كلام العجوز بما أخبرها به

الطبيب. ثم أضافت إلى موضوع الحديث: - بديهي أن يأتي هؤلاء يوم

تعميدي... كلهم، كلهم... ولكن لن أسمح للقاتل أن يأتي!

رفع العجوز رأسه فجأة من الكلمات الأخيرة للصبية. وأضاف وهو يتجنب

جرح مشاعرها:

- هذا كما تريد أن أنت!

- المسكين ماخاتازه ملهوف من أجلك... - قال الطبيب. - سيعتَب

عليك...

- أنا قلتُ لا! - جزمت أفسس وقد رفعت رأسها وكتفيتها.

لم يعترض أيُّ من الرجلين إذ يعرفان ألا نتيجة من الاعتراض، ابتسما لها، وغيراً

موضوع الحديث وكأُهما لم يتطرقا البتة إلى موضوع الكنيسة.

نُحِضت أفسس فرحة لا تبعأ بكلام الرجلين، ربما لأنها حققت هدفها من

النقاش. وتبع مشدّ الصبية مسروراً. وركضا في أرجاء الدار يلهوان.

- ألم تستوعب يا سيرغي بيتروفيتش أن أفس ليست صبية عادية؟ - قطع العجوز فيدور أولاً سلسلة أفكار الرجلين. ولماذا أسأل ؛ أنت تعرفها كما أعرفها. ليست مطمئنة، تعيش دائماً في حالة قلق. ليست من النوع العصبي على الطاعة، غير أنها تنقض كلام اليوم في الغد. ورغم ذلك اقتنعت بالتعميد الذي يرغب فيه ضباطنا.

- كان حسناً لو دفعناها إلى هذا دون إكراه. - وافقه الطبيب، وأضاف بعد وقفة: - ولكن ألم تسمع موقفها من المسكين ماخاتازه؟

- أليس من أجل هذا أقول ما أقول يا سيرغي بيتروفيتش؟ تصالحت هي وتريشكوف بسهولة دون أن نعرف كيف، وحلّت المشكلة معه.

- موضوع تريشكوف مختلف. يا فيدور - ابتسم الطبيب، - القلبان الشابان يتجاذبان. لم يبق في الموضوع مشكلة روسي أو أديغي.

- يا سيرغي بيتروفيتش ماذا تقول؟! - جفل فيدور من الكلام الصريح الذي سمعه. - حرام أن تأتي على ذكر الصبية بهذا الشكل!

- هل تظنني أقول ما ليس صحيحاً يا فيدور؟ - ابتسم الدكتور مرة أخرى. - إذا قلت إن قلبي الشابين يتجاوبان فلا أقصد أنني أعرف منهما ما لا يجوز. علاقتهما حلوة ونظيفة.

- لا بأس إن كان قصدك هذا، - رجع الدم إلى وجه العجوز فيدور، - وأنا كانت عندي شكوك. بدا لي أن الصبية ارتاحت إلينا أكثر حين ساد الوفاق علاقة الشابين. أليس هذا عجباً؟

- الله أكبر! لا إله إلا الله! - صدح صوت الأذان القادم من جهة معبر النهر في أرجاء المكان قبل أن يُكمل العجوز كلامه. - وأكمل الصدى: - الله أكبر!..

- خفضت أفس، ونصّت برأسها:

- ما هذا؟

نحضر فيدور محاولاً أن يقول شيئاً فرفضت أفس: مهلاً يا فيدور! في الليلة نفسها، بعدما طلب العجوز من أفس النوم وهو يتوسل إليها ويمسح على رأسها، لم يستطع أن يتناول آلهة البالايكا من الجدار. خرج إلى الغرفة الملاصقة لينفّس عن ضيقه. كانت الألحان الأولى لفيدور نحو أفس دون صوت. وكان عند أفس بدورها ما تفكر فيه بما يتناسب مع عمرها الصغير.

XIII

احتاج الأمر إلى وقت غير قصير حتى تنسى ما سببه الأذان من بلبلة في قلب أفس. لم يعد العجوز يهتم بما عاناه من تعب، بل كان فرحاً إذ عادت الصبية إلى طبيعتها وإلى مرحها.

كفّ العجوز عن اصطحابها إلى النهر لجلب الماء. وما إن يُقبل المساء حتى يجلسا نفسيهما في الغرفة بحجة ما. وخفف بقدر الإمكان استعمال لغتها الأدغية، وما تأتي به هذه اللغة من أفكار. وكلما خرجت من فم أفس كلمة أدغية حُرّفها فيدور عنها دون عناء ظاهر. وأنساها إياها بمزحة.

قالت أفس بالأدغية وهما جالسان صباحاً يقشّران البطاطا معاً:

- يا فيدور كأننا تحولنا إلى روسيين حقيقيين...

- ما الأمر يا أفس؟ - سأها بالروسية.

- تُفزعني إذ يُخِيل إلي أنك نسيت الأدغية.

- ها... أهذا قصْدُك؟ سأها بالروسية، وأضاف بالأدغية:- وكيف أنساها!

- لا بأس إذن، - ابتسمت أفس للعجوز ابتسامة مرائية.

- أنسيت يا أفس أننا اتفقنا أن نتكلم الروسية حتى يوم تعميدك؟

- ودون أي كلمة أدغية؟

- هذا اتفقنا.

- هذا مستحيل يا فيدور.

- ولماذا؟

- فكّر!

- أفكّر فأراك أتقنت الروسية أفضل مني. فلماذا مستحيل؟

- فكّر فإن لم تعرف أخبرتك.

ما الذي خطر لها الآن، قال فيدور. أيُّ سؤال تطرحه من جديد في الوقت الذي اطمأنتت فيه إلى أنها هدأت وارتحنا؟ لم يحدث شيء يمنحها مثل هذا الأمل، لا في هذه الأيام ولا في الأسابيع الماضية. تجهّز نفسها وهي تعدّ الأيام الباقية على تعميدها راضية. ومنذ زمن بعيد هجرت دميّتها الأديغية ودميّتها الكرّجية، كانت وضعتهما على ظهر الخزانة. وما تعاملها بشوق هي دميّتها الروسية ماشا. تنام معها وتستيقظ. أنا من غضب الله عليه ولكن أيّ سؤال تحضّره لي الآن؟ ليت يوم تعميدها أتى وحدث ما حدث! لن أستطيع الاستمرار في تربيتها أكثر من هذا. يكفيني يؤسها وثرثرها حتى أنفجر. أيُّ مصيبة وقعت فيها مما لا يعانیه الجنود الآخرون؟ ولكن سامحيني يا بُنتي أين أذهب بك مقتلعاً إياك من صدري؟ الله جاءني بك، وما حملني حِملِي.

- فكرت، - قال فيدور واثقاً، - يمكننا أن نتكلم الروسية دون استعمال أي كلمة أديغية. - ثم ابتسم للصبيّة بما يعني الاعتذار إن كان كلامه غير صحيح.

- هل اقتنعت يا فيدور بصحة كلامي؟

- لا، لكنني أستمع.

- كيف تنطق اسم كلي "مشد" بالروسية؟ هل كما ينطقه تريشكوف "ميشيد"؟

- أفحمتني يا أفس!

- لهذا أقول: لا تجادل في ما لا تعرف!

- صحيح، ولكن علينا أن ننفذ اتفاقنا بشأن تعميده.

- لا يزال أمامنا أسبوع كامل على الموعد.

- وهذا سيأتي كأنه اليوم.

- أعِدك يا فيدور ان أتصرف كما تعهدت، ولكن لن أستطيع مناداة "مشد"

بـ "ميشيد" _ تضحك أفسس. - وأنا لن أستطيع مناداته بهذا الاسم. -

أضاءت فرحة فيدور لحيته وشاربيه. - لماذا نغيّر الأحرف الأديغية إلى روسية؟

يضيء انتصاراً رأي أفسس المفاجئ كلّ كيانها كعادتها حين توفّق في أمر

ما. تقشّر البطاطا بإتقان بيديها الرقيقتين كما علّموها. وتلقي البطاطا المقشرة

في دلوّ الماء بحرص بالغ كي لا ينسكب الماء. ومع أنه مضى زمن غير قصير

على جلستهما فهي تحتفظ بقوام مشدود يُخفي تعبها. وتحرف ركبتيها

المتلاصقتين قليلاً إلى أحد الجانبين، لا تتناسى أنها امرأة. والشعر الممشط

المضفور ملموم كله بالإيشارب الحريري الذي جاءها به أميلاخفاري.

قال فيدور في نفسه: في كل يوم تكتسب هذه الصبية شيئاً محموداً لم يكن

فيها. لا حاجة لأن تنصحها بشيء أو تصحح لها فهي تلاحظ كل شيء

وتعتني به. تغسل الملابس، وتكنس وتطبخ وتكوي. لا أتذكر أنها نسيت يوماً

أن ترتب فراشها صباحاً وتفرغ ماء الطشت، وتمشط شعرها، وتكنس أرض

الغرفة، وتغسل الصحن الذي أكلت فيه. لا أدعي أنني لا أساهم في هذه

الأعمال كلاماً أو عملاً، ولكن من لا تودّ العمل من قلبها لا يمكن أن تعلّمها

بالإكراه ولا بالإطراء. ثم ما أستغربه، وهذه ملاحظة منذ هذا الربيع، أنها لا

تجلس مكتوفة اليدين لا تفعل شيئاً. ولو كانت وحدها في هذه العادة لكان

الأمر فإنها لاتدعني أنا أيضاً دون عمل. ومهما ظننتُ ألا شاغل في البيت

وجدتُ ما تشغل به نفسها. وإن لم تجد في البيت وجدت في أرض الدار. - لا

ترك ذرة من الوسخ، والمكنسة في يدها، في بقعة من الدار. متى كبرت

- فسيكون من يحظى بها شريكةً عمر محظوظاً.
- أنسيّتي يا أفس - خرج العجوز من أفكاره - أرسلوا معي خبراً إليك.
- ممن؟
- لن تعرفي!
- فانو؟
- فكّري أكثر!
- نيقولاي بافلوفيتش؟
- اقتربت.
- الأب غيورغي؟
- هو أيضاً سأل عنك، ولكن لم يرسل معي خبراً.
- لا أعرف!.. - لم يكن تريشكوف غائباً عن توقعاتها ولكنها تجاهلته. لماذا تحوله إلى مزاح كما فعل الطبيب قبل أيام؟
- ألم يعد في جيشنا إلا من ذكرت أسماءهم؟
- في جيشنا كثيرون، ولكن متى أخبرتني بمن أرسل إليّ عرفته.
- أما طلبتُ منك أن تفكري؟!
- لا تخبرني إن شئت، مللتُ منك!
- هو تريشكوف نيقولاي!
- بف! - نطقت أفس على طريقة الأدبغة تماماً، وأدارت رأسها. - ما أشد شوقي إليه!!
- ماذا جرى بينكما؟
- حين سألتُه إن كان القاتل مسيحياً لم يُجِبني... - وُلِحْتُ إلى العجوز وقد وجدت حجة جيدة بعدما ندمت على ذكر ماخاتازه: - فيدور أراك لا توقّر شيئاً من البطاطا.

- وماذا أفعل بالبطاطا؟ - يفتشها فيدور.
- تنزع عنها قشرة سمكة.
- أهذا هو؟ - ابتسم فيدور - ما الذي يجمع بين أصابعك الرقيقة وأصابعي الغليظة يا أفسس؟ أفشّر على قدر استطاعتي... غلبتني في هذا أيضاً. ألا يكفي؛ فشّرنا ملء دلو؟
- هذا يتعلق بعدد من سيأكل منها يا فيدور.
- ليس في المشفى إلا خمسة أشخاص، يكفي - نهض العجوز - أنعرفين يا أفسس ماذا علينا أن نفعل الآن؟
- إذا كان بقي على حبات البطاطا آثار سوداء نظفناها.
- صحيح، لن ندع مرضانا يعتبون علينا.
- وسنرضي الطبيب سيرغي بيتروفيتش. - وافقت أفسس العجوز بنبرته نفسها.
- تخلّصي أنت من قشور البطاطا، وأنا سأتي بالماء.
- الضجة التي ثارت في أرض الدار أجبرت الاثنين على الانتباه، فخرج العجوز من الغرفة عارفاً أن لا خيرَ في تلك الجهة. وتبعته أفسس لا تتأخر عنه.
- على البوابة الكبيرة عربتان يُخلون منهما الجرحى إلى المشفى. تنظر أفسس من المسطبة فترى نيقولاى تريشكوف مستنداً إلى العربة يقول شيئاً للجريح. يجسّ جبهته، ويمسح عليها، ثم يصرخ على مسمع من الجميع:
- بيسو!.. بيسو فيسارينوفيتش ماخاتازه!
- يحتتم الدكتور ما صرخ من أجله تريشكوف:
- بيسو فيسارينوفيتش رحل!..
- لم تفهم أفسس في البداية ما سمعت. ثم حين عرفت بموت الضابط ماخاتازه انفعلت لا تدري ما يحدث لها. داهمها فرح مفاجئ كأنها ستطير. وقالت لمشد مُسمعة من في الدار، لا تكظم نفسها:

- هل سمعت يا مشدّد؟ القاتل قُتل!

ضم العجوز أفس إلى صدره بسرعة، وقادها إلى الغرفة مغلقاً فمها بيده.

- حرام عليك يا بنت، حرام... إياك أن تقولي شيئاً... الميت لا يُذكر بالسوء...

...

اجتمع الناس في فناء المشفى في اليوم التالي لإلقاء النظرة الأخيرة عليه. وفي الوقت المحدد أخرج عدد من الجنود تابوته الخشبي، ووضعوه فوق مقعد ذي أربع دعائم. واقترب الناس من الجثمان المكشوف الوجه. ونثروا عليه الزهور من كل جانب. ورسموا الصليب متوافقين وغير متوافقين. ويبدو من بين الجميع الأب غيورغي ذو العباءة الطويلة.

ما تستغربه أفس التي تراقب من النافذة هو سلوك الرجال الثلاثة القريبين منه: الأمير أميلاخفاري الذي يغلب على لباسه السواد يقف مطرقاً على رأس الجثمان، ونيقولاي تريشكوف يذرف الدموع، والعجوز فيدور يقف وراء الجنود لا قريباً ولا بعيداً عن التابوت، ينظر من وقت إلى آخر إلى حيث تقف أفس غير مطمئن إلى ما يمكن أن يبدر منها.

حين ينظر العجوز إلى البيت تفهم أفس أنها لم تبق وحيدة تماماً رغم كل هؤلاء الذين جمعهم الحزن. لا عتبَ عندها على أحد باستثناء ذاك الراقد في التابوت. والأمير أميلاخفاري عنده ما يحزن لأجله: الضابط الكرجي الذي يخدم معه، والذي كان يتوهم برفقته أنهما يخنقان صوت الأديغة رحل. وفي أسوأ الأحوال لم يكن في الجيش الروسي من هو أقرب إليه، يسانده. تتذكر أفس جيداً أنه وبخ ماخاتازه لأجلها ولو أنها لم تكن تفهم لغتهما. وبعد هذه الحادثة فحسب بدأ يأتي إليها، لا تسمح له أن يقترب منها، وترميه بما تصل إليه يدها من التراب. وكانت تترك ما يحمله إليها من قطع من السكر أو غيرها أمام

الباب أو تُطعمها للكلب. ولم يكن يمر من شارعها دون أن يحییها بيده سواء كان فارساً أم راجلاً. لماذا تجتمع كل هؤلاء الناس؟ ماذا رأوا في القاتل؟ ألا تعرفون أنه قتل والد أفسس ووالدتها؟!

كل من تراههم أفسس في هذه اللحظة، ابتداء من الرائد في التابوت، مروراً بالجنود الآخرين، وانتهاءً بفيكتور الذي يظل يراقبها، أعداء لها. لماذا تتفحصهم وعيناها مسمرتان إليهم بدلاً من أن تشعر بالفرح؟ تغادر النافذة منتصبية الرأس، مرفوعة الكتفين. تقف على أرض الغرفة لا تعرف ماذا تفعل. البيت مرتب بعناية. ما الذي يمكن أن تتحمس لفعله؟ كيف تستطيع أن تنسى جثمانى والدها ووالدتها اللذين لا يفارقان عينيها؟ تعود أفسس إلى النافذة راكضة، يُخَيَّل إليها أن الناس زادوا. أعجيب إن قُتل المجرم ؛ أما قتل هو أحداً؟ ألم يتسبب في الحزن لأحد؟ ألم يُيتم أحداً؟ انظر كيف يبكي تريشكوف أكثر من الآخرين! ماذا جرى لك وهو ليس أباك ولا أمك ولا أخاك كما يقال. تبكي من أجله من بعد كل ما فعل بي ناسياً أنني ما زلتُ على قيد الحياة! لو كنت مكانك لما ذرفتُ عليه دمعة، بل لما اقتربت من جثته... جفلت أفسس إذ لم تعد ترى العجوز، خائفة من أن يختطف المتجمعون حول الجثمان كالغراب الهائج التابوت ويتعدوا تاركين إياها وحدها، ولكن صوت الباب الذي سمعته أفرحها، وقالت للدخل:

- أين اختفيت يا فيكتور؟
- وأين أختفي يا أفسس؟ أنا في الفناء...
- ما أطول بقاءهم مع جثمان ماخاتازه؟
- يا أفسس! - رسم العجوز إشارة الصليب، - يا بُنتي ألم أُحذرك من أن تقولي مثل هذا؟! كائناً من كان المتوفى لا يقال مثل هذا في الميت.
- هاه، هو يدفنونه، - لمعت عينا أفسس، - وأبي وأمي تركهما في الغابة.

انفجرت أفسس باكية وارتمت في صدر العجوز ورأساً كنفها يخفقان.

- اسكتي يا أفسس، توقفي عن البكاء، - يلاطف فيدور أفسس، يمسح عليها بيده، ويقول: - لم يترك أبوك وأمك في الغابة، كنتُ بين من ذهبوا للبحث عنهما...

جعلتها الكلمات التي سمعتها أفسس للمرة الأولى ترفع وجهها. ونظرت تتوقع الأعجب، ولما لم تسمع شيئاً سألت:

- أين قبرهما إذن؟

- لن أكذب عليك، لا أعرف.

- وكيف تعرف إذا ذهبتم إلى الغابة ولا تعرفون أين هما!

- ولماذا، كان الضابط ماثاخازه معنا.

- المجرم؟.. - سألت أفسس وهي تمسح عينيها. - هذا القاتل!

- حرام عليك يا أفسس. لا يزال الجثمان في الفناء.. - قال فيدور بصوت يكتم خوفاً، وأضاف بسرعة: - صدّقيني في ما قلتُ بشأن ماخاتازه، بحثنا، ولم نجدهما.

- كانتا على الأرض... أنا أتذكر... - نظرت أفسس مرة أخرى في وجه العجوز وكأن أماً ما يلوح لها.

- الخبر الذي سمعناه وقتها أن الأديغة أخلوا الجثتين... - رسم العجوز الصليب قائلاً في نفسه: اغفر لي الفكرة التي اخترعتها.

تنهدت أفسس قليلاً شاهداً على ارتياحها نوعاً ما للخبر. وسرى على وجهها اطمئنانٌ خفيّ تعرفه هي في نفسها. ونظرت بعين أخرى إلى العجوز، ثم هدأت نفسها بنفسها:

- إذن دفنوهما في قبر أديغي!

- ارتاحي يا أفسس، يجب أن أعود وأنضم إلى هؤلاء.

- وأنا سآتي - قالت أفس دون أن تفكر في شيء. والتقطت غطاء رأسها الأسود، وها هي ترتديه.

- إن كان هذا رأيك يا أفس، - قال العجوز لا يعرف تفسيراً لما يسمع، ولكن مرتاحاً إليه - سيقدرّون معروفك.

تسمرت أفس في مكانها لحظة وصولهما إلى الباب.

- سألني يا فيدور، لن أستطيع المجيء.

- لن يعتبروا عليك يا أفس إن لم تخاطبهم، قال فيدور، ولكن كان الأفضل أن تفعلني.

- لا يا فيدور!

حين بقيت أفس وحيدة في البيت انفجرت باكية.

لم تكن تفهم لماذا تبكي مُلصقة وجهها بالوسادة. ما الذي لم تتحمله؟ أهو الحمل الزائد عليها الذي لا تتحمله أم الخبر الجديد عن أبيها وأمها أم الجثمان الذي يخرجون به من الدار؟ لم تكن الأسئلة الثلاثة بلاجواب من أفس، غير أن أشدها إيلاًماً لقلبها في هذه اللحظة صعبٌ عليها وعلى غيرها معرفته...

XIV

تركيبية الإنسان عجيبة. السر الذي في قلبه صعبٌ معرفة أساسه حتى لو حفرت حوله بكل نعومة. والإنسان يحمل هذا السر معه مادام حياً. وحين يرحل عن الدنيا يحمله معه إلى الآخرة. ومهما كان هذا السرّ صغيراً حتى لتسعه راحة كفِ الإنسان فجرحه سهل، وكذلك شفاؤه.

مات ماخاتازه الذي قتل والدَي أفس. ولم يكن الذين لحقوا بهما من الجانب الأديغي ومن الجانب الروسي قليلين. الحرب لا تتوقف في مكان واحد، تتقدم. وترتد في مصائب الناس. وتنشر الظلم. ولكن الحياة لا تتوقف، عُرس أحدهم، ومأتم غيره. وحياة أفس تشهد على هذا. تضحك وتبكي، تفرح وتحزن.

ويحدث أن تنسى ما تحصر في قلبها وألا تنسى. يجفل فيدور حين يراها أحياناً إلى جانب الفرن أو على النافذة وعيناها شاردتان. غير أن استعماله لآله الموسيقية قلّ. وحين يلجأ إليها يعزف عليها الحاناً مرحة لا حزينة. ربما صدق في شأن أفسس ما يُقال من أن المصيبة تتبعها فرحة. يتعجب فيدور، فرحاً بما يلاحظ أو حزناً، من أنه في اليوم التالي لدفن الضابط ماخاتازه تعود الصبية إلى وعيها على نحو ملحوظ. من جهة راضٍ، ومن جهة أخرى من المعيب لمن يرى أو لمن يسمع أن ترقص على قبر الميت كائناً من كان. حتى لو لم تتصرف أمامه على هذا النحو، فالعجز ليس أعمى، يرى كل شيء، سواءً في طريقة كلامها، أم في جلستها أم في لبسها أم في ضحكتها، بطريقة لا يمكن إخفاؤها.

قال فيدور: هذا ما يحدث، مآثم هذا فرحةٌ لذلك. وبالنسبة لي لا فرق بينهما. - صارا في مواجهتي وأنا لا أعرف بوجود أيّ منهما. أحدهما قريب جداً مني، جزء من روحي. والآخر، ولو انعدم، اجتزأه معاً في طريق حياتنا العسكرية، وتحملنا معاً العناء نفسه. الميت لا تقال في حقه أيّ كلمة سيئة. ولكن ما العمل؟ جلب لنفسه مصيبة أبدية عن طريق الصبية البريئة ظناً منه أنه مخلص لمهمته العسكرية. ترك للناس ما يخوضون في سيرته عبثاً ولو أن عظامه ارتاحت في القبر. كانت أفسس أول من أفلتت منها فرحتها بالتشفي مع أن موته جلب الحزن لمن كان يعرف ما فعله، ولمن كان يسمع من بعيد دون معرفة الحقيقة. ما هذا؟.. ما أعجب تركيبة الإنسان حتى ليصعبُ اكتشاف كُنْه قلبه! والذي حدث للصبية؟ وما يمكن أن يحدث لها في المستقبل؟ ماخاتازه ييسو تألم ساعةً ومات، وبقي في القبر الصغير المرتفع، بانتظار أن يتحول يوماً إلى جزء من التراب. أما الأخرى فتتألم، تنسى أحياناً، وتتذكر أخرى، يمضي بها العمر لا تدري ماذا بانتظارها.

هُرَعَت أَفْبَسَ إِلَى الْغُرْفَةِ وَبِيَدِهَا بَاقَةٌ مِنَ الزَّهْوَرِ الْبَرِيَّةِ. وَنَشَرَتْ الْفَرْحَ فِي الْبَيْتِ
الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِلَّا الْحُزَنُ:

- مَا هَذَا يَا أَفْبَسَ؟ مَنْ أَيْنَ أَتَيْتَ بِهَذِهِ الْأَزْهَارِ؟

- جَمَعْنَاهَا أَنَا وَمَشَدُ مِنَ الْبَرِيَّةِ.

- حُلُوةٌ، وَرَائِحَتُهَا طَيِّبَةٌ.

- لَيْسَتْ رَائِحَتُهُ طَيِّبَةٌ فَحَسَبَ بَلْ تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الشَّمْسِ.

- نَعَمْ يَا أَفْبَسَ، نَعَمْ.

- أَنْتِ يَا فِيدُورُ مِنْ جَلْبِنَاهَا لَهُ.

- شُكْرًا لَكُمَا، سِرَرْتُمَانِي. سَتَبْقَى فِي الْغُرْفَةِ تَنْشِرَانِ رَائِحَةَ الْبَرِيَّةِ.

- يَا فِيدُورُ! - تَسْتَغْرِبُ الصَّبِيَّةَ كَلَامَ الْعَجُوزِ - الْيَوْمَ هُوَ الْأَحَدُ ؛ أَلَنْ تَزُورَ
الْقَبْرَ؟

- وَكَيْفَ لَا أَزُورُهُ؟ هَا أَنَا أَجْهِّزُ نَفْسِي. - نَظَرَ الْعَجُوزُ فِي وَجْهِ أَفْبَسَ وَلَمْ
يَسْمَعْ الْكَلِمَةَ الَّتِي يَنْتَظَرُهَا مِنْهَا: أَنْ تَزُورَ مَعَهُ الْقَبْرَ. كَانَ بُوْدُهُ، كَمَا فِي
الْمَاضِي، أَنْ يَعْضُ عَلَيْهَا اصْطِحَاحَهَا وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَسَبِّبَ لَهَا الْحُزْنَ،
وَرَعْمَ ذَلِكَ لَمَّحَ لَهَا: - الْيَوْمَ سَيَزُورُ الْقَبْرَ كَثِيرُونَ. إِنْ احْتَفَظْنَا فِي قُلُوبِنَا بِمَنْ
رَحَلُوا إِلَى الْآخِرَةِ كَسَبْنَا الثَّوَابَ...

"لَيْسَ الْجَمِيعُ" كَانَ بُوْدٌ أَفْبَسَ أَنْ تَبَادُرَ بِالْإِجَابَةِ وَلَكِنَّهَا تَرَاجَعَتْ مِنْ تَلْقَاءِ
نَفْسِهَا دُونَ أَنْ تَعْرِفَ مَا لَجَمَهَا. وَبَدَأَ عَلَى وَجْهِهَا ارْتِيَاحُهَا مِنْ قَدَرْتِهَا عَلَى
هَذَا التَّرَاجُعِ. ثُمَّ وَجَدَتْ ذَرِيعَةً لَيْسَتْ فِي الْقَلْبِ وَهِيَ تَعْرِفُ أَنَّهَا كَاذِبَةٌ:

- يَا فِيدُورُ، كَانَ تَرِيشْكُوفُ هُوَ مَنْ رَجَا أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الْبَاقَةَ إِلَى الْقَبْرِ.

- شُكْرًا لَهُ عَلَى تَذَكُّرِهِ، سَأَلْبِي رَغْبَتَهُ - قَالَ الْعَجُوزُ، وَأَرْدَفَ: - ظَنَنْتُكَ أَنْتِ
صَاحِبَةُ الْفِكْرَةِ.

- وَأَنَا لَسْتُ بِعَبِيدَةٍ عَنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، - قَالَتْ أَفْبَسَ وَأَتْبَعَتْ بِسُرْعَةٍ: - وَلَكِنْ

نيقولاى هو صاحب المبادرة...

- يسرني أياً كان صاحب الفكرة، من يفعل الخير يلقه... ولكن قَبْرَ مَنْ كان نيقولاى يرغب في وضعها عليه أولاً؟

وجمت أفسس لا تعرف ما تقول وما تفعل. ثم وجدت المخرج. أفهمته دون أن تذكر اسمه، ودون أن تعرف سبب ذكرها له:

- هو من كان يبكي عليه في ذلك اليوم وأنتم تدفنونه...

- حقاً يا أفسس، حقاً، - يوافقها العجوز - لا تزال روح الميت حديثاً في السماء في طريقها إلى الله... ما تُقدِّمه لمثل هذا الإنسان ثواب. في طريقي إلى القبر سأجمع بعض الزهور للراحلين وأضعها على قبورهم...

- فيدور! - سألت أفسس فجأة، - هل يضع الأديغة الزهور على قبورهم؟ تألم قلب العجوز الذي كان يستعد لزيارة القبر منشراحاً من التغيرات على قلب أفسس، وشحب لونه، غير أنه سرعان ما عاد إليه وعيه فأجاب دون أن يمضي إلى الأبعد:

- على قبور الأديغة لا توضع زهور، أعرف هذا. وسأقول لك السبب. هؤلاء يعدون الأزهار سريعة الذبول فلا يثمنونها. وربما كان هذا صحيحاً، ولكن لا أريد أن أشهد على ما لا أعرف. الآن سأمضي إلى حيث قررت. ابقي في البيت، ولا تخرجي من الدار يا أفسس.

- سأشيعك إلى زاوية السور، - خرجت أفسس من البيت مع العجوز.

...

تجاوزا السور الأول، ووصلا إلى السور الثاني، وتجاوزاه، ودخلا إلى البرية المقابلة للمقبرة المألئى بالزهور.

- خذ هذه وأضعها إلى زهورك! - قالت أفسس - نحن، أنا ومشد، سنعود.
- وكيف تعودين وقد وصلتِ إلى هنا؟ - سأل العجوز بحذر شديد - ها هو

القبر لم يعد بعيداً.

نظرت أفسس إلى العجوز دون أن تجيب، وأسرت بالعودة.

- تعال يا مشد!

لم تلتفت أفسس إلى العجوز السائر يعرج إلى القبر ريثما اجتازت البرية، ووصلت إلى سور المشفى ودخلت من الباب. وبعدها امتدحت الكلب على مرافقته لها، ودخلت غرفتها، أغلقت النافذة رغم حرارة الجو. وتشاغلت بأمر متعدد، ولكنها هربت من الغرفة ثانية لا تُفلح في عمل شيء مما تريد. ثم خرجت من الدار وجلست على مقعد خفيض أسفل السور.

كانت المنعة الروسية التي ليس فيها إلا شارعان وخمسون بيتاً هادئة كأن سكانها هجروها. والحقيقة أنه لم يكن فيها إلا المرضى الثلاثة في المشفى فالذين ليسوا في السوق هم في المقبرة.

الشمس تغزو منتصف السماء رويداً رويداً. والنسيم الخفيف يسري فوق الأعشاب، ويندسّ في الأشجار المبرعمة باللون الأبيض الأحمر. وتبدو الجبال المتراصة التي يكسو الثلج أعاليها وراء الأنهار التي لم تعد أصواتها مسموعة كأنها تبتعد. والغابة التي ينشر مرآها الرعب بخضرتها تصعد إلى الجبال وتخبط.

أجفلت أجراس الكنيسة الصباحية أفسس فرسمت الصليب، ونهضت ودخلت البيت تواءً. وقفت أمام صورة الإله تصلي. تحني رأسها لمن هي واقفة في حضرته علامةً خوفها منه. تخاطبه أفسس: انشر السلام في العالم يا إلهي، ومُدّ في عمر الأحياء، وامنح الجنة للأموات... وخلّد من قتل والدي ووالدي البريئين في النار. وامنح الصحة والعمر المديد والسلامة لفيدور. وكذلك لفانو وتريشكوف. وأعِمّ الرصاصة عنهما. والجنرال نيقولا بافلوفيتش رجل طيب فامنحه الصحة، هذا بريء من دم أهلي. الذنب ذنب من يأمر بالحرب...

سُمع صوت باب.

التفتت أفس فأت ففءور والأب غفورغف. وقف الرجلان بعدما ءءلا الغرفة بصمت وراء الصبفة ىرسمان الصللب وىومئان بالرأس وىبتهلان إلى الله. الةاللة الآن أمام الإله نفسه وإن لم تتطابق صلواتهم. ىبتهلون من أجل الإنسانفة والراحة والسلامة.

قال الأب غفورغف بعدما انتهوا من الصلوات:

- أنت مهذبة فافس. لم تفوّف صلااة الظهر. سفرضى عنك الله، ونحن سفرضى عنك بعلمه. ما ءاآاتك فافس فاذن الله؟

- كما ترى أفاها الأب غفورغف. - استعجل العآوز ففءور. - الله أمام عفف فافس ءائماً. لا ءحمل أوقات صلواتها، سواءً كانت فف البفء أم ءارآه. الله فف قلبها، الله معفئها.

- لن تستطفع أن فعفش فف هءة ءءفا الفاففة إن لم فكن الله فف قلبك فاف ففءور ءانىلوففئش. - شهء الأب على كل ما سمع. وءطا ءطوة: - من فؤمن بالله، وفؤمن إلىه فءفاة الآنة السعفة فف انظاره. ففءو فف أنك ستأففن إلى التعمفء صاءقةً وآاهزة له. لن فسمع الله العرفز الفوم من ءارنا ءبراً أشء مءعاة للسرور.

مء الأب غفورغف وهو ءارآ من البفء الصللب الكبير المءءلف على صدره إلى أفس. والأءرى، ءلافافاً لما كانت ففعف فف الماضف، لمسته بفمها ءون أن ءهرب أو فتلوى أمامه.

عاء العآوز ففءور بعدما شفع الأب لا فسعه ءءفا من الفرح. وأففى على الصبفة:

- ءفاك الله فافس، لم فءذلففف، فصرفف مع الأب غفورغف على فآو ءفء.

- وهل فآآاآ هءا إلى شكر فافءور؟

- نعم فآآاآ فافس فاف صفرفف. لا شفء أءلف وألفق بالفسان من الإنسانفة.

لا تظني أنني أقول هذا لأن الأب موفد الله، بل تعاملت معه بإنسانية...

- ألاني لمست صليبه الفضي بشفتي؟

- وهذا سبب، ولكن الإنسانية فوق الجميع!

- أهى فوق الله؟

- اسكتي يا أفس، لا تتصرفي على نحوٍ مخالف للمألوف!.. إن كنت تريدان

أن تعرفي فسأقول لك رأيي في هذا. الله والإنسانية سيان عندي!.. - رسم

الصليب بسرعة كي يغفر لنفسه ما سمع.

فكرت أفس بعض الوقت ناسيةً مزاحها المتمرد. ثم سألت بنيرة أخرى لا

تعرف منها إن كانت حزينة أم غير حزينة، نادمة أم غير نادمة:

- إن كنت ترى هذا يا فيدور فكيف سندهب في الأسبوع القادم إلى

الكنيسة؟

- سندهب يا أفس. وسنحتفظ بالله في قلوبنا. ولن ننسى الإنسانية.

XV

كلما اقترب يوم عماد أفس ازداد قلق العجوز فيدور. في اليومين الأولين من

الأسبوع الجديد، مع أنه لم يكن مهتماً كثيراً بالقلق الذي بدأ ينشب في قلبه

متأثراً به وغير متأثر ظاهراً، ورغم استعداده يوم الأربعاء للأسئلة المتنوعة التي

تنتصب أمامه فإنه يبدأ يخاف أن يفعل هذا أمام الله. وأينما ذهب فإنه لا

يطبق رؤية أفس التي لا تغيب عن عينيه. يعد نفسه المسؤول الوحيد عما جرى

للصبية، وما ينتظرها غداً الأحد. لا ينسى سؤالها قبل أيام: "أهو إله واحد أم

إلهان من يحكم الكون؟".

يقول العجوز: أليس صحيحاً ما أحببت به الصبية؟ لا يمكن لكل قوم من

هؤلاء الذين يتكلمون لغات مختلفة أن يكون له إله. لا أعرف كيف كانت كل

مجموعة من هؤلاء الذين يعيشون في القفقاس وحدها، بدءاً من الداغستان، إلى

الشيشان، إلى الأنغوش، إلى البلقار، والقرشاي، والأبازة، والنغوي، إلى إقليم الأديغة، تعتنق ديناً مختلفاً. هؤلاء يقولون إنهم مسلمون، ونحن نقول: نحن مسيحيون... لسنا على دين المسيح ظاهراً فحسب، اغفر لي يا إلهي، بل هو في قلوبنا... ولكن مع ذلك، لا أعرف إن كان كلامي خطأ، الصبية التي ستمثل أمامك، وأنت تعرف، من قوم آخرين لهم دينهم. ومع أي أربها من أجلك منذ أن وقعت بين يدي فإني لا أستطيع أن أنسيها قومها متى خطروا لها. لا، لا أدعي أنك لست في قلبها. ها هي تغسل دون أن أطلب منها، وتمسح، وتجلي الأواني، وتعني بهدامها متهيبة من لقاءك غداً... أتستغرب ما أقول أم تتقبل الأمر.

أدار العجوز نظره في أرجاء الغرفة غير عارفٍ أطرح السؤال عليه أم طرّحه هو على نفسه. كل ما تراه العين مألوف لديه. والأريكتان على الجدارين المتقابلين مرتبتان بعناية. وعلى أريكة أفس الدمية الروسية وضفاؤها منسدلة على ظهرها. والدمى الثلاث الأخرى، وتلك الأديغة التي صنعتها لنفسها على حافة الوسادة. وصورة الإله التي في الزاوية وتحتها قنديل الشمع تُطلُّ على الجميع مستغربة جلسة الدمى. توجّه العجوز فيدور إلى صورة الإله وابتهل إليه وهو يرسم الصليب ويومئ برأسه. اغفر لي إن لم أقل لك الحقيقة في شأن الصبية المسلمة، ستعجب عليّ، ولكن الأفضل أن تعرف حالها. لا أستطيع أن أزعم أنها غائبة عن علمك غير أنني سأرتاح إن أخبرتك بما في نفسي. هل ستكون الخطوة التي ستخطوها الصبية نحوك غريبة عليها؟ هل ستقبلها؟ لا يمكن الفصل بينهما على حدّ علمي. ستستغرب الفتاة التي في مطلع العمر ما تراه لأول مرة، ولذا لا تعتب على أفس إن لاحظت عليها شيئاً من هذا. وإن كان الموضوع هو ما ستقبله فهذا شأن مختلف. شهادتي عليها تثقل عليّ، ليس لأنني لم أرّها له... ما ستفعله غداً، أو بالأحرى ما سيفعلون بها، لا أجزم أنها

ستفعل دون إيمان. ستنفذ كل ما يطلبون منها دون أي تقصير. ولكني لا أعرف ما ستفعل مَنْ صارت من عبادك متى تركنا الكنيسة وعدنا إلى البيت. أنا لن أكذب أمامك كغيري من الناس. ما أعرفه واحدٌ: سيصعب عليها أن تنسى ما يجري في دمها. لا أظن عنادها غائباً عن علمك، ولكن أتوسل إليك أن تغفر لها مهما قالت أو فعلت. إنها بريئة، مسكينة، مطيعة. ربما تفهمنا إن كبرت ووقفت على رجليها. وإن لم تفهمنا نُحْمِلْ عملنا على سبيل الصدقات الكثيرة التي خرجت من بين يديك. ولكن لو كان الأمر بإرادتي لأعدت الفتاة المسلمة التي لا تعرف غير ربّها إلى أهلها... يا إلهي اغفر لي إن صدر من فمي كلامٌ غيرٌ لائق، وإن طلبت مني التراجع عن كلامي تراجعاً! لم أفعل غير إطلاعك على ما يحزّ في نفسي...

- فيدور! - خرجت أفس من العرفة تمسك بما غسلته، - الجو اليوم جميل، ليت الغد كان مثله.

- لا تتشاءمي من الغد، سيأتينا الله بيوم جميل. - مسح العجوز على رأس الصبية، وضمها إليه، وأبقاها إلى جانبه مدة لا يقول شيئاً، ثم أمرها وأنفاسه تتقطع: - اذهبي يا أفس والعبي!

- وكيف ألعب يا فيدور؟ ألا يجب أن نحضّر أنفسنا للغد؟ وهذه الملابس تحتاج إلى الكيِّ.

- هاتيها، أنا سأكويها. - عصر الألم قلب العجوز وإن عاد إلى وعيه.

- لا، ليس هذا من مهام الرجال!

- لا فرق بين رجل وامرأة في ما تتقنه يداك.

- بلى هناك فرق. لو لم يكن لما ميّزوا الرجال من النساء.

- هذه هي المكواة إذن، جاهزة.

كان على قلب فيدور أن يرتاح لطريقة أفس في الكيِّ، ولحركاتها، ولكنه كان

يضطرب أكثر. وكلما نظر إلى الظهر الرقيق للصبية الصغيرة أمامه، وكلما استمع إلى ثرثرتها، زاد شعوره بظلمه هو.

يقول العجوز: رغم وجود الله، ورغم أن كلاً يحمل في قلبه، فإنه يقف أخيراً في مواجهة إنسانيته. وأنا عشت تجربة هذه الصبية وعشت بين الغرباء. لم يفرضوا عليّ أن أقول أو أفعل أو أتخلص مما في قلبي... أيجوز ما نفعله؟.. صعبٌ على المرء أن يتقبل ما هو مُكره عليه... لماذا يا إلهي لا نفكر في هذا؟ ألا يرى ربُّه الإسلامي أننا حاصرنا الفتاة المسلمة التي ليست من قومنا نجبرها على أن تفعل ما لا تعرفه ولا تريده؟ ألم يعد يتحلّى بالرحمة؟ ما الذي يجري على هذه الدنيا؟ أسأل: أيُّ منكما سيفهمنا وينهانا عما سنفعل.

أعاد صوت الفكرة التي خرجت من القلب فيدور إلى وعيه. هو وحده إلى الطاولة، وأفسس غائبةً عن الغرفة المجاورة. حين نظر عبر النافذة رأى الصبية في الفناء، ترفع الغسيل عن الحبل بعنف. ولا يصله ما تقوله للجندي الجريح الواقف على المسطبة. تكلمه، وبعد قليل حين يفتح النافذة، يسمع همس الصبية إلى مشد بالأديغية:

- هذا ما سيحدث يا مشد، سأُنهي غداً أديغيتي في الكنيسة... وربما لن نتكلم بالأديغية. لا تؤاخذني إن ناديتك غداً باسم "شاريك"! ربما كتب الله علينا...

قفز العجوز من مكانه لا يتحمل ما سمعه. قال: لن أسمح لك أن تفعل هذا ما دمتُ حياً! أيُّ مصيبة رميتُ فيها ورميتُ نفسي؟ ليس في الجيش الروسي غيري بعد الإله الذي لا يفهمنا من يقرر مصيرك. كل شيء سيجري بما أريده وأقرره أنا فحسب! لذا انظري ما سأفعل بهؤلاء! قفز العجوز يعرج وبدأ يجهز نفسه. لم تأتِ يا بُنتي إلى هؤلاء بإرادتك بل عقبَ مصيبة، وعلى هذا فلست حرة، ولا يُكره العبد على ما لا يريد. بل يرحمونه، ويطلقون سراحه... ماذا

سيفعلون بي؟ لا تيأسي ولو كنتِ يتيمة الأبوين ما دمت إلى جانبك. ماذا يفعلون بي إن أعدتُك إلى قومك؟ الحرب تمضي إلى نهايتها، وبعدها سنستقر على حالٍ ما. وسأجد أهلي مادمتُ حياً.

لم ينتبه فيدور إلى دخول الدكتور إلى الغرفة.

- ما كل هذه الفوضى عندك؟ - سأل الدكتور وهو يتفحص الصناديق والملابس المبعثرة على الأرض. وأرى من هناك أفسس غسلت ثيابها وتحفّفها منذ الصباح. وما تزال تكويها.

- أفسس من هذه الناحية تبين أنها مطيعة مهذبة يا سيرغي بيتروفيتش. - عاد العجوز إلى وعيه، ودفع الصندوق برجله فأزاحه. ودلّ الضيف على مقعده وهو يُبعد بعض المهملات. وجلس هو إلى جانب الطاولة وظهره إلى صورة الإله، وتنهّد عميقاً وأضاف: - لا أعرف حالي... أظن هذا اليوم يوماً مزعجاً...

- لا يا فيدور، يومٌ جميل. صعبٌ أن تصفه بما وصفت.

- وهذا رأيي أفسس. ولكن قلبي ليس في وضعه المعتاد.

- هات يدك، - أمسك الطبيب بمعصم فيدور يحس نبضه. وظل فاتحاً ساعة جيبه بعض الوقت. وعبرَ مواربة عما يشك فيه: - أظن مجريات الغد تثقل عليك يا فيدور...

- أقلق لما سيحدث يا سيرغي بيتروفيتش ولا يثقل عليّ. كنتم ما في نفسه، لم يكن يريد أن يطّلع أحدٌ، حتى الصبيّة، على ما فيها.

- وماذا ستفعل بهذه البالالايك؟ - يسأل الطبيب عما رآه على أرض الغرفة - وهل ستصحبها أيضاً إلى الكنيسة؟

- أودُّ أن أعود بأفسس متى تحققت مهمتنا على أنغامها.

...

صباح الأحد وصلت، بأبجى حلّتيهما وفي غاية الحبور، العريتان اللتان ستُقِلّان

أفيس والعجوز فيدور إلى كنيسة ميخائيلو - أرخانجيلسك. وتبين أن لا أحد ينتظرهما، والدار خالية، والباب مغلق.

ولما دخلوا البيت كان فيدور في الفراش وأفيس تحرك المروحة أمامه، والطبيب يجهز الحقنة...

تغير لون نيقولاي تريشكوف بعدما فهم أن لا تعمد لأفيس اليوم في الكنيسة. ولكنه سأل العجوز خفياً انفعاله:

- ماذا يؤمك يا فيدور دانيلوفيتش؟ - وأضاف: - تُفسد برنامجنا...

- ألا ترى مرض فيدور؟ - أجابت أفيس لا يعجبها السؤال، ولم تقطع حركة مروحتها، بدلاً من المسؤول.

- أرى. - فيدور دانيلوفيتش مريض جداً... - تراجع السائل، ومع ذلك لم يملك إلا أن يسأل عما يشغل باله: - ماذا سنفعل؟

- سننتظر أياماً أخرى أحسن من يومنا هذا، - أجاب الطبيب بلوتالوف بكل هدوء وكأن شيئاً لم يحدث.

- ولكن ينتظرنا نيقولاي بافلوفيتش الجنرال وفانو غيفيتش وغيرهما... حتى لو كان فيدور سيتغيب...

فهمت أفيس ما كان تريشكوف يريد قوله فقاطعته:

- لن أذهب إلى أي مكان تاركاً فيدور!

- ألن يعتني به الطبيب سيرغي بيتروفيتش؟ - سأل تريشكوف بحرص. والتفت إلى العجوز يريد منه أن يوافقه.

- نعم يا أفيس نعم، - قال العجوز، - ينتظرونك هناك... أجد نفسي أذنب أمام الله... - قال لنفسه: لا أظني أفعَل هذا دون علمك، اغفر لي ذنبي يا إلهي.

- لن أذهب إلى الكنيسة من دونك يا فيدور! - انفعلت أفيس فسالت

XVI

تورّط العجوز فيدور خلافاً لِمَا توقّع.

مضى أسبوع وسيل الزوار لا يسمح له بالخروج من الفراش. ومشكلة المشاكل هي أفسس. ما إن تراه خارج الفراش حتى توبخه بدلاً من أن تفرح، بحجة أنه يكنس ويغسل. وهي تكفلت بأشغال الأسرة. وزادت تهدياً. ليس هناك ما تعجز عنه إلا أنها تعجز عن تجهيز عربة الماء لتستقي من النهر. وهل أشغال البيت قليلة؟ تغسل الثياب وتكنس وتستفيد من بعض الطبخات التي تعلّمتها من فيدور. وأحياناً تذهب إلى المشفى وتأتي بشيء من طعام الجنود دون أن تتوقف عند لحم خنزير أو لحم سمين أو مُدهن. يأكلان معاً، تستمتع بلذة كل شيء. وما إن يحين موعد النوم حتى يصصر التعب الفتاة التي وقفت على رجلها طوال النهار، فتغرق في النوم فجأة وهما يتحدثان ويتبادلان الأخبار التي لا نهاية لها.

أما العجوز فيقضي الليل كله لا يُغمض له جفن. ثم يتبع الأرقّ النهار والزوار والأفكار المقلقة. كلُّ يتبع الآخر، وما لا جواب له أكثر، فلا يجد راحة. يقول فيدور: عجيب أن الزوار قليلون اليوم. ربما ملّوا مني. هذا هو، كَرَمْتُ نفسي وأنا أظنني أفعل خيراً لصالح أفسس. وهذا ما لا أحجاجة البتة. عُصِرَت ما يكفي، ويكفي ما عانيت في عمري. لم أسعد في دنياي إن لم أبك. كانت الفتاة الصغيرة أشرقت في آخر عمري شعاع شمسٍ فأصروا على أن ينتزعوها مني. إن كنت تريد أن تفعل خيراً فعليك أن تفعله خالصاً، لا أن تفعله على حساب آلام أحدهم. ما حاجة أسيرتنا التي لم تبلغ بعد سن الرشد، ولم تتخذ قالب النساء، ولا تملك حرية القرار، أن تتعمد فتنتقل إلى ما ليس في دمها. إن كنت تريد الإحسان إليها فأحسن، ورتبها على الإنسانية وأنشئها عليها. لا

سلوكنا صحيح نحوها، ولا الله يقبل منا: نريد أن نضمّها إلى ما لا تعرفه، وليست جزءاً منه بأن ننصحها ونلاطفها ونخدعها. ثم إني أنا من سيكسب الذنب أمام الله، لا أنتم! أستمعني يا إلهي؟ اسمعني وافهمني، ولا تدعني أفعل ما لا أريد ولا تريد! قلبي يحدثني بأن ما نسعى إليه لن يتحقق؛ لهذا خطر لي قبل أيام أن أحمل الصبية إلى قومها. وأنت يا إلهي من أوحى إليّ بهذه الفكرة. وأنت من لم تمنحني القوة حين عزمْتُ على التنفيذ. لم يخطر لي أن أتهمك وأدينك بما ليس ذنبك. لا أظن الخدعة التي لجأت إليها فادّعت المرض كانت غائبة عن علمك... ماذا بيدي؟! وكيف يمكن أن تساعدني؟ أنا اقتنعت، وأنت اقتنع معي، أن هذه الصبية الغريبة عنا لن ترتاح إلى وجودها بينما مهما فعلنا من أجلها. لن أسمح وأنا شاهدٌ وعارف أنها لا تريد، أن يعمدوها!

- فيدور، - رجعت أفسس إلى الغرفة غير مستعجلة وقد اكتسبت مظهر النساء أكثر من ذي قبل، - هل تعرف من الذي لم يعدك في مرضك؟
- كلهم عادوني، - نظر فيدور إلى الصبية وهو يعرف أن وراء سؤال الصبية ما يخفيه، - لماذا تسألين؟

- نيقولايف بافلوفيتش الجنرال هو من لم يترك.
- اطمأنّ عليّ، وأرسل تحياته. ماذا تريدان أكثر من ذلك؟
- لا يستوي سؤاله عنك وعبادته لك. ألسن من يرى الإنسانية فوق الجميع؟
- نعم، ولكن أعتقد أن قائد الجيش لا شاغل له غيري؟!
- من من الناس ليس مشغولاً بشيء؟ - غمغمت أفسس على عاداتها حين تسمع ما لا يُعجبها، ثم أضافت: - في ذلك اليوم، حين أويت إلى الفراش، ولم نذهب إلى الكنيسة، مرّ من أمام باب دارنا عائداً منها ولم يعرّج عليك.
- من الذي يأتيك بمثل هذه الأخبار؟ لم يقبل فيدور.

- لا أحد، قالوا لي. - احمرت وجنتا أفسس، وسألت: - هل هذا سلوك

صحيح؟

- لو لم يتعلق الأمر بي لقلت إنه غير صحيح. كيف أثمن أنا نفسي؟ ولكن كما قلت لك كان أميلاخفاري أرسل تحياته إليّ، ومعها تحيات الجنرال. خطر للعجوز شكٌ مفاجئ بخصوص الجنرال لم يخطر له قبل، وفكر: ربما تعرف هذه الصبية شيئاً لا أعرفه أنا! هي في أرض الدار طوال النهار، أو جالسة أمام الباب، أو في المشفى. أ يكون وصل إلى الجرحى كلام يتعلق بي؟ هل عجيب إن لم آخذ أفس إلى الكنيسة؟ لا أحد غيرُ الله يعرف أي تمارضت. الطبيب شهد على صدق مرضي. ورأوه في اليوم الأول واقفاً عندي...

- أيُّ سؤال يا أفس تسألينه لا من هنا ولا من هناك؟ أخبريني إن كنت سمعت شيئاً!

- لا يا فيدور، لا. كنت مهمومة بعدم مجيء نيقولاى بافلوفيتش فحسب. - قالت أفس ما في قلبها حقيقة. ولكنها أخفت اسم تريشكوف الذي نقل إليها خبر الجنرال.

- أظنك تريدان رؤية الجنرال بافلوفيتش؟ - ابتسم العجوز الآن من أعماقه. - ليسمح لنا أن نراه ولو مرة؛ ألسنا في عداد أفراد جيشه؟! - أسرعت أفس بالقول لا تميز جدّها من هزلها. لا شك أننا أتعبنا الدكتور سيرغي بيتروفيتش إذ صارت زيارته قليلة.

- يا أفس، لا تقولي ما لا داعي له - نظر العجوز إلى الصبية كأنه يقول لها ولكن دون حقد: - وهل وصلت إليه؟- تركت سيرغي بيتروفيتش وحيداً بين مرضاه، يكاد يقوم بأمرهم.

- هكذا! - تتعجب أفس على عادة المسنين كما اعتادت. - يقضي وقته يعتني بأظافره إلى الظهر بعد زيارته الصباحية للمرضى.

- أفس! لا تقولي مثل هذا.

- ولماذا إذن لم يسأل عنك حين رأي قبل قليل؟
- في هذه اللحظة دخل الطبيب إلى الغرفة كأنه كان ينتظر السؤال. وتوهجت وجنتا أفسس وهي تنظر إلى العجوز دليلاً على خجلها. وكما تفعل حين ترى من هو أكبر منها عمراً نهضت عن المقعد وقربت إليه.
- أعتقد يا فيدور أنك صدقت حقاً أنك مريض. - قال الطبيب وعدّ نبض العجوز من عروق رقبته. - قم واستنشق الهواء النقي. وروّض رجلك.
- هذا الكلام يجب أن توجهه يا سيرغي بيتروفيتش إلى هذه، وأشار إلى أفسس. لا تسمح لي بالقيام، ولا أن أفعل شيئاً في البيت.
- لم تعد بحاجة إلى الفراش يا فيدور. وأنت يا أفسس لا تمنعه - أزعجناه لأنه كان قلقاً قليلاً. يمكنك أن تجهز العربة وتذهب إلى النهر يا فيدور. بل قطع الحطب وكسّر، ستشفى.
- وأنا واثق من نفسي يا سيرغي بيتروفيتش. شكراً لك، استفدت من علاجك. حين همّ العجوز بالنهوض من الفراش هُرعت إليه أفسس لمساعدته. - توقفي، أنا الآن صحيح. ألم تسمعي كلام الطبيب؟ أهملتُ حصاتي، وأظنهما يعاملان معاملة قاسية في غيابي.
- لا تقلق على حصانيك يا فيدور. الجندي الذي حلّ محلّك ليس رجلاً سيئاً. لم أره أهملهما لولا أنه لا يصطحب معه أفسس إلى الماء.
- الجندي سيمين يعامل الخيل جيداً. لا يستعمل السوط معها. - تؤيد أفسس الطبيب وتضيف: - ولكنه يصرخ عليها بحدة.
- هكذا! - يسأل العجوز مطمئناً. ويظهر عليه فرحه: - لا يضرهما، ليس الصراخ مشكلة.
- حين سمعت أفسس صوت عربة الماء فخرجت جلس الطبيب والعجوز مدة لا يتبادلان حديثاً تقريباً. ورغم اختلاف أفكارهما فقد كان مرجعهما هي أفسس.

لم يكن في جيش نيجيغورودسك أحد بعد فيدور يعرف أحوال أفسس وأخبارها إلا الدكتور. منذ اليوم الأول لجلب أفسس إلى الجيش كانت شفقة الطبيب عليها عظيمة. وكان يساند العجوز فيدور. وكانا يتصارحان بما يفكران به وبما يقلقهما. وإذا كان فيدور لا يبوح تماماً بما في نفسه نحو الصبية الأسيرة فقد كان يلّمح للطبيب أحياناً بعدم معاملتها بالإكراه. وكان يسره أن الطبيب يؤيده غالباً. ولكن لم يُطلع أحداً على نيته إعادة الصبية إلى قومها. ولم يكن ينوي إخبار الطبيب، بل الصبية نفسها إلا لحظة السفر بها.

قال فيدور: أياكون الطبيب شكّ في نواياي؟ ثم يُطمئن نفسه بنفسه: لم أر في سلوكه أي علامة تشير إلى شكّي. سرغي بيتروفيتش إنسان يتحلى بالرحمة. أعمل معه منذ عدة سنين ولم أسمع أنه أساء إلى أحد، أو وصّفه بما لا يليق، أو تكلم عليه في غيابه. بل كان هو نفسه عبّر عن اعتقاده أن الصبية لن ترتاح معنا، وستلقي مشقات كبيرة، وبالنتيجة لن تستقر بيننا، إن لم يكن تغيّر رأيه الآن!.. لا تعرف ما الذي يغير قلب الإنسان... حسناً فعلتُ إذ لم أخبره بحقيقة نيتي حين دخل وأرضُ الغرفة ملاءى بالأشياء القديمة. افهمني واشرخ لي صدري يا إلهي إن كنت تصرفت على نحو صحيح. لم يشك أحدٌ في ذلك اليوم وفي هذا اليوم لأن كل شيء جرى بمعرفتك. وإن لم يشك الطبيب فيّ فلن يشك بي أحد.

- قبل أيام يا فيدور، - قال الطبيب - لا أعرف ماذا جرى لك، أرعبتنا، كان قلبك يريد أن يخرج من صدرك.

- أحقاً يا سيرغي بيتروفيتش كان قلبي في هذه الحالة؟

- كان في هذه الحالة تماماً. ولكن لا داعي للقلق الآن.

- كنت أخبرتك قبل يوم من ذاك الحادث إن كنت تتذكر يا سيرغي بيتروفيتش أن قلبي في مثل هذه الحالة.

- نعم أتذكر. ولكن في يوم الأحد، موعد زيارتنا إلى الكنيسة كان في حالة سيئة جداً.

- وكيف تطلب مني النهوض وأنت تعرف حالتي إذن؟ - أكون مشفقاً على الصبية؟!

- لا، الآن لم يبق عندك أي مشكلة.

- ما تقوله عجيب.

- لا عجيب في ما أقول - ابتسم الطبيب ابتسامة خفيفة، - لو لم أكن أعرف وضعك لما أتيت على ذكر ما قلْتُ لك في ذلك اليوم. - وماذا كنت قلت لي؟ لا أتذكر.

- ما جرى لك في ذلك اليوم هو تعميد أفس يا فيدور. ولكن لا تسمح لهذه الحادثة أن تؤثر فيك كل هذا التأثير. احرص على صحتك. إن نشأت وهي تجد ما تأكل وتلبس فلا بد أن تعيش وتجد حلاً أينما كانت. - بدأت شكوك فيدور تغلي بسبب فتور كلمات الطبيب مع أنها كانت في صالحه.

- لا أكتمك يا سيرغي بيتروفيتش، - قال فيدور حذراً، مخفياً قلقه: "ما هذا الذي يريده هذا الرجل" - كان ذلك اليوم ثقيلاً عليّ. يحزّ في نفسي أنني تسببت في الأذى دون أن تكون عندي أي نية سيئة.

- لا يمكنك أن تخفي شيئاً عن الطبيب يا فيدور دانيلوفيتش!.. - ضحك الطبيب وهو يهز يده لفيدور وينظر إليه نظرات خبيثة. - ولكن الأفضل أن تركز على نفسك... وما قلته من أنك تسببت في الأذى شيء آخر: أظن أن ما أمام الصبية هو يوم العماد الماضي فحسب؟ إن عشنا فسيأتي يوم آخر مثله ذاك اليوم.

ما الذي يلجّح به إليّ؟ ارتعب العجوز فيدور. ألا يثق بي؟ كانت أقواله سابقاً غير هذه...

XVII

تمضي حياة أفسس في الجيش الروسي وهي تستغرب ما ترى، وتفكر في ما تسمع. مع أن حياة الجيش مرتبطة بالسلاح، ولا ترى إلا عزوبة الرجال، مركبة كيفما اتفق؛ فالناس يعيشون وهم يتقاسمون قلقهم وحزنهم وفرحهم كأنهم أسرة واحدة. وأفسس واحدة من هذا المجتمع. تعيش مع من وجدت نفسها بينهم وهي لا تفهم أنها غير حرة، راضية بما قُسم لها، راضخة، وغير راضخة لما حدث لها.

لم تعدم أفسس أن ترى لابسة غطاء رأس خلال حياتها أسيرة في الجيش الروسي. إن رأيت من جاءت تستلم جثة زوجها أو قريبها فهل ستسرّ برؤيتها أم يتألم قلبك لها؟! المنعة التي على خط الجبهة لا يعرف سكانها ما سيحدث غداً ولذلك يخاف الجنود أن يأتوا بأسرهم إليها ويعيشوا معها. ولكن هذا لا يمنعهم من أن يحصلوا على أراضي للبناء، ويُنشئوا عليها بيوتاً من اللبن أو أكواخاً مسقوفة بالعيدان المضفورة. أو يحدوها تأكيداً لامتلاكها بأكوام من الشوك.

أكثر ما يدعو أفسس للحزن هو أن لا أسرة من هذا النوع في جوارها. البيوت المواجهة كلها للجيش في هذا الاتجاه، خلافاً لجهة المنعة المتطاولة الأخرى، خمسة مهاجع للجنود متقابلة، ومطعم، ومشفى، وفندق للضباط يصدف أحياناً أن يكون خالياً تماماً. ثم مكتب الجنرال المواجه للفندق، والمحروس دائماً أحياناً يصدر من المنعة المتطاولة صوت نسائي عالٍ يعنّف أحداً، يقابله دائماً صوت رجل. ومهما كانت تسمع في طفولتها أصواتاً نسائية من هذا النوع فأفسس تحب أن تسمع هذا الذي يصدر من المنعة. ويرتفع هذا غالباً مع موعد الشاي الصباحي. ربما لا تترك المرأة المعتادة على الدرح شيئاً لا تتدخل فيه. يصل صراخها إلى البقر والدجاج والعجول والإوز. وكما يرتفع صراخ هذه المرأة فجأة يضيع سريعاً حيث ارتفع في الزاوية.

خرجت أفس من الغرفة مسرعة، وهُرعت إلى خارج الدار دون أن تتوقف عند العجوز فيدور الذي كان يجهز عربة الماء. استقرت على المقعد وأذناها مفتوحتان نحو الزاوية. غير أن الجهة التي وجّهت إليها أذنيها أهدأ من الدار التي خرجت منها. يضع فيدور على الخيل النير الخشبي المبطن بالجلد، ويكلّمها، ويلطفها. ولا يكفي هذا بل يخاطب الصبية التي لا يغيب عنها حرصه عليها:

- تنتظرين عبثاً صوت تعنيف مارفا يا أفس.

- لماذا؟ - نادت من فوق الجدار.

- هجرت المنعة.

- ما الذي جرى للمسكينة؟

- أخلّوا المنعة أول من أمس.

- ماذا يا ثرى؟ - عادت أفس إلى الدار مرتاعة من السؤال ذي النبرة الحزينة. وأجابت كمن وجدت موثلاً لحزنها الأثوي ودون أن يكون السؤال موجهاً إلى أحد: - كيف يمكن لامرأة وحيدة أن تعيش بين الرجال؟!

سمع فيدور مرتعباً الكلمة التي انتظرها قلقاً إلى الآن. كان ينوي تجاوز السؤال دون إعارته اهتماماً زائداً غير أن قلبه لم يطاوعه. وأجاب دون أن يجرح الصبية، وكما يخاطب الكبار، وبأنسب طريقة معها:

- ليس الأمر على ما تعتقدين تماماً يا أفس. المسكينة مارفا بعد ما قُتل زوجها داخلها فساداً في عقلها فأصبحت تحشر في دارها مواشيها ومواشي غيرها.

- من الرجل الذي كان ينهرها؟ - طرحت أفس سؤالاً آخر أدعى إلى الشفقة.

- الرجل الذي كانت تُدخل مواشيه إلى دارها. - صراح الصبية التي كانت تنتصب في ذهنها كل هذه الأسئلة.

وسمع فيدور جواباً قصيراً لم ينتظره البتة:

- لن يتنازل لك أحد عن مواثبه.

حين ركب العجوز عربة الماء أسرع أفسس ففتحت له البوابة. كانت تودّ من أعماقها أن تصحبه إلى الماء غير أنها مُنعت:

- سأصل إلى النهر وأعود. لا تخرجي من الدار، وأغلق البوابة الكبيرة!

- لماذا لا يبقى مفتوحاً إذا كنت ستعود سريعاً؟

- طلبت منك إغلاق البوابة الكبيرة، فتّحه فألّ شرّ.

- يا فيدور تظل تأمرني بهذا، لا أعرف المغزى. - تغلق أفسس البوابة وهي تتابع بكلامها العجوز الذي يخرج من الدار بالعربة، وتغمغم: - لا أعرف إن كنا سنعيش هنا مغلقين على أنفسنا!

تابعت أفسس عربة الماء حتى غابت وراء المنعطف. كان قلبُ الصبية في هذه اللحظة في الجهة التي يذهب إليها العجوز، وإلى أبعد منها حيث تُطلّ منها على الجبال المكلفة بالأبيض، ناسية إن كان الكلب إلى جوارها. ومع أنهم عودوها، بعد الحادثة التي جرت لهم على النهر، ألا يصحبوها، فهي حزينة لأنهم لم يدعوها كما في الماضي إلى رحلة الماء. قيل لها إن من لا يقبل هو الأمير فانو، ولا ذنب للمسكين فيدور. ومن يطلب هذا يلاحق طوال النهار أشغاله التي لا نهاية لها. وفي أحسن الأحوال يأتي مرة في الأسبوع، في حين أني سجين البيت والدار، مقيدة إلى الباب. أما تريشكوف فهو في غاية السعادة إذ أصبح مراسلاً للجنرال، يدور معه كأنه مربوط إليه. يقول له: أرْكُضْ فيركض، إرجع فيرجع! والأب بالبوتسيف بعباءته التي تلتف على رجليه أثناء سيره اختفى أيضاً ؛ نسينا هائياً. ربما يعتب علينا لأننا لم نذهب إلى الكنيسة. وكيف كنت أترك فيدور مريضاً جداً وأذهب إليها!

- تعال يا مشد، - تنهض أفسس رشيقةً - سنستقبل فيدور ولو لم يقبل اصطحابنا إلى الماء.

- إلى أين يا أفس؟ - يخرج الطبيب من الغرفة وكأنه كان يراقبها.
- إلى استقبال فيدور يا سيرغي بيتروفيتش!
- ألم يمل أحدكما، أنت وفيدور، من الآخر!.. - ابتسم الطبيب وخرج من الباب الصغير.
- ماذا؟ - رجعت أفس بسرعة غير مرتاحة إلى ما سمعت. - كيف أملُّ من فيدور ؛ أهو غريب؟ هو جدِّي!
- وأنا إذن؟ يضحك الطبيب نادماً بسبب الجواب الذي سمعه، ولكنَّ مخفياً انزعاجه، ويسأل: - وأنا من أكون لك؟
- وأنت لست بعيداً عني يا سيرغي بيتروفيتش. - عادت الابتسامة إلى أفس. - غير أن فيدور جدِّي!
- أفهمُ يا أفس، أفهم. يسرني أن يكون هذا شعورك نحو فيدور دانيلوفيتش. هو إنسان طيب، ومن حظِّك أن طبيته وصلت إليك، ومن حظه أيضاً. وصل معروفته إلى كثير من الناس. ويذكرونه بالخير. ولكن ما العمل؟ ونحن ننتظرنا هذا المصير، لا شيء يساويه. المسكين يغزوه الكبر. حين تتجاوز الستين ترضخ للأمر. وترين حال رجله، وقلبه مريض... نظر الطبيب إلى الصبية يريد اختبار تأثير هذا الوابل من الكلام عليها. وأضاف: - فات موعد تسريحه من الجيش، ولكنه يترتِّب من أجلك...
- نحن جاهزان من هذه اللحظة إن سرَّحوا فيدور من الجيش. - عبَّر أفس عا في قلبه دون مواربة.
- هاه! - ارتعب سيرغي بيتروفيتش - ثم ابتسم وهو يعود إلى وعيه، وسأل:
- وما علاقتك أنت بالأمر حتى تكويني جاهزة له؟
- أما أخبرتك يا سيرغي بيتروفيتش أن فيدور جدِّي؟!
- أهذا ما تقصدينه؟! الآن فهمت. - سكت قليلاً، ثم وجه السؤال الذي

يريده بالتحديد: - على ما يبدو أنتِ مستعدة لأن تذهبي مع فيدور إلى حيث يطلب منك. - ثم غير الموضوع معتبراً أن سؤاله لا يحتاج إلى جواب: - حين يكون المرء وحيداً يبحث عن سندٍ، ويُجبر نفسه أن تقبل ما لا تقبله عادةً... أفسس، لا أتكلم على والدك، هذا قُتل.

- وأمي قُتلت! - فاجأته.

- أقصد إن تبين أن والدتك ما تزال حية... من يعرف؟ تحدث في الحرب أمور غريبة، ماذا ستجيبين إن جاءت إلى فيدور تطلب ابنتها؟ - أخبرتك أن أُمي فارقت الحياة! - أدارت أفسس رأسها. - حسناً أسأل هكذا لمجرد السؤال.

جلست أفسس صامته وقلبها يتداعى.

- لا أعرف إن كنتُ أزعجتك يا أفسس؟

- لا، لن تفعل! - قفزت أفسس فوقفت ويدها على خصرها، ورأسها منتصب، وكثفاها ناتئتان. - لو كانت أُمي حية لتبعني منذ زمن طويل يا سيرغي بيتروفيتش. ولو حدث هذا لرجعتُ معها إلى نواحيننا.

- وفيدور دانييلوفيتش؟

- وهذا ما كنت لأهمله.

- وأمك التي تركتك في الغابة وهربت؟

- يا سيرغي بيتروفيتش! - لم تدع أفسس الطبيب يكمل كلامه - لم تتركني أُمي في الغابة، كانت تمسك بي حين أصابتها الطلقة.

- أفهم يا أفسس، أفهم، - يهزّ الطبيب رأسه.

- تعال يا مشد، - نهضت أفسس فجأة. ها هو فيدور قادم ؛ لنستقبله! - ابتعدت وهي تكلم بالأديغية كلبها مناكدةً الدكتور علناً.

تابع الطبيب بنظراته الصبيّة التي استقبلت فيدور لا يسعها الفرح. وهزّ رأسه من

جديد قائلاً: أيُّ صبية هذه! تعرف ما لا تعرفه عجوز. حتى لو تجاوزت مستوى تفكيرها الطفولي وكلمتها فإنها تجد جواباً حسب ما يبدو لها، ولا تستطيع أن تحرفها عن رأيها. لا شك أنها لو نشأت بين قومها لكانت أشد وعياً وفطنة. ولكن ألا يجوز وقوعها بيننا السبب في تطور ذكائها؟ لا تفارقنا طوال النهار تسال عن هذا وذاك. وأما الضباط فأساليب تربيتهم حاضرة دائماً عندها. ولا يمضي يوم دون أن تلتقي بأحدهم وتسمع منه كلاماً حلواً. ولا أزعم أن لا فائدة للعجوز فيدور في هذه المسألة. ولكن مهما قلت يبق الفلاح فلاحاً. ليس لأني عاتب عليه لا يخالفني فهو مساعدي في السنوات الثلاث أو الأربع الماضية، ولكن لا يعجبني سلوكه في ما يتعلق بالصبية في الأشهر الأخيرة. كان في الماضي يُطلعني على أسرارهِ وعلى بعض ما يُقلقه، أما الآن فقد انطوى على نفسه تماماً بعدما تظاهر بالمرض. هذا العجوز الأعرج، على قلة شأنه، لم يدعنا نعمد الصبية المسلمة. أنا أتحمل شيئاً من المسؤولية في هذا. شهدت على مرضه حين تظاهر به ولزم الفراش. أعرف ما يستحق هذا الرجل: كان عليّ أن أترك الضباط يسحبونه من الفراش. ولكني أشفقت على الصبية، صبرْتُ. ما كان قاله لي بشأن الأشياء القديمة المبعثرة على الأرض والبالاايكا مضحك... زعم أنه كان سيرافقنا بالبالاايكا إلى الكنيسة... أكنت تريد أن تهرب إلى الجانب الأديغي وتعزف لهم؟! سلمناه الصبية المتمردة التي لا تعرف الروسية لأنه يعرف اللغة الأديغية لتفاهم معها ونغريها بالعيش معنا فجعلناه يدمر حياتها. ومن كان حكيماً في هذه المسألة هو تريشكوف نيقولاي. حين اقترح أن نمنعها من الحديث بلغتها لم يوافقوه وعلى رأسهم الجنرال. واسمعوا الآن ما تقول الصبية: فيدور الأعرج جدّي! وكيف تستطيع أن تُنسي الآخر الذي عاش في الأسر سنوات كثيرة الناس الذين عاش بينهم؟! ولولا أنه يحبهم لما غاب ليس سنوات، بل يوماً واحداً إذ لم يكن مقيداً. ليس

كل ما يقوله هذا العجوز يستحق التصديق!.. انظر كيف تصرفتُ معي هذه الصبية العجفاء!.. انصرفتُ وهي تناكفني بلغتها الأديغية "فُقُق - شُقُق".

- صباح الخير يا سيرغي بيتروفيتش، لم نتقابل اليوم، - وصل العجوز إلى باب الدار وإلى جانبه أفسس.

- ليجعل الله صباحنا خيراً، - أجاب الطبيب.

- جئتُ بماء بارد عذب يا سيرغي بيتروفيتش، - يقول العجوز للطبيب الذي يساعده في تسريح الخيل من العربة. - سيكون دواءً لمرضانا.

- ماء زمزم يا فيدور؛ أليس كذلك؟ - تسأل أفسس بالأديغية دون أن تعرف من أين خطر لها السؤال.

- وماذا يعني هذا يا أفسس؟ - تظاهر الطبيب بالضحك. - أخبرينا بلغتنا! يضحك فيدور العجوز، ويرفع النير عن عنق الحصان. تركض أفسس وتحمل المغرفة المعلقة إلى المسطبة، وتقول للطبيب:

- هذا يعني الدواء يا سيرغي بيتروفيتش. اشرب، بارد، نقي!
- لا بد أن ماء الجبل البكر صافٍ ولذيذ ودواء. - يجيب الدكتور قائلاً في نفسه بعد أن يتناول جرعة: ربما لأنه جاء من بلادكم، ويغمر أفسس - يجدد عمرك أمام عينيك يا فيدور؛ أليس كذلك؟

- وهل عبثاً أذهب صباحاً للاستقاء يا سيرغي بيتروفيتش! يضحك العجوز فيدور، ويمد الدلو المملوء إلى منتصفه إلى الصبية: - هيا يا أفسس خذي "زمزمك" إلى المرضى قبل أن يسخن!

- إن كان هؤلاء سيُشفون فلن أتأخر بالماء عنهم؛ اللهم إن لم يقاثلوا، أليس كذلك يا فيدور؟ - تدخل أفسس راضية والمغرفة والدلو بيدها إلى المشفى.

- أنظرُ إلى أفسس - يتابع سيرغي بيتروفيتش الصبية الرشيقة الطويلة القائمة، ويهز رأسه، - فأراها تكبر سريعاً وفطنتها تصل إلى البعيد.

-نعم يا سيرغي بيتروفيتش، - يوافق العجوزُ الطبيبَ - أتذكرُ يومَ جيءَ بها كأنه اليوم... - ويتنهد عميقاً، - ما جرى لهذه الطفلة، دَعَا مِنَّا نحن الكبار، كثير. وما ينتظرها كثير أيضاً. - يرسم الصليب، - لا أحد غيرُ الله يعرف!

- نعم يا فيدور، لا أحد غيرُ الله يعرف ما ينتظرُها. ولكني أعرف كيف جاء بها المرحوم ماخاتازه، وكيف كانت تنظر إلينا من طرف عينها كجرو ذئب... كان وجهه بيسو ماخاتازه الساذج ويدها مجرّحتين... إن شئت الحق فأنا لا أعدّ ما فعله ذنباً، وأنت تعرف هذا، وقد فارق الحياة قبل أن تغفر له الصبيّة.

- هكذا قدر الله. ولا يمكننا أن نغيّر فيه شيئاً الآن يا فيدور دانيلوفيتش. ما في يدنا الآن هو أن نريها كما خلقها الله، ودون أن نجرح مشاعرها. وسيُعتبر ما فعله ماخاتازه هكذا معروفاً، ونحن يأتون على دِكرنا هنا بالخير. هذا فقط ما بيدنا.

- أتقصد أن نربي الصبية المسلمة على الدين الذي تختاره؟ - سأل الطبيب متظاهراً بالمزاح، مرتعباً مما يخطر له، ثم أضاف وكأنه غيرُ جادٍ: - إذن ما نُجهد أنفسنا لأجله عبثٌ حقيقي.

- يا سيرغي بيتروفيتش - يستغرب العجوز ما يسمع - الناس مهما تنوعت أصولهم ولغاتهم، وأنت لا تجهل هذا، فالله الذي خلقهم هكذا والقائم على رأسهم إله واحد. كلنا عباده. وكلنا سنمثل أمامه. وسيوجه سؤالاً واحداً إلى الجميع: أيّ معروف ادّخرتم في دنياكم الفانية لآخرتكم الباقية؟

انظرُ إلى أفكار هذا الرجل! قال الطبيب. على رأيك يتساوى كل أتباع الأديان المختلفة. ترسم الصليب أمامي، وحين تدبر ظهرك تقول "الله أكبر". ونعمل معاً طوال سنوات وأنت بهذه الأفكار... هذا الرجل كلما تعمّقت في أسئلتك إليه أطلعك على أفكار لم تخطر لك قط. اليوم، من هذه اللحظة، لا يجوز أن

تسمح له، ليس بأن يحدث الصبية، بل بأن تقع عينه عليها!
- أيها الطبيب سيرغي بيتروفيتش! - تقف أفس على المسطبة، وتنادي وكأن
المشفى بيدها: - هل نسيت مرضاك؟!
- هل هناك ما يدعو إلى الاستعجال؟ - سأل الطبيب بسرعة وهو يصحو من
أفكاره، وغادر عربة الماء. - الآن حالاً...

في اليوم نفسه، بعد العشاء، نشب مرءٌ مفاجئٌ بين العجوز وأفس. لم تكن
هذه فكرةً مفاجئةً لفيدور العجوز. كان في هذا الربيع يقلق ويفكر كيف
سيُفهم الصبية هذا الأمر. ولكنه لم يكن يجد الموقف المناسب.

هذا المساء لا شيء في البيت إلا المرح. بعض المشاغل الصغيرة التي جاء بها
الصباح، سواءً كانت أفراحاً أم أحزاناً أم هواجسَ حلَّها النهار وحمل معه ما لم
يستطع حله منها، ورحل وهو يقول لمن كان في ضيق ومن لم يكن، ومن كان
في فرح ومن لم يكن: ارتاحوا واطمئنوا! ماذا بيدكم إن كان الغد سيحمل الخير
أم الشر؟ سأتيكم غداً مرة أخرى.

يفرح العجوز فيدور لسلوك أفس، ولحركاتها، ولطريقة غسيلها للصحن،
وللفرح المهدب الذي يلاحظه فيها حديثاً. لا يريد أن يُذكرها بالحديث الذي
جرى بينه وبين الطبيب اليوم. يطرد الموضوع عنه كما يُطرد ذباب الخريف
العضوض.

- أفس! - يمطّ فيدور كلامه - أتعرفين ماذا خطر لي؟
- سأعرف إن قلتَ يا فيدور، - خاطبت أفس من وراءها وهي ترتب
الصحن على الرف.

- حان الوقت لنفترق أنت وأنا.

- لم تفهم أفس بادئ الأمر، ثم استدارت بسرعة وسألت:

- كيف سنفترق؟

- سأشرح لك إن لم تفهمي: - ينظر العجوز إلى أفسس بوجه يحمل الدفء نظرة بريئة، - سأنقل أريكتي من الغرفة الأخرى وأضعها في هذه الغرفة إلى جانب الجدار. هذا مكان جيد.

- لماذا يا فيدور؟ - استغربت أفسس وهي لم تفهم أصل الموضوع.
- أنا عجوز يا أفسس، وأنت أنظر إليك فأراك في طور النمو بفضل الله. بدأت أشعر شخيراً عالياً... وأستيقظ في الليل بضع مرات...
- تحتلق الأعذار جيداً يا فيدور... - ابتسمت أفسس - ثم رفعت رأسها فجأة وسألت مُشعرة السامع أنها تذكرت شيئاً: - هل تواطأتما أنت وسيرغي بيتروفيتش؟

- لا، ما الأمر؟ قلق فيدور.
- ما تقوله قاله لي سيرغي بيتروفيتش بخدافيره. إن استمعت إليه قال لك أشياء أخرى.

- هل أساء إليك؟ - نتأت كتفا العجوز.
- قال لي إن أُمي هجرتني في الغابة... - لم تستطع أفسس أن تداري حزنها.

XVIII

عانى الدكتور سيرغي بيتروفيتش الكثير من الآلام في سنوات الحرب ولو لم يكن وسط ساحات المعارك. كان يشارك الكثير من الجرحى عذاباتهم، ويقاسمهم أول خطوة في طريق شفائهم، ويسجّي من لا يستطيع مساعدتهم. ولكن لم يخطر له البتة أن يقع في مثل هذه البلبلة التي وقع فيها هذه الأيام. بدأت مشاعره تفتّر نحو فيدور الذي اشتغل معه سنوات طويلة، وبدأ احتقار خفيّ له يغلبه. ولا يتوقف عند هذا الحد بل إن عينيه لا تفارقان العجوز غير واثق به. وأفسس، لا تفارق، ليس عينيه بل قلبه، متخيلاً أنهم ينتزعونها منه. ويغلبه عدم الثقة التي لم يكن يشعر بها في الماضي.

يقول الطبيب: لماذا أنا مهتمٌ بالصبية إلى هذا الحد؟ ليس قليلاً ما مرّ بي من أمثال هذه الحالة وغيرها. لماذا أقلق إن كانت ستفارقنا فجأة هذه التي دخلت حياتنا فجأة أيضاً؟ لا أدعي أن ورطة العجوز فيدور أخف حملاً، ولكن لا أستطيع أن أغفر له ما تظاهر به عندما حان موعد تعמיד الصبية المسلمة، تاركاً الناس ينتظروننا. لا أزعم أن لا حصة لي في هذه الواقعة، فقد شهدت على أنه مريض. ما العمل؟ لا أبرئ نفسي. قمت على رعايته، وسهرت عليه، وقممتُ بالواجب نحوه. على ما يبدو كنمتُ معه سرّه، وشجعتّه على فعلته. كيف أقابل الجنرال وماذا سيكون موقفني منه متى ذهبت إليه غداً؟ لو أطلع غيري على ما أعرفه دون أن أكون المسبّب لكان خيراً. لا أريد أن أذنب بحق العجوز فيدور!.. ولكن أليس ما يفعله ذنباً؟ الأب بالبوتسيف لم يعد يظهر. تريشكوف كان أفضل من تُطلعه على سرّ العجوز فهو كالمربوط إلى الجنرال. هذان الاثنان أفضل من تُطلعهما على سرّ العجوز، لو حدث هذا لطُرح الموضوع دون أن أكون أنا في الواجهة. والأمير أميلاخفاري؟ إن أردت الحق فهو المسؤول الحقيقي عن أفبس، وليس العجوز فيدور، ولكن أموره نحو الصبية لا تسير كما يريد. — ليست مهمة أركان الجيش سهلة. كان أفضل حلٍ هو أن يتم تعמיד الصبية دون أن تحدث بيننا مشكلات وجفوات، ونُفارقنا. علينا أن نلّجّ للأب غيورغي ألا يطيل الإجراءات، ولكن لا يجوز أن يفلت العجوز من رقابتنا.

دنا الطبيب من النافذة بسبب الصوت الذي صدر من جهة الباب الصغير. يترجل الأمير أميلاخفاري من الحصان ويده معصوبة. وتُهرع أفبس لاستقباله. والعجوز يتبع الصبية وهو يعرج. تتوقف أفبس حين ترى جرح فانو، وتصرخ متلهفة نحو المشفى:

— أسرع يا سيرغي بيتروفيتش، جُرح فانو!

- لا تقلقي يا أفسس،- يقول الأمير أميلاخفاري ممسكاً بيده السليمة كتف أفسس، ويتنسم في وجهها. - ليس جرحاً خطيراً - انزلت الرصاصة من فوق يدي اليمنى.

- المكان المصاب مليء بالدم ولو لم يكن الجرح عميقاً. - تقول أفسس وتُهرع لملافاة الطبيب الذي ارتقى المسطبة. - اسرع يا سيرغي بيتروفيتش، فانو جريح! - ثم تتوجه إلى العجوز فيدور، وتُعرض به وهي تدينه: - انظر يا فيدور ما فعلوا بفانو وأنت تقول إنهم لن يجرحوه! ثم تقول لي: أدع إلى الله! - وتُغمغم الصبية.

بشّ الدكتور في وجه أفسس، ولم يلمح لها بشيء. واستعجل العجوز فيدور:

- لو كان في الحرب رحمة لما سمّوها حرباً¹ يا أفسس...

- بديهي يا فيدور، وافقت أفسس العجوز، وأضافت ما تريد هي: - ولكن لو لم يسيبوا الألم لفانو لكان أفضل.

- تعال يا فانو غيفيتش نعاين جرحك. - توجه سيرغي بيتروفيتش نحو المشفى. وقال للصبية التي تتبعهما: - أنت لا نحتاجك هذه اللحظة يا أفسس. وأنت أيضاً يا فيدور.

تبادل العجوز والصبية النظرات حين بقيا وحدهما في أرض الدار. ليس لأن حدساً ما داخل ذهنيهما، بل لأن الجرح غير المنتظر مألها كآبة. وكلاهما لا يعرف، وإن لم يتبادلا الرأي، سبب صرّف الطبيب لهما. ونفّست أفسس عن ضيقها إذ لحق بهما مشد:

- ها هو فانو جريح يا مشد!

- ألم يقل لك فانو إنه ليس جرحاً ذا بال!

¹ سبق أن قلنا إن الحرب في لغة الأدبغة تعني حرفياً تبادل الضرب.

- لماذا إذن لا يزالان في العيادة؟ - لا تزال الصبية بعدُ في الضيق. تركز وتطلّ من النافذة. - انظرْ إليهما جالسين يتحدثان.

- ألا يضمدان الجرح؟

- معصوب بخرقه بيضاء ناصعة. - تفرع النافذة كأنها تطلب الخروج.

- اهْدئي يا أفس، دعيهما يتكلمان على راحتهما!

- لماذا؟ هل جاء إلى هنا للكلام؟

خرج الأمير أميلاخفاري يحمل مقعداً بيده السليمة. وخرج وراءه الطبيب أيضاً متمهلاً. تستقبلهما أفس، وتساءل فانو:

- هل تؤمك يدك؟

- أبهذه البساطة تؤلمني يا أفس وأنا الرجل الناضج؟! - يضحك

أميلاخفاري، ويضم إليه الصبية، ويلتفت إلى الطبيب ويقول: - جرحي ليس مشكلاً، ما يُقلِّقنا هو مرضُ قلبِ فيدور. كان سأله الجنرال قبل أيام.

- اطمئنوا من جهة فيدور أيها الأمير - يقول الطبيب - عاجلناه، ارتاح قلبه؛ أليس كذلك يا أفس؟

- نعم لم يعد يؤلمه، - تجيب أفس بسرعة، - ولكنه يتأوّه في الليل.

- متى تهرم تُصِيبُك أمراض كثيرة جديدة. - يقول العجوز فيدور، ويسأل راجباً في أن يتجاوزوه بالكلام: - ما أخبار تريشكوف يا فانو غيفيتش؟ كأن منقذ أوامر الجنرال نسينا!

- لا يا فيدور، لا أستطيع أن أصف معاون الضابط¹ تريشكوف بهذا. - يضحك أميلاخفاري وقد فهم جدّ العجوز وهزله - لا ينساكم، ويهديكم تحياته. هذا الذي أعرفه لو أُتيح له أن ينام في المشفى وتجلس أفس عند

¹ ما تزال رتبة تريشكوف أدنى من ضابط صغير، وهي وُتِبَته الأخرى رتبٌ قوزاقية تصعب مقارنتها بالرتب الحالية.

وسادته لعرض نفسه للجرح.

احمرت وجنتا أفس حين سمعت اسمها. ونظرت إلى فيدور تسأل عن علاقتها بالموضوع. وأجابت وهي تمز رأسها كمن لا تبالي جواباً لم ينتظره الكبار:

- لا يُعرض نفسه للخطر لهذا السبب!

- صحيح يا أفس، يضحك الطبيب - هل تتذكرين؛ أرهقنا كثيراً. - وحين سمع الطبيب صوت أحد المرضى نهض، وقال وهو يغادر يريد أن يترك الاثنين وحدهما بهذه الحجة: - تعالي يا أفس نطلّ على المرضى!

حين بقي الرجلان وحدهما في أرض الدار جلسا مدة دون موضوع محدد، بل يتكلمان بما يخطر لهما. ولكنّ ما كان في قلوبهما ولا يعرفان كيف يفتتحان الحديث به هو أفس: كان العجوز فيدور قلقاً يتمنى لو لم يكتشف أحد سرّه. ولم يكن أميلاخفاري يعرف كيف يُمسك بطرف خيط الموضوع الذي أبرزه الطبيب وهما في المشفى. يقول أميلاخفاري في نفسه: إن لم نثق بهذا العجوز المسكين في شأن أفس فمن بقي في هذا الجيش موضع ثقة؟ لماذا سيفعل ما لم يفعل بحق الصبية إلى الآن؟ كان منذ اليوم الأول في موقف مناسب لو كان يريد إعادة أفس إلى الأديغة. مضى أكثر من سنتين يغمر أفس برعايته ويربّيها. لم يدع أحداً يرتاب فيه. علّمها الروسية، وجعلها تستقر بيننا. هداها إلى ديننا حتى لو لم تتعمد. هل عجيب إن كلّهما بالأديغة؟ ونحن لا نسمح لأنفسنا أن ننسى لغتنا¹. ولا يمنع هذا أن نعيش بين الروس. أليكون طلب فيدور "سلموني الصبية وسرّحوني من الجيش" هو ما شكك الطبيب فيه؟ أنا أول من كان طلب هذا الطلب ولكن لم أرْتب فيه. لا شيء يُربّي في هذا، ولو كنتُ محلّة لطلبت الأمر نفسه. ليست أفس صبيّاً حتى تستطيع الحياة بين

¹ هو جورجي الأصل.

لابسي القبعات. - أنوي أن أصحبها إلى نواحيننا متى انتهت من التعميد. وقد أيدني الجنرال إن وافق اجتماع الضباط.

ولم يكن تفكير العجوز فيدور بعيداً عن تفكير أميلاخفاري. ولكن حديث الطبيب مع أفس قبل أيام لا يفارق ذهنه. يعرف الطبيب سبب لجوئي إلى الفراش ولكن من أين له أن يعرف بيّتي في إعادة الصبية إلى أهلها؟ لم أتوجه إلى أحد وأخبره بما في قلبي، بل لم ألمح لأفس بالموضوع. من أين جاء الطبيب بهذه الفكرة: "ستذهبن مع فيدور أينما طلب" لماذا يُلْمَح للصبية بهذا الكلام؟ أأكون أَنَّهُم الطبيب بهذه الوسواس بما ليس ذنبه؟ يربي عني الصبية، وتشارك في الهَمِّ نفسه. ألا يمكن ألا يكون في كلامه "تذهبن أينما طلب" سوء نية؟ ويتعلق بهذا الذهاب إلى الكنيسة والتعميد... لا أعرف ما الذي يفتح الطريق لمثل هذه الأفكار إلى رأسي؟ أظني أبالغ في شكوكي من وراء هفتي على أفس. عيب أن تراودك مثل هذه الشكوك نحو الناس القريبين منك!.. ها أنا غير واثق أيضاً من هذا الرجل الصالح الجالس أمامي... هذا لا يجوز! اغفر لي يا إلهي، من الصعب الاستمرار في الحياة إن لم تبق ثقة بين شخصين...

- ثم ما أخبارك يا فيدور دانيلوفيتش؟ سأل.

- كما ترانا يا فانو غيفيتش. - لم يستطع العجوز إلا أن يتنهد قليلاً وإن حاول الابتسام. طوال النهار أنا وأفس في البيت نتصادم - الآن يضحك فيدور صادقاً - لا نعرف من الأفطن فينا.

- أفس صبية ذكية.

- لا تتوقف عند حد الذكاء - استولى الفرح على فيدور كعادته كلما سمع إطرأ على الصبية. - لا شيء يستعصي على فطنتها. أحياناً، سامحني يا فانو غيفيتش، تُدَكِّرُنِي نباهة أفس الناس الذين تنحدر منهم بالخير.

جعلت الكلمات الأخيرة للعجوز رأس الأمير ينتفض مذكرة إياه بحديث

الدكتور، ولكنه كتم انفعاله. وقال: لماذا يُدخِلني الشكّ في الرجل إذا كان يفعل خيراً مع الصبية اللبية التي تيّمت؟ ما العمل؟ إذا كنت تحب الصبية التي تربيها فلن تستطيع إلا أن تذكر أهلها وقومها بالخير. هناك مقاييس كثيرة لاختبار الإنسانية. وربما كان هذا أحدها... ربما كان أمثال هذا العجوز فيدور هم مصدر الخير في الدنيا!

- نعم يا فيدور، الخيرُ يذكّرُ بالخير. يكرر الأمير أميلاخفاري أفكاره الخفية.
- الصبية صارت جزءاً من قلبك فتذكّرُك أباه وأمه بالخير. وهذا أمرٌ بديهي.
- يضيف بعد قليل حريصاً على العجوز: - ولكن أظنك تفهم هذا أكثر مني، لا تُذكّرِ الصبية بهما!

- هذان يا محترم لن يستطيع الصبيةً نسيانهما...
- أفهم هذا يا فيدور، ومع ذلك...
- نعم يا محترم، نعم. - دون أن يدعّه يكمل الكلام - الأفضل ألا تُذكّرها، وأنا من جهتي، وأنتم شهودٌ، لا أدخر جهداً.
- نحن راضون عنك من هذه الناحية. الجنرال وأنا، وكل من في الجيش واثقون منك. وسيكافونك مستقبلاً على الخدمة التي أسديتها لأفبس.
- أودّ يا فانو غيفيتش أن أُطلعك على أمرٍ يشغل بالي قبل أن تعود أفبس إلينا.

- أسمعك يا فيدور، - انفعَل أميلاخفاري متوجساً مما قد يسمع، - هل هناك ما يدعو للقلق؟

- لا يا محترم. ولكن تبعاً لأوضاعنا يجب أن نفترق عن بعضنا أنا والصبية.
- ولماذا؟ - زاد توجُّس الأمير.
- أفبس صارت يافعة. وكلّ يوم تنمو أنوثتها. وأنا لا أفهم شيئاً في هذه الأمور.
- هذا ما تقصده؟ - تنفس أميلاخفاري الصُّعداء.

- نعم يا محترم. تحتاج أفس من هذه اللحظة إلى لابسَة غطاء رأس.
- وأنا أفكر في هذا الموضوع يا فيدور. ما يشغل بالك يشغلنا أيضاً. تحتاج الصبية، لا إلى نظرة امرأة فحسب، بل إلى من يوجّهها. سنرى حين يأتي الخريف، نودّ إبعادها عن الجيش.
- تألم قلب العجوز فيدور مما سمع:
- أين تنوون الذهاب بها؟
- وهل قليلة الأماكن التي يمكن أن نصحبها إليها؟! إلى سان بطرس بورغ، تفليس، نيجني نوفجورود. أينما أخذناها فالأبواب مفتوحة لها، وأمامها مستقبلها.
- وأنا؟! - تحبّل أنهم سلبوها أفس إلى الأبد. ثم خجل قليلاً: - سامحني يا محترم.
- سؤالك القلق يا فيدور في مكانه. لا عيب في هذا. لو كانت الأمور تمشي في الدنيا كما نريد... وأنت عندك أسرة، حين ننتهي من الحرب التي تسير إلى خواتيمها تعود إلى أولادك، وتربيتهم، وتُنشئهم. وأفس لا تزال في أول العمر. روسيا كبيرة، تتلقى تربيتها فيها، ولن يتناسوا معروفك. هناك نية لدى الضباط أن يوجّهوها إليّ، فإن حدث أعذك أن لا أدعها تنسأك إلى الأبد... - وحين رأى العجوز يذرف الدموع نهض الأمير أميلاخفاري: - يا فيدور، يا أيها الرجل الطيب، لم تكن عندي مثل هذه النية، كفى، هل أحزنتك؟
- يا فانو غيفيتش الأمير - نظر العجوز وقد أسرع إلى مسح دموعه إذ صدر من جهة باب المشفى صوت أفس: - لا تدعنا نُشعر الصبية بشيء مما قلناه... تعال نبتعد! سأريك أحصنتي... - توجه العجوز يعرج نحو الحوض الذي رُبِطت إليه أحصنته. ولحق به الأمير بقامة مشدودة متردداً، ولكن كان عليه الابتعاد عن عيني الصبية.

XIX

- لم نعد نسمع عزفك على البالالايكيا يا فيدور، - قال له الطبيب في صباح أحد الأيام.

- نسيت إن كانت عندي - ابتسم فيدور، ثم تنهد، - تنسى الكثير يا سيرغي بيتروفيتش إذا لم يطاوعك قلبك. أعرف لك إن كنت ترغب!

- أيُّ روسي لا يود الاستماع إلى البالالايكيا الروسية يا فيدور! - تنهد الطبيب. - ولكن الوقت الآن وقت عمل. سيكون أماننا وقتٌ لسماعها إذ أنتظر وصول زوجتي بين يوم وآخر.

- كما تريدان، من أجل زوجتك أنا جاهز.

- زوجتي أنجيلينا بارامونوفنا امرأة قوزاقية حقيقية. أخبرتك أكثر من مرة أنها تحب الغناء. لا تفارق الأغنية شفيتها وهي تطبخ أو تخطط أو ترتب البيت. ومتى وجدت نفسها في جماعة شرعت تغني دون أن تترجأها.

- زوجتك، حسب ما تقول يا سيرغي بيتروفيتش، امرأة خيرة. بشوش ولسانها عذب.

- نعم يا فيدور، صدقَ حكمك عليها دون أن تراها. وطيتها لا يتسع لها البيت. ها هي ستصل كما أخبرتك بين اليوم والغد. وأكثر ما يدعوني إلى استدعاء زوجتي أنجيلينا بارامونوفنا هو موضوع أفسس. الصبية تمردت علينا نحن مجتمع الرجال. هل لاحظت أن خروجها من غرفتها صار قليلاً يا فيدور؟

- لا أستطيع أن أجزم بهذا يا سيرغي بيتروفيتش. كانت هذا الصباح في أرض الدار تكنس. ولكن إن قلت إنها ترى نفسها صارت شابةً تتصرف كالكبار وافقتك.

- هذا أمرٌ مفروغ منه، أشعرتنا هذه السنة بهذا التطور فيها. - يضحك سيرغي بيتروفيتش مسروراً ويسأل: - وأنت هل تتصرف معك كالبنات

الناضجات يا فيدور؟!

- أنا من يعاملها كالبنات الناضجات ولا أرى فيها مثل هذا السلوك. يضحك العجوز أيضاً. تذكر أنها عنقته حين أخرجت الأريكة قبل أيام من غرفتها. لماذا يستدعي هذا الرجل زوجته بسرعة من أجل أفس؟ امتلاً قلبُ العجوز بالشكوك. أقول إن أميلاخفاري والطبيب تواطأ ولكن أميلاخفاري لا يوافقك إن كان الأمر يتعلق بأفس. وقد اختبر بنفسه وأخفى الأمر. والأمير عنده زوجة، إن أردت الحقيقة فمن كلفوها أن تربي أفس هما أنا والطبيب ولكن من له الإشراف أكثر منا هو الأمير الجورجي إذ راعوا أن من جاء بالصبية هو ماخاتازه الذي هو من قومه، فطباعهما وعلاقاتهما الاجتماعية ولغتهما واحدة. ولكن أخشى أن يكون هؤلاء يدبّرون مؤامرة في شأن أفس... عليّ أن أفعل ما في ذهني وأنتهي... وإن تبين أن الصبية ليست جاهزة لأعيدها؟!

- أظن أفس انسجمت معنا تماماً يا فيدور؟ أستمع إليكما فلا أسمع لغتكما الأديغية...

- هل تقصد أفس؟ - كان عارفاً بمغزى السؤال ولكن فيدور يسأل وهو خارج من أفكاره، ويضيف بسرعة ليرى ردّ فعله: - لا أستطيع أن أجزم أنها نسيت لغتها البتة، ولكنني أظنها تخدع نفسها وتخدعنا... صحيح ألي لا أرى فيها حُبثاً...

- هاه! - ارتعب الطبيب، ولكنه صحا. - هذا رأيك أنت؟... نربّيها ولا نقصّر في حقها فالأفضل ألا تُضمّر الشر لنا في نفسها. ولكن علينا أن نضمها إلى ديننا من أجل أن تحبنا وتصبح جزءاً حقيقياً منا. لا يمكن لمن جعلناها واحدة منا، وعلمناها لغتنا، وصارت مواطنة لبلادنا أن يكون تفكيرها غير تفكيرنا. وما يقوله الأب غيورغي من أن مثل هذا حرام لا يخلو من الصحة يا فيدور، وإلا ضاع جهدنا، أنت وأنا، عبثاً. ونكون خيّبنا أمل الله فينا.

من حسن حظي أنني لم أُطلع هذا الرجل على نيتي. قال العجوز فيدور. ليس سيرغي بيتروفيتش كما توقعتُ تماماً. تختلف شفقتي على أفسس عن شفقتة. وأنا في صدري قلبٌ روسي مثلاً قلبه غير أن هذا لا يعني تطابقنا في الرأي. كيف نزرع في صدر الصبية التي ليست من قومنا قلباً روسياً بحجة أننا نربّيها ونطعمها؟! أفهم أنه لا يُخلق إنسان على هذه الأرض لن يمثل أمام الله أخيراً، غير أن هذا لا يعني أن تغيّر بالقوة فكر أي إنسان كائناً من كان. الله لن يقبل، وستكسب ذنباً.

- الله يطلب أن يقبل الإنسان الذي ليس من قومك تغيير دينه عن طيب خاطر يا سيرغي بيتروفيتش.

- هل نتجنب أمر الله؟

- لا.

- لماذا يخطر لك مثلاً هذا إذن يا فيدور؟

- لا أعرف أنه خطر لي خاطر سيئ يا سيرغي بيتروفيتش... إن كنت تقصد مرضي فأنا، والله شاهدي، لم أفعل بإرادتي ما أخجل منه.

اسمع ماذا يقول! صرخ الطبيب في قلبه. يلمّح لي إلى أن أقتنع بصحة شهادتي عليه. ما أعجب أن مرضتَ فجأة دون علمك؟! هل أكذب عيني ومهنتي الطبية وأشهد على صحة كلامك. ولكن لا يمكن القول إن الموضوع لم يبدأ من حُبثك. اقترن الكذب والصدق. وفي ذلك اليوم لم تعبّر عما في قلبك حقيقةً، والآن تتجنبه. أقتنع برأي أميلاخفاري في حق هذا العجوز: مهما وثقنا به فالأفضل أن يبقى تحت رقابتنا. ولا أظن أحداً في الجيش عليه أن يراقبه مثلي. هذا الرجل، وإن ادّعى روسيته وتقبّله ديانة الروس، عاد من الأسر نصف أديغي. لا يجوز أن يخطو خطوة دون رقابتنا. ومتى وصلت زوجتي فستفيدنا هي الأخرى أيضاً. أليست امرأة؟ قلب المرأة يفهم ما في قلب المرأة الأخرى.

وستجعل ارتيادها للكنيسة أسهل. والصبية متى جعلناها تعتنق ديننا أصبحت مطيعة لنا من ذاتها. ولست وحدي في هذا ؛ ألا ترى الأمير أيضاً لا يثق به؟! أنا أجاملُه ولا أُطِعه على حقيقة ما في قلبي... لا تستعجل، سنصل إلى هذا يوماً!..

- يا فيدور دانيلوفيتش، يا أيها الرجل الطيب، - يُغَيِّر الطيب صوته - فيم نتحدث ؛ أيعرف أحدنا الآخر هذا اليوم فحسب؟! كفى، لم ترتكب خطأ. لو لم يُضِجْكَ الله في الفراش إكراماً منه لما استطعت أن تفعل هذا أبداً... على ما يبدو كان الله قرر ألا نكون جاهزين في يوم التعميد ذاك... وكيف ترى الآن يا فيدور دانيلوفيتش موضوع أفس؟

- إن لم يبق إلا موضوع أفس - قال العجوز كأنه كان ينتظر السؤال، - أفس جاهرة حتى إن أردتم هذا اليوم، غير أن الأب غيورغي لم يُخبرنا بشيء.

- سيخبرنا يا فيدور، سيخبرنا، يودّون تجنّب أيام المعارك فحسب.

قطع صوت الفارس الذي خرج مسرعاً من وراء المنعطف حديث الرجلين. توقف تريشكوف أمام الباب، وترجّل من الحصان، وربطه إلى التود. وأسرع إلى الدار. وألقى التحية.

- هل هناك ما يُقلق؟ - سأل العجوز بدلاً من أن يردّ التحية.

- ليس في نواحيننا ما يقلق، - قال تريشكوف معتداً، - من جهتكم جاء الخبر. أرسلت إليّ أفس فأتيت.

- وماذا تريد؟ - سأل الطيب مستغرباً ما يسمع.

- طلبت مني الحضور.

- لا أعرف السبب في استدعائها لك... - غلى قلبُ العجوز. - نحن مرتاحان!

تأمل الطيب وجه كل من العجوز وتريشكوف كأن شيئاً يفوته. وكان يريد

الإسهام في الحديث، ولكنه تصبّر منتظراً النتيجة.

- أين أفسس؟ - سأل تريشكوف.

- في البيت، - توجه العجوز إلى جهة البيت وكأن أمراً خطيراً جرى في تلك الناحية. وتبعه الاثنان.

أفسس جالسة إلى الطاولة تقرأ الكتاب التعليمي الذي أرسله إليها الجنرال. وحين رأت الرجال الثلاثة نهضت وهي تغلق الكتاب، وقالت لتريشكوف:

- تفضّل يا نيقولاي، أنت ضيف!

- لا أعرف إن كنتُ ضيفاً، - وقف قليلاً لا يعرف كيف يبدأ الحديث، ثم قال دون موارد: - طلبتِ حضوري فأتيت.

- حسناً فعلتِ إذ جئت.

الطبيب يتفحص البيت الذي دخل إليه لم يتعرّفه. على الجدار الأيمن من الغرفة الأولى التي يتناولان فيها الطعام سريرُ العجوز مرتباً على أحسن ما يكون الترتيب، والبالاايكا معلقة فوق رأسه. قال في نفسه "العجوز وأفسس يكتتمان أمراً ما ولكن لم يخبراني ؛ ما هو يا تُرى؟"

- لا تؤاخذاني، - يقول تريشكوف لمن يقفون وراءه، - تريد أفسس أن تخبرني على انفراد أمراً...

- لا، ليس عندي ما أخفيه عنهما.

- أسمعك إذن. جلس تريشكوف على المقعد، وتمكّن من جلسته عليه كأنه سيسمع خبراً سيُسقطه منه.

- سأقول لك ما طلبتِك لأجله. - ألقت أفسس نظرة مرائية على فيدور، وقالت: - أنقل لي سرير فيدور إلى الغرفة الأخرى.

- هذا هو؟! - أسرع سيرغي بيتروفيتش، - لو أخبرتني لما جعلتُك تستدعين تريشكوف. كنت نقلته لك يا أفسس!

- ما مشكلة موقع السرير؟ - لم يفهم تريشكوف السبب.
- أخاف أن أنام في تلك الغرفة ليلاً. - كان جواب أفس قاطعاً.
- لا تدعيني عُرضة للَّوم يا أفس... - قال العجوز - فُولي السبب الحقيقي لإخراجي السرير من الغرفة الأخرى. لا تدعي مجالاً للظنون. أما قلتُ لك إني أعاني من شخير عالٍ؟!
- لا تسمعا كلام فيدور! - تزيح أفس الوسادة من السرير. وتقول لتريشكوف وهي ما تزال تحضنها، وتؤكد للطبيب، - وأنت ساعده من الطرف الآخر للسرير يا سيرغي بيتروفيتش! طلبتُ تريشكوف لأني لم أشأ أن تحركه وحدك... لا أحد في المشفى يفيدك في هذا. - تغغم أفس كعجوز صغيرة، وتتقدم الرجال. وسيرغي بيتروفيتش يعرف مكان السرير السابق... فيدور لا يشخر، لا تصدِّقوه... وانقل البالالايكاً أيضاً يا فيدور وأعدّها إلى مكانها...
- قال العجوز بعدما بقي هو وأفس وحدهما في الغرفة:
- لي عليك عتبٌ يا أفس!
- إن كان من أجل السرير فأنا بريئة.
- ماذا كان ضررك لو لم تجعلني منه قضية خارجنا نحن الاثنين؟
- كم رجوتُك ألا تُخرج السرير!
- لم أعرف ماذا جرى حين دخل تريشكوف البيت وعيناه تسبقانه.
- شكراً له، فهمني!
- لا تأتي بأحد إلى البيت دون علمي بعد الآن!
- وأنتِ اسمع كلامي إذن!
- ما ذنبي يا أفس إن نقلتُ سريري إلى الغرفة الأخرى؟
- أنا أعرف نيتك يا فيدور!.. - ستتججج بأني صرت كبيرة، - انفجرت أفس باكية - لتتركني وحيدة. هل هذا تصرفٌ صحيح؟ هل هذه عدالة؟

- مهلاً يا أفس، يا بُنتي الصغيرة. ضمّ العجوز الصبية التي هُرعت إليه، - ما هذه الأفكار؟ كيف أتركك وحدك؟! - انفعلي العجوز وبكى.

- فيدور! - ترتعب أفس فتصحو. وترت على كتف العجوز، وتمسح عليه، - تقول له بالأديغة: - لا تبكي، لم أقصد أن أسبب لك الحزن... ولكن لا تتركني وحيدة بين الروس!..

- هاه! - يرفع العجوز رأسه فجأة، ويمسح دموعه. - ما الذي يدفعلك إلى هذا الكلام؟ أهنأك من أزعجك دون علمي؟
- لا.

- أياكون سيرغي بيتروفيتش وجه لك ما يزعجك؟ ربما جرح أحد مرضى المشفى قلبك.
- لا.

- ما الذي ذكرك إذن بالموضوع؟
- لا شيء، بل خرجت الرغبة مني وحدها. - تنهدت أفس عميقاً، ثم أضافت: - أريد أن أبقى دائماً حيث أنت. ليتنا خرجنا من الجيش ورجعنا إلى نواحيننا...

- أين "نواحيننا"؟
- عندكم أو عندنا.
- أليس هنا "نواحيننا"؟

- لا، ولا هي قريبتكم. ألم أقل لك: سأرافقك إلى أي مكان ترغب فيه؟
نظر العجوز مرتعباً نحو الباب. نهض وحاول أن يكنس أرض الغرفة المنظفة حديثاً فأخذت أفس منه المكينة، وحركتها هنا وهناك قليلاً ثم أعادتها إلى ما وراء الباب. وشرعا في إعداد وجبة العشاء كأخما لم يتكلما في أي موضوع.
قال العجوز بعدما لجأ إلى سريريهما:

- لم نتكلم في أي موضوع هذا المساء يا أفسس. لا يجوز أن يسمع به أحد ؛ هل فهمت.

- نعم يا فيدور، لا تقلق!

- لندعُ إلى الله إذن أن نصبح على خير!

- أيّ إله منهما؟

- ماذا قلتِ؟! - لم يستطع العجوز وقد داخله الرعب إلا أن يسأل الصبية وإن كان سمع الكلام بأذنيه. ثم عاد بسرعة إلى وعيه: - من هو أقرب إلى قلبك. - ثم قال لنفسه: اغفر لي يا ربي لأنني أرتكب الذنب.

- إلى إلهك يا فيدور، وإلى إلهي.

- لنقرأ معاً إذن صلاة "يا أبانا"

لم يسمع العجوز الصبية تتلو "قل هو الله" رغم أنه كان خائفاً أن تُتبع "يا أبانا" بها. وبقي صاحياً يستمع إلى أنفاسها متوقعاً أن تتلوها في سرّها. ودعا إلى الله أن يغفر له إن كان اقترف ذنباً في يومه السابق.

...

صرخت أفسس من النافذة قرابة الظهرية:

- فيدور، انظر إلى هذا!

حين نظر العجوز من النافذة رأى ما استغربه: أنجيلينا بارامونوفنا التي ينتظرها سيرغي بيتروفيتش تدخل من الباب مواربة لأنه لا يتسع لها من بدانتها. والدكتور الحامل حقيبة امرأته لا يظهر وراءها.

- ما هذا! - فغر العجوز فاه.

- تساوي في حجمها العربة التي تنقل عليها الماء. - ضحكت أفسس وهي تقول بالأديغية.

- لا تضحكي يا أفسس! - نهرها العجوز بالأديغية، وأضاف بالروسية: - إياك

أن تخطئي وتقولي مثل هذا في حضرة سيرغي بيتروفيتش فتلحقي بنا العار.

- فيدور، هل تظني طفلة صغيرة!- استمرت أفس في حديثها بالأديعية.-
لماذا لا تثق بي؟

- إن كان هذا رأيك فهو حسن، احرصى على نفسك. - واستمر العجوز يتحدث بروسيته.

كان ما في ذهن العجوز شيئاً آخر لولا أن ضيفة النافذة أنسته إياه. لا أعرف إن كانت أفس عرفت ما في قلبي وأنا أناساها وأظن نفسي أدمجها في مجتمعها الجديد. ما قالت لي صراحة مساء أمس عجيب. تقولين لي يا صبية: "سأرافلك إلى أي مكان ترغب فيه" ولكن يا حسرتي إلى أين؟ إن أعدئك إلى قومك فماذا سيحلّ بي؟ لن أعود أبداً إلى ديارى. صحيح ما يقولون من أن العمر مرّكب من الخير والشر. وأنا أنتمي مثلك إلى مجتمع آخر، ولي دين واضح. إذا لم أغير انتمائي إلى الآن فكيف أغيره في شيخوختي؟! وهناك تنتظري أسرة. وهي، بعد الله، من تمدني بالقدرة على الحياة. وهي من أخرجتني من الأسر، لا أنسى الشكر لقرخ. لو عرفت أنك ستندمجين فينا وقد تخلّصت من طريقة تفكيرك الأديعية قلباً وروحاً لما كان على الأرض من هو أسعد مني. ما ذا أفعل من أجلك، وما دوائي؟

- اسمعي يا أفس ؛ البسي جيداً، - قال العجوز - علينا أن نرحّب بالضيقة. ما إن تأنّقت أفس وقررا الخروج من البيت حتى أوقفهما صوت المرأة الذي صدر من وراء الباب. دخل الدكتور إلى الغرفة وهو يبدو كصبي وراءها. قالت المرأة ذات الوجه الطيب وكأنها تعرف مستقبلها منذ زمن طويل قبل أن يجد الزوج الفرصة ليتكلم:

- تهاكم سعيد يا جيراننا الأعزّاء. كم أنت صبية ناضجة يا أفس! تعالي يا بُنتي ودعيني أعانقك! ولن أصدّقك إن قلت إنك لم تلمي من كل لابسي

القبعات حولك . وأنت يا فيدور دانيلوفيتش أحبيك. - تتفحص المكان حولها، - بيتكما نظيف. تعيشان في ترتيب ممتاز. لا تضع اللمسة الأثوية. الفضل لك أنت يا أفسس. وتتوجه إلى الرجلين، - لا تضحكا من تحت شواربيكما. لا أجافي الحقيقة بكلامي.

- اجلسوا، لماذا أنتم واقفون؟ - قال العجوز.

- أنجيلينا بارامونوفنا، - يقول الطبيب، - ألا تقولين ما جئنا لأجله!

- لا سرّ في سبب قدومنا يا سيرغي بيتروفيتش، - كلام السيدة المهيمنة على البيت مختصر، - تعال يا فيدور دانيلوفيتش، وأنت يا أفسس، تفضّلاً إلى عندنا. أنا حضّرتُ مائدة، ساعني يا إلهي العزيز، ستجعلكم تعافون طعام جيشكم إلى الأبد، - لم تملك أنجيلينا بارامونوفنا إلا أن تمدح نفسها ببراءة. - كل ما عليها جئت به من عندنا، اللهم إلا تسخينها.

- ونحن كنا في طريقنا إليكم. - ابتسم العجوز في وجه أفسس بما يعني: تعالي!

- تعالي يا أفسس، تعالي. أنت وأنا امرأتان، لنسبّقهما ولنُعِدّ النظر في المائدة...

XX

يعرف العجوز أنه غيرُ موثوق. - تبَيّن هذا في الشهرين الأخيرين. أينما ذهب، وغالباً لجلب الماء، قابله بحجج مختلفة تريشكوف أو فارسان. يتخذانه محدثاً لهم بالمصادفة، متظاهرين أنهم لا يتبعان أثره. ويسألون عن أفسس، ويرسلون إليها تحياتهم.

قال العجوز في نفسه: إن كانت هذه نواياكم فسأترككم تفعلون ما تريدون على راحتكم. سنرى إن كنتم تحبون أفسس أكثر مما أحبها. وسأسأل أول من أصادفه منكم قريباً من النهر عن نواياكم صراحة. فإن كان جوابكم هو ما أتوجّس منه فسأقابل الجنرال شخصياً. ولولا أنني أشفق على أفسس فتلجمني لتركتكم جميعاً وهربت. أيُّ عارٍ يُلحق بي هؤلاء؟ أنا أعيش بنوايا بريئة وهم يتبعون كل خطوة

يراقبونني. وأظن أن زوجة الطبيب انضمت إلى هؤلاء. - لا ترفع عينيه عن الصبية طوال النهار. وأفس أولعت بها فتظل ترافقها ناسية إياي. هذا هو ما يمكن أن تفعله النساء بك عند الضرورة... ما إن تفيق من النوم حتى تُسرع إلى بيت الطبيب، ثم تعود وقت النوم... تذهبان معاً يداً بيد إلى الدكانة للتسوق. تذهبان إلى ضفة النهر وتتحدثان مع الجنود. تتجولان في أرجاء المنعة لا تتركان مكاناً لا تصلان إليه... أ تكون أنجيلينا بارامونوفنا متحدنا كزوجها؟ أيمكن أن تستميل قلب الصبية وأبقى أنا خارج الموضوع؟ ولماذا لا يلاحق أحد زوجة الطبيب؟ تحقّق لسيرغي بيتروفيتش ما يريد تماماً فارتاح لا يهتم بشيء. وربما كان السبب وراء استدعاء زوجة سيرغي بيتروفيتش هو عدم ثقتهم بي. تلمح لي أحياناً أنها ستعود، لا أعرف ما في قلبها تماماً. هؤلاء سيقلن الكثير، لا يجوز تصديق كل أقوالهن.

حين صار العجوز على ضفة النهر رأى تريشكوف برفقة فارس عليها. كان يعترض طريقي أينما اتجهت. ماذا يريد مني هذان الرجلان؟ قال فيدور وحيّاهما، وبدأ يملأ الخزان الخشبي دون أن يتحدث إليهما. - يا فيدور لست على ما يُرام اليوم. - قال تريشكوف. - وما الذي يجعلني على ما يرام يا تريشكوف يملأ فيدور الخزان دون أن يلتفت إليه.

- صباح لطيف، جميل. - يصدف أن لا يتهج القلب لجمال الطبيعة... ألم تر ما أكثر القتلى الذين جيء بهم أمس؟ - لم أرهم فحسب، بل كنتُ بين من استقبلوهم. وبين هؤلاء قتلى كثيرون من الأديغة يُفترض أن يسوقوا إلينا اليوم كثيراً من المواشي... ولكن هذا ليس مشكلة، أظن أن أحدهم جرح مشاعرك يا فيدور دانيلوفيتش.

- متى صرتَ تبدأ منذ الصباح شاكياً من أنهم أسأؤوا إليك اعتدتَ على الشكوى، - يقول العجوز وهو يغلق غطاء الخزان، - الأفضل أن تحرص على سلوكك في شيخوختك.

التحق الفارسان بفيكتور حين رقي العجوز التبة، وقال تريشكوف لرفيقه:

- تابع أنت طريقك، وأنا سأعود مع العجوز.

سار سائس عربة الماء والفارس لأياً لا يتحادثان.

لم يصبر تريشكوف:

- هل أنت عاتبٌ عليّ يا فيكتور دانييلوفيتش؟

- ولماذا؟

- ربما لأني لا أسأل عن أفس... - قال ما في قلبه.

- لم تصبح أفس بعدُ في قالب النساء حتى تسأل عنها. - لم يُبد فيكتور

انزعاجاً بل تساءل عن سرِّ تعلُّقه به كذبابة لجوج.

- حتى لو لم تنضج أفس فإنها، على قول بعضهم، تزيج غرَّتْها متى رأت لابس

قبة، وتُصلح وضع غطاء رأسها.

- ما الذي تقوله أمامي في شيخوختي يا نيقولاي سافيليفيتش؟ - يبدو من

عتابه رضاه بما سمع بدلاً من أن ينهره. - إن كنت تقصد أن أفس تتحلى

بمظهر احترامٍ لنفسها نحوكم فهي امرأة، وتلبس غطاء رأس... لا عجيب في

هذا. لا أكتمك، صارت طويلة القامة بفضل الله، وبدأت تتخلق ببعض الطباع

التي لم تكن فيها هذا الربيع.

- إن كان هذا رأيك يا فيكتور دانييلوفيتش فمتى ستعتنق أفس ديننا؟ - لم

يستطع تريشكوف إلا أن يسأل عما يشغل باله.

- هذه مضى على اعتناقها ديننا زمن طويل.

- لماذا لا تقبل أنت إذن تعميدها؟

- وهل أنا من يعارض؟

_ أنت.

- كيف؟

- ألسْتُ يا فيدور دانيلوفيتش من عرقل العملية قبل؟

- أتقصد حين مرضتُ؟

- لا أعرف إن كنتَ مريضاً... أقصد اليوم الذي لم تذهباً فيه إلى الكنيسة.

- يا معاون الضابط تريشكوف! - سَمَر العجوز حصانيه - بغضّ النظر عن عمرك، لن أغفر لك ما لمِحتَ به إليّ حتى لو كنتَ أعلى رتبة! لأجل هذا تراقبني كلَّ يوم؟!

حُيِّلَ لتريشكوف أن ما سمعه هوى به من السرج. وخطر له، وقد فهم أنه مسؤول عن افتضاح سرّه، الأمير أميلاخفاري الذي كلّفه بهذه المهمة. ولم يكن ليفضِّل شيئاً على ألا يسمع كلام فيدور. ولكن حدث ما حدث وانتهى. ودار في رأسه الجواب الذي يحضّره وهو يعرف أنه إن لم يجد مخرجاً مناسباً من ورطته فقد جلب لنفسه متاعب كثيرة. وخيّل إليه أنه وجد الجواب:

- تتهمني ظلماً في هذا يا فيدور دانيلوفيتش.

- إن كان رأيك هكذا فسيجد هذا الاتهام الظالم مكاناً له بين خطاياي... -
نهر الحصانين فأغذاً السير.

حين دخل العجوز البيت وعيناه لم تعودا تريان شيئاً تألم قلبه أكثر ظناً منه أنها لدى آل بلوتالوف الطيب. دار في مكانه ودار. ثم أخذ البالالايكما من الجدار، وجلس بجانب الفرن البارد لينقّس عن ضيقه. وبعدما جلس مدة يعزف على الآلة عادت أفسس راكضة إلى البيت.

- جئتُك بخبر عجيب يا فيدور!..

- أين كنتِ إلى الآن؟ - رفع العجوز رأسه دون اهتمام بالخبر. وسأل الصبية

بالأديغية.

- يا فيدور أما قلتُ لك إني جئتُك بخبر عجيب!
- وأنا سألتُك أين كنتِ إلى الآن.
- ماذا جرى لك يا فيدور؟ تعزف على البالالايكات وتنهري!
- لا أنهركِ . أود أن أعرف أين كنتِ.
- كنا خالة أنجيلينا وأنا في الدكانة.
- تبالغان أنتِ وأنجيلينا بارامونوفنا في جولاتكما - قال فيدور واضعاً النبر على اسم الأب لزوجة الطبيب. - لم يعد قلبُك في البيت!
- يا فيدور!
- نعم يا أفسس، نعم. نسيّتي...
- يا فيدور ألم تنفق قبل أيام ألا تعيد عليّ مثل هذا الكلام!
- نعم، اتفقنا، - لان صوتُ العجوز.
- لماذا تعيده إذن يا فيدور؟ - تعرف أني لا أحب أحداً في العالم أكثر منك، ومع ذلك...
- نعم يا أفسس، نعم، - يوافقها، - إن لم تحبّيني أنتِ فمن معي في هذا الجيش يجنّي؟! أهنتُك لأني كنتُ في ضيقٍ شديد فاغفري لي. لا أحمل حقداً على زوجة سيرغي بيتروفيتش، هي امرأةٌ صالحة تتحلّى بالرحمة. ويسرني أنكما انسجمتما. ولكني أخاف، من يعرف، أن تتركيني وتلحقني بها... حسناً ليست هذه مشكلة، هاقي الخبر العجيب الذي جئتُني به.
- لم يُجهل تريشكوف الذي دخل الغرفة أفسس لتتكلم.
- فيدور دانيلوفيتش، الجنرال يطلبُك حالاً!
- نُحِض العجوز ونظر في وجه تريشكوف يريد أن يسأله: هل تعرف سبب استدعائه لي. ونظر إلى أفسس يُطمئنّها، وقال للرسول:

- حالاً!

سألت أفس تريشكوف حين دخل العجوز إلى الغرفة الأخرى:

- لماذا طلب الجنرال فيدور؟

- لا أعرف! - جزم باختصار.

- أهو سِر؟

- لا أعرف يا أفس، - لان الآن صوت تريشكوف.

- هل أنت معاون للجنرال عبثاً فلا تعرف شيئاً؟ قالت أفس للرسول بقسوة وقد احمرّ وجهها.

- لا تُلحني عليه يا أفس، - خرج فيدور من الغرفة يلبس قميصاً جديداً - لن يستطيع أن يكشف لك ولو كان يعرف. لو لم يكن سراً لما كان خاصاً بالجيش. الأفضل من هذا أن تسأليه عن سبب تخفيف زيارته إلينا.

- أنا أعرف حجته في هذا يا فيدور.

- أيّ حجة سأندرج بها؟- نظر تريشكوف الآن بعين الطف إلى أفس. وأجاب جواباً لا يعرفه في نفسه:- أظنّين أننا أحرارٌ في حياتنا!

ابتسمت أفس في وجه تريشكوف معتدّة بنفسها لأنها حصلت منه على ما تريد من الجواب. وأصلحت دون أن تعلّق بشيء خصلّة الشعر البارزة من الغطاء. ونظرت في وجه الرسول نظرة حانية لا يعرفها غيرها.

ما رآه العجوز فيدور حيث استدعي عجيب: على مدخل الأركان عريّتان أديغيتان. وغبر بعيد قطع من المواشي في حدود العشرين. والأحصنة المسرحجة بيد فارس أديغي مسلّح. وفي داخل الدار اجتمع عدد من الجنود الروس. وغيرهم يتمشّون في شوارع المنعة.

فهم العجوز أن من سيستعيدون جثث القتلى الأديغة قادمون. وقد ساقوا المواشي التي يفتدون بها جثامين قتلاهم. تجاوز السائسين الأديغة ودخل إلى

المكتب وهو يعرف أنه استُقدِم مترجماً.

رأى في الغرفة الفسيحة ستة أشخاص متباعدين كثيراً. ثلاثة من رُسل الأديغة يجلسون أقرب إلى الباب. وإلى النافذة البعيدة يجلس الجنرال غرابيه والأمير أميلاخفاري. وتريشكوف إلى الجدار جاهزاً لتلبية أي طلب.

- أبلغ ضيوفنا الأعداء يا فيدور أني أعرف نواياهم، - قال قائد جيش نيجيغورودسك الجنرال غرابيه - يحزني أنه لا سلام بيننا، وأن الدم يسيل من الجانبين. ويقضي في الحرب كثيرون لا ذنب لهم، والمأساة تمتد. في معركة البارحة قُتل كثيرون منكم ومنا، وبينهم الجثث السبع التي جثتم من أجلها. وكنا نعرف أنكم ستأتون في طلبهم فلم ندفعهم. ولم يسئ أحدٌ إليها، ونحن نعطيكم إياها. حين كان العجوز يترجم كلام الجنرال إلى الأديغة كان الموفدون الأديغة يهزون رؤوسهم بما يعني أنهم موافقون على كلام من يجلسون أمامهم. وصل الدور في الكلام إلى موفدي الأديغة، ونفض كبيرهم فوقف الآخرون.

- اجلسوا! أشار الجنرال بيده إليهم.

- لا، - قال كبيرُ الرُسل الأديغة، - نعبّر بوقوفنا عن احترامنا للجنرال الذي لبي طلبنا ولو أنه عدوُّنا. حياك الله يا جنرال، لم نقصدك دون أن يكون لنا أملٌ فيك. نحن الآن في مأساة تهب علينا من جهتك. نحن الأديغة لا ذنب لنا. نحمي مكان عيشنا بقدر ما تسمح به رجولتنا. ولا نهمل من يتحمل جريمة من يسقط من الطرفين. وحين تمثل أمام الله كهؤلاء الذين جثنا من أجلهم، لأنه الوحيد الذي يمكن أن يفهمنا، سنصبح في موقف نفهم فيه مصدر الشر. نحن لا نتهمك يا جنرال شخصياً؛ نعرف رجولتك وإنسانيتك وقسوتك، غير أننا لم نأت إلى هنا لنخبرك بهذا... نشكرُك على تسليمك جثامين ضحايانا. ولكن متى التقينا في ساحة الحرب التي نحمي بها بلادنا، سأمحي يا جنرال، فسيكون لنا كلامٌ آخر. - وضع يده على الجانب الأيمن من صدره، وأوماً إيماءة احترام

خفيفة.

- حتى لو جئتم إلى أعدائكم تترجّون - ابتسم الجنرال الذي نهض وهو ينظر نحو أميلاخفاري - أقدر جداً تعبيركم عما تُكثّون لي. أو لستم من يقولون: "تحت ضربات السيوف لا تستنجد بأملك!" تعالوا نسلّمكم الجثامين إذا كانت جاهزة، ونعاملكم بإنسانية.

الجثامين المجمّعة في العربتين مغطاة بأكسية سوداء. والبوابة التي ستخرج منها مفتوحة على مصراعيها. والجنود الروس في مجموعات بانتظار ما سيحدث. والسائسان الأديغيان الملتحيان جاهزان إلى جانب العربتين.

قال الجنرال:

- أوقفوا الجنود ؛ لي معهم بضغّ كلمات.

وقف الجنرال غرابيه أمام أنساق الجنود المجمّعة. ومشى بضع خطوات ذهاباً وإياباً. وطلب منهم النظر جهة الرسل الأديغة. - هل ترون هؤلاء؟ ترجمّ يا فيدور دانيلوفيتش كلامي لأعدائنا. هؤلاء الأديغة الذين يحاربوننا - توقف الجنرال قليلاً، ثم أعاد رافعاً صوته، - هؤلاء، إن أردت الحقيقة، موفدو الأديغة الذين نحاربهم، يحمون أرضهم برجولتهم، وبسيوفهم المشهورة فحسب. وأنتم لا أقول إنكم محرومون من الرجولة أيها الجنود الذين حققتم لروسيا كثيراً من المآثر. أستم من وقفوا في وجه نابليون ودمروا جيشه؟ أستم من أجبروا قادة الترك والإنجليز والفرنسيين على امتداحكم؟ أستم من أجبر الشيشان والداغستان على الاستسلام؟ أستم من يجتروحون البطولات في المعقل الأخير لأديغة القفقاس هنا؟ أنتم! أنتم من يحافظ على سمعة قيصر روسيا في العالم. ولكن لو كان من تحاربوهم جنباء لما كنتم أبطالاً. الأديغة الذين أوفدوا هؤلاء الواقفين أمامكم يجتروحون البطولات. لا ينتقص من رجولتك احترام عدوك الشجاع، فتعلّموا: هؤلاء أعداؤكم! ولكننا نتحلى برحمة زرعها فينا الله. نلبي طلبات

أعدائنا الذين جاؤونا واضعين أملهم فينا. - لن نقايض على جثامينهم بالمواشي. بل نعيدها إليهم مع احترامنا لهم، واستهانتنا بها. أنا معتدّ برجولة الجيش الروسي. وأثني عليها عالياً. وأثمن رجولة أعدائنا! لم يتكلم الموفدون الأديغة، كانوا واهمين مهمومين بالجثامين. وحين أُذن لهم انطلقوا مع الجثامين، وتبعهم الفرسان.

حين نظر العجوز فيدور تداعى قلبه لما رأى: أفسس تُبعدها أنجيلينا بارامونوفنا زوجة الطبيب وهي تتابع بعينها فرسان الأديغة. فارق فيدور من كان معهم ولحق بأفسس يعرج ويُسرع دون اهتمام بمن ينادونه.

...

في اليوم التالي، بعد موعد الشاي، جاءت أنجيلينا بارامونوفنا إلى العجوز وعلامات السهر بادية عليها. ودخلت الغرفة وقالت:

- هيا يا أفسس اذهبي، الطبيب سيرغي بيتروفيتش يريدك!
- ماذا ستخفون عني الآن أيضاً يا فيدور؟ - رفعت أفسس رأسها، وبتاً رأساً كتفيتها، - أنا من لا تنتهون من موضوعها!..
- أنا ليس عندي ما أخفيه عنك يا أفسس، - امتقع لون العجوز.
- لماذا إذن تريد أنجيلينا بارامونوفنا أن تُخرجني من البيت؟ - نادتها لأول مرة باسم والدها، لا بـ "خالتي".

- يا أفسس، يا بُنيّتي، - تلهّفت المرأة، وبرأت نفسها، - ليس عندي مثل هذه النية البتّة... ساحبيني!

- أنا لا ألوّمك يا خالة أنجيلينا... - لان صوت أفسس عن ذي قبل. - لم يُخبر فيدور الأديغة حين كلّمهم أي هنا... كانوا أعداؤني كالجثامين التي جاؤوا من أجلها... - بكت أفسس، وهربت من الغرفة.

- لا تقلق يا فيدور دانيلوفيتش، لن تذهب بعيداً. - ردّت أنجيلينا بارامونوفنا

الباب المفتوح. - لا تلم أفس، ما يغتلي في قلبها كثير. وتصل فطنتها إلى البعيد. ألم تسمع ما قالت بشأن ناقلي الجثث؟! - وأنا سمعتُ هذا أكثر من مرة.

- طوال الليل، - أضافت أنجيلينا بارامونوفنا إلى كلامها، - تكلمنا أنا وسيرغي بيتروفيتش في موضوع أفس... ولم يتفق رأينا.

- ما رأي سيرغي بيتروفيتش؟ - سأل العجوز هكذا اعتباطاً، حريصاً على نفسه خوفاً من أن يزلّ لسانه بما لا يجوز.

- ما تقوله هو رأيهِ أيضاً! - سنربي أفس وسنعمدها. ونزوِّجها من شاب روسي. أنتم الرجال تفكرون بطريقة عجيبة إذ لا تفهمون عقل المرأة. تضغطون على الصبية تريدون أن تطاوعكم في كل ما تريدون. أقول لكما: أفس صامته لأنها مضطرة، ولكن لا تعرفون ما في قلبها.

- هل شكّت أفس لك من شيء؟ - قلق العجوز.

- لم تشك!.. ولكنها أطلعنا قبل لحظات على ما يدور في قلبها... ألا تفهم يا فيدور دانيلوفيتش!

- فهمتُ، ولكن لن ننقذ لها هذا المطلب!.. الجثامين استلمها أصحابها ولكن من يضم إليه الفتاة اليتيمة؟

- صحيح ما يصفون به قلب الرجل أنه من حجر. أنتم لن تفهمونا أبداً نحن جنس النساء! أنتم جمع الرجال لا تحاصروا الصبية فتدمروا مستقبلها. إذا كان مصيرُها التعاسة فليكن بين قومها دون أب وأم... قلتُ الكلام نفسه لبلوتالوف زوجي، وأقوله لك. وسأقوله للجنرال.

تذكر العجوز أن أفس كانت تتكلم في نومها قبل ليالٍ بالأديعية، ولم يملك إلا أن يتنهد...

XXI

لم تكن أفس في وضع تستطيع معه أن تلجمها مهما قلت لها، ومهما لمتها، أو نصحتها أو عنفتها. كان قلبها هجر معسكر جيش نيجيغورودسك، وانتقل إلى ما وراء النهر، حيث رجع الموفدون الأديغة بجنامين قتلاهم.

حين تشعر أفس بالضيق تخرج من الدار، وتمشي بمحاذاة جدار البستان إلى طرف الشارع، فتقف وتصغي إلى الجهة التي يصدر منها خرير النهر. ومتى وثقت أن أحداً لا يراها نظرت من ثقب الجدار ورحلت بقلبها إلى ضفة النهر، ونظرت جالسةً على الصخرة البيضاء المستديرة الكبيرة إلى مجمع الجبل - الغابة.

ومثل هذه "النزهة" تقوم بها أفس وقت استراحة العجوز والعاملين في المشفى والمرضى ظهراً. تتسلل من الغرفة على رؤوس أصابعها فتصل إلى مجلسها من الصخرة. لا تغيب طويلاً ولكن ليس في حياتها أسعد من لحظات الحزن القصيرة. تعبر السنوات الاثنتي عشرة التي تتذكرها من عمرها أمام عينيها. وتقارن، حسب ظنها، بين عيشتها الأديغة وحيثتها الروسية. ليست الحياة هنا صعبة لولا أنها وحيدة، حقاً يدللوها ويُعزّونها، وليس في الجيش أحد لا يُخاطبها بالود. ولا حاجة أن تأتي على علاقتها بجديها فيدور العجوز؛ لولاه ما كانت قادرة على الحياة في الجيش مهما عاملوها بالحسنى. والخالة أنجيلينا امرأة ممتازة صادقة لولا أنها تنوي العودة إلى بيتها مكتفية بهذه الإجازة. وسيرغي بيتروفيتش ليس امراً طالحاً، ففيه رحمة، يعالج الجميع، ويشفي الجميع. وفانو؟ وهو الآخر رجل صالح يحب فيدور، ولا ينساني. حتى الجنرال بافلوفيتش رجل طيب. أعطى الأديغة جنائمينهم، ولم يوجّه إليهم كلمة نابية. وأنا إن بُحت له بحزني فسيفهمني!.. وتريشكا ليس شاباً سيئاً، ولكنه قاسٍ على الأديغة... كلهم يعاملوني هنا معاملة حسنة. ولكني كنتُ أفضل لو سلّموني إلى قومي...

- أليس صحيحاً يا مشد؟ - سألت أفسس وهي تخرج من أفكارها الكلب الذي لم تناديه منذ وقت طويل باسمه الأديغي. - نعم، لا تستغرب، لو كنت في نواحيننا كان أفضل. هل نسيت الأديغية؟ سألني، أتحمّل جزءاً من المسؤولية في هذا... ستتحدث بدءاً من هذا اليوم بالأديغية... حين نكون وحدنا، لا تخف من فيدور، لن يعتب عليك، بل سيسرّه.

- أفسس، لا أعرف إن كنت تكلمين نفسك! - أجفلها صوت تريشكوف الآتي من خلفها. وجلس على الصخرة إلى جانبها.

- ما الأمر؟ - قفزت أفسس من مجلسها حين رأت تريشكوف يجلس إلى جانبها. - هل جُنتُ حتى أكلم نفسي!

- سمعتُ صوتك تتكلمين...

- ألا يحق لي أن أكلم مشد؟

- كلميه إن شئت، ولكن ألم تنفق على ألا ننادي "شاريك" باسم "مشد"؟

- لا تناديه أنت، أنا سأناديه مشد!

- لا تنسي أنك تعيشين في جيشٍ روسيٍّ!

- وأنت لا تنسِ أي أديغية! وإن تجاوزت هذا الحد يا معاون الضابط

تريشكوف فسأشكوك إلى الجنرال نيقولايف بابلوفيتش. تعال يا مشد، - قالت

أفسس بالأديغية، - لِنعد، لن يفهمنا تريشكوف مهما جادلناه. ألسْتُ حرة في

لغتي؟! - نظرت أفسس فرأت العجوز فيدور قادماً. - وها هو فيدور آتٍ من

أجلنا... - انفعلت أفسس فسالت دموعها.

- هل أحزنك أحد يا أفسس؟ - سأل فيدور الصبية التي تمسح عينيها. -

عودي أنت إلى البيت وأنا سألحق بك سريعاً - ثم توجه العجوز إلى

تريشكوف: - يا معاون الضابط تريشكوف ماذا قلت لأفسس حتى أبكيته؟

- أيها الجندي أناكسيفيتش - نهض تريشكوف معتداً برجولته، - كيف

تخاطب بهذه اللمحة من هو أعلى منك رتبة؟ قف أمامي باستعداد!

- يا سليل الكلبين! - التمتعت عينا العجوز ناسياً نفسه، وصرخ: - انظر كيف يتصرف معي هذا!.. ألا تعرف، وما كنت أريد أن أصل إلى هنا، أنك لا تساوي نصف رتبتي؟ لماذا أبكيت أفس؟ - أمسك بقبة معاون الضابط، وهزه.

- اتركي يا فيدور دانيلوفيتش، ما الذي جرى لك؟! عيب إن رأنا أحد...

- أنت لا تعرف العيب! لماذا أبكيت أفس؟

- ألا تعرف طبيعة أفس؟! طلبت منها ألا تكلم الكلب بالأديغة... وأنت عليك جزء من المسؤولية يا فيدور دانيلوفيتش، - يزّر ترشكوف صدر القميص المفتوح، ويضيف: - ما شأننا نحن، الذئب ذئب من يسلمهم جث قتلهم...

- أسكت يا عديم الإيمان!.. - زادت عينا العجوز جحوظاً، ثم قال مستعيداً وعيه: - ليس مثلك من يتكلم على إنسانية نيقولايف بفلوفيتش. لو كنت تعرف من نفسك أنك لا تساوي قلامة ظفر الجنرال لانتهينا من الموضوع هنا. لن يسمع به أحد إن لم تُفش أنت سرّك. ولكن من هذا اليوم لا يأت ذكّر أفس على لسانك!

- أتريد أن أمتنع البتة عن محادثتها؟

- أقصد ألا تناكدها. - استدار العجوز بسرعة وانصرف.

يسمع فيدور بعدما تجاوز سور البستان صوت أنجيلينا بارامونوفنا تقول:

- لست رجلاً صالحاً يا سيرغي بيتروفيتش، لست صالحاً. أصررت على أن تحولوا الصبية المسلمة إلى روسية فتورطتم أنتم في مشكلة، وورطتموها أيضاً. ها هو فيدور دانيلوفيتش راجع. وأنت لست على حق يا فيدور دانيلوفيتش، تحمل الصبية على أن تنسى لغتها. ما المانع حين تبقيان وحدكما أن تتكلما الأديغة

دون أن تجعلوا منه موضوعاً عاماً؟ لن يمنعها هذا من أن تتعلم الروسية.

- أين أفسس؟! - يسأل فيدور دون أن يتوقف عند كلام المرأة.

- طلبت منها أن تدخل البيت وتغسل وجهها، كانت تُجهش بالبكاء. اجلس يا فيدور، ستخرج حالاً. سنتكلم قليلاً ونُسري عنها.

- لا يا أنجيلينا بارامونوفنا، لن أدعها في البيت وحدها. إن وافقتُ خرجتُ معها وإلا فلا تؤاخذيني!

تذكر فيدور في هذه اللحظة جارته في الأسر عائشة. نعم، حقاً كانت عائشة امرأة طيبة كأنجيلينا بارامونوفنا. كانت تسعى دائماً إلى أن يتعايش الناس على المحبة والسلام. ما أكثر ما ساندتني في سنوات أسري! وما أكثر ما أنقذتني من المهالك! يا إلهي ما أكثر الناس الصالحين المخلصين لك في هذه الدنيا الفانية! وعائشة و أنجيلينا بارامونوفنا من هؤلاء...

كانت أفسس نائمة على وجهها بملابسها. دنا العجوز منها ومسح على رأسها. وخاطبها بالأديعية:

- انهضي يا أفسس، يا بُنتي! لا تباسي مادمتُ حياً. لن أسمح لأحد أن يهينك. نال تريشكوف جزاءه على يدي.

- ماذا فعلتُ به؟ - رفعت أفسس رأسها بسرعة عن الوسادة.

- أُنذرتُه ألا يتعرّض لك مرة أخرى.

- لا عتب لي على تريشكوف يا فيدور.

- لماذا بكيتِ إذن؟

- ماذا ننتظر يا فيدور؟

- وماذا سننتظر؟ نحن سَليمان، في صحة جيدة، أشرق علينا نهارنا كما البارحة. ومتى نمنا فسندعو إلى الله مستبشرين بالغد.

- ليس هذا ما أقصد!

- وما يُدريني بما لم يُكشف عنه؟.. - تجاوز العجوز كلام أفسس وإن كان يعرف مقصدها. - وننتظر اليوم الذي تنتهي فيه الحرب.

- يا فيدور لماذا لا تنقذ وعدك؟ كنت وعدت أن تعبر بي النهر!

- نعم، كنتُ وعدتُ - ارتعب العجوز وإن كان يعرف ما سيقال له - ولكن لا تُخبري أحداً بهذا يا أفسس، سأخبرك متى جاء الوقت المناسب.

حمل الضيقُ الذي تجمّع في الصدرِ العجوزَ على النهوض لا يعرف راحة بال. ومدّ يده إلى البالالايكا لأنها الوحيدة التي كانت تفرّج عنه ضيقه في مثل هذه المواقف. ولما صوّت الوتر رفعت أفسس رأسها. ورجت العجوز الجالس إلى جدار الفرن:

- أرجوك يا فيدور ألا تعزف عليها!.. - لم تفكر في أن فيدور يتسلى بها همومهم بل طلبت ما تريده هي. - ها أنا سأهض حالاً، ولن أوملك أكثر.

- كما تريدين، - يعيد الآلة إلى مكانها، - اغسلي وجهك وتعالِ نخرج من البيت. ينتظرنا آل بلوتالوف في أرض الدار. البسي أجمل ما عندك من ثياب؛ دعيهم يرون كم صرت فتاة ناضجة.

- أيّ أثوابي يعجبك يا فيدور؟ - تسأل أفسس كأن لم يحدث لها البتة ما يزعجها.

- كلها جميلة في نظري. وأنت تعرفين ما يعجبك منها.

- سألبس إذن الثوب الذي جلبه لي نيقولاي بافلوفيتش من ستافروبول.

- وهذا جميل جداً، يناسبك.

- اذهب أنت يا فيدور، وأنا سألبس وأخرج.

- لا تلتصقي بالمرأة، وتدعيني آتي مرة أخرى أناديك. - خرج العجوز من البيت لا تسعه الدنيا، يلتفت إلى أفسس ويتسم لها.

صرخت أنجيلينا بارامونوفنا حين خرجت أفسس من البيت:

- أفسس ؛ هذه أنتِ؟ كدثُ لا أعرفك! ما أجمل الثوب الذي لبسته. وما أجمله عليك! أسمع يا فيدور دانيلوفيتش ما أقول لك: لا تدعُ أفسس وحدها على الشارع! لن تدع لنا جماعة تريشكوف فرصة للنظر إليها!

- خالتي أنجيلينا!..- تقف أفسس وراء المرأة خجلةً من الرجلين وقد توهج خداهما، وتصلح لها الأخرى شعرها المتناثر.

- أنا أمزح يا أفسس، لا تخجلي! - تُخرج أنجيلينا بارامونوفنا الصبيةً من وراء ظهرها، وتعانق عنقها الدقيق. - لا أرى فيكِ ما تخجلين منه بفضل الله.

قالت أفسس للكلب الذي دنا منها يلوي رأسه، ويهزّ ذيله:

- لا تهجم عليّ يا شاريك، ستوسخي.

لاحظ العجوز أن أفسس لم تنادِ الكلب بالاسم الأديغي، وسره أن الكلب يطيع الصبية ويلعب معها كما في الماضي. لماذا تشيع الفوضى في أمور بيتها؟ لا حاجة لأن يكشف هو وأفسس أسرارهما لأنجيلينا بارامونوفنا ولو أنها امرأة طيبة بالقياس إلى زوجها الطبيب. الحق أن أنجيلينا بارامونوفنا لا تطلع على أسرار الصبية، بل تعبر لكل من تحادثه عن رأيها الخاص فيها، ومن لا تتفق معه البتة في هذا الموضوع هو زوجها سيرغي بيتروفيتش. وعبرت عن رأيها لبعض المرضى في المشفى. وتشاجرت مع من لم يوافقوها، وصالحتهم دون أن تغير رأيها. ولا يمر يوم دون أن تلوم فيدور، كما تقف في وجه زوجها.

قال العجوز لنفسه: أكون زوجة الطبيب تتقرب مما في قلبي يريدون أن يُضعفوني؟ ما يجري عجيب وأنا أظن نفسي وحيداً. - جاءني معاون لم أنتظره. ولكن لا أظن أن مسألة أفسس تحتاج للمبالغة في الصراحة. ما حاجة من ليسوا من قومها أن يعانون ألمها؟ يفرحون أنها تتكلم بالروسية وترسم الصليب، ولا يعرفون ما يغتلي في قلبها. لو جلستم إليها ساعة واحدة لفهمتم العذاب الذي تعانيه، وأدركتم أنها ليست فتاة اعتيادية. صحيح ما يقال من أن كل إنسان

يحمل وحده ألمه وما يصدع رأسه. لا ألوم أحداً. ولكني لا أستطيع أن أقلب الحقائق مادمت أرى، وفي وعيي!

- تعالي يا أفسس إلى ضفة النهر. - قالت أنجيلينا بارامونوفنا. هذان الرجلان سيجلسان يتأمل كل منهما الآخر، ولن يقولوا شيئاً ذا بال. ونحن عندنا ما نأريه لمن نقابلهم في الطريق، وعندهم ما يُرونا إياه.

أفهم العجوز أفسس بكرة رأس أنه يأذن لها بالتنزه في الشارع إذ لاحظ رغبتها فيه. وأتبعها قائلاً وقد تذكر تريشكوف:

- لا تتجادلا مع من لا حاجة لمحدثتهم.

- ثِقْ بنا في هذا يا فيدور دانيلوفيتش! - تضحك زوجة الطبيب، - بل إني قادرة على تجميد الجيش كله في الساحة.

- لا تفعلي هذا فيعتب علينا الجنرال! - صاح الطبيب ممزحاً زوجته.

لم يمض نصف ساعة على بقاء العجوز والطبيب وحدهما حين سُمعت ضحكات جنود من جهة الأركان.

- انظر هناك يا فيدور دانيلوفيتش هذا الجمع المتحلق حول زوجتي! - ابتسم الطبيب - الله وحده يعلم صحة ما ترويه لهم.

- وأين أفسس؟ لا أراها بينهم!.. - نهض العجوز غير مهتم بما يقوله الطبيب - من أين أتى هذا الجمع كأن الحرب انتهت!

- ها هي تقف أمام أنجيلينا بارامونوفنا. لا تقلق! لن تسمح لهم بالحديث معها، بل أن تمسها إصبع من أصابعهم. انظر كيف تُمسك بها بقوة.

- أعرف أن الجنود لن يسيئوا إلى أفسس. هم يحبونها، ويقلقون لأجلها، ولكن ماذا ستفعل بين كل هؤلاء الرجال؟ الأفضل أن أُخرجها من بينهم.

انقضت أمسية الصيف اللطيفة وحن موعد النوم فوقف العجوز أمام صورة الإله يصلي ويرسم الصليب. ولما وقفت أفسس إلى يسار العجوز تفعل ما يفعله

التفت إليها راضياً. يدعو العجوز إلى الله أن يهدي بال الصبية الواقفة إلى جانبه، وأن تجد في نفسها الراحة مهما جاش في صدرها من صراعات، وأن تجد ممن تعيش بينهم رحمتهم ومعرفهم، وأن يتقبلوا قلبها المتمرد الصغير بقدر ما يستطيعون، وأن لا يصدر منها مكروه قولاً أو فعلاً. وتضلي أفس كما علّموها، تقرأ "يا أبانا..." ولا توجه دعاءها إلى أحد معيّن. لكنها تقول ما تقول وتفعل ببراءة وحسن نية.

وجاء الصباح التالي كالبارحة دافئاً بلا رياح. وتوجه العجوز لجلب الماء فهُرعت لاستقباله:

- أنا أيضاً آتية معك يا فيدور!

- تعالي! - ابتسم العجوز - صرت فتاة كبيرة، سيسخر منك من يرونك.

- ما أشد اهتمامي بهم!!

التقى أفس والعجوز في طريق الذهاب وفي طريق الإياب بفارسين. تبادلوا المزاح، وحين بقيا وحيدين غمغم فيدور:

- ماذا يريد هؤلاء حتى يقطعوا علينا طريقنا!

- عجيب أن تريشكوف ليس بينهم. - قالت أفس أيضاً.

التقيا لدى دخولهما المنعة بمن كانا في سيرته، تريشكوف برفقة الجنرال غرابيه. جعل الفرح المفاجئ فيدور يقفز من على الحصان، وتبعته أفس.

- لم نلتق يا أفس منذ زمن بعيد. - مسح الجنرال على رأس الصبية، وعلى وجهها. - ماذا تفعلين هذه الأيام؟ وكيف حالكم يا فيدور دانيلوفيتش؟ لا تظنا أنني نسيتهما. يُطلِعنا معاون الضابط تريشكوف أحياناً على أخباركما. أراك لا تقولين شيئاً يا أفس؟!!

- كل شيء على ما يرام يا نيقولاي بافلوفيتش، - تبتسم أفس للجنرال، وتقول له فرحة: عندنا ضيفة.

- من؟

- أنجيلينا بارامونوفنا، زوجة سيرغي بيتروفيتش.

- أعرف. كانت عندي قبل أيام. وعاتبْتُها قليلاً.

- ما الأمر يا نيقولاى بافلوفيتش؟ قفزت أفس برأسها كعادتها، ودافعت بسرعة عن المذكورة: - أنجيلينا بارامونوفنا امرأة ممتازة!

- حقاً امرأة صالحة، ليست سيئة.

- لماذا عاتبْتُها إذن؟

- أفس! - لا تثرثري في حضرة الجنرال. قال العجوز يريد أن يوقفها عن الكلام.

- يا فيدور دانيلوفيتش! - نظر الجنرال بعين راضية في وجه العجوز. - لم تعد أفس طفلة. لا تقلق عليها. تسأل لأنها تريد أن تعرف. عتبْتُ على أنجيلينا بارامونوفنا لأنها لم تأت بكِ إليّ حين أتى الأديغة لنقل ضحاياهم. وأنت أيضاً يا فيدور دانيلوفيتش. نحن لا نُخفي أفس عن أحد. ليعرف أعداؤنا إنسانيتنا! أتذكر يا فيدور دانيلوفيتش كلاماً مأثوراً سردته لي؟ - الولد ليس لمن ولده بل لمن رباه. ليست أفس لأسرة واحدة. هي ابنة جيش نيجيغودورسك بكامله. اسمعي يا أفس، سأذهب غداً إلى إيكاترينودار، سأصحبك إن شئت.

- وأين هي؟ - سألت أفس وسرورها بما سمعت يُقرأ من عينيها.

- ليست بعيدة. سنصل في يوم تقريباً. لا تنظري إلى فيدور عبثاً. حين يقول الجنرال شيئاً لا يستطيع الجندي إلا أن يُطيع. ولكن إن كان قلبك متعلقاً بفيدور، وتحتاجينه فسأخذُه معنا أيضاً.

XXII

لو عرف فيدور أن باله سينشغل إلى هذا الحد بأفس لما سمح لها أن ترافق الجنرال وحيدة. ولو لم يجد مكاناً في العربة الفاخرة لرضي بمقعد في مؤخرتها. لم

يكن ليعترض أحد عليه بل كانوا رجوه.

يتمزق العجوز غيظاً: لو لم تسعني عربة الجنرال لوجدت لنفسي مكاناً بين فرسان تريشكوف الثلاثة. إذ أني لا أجهل ركوب الخيل. قلتُ لنفسي إن أبعدوا الصبية عني استرحْتُ واستراحت أفكاري بعض الوقت، أرْتبُ بعض الأشياء داخل البيت فألقيت نفسي بنفسي في نار القلق. كيف تسرَّعتُ ووافقت على إرفاق الصبية بهم؟ لم أفكّر في العواقب، ولم أجد ذريعة. الجنرال عنده مهمة في المدينة القوزاقية ولكن ماذا ستفعل أفس فيها؟ لا أقرباء لها فيها، ولا معارف. كل من ستراه هناك وكل من يمكن أن يحادثها أغراب. ستزداد إحساساً بالضعف والانقباض. من سيبتسم في وجهها إن أفادت صباحاً أو نامت مساءً؟ ومن سيسألها إن أكلت أم جاعت؟ ومن سيقلق عليها؟ لن يتركها الجنرال وحيدة، ولكنه لن يستطيع تلبية الحاجات الخاصة بالصبية. كيف ستقضي أيامها وهي تنظر من خلل الباب لعل أحداً يزورها واليُثم بادٍ على مُحيّاها؟ وتريشكوف؟ أليس هو من لا تجوز الثقة به البتة! ثم إننا بتجافينا في أسوأ الأوقات. ولو عرفت أن الأمور ستجري هكذا لما خاصمته، بل ما رأى مني نظرة جفاء. ليته لم يتشفَّ من الصبية مستغلاً الفرصة! لا، لن يفعل تريشكوف هذا! صحيح أن لي عتياً عليه ولكنه ليس شاباً سيئاً. أنا لا أريد الاعتراف ولكن أفس لا تشعر بأنه غريب جداً عنها!.. ما أسوأ المصادفة التي التقينا فيها ذلك اليوم بالجنرال! وما الذي ألقى في قلب الجنرال فكرة اصطحابها؟.. ليست إيكاترينودار قريبة. ستلاقي الصبية التي لم تقم في حياتها بمثل هذه الرحلة المشاق. أليست امرأة؟ ألن تحتاج طوال النهار إلى شيء؟ وليت الفرسان الثلاثة ذوي العيون المفتحة لم يكونوا وراءها!.. الجنرال غراييه رجل حكيم لا يحتاج إلى نصائح مني، لن يصحب الفتاة دون تفكير بهذه المسائل... ولكن من يعرف ؛ ففي هذا العالم القبيح تجري شروء كثيرة، ماذا إن تعرض

الموكب لهجوم من الأعداء؟ ألن تُعلمهم في مثل هذه الحالة أنها من الأديغة؟ لم تدع نفسها تنسى لغتهم وعاداتهم مهما حاولوا معها في أسرها. ألن يقدر المهاجمون وضع الأسيرة الصغيرة إن وقعت بأيديهم؟ ولكن في جميع الأحوال لا تجوز الثقة بأي إنسان في هذه الظروف ؛ فكل إنسان في مثل هذه الأوقات العصبية مهموم بإنقاذ نفسه. لا يهدأ بال للناس إن لم يشموا رائحة الدم والظلم. لو كنتُ معهم لأفهمْتُ أيَّ إنسان يتعرض لهم حال أفسس...

حاول العجوز الخروج من البيت إذ لا يجد فيه راحة بال ولكن عينه وقعت على البالالايكما معلقة على الجدار فاخطفها تنفيساً عن ضيقه، غير أنه تذكر رجاء أفسس قبل أيام في شأتها فأعادها إلى مكانها. ودار على نفسه في أرض الغرفة بضعة مرات، ثم وقف إلى جانب الجدار الذي عُثِّق عليه ملابس الصبية، وأبعد ما بينها كمن يبحث عن شيء فقده، وحين وقعت يده على الإيشارب الرقيق ضمه بلا وعي إلى صدره، وثَّمَّه، ومَرَّ به على وجنتيه. لان قلبه ربما لأن رائحة أفسس تفوح منها، ثم صحا من حلمه، فوقف مقابل صورة الإله ورسم الصليب، ثم دعا إليه أن يُعيد أفسس سالمة. ومع أن الهدوء بدأ يعود إلى نفس العجوز فقد فهم أنه لا يجوز أن يبقى وحيداً في البيت أكثر مما بقي. وأسرة الطبيب لا يصدر عنها أي صوت أو حركة، فخرج وهو يقول لنفسه: ربما لم يعودوا بحاجة إليّ. ولم يكتشف أن اليوم هو الأحد إلا وهو على المسطبة. لم يكن يريد أن يرى أحداً ولو أنه راغب في رؤية جيرانه أو في معائبهم على صمتهم. وكان مرتاحاً إذ لم يجد أيّاً من الجرحى على المسطبة أو فناء المستشفى. كان مشدّ هو الوحيد الذي نظر إليه راضياً وحادثه:

- ماذا يا مشد؟ - سأله بالأديغة. - هل أوحشك غياب أفسس؟ كانوا وعدوا بالرجوع خلال ثلاثة أيام، واليوم هو الخامس. تعال إن أردت نجلب الماء. ألم نكن هناك في الصباح؟ وما المانع أن نذهب مرة أخرى؟ الماء يسخن في بضع

ساعات في الصيف وينفذ.

والآن، وهو يربط الحصانين إلى العربة ويربت على رقبتيهما يكلمهما بالروسية:
- ساحباني إذ فات موعد عودة أفسس. ألا تريان ما يحدث الآن؟ الهم استولى علينا... ما ذئبكما أتما؛ أنا المسؤول عن كل شيء!.. ولكن هل كان لي أن أرفض طلب الجنرال؟.. يا مشد أين هي أسرة الطبيب؟ لا أرى أحداً منهما. اليوم هو الأحد، يوم راحتهما...

ابتسم العجوز حين دنا من أطراف قرية المنعة، وقال لنفسه لماذا أُعيد الماء إلى النهر إن لم أكن مجنوناً؟ ولماذا أُرهِق الحصانين البائسين؟ فتح صنبور الخزان فبدأ الماء يسيل منه.

بعد قليل قال فيدور لحصانيه:

- هل تشعران أن حملكما يخفّ أيها البائسان. لأجل هذا قالوا: "إن لم يعمل العقل تعبت الأرجل" ما العمل؟ لو أن كل شيء كان يجري في الدنيا كما تريد لسادت الوحشة كما في يومي هذا لا تعرف أين تقضي وقتك...

تساءل العجوز: أين الثُرسان الذين كانوا يتبعونني؟ لم أعد أقابلهم هذه الأيام في ذهابي أو إيابي. كفّوا عن الاطمئنان على أفسس. ألم يتّضح الآن أن تريشكوف وصحبه كانوا يراقبونني! وسيؤكد الأمر متى عادت أفسس واستأنفوا متابعة خطواتي. ما أعجب من أراهما! كم يُسعدان نفسيهما وهما يتجولان متشابكي الأذرع! وأنجيلينا بارامونوفنا تحمل باقة من الزهور البرية. هذه أسرة تستحق أن تغطها. يُشعرناك في البداية أنهما لا يتفقان ولكن حبهما بلا حدود. أما عجوزي المسكينة فقد كادت عيناها تجفّان من انتظاري. من حسن حظها أن أسرتها وأطفالها حولها. لا شاغل لها في ما تكتب إليّ إلا أخبار الأولاد. لو أن من أخدم معهم أشفقوا عليّ فسلموني أفسس لدجتها في أسرتي المتفاهمة، وعشنا بإمكاناتنا، كثيرة كانت أم قليلة! ومن يعرف حين تكبر أفسس إن كانت

محظوظة فتجدَ زوجاً يُسعدُها... لا يمكن للمرء إن لم يكن أعمى إلا أن يرغب في أفسس. وهل عجيب إن كانت أدعية؟ أيكون أصلها مكتوباً على جبينها؟ يكفي أن نقول إنها صبية قوزاقية يتيمة. لا تصدّق إن لم تسمعها بأي لغة روسية تتكلم كالبلابل.

- يا فيدور دانيلوفيتش! - سأله الطبيب - لم يكن من عادتك جلب الماء ظهراً!

- لم يكن من عادته، ولكنه يسلي نفسه بالعمل بسبب غياب أفسس - تضحك أنجيلينا بارامونوفنا - ألم أكتشف سرّك يا فيدور؟

- هذا أحد الأسباب، ولكن أليس الأفضل أن أسقي المرضى ماء بارداً؟
- صحيح، صحيح، - وافقه الطبيب، - ها هو الماء الذي تُفرّغه من خزانك تفوح منه رائحة السخونة.

- طبعاً، - يقول العجوز دون قصد، ولكن لا يستطيع كتمان قلقه، - لا أعرف سبب تأخر هؤلاء، بالي مشغول عليهم. لا أعرف إن مرضت أفسس فاضطروا لمعالجتها في إيكاترينودار... لماذا وافقتُ على اصطحابهم لهم، ولم أقبل أن أسافر معهم حين عرضوا عليّ...

- اطمئن يا فيدور دانيلوفيتش، - تقول زوجة الطبيب، - لا أظن أمور الجنرال تسير كما يريد. سيعودون، ولن يكفي أفسس أسبوع كامل لتروي مشاهداتها هناك.

- لينطق فمك بالخير دائماً يا أنجيلينا بارامونوفنا! - سرى الفرح في وجه العجوز على نحو ملحوظ. - وأنا أدعو الله أن تسير الأمور هكذا. لن أوافق ثانية على غيابها عني إلا الله الذي لا يُردُّ له طلبٌ.

قال الطبيب: ما أشدّ ما أرهقت نفسك أيها التعيس بمستقبل هذه الصبية التي ليست من ديننا! هذه التي تُفني نفسك لأجلها، لن يدعُوا عينيك، وسترى

هذا، تقعان عليها قريباً. إفرح إن حرروك من عبئها، وقد وضعوك في موقف يجب أن تنساها فيه! ماذا فعلت بك الصبية المسلمة؟ أسحرتك؟ لا أظنك تتلهف على أسرتك الحقيقية إلى هذا الحد. أفهم أنك شفيق، ونحن لا نخلو من شيء من الشفقة ومن الإنسانية أيضاً. غير أننا لا نتصرف كما تفعل أنت مع من ليسوا من صلبنا. ألا تتذكر كم سنة كلّفوك أن تورّد الكلب الماء! وكم من جنودنا الروس لا يزالون أسرى عندهم. "يُؤسّلموهم" فيسلطوهم علينا يحاربونا بلا وعي. والمقدم البولوني لا يينسك جمع جيشاً من هؤلاء يحاربنا بهم. وأنت، صحيح لم توافقهم، ولكن ليس قليلاً ما استدعوك وأعادوك ليقنعوك. تناسيت كل هذا، وضممت تحت جناحك الصبية التي لا تعرف أصلها، فتعيش متظاهراً بالمرض لتمنعهم، ولم يعد لديك شاغل آخر، من أن يهدوها إلى ديننا اعتقاداً منك أنهم سيفترونها. لماذا لم تسمح لهم بتعميدها؟ ليست وحدها من يجب أن تنصر بل كل إقليم الأديغة يجب أن يهتدوا إلى ديننا. ولن تتوقف الحرب إن لم يكفوا عن شعارهم "الله أكبر". إلى الآن عاملتكم بإنسانية فأذنبت بحق الإله، ولكن إن تجاوزت هذا الحد فلن أسمح لك ولو لم يبق في روسيا كلها غيري. نحن تصرفنا ببلاهة فاخترناك لتعلم الصبية الروسية بصفتك تعرف الأديغة، ولكنك رجعت من عندهم بقلب أديغي.

- قلت لك لا يستحق الأمر كل هذه المعاناة يا فيدور دانيلوفيتش، - نصحت أنجيلينا بارامونوفنا العجوز مرة أخرى - حان موعد رجوعهم.

- طبعاً حان موعد عودتهم، - وافق الطبيب زوجته.

- هل أنتما عائدان إلى البيت يا سيرغي بيتروفيتش؟ - سأل العجوز الآن بقلب أشد ارتياحاً.

- نعم، يا فيدور دانيلوفيتش، عائدان، - قالت أنجيلينا، ثم دفعها قلبها الأنثوي

إلى السؤال: - هل على نار فرنك شيء؟

- لا، أنا طبخت قبل وقتٍ كافٍ خوفاً من أن تعود أفسس فلا تجد شيئاً... حسنٌ أنكما عائدان، كنت أودّ أن تعود أفسس فتجد أحداً منا ولا تتساءل عن سبب غيابنا.

- أهذا ما تريد قوله؟ - انشرح وجه المرأة سعيدة بما تسمع. - لا تقلق من هذه الناحية يا فيدور دانيلوفيتش.

- وأنا عائد حالاً. - حرك العجوز اللجام وتابع سيره. ثم التفت وصاح وراءهما، - غبثما نصف النهار يا أنجيلينا بارامونوفنا؛ طعامكما جاهز على الفرن.

قال العجوز: هذه فضيلة الجار الجيد. ما إن تلتجح إلى ما في قلبك حتى يفهمك. لولا سيرغي بيتروفيتش ما استطعت أن أربي أفسس وحدي. لم يقصّر في مساعدتي، وإلى الآن لا يدّخر جهداً. أحياناً يتجادل الطبيب والصبية، ولكن دون أن يحمل أحدهما على الآخر في نفسه. وأين يذهبان بصدقاتهما! لولا أن قلبيهما متقاربان لما تجادلا. وأفسس عنيدة جداً لا تقبل بأي شيء لا يعجبها. تجد أفسس ما تُحاجج به منقّسةً عن ضيقها إذ أن الطبيب متعصب لقومه الروس فترى الصبية أنه يهين قومها. حين تصدر منه بعض الكلمات غير الودية في معرض المزاح، لا عن حق، وهل أقبل منه هذا، يهتّ قلبها الأديغي. أنا لا أتدخل، غير أنني أفرح إذ تستطيع أفسس أن تحمي نفسها. إن لم يكن الإنسان قادراً على حماية نفسه فالدنيا ظالمة ودون أن يتعلق الأمر بأديغي أو روسي. ليت هذا الجمع من جيراننا كانوا مثل أسرة الطبيب... إذ يتدخلون في ما يعينهم وما لا يعينهم. كلهم مهموم بمصير أفسس. وحين ترسم الصليب لا تسعهم الدنيا من الفرح كأنها تزيد في أعمارهم بصلاًتها. وحين تفاجئهم بكلمة أديغية تسودّ وجوههم كأنها من علامات الساعة. اغفر لي يا إلهي إن كان كلامي خطأ. لا أقصد بكلامي الجاني جيراني أسرة الطبيب، بل أقصد بعض

من شككتُ في أمرهم من أبناء قومي. وهؤلاء يمكن أن أتجاهلهم، ولكن هل ألقُ عيني، وها أنت شاهدي، يحدث في عالمنا مثل هذه وغيرها مما يخلو من الإنسانية. ولسنا وحدنا، فلا يخلو الأديغة الذين هجمنا عليهم، وغيرهم من الأقوام من مثل هذه الشرور. ولكننا، بوصفنا أمة كبيرة، نظلم الشعوب الأخرى أحياناً. ولماذا تُبعد في المثال ؛ هذه القفقاس تشهد حروبنا فيها ضد الداغستان والشيشان والأديغة على ظلمنا. بل إن ما ننوي بحق الصبية الأسيرة بذريعة أننا ندللها ونربّيها أمرٌ مَعيب. كل ما يجري بالإكراه لا يرضي الإله فلماذا نجبر الصبية على تغيير دينها والالتحاق بنا؟ إنّا، ولو لم تكن من ديننا، سليله أب وأم. ترضخ أفس لأقوالنا وإجراءاتنا ولكنها لا تنسى أصلها، ولا أظنها تنساه. لا أظنك يا رب غافلاً عن رحلة الصبية مع الجنرال إلى إيكاترينودار، والحق أنه لا يجوز أن نعدّ هذه الرحلة تقبلاً منها لنا. اعتادت على من تعيش معهم، وماذا تفعل إن لم تعتدّ؟ التحقت بهم رغبة في أن تتأمل ما سترى هناك. وأنت يا ربّ عالم بالضيق الذي أوقعتني فيه رحلتها... اغفر لي يا ربّ إن قلْتُ ما لا يقال ؛ أننا من لا يريد أن تتقبّل أفس ديننا ولغتنا؟! لو عرفت أنّها ستقبل بهما وتصبح جزءاً منا بروحها وقلبها لما فضّلْتُ شيئاً عليه.

- هيه أيها الكافر، لماذا تدنّس ماءنا؟! - صاح به أحدُ الفارسين الأديغيين اللذين ارتقيا الضفة المقابلة.

رفع فيدور رأسه والدلُّ في يده، ثم رماه في تبن العربة وهبّ إلى بندقيته. لم تكن الطلقات قادرة أن تصل من ضفة إلى ضفة. ولكن إن انحدرنا من الضفة وركضنا إليه فهو أمر آخر.

وضع فيدور البندقية من يده مُشِعِراً إياهما بأنه إنسان مسلم. وابتسم وهو يرد عليهما بمثل سلوكهما، وخاطبهما بالأديغية:

- وهل أوسِّح ماءكما لا سمح الله!

- عجباً، هل أنت أديغي؟!
- ألا يجوز أن يعرف غيركم لغتكم؟
- لماذا تأتي إذن من الجانب الروسي تستقي؟
- آتي منه لأني جندي في الجيش الروسي.
- أأنت أديغي تخدم في الجيش الروسي؟
- أنا في الجيش الروسي لأني روسي.
- ومن علمك الأديغية؟
- عشتُ في زاور حابله تسع سنوات أسيراً. هل تعرفان تغانه قَرخ؟
- لسنا من زاور حابله، ولكن قرخ فارق الحياة، قضى برصاصة روسية!
- يا حسرتي يا قرخ المسكين، ما أَلَمَ ميَّتتكَ!.. - جلس فيدور العجوز على طرف الحزان وقد خفص رأسه ما سمعه. ثم صحا وخاطب من على الضفة: -
- كان قرخ رجلاً ممتازاً يتحلى بالأخلاق والإنسانية. لئله الله مراده حيث رحل. بلِّغا تعازيَّ إلى زوجته تامراي، وابنه مراد، وابنته الصغيرة جانسور!
- وما اسمك؟
- قولاً لهم: فيدور، وسيعرفوني.
- حياك الله، ولكن من ذكرت أسماءهم لم يعودوا أحياء أيضاً.
- يا للمصيبة، صرخ فيدور دانيلوفيتش.
- ما قلته لك صحيح، نادى الصوت من الضفة الأخرى، - والقرية مُسحت!
- مهلاً، مهلاً، - صاح فيدور ثانية بلا وعي، - لماذا زالت القرية عن الوجود؟
- وبزاد جاقراً، ودوداي، وقايتمت، وبجانه مامي؟ أين هم؟
- والله أنت إنسان عجيب!.. أرى فهمك محدوداً - أجابه الأديغي من الضفة الأخرى.
- أنت تفهم جيداً ولكن أرجوك لا تكن نزقاً، قُل لي: الرجال رجال، ولكن ما

بال النساء؟ هؤلاء لسن مقاتلات، بل أمهات. و "قُتاس" كَنَّةُ آل بزاد، زوجة المرحوم صبح، ومن كان في رَحْمِها؟

- وأنا أرجوك ألا تسأل المزيد... أرخ أرواح الراحلين الذين تسأل عنهم! حُيِّلَ لفيدور أن أمواج النهر التي تصطدم بضفته إنما تموج في رأسه هو، وتصطفق في صدره، في قلبه. "كيف يحدث هذا؟ يقتلون الإنسان قبل أن يولد!.. وعائشة المسكينة؟ وعُشخان؟.."

امتطى ظهرَ فيدور مأساتان، مرضان يُحرقانه. لن يستطيع أن يعيش من دون ناحيته فولوغد ولو أنها بعيدة. والجانب الأديغي الذي أودعه فيدور روحه لا يستطيع إلا أن يتألم له.

يتحمل قلب فيدور حملين ووجعين. وتحت السماء الواحدة يتحمل فيدور ألمين في القلب، ووجعين في الجسد.

- وأنت كيف عدتَ إلى من يقتلوننا؟ - مرة أخرى اقتلع الصوت القادم من الجانب الآخر فيدور من أوجاعه.

- هذا حديث يطول... - بدأ بالحديث راغباً أن يروي لهم أن تغانه قرخ حمله على حارك حصانه، ولكنه لم يشأ إيذاء من قضى نحبه فأجاب باختصار: - عاد بي قلبي الروسي إلى قومي.

- إذن أنت كافر حقيقي!

- لا أعرف إن كنتُ كافراً غير أنني أعرف أنني روسي حقيقي. ولكن هذا لا يمنعني أن أفهم حقيقة حالهم. - قال العجوز، وفكر في أن يُلحِّح لهم بخبر أفسس، غير أنه كظم نفسه.

- إن كنت تفهم حقيقة حال الأديغة فلي رجاء عندك.

- أيُّ رجاء؟

- قلُّ لنا ما أضعفُ نقطة في " شَبَّح "؟

- إن قلت إني أتفهم مأساة الأديغة فهذا لا يعني أن أبيع قلبي الروسي.-
حسم العجوز الموقف، وأدرك أنه لا يجوز أن يبقى مزيداً من الوقت في النهر
فأخرج الحصانين، وخرج من المنخفض غير عابئ بالشتائم التي تنهال عليه من
الضفة الأخرى.

XXIII

لم يبق حديث في البيت، ولا في المشفى، إلا غياب أفسس أسبوعاً كاملاً في
إيكاترينودار. رأت أفسس ما يكفي لترويه. عندها ما تقوله والكلام يتناثر من
فمها حتى لو لم يوجّه إليها سؤال. ومن هذه الناحية لا يعرف العجوز فيدور ما
يسمونه بالملل: فحتى لو سُئلت أفسس مرتين أو ثلاثاً السؤال نفسه استمع كأنها
المرة الأولى دون أن ينسى ما في رأسه من أفكار. ويتظاهر بأن أبعد الأخبار
عن التعجب أدعاها إليه. وأحياناً يعيد السؤال فيه. ولكن أفسس لا تقبل مثل
هذه الإعادات. وتغضب إذ تتصور أنه يسخر منها:

- فيدور، هل ستبقى تسأل عن الموضوع ذاته؟

- إن سألتك ماذا أطعموك - يضحك العجوز - فلأني لا أعرف إن كانوا
جوّعوك!

- وكيف أجوع؟ أما قلت لك إن المآذب كانت بلا نهاية. أتنظّر يا فيدور أن
موائدهم مثل موائدنا؟ - تبدأ أفسس بالثرثرة. - طاولات كبيرة طويلة، وحولها
مقاعد وثيرة، ومغطاة بأقمشة بيضاء ناصعة. وتوضع أمامك صحن
متنوعة. ويضعون على أطراف الصحن شوكاً وسكاكين، ومناديل كثيرة
مصفوفة بعناية على الأجناب لتنظيف الأفواه. وهل تعرف أعجب ما رأيت يا
فيدور؟ يعلقون على رقابهم وقت الطعام مناديل بيضاء كبيرة كي لا يلوّثوا
صدور ملابسهم.

- لا أظنك خجلتنا يا أفسس.

- فيدور، أنت تخاف عليّ دائماً. أتظنني ما أزال طفلة؟

- لم يخطر لي مثلُ هذا. ومع ذلك متى وقعتَ بين أناسٍ ذوي تربية عالية...

- يا فيدور، لم تدع العجوز يكمل كلامه. - إن كانوا ذوي تربية عالية فهم أناس كما أنا. - راقبتهم، وقَلدُتهم.

اسمع ماذا تقول هذه الصبية! لا يسع العالمُ فيدورَ من الفرح. أنتِ إنسانٌ يا بُنتي منذ أن صرّتي بيننا حتى لو انتقلتِ من قومك إلى قوم آخرين. - لا أظن أحداً يصدّقُ حكمه عليك كما حكمي. لم تسيئي إليّ بتصرف طائش. تتحلّين بالحياء والأدب والفتنة والرحمة. ولستِ وحدكِ في هذا بل لمسّت هذه المزايَا في قرخ رحمه الله. وكثير من أبناء زاور حابله كانوا من هذا النوع من الناس. لم تكن المواقف التي يحترمونني فيها قليلة مع أي روسي وجئتهم محارباً ونهّاباً.

- إذن يا بُنتي - قال العجوز بالأديغة خارجاً من أفكاره، - جعلتهم يقولون عنك كما يقول الأديغة: "ربّ نفسك في البيت ثم اذهب إلى الاجتماع". - ثم سألتها ثانية كي لا يكون مبالغاً في امتداحها: - لم تكوني تأكلين بسرعة ؛ أليس كذلك؟

- هؤلاء يا فيدور يجلسون إلى المائدة ساعتين أو ثلاثاً. عيبٌ أن تُجهز على ما في الصحن. ثم إنهم يتحدثون بأسلوب عجيب مرددين كلمات من قبيل "ميرسي" و"مدام" و"غوسبودا"¹. هؤلاء مختلفون عنا يا فيدور. - ألم تقولي إنك استطعت أن تقلديهم ولو لم تكوني مثلهم؟

- بلى، لم أختلف عنهم يا فيدور.

- أستمع إليكم يا فيدور دانيلوفيتش - قالت أنجيلينا بارامونوفنا التي كانت

¹ سيد بالروسية.

جالسة عاقدة يديها على صدرها - فأجد أفسس لن تأكل بعد اليوم ما تطبخه أنت!

- حزرت ما في قلبي يا أنجيلينا بارامونوفنا.

- تُفكّر على نحو خاطئ يا فيدور. لا طعام ألدّ مما تطبخه أنت.

- هكذا، - ضحكت زوجة الطبيب وهي تتلفت نحو فيدور، وفرحت، وسألت اعتباطاً عما خطر لها في لحظتها: - إلى جانب من كنتِ تجلسين يا أفسس على الطعام؟

- كنت أجلس على يسار الجنرال، وعلى يساري كانت تجلس الفتاة الصغيرة لأصحاب البيت.

- أهي أصغر منك عمراً؟ - سألت زوجة الطبيب.

- لا، أكبر مني بستتين. ولكننا متساويتان قامّة تماماً. كنت أنام معها في الغرفة نفسها. لا تسأليني يا أنجيلينا بارامونوفنا عن أشكال فُرُشهم!

- وما اسم ابنة صاحب البيت؟

- ماريا سفينوفا، - أسرعّت أفسس بالإجابة، ثم سألت: - أليس اسماً جميلاً يا فيدور؟

- لا غبار عليه، اسم جميل.

- وعدتني ماريا أن تكتب لي.

- حسناً، إن كتبت لك رددتِ عليها، غير أن كتابتك لا تعجبني.

- سأردّ معتنياً بكتابتي يا فيدور. - أجابت أفسس بجدية، ثم صاحت وقد تذكرت شيئاً: - نسيت يا فيدور!.. وعد الجنرال أن يُرفق بي ماريا في ذهابي إلى الكنيسة للتعميد.

جرح الخبر الذي سمعه العجوز للتو قلبه أكثر من أي خبر آخر. ونظر إليها واجماً. وحاول ألا يُيدي للمرأة الجالسة مقابله استياءه فسأل الصبية موافقاً

إياها:

- حسنٌ، وعدك أن يُرفق بك اسماً جميلاً. متى حددتم الموعد؟

- يوم الأحد القادم. - يبدو من صوت أفسس رضاها بما سيجري. وتساءل العجوزَ بسرعة: - ألم يُخبروك يا فيدور؟ - آخرون، إن لم يخبروني فَمَن سيُخبرون! - أفهم العجوز جميع الحاضرين أن له علماً بكل ما لا علم له به. وأضاف: - نحن جاهزون منذ زمن بعيد للتعديد. ولكن صدف أن كنت مريضاً فأفسدتُ العملية.

- يا فيدور دانييلوفيتش، - عتابُ أنجيلينا بارامونوفنا يسبقها، - لم لم تُخبرنا؟ ليس الذهاب إلى الكنيسة والتعديد أمراً سهلاً، كنا ساعدناك!

- ماذا يحتاج الذهاب إلى الكنيسة من تحضيرات يا أنجيلينا بارامونوفنا؟ - تظاهر العجوز الواقع في مأزق بعدم الاهتمام. - أفسس مستعدة لهذا منذ زمن بعيد. وعندها من الملابس ما تستطيع الاختيار منها.

- متى عدنا من الكنيسة يا فيدور دانييلوفيتش، - ارتاح العجوز لاستلام زوجة الطبيب دفعة الحديث، - سنرفع نخباً بمناسبة يوم أفسس، وتتناول شيئاً من الطعام.

- أهذا ما تقصدين؟ - يبتسم العجوز الذي يفكر في أشياء أخرى بصعوبة. - طبعاً هذا هو ؛ أليس من العيب أن تدخلوا أرض الدار الخالية من الطعام والشراب برفقة الجنرال. في أي يوم نحن؟ الأربعاء، لم يبق إلا أربعة أيام. هيا يا فيدور، اطلب منهم أن ينظفوا فخذ عجل. ونحتاج على عادتنا إلى خنزير مشوي صغير لتزيين المائدة. والطبيب مسؤول عن المشروبات. ولولا أن ما تبقى من الوقت قصير لجهّزت لكم شيئاً من شراب الساموغون متلاًئماً نظيفاً ترون فيه وجوهكم كالمرأة... وأنت يا أفسس جهزي منذ الآن ما ستلبسين. اغسلي واكوي واعتني بمظهرك. أنت لا تعرفين يا بُنتي، سترين متى كبرت مدناً أين منها

إيكاترينودار؟! ستيرين سان - بطرس بورغ وباريس وبرلين، ولكن لا أعرف إن كنت ستتذكريننا!

- يا خالة أنجيلينا! - نصّت أفس برأسها كما تفعل عادة حين تسمع ما لا يُعجبها، ونتاجاً رأساً كتفيتها، - سيكون معي فيدور وأنت والطبيب.

- حسناً يا أفس، حسناً. أنا وزوجي لسنا مشكلة. ولكن لا تنسى المسكين فيدور دانييلوفيتش، ونكون راضين عنك إلى الأبد.

وقع فيدور دانييلوفيتش في ورطة. لم يكن يعتبر الخبر الذي جاءت به أفس جرى على حين غرة. كان هذا الموضوع سيتصب أمامه يوماً ما إن عاجلاً أم آجلاً. وكان مستعداً له في قلبه. ولكن لم يتوقع أن يكون سهلاً إلى هذه الدرجة. كان يعدّ سماعه الخبر عن طريق الصبية نقلاً عن وعن... إهانة وحجاً لكل الأخبار عنه، مع أن الأمير أميلاخفاري أبلغه حين ذهب إلى الأركان. ولم يكن غافلاً عن أنهم لا يثقون به في هذا الشأن.

وشهد على هذا الارتباب ما سمعه حين بقي هو وأفس وحدهما مساءً:

- لم تخبريني شيئاً عن موضوع الكنيسة يا أفس؟ - سأل فيدور الصبية بنبرة عتاب ظاهر، - خجلتني أمام زوجة الطبيب.
- لا تؤاخذني يا فيدور، طُلب مني ألا أخبر أحداً.
- وأنا أيضاً؟

- لا يا فيدور! كان المقرر أن أخبرك قبل يوم من التعميد.

- من مصدر هذه الخدعة؟ أهو الجنرال؟

- لا، لم يقل لي الجنرال إلا أنهم سيُرفقون بي ماريا.

- من إذن حدّد لك موعد السبت؟

- فانو غيليتش أميلاخفاري.

- أيّاً يكن إن أنتِ قبلتِ فأنا أقبل. غير أنني أعتقد أنني كنت أول من يجب أن

- لا تؤاخذني يا فيدور. - بدا على صوت أفسس شعورها بذنبها، - كنت أنوي أن أخبرك الليلة ونتحدث في الموضوع... - تبرئ نفسها، - لم أُخفِ عنك، ألم أخبرك بحضور الخالة أنجيلينا!

- أخبرتني يا أفسس، أخبرتني - لم يكن العجوز راغباً في أن يجرح مشاعر الفتاة. - لا أعتب عليك... أخبرني الأمير أميلاخفاري حين ذهبت اليوم إلى الأركان. التقيت بالجنرال، سيأتي هو الآخر إلى الكنيسة برفقة عدد من الضباط.

لم يكن العجوز راغباً في مزيد من الحديث والإعادة في هذا الموضوع الذي اجتروه بما يكفي. ولم يتركوا تفصيلاً لم يخوضوا فيه.

قال العجوز لنفسه: إن كانت أفسس تقبلته بقلبها فأنا معها. وستسهل مهمتي بهذا، وسأخلص مما كان يشغل بالي. والحق أن الصبية متى اتجهت إلى جهة واحدة، وتخلص قلبها من الصراع فسترتاح. ألم ترهم اختاروا لها اسم ماريا ورضيت هي به وانتهى الأمر! كأنهم سحروها بعد عودتها من إيكاترينودار. صار من الصعب التعرف عليها، واندجحت بسرعة قلباً وروحاً في من خالطتهم. مضت عدة أيام على عودتها ولم تنته من سرِّ ما رآته. نعم يا أفسس، إن استقرَّ قلبك على هذا فهو أفضل. لن تنقل عليك حياتك بعد اليوم. وأنا راضٍ عمَّن فارقتهم فهم أناس حقيقيون، ومن صرَّت بينهم، كما ترين بعينيك، أناس طيبون. ما كنت لأقلق عليك لو عشتُ معك بضع سنوات أخرى ريثما تنهضين بأعباء الحياة. أنظر إليك فأراك ما زلتِ في عيني كما سلّموك لي، تلك الصبية المتحفظة الجاهزة للبكاء، المتسخة الوجه. يا ربّ ما أشد كرمك مع عبادك، وما أشد تعلُّقهم بالأمل فيك! عبرت بالصبية التي ليست من ديننا الأفراح والأحزان فأمثلتها أمامك مختبراً لإياها. لا كُفء لك ولن يكون. أفهم

أنك حملتني على أن أقول ما تقول هي مختبراً إياي أيضاً مع الصبية التي ليست من قومنا. إن كانت لنا، أنا وأفس، ذنوبٌ فاغفر لنا حتى نأتيك يوم الأحد طاهري الروح والقلب. وسآتي بالصبية إلى حضرتك مخلصاً لك، صادقةً معك، لا أحد في قلبها غيرك.

- هل أنت نائم يا فيدور؟ - نادته أفس بالأديغة.

- نعم، أنام يا أفس. - لم يكن العجوز راغباً في الصحو من أفكاره، ولكن سؤال منتصف الليل أفرعه فجأة. - ما الأمر يا أفس؛ هل أنت متوعدة؟ - لا يا فيدور.

- أيُّ صغير خنزير تكلمت عليه خالة أنجيلينا؟

- هذه عادة لدى الأسرة الروسية في احتفالاتها المهمة. ما الذي ذكرك الآن بهذا يا أفس؟ كفاك، نامي! أماننا غداً كثير من المهمات.

- فيدور! - سألت أيضاً بعد قليل، - هل سأصبح روسيةً حقيقية متى عدنا من الكنيسة؟

- نعم يا أفس، نعم، ستصبحين على دين الروس. ولكنك تحتاجين إلى الكثير حتى تصبحي روسية حقيقية.

- لا أريد! - ألقت أفس اللحاف عنها، وجلست وسط السرير.

- هاه! - فعل فيدور الأمر نفسه، وسأل: ألا تتقبلينه طوعاً؟

- لا يا فيدور! - حسمت الموضوع علامة على أنها أعدت ما تقول بعد تألٍّ.

ثم ترجّته بصوت ألطف: - ساعِدني على عبور النهر يا فيدور!

- وماذا تفعلين إن عبرت؟

- ألتحق بقومي!

- إن كنتِ قررت هذا من أعماقك فجّهزي نفسك قبل الفجر. وأنا لم يبق لي عمل هنا ولذا سأغادر معك. - رسم العجوز الصليب ثلاث مرات متتابة.

ثم قفز من السرير. - حالاً يا أفس! اجمعي ثيابك. كان عليك أن تُطلعيني على نيتك قبل وقت... لا تنسي شيئاً!

التفت العجوز وأفس من وراء الدار وبأيديهما حوائجهما القليلة، وركبا الحصان. وبعد ما مشيا وراء السور المظلم بعض الوقت، وصارا في ظاهر القرية ارتفع صوت جرس إنذار المنعة.

- اكتشفونا! - قال العجوز وهو يحث الحصان بعدما التفت فرأى ثلاثة فرسان يلاحقونهما. - لا تخافي يا أفس، سينتهي الخطر ما إن نجتاز السهل ونصبح في ضفة النهر.

سُمع من ورائهما صرخات وأصوات إطلاق نار. واقترب وقُع حوافر خيل. ولحظة التفت فيدور متسائلاً: أليس هذا صوت تريشكوف؟ سُمع صوت إطلاق نار. أحرقت الطلقة الحامية الجانب الأيسر من أضلاع العجوز. فشَد اللجام عفوياً، وقال لأفس بصوتٍ خرج عن سيطرته:

- ترجلي لحظة يا بُنتي... - كانت آخر كلماتٍ نطقها العجوز بالأديغة. ولحظة وضعت أفس رجليها على الأرض ترجل العجوز أيضاً غير قادر على التماسك فوق الحصان، وتداعى وراء الصبية التي كان يحاول الوصول إليها. - فيدور! - ارتمت أفس على العجوز: - يا جدي الحبيب!

وارتمى تريشكوف ورفاقه الفرسان القوزاق من على خيولهم: - أين كنت تنوي أن تأخذ هذه الصبية أيها الأديغي الخائن؟ - حاول تريشكوف أن ينتزعها من فوق جسد العجوز، غير أن أفس ضربته بمرفقها. لم يكن العجوز مهتماً بشيء مما يحدث إلا بأفس. وفيما يلفظ أنفاسه نطق آخر كلماته التي اختلطت فيها الروسية بالأديغة إلى أفس:

- احمي نفسك يا بُنتي... هذا ما كنتُ أستطيع أن أخدمك به... وسامحني إن أخطأت معك...

تبددت دنيا أفسس مع العجوز سواء كانت فرحاً أم حزناً: أرض المشفى خالية من البشر. والبيت لا يصدر منه صوت. ولا ضحكة الصبية أو وقع قدميها مسموعان، تخرج أحياناً من البيت كالظل مرتدية السواد، وتدخل. ولولا مشد لا تمتنع عن هذه الحركة أيضاً. - الكلب يهرّ مشتاقاً إلى فيدور فيقصد أفسس. ليس عن جوع، إذ لا يحتاج البتة إلى طعام. ولا أحد يوجه إليه كلمة نائية.

لا تألو أنجيلينا بارامونوفنا التي أجلت عودتها إلى ديارها نتيجة المأساة جهداً من أجل أفسس. وها قد مضى اليوم على رحيل فيدور دانيلوفيتش أربعون يوماً. والدكتور سيرغي، وإن كان يغمغم مستاءً مما فعله فيدور، لم يتفوه أمام أفسس بأي كلمة تزعجها. - ليس له شاغل إلا ما يروّج به عن نفس الصبية وينعش قلبها. ولكن ما يقوله حين يبقى هو والزوجة وحيدين شيء آخر:

- لا تلوموا تريشكوف يا لينا، لا ذنب له في ما حدث.

- من إذن قاتل فيدور دانيلوفيتش؟

- العجوز فيدور، - رسم الطبيب علامة الصليب، - قتل نفسه بنفسه.

- وكيف؟ - لم تفهم الزوجة بادئ الأمر ما يعنيه كلام زوجها، ولكن الطبيب تابع السؤال قبل أن تجد الزوجة الوقت للتفكير:

- لم أقصد أنه قتل نفسه بنفسه، غير أن من يمارسُ خيانةً يستحق أيّ عقاب!.. فقدتُ ثقتي بفيدور منذ أن تمارض، ولكن لم أتوقع أن يصل به الأمر إلى أن يفعل هذا. لم ينس سنوات أسرهِ التسع. والآن كان ينوي التوجه من جديد إلى تلك الأنحاء. لم يبق في صدره قلبٌ روسيّ.

- لا، - كان فيدور دانيلوفيتش روسياً حقيقياً.

- ماذا كان ينقصه إذن؟!

- ليس هناك ما لا تقدّمه لأولادك! - قالت زوجة الطبيب وقد فكرت في ما

كانت ستقدم لو وقع أولادها في هذا الموقف.

- إذن ماذا سيكون موقفك إن قرر أولادك الالتحاق بالأديغة؛ أكنتِ تنضمين إليهم؟

- إن فعلوا هذا عن قناعة فلا شك!

- هل تفكرين في ما تقولين يا أنجيلينا بارامونوفنا؟

- نعم، ولو ألقوا بأنفسهم في الماء لألقيت!

- ولكن، - لانت لهجة الطبيب،- لم تكن الصبية المسلمة ابنة فيدور.

- لا تُسمعني يا سيرغي بيتروفيتش اسم الإسلام أكثر مما سمعتُ. - نهرت الزوجة زوجها، وأضافت بصوت أهدأ وأشد صرامة: - من طباعنا نحن أن نُذكَر من ليس منا بعُرتِه!.. ربي فيدور أفس كابتته ولو تكن كذلك. لا يستحق العجوز الطيب اللوم على أنه لم يُنسِ الصبية أصلها. كان فيدور رجلاً صالحاً؛ ليفتح له الله باب جنته حيث رحل. رجل يستحق أن تُعَفَّر له ذنوبه إن كان له منها. ولكني لا أفهم، ولا أعرف إن كانت الطلقة من تريشكوف، لماذا رموه بقصد القتل. وكنتُ قلت هذا الكلام، وقد سمعتُ بأذنيك، للجنرال. - لستِ على حق يا أنجيلينا بارامونوفنا! - كانت عينا الطبيب تتوهجان وإن كان يكظم غيظه، - لو كنتُ مكان تريشكوف لتصرّفت تماماً كما تصرّف. ما كنتُ أسمع لطلقتي أن تنبو عن الخائن.

- اتق الله يا سيرغي، لا تُذنب بحق القتل، لا تنس أنك طبيب!

- لستُ طبيباً فحسب بل أنا روسي، وأخدم في الجيش الروسي.

- لا تراوّد في هذا! - وقفت أنجيلينا بارامونوفنا غاضبةً. - لا تُحدِثني عن روسيتك وأنت لا تملك إلا هذا القدر من الإنسانية. وأنا لستُ من أصل أديغي، ولكني أتفهّم آلامهم.

لم تكن أنجيلينا بارامونوفنا في هذه اللحظة تريد إلا أفس. خرجت من الغرفة،

وبحثت في الفناء، كان حصانا فيدور، وقد بدّوا يتيمين، يقضمان شيئاً من الحشيش اليابس إلى جانب خزان الماء، وكوخ الكلب موحشاً. شمس الصيف تزحف رويداً رويداً نحو الظهيرة. والغابة الواسعة التي عبث فيها الحرّ تبدو من المعبر وهي تغير ألوانها. والقمم التي لا يزال يغطيها شيء من الثلج تظهر من تحت السماء في القريب وفي البعيد.

كانت أنجيلينا بارامونوفنا ترى كل هذه المناظر ولكنها لا تمر أمام عينيها، ولا ترى فيها أي مظهر من مظاهر الجمال، بل نظرت إلى الغرفة التي تركت فيها أفس هذا الصباح ولم تخرج منها إلى الآن، مهمومةً بسبب غيابها. فقفزت رغم قامتها المدورة الثقيلة، وفتحت الباب بسرعة:

- أفس، أين أنت؟

البيت نظيف مرتّب ولكنه فارغ كما لو صُبّ فيه ماء بارد. خرجت أنجيلينا بارامونوفنا تشعر بشيء من الخوف، ولما لم يكن عندها هذه اللحظة من يساعدها فقد نادى زوجها:

- سيرغي بيتروفيتش، سيرغي بيتروفيتش!

- هل جرى شيء؟ - خرج الطبيب من المشفى متلهفاً.

- أفس ليست في البيت!.. - تفقدت أنجيلينا بارامونوفنا الحظيرة، وأمام باب الدار، - الفتاة ليست في أي مكان!

- هل ملابسها في البيت؟ - جعل الشك يُنطق سيرغي بيتروفيتش.

- لا أعرف يا حسرتي! - مرة أخرى عادت المرأة القلقة إلى البيت. - نعم، كلها معلّقة إلى الجدار.

- أنا أعرف ما فعلت تلك الصبية! - خلع الطبيب صدار المشفى الأبيض وركب الحصان. - انطلقت إلى قومها وأنتم لا تشعون من امتداحها.

جلست أنجيلينا بارامونوفنا تلهث على طرف المسطبة لا تستطيع الاستمرار في

الوقوف. وتَدَافَعَ مِنَ المَشْفَى بضعة جرحى، وقال أحدهم:

- لا أظن الصبية ابتعدت. لا تقلقي يا أنجيلينا بارامونوفنا!

وصاح مريض آخر من النافذة:

- إن كانت أفس من تبحثون عنها فقد رأيتموها تتجه بصحبة الكلب إلى المقبرة.

- هاه - صرخت أنجيلينا بارامونوفنا: - ليس من عادة أفس أن تزور المقبرة!..

- خرجت أنجيلينا من باب الدار على عجل.

كان الفرسان الذين استنفرهم الدكتور يتراکضون إلى ظاهر القرية. أما أنجيلينا بارامونوفنا فقد عبرت الشارع غير عابئة بالفرسان، وتوجهت إلى المقبرة. تعاتب نفسها إذ يصل قلبها إلى ما تراه عيناها، تُغْذُّ السير وهي لا تعرف ما سيحدث: لماذا تركت الصبية وحدها في البيت؟! لا مشكلة إن تبين أنها في المقبرة. ولكن إذا صدق ما يتوجس منه سيرغي بيتروفيتش؟ إن صدق هذا فيا لمصيبي من أين أعتز عليك يا صبية؟ هل خرجت لتنفذي خطتك في أربعين فيدور؟ كنت أنوي أن أجمع عدداً غير كبير من الناس على المائدة بهذه المناسبة وأُخَيِّ ذكراه. كان المرحوم إنساناً صالحاً كريماً. ولا ذنب له في ما حدث. أعجيب إن كان ينوي إعادة الصبية إلى قومها؟! ربما كان الله قدّر ما حدث إذ لا يجري شيء في العالم دون علمه!.. يا أفس يا بنتي الصغيرة من أين آتي بك الآن؟! لو عرفت أنك ستصلين إلى قومك سليمة لم يحرفك الماء ولم تفتربك الوحوش لما فضلتُ عليه شيئاً. وإن عرفت أنك صرت بين قومك فأني حياة ستحيينها، ومن سيفهم وضعك؟ من سيمسح على رأسك؟ كان الأفضل لك ولنا أن تُهْدِي قلبك المتلهف وتستقري بيننا. الجميع يحبونك هنا، وكلهم يريد لك السلامة والحظ السعيد. لا تعبي عليهم إن قالوا شيئاً في غيابك أو رأيت فيهم ما لا يعجبك. يعيشون لكثرة تعدادهم معتبرين القليل ضعيفاً، فارضين

طريقة عيشتهم على من يلجأ إليهم، متوجسين ممن لا يتقبل عيشتهم. ولكن إن وثقوا أنك صرتَ منهم فلن يكون على ظهر الأرض أسعدُ منك. هذا سبب متابعتهم إياك بهذه الحماسة، وهذا سبب تناسيهم معروف المسكين فيدور... ولماذا تذهب بعيداً؟ زوجي بلوتالوف واحدٌ منهم. وأنا هل أشدُّ عنهم؟ أوافقهم من قلبي وإن كنت أعارضهم أحياناً لرغبتني في أن تعيشي سعيدة. ماذا إن عدتِ ففتحتِ قلبك إلى من لا يعرفونك؟ ستجدين راحة بالك شيئاً فشيئاً مع من صرتَ بينهم...

على مدخل المقبرة توقفت أنجيلينا بارامونوفنا على نواح الصبية عند قبر العجوز فيدور. وجعلها الصوت نفسه تركض:

- يا أفسس، يا بُنتي الصغيرة. ما الذي جاء بك إلى هنا؟ - رفعتِ الصبية النائمة على القبر تبكي، وضمتها إلى صدرها. - نعم، نعم، إبكي خيرٌ من أن تصمتي. نفسي عن كربك. أرعبتني إذ لم أعرف أين أنتِ. - سالت دموع المرأة.

لم تتبادل المرأتان أي كلمةٍ في طريقهما من المقبرة. وما إن دخلا البيت حتى وقفت أفسس أمام صورة الإله، وبدأت ترسم الصليب وتبتهل إلى الصورة. ووقفت المرأة الأخرى وراء أفسس تفعل ما تفعله. وحين فتح الطبيب الباب أغلقه مستغرباً ما يرى، مرتاحاً بينه وبين نفسه.

وبعد ساعة تقريباً كانت أسرة الطبيب برفقة أفسس تجلس إلى مائدة الأربعين على ذكرى فيدور دانيلوفيتش. وقبل أن يتلو سيرغي الكلمة الخاصة بذكرى الراحل تريثوا متوقعين قدوم أميلاخفاري أو تريشكوف: لم يظهر أحد منهما.

- بمناسبة مُضيِّ أربعين يوماً على رحيل فيدور دانيلوفيتش، - تنهد الطبيب، - أود أن أقول بضع كلمات. كان المرحوم إنساناً صالحاً جداً نحو الجميع. كان ذا إنسانية عظيمة، كريماً، صادقاً...

استعجلت أنجيلينا بارامونوفنا حين انفجرت أفس باكية:

- لا تبكي يا أفس، احفظي في قلبك ما يقول سيرغي بيتروفيتش.

- نعم يا أفس، نعم. - أيد الطبيب زوجته، - لن يُفقد بكاؤنا فيدور. الأفضل من هذا ألا ننساه، أن نحافظ على وجوده في قلوبنا. لن ننساه ولن ننسى أفضله. وليجد الخير حيث رحل. رفع الزوجان كأس الخمر دون أن يصفقاهما. ورفعت أفس بأصابعها النحيلة كأس الماء كما فعلا وعيناها بُجْهشان بالبكاء. رشفت منها وأعادتها.

وبعد قليل قال الطبيب:

- وأنت يا أنجيلينا بارامونوفنا قولي شيئاً بالمناسبة.

- ماذا أضيف يا سيرغي بيتروفيتش إلى ما قلت أنت؟ - كانت المرأة تعرف أن قلب أفس سيتداعى إن تكلمت على العجوز، فقالت بحذر: - أنت قلت كل ما يمكن أن يقال، كان عجوزاً صالحاً، ليفتح له الله باب جنته!

- لو كان الإنسان يعرف متى سيسقط... - تنهد الطبيب ثانية وهو يهز رأسه، - لوضع لنفسه وسادة من ريش الإوز، صدق من قال هذا. لو استشارني المرحوم لما سمحت له أن يفعل ما أقدم عليه. عند الضرورة...

- لم يرتكب فيدور خطأ يا سيرغي بيتروفيتش! - قاطعت أفس كلام الطبيب. - لا يُذكر الأموات بالسوء يا أفس، - أعادت النظرة المستاءة للزوجة الطبيب إلى رشده. - أفهم الحال، لكن إن كنت ترغبين في العودة إلى قومك فسأتوسل إلى الجنرال من أجلك.

- لا يا سيرغي بيتروفيتش، - هزّت الصبية رأسها، وسالت دموعها، - لن أذهب إلى أي مكان تاركة فيدور!

حُيِّل لأنجيلينا بارامونوفنا أن الرعد دوى فجأة في السماء التي لا غيوم فيها... هذه الكلمات المعدودة - سواءً كانت حسنة أم سيئة - هي التي قررت بقاء

أفيس بين الروس وتعميدها.

حين جاء صباح التعميد لم تقبل أفيس مهما رَجَّوها أن تغير ملابس الحداد السوداء، ولا قبلت أن ترفع عن رأسها الغطاء الحريري الأسود.

- اليوم يوم أفيس ولذا سنحقق لها ما تريد. - قال ميخائيل - أرخانجيل الذي يرتعد من الجنرال الذي وصل إلى الكنيسة والصبية إلى جانبه في العربة. - لا بأس أن تحتفظ بالغطاء الأسود على رأسها، يليق بها، أليس كذلك يا أفيس؟

اكتفت أفيس بالابتسام وقد بدا عليها سرورها بما سمعت، ولم تُجِب.

في العربة بالإضافة إلى الجنرال وأفيس الأمير أميلاخفاري. وأمام العربة المكشوفة خمسة فرسان قوزاق، ووراءها مثل هذا العدد. الصباح جميل وقت مفارقة الشمس للفجر. والخيول تجري باتساق. والعربة تطوي الطريق الصيفي بسلاسة. والخيول القوزاقية التي تسبقهم على مسافة متوسطة تثير الغبار. والجبال التي تستقبلهم من اليمين ومن اليسار تندرج وراءهم. والأشجار على حافة الطريق، والبرية الواسعة، والأعشاب التي أوهنها حرّ الصيف، كلها بلا معين. والسماء الباهتة تُظِلُّ سماء الأديغة واجمة.

تتفقد أفيس الطريق كأنها تودّع ما يمثل أمامها، تعرف إلى أين هي ذاهبة ولكنها لا تعرف كيف ستعود. تحفظ في قلبها كل ما تراه، ولكنّ مَنْ لا يفارق القلب هو فيدور. لو كان فيدور أحدَ الجالسِينَ إلى جانبها لما اختارت شيئاً عليه! تختلج شفتا أفيس الرقيقتان: "اغفر لي يا فيدور، أنا السبب في كل ما جرى لك"، ثم تطبق عليهما بقوة.

- لا تقولين شيئاً يا أفيس! - سألها الجالس إلى يمينها الأمير أميلاخفاري.

- وماذا أقول يا فانو غيليتش؟ أجابت أفيس بعد قليل جواباً غير متظر، - أتذكر اصطحاب الجنرال لي إلى إيكاترينودار.

التفت الجنرال إلى أفيس، ولمس يدها:

- نعم يا أفسس، أصبتِ تماماً ما في قلبي. - وافق الجنرال الصبيّة وكلُّ ما خطط له يتحقّق. - كانت أيام سفرنا إلى إيكاترينودار وعودتنا منها جميلة كالיום. - ثم قال محاولاً استدرار شِبْهِ ابتسامة من أفسس: - ولكن لم يرافقنا وقتها مثل هذا العدد من القوزاق المثيرين للغبار... هل تتذكرين يا أفسس، - سأل بسرعة حين خيبت أمله في الابتسامة، - سافينوفا ماري؟

- أتذكّر، وأنتظرُ ما ستكتب لي.

- كأنك تعبتين على ماري يا أفسس! - يسأل الجنرالُ أفسس مستدرجاً إياها إلى ما يريد.

- وعدتني أن تكتب إليّ وأخلّت بالوعد.

- لا تفكّري بهذه الطريقة في الفتاة التي ستصبح سميّتكِ! كتبت إليك.

- وأين ما كتبت لي؟

- في الأركان، ثم إنهما لم تكتفِ برسالة واحدة. بل اثنتان! سأعطيك إياهما ما إن تغادر الكنيسة.

وبعد وقت غير قصير سألت أفسس:

- ماذا كتبت ماري؟

- لا أعرف. لا أقرأ ما ليس لي يا أفسس.

حين دخلوا عمق الغابة بدت كنيسة ميخائيلو-أرخانجيل على المرتفع. ودخلوا قرية نيقولايف حيث تقوم.

ليس في فناء الكنيسة كثيرٌ من الناس. وأغلب من فيه، باستثناء بضع نساء، قبعاتٌ قوزاقية، ورُتَبٌ عسكرية. ولو لم يكونوا تركوا أنجيلينا بارامونوفنا في المطبخ لكانت بين هؤلاء، قالت أفسس دون أن تعرف لماذا خطرت لها، مستاءة من أن الأمور جرت على هذا النحو. ثم دخلت الكنيسة إلى جانب الجنرال.

اقتيدت أفسس إلى المكان الذي سُعِّد فيه فُحِّل إليها أن السقف العالي سماء

مرقطة مفتوحة، وأن ترانيم الكنيسة الناعمة تأتي من تلك السماء، وأن عبادة الأب غيورغي المذهبة، والأنوار المنبعثة من الشموع الرفيعة، والصور الجدارية، تسري كالموج على سطح الأرض.

كان أكثر ما يسبب الحرج لأفيس هو أنهم سيُعرّونها في حضرة الأب غيورغي.

ثم صحبوا أفيس إلى حافة البركة ملفوفة بالقماش الأبيض.

- باسم إلهنا نُعمد أفيس التي هي من رعيّتنا. آمين! - قال الأب غيورغي متحمساً.

رتلت أفيس دعاءها كي تخوض في الماء المقدس. وقبّلت الصليب، ورسمته. ثم خاضت في ماء الجرن الأبيض ترتل الصلوات وترسم الصليب. وغطست على مهل ثلاث مرات. ولم يكن فيدور المسكين يفارق خيالها طوال هذه المراسم.

خرجت أفيس من كنيسة ميخائيلو - أرخانجيل وقد فقدت اسمها الأديغي. واكتسبت اسمها الروسي الجديد ماريا نيقولايفنا، وفي وثيقتها الاسم نصف الأديغي نصف الروسي: دُعجي - نيجيغوردسك، ودون أن تقتنع بأن ما حدث مهم جداً، شاعرة بأن ما جرى لم يكن صحيحاً.

- أنت منذ اليوم يا ماريا نيقولايفنا - وأهنتك - اعتنقت الديانة الروسية المسيحية. - قال الأمير أميلاخفاري بعدما خرجوا من الكنيسة للصبية التي ما تزال مراسم التعميد أمام عينيها، وأضاف مُفهماً إياها: - سنناديك منذ الآن بهذا الاسم الجميل.

- الآن سيكون اسمها ماشا - صحح الجنرال كلام أميلاخفاري، ووثق بسرعة: - متى كبرت فسنناديها ماريا نيقولايفنا.

وبعد نصف ساعة سألت:

- لماذا؟ وهل كان اسمي قبيحاً؟

- تبادل الجنرال وأميلاخفاري النظرات محتارَين في تفسير ما سمعا.
 - لا، ليس اسمك قبيحاً، - استعجل الجنرال بالردّ محاولاً ألا يجرح مشاعر الصبية. - جميل، يروق لنا. وإن أردتِ ناديناكِ به أيضاً... ولكن كان بودّنا أن نطلق عليك اسماً روسياً إذ اعتنقتِ ديننا الروسي...
 - لماذا إذن لم تعطوني اسم فيدور ونسبه؟ - صرّحت لهم أفس فجأة بما يحزنها.
 - فيدور دانيلوفيتش أناكسيفيتش، - قال قائد جيش نيجيغورودسك معتداً بكونه قائداً ليفيدور بصوت قاطع آخر، - كان رجلاً شجاعاً أخلص لبلاده طوال عمره. - لم يسمح لنفسه أن تتأثر بمحاجة الصبية مع أن محاولة تهريبها تطفئ على كلامه رغماً عنه، - رباك على الإنسانية والرحمة... وكان حسناً لو منحناك شيئاً من اسمه إن كان هذا رأيك... ساحبنا يا ماريا، لم يخطر لنا... إن كنتِ لن تنسي فيدور فهذا أفضل تذكّار حلّو يمكن أن تحتفظي به! ولكن لا تنسي أني وفانو غيليتش وزوجته أنا ألكسندروفنا صرنا بمثابة أهلك وأملك بعد التعميد...

حين دخل العائدون من التعميد دار المشفى استقبلتهم أنجيلينا بارامونوفنا بدموع الفرح. ولما أدخلت أفس إلى حيث نُصبت المائدة تذكّرت صغير الخنزير الذي جرى الحديث عنه يوماً، ولكنها لم تضعه على المائدة.

XXV

أنست زيارةً قيصر روسيا إلى إقليم الأديغة، وبلاد الأبخاز قادة جيش نيجنيغودورسك الاسم والنسبة اللتين اكتسبتهما أفس. ولكن اتهام الضباط وعامة الجنود بما ليس ذنبهم إثم... لم ينسوا الصبية التي يروّنها، ليس يوماً بل ساعة واحدة. لم يكونوا يحموها بهدف منعها من الهروب فأين تهرب الآن بعدما انتهت من التعميد وقد فقدت كل أمل لها؟ ومن سيهتم بها بعد الآن؟ رضيت شيئاً فشيئاً بالمكان الذي وجدت نفسها فيه. كان الجنود ينظرون إليها بعين

الرضا ودون تذمُّرٍ خلافاً للماضي بعدما اعتنقت المسيحية وسمّيت اسماً روسياً، وكان كلُّ مهتماً بأن يكسب ودّها أو يقول لها كلمة حلوة. وتريشكوف الذي منحه قبل أيام رتبة أعلى¹ صار يعترض طريق أفسس أينما تحركت، متلهفاً إلى الحديث معها، فراحاً بما آلت إليه. ولكن أفسس ربما كانت ستكلم أحدث الجنود سناً في الجيش لولا فيدور دانيلوفيتش: ما كانت لتغفر لتريشكوف طريقة موت العجوز. وحين يقف أمامها مبرّئاً نفسه تتجنب أن تقع عينها عليه أو تتجه بلسانها إليه. وكان هذا الموقف منها من أشد ما يحزّ في نفس تريشكوف. وما كان يجد تفسيراً لمقاطعتها له، ولا سيما أنّها لم تفعل هذا مع الجنديين اللذين كانا يرافقانه لحظة مقتل العجوز.

في يوم قلّت فيه حركة الناس التقى تريشكوف وأفسس عند مقرّ الأركان. خاف تريشكوف أن تتجاهله كعادتها فأسرع وأمسك بيدها.

- لا تلمسني! - انتزعت أفسس يدها من الشاب.

- أتوسل إليك يا ماشا، - اعترض طريقها، - لا ذنب لي، يكفي ما قاطعتني إلى الآن... صالحت رفيقي... ثم إن كنت على حق فهل تعرفين طلقّة من أصابته؟

- لا أعرف... - نظرت أفسس دون وعيٍ نظرة حارة وناعمة إلى عيني تريشكوف البريئتين وغير البريئتين. وأضافت دون أن تكتفي باسم فيدور مجرداً، مُبرزة له احترامه، وقد انكسر صوتها بسرعة: ولكن رفيقيك تصرفا بإنسانية نحو فيدور دانيلوفيتش.

- كيف؟.. - فوجئ تريشكوف بكلامه.

- لم يسمّيا فيدور بـ "الأديغي الخائن"... - نطقت أفسس الآن باسم المودّة

¹ يجري الكلام على رتبة قوزاقية تعادل تقريباً رتبة ضابط صغير في الجيش القيصري.

"فيدور" الذي كانت تناديه به دون أن تضيف اسم أبيه "دانيلوفيتش". ونقّست عن ضيقها بما وجّهت إليه من اتهامات. ولم تجد من اللائق أن تنصرف من أمامه بعدما قالت ماتريد أن تقوله.

- أنا مذنبٌ في هذا يا ماريا، سامحيني... - اعترف تريشكوف بذنبه فنطق اسم أفسس الروسي صحيحاً. - فكرتُ كثيراً في ما جرى لنا بشأن فيدور دانيلوفيتش. وربما لم يكن له ذنبٌ، من يعرف، في فراركما... هذا من تدبير الله يا ماريا. وأظن أن أيّ إنسان في موقعي كان سيتصرف في ظروف الحرب كما تصرف. ولكن رصاصتي، أطلقنا نحن الثلاثة معاً، لا أعرف إن كانت هي التي أصابت فيدور دانيلوفيتش. سامحيني يا ماريا.

- سأغفر لك ما دمت اعترفت بذنبك. ولكن لا أعرف إن كان الله سيغفر لك.

ظل تريشكوف وأفسس يتبادلان السلام، وهما بين الصلح والعداء، حتى الوقت الذي كلّفوا فيه جيش نيجيغودورسك بحماية الطريق الذي سيسلكه القيصر في إقليم الأديجة حتى طريق الأبراخ. يخفق قلب أحدهما للآخر متى التقيا. وأضيف إلى هذا سفرُ أنجيلينا بارامونوفنا. والحق أن أنجيلينا كانت ستسافر قبل زمن طويل لولا أفسس، فقد انقضى الصيف ودخلنا الشهر الأول من الخريف وهي تؤجل عودتها من يوم إلى يوم، حرصاً على ابنة جيش نيجيغودورسك ماريا دُعجي. والآن، كُرمى للصبية، ربما تصبر شهراً آخر ريثما تُرسل إلى أنا ألكسندروفنا زوجة الأمير أميلاخفاري في تفليس. ولكن الأمر المفاجئ الصادر إلى جيش نيجيغورودسك فرض عليه التحرك.

كان الجيش أمس وأول من أمس على طريق الأبراخ. ومن سيصبحون أفسس سيغادرون اليوم. وانشغلوا بالراحة والليلة بمتطلبات تلك الرحلة. ومن بقي من جيش نيجيغودورسك عدد محدود من الجنود الجرحى في المشفى. وسيحميهم

جيش كوبان الخامس ريثما يُشَقُونَ. وعندهم تعليمات بالالتحاق بجيشهم متى عادت إليهم صحتهم. والدكتور بلوتالوف الذي حُلَّت قضاياها مرتاح بالقياس إلى الأيام السابقة. وشاغله الوحيد هو ترتيبات سفر زوجته مع المغادرين إلى إيكاترينودار. ولكن المرأة البدينة مهمومة بأفيس المسافرة إلى تفليس أكثر من اهتمامها بنفسها. لا تزال تتفقد ما سترسله معها رغم أنها جهّزتها طوال بضعة أيام للرحلة. وتذكّرها بالتوجيهات التي تظن أنها نسيتها. تُسمع زوجها الطبيب، وتكلفه بمهام:

- لا تحجلي يا ماريا من جمع الرجال الذين سترافقنيهم. - لا تفارق أنجيلينا بارامونوفنا الصبية. - الطعام الذي معك في الكيس، لا تجوّعي نفسك، يكفيك اليوم وغداً. كلهم آباؤك وأمهاتك وإخوتك، كلكم أسرة واحدة كبيرة. - تُدني شفيتها من أذن أفيس، وتحمس، مُشعرةً الزوج، غير مُسمّعةٍ إياه: - لا تدعي حاجاتك الطبيعية تؤذيكَ بسبب الخجل... هل تسمع يا سيرغي بيتروفيتش: أنت تقلق على أدواتك الطبية، لا تحمل هذه الصبية بحجة الاهتمام بجرحاك الذين على أرجلهم. أنت من بقي لها أباً وأماً بعد المرحوم فيدور دانيلوفيتش. - يا أنجيلينا بارامونوفنا! - يتعجب الطبيب مما يسمع - ما الذي تقولينه؟ ليس في الجيش، دُعْ مني، شخصٌ يهمل ماشا حتى لو جابهنا كلٌّ من في إقليم الأديغة.

- ليس هذا ما أقصده، ولكن تفكيرك في هذا حسنٌ أيضاً... هذه صبية ؛ ألم تفهم؟ كلٌّ من معها لا يسو قبعات!

- هذا هو؟ لا تقلقي من هذه الناحية يا أنجيلينا بارامونوفنا! - صاح الطبيب كي لا يُخرج أفيس. - ماريا نيقولايفنا صارت فتاة ناضجة. وجه الحديث إلى طريق آخر. - الحق أن القوزاق الذين ستسافرين معهم يُقلقونني أكثر.

- يا سيرغي بيتروفيتش بلوتالوف، ماذا أسمع! - نظرت المرأة في وجه زوجها

معتبرة ما سمعته مدعاة للضحك. - أأنا من لا تثق فيها؟!

- ما خطر لك لم يكن في ذهني!.. - استعجل الطبيب، - ما يُقِلّني هو معاناة طريقك.

- ثقي بي يا عزيزي سيرغي بيتروفيتش من الجهتين. - ضحكت أنجيلينا من أعماقها - ثم قالت له دون أن تحجل من أفس، بل مُسمِعة إياه: - إن كنت تقصد قلقك الأول فأنا يمكنني أن أفعل ما أريد ما إن تدير ظهرك. ولكني لست من هذا النوع من النساء اللواتي لا يحترمن أنفسهنّ. وأنت تعرف وإن لم أخبرك. وإن كان الموضوع الثاني فهو أمرٌ مختلف. ليس عجباً ألا ألبس قبعة كمن أنا معهم. أنا إنسانة، إن كان يضايقي شيء قلت لهم: أديروا ظهوركم، وحللت مشكلتي؛ ما العيب في هذا؟

لم تساهم أفس في كل هذا الجدال بل اكتفت بالابتسام.

حين اقتربت العربة التي ستركب فيها أفس من المشفى اعترض مشدّ العربة بلا وعيٍ فانحرف الحصانان مباعدين بين القوائم.

- مشد! - صاحت أفس - تعال إلى هنا يا مشد!

وتوجه أحد الجنود نحوه يحمل عصاً.

- لا حاجة إليها! - أوقفت أفسُ الجنديّ، تعال يا مشد!

تبع الكلب برأسه الأشعث المطرق أفس. ومشيا صامتين.

كانت أفس تظن أن مشد يفهم الناس ولغاتهم جيداً. وإن صدف أن تحدث أحداً بسوء عن الصبية كان الكلب يعبس، ويغرغر بحنجرته. ولكنه كان يفرح إذا امتدحوها. وها هو الآن لم يأكل شيئاً خلال بضعة الأيام الماضية. وقد بدأ هذا الصيام منذ أن بدؤوا يتكلمون على رحلة أفس.

اقتربا من الصخرة التي دفاأها الشمس فجلست أفس عليها. وأقعى مشدّ مقابلها على قائمته الخلفيتين. - يتأمل بعينيه الواسعتين الصبية كأنه

سُئِمِعَهَا عَتَابًا.

- أنا في أزمة يا مشد، أنا أعاني كثيراً. أنت أفضل صديق لي. عليك أن تكون في عوئي متى احتجتك. أترجاك ألا تنظر إليّ هكذا. وبكت أفسس.

عوى مشد بصوت شاكٍ. وأسند رأسه الأشعث إلى ركبتَي الفتاة. وأغلق عينيه بإحكام شديد. ربما كان يريد أن يُري صديقه أنه هو الآخر يبكي.

- يا مشد ما أصعب أن أتخلى عنك! لو كان المرحوم فيدور حياً لعهدت بك إليه واطمأننت. أكثر ما أقلق لأجله هو مصيرك أنت يا مشد. ولكني لا أستطيع، هل تفهمني، لا أستطيع اصطحابك - هؤلاء لا يقبلون... أرجوك أن تُشفق على قلبي. كن قوياً، واثقاً. كفى، كفى! دعنا نفترق في هذا المكان على خير. ولا نسمح لأحد أن يرى دموعنا! عانقت أفسس مشدً.

جلست الصبية والكلب صامتين طويلاً.

- تعال!

تبع مشدُ الصبية مطيعاً.

ثم تسلل إلى حُصنه ولم يخرج إلى أن انتهى كل شيء. كان يراقب كل ما يجري في الدار متجهماً...

استعجلت أنجيلينا بارامونوفنا غير عابئة بالرجل المتوجه إلى الحرب، وتناولت حُرمة حاجات أفسس، ووضعتها. وركضت إلى العربة وبيدها كيس الزاد. وتلمّست الحشيش تحتير نعومته. وأزاحت أحد الرجلين اللذين في العربة. ورمت نصف كيس إلى مؤخرة العربة. وبعدما انتهت من ترتيب العربة فحسب انتبهت إلى أن تريشكوف وراءها على الحصان.

- هذا أنت يا نيقولاي! - فرحت. - ما أحسن مرافقتك هؤلاء! ماشا... ثم

غَيَّرْتُ اسمها مع مزيد من التأكيد: احرصوا على ماريا نيقولايفنا يا نيقولاي سافيليفيتش. إن سمعتُ أن شيئاً جرى لهذه الصبية مسحتُكم من على وجه الأرض. سأجداكم أينما كنتم. وأنت أيضاً يا بلوتالوف هل تسمع؟ أنتما بعد الله وليّا أمر الصبية. وأنتما أيضاً، هل فهمتما؟ - أَلَحَّتْ على الجنديين في العربة. ثم عادت وضمت أفس إلى صدرها وهي تمسح دموعها. - هذا ما عندي لأقوله يا بُنتي... عانقيني بقوة... متى سنلتقي أنت وأنا؟!

- خالتي لينا!.. - بكت أفس التي تصبّرت إلى الآن.

- يا أنجيلينا بارامونوفنا! - قال بلوتالوف.

- نعم يا ماشا، نعم، لن أبكي... مع السلامة يا بُنتي. ليسعدكِ الله!

قفزت أفس من العربة بعدما خطا الحصانان بضع خطوات، وارتقت على صدر أنجيلينا بارامونوفنا. وها هي تطلق العنان لصوتها باكية، لا تُطيق صبراً، وكتفاها تعلوان وتهبطان. وزوجة الطبيب توافقها. وراكبو العربات والفرسان ينتظرون المرأتين مقدرين مشاعرهما، ويمدون رؤوسهم.

تعود أنجيلينا بارامونوفنا إلى وعيها:

- كفى يا بُنتي، كفى. لا تيأسي بوجود الله ووجودي. سأكتب إليك... سأجداك أينما كنت!

- خالتي لينا - همس أفس وقد كَفَّتْ عن البكاء وتنظر نظراتٍ حانيةً إلى أنجيلينا بارامونوفنا - لن أنساك طوال عمري... ستظلين في قلبي!.. - ثم تجد ذريعة فتوجه إلى الكلب. - تعال يا شاريك ينتظروننا...

خرجت العربة التي تستقلها أفس متأخرة إلى حد ما عن سائر العربات من منعة شَبَج، وتوجهت إلى بلاد الأبراخ. ولم يكن السائس والجريخان يتكلمون. وكان وراءها تريشكوف، وبلوتالوف الطبيب وثلاثة فرسان آخرون. التفتت أفس مرة أخيرة إلى المنعة التي قضت فيها سنواتٍ، وتألم قلبها الذي لم ينس

يوماً العجوز فيدور.

هذا هو الطريق الذي كنا نسلكه أنا وفيدور لجلب الماء. بدأت أفسس تفكر باللغة الأديغية دون أن تعرف كيف ولماذا. إلى هذه الصخرة البيضاء الكبيرة كنت أركض أحياناً... أليس في هذا المكان لاحقاً جماعة تريشكوف؟.. لولاهم كنا عبرنا النهر، وكان فيدور حياً.

حين تجاوزوا منعطف الغابة الكثيفة بدت المقبرة التي زارتها أمس أفسس وأنجيلينا مودّعتين فيدور.

- أوقِفِ العربية! - صاحت أفسس وصدّرتها يضيق بقلبها. وركضت باتجاه المقبرة. وحين رأت تريشكوف يلحق بها مترجلاً قالت له: - أنا سأودّع فيدور، أما أنت فلا شأن لك بنا!

- يا ماشا، يا ماريا نيقولايفنا، كفى! - أجاب نيقولاي تريشكوف على من يلحق بها وهو يجمع من أزهار الخريف. - أنا حرٌّ في ما سأفعل!

لم تُجِبْ أفسس حين رأت عدة جنود يلحقون بتريشكوف والطبيب الذي تبعه. دلف الجنود إلى المقبرة يبحث كلٌّ منهم عن أصدقائه. ووقفت أفسس وسيّرغي بيتروفيتش إلى قبر فيدور دانيلوفيتش، ورسم الصليب، وعبراً عما في قلوبهما نحوه بالصلوات. ومع أن ذكرياتهما لم تكن متطابقة، ورأيتهما في ميتة العجوز فيدور مختلفان فقد تشاركا في الترحُّم على من فارقوا الحياة. لم تكن أفسس في هذه اللحظة في موقف تستطيع فيه ذرف الدموع إذ لا يفارق فيدور أفكارها الحزينة اليوم والبارحة والأيام السابقة. بدا كأن ساكن القبر الذي جفّ ترابه وهدأ ينظر إليها بعين راضية، ويقول لها بنبرة لطيفة، وهي الواقفة في حضرته: "أنا راضٍ عنك، تعيشين حياتك في صدق".

دنا تريشكوف من القبر، ووقف قليلاً مطرقاً. ووضع بضع أزهار برية عليه وانصرف.

- تعالي يا ماريا، ينتظروننا. - أمسك الطبيب بذراع أفسس وأبعدها عن القبر. في اليوم التالي دخل جيش نيجيغودورسك الذي تسافر أفسس برفقته مضيق طوابسه دون معوّقات. وخلال هذه الساعات الأربع والعشرين كلها لم يهاجم الأديغة الجيش، بل لم يُزعجوه مرة واحدة. لم يكن الأديغة ينقضون السلام المحتمل بين الطرفين خلال زيارة القيصر ألكسندر الثاني. ولكنهم كانوا يتابعون كل خطوة يخطوها الجيش القيصري. - كان فرسانهم يملأون المنطقة متخفين أمام الجيش ووراءه وعلى الجانبين.

وكفى يوم واحد لترى أفسس الأديغة الذين اشتاقت إليهم طوال سنوات أسرها رغم أن الجيش كان يتحاشى القرى. كانت تستغرب أنهم لا يرفعون رؤوسهم ولا ينظرون في وجوههم مهما التقوا بفرسان وراجلين منهم، ولا يتحدثون إليهم. لم تكن ترى سلوكهم اليوم لاثقاً رغم أنها كانت فهمت منذ زمن بعيد العلاقة الطبيعية بين طرفين متعادين، مفكّرة من الزاوية التي وقعت هي فيها، معاينة الموقف بنفسها. ما لم تكن تفهمه، ولا تريد أن تفهمه، هو الاقتتال بين الطرفين وإن اختلفت لغتاها وديناها. لماذا قلوب الطرفين مشحونة بالغضب؟ ولماذا لا يسود السلام بينهما؟ يتقاتلان، ويتصالحان، ويتبادلان الجثث، والتهديدات من بعيد. ثم يتبادلان البيع والشراء في الأسواق.

هذه الكلمات ليس مصدرها أفسس. ارتسمت صورة فيدور دانيلوفيتش فجأة أمامها فتذكرتها. ولم تنس أحاديثهما في الأماسي الطويلة. ثم تدخل أنجلينا بارامونوفنا بينها. ولكنها حين تتذكر كيف قتلوا أباهما وأمها في الغابة تمحي كل تلك الخواطر، وتغلب الصبية حميتها الأديغة، وترغب في أن تملأ المدى القريب بصوتها تُعلم الأديغة الذين لا ينظرون في وجهها أنها أديغة، غير أن التزامها في الكنيسة ومعاملة من صارت جزءاً منهم يلجمانها.

التقوا بستة من الفرسان القوزاق معهما فرسان أديغيان في عربة:

- من أنتم؟ ومن أين قادمون؟ - سألهم تريشكوف بعد أن حيّاهم.

- نحن قادمون من قاي حابله، وعائدون إلى إيكاترينودار. - أجاب أكبر القوزاق بطريقة تُشعر بأن هناك ما لا يُسرّ، ودون أن يردّ السلام.

- وهذان؟ - أشار تريشكوف بطرف سوطه إلى الفارسين الأديغيين.

- هذان صديقانا. - حاققوه صوماف ووجّشقوه مُجد. يعاونانا في نقل جثمان الجنرال يعقوب غيراسيموف كوخارينك...

- هل حقاً قتلوا الجنرال كوخارينك؟! - صرخ تريشكوف وسمّر الحصان في مكانه. وفعل رفاقه مثله. وحين رفع السترة السوداء من على وجه الميت خلع الجميع قبعتهم. وجثا بعضهم على رُكبهم مطرقين.

من تميّز من بين الحشد هم أفسس والفارسان الأديغيان. في البداية لم تعرف أفسس ما حدث لرفاقها. وما لم تكن تفهمه هو طبيعة الرجلين الأديغيين المرافقين للقوزاق. - لم يترجّلا، ولم يخلعا عنهما قبعتيهما. وأفسس نفسها لا تزال في العربة ناسية الموقف، ولا ترسم الصليب. هذا الوجوم هو ما جعل اسم الجنرال كوخارينك يصل واضحاً إلى ذهنها. وربما كان توجّسها هذا هو ما منعها أن تقفز من العربة كما فعل رفاقها. وهذا ما جعلها تشعر أنها لم تعد في جملة المسافرين بل صارت مع الفارسين الأديغيين قلباً وروحاً.

لاحظ الطبيب عدم ترجّل أفسس. فالتفت إليها وهو يرسم الصليب. وناداه مُسمعاً الحضور، قاصداً استنكار جلوسها في العربة: "ماذا أنت جالسة؟":

- ماريا نيقولايفنا!

خرجت أفسس من العربة حين رأت الروس يرسمون الصليب وعيناها على الفارسين الأديغيين المديريّن ظهريهما، ورسمت الصليب من دون اقتناع مرتين أو ثلاثاً. ثم أسبلت يديها، وتظاهرت بإصلاح وضع غطاء رأسها الأسود.

وساعة استأنفت عربة الجنرال المقتول طريقها قال حَققوه صوماف لرفيقه مُجد

وهو ينظر نحو أفس:

- ما أشبه ملامح هذه الصبية بالأديغة ...

- والله أنا أيضاً خطر لي هذا، ولكن ألم تسمع الاسم الروسي الذي نادوها به؟
قفز قلب أفس الصغير مرة أخرى غير أنها لجمت نفسها ورأسها يدور. ووقفت
كي لا يُفتضح أمرها أمام الحصانين المربوطين إلى العربية، العائدين لفيدور،
تتظاهر بملاطفتها.

وبعدما سارت العربية مسافة قال أحد الجريحين القوزاقيين اللذين معها، وقد
نسي أن أفس برفقتها:

- أيُّ جنرال قوزاقي ممتاز، ذكي، هذا الذي قتله الأديغة!.. هؤلاء الأديغة!..
لو كنتُ المسؤول لأحرقتهم جميعهم!

- أيها القوزاقي لينوك ماذا تقول؟! - لم يقبل تريشكوف ما سمع.

- تغلي قلوبنا فتدفعنا إلى أن نقول أشياء كثيرة... وهؤلاء أيضاً بشرٌ... -
تراجع القوزاقي، ولكنه لم يملك إلا أن يسأل أفس والحقد يغلبه: - ما الحديث
الذي كان الفارسان الأديغيان يتبادلانه يا ماشا؟ هل كانا يتكلمان علينا؟
- ما أشد اهتمامهما بك!!.. - اشتعلت أفس غضباً من شكِّ القوزاقي، ولم
تتورع عن أن تعلن موقفها. ثم أجابت على سؤاله بتحديد، وبنبرة أشد حمية: -
خمنوا أي أديغة!

- ولماذا لم تُخبريهما أنك أديغة؟ - لم يتوقف القوزاقي عن طرح الأسئلة.

- وهل ما أزال أديغة فأخبرهما بهذا!!.. - رمت أفس نفسها من العربية وقد
غلبها الانفعال. وقفز الطبيب من على الحصان وضمَّ إليه الصبية.

- أيها القوزاقي لينوك، - ركض تريشكوف إليهم وكأنه سيصرع الحصان
بصدره، - الآن حالاً انتقل إلى العربية الأخرى! لا تُسمِعي، ليس اعتراضاً
على ماريا نيقولايفنا، بل كلاماً معها!

- أنا كنت أمزح مع ماريا نيقولايفنا فحسب... - يبرئ القوزاقي لينيوك نفسه. ويتودد إلى الصبية عبر اسم الدلال: - ماشا ليست إلا ابنتنا، ابنة مَنْ تظنون إذن؟

- كفى، نَقَدْ ما قيل لك! - لم يقبل تريشكوف إلا أن ينقل القوزاقي إلى العربة الأخرى.

XXVI

لم يكن في مضيق مأمرقوه الذي رحل إليه جيشُ نيجيغودورسك بيوتٌ كمنعة شَبَّح: الخيام المتشابهة التي سيقم فيها الجنود منصوبة على امتداد البصر في المضيق الجبلي الغابي. وخيمة القيصر معزولة عنها قليلاً، وبجانبتها ثلاث خيام أخرى. وإلى اليسار مقرات قادة الجيش. لم يكن الطبيب يريد ابتعاد الصبية عنه وفقاً لتعليمات زوجته ولكن لم يتحقق له ما يريد. ورئيس الأركان أميلاخفاري استقبل أفس، منصرفاً عن تدبيرات جيشه، ماداً ذراعيه إليها كأنه لم يرها منذ سنوات. وأفس الأخرى التي ملّت من الطريق ارتمت في صدره دون أن تترك بالالايكا العجوز فيدور الملفوفة بغطاء رأس. وبعدما تبادلوا بعض الكلمات الودية، أمسك أميلاخفاري بيد الصبية وسار بها:

- تعالي إليّ، تعبّت على الطريق.

- ملابسي في العربة، - قلقت أفس.

- لن يضيع شيء منها. - ابتسم أميلاخفاري، وحين فهم أن الصبية غير مرتاحة، صاح:

- يا تريشكوف، هاتِ ملابس ماشا إلى هنا.

الخيمة واسعة ولها ثلاث نوافذ، ومقسّمة إلى غرفتين. في الغرفة الأولى سريران، وفي الغرفة الأخرى المفتوح بابها يظهر سرير واحد.

رسمت أفس الصليب حين رأت الأمير أميلاخفاري يرسمه.

- سنقيم هنا طوال إقامة قيصرنا الكبير يا ماريا نيقولايفنا. - قال أميلاخفاري بعدما رسم الصليب.

- وبعدها يا فانو؟ - سألت أفسس كأنها كانت تنتظر هذا التصريح.

- ألا يُعجبك مكان إقامتك يا ماشا؟

- يُعجبني، - ابتسمت أفسس في وجه الأمير تريد أن تقول له: سامحني إن أسأت إليك. - لأنني أسأل عما بعد رحيل القيصر...

- هذا يتعلق بسلوك الأديغة معه.

ما إن سمعت أفسس اسم الأديغة حتى طارت بقلبها، وتصلّب خصرها النحيل، وغيّرت موضوع الحديث دون الاهتمام بتريشكوف الذي جاءها بملابسها:

- من سينام في هذين السريرين؟

- أحدهما للجنرال، والآخر لي. والسرير في الغرفة المجاورة، يجب أن تكوني لاحظت، لك.

- حسنٌ هكذا. - شهدت أفسس على إعجابها بما رأت.

انتظر الجيش القيصر في اليوم الأول واليوم الثاني ولكنه لم يظهر. ولكن هذا لم يُعطّل برامجهم. - يتدربون دون توقف على مراسم استقبال القيصر بالأنساق. وترتفع صيحة النصر "أورا!" من هنا وهناك، وتتجاوب أصدائها في المضيق، وتتناثر بين جبال الأديغة.

لا يسخو الخريف بالتنازل عن حرّ أشهر الصيف الثلاثة رغم مُضي نصف الشهر الأول منه. وتصل إلى الجنود النسومات الباردة الآتية من القمم الثلجية حولهم. وأشجار الغابة المتنوعة لم تنته من تبديل أوراقها. والأعشاب التي مرّت فوقها لفحات الصيف تخضّر أوراقها. والطيور المتنوعة تحكي بقدر طاقتها جمال الطبيعة بأنغام مختلفة. والفراشات التي أعاد الحرّ الحياة إليها تتقافز في الهواء كبقايا ثلج تائهة. والماء المتماوج الذي يمرّ من وراء نافذة أفسس تتناثر ضحكاته

في كل مكان.

أفبس وحدها، تجلس إلى جانب الساقية. تغمر يدها فيها. ومع أن الماء البارد يكاد يُحرق يدها فإنها سعيدة كأن الماء الذي تمسح به شفتيها يذكرها بشيء نسيته، وتستطيعه. "هل منطقتنا هي مكان سُكنى الأديغة؟ أهى المكان الذي تنبع منه هذه الساقية النظيفة أم الذي تتجه إليه؟ حين يأتي القيصر، كما يقول فانو، من أي جهة سيأتون لمقابلته؟ ليأتوا من حيث يشاؤون فهذه أرض أديغة! أليسوا أحراراً في أن يأتوا من أي جهة يريدون؟!"

لا تفارق صورة الفارسين الأديغيين اللذين رأتهما أفبس على الطريق مخيلتها. لم تر في وجهيهما أيّ فرح، ولا مرح، ولا نظرة ارتياح. من أرافقهم أعداء ولكن ما ذنبى أنا؟ أيّ ذنب ارتكبت فلا يرفعاً رأسيهما وينظرا إليّ؟ لا تعدّوا اعتناقى لدين الروس ذنباً... من منكم تذكرني؟ ومن تابع أثري؟ ومن سأل عني؟ الفارسان المرافقان لمن ينقلون جثمان الجنرال كوخارينك شبّهاني بالأديغة ولكن لم يسألاني: "أأنت أديغة؟" تداعى قلب أفبس ثم صحت وهي تهزّ رأسها الصغير. وسألت نفسها دون أن تعرف السبب: "لماذا كان هذان يرافقان جثمان الجنرال المعادي؟"

لم يفارق قلب أفبس الأديغة الذين نسوها كما كانت تقول لنفسها طوال النهار. وحين أوت إلى الفراش ظل هؤلاء يعصفون برأسها وقد غلبها الضيق. وحين استرجعت صورة أبيها وأمها المقتولين في الغابة تنهدت بصوت عميق سمعه الأمير أميلاخفاري النائم في الغرفة الأخرى. وانقلبت إلى الجانب الآخر.

رفع الأمير رأسه فجأة من الصوت، وأنصت، وسأل بحذر:

- ماشا، ألا تنامين؟

هدأ فانو غيليتش إذ لم تحرّ أفبس جواباً. ولكن الصبية لم تكن نائمة. — كان

فيدور دانيلوفيتش الآن أمام مخيلتها. وانقلبت إلى الجانب الآخر، وموت فيدور الذي صار بمثابة أبيها وأمها يثقل عليها. والبالا لا يكا التي كان يفزع إليها فيدور كلما ضاق صدره لا تفارق عينيها دون صوت. وأنجيلينا بارامونوفنا هي الوحيدة التي بقيت بين ذكرياتها تفرّج عنها همومها. تقول لها: "أخبريني متى وجدت نفسك في ضيق، سأتيك أينما كنت" وتدور حول العربة. وتؤكد لسيرغي بيتروفيتش زوجها، وترجو تريشكوف كأنه جدير بأن يتحمل مسؤولية كبرى. لولا أن لتريشكوف سلطة لما طرد القوزاقي الجريح المرافق لها في العربة والذي علق بها إلى العربة الأخرى. كيف علق بها القوزاقي اللعين بحجة أنه يمازحها؟ ماذا كان يريد أن يقول لي من خلال تلميحاته؟ قلبه هائج ولذا يريد أن يشملي مع من قتلوا جنراهم المحروم من الرحمة، ولو استطاع لمنع الهواء عن الأديغة، ولأحرقهم. وأنت ألا يكفي ما يعاني هؤلاء البؤساء حتى تنضم إلى أعدائهم!.. لو كنت لابس قبعة وبإمكاني أن أصرّعك لرأيت ما أصنع بك... كان تريشكوف وبلوتالوف الطبيب وقفا إلى جانبي... ولكن لو كان فيدور حياً لما سمح لك، لا أن تكلمي، بل أن تفتح فمك. كيف أقول للفراسين "أنا أديغي"؟ ألستم من انتزع مني أديغتي وزرع روسيته مكانها؟ لا أدينكم تماماً في هذا، لو لم أكن راغبةً ولو لم أرضخ - اغفر لي يا إلهي - لما استطعتم أن تؤذوني في شيء. ألستم من لاحقونا حين حاول فيدور تخليصي منكم؟ وأنت كنتَ بينهم يا لينوك! ألا يمكن أن تكون رصاصتك هي التي قتلت فيدور؟ إن وصلتكم إلى هنا كفى أن ألتحق بموفدي الأديغة حين يأتون للقاء القيصر! ماذا بإمكانكم أن تفعلوا بي؟ ألم أعد حرّة في ما أفعل؟..

- فيدور! - فجأة خرج اسم العجوز من فم أفس عفويًا. ثم أصلحته: - خالي فانو، هل أنت نائم؟

- أنا يا ماشا، أنا، - نخض الأمير أميلاخفاري، - هل هناك ما يُقلقك؟

- لا... بل سألتُ إن كنتَ نائماً... - قالت أفسس هكذا خجلة من مناداته بفيديور. وموّهت نداءها: - رأيت فيديور في حلمي...
- خيراً إن شاء الله إن رأيته في الحلم - قال أميلاخفاري في نفسه: لا تنسين العجوز - ليكافئه الله حيث رحل. كان عجوزاً طيباً ولكن لم نفهمه، إنساناً رحيماً، - وغيّر الموضوع سريعاً: - ليلة مزعجة جداً. لم نر مثلها منذ زمن بعيد.

وفي هذه اللحظة دوى الرعد فجأة ممزقاً سكون الليل. وقبل أن يتبدد الصدى لحقه دويٌّ آخر.

- لا تخافي يا ماشا، - قفز الأمير وأشعل شعة. - لا أكتر من الرعد هنا. إن كنتِ خائفة فتعالِي نامي في سرير الجنرال.

- لا أخاف يا خالو فانو، - نادى أفسس من مضجعه لا يبدو على صوته الخوف. - هل تعرف ماذا كان رأي المرحوم فيديور في الرعد؟ يُدَكِّرُ الناسَ أن يخافوا من الله. نحن لا نخدع الله، أليس كذلك يا خالو فانو؟ - ترسم أفسس الصليب وهي في الفراش.

- نعم يا ماشا، نعم، نحن عبادُ الله... - لا ينفكُ أميلاخفاري يرسم الصليب. صمّت الرعد فجأة كما بدأ. وارتاحت أفسس بسبب الانتعاش الذي تلا الجو الخانق. وغرقت في النوم فجأة. وهي الآن تحوم فوق أرض الأديغة وقد نبت لها جناحا طائر لا تؤذي أحداً ولا يؤذيها. السلام يعمّ كل مكان وكأن لم تكن حربٌ. الناس يحرقون الأرض، ويرعون المواشي، وعلى تخوم القرى يلعب الأطفال. والسواقى الفضية تنحدر من الجبال تصطفق أمواجهما. والأشجار التي اصطبحت بوجه الربيع تُبرعم بزهور مختلفة. والنسيم اللطيف يداعب رؤوس الأعشاب. والطيور تغرد معاً أناشيد لم تسمعها في حياتها. وأغنية السماء الصافية تردد معها. وتسمع قائلاً يقول لها دون أن تعرف ممن ومن أين:

"الأرض التي تحومين فوقها جنةً، حُطي عليها واستريحى!" وهي ترد عليه: "لم أتعب، كل ما أراه يسرنى، وأستحليه، أنا من هذه البلاد ولكن الناس ينكرونى، لا ألوم أحداً. ولا يلومني أحد على أنى تحولت إلى عصفور، وأتكلم لغة أخرى، وأبتهل إلى إله آخر" ولكنها لا تستطيع أن تُصليح صوتها، وتعرف أنه مليء بالشجن.

تقفز أفس من السرير حين تفتح جفניה. الغرفة التي تنام فيها منيرة وإن لم تكن كالتي كانت فيها في منامها. وشمس الخريف الناعمة تبتعد عن النافذة. وموسيقى الهارمونيك تصدح في أرجاء المضيق. وترى أفس نفسها حين تنظر من النافذة محميةً بصفوف الجنود الروس. لا شك أن القيصر الروسي وصل. - ارتدت ملابسها بسرعة. ورفعت الغطاء عن الفطور الموضوع على الطاولة. - في الصحن خبزٌ وبيض مسلوق وقطعة لحم. والشاي الساخن ملفوف بعناية، وحين تخرج من الغرفة متجاوزة المائدة ينذرها الحارس المكلف بحراستها:

- لا تُفارقى المسطبة، كلفوني بحمايتك.
- ألا تعرف أن القيصر وصل؟ هل ستُبقي علي سجينة؟
- الأديغة جاؤوا!! - يخبرها بوجود خطر عليها، ويعترض طريقها.
- أين هم؟ - يهرب من أفس سؤالها الجزع.
- ها هم، - يشير إلى السفح الملتفّ، - هؤلاء منتشرون في كل مكان.
- رأت أفس في الجهة التي أشار إليها الجندي، على السفح غير البعيد، زهاء مئة فارس أديغي. وكان ينضمّ إلى هؤلاء فرسانٌ ومشاة آخرون. وفي مقابلهم بحوالي ثلاثمئة خطوة فرسان ومشاة روس. وعلى رؤوس المتجابهين قلق خفي وإن كانوا اجتمعوا بقصد السلام. وهو قلق واضح لا لأفس الموزعة القلب فحسب بل للجميع، بدءاً من الضباط الكبار، وانتهاء بعامة الجنود. ولكن قلب أفس كما

عينها في الجانب الأديغي وإن كانت تحيا وتنفس في المعسكر الروسي. تستقل ما تراه فتود أن ترى كل شيء، وتسمع أصواتهم، وتعرف أحوال أبناء قومها. وتصلي إلى الرب كي تنتهي المهمة التي جاء من أجلها إلى الأديغة بالسلام. ولا تكتفي بما تراه فتقف على رؤوس أصابعها:

- أأنت خائفة يا ماريا نيقولايفنا؟ - يستغرب الجندي. - ثقي بجيشنا. إن لم تكن نوايا الأديغة صافية فما أسهل أن يمزقهم جيشنا. - ومن بعيد، من الجانب الآخر للمضيق تبدأ صيحات النصر "أورا!" - هل تسمعين الجنود يحيون قيصرنا.

لا تحتم أفس بصيحة "أورا" فوق المضيق. تتعجب مما تراه في الجانب الأديغي: الفرسان يتسابقون شاهرين سيوفهم. ومع الجري يقفزون من سهوات الخيل، ثم إليها. وينسلون من تحت بطونها. ويقطعون قضبان الأشجار الطرية بالسيوف. ويتصايح الواقفون مع صليل السيوف. ويطلقون المسدسات في الفضاء.

- ماذا يفعل هؤلاء؟ - تسأل أفس مع أنها تعرف أنها ألعاب فحسب. - ها! - يبتسم الجندي ساخرًا من السؤال. - يستعرضون رجولتهم أمام القيصر. كان احتفاظهم برصاصهم وبارودهم أفضل من إطلاق النار في الهواء. لا يكتفيهم السلاح فيدورون في تركيا وإنجلترا وفرنسا بحثًا عنه... - تعال نقترّب أكثر!

- لا، لا يا ماريا نيقولايفنا. هؤلاء أشرار. - نسي الجندي أن أفس تنتمي إلى من يسخر منهم، - لا يجوز الاقتراب منهم! يكفي ما نراه من هنا. اكتفت أفس بتنهيدة عميقة دون أن تعلّق على ما قيل لها.

وفي هذه اللحظة هدأت الأصوات من الطرفين كأنما على اتفاق. الجميع بانتظار ما سيجري. ينتظرون ما سيتمخض عنه اجتماع الروس - الأديغة. والشمس الآيلة إلى الظهيرة كأنها توقفت في وسط السماء. والطيور المرتعبة من

صيحات النصر "أورا" الروسية تطلقها الهارمونيكا البرونزية، ومن إطلاق نار الأديغة، لم تجد الوقت لتصحو. ولا تهب نسمة خفيفة تسمح لأوراق الأشجار المتنوعة أن تتهامس. وأين اختفى خرير الساقية التي تقف أفسس إلى جوارها؟ - انظري يا ماشا، انظري يا ماريا نيقولايفنا، - مطّ الجندي الروسي قامته حين رأى القيصر الروسي. وأمسك بالندقية بقوة. - ها هو قيصرنا ماضٍ، وموفدو الأديغة يستقبلونه. احفظي ما تريه في نفسك، وكوني شاهدة عليه. وادعي إلى الله أن يتصالحوا. - يرسم الصليب، وتقلده أفسس. - إن تصالحوا حافظوا على أرواح الناس من الطرفين...

- من الاثنان اللذان يتقدمان الأديغة؟ - تنظر أفسس، ولا تستطيع أن تكظم قلقها.

- من يعرفهما؟! حتى رفاق قيصرنا لا نعرفهم... أحدهم "تسي" والآخر "برزج". وغيرهما "حجمقوه". أنساب هؤلاء، كالأنساب الروسية، ليس سهلاً نطقها. المهم أن يتصالحوا...

الموفدون الأديغة الذين يتأرّسهم تسي حاتري، وبرزج جراندوقه، وحجمقوه أسلانج، تكلموا ساعة ونصفاً تقريباً إلى القيصر الروسي ألكسندر الثاني. ولم يجدوا وسيلة للتفاهم. قال القيصر الروسي لموفدي الأديغة: "أنتم صرتم من حصة روسيا حسب اتفاق أندريانوبول للسلام، ضعوا سلاحكم، لا تحاربونا، دعونا نتعايش". ولكن الآخرين لم يوافق منهم غير حجمقوه أسلانج على كلامه. وأجابوا القيصر: "ليس لتركيا شأن بنا فتسلّمنا إليكم. مشكلتكم أنتم مع من عقدتم معهم اتفاقية أدريانوبول، وليكن بينكم سلامٌ. نحن الأديغة عشنا عمرنا أحراراً لا نتبع أحداً. دخلتم بلادنا دون علمنا، وأرسلتم جيوشكم، وتنشئون الميع في أرضنا فتحاربوننا، وتوطّنون أناسكم. تتراجعون فنعيش وبيننا معاهدة دولة مع دولة. ودون هذه الشروط لن نلقي سلاحنا. ولن نصالحكم

حسب شروطكم" وافترق الطرفان على خلاف.

حين رجع القيصر ألكسندر الثاني لم يركب الحصان. وكان بين الأشخاص المعدودين المرافقين له الجنرال غرايه. وعلى مسافة غير بعيدة منه وغير قريبة كان الأمير أميلاخفاري بين المجموعة الثانية التي تتبع القيصر. والضباط الأدنى رتبة وراء المجموعة الثانية. والجنود الذين لا يصدر منهم كثير من الضجيج كانوا في المحيط لا يُسمح لهم بالاقتراب فيراقبون من بعيد.

- تعالي يا ماشا نبتعد - استعجل الجندي الحارس حين رأى القيصر قادماً. ارتعبت أفس في البداية حين رأت الحشد الكبير من الرجال المسلحين، ولكنها حين رأت الجنرال غرايه بين مرافقي القيصر، تظاهرت، وقد عادت إليها رباطة جأشها، بأنها لم تسمع أوامر الجندي، فشرعت تربط شريط حذائها الذي حلّته.

- يا ماريا نيقولايفنا، طلبت منك أن تسرعي. - توقف الجندي الذي كان منصرفاً.

- لا تحف، لن يحاسبوك. - غسلت أفس في الساقية يديها المتسختين ومسحتهما. - الجنرال غرايه بينهم.

رأى القيصر أفس، وعرج بعدما أوقف رفاقه فدنا من الصبية، وسألها مستغرباً:
- من أين أنت؟ ما اسمك؟

- أنا ابنة الجيش، - أجابت أفس القيصر وكأنها تنتظر هذا السؤال منذ زمن بعيد. وحين همّت أن تضيف أنها فتاة أدغية قاطعها الجنرال غرايه:

- هذه أيها القيصر - تحوّل الجنرال إلى اللغة الفرنسية يريد ألا تفهم أفس، - صبية أدغية يتيمة، نربها منذ بضع سنوات في الجيش. وأدخلناها في الدين الروسي، ومنحناها اسماً ونسباً روسيين.

- وهل تتذكر لغتها؟ - سأل القيصر بالفرنسية أيضاً.

- كانت تعرف ولكنني أظنها نسيته في السنوات القليلة الأخيرة. - أجاب الجنرال وفي قلبه ذكرى العجوز فيدور دانيلوفيتش.

- أليست لغة من يحاربونها هي ما تنساها؟ لماذا مهمون بها - قال القيصر بالفرنسية، ثم تكلم إلى الصبية بالروسية باشاً لها: - ولكن مثل هذه الصبية النشيطة سيصعب على الجيش تربيته. لو أنشأتموها في تفليس أو في سان بطرس بورغ لكان أفضل ؛ لم تُخبريني عن اسمك ونسبك!

- اسمي ... - كادت تقول: "أفبس" ولكن رهبة من هي في حضرته لجمتها، - ماشا... وسَموني في كنيسة ميخائيلو - أرخانجيل: دُعجي - نيجيغودورسك. وإن كنت تريد معرفة اسمي الحقيقي، - قالت مرتاحة لا تعرف لماذا: أفبس، ونسبي: دُعجي!

- أعرف، أعرف... - ابتسم القيصر، ومسح على رأس الصبية وأمام عينيه موفدو الأديغة الذين لم يُصالحوه، متذكراً القول المأثور "مهما أطعمت الذئب فقلبه في الغابة". وامتدح اسمها الروسي دون أن يتوقف عند اسمها الأديغي: - اسم ماريا نيقولايفنا اسمٌ جميل. - ونسب نيجيغودورسك - ملغياً "دُعجي" - نسبٌ حسنٌ... هل تعرفين إذن صلاة "يا أبانا"؟
- أعرف! "يا أبانا الذي في السماوات..."! أَلقت أفبس الصلاة بفطنة وبقامة مشدودة.

- آمين! - حين نطق القيصر بها ردها معه رفاقه. ونظر بودّ أكبر إلى الصبية، وقال لها: - رَتَلت الصلاة من أعماق قلبك على نحو جميل. أنت فتاة مسيحية حقيقية. رعاكِ الله! - ومدَّ إليها عدة قطع نقدية ذهبية، - خذوها واشتري بها متى زرت المدينة ما تريدين. - وأضاف للجنرال غرايه بالفرنسية: - منذ اليوم نشر على الأديغة، كما أخبرتك، حرب إبادة عرقية. إما أن يرضخوا أو يهاجروا إلى تركيا! وهذه الصبية أرسلوها إلى المدينة، لا تُذنبوا بحقها!

XXVII

نقذ القيصر ألكسندر الثاني ما توعد به بحق الأديغة، وبحق أفسس. حاصرت جيوشه المدججة بالسلاح بلاد الأديغة من الجهات الأربع فلا مخرج منها ولا مدخل إليها. وعلى شاطئ البحر الأسود، من أعالي أنابه، وإلى سهل أدلير، ترسو السفن الروسية. والشابسوغ والوبيخ والناخووي يجابهون الجنود الذين ترجلوا منها. والحيوش التي سحبوها من الداغستان والشيشان، والمدرية جيداً على حرب الجبال، عبرت نهر بشزة، واحتشدت في أرض الأبراخ. ومن جهة إيكاترينودار، وجتونه، وستافروبول تأتي قطعان القوزاق.

لا رحمة بعد الآن نحو الأديغة الذين يحمون أرضهم. - يحرقون القرى والجوامع والمراعي. ويلجأ الناس إلى الغابات. حراب القيصر لا تعترف بالألم. - تقتل كل من تصل إليه. وتدفع الناجين منهم إلى حدود تركيا تريد أن تهجرهم إليها. ولما كانت الحرب تتجه إلى نهايتها فالسلاح الروسي دقيق الإصابة خلافاً للماضي. وأغاني القوزاق تتردد أصداؤها، ولاسيما في الجبال، ملقية الرعب في قلوب الأديغة. وبعد هؤلاء تأتي أسر الذين يحققون الانتصارات. وتحتل الأراضي المهجورة دون أن تتورع عن شيء. وتحرقها كأها أصحابها الأزلون. وتزرع الحبوب، وتتوازع المراعي...

كلّ الأوامر العسكرية الصادرة من سان - بطرسبورغ، ومن تفليس، ومن ستافروبول، ومن إيكاترينودار، موضوعها واحد: إنهاء الحرب قبل أن يعود الأديغة إلى وعيهم دون أي فُرجة للسلام. ولكن ما يقال من أن الأمور لا تجري في الحرب كما تشتهي السفن صحيح. أضيف إلى العزم الذي يحمي به الأديغة أرضهم الخريف الرطب، والشتاء الذي على الاعتبار. ومع ذلك فالجيش القيصري يحضّرونه لحرب الجبال. والوحدات العسكرية التي غادرت مضيق مامرقوه توجهت إلى الضفة اليمنى لنهر شحه عُواشه، وعبرته إلى وادي

فُجِس، ليست قليلة.

لم يكن المكان الذي سيرسلون إليه أفس مع حرب الخريف - الشتاء موضوعاً خفياً. ثم إن موضوعها كان حسمه القيصر: عليهم إيصال الصبية إلى إحدى المدينتين اللتين حددتهما: تفليس أو سان - بطرس بورغ. وكان هناك من يعرض اسمي ستافروبول وإيكاترينودار. ولكن أفس لا تعرف شيئاً عن أيٍّ منهما، تستوي المدينتان. وإن لم تُضطرَّ فلن تترك الجيش الذي تعيش في كنفه إلى أي مكان. وإن أجبروها على الانتقال فالأفضل ألا تباعد. - كانت لا تعرف التعبير ولكن إقامتها في أرض الأدیغة، واستنشاقها هواءها، وسماعها سيرتهم ولو بالسوء، تُحييها. وتفهم أن من حولها لابد أن ينفذوا أوامر القيصر. ولكنها لم تسمع في منعة شَبَج حديثاً عن إرسالها إلى تفليس.

سألت أفس الجنرال يوم مغادرتها إلى تفليس، وقبل انطلاقها ببضع ساعات:

- هل سنمر يا نيقولاي بافلوفيتش في طريقنا إلى تفليس بمنعة " شَبَج "؟

- هل اشتقت إليها يا ماشا؟

- كنت أود أن أعرج عليها... - سألت دموع أفس ولكنها عادت بسرعة إلى حالها.

- طريق تفليس أبعد بكثير إن كنت ستمرين على المنعة يا ماشا. - قال الجنرال فاهماً سبب دموع الصبية ولكن كاتماً معرفته بها، - ثم إن أعداءنا لن يسمحو لك بالسفر هناك. اخترنا طريق فلاديقفاس لأنه أقرب، آمن. ولكن أعدك يا ماشا، يا ماريا نيقولايفنا، وثقي بي، أن ندخل إلى المنعة مهما كانت بعيدة، لأننا سنمر من هناك. وأعدك أن أزور باسمك قبر فيدور دانيلوفيتش... لا تبكي يا بُنتي. هذا جزء مما تجلبه الحرب من مآسٍ...

- هل تعليني؟

- ليس هذا وحده، سأحقق لك رغبة أخرى، - قال الجنرال وسحنه اللطيفة

تُطمئنُ قلب الصبية - الحرب توشك أن تنتهي، فإن بقيت حياً فسأذهب بك يوماً إلى قبر أناكسيفيتش فيدور... من يعرف ماذا سيجري لنا، ها أنا أرجو من فانو غيليتش أميلاخفاري أن يحقق لك هذا. وأنا أودّ أن تعدها يا أميرُ على مسمع مني في حضرة ماريا نيقولايفنا.

- ما الذي نتحدث فيه يا نيقولاي بافلوفيتش، - استغرب الأمير أميلاخفاري ما سمع، - ما ترجمه مني عيب، لستما وحدكما، بل ستريانها بصحبي أيضاً... كان طريق أفسس التي يصحبها أميلاخفاري وتريشكوف يمتد خمسة أيام: مايقواب، جتونه، بيتاغورسك، نالشيك، فلاديفقاس. سهّلت الطريق عليهم جداً حين عبروا نهر لابا، وتجاوزوا منطقة الحرب. ووصلوا إلى بيتاغورسك، وأفسس فرحة بما ترى، متعجبة، وعاد التفاؤل إلى قلبها. ولما وصلوا إلى الفندق ودخلوا المطعم جرحت قلبها أول كلمة سمعتها، وجعلت رأسها ينتفض¹:

- الحرب تسير إلى نهايتها، والروس لا تسعهم الدنيا...

- وقيل إن القيصر ذاهب إلى بلاد الأبخاخ.

- والله يا عزيزي قيصر روسيا لم يعد يريدنا... "حاربوا، صارعوا، أفنوا الأديغة من الوجود!"، هذه توجيهاته إلى جيشه على ما يقال. إيه يا حسن، أترى هذه الصبية التي عيناها علينا. أتكون أديغية؟ تستمع إلينا...

- كيف تكون هذه أديغية؟ اسمها مارفوشا!.. ألم تر كيف رسمت الصليب قبل أن تبدأ بالطعام؟

- والله صحيح!.. كأنها صبية مسيحية من مَزْدَغ، لو وجدت لحم خنزير لأكلته وعيناها تلمعان فرحاً، وشفثاها.

سألها تريشكوف حين رآها تلتفت نحو جيرانها وتنصت إليهم:

¹ الحوار القادم بين الرجلين بلهجة القبرتاي.

- ماذا يقولون؟ هل تفهمين كلامهم؟

اكتفت أفس بنظرة عابسة ولم تجب.

واستعجل الأمير أميلاخفاري ناسياً أن أفس أديعية.

- كيف تفهم ماريا نيقولايفنا ما يقول هؤلاء! - ثم ابتسم وقد عاد إلى وعيه في وجه الصبية يقول لها: لا تؤاخذيني. - إن انتهيتما من الطعام فلنشكر الله ونصرف!

رسمت أفس الصليب بعد الطعام مفهمةً أميلاخفاري أن ما سمعته لم يعجبها وإن ابتسم في وجهها. ونهضت. واقتربت من الرجلين اللذين من قومها معتدة بنفسها، متباهية، وقلبها يتلوى الماء. ومهما احترمت نفسها، ومهما كان حزنها وكبرياؤها يحرقها، فإنها لم تستطع إلا أن تلقي عليهما نظرة أخيرة عند الباب. لم يتوقف الموكب في الطريق من بيتاغورسك إلى نالشيك في أي قرية أديعية، ولم يتكلموا إلى أحد. وتجاوزوا نالشيك وصاروا على طريق فلاديففكاس. وقضوا فيها ليلة قصيرة، وأخيراً وصلوا إلى تفليس.

لم تطل إقامة أميلاخفاري وصحبته في المدينة. قابلو خلال ثلاثة أيام من يجب أن يقابلوهم. وتعارفوا مع من يجب. وأروا أفس المدرسة الداخلية التي ستدرس فيها حين تعود إلى تفليس، والتي تشرف عليها مدام فافر بعد أن تقيم في قرية أميلاخفاري "تشالي" الواقعة في منطقة غوريسك قرابة شهر، وعرفوها إلى السيدة.

- هذا هو العنوان الذي سترسلون إليه يا نيقولاي - قالت أفس لتريشكوف وهي تودعه، وإعجابها بالمدرسة الداخلية ظاهر - بلغ سلامي إلى كل من في الجيش، كلهم، وبلغهم شوقي إليهم.

- أعذك بهذا يا ماشا. - قال تریشكوف وصوته يخونه مع الوداع. - ولكني أظن أننا سننهي الحرب قبل أن تجدي الوقت للمل، ونعود.

- مع السلامة يا نيقولاي، - لأول مرة مدّت أفس يدّها للشاب بحماسة. وحَدّثت في عينيه جهراً.

- مع السلامة،- انصرف نيقولاي تريشكوف، والتفت بسرعة إلى القطعة من قلبه التي يتركها وراءه: - سنكتب إليك!

التقت أفس وأنا ألكسندروفنا لأول مرة في قرية تشالي. كان أميلاخفاري يقلق عبثاً فقد تعانقت المرأتان كأههما صديقتان أزيلتان. وتلامستا بالحدود، وتبادلتا القبلات.

- أنا من تبنيّت ابنةً ولو لم أستطع حضور تعميدك يا بُنتي. - كانت أنا ألكسندروفنا تخاطب أفس وهي تضمها إلى صدرها. - صحّ تخميني لمظهرك ولشحتك.

- ألا تقولين كما كنت أكتب لك... - مازح أميلاخفاري زوجته.

- نعم يا فانو، - وافقت المرأة زوجها أيضاً. كنت تكتب لي، وأطلعتني على أفراح ماشا وأحزانها. ماشا بهيئتها وطبيعتها مثل بناتنا الكرجيات، أليس كذلك يا محترم؟

- نعم يا أنا ألكسندروفنا، نعم. - يبتسم لأفس وهو يهزّ رأسه. - ماشا، ماريا نيقولايفنا دُعجي - نيجيغودورسك تشبه فتياتنا الكرجيات. ولكن لا يمكن ادّعاء أنها لا تحمل شيئاً من صفات النسبَيْن اللذين تحملهما. لا تدعينا ننسى هذه الملاحظة أيضاً. - تظاهر بأنه يُنهي الحديث بمزحة وهو يعرف طبيعة الصبية التي جاء بها إلى بيته.

لم تكن أفس في وضع يسمح لها أن تردّ إلا أن تحتفظ في نفسها بما تسمع. والحق أنّ حياتها التي عاشتها تختلف جداً عن حياتها الجديدة. كانت مراجعة هذه الظاهرة، وإعادة التفكير بها، والاستماع إليها، تحتاج إلى كثير من الوقت. تفكر أفس: ما أشد الاختلاف بين المنطقة التي جاؤوا بي إليها عن بلاد

الأديغة! هذه أيضاً فيها الجبال والغابات والمضائق والأنهار، ولكنها تختلف عما لدينا. وكذلك سماؤهم وشمسهم ومطرهم. وصبياتهم وصبياتهم، ولو أنهم يشبهون من عندنا، فهم لا يعرفون الأديغة ولا الروسية. وأصواتهم وطريقة كلامهم وطبائعهم ولباسهم تشبه الأديغة ولكن لا أفهم ما يقولون لي. يقول فانو إننا أبناء القفقاس، يشبه بعضنا بعضاً، وسماؤنا سماؤهم، وشمسنا شمسهم، فلماذا يحاربوننا، نحن الأديغة، متحالفين مع أناس ليسوا من أرضنا، ولا من سمائنا؟ هنا يسود السلام، ولا تسمع أصوات بنادق أو مدافع. الناس هنا يضحكون، ويمرحون، ويغنون، ويرقصون! فانو غيفيتش وأنا ألكسندروفنا شخصان طيبان، يدللاني بقدر ما يستطيعان، بل يبالغان، ألم يكن الأفضل لو لم يكونا من قوم ماخاتازة، ولا يعادوننا؟ وتريشكوف عاد إلى الجيش قبل أكثر من أسبوع فهل كان طريقه سهلاً عليه يا ترى؟ هو شاهر سيفه دائماً بلا وعي. لا يلجمه احترامه لي أو لغيري... يقول القيصر إن عليهم إنهاء الحرب، ومع ذلك يحاربون الأديغة...

تناولت أفس الألبوم المحتوي على صور ضباط جيش نيجيغودورسك الذي أعطوها إياه حين تقرر نقلها إلى تفليس. تبدأ الصفحة الأولى بصورة القيصر ألكسندر الثاني. وصورة الأمير الكبير حاكم القفقاس بعدها. ثم تأتي صورة الجنرال غرابيه وصولاً إلى صورة تریشكوف. وكل منهم كتب لها بخطه بعض الكلمات. وأغلبها تتطابق معانيها. وليس اختلافها قليلاً. ولكنها جميعها كلمات جميلة تثير قلب الفتاة. ويصدف أن يكون بعضها أشعراً. وبعضها لا يعدو نسب صاحبها. وفي الألبوم عدة صور دون أي كتابات. ليس الموضوع ما تحتها كتابات وما لا تحتها شيء، بعضهم ضباط تراهم لأول مرة - تقول أفس - ربما هؤلاء ضباط حلوا محل القتلى. نيكونوف ووساتينك وبوبوروف وإيفشينك وكوزمينك، ومن قضوا في الحرب أكثر منهم بكثير... والأديغة؟..

من يستطيع إحصاءهم! يموت بحراب القيصر المسلحون والعزل فيهم... تغلق
أفيس الألبوم لا تتحمل المزيد، وتُبعده عنها.

سمعت أفيس فيما هي جالسة تتفكر ويدها تحت ذقنها صوت الأذان الصادر
من أعماق القلب فارتعشت، وشرعت تبحث حولها ناسية أين هي. هُرِعت
إلى النافذة متلهفة لمعرفة حقيقة ما تسمع. تَبَدَّدَ الصوت الذي هَيَّج القلب،
وليس ما تُطلّ عليه هو عالم الأديغة الذي كان أمام عينيها. تتشوّف من فوق
البساتين المسورة، والبيوت ذات الجدران الحجرية، والأزقة الضيقة، فتري
الكنيسة على ظهر التّبة. وتسمع ناقوسها الصباحي. وعلى عادتها ترسم
الصليب بسرعة وتبتعد عن النافذة. وينهض فيدور دانيلوفيتش وسط أفكارها.
وتتنهد من صدى كلماته الأخيرة وهو يلفظ الروح. تساءلت أفيس: لماذا صورة
فيدور غائبة عن الألبوم؟.. التقطته مسرعة وقلّبت صفحاته دون أن تتوقف
عند أصحاب الصور. توقفت عند صفحة الدكتور سيرغي بيتروفيتش. نظرت
مرة أخرى بعين الرضا إلى صورته وهي تتذكر حياتها معه قبل رحيل فيدور.
وانتصبت أمامها أنجيلينا بارامونوفنا ولو أن صورتها غائبة عن الألبوم، فابتسمت
لها ولان قلبها... لم يكن المرحوم فيدور يملك صورة لشخصه. ولم يكن في
موقف يسمح له بالتفكير في الأمر. البالايكا هي الوحيدة التي بقيت لي
ذكرى منه. ظل يعدّ بتصوير نفسه متى ذهب إلى مدينة نيقولايفسك حتى فارق
الحياة. كنت أرضى لو كان عندي صورة قبره... وعدتني أنجيلينا بارامونوفنا أن
ترسل لي صورتها، وإذا وصلتني فسأضمها إلى الألبوم على نحو أراها متى فتحت
الألبوم. نعم، سأضعها حتى قبل صورة القيصر نفسه. لو كان عندي صورة
فيدور لفعلت الشيء نفسه... مهلاً، مهلاً، ماذا كتب لي تريشكوف على
صورته؟: "من أجل اليوم الذي سنلتقي فيه من جديد" ماذا يريد أن يقول بهذه
الكلمات؟ كان اتخذ طريقه وهو يقول لي مثل هذه الكلمات. قلبت أفيس

صفحة تريشكوف وهي تبتسم دون أن تكشف صراحة عما تخمّنه...
دخلت أنا ألكسندروفنا إلى الغرفة بقوامها الممشوق ووجهها الطلق. ووقفت
كما فعلت صباح أمس مستغرّبةً ما ترى:

- ماشا يا بُنتي، صباح الخير، أراك استيقظت قبلنا كما فعلت البارحة.
- صباح الخير يا أنا ألكسندروفنا، - نخضت أفس لمن هي بمكانة أمها وهي
ترد على التحية. - هذا لأني اعتدت أن أفيق باكراً مع الجيش يا أنا
ألكسندروفنا. - كررت أفس بنعومة ما قالته أمس وأول من أمس، وفي الأيام
السابقة.

- نعم يا بُنتي، نعم. عودوك في الجيش على الاستيقاظ المبكر... من يُفيق في
بيتنا باكراً هم البوابون. أليكون ضجيج هؤلاء هو ما يوقظك يا بُنتي؟ - تغير
صوت أنا ألكسندروفنا بسرعة.

- لا يا أنا ألكسندروفنا، لا شيء يزعجني.
- لا بأس إذن. - ما تسمعه سيدة البيت يسرّها - في أسرتنا عادة محددة،
ولن أقبل من أحد أن ينقضها. ما سأترجأك من أجله يا بُنتي، وكنت أبلغتك
إياه قبل أيام: ناديني "ماما أنا" نحن لا أطفال عندنا، سيسرّي هذا النداء.
- في لغتك "ماما" يعني "بابي" - أجابت أفس كأنها كانت تنتظر هذا. ولم
يكن في نبرتها ما يمكن أن يحزنها.

- ما أسرع ما انتهت إلى هذا يا بُنتي! هل كنت تعرفين؟
- لا، - مرة أخرى بثّت أفس للمرأة، وعانقتها، - فهمت هذا من خلال
استماعي لبنات الجيران.

- لم تُخطئي، فهمت على نحوٍ صحيح. يُرضيني أن تناديني "مام" ريثما
تتعلمين لغتنا، لغة الكُرج.

- ألن يسخروا مني؟

- أنا مسؤولة، ليس أمام من يسخر منك، بل من يفكر في مشروع ابتسامة.

- وخالو فانو؟

- ناديه "باب"، يسره هذا. تعالي، ينتظروننا على مائدة الفطور. حين تسكنين

المدرسة الداخلية لتفليس ستفطرين وتتغدين وتتعثّنين وتنامين في مواعيد محددة.

- أليس نظاماً عسكرياً إذن؟

- نعم، ولكن لن يكون فيه صبيان. - حسمتُ أنا ألكسندروفنا، ولكنها

اختتمت بسرعة وهي تعيد التفكير في ما قالتة: - ما الأمر يا بُنتي، ربما مللت

من نظام الجيش!

- لا، ما اعتدتُ عليه أفضلُ لي. - كان جواب أفسس سريعاً، غير أن "ماما"

الكلمة التي كانت تنتظرها أنا ألكسندروفنا لم تخرج من فمها.

XXVIII

مضى على إقامة أفسس في المدرسة الداخلية الأنيقة لمدام فافر أكثر من نصف

سنة. وطوال هذه المدة لم يمرّ أسبوع لم تزرها فيه أنا ألكسندروفنا. ومن جهة

ضباط جيش نيجيغودورسك لم يكن يمضي يوم لا تردُّ فيه رسالة منهم.

والمسؤول الكبير حاكم القفقاس لم يهمل الفتاة اليتيمة كما تعهّد. كان يرسل

من يسأل عنها مرة أو اثنتين في الشهر. لم تكن الدنيا تسعُ أفسس من الفرح

حين يزورها أحد ضباط الجيش إلى تفليس.

مهما كانت أفسس تتمتع بالحب، ومن جميع الجهات، لم تكن مدام فافر راضية

عنها. ولم يكن السببُ أنها نقضت نظام المدرسة الداخلية بأن تُقصرَ في

الدراسة أو لا تعتادَ على تقاليدها، أو تقلِّلَ أدها. لا تندمج في زميلاتها بقامتها

الرشيقة وانبهاها وإنسانيتهها، بل تتميزُ منهم.

في أحد الأيام قالت مدام فافر لأنا ألكسندروفنا:

- تفضلي إلى مكثي بعد أن تقابلي ماشا نيجيغودورسك.

لا تعرف أنا الكسندروفنا تفسيراً للنبرة الباردة لمدام فافر. تابعت ربة الأسرة واجمة المرأة الطويلة النحيفة السمراء المنصرفة، وإن كانت أنا الكسندروفنا تتمتع برباطة جأش، متسائلة عما ستخبرها به، ووقعت في قلق صاخب. لم أر في ماشا خلال الأسبوع الماضي، ولا سابقه ما يسوء. ماذا ستقول لي يا تُرى؟ ثم بأيّ كلمات حاسمة كلمتني! أأكون ماشا ارتكبت عملاً شائناً ما؟.. أعرف مدام فافر منذ زمن طويل، لا اليوم. أعرفها رشيقة القامة منتصبه الرأس. وإن لم تكن تعرفها حُبل إليك أن الابتسامه لا تعرف الطريق إلى وجهها، وأن جهامتها تُوقع الرعب في القلب. غير أنها تحب الأطفال، وهم يحبونها. ليت عندي ابنة مثل ماشا تربيها لي! نعيش أنا وفانو معاً منذ أكثر من خمس سنوات، ولم تُرزق بولد. افهمنا يا ربّ وارحمنا! رفق قلب ماشا الصبية القوية نحونا كما أدعو إليك دائماً. ماذا ستقول لي المربية يا تُرى؟ ما يُفرحني أم ما يحزني؟

حين تُلمح للإنسان بكلمة مواربة مفاجئة، ولو كان يحيا في هذه الدنيا الثقيلة بصدق وعدالة، تهب فيه ما لا يخطر على البال البتة من هواجس إلى أن تُوضح له الحقيقة. وسواء كان السؤال متعلقاً به أم بشخص قريب منه فلا سئله التي لا جواب لها تثير فيه اليأس بلا حدود.

وهذا بالتحديد ما يحدث لزوجة أميلاخفاري. ماذا ستقول لها مدام فافر؟ تأتي أجرة تربية ماشا وتعليمها، وثمان ملابسها، وتكلفة كتبها شهرياً من جيش نيجنيغودورسك. ولا يكفي الجيش بنفقات الصبية بل يمد يد العون إلى المدرسة الداخلية كلها. تقول أنا الكسندروفنا لنفسها: أأكون ماشا ترتكب أخطاء دون علمنا؟ ما يُدريك بما يمكن أن يصدر من صبية لا تعرفها إلا منذ نصف سنة؟ ولكن هذا الزمن ليس قصيراً فلا تكتشف بعض طبائع الإنسان. لا أعرف ما الذي يمكن اكتشافه في ماشا من العيوب إلا إن قلت إنها مفرطة

في الذكاء والفطنة: صادقة وصریحة وبریئة وكریمة وشفوق... وإن اتهمتھا بالعناد فلا أكتف أن فیھا شیئاً من هذا. - لا تتزحزح عن صدقھا. ولكن لا يمكن اعتبار هذا عیباً فی أي إنسان. رُبیت بضع سنوات فی الجيش ولكن هذا لا یعني أنھا لا تحترم نفسها، ولم تنس وضعھا كامرأة. وكل من أعزفھا بما یلاحظ، أول ما یلاحظ، وضوحھا وهدوءھا واعتدادھا بشخصھا، وبستغرب خروجھا من الجيش بهذه الأخلاق... ماذا إذن ستخبرني مدام فافر التي ترمقك من تحت نظارتھا الكبیرة؟ أنكون مدّت یدھا إلى شیء!.. من یعرف طباع الأدیعة؟.. لماذا تتهمهم بما ليس فیهم؟ يتحلّون بالرجولة والإنسانية، یستقبلون ضیوفهم ببشاشة. لم أسمع أحداً یأتی على سیرتھم بالسوء إلا أن یقال إنھم یحترمون أنفسهم أمام الجميع. حرام أن تظن الظنون بأي إنسان كائناً من كان.

رأت أنا ألكسندروفنا أفس من بعید. - تجلس وحدها تحت شجرة فی حین تغلي زمیلاتھا بالحیوة. عیناها نحو الجبل بما یوحی بأنھا تنوء بأفكارھا المشتتة مثل المرتفع الأجرد الذي تسرح عیناها فیھ حتى نسیّت إن كان فی العالم مدرسة داخلية. قلبھا وروحھا وذكریاتھا وأفراحھا وأحزانھا تحیم على إقليم الأدیعة المقابل لھا. ترى الآن بوضوح، ربما بسبب ما آلت إلیه بلادھا البعیدة، ما لم تكن تشعر به حین كانت أسیرة، وتقیّمه تبعاً لما تحس به فی داخلھا. وكلما تعمقت فی التفكير تعمقت جراحھا، فیخیل إلیھا أنھا رُمیت فی واد سحیق لن تستطيع أبداً الخروج منه. تقول لنفسھا: ما أسعد هذه الغیوم البیضاء! إنھا تزحف إلى بلادنا... فی أي جهة یعیش الأدیعة؟ كانت الشمس تشرق فیھا كما تشرق هنا. وقبل أن تشرق، وظهراً وعصراً، وفی المغرب والعشاء كانت تصدر منها أصوات المؤذنین... وكانت غاباتنا ملأی بالإنجاص الأصفر الناضج... أتذكرین - تخاطب نفسها - کیف كنا نجمعھا أنا وأبی وأمی؟..

والفارسی المجرم الذي اقتحم الغابة؟!

خرجت أفس من دوامة أفكارها ورفعت الرأس بسرعة. وألقت نظرة على الفتيات الكرجيات اللواتي يضجُّ بهنَّ المكان. ثم أدارت رأسها لا تطيقهنَّ. وانتصب أمام عينيها أبوها وأمها كما رأتهما آخر مرة، وجثمان العجوز فيدور وقبره. وتذكرت أزهار تريشكوف... لم تكن تُطبق ضوضاء الصبايا الكرجيات ولكن - قالت - ما ذنبهنَّ؟ الآن الضابط ماخاتازه من قومهنَّ؟ وهل هو الوحيد؟ بل أليس منهم من قتل أمي وأبي والأديغة الآخرين، ولا يزال يقتلهم، ويسلبونهم أرضهم، من تريشكوف والجنرال غرايه والأمير أميلاخفاري والطبيب سيرغي بيتروفيتش والجندي لينوك؟! وفوق كل هؤلاء القيصر الذي أرسلني إلى هنا بداعي الإحسان إليَّ... من الذي قتل المرحوم فيدور؟ ولماذا قتلوه؟.. والجنود الذين يشاركونه المقبرة؟ وحين أتانا الأديغة يستلمون جثامين قتلاهم؟ وهؤلاء كانوا يحبون الحياة، ومحسون بالألم... هذا ما كانت قائلته أنجيلينا بارامونوفنا. يا خالة أنجيلينا لم تصلني رسالة منك إلا مرة واحدة فأين أنت؟ دغك من الطبيب سيرغي بيتروفيتش الذي نسيني، يكفي بإرسال تحياته أحياناً مع نيقولا تريشكوف... ليتك تعرفين يا خالة لينا أني مشتاقة إليك وإلى الأديغة وإلى كلِّ من كان في جيشنا، جميعهم، جميعهم! ليس لأنهم يعاملونني هنا معاملة سيئة... يعلمونني هنا الفرنسية والكرجية... ولكن لا يتعلمون لغة الأديغة، أتذكركين أنت والمسكين فيدور كنتما تنصحانني ألا أنسى لغتي. وبين معلمي المدرسة الداخلية من لا يود سماع ما بقي لي من اسمي الأديغي "دغجي"، ومدام فافر ليست أحسن منهم. تناديني "نيجنيغودورسكايا". لماذا تُسقط نسبي الحقيقي من اسمي؟ لا أظن أنك تلقيت إلى الآن ما كتبْتُ لك؛ كتبت فيها كل هذه المعلومات والأسئلة. تعالي وأخرجيني من بين هؤلاء، لا أتحمل المزيد من الوقت معهم... تعاملني زوجة الأمير أميلاخفاري معاملة حسنة ولكنها تدير رأسها حين تسمعي آتي على ذكر الأديغة الذين أنا

منهم... لا أفهم ما يريد هؤلاء. ربما يظنون أنني، وقد فرضوا عليّ دينهم، صرْتُ
روسية حقيقية... كيف أصبح واحدة منهم وقد صُفوني إليهم قبل أن أنسى
أصلي؟ اغفر لي يا إلهي... ترسم أفسس الصليب، وتبتهل إلى الله...

...

- ماشا، ألا تسمعينني؟ - نادَتْ أَنَا ألكسندروفا مرة أخرى مستغربة عدم
إجابة أفسس، وقلقة: - سمع من في الشارع ندائي يا بُنتي!

- يا أَنَا ألكسندروفا، - هَبَّتْ أفسس واقفة، واستقبلت دون عجلة أَنَا
ألكسندروفا دون أن تناديها "ماما"، - ما أجمل ما لبست! ظلت بنات
المدرسة الداخلية يتكلمن أسبوعاً كاملاً على أناقتك، والآن مرة أخرى...

- وهل أنا جميلة كما تصفينني؟ - ضَمَّتْ أَنَا ألكسندروفا أفسس إليها، وقَبِلَتْ
وجنتيها، مسرورة لوصفها بالجمال، غير مرتاحة لطريقة استقبالها لها، ثم سألتها
وهي تتفحصها: - ما أشدَّ شحوبك! هل أنت متوعكة؟

- لا، - لم تكشف أفسس عما يقلقها.

- لست من هؤلاء المرحات! - قالت زوجة أميلاخفاري بعد قليل واستياؤها
بادٍ وغير بادٍ، - تجلسين وحدك... لا تكتمي ما يُزعجك؛ صارحيني!
- لا شيء يزعجني.

- في الأحد الماضي كنت جالسة في هذا المكان نفسه. ولم تكن عينك، كما
اليوم، تفارقان الجبل. قولي لي يا بُنتي، لا تخفي عني شيئاً!
لا أخفي عنك شيئاً... - لان صوت أفسس، وفقد حزمه.

- لماذا إذن طلبت مني مدام فافر أن أقابلها؟

- متى قالت لك؟ - سألت أفسس وهي تتفحص وجه أَنَا ألكسندروفا بعدما
نصّت برأسها وكأنها تبحث عن من يساندها، ثم خفضت نظراتها بسرعة.

- قبل قليل، وأنا أدخل المدرسة الداخلية... إن صدر عنك ما يعيب فلا

تكتميني يا بُنتي. سأصلح الوضع دون أن يدري أحد.

- يا أُنَا ألكسندروفنا! - قالت وهي تلقي عليها نظرات حزينة وذكية - لم أعد صغيرة فأرتكب ما لا يجوز.

- أعرف يا بُنتي، أنك لستِ صغيرة، أعرف... ولكن ارتكاب الخطأ لا يتعلق بكبير أو صغير.

- أنا أدرس جيداً، وأنقذ الأوامر، وأتحلى بالأدب، وأرتب فراشي... - ارتحف صوت أفس دون أن يحمل معنى الخبث. - ولكن لي عتياً على مدام فافر، وعلى بضعة معلمين...

- ماذا؟ - تلهّفت أنا ألكسندروفنا، - هل يتحاملون عليك.

- لا...

- ماذا إذن؟

- يُسقطون من نسبي "دعُجي"... - اقتربت أفس من زوجة الأمير، وعانقتها بخفة فاهمرت دموعها.

- لا تبكي يا بُنتي، لا تبكي! - تمسح أنا ألكسندروفنا وجه أفس وشعرها. وتحفف لها دموعها. - لن أسمح لهم أن يفعلوا هذا. كان عليك أن تقولي هذا منذ زمن، لا أن تحصره في صدرك. منذ متى بدؤوا يفعلون هذا؟

- منذ اليوم الأول لي في المدرسة الداخلية... - يبدأ قلب أفس يعود إلى حاله، ربما لأنها وجدت سنداً وفرجت عن همها. وتُحسّ بدفء المرأة. ويرقّ قوام الصبية المتين في حضن الأنثى. ثم تسأل: - في أي جهة يعيش الأديغة يا أُنَا ألكسندروفنا؟.. - أفي الشرق أم في الغرب؟

ارتحفت السيدة من السؤال المفاجئ، ولكنها أخفت انفعالها. ونظرت إلى المرتفع الذي كانت أفس تنظر نحوه تريد ألا تبقى الصبية بلا جواب وإن لم تكن تعرف حقاً أين يعيشون، ومَرّت أمام خيالها قرية تشالي. وفيما هي غارقة

في أفكارها انتصب أمامها زوجها أميلاخفاري. وتذكرت ما أخبرها به عن الصبية: ذكاءها، وحساسيتها، وهشاشة مشاعرها، وتصلبها في ما يتعلق بأصولها. قالت: ومن أين يأتي المرء بأطيب من أصوله؟! وأنا ألاحظ عليها هذه الصفات منذ اليوم الأول، ولكن أكنتم معرفتي. يا حسرتي ماذا بيدي أقدمه لك في موضوع قومك! كان الأفضل أن تندجي في من تعيشين معهم، وهم لا يقصرون معك في شيء، ويقدمون إليك أقصى ما لديهم، من أن تُفني نفسك عبثاً في هذه الأفكار. هؤلاء الذين تهتمين لأجلهم لم يعودوا قادرين على تقديم شيء لك، لا همّ لهم إلا النجاة بأرواحهم. الحرب تنتهي، وهم يهجرون أرضهم...

- الأديفة الذين سألت عنهم يا ماشا في تلك الجهة إن لم أخطئ. - أشارت أنا ألكسندروفنا اعتباطاً إلى جهة ما.

- أعلى هذه المسافة القريبة؟ سألت أفسس والطريق الذي سلكوه في العام الماضي ما يزال يجري أمام عينيها. كانت سعيدة بما تسمع رغم معرفتها بعدم صحته.

- لا، ليست بهذا القرب. - استعجلت السيدة نادمة على ما قالت. - على مسافة عدة أيام وراء الجبل. ليست هذه مشكلة، انظري إلى الكتاب الذي جئتك به، فيه قصص روسية عجيبة. انظري، وفيه صور عجيبة!

قلّبت أفسس الكتاب عدة مرات متعجبة مما فيه، ولم تترك صورة أو صفحة تغيب عنها. وحين وصلت إلى الصفحة الأخيرة وهي تقول "قرأت هذه" و "تلك قرأتها" أغلقته وجلست مدة ثم تنهدت:

- كتاب جيد، ولكن ليس فيه قصص أديفية.

- إن كان هذا ما تريدن - أسرعت السيدة بالقول، - ولا قصصنا أيضاً فيه.

- ألا تفهمين يا أنا ألكسندروفنا، - يبدو من لون أفسس ومن صوتها استغرابها

لما تسمع، - أنا أتحدث عن قصص أديغة.

- نعم يا بُنتي، - تراجعت السيدة بسرعة، - وأنا يحزني غياب قصصكم عنه... - إن كان هناك مثلُ هذا الكتاب فسأبحث لك عنه بجِدٍّ... - في تفليس تصدر مجلات وجرائد فيها أخبار الأديغة. ولكنها قالت في نفسها: هذه ما لا يجوز البتة أن تطلّع عليها الصبية، بل أن تخطر لها. ترافقت أنا ألكسندروفنا وأفيس في فناء المدرسة الداخلية تتحدثان حتى حان موعد الغداء.

وحين نهضت السيدة قالت للصبية:

- لا تجبسي نفسك في الغرفة بعد الغداء. وحين تخرجين لا تجلسي واجمة. العبي مع أترابك. اعبي ما تشائين ولكن لا تفكري في ما يصدع رأسك. - لا، لن أكون شقية، - عانقت أفيس أنا ألكسندروفنا بنعومة واستمتاع، - ولكن أعدك ألا أحبس نفسي في الغرفة.

- نعم، يا ماشاء، نعم. لا تفكري في ما يشغل بالك. الحرب تكاد تنتهي. وجيش نيجيغورودسك إن شاء الله... - ترسم ألكسندروفنا الصليب - وحينها تعرف أفيس أن أميلاخفاري وتريشكوف سيعودان بسرعة إلى تفليس. حين يسود السلام بين الناس سنرتاح نحن أيضاً. أنتِ ما تزالين في مقتبل العمر. ادرسي جيداً، وتحلّي بالأخلاق الحسنة. وكما كان المرحوم والدي يقول لي: العالم ينتصب أمامك في هذه المرحلة من عمرك بأشكال وألوان متنوعة... - كان فيدور دانيلوفيتش - أدعو له بالخير حيث رحل - قال لي مثل هذا. تنهدت أفيس عميقاً ورسمت الصليب.

- نعم يا بُنتي، نعم. - ترسم السيدة الصليب أيضاً، - قيل إنه كان رجلاً صالحاً.

- كان موقف فيدور من الأديغة ودوداً...

- نعم يا بُنتي، جهدت أنا ألكسندروفنا كي لا تفتح أفسس موضوع الأديغة، - لا يجوز نسيان فضل الإنسان الصالح. أنا عليّ أن أقابل مدام فافر... وسأتي في الأسبوع القادم.

- نسيثُ يا أنا ألكسندروفنا الرسائل - تذكرت أفسس رسائلها التي في الغرفة، - أرجو أن تضعيها سريعاً في البريد.

تابعت السيدة أميلاخفاري أفسس الحريصة رغم استعجالها على قوامها الرشيق واعتدادها بنفسها. كانت معجبة بما ترى مشبهةً من تراها بنفسها، ولكن لم تستطع إلا استغراب طبائعها. هذه التي تمشي هذه المشية وتتألق فيها أظنها سليلة أمراء، لا سليلة فلاحين. رأسها، عنقها، يداها، رجلاها... فطنتها، نظرتها، طريقة كلامها... لو كنت تعرف ما سيحدث غداً لكانت صارت سعيدة بين الناس الذين تعيش بينهم بدلاً من أن ترهق نفسها بدون فائدة من أجل قوميتها. أنا، إن لم يتحقق لي هذا في سنوات عمري الثلاثين فهذه التي أمامي ما إن تتخذ شكل امرأة حتى تجد الحظ الجميل والعالم كله بانتظارها. لم تغب أفسس طويلاً. جاءت بخمس رسائل.

- ماشا، ماريا نيقولايفنا، إلى من كل هذه الرسائل؟- تستغرب أنا الكسندروفنا الرسائل المطوية في مربعات. وتسألها بنوع من الخبث: هل يمكن أن أعرف أنساب الذين تكتبين إليهم؟

- اقرئيها، لا سرَّ فيها!

- الجنرال غرايه، الأمير أميلاخفاري، أعرفهما - تقرأ أنا ألكسندروفنا العناوين واحداً واحداً. - والطبيب بلوتالوف سمعتُ باسمه، و "بلوتالوفا. أ. ب. إلى ستافروبول" من هي؟

- هذه أنجيلينا بارامونوفنا، - أجابت أفسس بسرعة، - زوجة الدكتور سيرغي بيتروفيتش بلوتالوف. هي الخالة لينا.

- نعم، كنت ذكرته لي مرة... والأخرى؟ تكتبين إلى نيقولا تريشكوف.

- لا أكتب له، بل أجيّب على رسالته.

- حسناً تفعلين! لا تتخذي بأمثال تريشكوف بحجة أنهم يكتبون إليك. ليس هؤلاء ممن سيجلبون لك الحظ السعيد... وحين يناديك سرُّ قلب الفتاة لن تحتاجي أيضاً إلى من تسمّينها "خالة لنا". ثقي بي أنا، لن أدعك تخطئين... احمرّ وجه أفسس الشاحب، ولم تُجر جواباً.

...

قالت مدام فافر لأنّا ألكسندروفنا دون أي مسحة بشاشة على وجهها:

- أود أن أقول لك بضع كلمات في شأن ريبيتكم نيجيغودورسك ماريا.

- أسمعك يا مدام فافر، - قالت زوجة الأمير أميلاخفاري وقامتها ممشوقة. وأضافت دون أن تنسى شكوى أفسس: - ولكنك تُسقطين من نسب ماريا نيقولايفنا اسم "دُعجي".

- وستنكلم في هذا أيضاً.

- أسمعك يا مدام فافر، - كررت أنا ألكسندروفنا دون أن تتصاغر أو تبخس من شأن نفسها. كان بوّدها أن تضيف إلى "ريبيتكم": ليست ريبيتنا وحدنا بل ربيبة جيش نيجيغودورسك، ولكنها تراجعت حتى لا تبدأ الجلسة بالمناكدة. - ساجيني إن قاطعتك.

- ماريا نيجيغودورسك، - مرة أخرى وضعت مدام فافر النبرة على اسمها الروسي، لا أتكلم عليها بسوء، صبية مهذبة تحترم نفسها. وفطنتها تصل إلى موضوعات كثيرة أكبر من عمرها. وتتفوق جداً في دراستها وتربيتها على طالبات المدرسة الداخلية. أنا لا أعرف الكثير عن قومها الأديغة، ولكن من الصعب أن تنسبها إليهم حسب ما أسمع.

- ساجيني يا مدام فافر، - تقاطع أنّا الكسندروفنا كلام المرأة المتعجرفة التي

يضيع وجهها المتطاوّل تحت نظارتها الكبيرة. - لا يجوز أن تسمع ماريا نيقولايفنا هذا الكلام!

- هذا هو الموضوع الذي كنت أود مكالمتك من أجله بخصوص ماريا نيجيغودورسك. - وأضافت إلى كلامها بنبرة أقوى - ليست ماريا نيجيغودورسك صبية عادية. لا تُكثِّروا من محادثتها عن قومها. لا تُضَيِّعوا معروف من وقعت بينهم. وأنا أكّدت على طالبات المدرسة الداخلية ومعلميها والعاملين فيها هذا الموضوع.

- ربما كان هذا هو السبب في أن زميلاتها في الدراسة يبنذنها. - لا تغيّر أنا الكسندروفنا كلامها، - كلما جئت وجدتها في ركن بعيد منعزلة عن بقية الفتيات.

- هل تدنيننا بما هو من طبيعة ماريا نيجيغودورسك؟ - أضافت مدام فافر بصوت ألطف، ونظارتها تلمع، ولكن من دون ودّ: - لا تضَيِّع كونها من الأديغة المتمردين... لم أكن أريد أن أصارحك ولكن لا أستطيع إخفاء الأمر. نصادفها أنا وعمالي كثيراً تكلم نفسها بلغتها كمن يهذي. وهذا يُحْيِي.

- مدام فافر!

- نحن نرَبِّي ماشا نيجيغودورسك يا زوجة الأمير!.. لماذا تعتبن عليّ إن أطلعتك على حقيقة الصبية التي ليس في ذهنها إلا الجبال؟ لا أريد أن يتهموني إن حدث لها شيء!

- لست وحدي من لن يُرضيه ما تقولينه بحقّ دُعْجي - نيجيغودورسك ماريا نيقولايفنا. جيش نيجيغودورسك بكامله لن يسره ما تقولين! مرة أخرى لم تتراجع زوجة الأمير عن موقفها مصرّة على نسبة "دُعْجي"، وفكرت: ماذا بإمكانني أن أفعل؟ كيف ننتزع من هذه الصبية العنيدة قلبها الأديغي. ألا ترينها تُحدِّث نفسها خائفة أن تنسى لغتها. اقتنعي يا بُنتي الحلوة أن من وقعت بينهم

ليسوا محتاجين إلى لغتك وقلبك الأديغيين، ولا أنت محتاجة إليهما. إن اندمجت في مجتمعك الجديد فستعيشين لا تحتاجين إلى شيء. ثم حسمت أنا الكسندروفنا الموضوع دون أن تكشف ما في قلبها: - إن كنتم ستعاملون ماريا يقولوا فينا هكذا فسأخرجها من المدرسة الداخلية.

- إن كنت أنت من يدفع تكاليف المدرسة الداخلية أمكنك إخراجها. - نظرت مدام فافر باسمه إلى زوجة الأمير وهي تصلح بإصبعها وضع نظارتها الضخمة. - ولكن أظن أن عليك أن تستأذني في هذا جيش نيجيغودورسك... دعينا نتفق قبل أن نصل إلى هذا يا أنا الكسندروفنا التي أكن لها الاحترام. ولا تظني أن موقفي من ماريا نيجيغودورسك كما تتخيلين. وأنا امرأة مثلك. ولا أستطيع إلا أن أحب الصبية اللبية وأشفق عليها مهما كان أصلها. وكما قلت لك فهي متميزة من أترابها، وتفوقهن بفطنتها. لو كنت مكانك، صدّقيني، وليس في كلامي أي سوء نية، لعلمتها في معهد الأم نينا.

- هل تلمّحين بهذا إلى أنكم تريدون التخلص من الصبية التي لا تُعجبكم طابعها؟ - سألت السيدة أميلاخفاري دون أن تُبين غضبها.

- ليس في كلامي سوء نية يا زوجة الأمير! - تورّدت وجنتا مدام فافر بالحنجل. أحبّ الفتيات اللواتي يغلب عليهن الذكاء والأدب. ليس في قلبي نحو ماشا إلا الخير. ستفقد مع طالبات المعهد أكثر من طالباتنا. وستفتّح علمها وحظها هناك.

- إن كان هذا رأيك... - هدأت أنا الكسندروفنا - فسأستشير زوجي في الموضوع.

- لن نخطئ إن فعلنا هكذا. وأنا سأراسل الجنرال غرابيه، وسأفهمه الموضوع. وأما مسألة نسبتها " دُعجي " فهناك إن كنا ستبادل الثقة من يمنع من استعمالها.

- من في تفليس لا يستطيع أن يسمع هذا الاسم؟ - سألت السيدة بجدّة.
- لا تتكلمي في الموضوع... - قالت مدام فافر. - هذا من أوامر حاكم القفقاس، الأمير الكبير!

XXIX

اليوم هو اليوم الكبير للمعهد الحامل اسم أمة الله نينا، والذي يربي الفتيات المعزلات على الإنسانية والأدب، والذي تدرس فيه أفس دُعجي - نيجيغودورسك ماريا نيقولايفنا. ليس قدوم العام الجديد 1864 السبب الوحيد لتصاعد فرح الفتيات اليافعات، بل أضيفت إليه زيارة حاكم القفقاس ميخائيل نيقولايفيتش رومانوف. صحيح أن فكرة السهرة الكبرى سببها هو الحاكم الكبير، ولكن مرافقة عدد من الضباط له هي ما نشر السعادة بين الفتيات، وأقلق الأمهات. والشباب غير العسكريين كانت عواطفهم تتقاذفهم.

إن توجهت إلى الأمهات فأميلاخفاري أنا الكسندروفنا ولو أنها لم تلد أفس، ولا تخاطبها "ماما" فهي كغيرها يغمرها الفرح. وليلة رأس السنة كما هي العادة دائماً، لا تقضيها في قريتها تشالي بل في تفليس. وهي لم تستأجر شقة لأنها لا تملك مكاناً تقيم فيه. أعادت بعد إرسال أفس إليها افتتاح قصرها في تفليس شيئاً فشيئاً. وقد فعلت هذا بعدما أخرجت أفس من المدرسة الداخلية لمدام فافر وألحقتها في العام الماضي بمعهد أمة الله نينا.

كان مع السيدة أميلاخفاري بعض بواي بيتها في القرية، وبعض مرافقيها وخدمها وطباخيها. ومن يعمل كل هؤلاء لإسعادها، وينشغلون من أجلها، ويقلقون، ليست السيدة أميلاخفاري فحسب. بل دُعجي - نيجيغودورسك ماريا نيقولايفنا أيضاً. بل يمكن أن يكون الجميع دون استثناء يعملون في خدمة الصبية أفس. ثم إن أفس تعود في الأسبوع يوماً واحداً فقط إلى البيت، والأيام الستة الأخرى تقضيها في المعهد. وبعد انتهاء الدوام لا يمر يوم دون تفقدها في

ومع أن أفس كانت تدرس في المعهد أفضل مما تدرس في المدرسة الداخلية لمدام فافر فإن أفس، ماريا نيقولايفنا، لم تحقق ما تصبو إليه السيدة أميلاخفاري. لم ينقص صمئها وعزلتها إن لم يزيدا. وحين تنتهي من الدوام المدرسي وتفارق الصبايا تحبس نفسها في غرفتها الصغيرة، وتقيم فيها وحيدة لا أحد يزورها. وحين تنتهي من دراستها تلازم طاولتها إلى حلول الظلام تتصارع أفكارها. وغالباً ما تقضي وقتها جالسة إلى النافذة، وذقنها بين راحتيها، وعيناها نحو جبال الأديغة.

تجلس أفس غير عابئة باقتراب حفلة المعهد. وفي حضنها الألبوم الذي قدمه إليها ضباط جيش نيجيغودورسك. ومع أن نيقولاي تريشكوف يُطلّ من الألبوم فإنه غائب عن عيني أفس. الجو جميل، والثلج ناعم، وأشعة الشمس الصاعدة تلعب فوق الثلج ولكن أفكار أفس بعيدة، ثقيلة، متماوجة. أياكون الثلج سقط في بلادنا كما هنا؟ ونحن أيضاً ثلجنا ناعم، أبيض، يستقر على أغصان الأشجار، وفوق الأعمدة، وعلى ضفاف الأنهار... وغمر قبر فيدور... حين خطر فيدور دانيلوفيتش لأفس أغلقت الألبوم المحتوي على صورة تريشكوف بعنف. وارتسم أمام عينيها محاولتها هي والعجوز العبور إلى بلاد الأديغة. الفرسان يلحقون بهما، وتدوي طلقات البنادق. ولو أنهم لم يطلقوا النار فيقتلوا المسكين فيدور لما كنتُ هنا، بل مع قومي إن كانوا صالحين أم طالحين... ما كان أطيب الإحساس الذي أكلته في تلك الغابة مع أمي وأبي! إيه يا تات ويا نان لو عرفتُما ما حلّ بي! من أين أستعيدكما يا حسرتي! وأنت أيضاً يا فيدور، كلما كلمتني بالأديغة كنت تقول لي "أينما كنت، ولو في أبعد مكان، ومهما عززوك واحترموك، فلا تنسي أصلك، احتفظي به في قلبك" كيف أنسى أبناء قومي؟ كيف أنزعهم من قلبي... يفرح من أعيش معهم

قائلين "الحرب تمضي إلى نهايتها، والأديغة يُطردون إلى تركيا، ولا يتركوا أحداً منهم في بلاده" يلمحون لي "أنت لا تفرحين بنهاية الحرب ولا تنسين أبناء قومك" ما يُدريككم بما يعتمل في قلبي؟ كيف ستفهمون وأنتم لا تملكون قلوباً أديغة. افهمني واغفر لي يا إلهي، تنظر أفسس جهة صورة الإله في زاوية الغرفة. وترسم الصليب، إلى مَنْ غيرك أفضي له بهمي وحزني؟ كل من حولي، وبينهم أنا ألكسندروفنا الوحيدة التي أعلّق أُملي بها، أهواؤهم إلى جهة واحدة. "إن كنتِ صرت منا فانسي ماضيكَ البتة وافرحي بأنك روسية!" ولكن قلبي لا يحدثني بهذا. أنا يستوي عندي الجانبان. وما لأفهمه هو ماذا سيكون مصري إن أجبروا الأديغة فطردهم إلى تركيا؟ جبالنا، غاباتنا، أنهارنا، سماءنا، شمسنا، قرانا الغالية...

انفجرت أفسس باكية. ثم قفزت من مكانها، تجاوزت الثوب الأبيض الخفيف الذي سترتيه في احتفال اليوم وارتمت في الفراش. وبعدما بكت مدة ووجهها على الوسادة، غفت دون أن تعرف كيف. أيقظ الطرُق على الباب أفسس.

- ماشا، ماريا نيقولايفنا، - لم تفهم السيدة أميلاخفاري للوهلة الأولى ما جرى، وإن لم تكن ترى هيئة أفسس للمرة الأولى. - أنسيّت أن احتفالاً سيجري هذا المساء؟

- لا، لم أنس.

- ماذا إذن؟ هل أنت متوقعة؟

- لا، لست متوقعة.

- هل أزعجك أحد؟ ما أشدّ شحوبك!

- لا، لا أحد أزعجني يا أنا ألكسندروفنا.

- أنت مكتئبة... تعالي إليّ، - تضم أنا ألكسندروفنا أفسس إليها وتربت على

ظهرها. — لا أعرف ماذا يجري لك يا بُنتي، تدعين الأفكار تفنيك. أنت دائماً مكتئبة، حزينة.

بكت أفس حين أحسّت بعناق المرأة الدافئ. وقالت بعدما بكت على كتف السيدة أميلاخفاري:

— سايحيني يا أنا ألكسندروفنا، لا رغبة لي في الذهاب إلى الاحتفال.

— أنا سأسمح بك سرور يا ماشا، ولكن طاويعيني في هذه المرة فحسب:
الأمير الكبير حاكم القفقاس كلها سيأتي إلى الحفلة.

— ليأت إن شاء!

— لا تقولي هذا يا بُنتي! أضيف إلى كلامي إذن: هو آتٍ إلى الاحتفال كُرمي لك!

— ومن أنا حتى يأتي إلى الحفلة من أجلي؟ — سألت أفس وهي على موقفها، وليس في صوتها أي مودة.

قابلت السيدة أفس بكلام قاطع وكأنها تدرّبت في الجيش:

— ألسيت ربيبة الفوج الرابع والأربعين من جيش نيجيغودورسك؟

— نعم ربيبتة، — أجابت أفس بسرعة دون أن تعرف سبب السؤال.

— وحاكم القفقاس واحد من جيشك. — أضافت باختصار كأنها كانت تنتظر من أفس جوابها.

— كيف؟ — استغربت أفس ما سمعت، وأجابت على السؤال بسؤال: — وكيف يكون من لم أراه في الجيش واحداً منه؟

— بعدما جئت إلى تفليس قبل الحاكم الأول للقفقاس عضواً في هذا الجيش.

— ليقبلوه إن شأؤوا على ألا يحارب... — قالت أفس ما كان يشغل بالها وإن تظاهرت بعدم الاهتمام، وشهد عليها تنهؤها.

أتوسل إليك يا بُنتي أن تلي لي هذا الطلب. لم يبق على بدء الاحتفال غيرُ

ساعة. اجلسي إلى المرأة وتريّني. وسأضفر لك شعرك كما أفعل عادة. وثوبك يناسبك جداً.

- وأنا عندي أيضاً رجاء إذن يا أنا ألكسندروفنا... لا تتركيني وحدي حين نذهب إلى الاحتفال.

- لا تفكري في مثل هذا يا ماشا! أين أذهب تاركة إياك في الحفلة؟ لكن إن طلب منك أحد الضباط مراقبتك فلا تخذليني. أنا واثقة أن الجميع يرغبون في الرقص معك ولذا تحلّي باللباقة والتهديب ولو لم يعجبك. أيّ إنسان سيأخذ فكرة عنك حسب ما تتصرفين. لا تنسي هذه التوصية في أول احتفال تحضرينه.

الحفلة المسائية في ذروتها. القصر الأبيض الكبير يتوهّج بالشرائط، وجدرانها مطلية بالذهب والفضة، والأعمدة الأسطوانية المصبوبة، والأرضية المؤلفة من قطع خشبية صغيرة لماعة، ورتب الضباط، وجُعب الرصاص على معاطفهم، وأحزمتهم، والسيوف البيضاء. والألحان الصادرة من عازفي الأوركورديون على المنصات تهيج الشباب إلى الرقص. والأكابر سناً واقفون إلى الجدران فرحين بيناتهم وأولادهم ومعارفهم. يؤلفون مجموعات صغيرة أو كبيرة تغرق في الأحاديث، وتتضحك، وتتبادل نظرات الفرح.

دُعيتْ أفس أبس بضع مرات إلى حلبة الرقص فرقصت. ولا يزال ينتظر من سيراقصونها من ضباط وشُبان. وهي هادئة مهذبة بناء على رجاء سيدتها وإن لم يكن في وجهها مسحة فرح. واحترامها لنفسها يجعلها وإن غلب عليها طابع الحزن الذي يضيء عليها صفة ليست في أترابها تجعلك تنظر إليها بعين الودّ.

- أنا ألكسندروفنا يا عزيزتي، - اقتربت منها زوجة أحد الضباط من أصدقاء زوجها الأمير أميلاخفاري. وسألت بشكل غير مباشر ولكن مفهوم عن أصل أفس التي يراقصها ابنها. - هل تحتقنا ربييتكم فلا يبين على وجهها أثر

- لماذا، أليس الأفضل أن تحترمي نفسك بدلاً من أن ترقصي بردفيك! -
ردّت عليها بما يتناسب مع طريقة رقصها، ثم ابتعدت.

- هاتوا ال "مازوركا"¹ وابتعدوا عن الحلبة لأن حاكم القفقاس الأمير الكبير
ميخائيل نيقولايفيتش سيراقص ربيبة جيش نيجيغودورسك ماريا نيقولايفنا
نيجيغودورسك!

وفي اللحظة نفسها تراجع، دون نقاش، الضباط والشباب والأمهات نحو
الجدران مُخلين الساحة. دخل الحاكم ميخائيل نيقولايفيتش رومانوف الساحة
يزهو بأوسمته ورتبته ومعطفه الأبيض وجعب الرصاص البيضاء على صدره
وحزامه وخنجره الفضيّين. وتوجّه إلى حيث تقف أفس، وأوماً إيماءة احترام
خفيفة ضاماً فردتي جزمته، بما يعني رجاء منه أن تراقصه.

- لیسعدك الحظ، - همست السيدة أميلاخفاري في أذن أفس. ولمست يديها
الناعمة كتفها إيعازاً إليها أن تستقبل الأمير.

رقصة المازوركا السريعة تسلب منك قدميك، سواء كنت واقفاً أم جالساً.
والمشاركون في الحفلة عيونهم على الراقصين. والجمال ينعش القلب. ويسود جو
من الفرح وإن كان من خارج القلوب. ومن انقطعت أنفاسهم ليسوا قليلين وإن
حاولوا إخفاء حالهم. ومنهم من استغرقوا في الحديث فيما هم يراقبون الرقصة.
وبعضهم يقولون "ليت هؤلاء ينتهون من حركاتهم ومن جرّهم". ومن يقولون:
"ماذا وجد هذا الرجل ذو التربية العالية، الذي وضع القفقاس تحت قدميه، في
هذه الصبية الأدغية المتمرّدة" يتظاهرون بالفرح ولكن وجوههم تعبّر عن
النقيض.

¹ الأغاني التي تُغنى مع الرقصة البولونية الوطنية.

يتحدث الأمير الكبير مع أفسس شاداً قامته الممشوقة المتناسبة مع الخصر الدقيق وإن كانت الصبية لا تردّ بشيء ذي بال. ويبشّ في وجهها، ويدور بها، ويقرع الأرض لها بجذائه الرقيق. ويكيّف جسمه بما يتناسب مع اللحن. ويمسك بيدها. يقرّبها إليه، ويبعدها. يرقص بمشطي القدمين والعقبين. والهواء يداعب رتبته. أما أفسس فهي مثلُ نسمة الصيف الرقيقة، تسامر رفيق الرقص بما يتناسب معه، ولا يبدو في جسدها ما يمكن أن يوصف بأنه في غير محلّه. والرجلان القويتان تمسكان بالجسد. والرأس في قالب واحد. والجسد المحافظ على اتزانه لا يسمح للنسيم أن يعثب بذيل ثوبها. والركبتان اللتان تبدوان أحياناً من تحت الثوب لاتنحنيان أكثر مما ينبغي، ولا تتصلبان، تقفزان بما يتناسب مع اللحن السريع. وحين تطأ قطع الخشب اللماعة لا تسمح لحذاءها غير العالي ولا المنخفض أن يصدر أصواتاً عالية.

الدنيا لا تسع الأميرة أميلاخفاري. كان الأفضل من أن تتسمر كل هذه العيون المجتمعة، رجالاً ونساء، على الراقصين، أن ينظر إليهما جنود جيش نيجيغودورسك الذي ينتمي إليه زوجها الأمير فانو غيليتش. ما أسرعهما وما أشد الانسجام بينهما. لئيسعدك الله، ولتخطي خطوة مباركة في حفلتك الأولى! تدعو أنا ألكسندروفنا بقلبها للصبية. كلُّ هذا الاحتفاء بك ولم تكوني راغبة في الاشتراك في الحفلة! أمامك كثير من الأفراح ولكنك لا تعرفين يا بُنتي... انتظري سنة واحدة وتخذين قالب الصبية الناضجة! — أبواب بطرسبورغ مفتوحة لك!..

حين انتهت الرقصة أعاد الشقيق الأصغر للقيصر ميخائيل نيقولايفنا أفسس، والعيون كلها عليها تحسدها، إلى السيدة أنا ألكسندروفنا ممسكاً بها من ساعدها الأيسر. وقال لها:

— هذه فتاة قريبة من القلب، متناسقة القوام، ليس في الحفلة أجمل منها جسداً

وطبعاً يا أنا ألكسندروفنا. ربّاهَا لنا جيشي، جيشُ نيجيغودورسك، وأنا مرتاح لتربيتها. وأنتِ يا أنا ألكسندروفنا أشكرك باسم البلاط على تربيتك لها على هذا النحو. - قال على مسمع من الجميع، وكرر التحية.

- شكراً لك أيها الأمير الكبير، - بان ارتياح أنا ألكسندروفنا لكلام الحاكم في تورّد وجنتيها. - لن أنسى كلماتك أبداً. وستحملها ماريا نيقولايفنا معها طوال عمرها، وحيثما أقامت. ولكن ما ليس في الإنسان لا يمكن زرعه فيه مهما حاولت. - تبتسم في وجه أفسس التي ما يزال الحاكم ممسكاً بساعدها. - أظن الله خلقها مع هذه الخصال كلها.

- كلنا عباد الله، لا نتصف بما لا يعرفه. - أمسك الحاكم بساعد أنا ألكسندروفنا أيضاً، وابتعد مع المرأتين قليلاً عن الحشد، - ولكن لا أظنك أنتِ أيضاً لا تعرفين تمرّد الناس الذين أخرجناها من بينهم.

أحرقت الكلمات التي وصلت إلى أذني أفسس جسدها كرصاصة. ولم يكتف الحاكم شعوره بالرجفة التي سرت في ساعدها الأيسر الممسك به. نظر إلى المرأة الأخرى وابتسم لها، ثم قال:

- لا تخزي يا ماريا نيقولايفنا، ولكن إنسي من سمعتِ بسيرتهم... لم يعدْ فيك شيء من هؤلاء. ولا يمكن أن يكون فيك. الحضارة التي زرعوها فيك هنا لم تصل بعدُ إليهم، ولا أظنها تصلهم في قرون. وما حاجة من لا يفرغون من الصراع إليها؟ لم يبق لنا إلا بضعة أشهر ونفني أعداءنا. وأنا لن أحرّم نفسي من الاستمتاع بخاتمة الحرب، سأسافر بعد غد إلى تلك النواحي. إلى مَنْ مِنْ جيش نيجيغودورسك تبليّغين سلامك؟

لم يكن عند أفسس، وقد فهمت أن الأمير الأكبر حاكم القفقاس من الدّ أعداء الأديغة، إلا أن تكظم غضبها. ولكنها حين سمعت اسم جيشها رفعت رأسها مسرورة، وأجابت:

- بلّغ تحياتي إلى الأمير أميلاخفاري فانو غيليتش، والجنرال غراييه نيقولاي بافلوفيتش، والطبيب بلوتالوف سيرغي بيتروفيتش، وتريشكوف نيقولاي سافيليفيتش، وبلّغهم دعائي لهم بالسلامة ورقة القلب...

- نحو مَنْ تريدن أن ترقّ قلوبهم يا ماريا نيقولايفنا؟ سأل على نحوٍ لا تميز إن كان هازلاً أم غاضباً، ولكنه موه بوجه شبه باسم.

- إلى أيّ كان، على الإنسان أن تغلب عليه الرقة. - لم تترك أفس من سألها دون جواب. ثم أضافت: - وبلّغ سلامي إلى جبالنا.

- إن كان هذا رأيك فأنا أستسلم، ليس للشراكية بل لك أنت! - رفع الأمير الكبير عينيه، وفيما يخفضهما أخى بمزحة: - لماذا نقف هنا نتجادل؟ الضباط يا ماريا نيقولايفنا عيونهم على زميلاتك الأقرب إلى القلوب. والأنسات¹ اللواتي سأرقص معهن، ها هنّ، يُخلوّن من الساحة.

حين وجد الأمير الكبير حجة وانصرف بسرعة، تداعت ساقا أفس فلم تعد قادرة على الوقوف. وأمسكت وقد ابيضّ وجهها من الشحوب بساعد أنا ألكسندروفنا، ودار رأسها:

- تعالي نجلس، لا أعرف ماذا يجري لي.

- ماذا جرى لك يا ماشا، امْتَقع وجهك؟.. - سألت أنا ألكسندروفنا وقد ارتعبت بصوت ناعم.

- تعبت... سأعود إلى حالي إذا استرحت قليلاً.

بعدها جلستا بعض الوقت وراء العمود الضخم رأت أنا ألكسندروفنا الدم يصعد إلى وجنتي أفس فقالت متجنبة ما تخمّنه:

- أظن أن الأمير الكبير أطل الرقص معك والدوران بك حتى داخ رأسك.

¹ بالفرنسية.

- تعالي نعدّ إلى البيت، قالت أفسس، لا أستطيع أن أبقى مع هؤلاء أكثر من هذا...

- حالاً سنفارقهم دون أن نُشعر أحداً...

قالت أفسس بعدما دخلتا الغرفة:

- الأمير الكبير إنسان سيء!

ارتعبت أنا ألكسندروفنا:

- إياك أن يسمع أحدٌ منك هذا الكلام!

أغمضت أفسس عينيها وزفرت عميقاً:

- الحرب تنتهي فيفوته أن يشهد إفناء الأديعة!.. - انفجرت أفسس باكياً بما تملك من صوت دون وعي...

ظنت أنا ألكسندروفنا أن أفسس بكت ندماً على الكلمات المهينة التي قالتها بحق الشقيق الأصغر للقيصر، ولكن لم يكن هذا هو الموضوع.

المرأة تأتي إلى الدنيا من أجل أن تمجّدها الأخيرة وتُفرحها وتمنحها الثقة بحبها وجمالها وصدقها. وهذا الجمال يبدأ ما إن تصبح في رحم المرأة. ثم يتوطد عاماً بعد عام، ويقوى مع الزمن. والصبية تتخذ قالب الفتاة الناضجة، والفتاة دور المرأة. وفي كل مرحلة تبدو كأنها تُخلق من جديد.

كل ما يأتي به الزمن يبعث على القلق مستقبلاً وإن كان في وقته ساراً. وكل جمال يحوي في داخله الفرح والبؤس. وكلما ازداد جمال المرأة شقّت عليها حياتها. تُفنيها المتاعب، بل الأفراح أيضاً. لم تكن أفسس راغبة في المشاركة في حفلة الليلة. كل ما تراه فيها من ذهبٍ وفضة يلمعان، وملابس أنيقة من الرجال والنساء، وصوتٍ صاحب من الأوكورديون، ونظرات رياء متبادلة، وجدرانٍ متقابلة لامعة، تراها غريبةً ثقيلة لا يقبل بها القلب ولا الروح. وكل هذه تسبب لأفسس الدوار، وهذا هو السبب في طلبها من أنا ألكسندروفنا

الانصراف.

وحين كانت عائدة إلى البيت في العربة الوثيرة، وحين دخلتها لم يكن ما تفكر فيه أفسس هو طريقة استقبال العام الجديد 1864 فحسب بل كانت مهمومة بالحياة التي تنتظرها وهي تتطلع إلى أبعد من العام القادم. وحين كانت أفسس ترقص في احتفال الليلة تذكرت كيف كانت بعض النساء ينظرن إليها حاسدات، وتذكرت همساتهن وابتساماتهن:

- من أين جاءتنا هذه؟!

وغيرهن يقلن من أعماقهن:

- ما أجمل هذه الفتاة وما أقربها إلى القلب!

وبعضهن يتها مسن، ولو من خارج قلوبهن:

- ستذهب بعيداً، وسترتفع عالياً!

لم يكن اهتمام الضباط موجهاً إلى ملابس أفسس. - ما لم يكونوا يشبعون من تأمله هو الجمال الذي حبّتها به الطبيعة. ولم يكونوا وحدهم فشقيق القيصر الذي راقصها كان ما يتعجب منه هو هذا الجمال.

الآن أحسّت أفسس بجمالها وثقتها بنفسها وقوّتها. وأرعبتها الأجنحة التي نبتت لها فجأة. ارتمت في صدر أنا ألكسندروفنا وبكت كما لن تبكي على صدر أمها. ثم بعدما هدّووها نامت ما إن وضعت رأسها على المخدة.

ترى أفسس الآن حلماً مما كانت ترى في صغرها. - يُحَيَّل إليها أن أنا ألكسندروفنا تناديها:

- قومي يا بُنتي، عربة الأمير الكبير ميخائيل رومانوف تنتظرنا! والبسي ملابس أدفاً. سنذهب إلى مكان أبعد، إلى عاصمة روسيا الكبرى سان - بطرسبورغ!
- أيّ بطرسبورغ الآن؟ لا توقظيني أرجوك. لا أريد...

- ماشا، ماشينكا، قومي يا بُنتي الصغيرة. مثل هذا الحظ لا يأتي في العمر إلا

مرة واحدة. قومي، البسي!

غطى أحدهم كتف أفس بفرور ناعم دافئ.

- يا إلهي، ارحمني، نحن الآن على طريق خير! نُصَلِّي أنا ألكسندروفنا.

- أود أن أنام...

- مهلاً، مهلاً سيزول عنك النعاس، ابتاهلي إلى الله، صلي من أجله.

- "يا أبانا..." همس أفس وتلثم، نسيث ما يقال في الصلاة.

- كفى، كفى يا بُنتي، - تجزع أنا ألكسندروفنا على أفس، - أنا سأصلي من أجلك.

وانطلقوا.

صاروا على جادة نيفسكي. وظهرت كنيسة قازان الكبيرة.

ومسلّة أدميرالتيستفا تناطح السحب.

كل هذه من معارف أفس. - كان الدكتور بلوتالوف عرضها عليها منذ زمن.

وأثوا لها على ذكراها كثيراً في المعهد. ومع أن ما رأت في الصور كان جميلاً فإن

ما تراه الآن بشخصها جميل حتى ليخطف الأبصار.

ها هو نهر النيفا! كبير وعريض! والأنهار الجبلية سريعة وضيقة وصاخبة، أما نهر

نيفا فهادئ وبلا حدود كالسماء.

- وما هذا؟

- هذا هو القصر الشتوي.

- ما أجمله!

- نعم جميل، - قالت أنا ألكسندروفنا - لا مثيل له في العالم، - والآن

ارتاحي يا بُنتي، لا تخافي من أحد!

- أنا لا أخاف من أحد. ولكني لا أعرف سبب مجيئنا إلى هنا!

- ولماذا لا تعرفين؟ - استغربت أنا ألكسندروفنا ما سمعت، - أما أخبرك أحد

بشيء؟

- لا.

- أما أخبروك أنك جئتِ إلى هنا عروساً؟

- لا، لم يخبرني، عروساً لمن؟ ولماذا؟

- سأقول لك، - تهمس أنا ألكسندروفنا في أذن أفس، - ابنة تيمرقوه كانت

زوجة لأول قيصر روسي إيفان غروزني، قائد الجيش. وسموها ماري حين اعتقت

المسيحية. هل فهمت الآن؟

- لا، لم أفهم.

- يريد قيصر روسيا إحياء القرابة التي كانت له مع الأديغة... تذكرني حين

رقصت مع ميخائيل نيقولايفنا أنه قال لك: أنتِ سليلة أمراء أديغة كبار.

يمدّ جنود لبيعفارييه السجادة الملونة على الطريق الذي ستدخل فيه أفس

القصر. وهي تريد ولا تريد السير على هذا الطريق. وفيما هي واقفة مترددة

تسمع:

- تعالي لا تخافي يا بُنتي! تعالي إليّ. تعالي! - الصوت الذي تسمعه هو صوت

فيدور، رآته أفس على النافذة.

كيف يجري هذا، قالت أفس، أليس فيدور توفي؟!

- تعالي يا بُنتي، تعالي، - يناديها بصوت أقوى فيدور الذي يرتدي معطفاً

وقبعة أبيضين.

وأفس في القصر مرتدية ثياباً بيضاء ناصعة.

- وأين خطيبي يا فيدور؟

- هو في مكان أبعد وأعلى، تعالي!..

أيقظ الضوء المشرق على الوجه أفس - كان هذا ضوء شمسها الصباحي طوال

سنة...

حين لم تستطع أفسس النهوض من الفراش في صباح العام الجديد أرسلت أنا
الـكـسـنـدرا بسرعة إلى الدكتور بريبل المشهور في تفليس كلها. وحين عاينها
أخبرها أنها تعاني من المرض الذي استنزف كل قوى الجسم. وألح عليهم أن
يُخْرِجُوا أفسس من المعهد، ويرسلوها دون تأخير إلى مكان تستريح فيه.

ولما كان ما يملكه أميلاخفاري من هذا القبيل هو أرضه في قرية تشالي فقد
أعادتها أنا ألكسندروفنا إليها.

لم تكن حال أفسس تتحسن إن لم تتراجع. ومهما أتاها من أطباء، من يفهم
منهم ومن لا يفهم، لم تكن تستفيد شيئاً منهم. والعلاج الوحيد الذي كانت أنا
ألكسندروفنا نعرف أنه يفيدها: الرسائل الآتية من المكان الذي استقر فيه
جيش نيجيغودورسك في إقليم الأديجة رغم انتهاء الحرب. لم يكن يمر يوم لا
تعيد فيه أفسس قراءة الرسائل التي تبدأ بعبارة "نرسل إليك تحياتنا الحارة من
أرض أهللك" هذه الكلمات العادية علاجها في النصف الأول من نهارها.
والنصف الثاني كان وقت حزنها.

في أحد الأيام قالت أنا ألكسندروفنا لأفسس:

- سنسافر خلال أسبوع إلى "جيليزنوفودسك".

- وماذا سنفعل فيها؟

- نستجم فيها.

- ألا نستجم حيث نحن؟

- هناك مياه دافئة، سنتعالج بها.

- في أي جهة تقع هذه؟ - لمعت عينا أفسس علامة على توجُّسها من

أمر ما. - أهـي في نواحيـنا؟

- نعم، خمتت. ليست بعيدة عن بيتاغورسك. مررتم بها في طريقكم إلى تفليس

إن كنت تتذكرين.

- نعم أتذكر! - صرخت أفسس دون إرادتها وهي تتذكر مطعم بيتاغورسك الذي كان فيه رجالان من الأديغة.

- وهناك مدينة أخرى قريبة منها.

- أي مدينة؟

- ستافروبول التي تقيم فيها أنجيلينا بارامونوفنا زوجة الدكتور بلوتالوف.

تسرّب الدم إلى وجنتي أفسس الشاحبتين دون أن تستطيع الاستمرار في الكلام فاصطبغت باللون الزهري الباهت.

ليس الصيف حاراً في "جيليزنوفودسك" كما في تفليس. وفي اليوم الأول، رغم متاعب الطريق، كتبت أفسس من البيت الذي توقفوا فيه رسالة إلى أنجيلينا بارامونوفنا فيها بعض الكلمات وعنوان المنزل. وشرعت تنتظرها ولما يمض غير خمسة أيام أو ستة.

أنا ألكسندروفنا راضية بتسرّب الأمل إلى قلب أفسس يوماً بعد يوم. تبتهل إلى الله لا يسعها الفرح خائفة أن تصيبها بالعين. ولكنها لم تكن تريد التفكير في دور هواء بلادها الذي تستنشق في تعافيتها من المرض، بالإضافة إلى استفادة أفسس من الماء الدافئ ومن الأدوية التي تُقدّم لها، بل لا تريد أن يخطر لها موضوع بلادها على بال. ولهذا السبب ماطلت عاماً كاملاً في تنفيذ اقتراح الدكتور برييل الاستشفاء في هذا المكان. ولولا أن فانو غيليتش زوجها كتب لها "حين تنتهون من مدة العلاج سآتي وأعيدكم إلى تفليس" لربما لم تُحضر أفسس إلى "جيليزنوفودسك" التي تخاف منها دائماً ؛ ليس لأنها لا تخاف على حياة الصبية وعلى مرضها - سواء كانت سليمة أم مريضة - بل كانت تريد أن تُسكنها حيث تحب هي في المكان الذي استلمتها فيه.

صحيح ما يقال إن حبّ الأم يجرّك ويلاًم جرحك. ما نوع الحب الذي

شعرت به أنا ألكسندروفنا نحو أفسس؟ أتفهمُ مشاعرهما؟ وهل تعرف متى تفهم ومتى لا تفهم؟ إن بالغت في شكوكك نحوها تَبَعاً لسلوكها فإنك تُذنب بحقها بعد كل هذا الحب نحوها... ولكن أفسس ليست دمية تروّج بها عن ضيقك وتملاً فراغك وتدفعي بها حبك. عندها كسائر الأديغة قلب وروح ووجع. يغلب حزنها على فرحها. تدوِّبها الأفكار المتلاحقة التي تغزوها فتزيدها نخافة على نخافة. وليست أنا ألكسندروفنا في حال أفضل، فأفكارها المتعلقة بشخصها بلا حدود. فمن جهة تُضنيها عزلة أفسس ووحدتها، ومن جهة أخرى يُفنيها حرمانها من الإنجاب. لا تستحق السيدة أميلاخفاري اللوم من موقع أفسس. كلُّ مشغول بحماية نفسه منطلقاً من مشكلاته الشخصية. ويحدث ألا يستطيع حلّها. ويحدث أن ينهزم أمامها.

- ماشا، ماريا نيقولايفنا، أين أنتِ؟ - دنت أنا ألكسندروفنا من الباب الصغير رغم علمها بمكان أفسس. - لماذا أنتِ على الشارع؟ تعالي، الشمس حارقة، ادخلي!

- وكيف تكون حارقة؟.. - نظرت أفسس إلى زوجة الأمير، وابتمت لها، - الشمس تكاد تشرق. تُطلّ بصعوبة من بين أوراق الأشجار.

- أليس لأنها تنفذ من خلال الأوراق أطلب منك تجنّبها! ثم إن من المعيب أن يروك جالسة هنا وحدك... - قالت أنا ألكسندروفنا لنفسها: أستحق كل ما يجري لي. لماذا طمعتُ الصبية بزيارة زوجة الطبيب بلوتالوف فتجلس كل يوم تنتظر قدومها على الشارع؟ ظننت نفسي أفعّل المعروف فأذيتُ نفسي. ثم قالت لها ملاطِفة: - إن كنتِ تنتظرين قدوم أنجيلينا بارامونوفنا فما يزال الوقت مبكراً لوصولها.

- ما الأمر؟ - سألت أفسس كمن أُهينت.

- ألا يجوز ألا تكون رسالتك وصلت إليها؟.. تظاهرت أنا ألكسندروفنا شاعرة

بخطئها بأنها تتراجع عن كلامها. - ثم أظنن أنها جاهزة لزيارتك؟ أليس لها أسرة وأولاد؟

- خالة ليना ستأتي إليّ. - يبدو من صوت أفس عدم ارتياحها لما يُقال لها. وتنظر إلى السيدة نظرة ارتياح، وتحسم موقفها: - سترين إن لم تأت!
- ماشا، يا بُني، أيّ نظرات عدائية توجهينها إليّ؟.. ليس في قلبي لك إلا الخير.. - خرجت أنا ألكسندروفنا من الباب الصغير، وجلست على المقعد الذي كانت تترفع أن تجلس عليه بصفتها زوجة الأمير. وضمت إليها أفس كأهم ينتزعونها منها. وها هي تبرئ نفسها وهي تربت على كتفيها الدقيقتين: - أنجيلينا بارامونوفنا ستأتي. ولكن أقول ربما لم تصلها رسالتك فحسب. سننظرها يومين أو ثلاثة أيام أخرى ثم أكتب إليها بنفسى... أتعرفين ماذا خطر لي يا ماشا؟ - أصلحت أنا ألكسندروفنا موقفها بسرعة كأن لم يحدث شيء، - نستأجر عربية، واليوم يوم الأحد، ونتجول في المدينة. ونصل إلى أماكن الاستراحات ونمتع أعيننا.

- سنذهب إلى السوق. - أضافت أفس ما كانت تتمناه.

- ماذا نفعل في السوق ذي الروائح الكريهة؟

- هذه هي الجهة التي يقصدها الناس ولو أن روائحها كريهة.

- الفلاحون هم من يرتادون السوق.

- والفلاحون أليسوا بشرًا؟

- بشرٌ ولكن لا نستطيع أن نقارن أنفسنا بهم.

نظرت أفس واجمة في وجه أنا ألكسندروفنا. ونظرت إلى كل الذاهبين إلى السوق والعائدين منها، بشرًا أو عربات أو فرسانًا. ففزت أفكارها وذكرياتها بسرعة وأمعنت في الابتعاد. وانتصبت أمام عينيها كل القرى التي لجؤوا إليها بعد ما أحرقت قرينها لحقوه حابله، معتبرين أنها قراهم أيضًا. وكل من تتذكرهم

فلاحون يعملون في الأرض التي يحمونها من العدو. يزرعون ويحصدون. والمواشي في المراعي، والدور ملاءى بالدجاج والديك الرومي. وعندهم القطط والكلاب. وخيلهم مربوطة إلى أماكنها. وعلى مواقدهم يطبخون طعامهم. ويختلط جدّهم بمزهم، وأفراحهم بأحزانهم، بقلقهم. لماذا لا يجوز أن نكون مثلهم؟ نحن نفوقهم أم يفوقونا؟ هل نعرف ما لا يعرفون؟ لا فرق بين فلاحي الأبراخ ومن عندكم من فلاحين في قرية تشالي لولا اللغة والعادات. ماذا كان المسكين فيدور يقول؟ كل فلاح هو نتاج الأرض والعمل والقلق الذي بلا نهاية، وهي التي تربيته، وتحمل إليه حظّه. لا أتذكر أنه كان يقوم بأي عمل إلا وهو يغني. وكذلك أُمي وأبي...

- ولكن نحن أسرة "دُعْجي" فلاحون... - لم تستطع إلا أن تصرّح بما جلبته لها أفكارها بما يشغل بالها.

- ومن هم "دُعْجي"؟.. في البداية سألت أنا ألكسندروفنا عن النسبة التي سمعت بها، لم تفهمها: - ماشاء، ماريا نيقولايفنا، ما الذي سمعته؟ لا تنسي أنك تنتمين إلى نيجيغودورسك! لا تنسي أنك ربيبة الأمير أميلاخفاري والضباط!.. إذا كان آل دُعْجي فلاحين في زمن ما فافرحي واعتدّي أنك الآن سيدة تحمل لقب "الأميرة". هذا اللقب سيوصلك إلى أرقى طبقات المجتمع. ويأخذك إلى عوالم لن يراها الفلاح طوال عمره. وسيجعل من هم أدنى منك يحسدونك. ويعلمو بك إلى ما لن تستطيعي بلوغه وحدك.

ليس ما يُعش قلب أفسس هو ما ترويه أنا ألكسندروفنا بحماسةٍ من مزايا نسبها الأميري، بل اسم "دُعْجي" الذي له رنة أديغية. تخيلته شمساً سطعت من بين السحب اللامتناهية. ولمع في حياتها خبراً تُدفع لأجله البشارة. ولهذا فهي راضية مهما قيل لها، تهرّ رأسها مع كلمات السيدة الأميرة و "أديغيّتها" تتعافى، وحياتها تتحسن.

- ماذا يا ماريا نيقولايفنا؟ - سألت أنا ألكسندروفنا وهي تظن أنها، من خلال الفرح الذي غمر وجه الصبية، أحرزت انتصاراً - أنستأجر عربة ركاب؟ وهذا النهار الجميل يشجّعنا على هذا.

- نعم، أجابت بصوت نشيط.

ما الجولة في "جيليزنوفودسك" الصغيرة التي ليس فيها إلا شارع واحد! - دارتها من أقصاها إلى أقصاها في ساعة واحدة. ووصلتا إلى سفح المرتفع الذي يغلب عليه لون الحديد. وجمعتا أزهاراً برية. ولاحقت أفس بعض الفراشات ولكن سيدتها لم تقبل:

- لا ترهقي نفسك من أجلها! لن تستطيعي الإمساك بها.

سألت أفس حين رقيتا التبة وهما عائدتان، دون أن تعرف مصدر السؤال:

- إذا كان هذا الجبل يسمى جبل الحديد فما اسم الجبل البعيد الظاهر لنا؟

- هذا يسميه قبرتاي بيتاغورسك "مَشْقُ" - خاطبهما السائس. ثم أضاف: - وإن شئت ترجمة الاسم الأديغي فهو يعني "ابن الحبوب، ابن المحصول".

انتفض قلب أفس. والتفتت إلى أنا ألكسندروفنا. وفي اللحظة نفسها تذكرت أنها قضت ليلة في بيتاغورسك في طريقها إلى تفليس. وما هاج قلبها الآن على نحو خاص هو الحوار بين الرجلين الأديغيين اللذين رأتهما في المطعم.

- هل تسمعين يا أنا ألكسندروفنا - تتكلم أفس حتى إن فمها لم يعد يتسع لكلماتها، - وهذا الاسم اسم أديغي، نطقته بأديغية حقيقة: "مَشْقُ". ثم أكملت بالروسية - ما أحسن السفر إليه إن لم يكن بعيداً!

- بعيد! - أجابت أنا ألكسندروفنا بسرعة مرتعبة. - الطريق يستغرق يوماً كاملاً، - أكملت بصوت ألطف. وتقول للسائس تريد أن تغير الموضوع الذي طرح نفسه فجأة: - الحرّ يدهمنا، أسرع بالخیل!

لهذا السبب، تعفّ أنا ألكسندروفنا نفسها، لم أكن أريد الهجيء إلى هذه

الناحية. جلبتُ لنفسي بنفسي مصيبة. رميت الصبية بيدي إلى نار الأديغة. هذه الصبية لا يجوز، ليس أن تأتي بها إلى أماكن قريبة من بلادها، بل حتى أن تقاربها من بعيد. كان عليّ أن آخذها إلى المياه الدافئة العائدة للألمان، ولكن لم يُطعني الأمير فانو غيفيتش، والدكتور برييل أغلق أذنيه فلم يسمعي حين اقترحتُ عليه. وانظر الآن ما يحدث معنا: جئنا بها معتقدين أن ماء موطنها وهواءه وسماءه وشمسه ستكون دواءها. لن نستطيع، على ما يبدو، قضاء الشهرين المقرر أن نبقي فيهما هنا، بل شهراً واحداً. وإذا أضيف إلى هذا انتظارها اليومي لزوجة الدكتور بلوتالوف فهذا سيصيبك بالتبلد... سأكتب إلى فانو غيفيتش كل شيء، ونعود متى انتهينا من العلاج إلى تفليس.

على منعطف مدخل جينيزنوفودسك أشار فارسان يرتديان الزي الأديغي إلى العربية بالتوقف فأمرت أنا ألكسندروفنا السائس أمراً حازماً، لا رجاء:

- لا تقف! لسنا بحاجة إليهما.

- هذان من الأديغة المسلمين، لا تخافا منهما، - أجاب السائس وهو يوقف العربية، ودلّ الفارسين على المكان الذي يسألان عنه بطرف السوط، وتابع طريقه.

وحين جانبا مدخل السوق رأت ثلاثة فرسان أديغة آخرين فقالت أفسس لنفسها بلعتها:

- هؤلاء يرتدون قبعات أديغة.

- ماذا تقولين يا ماشا؟ فجّرت الكلمات الأديغية السيدة التي لا تفهمها.

- أحاول ألا أنسى لغتي... - أجابت أفسس جواباً صريحاً غير عابئة بتعريض السيدة.. - أكلّم نفسي!

- كان الأفضل من هذا أن تتعلمي لغتنا الكرجية ؛ كانت تفيدك... - نطق لسان السيدة بما كان في قلبها دائماً.

صبرت أفس لا تريد الإساءة إلى أنا ألكسندروفنا. ولكن قلبها هاج حين خرجت العربى مسرعة من منعطف الشارع الذى فى مكان إقامتهما: رأت على مدخل الباب الصغير أنجيلينا بارامونوفنا جالسة على المقعد الصغير. وعلى جانبها الأيمن سلة كبيرة مملوءة.

- توقف! - صاحت أفس، واستنفرت حواسها - خالة أنجيلينا جاءت! ألم أقل لك يا أنا ألكسندروفنا إن خالة لنا ستأتى! خالة لنا! ركضت أفس والشارع لا يتسع لها لعناق السيدة البدينة ذات الساعدين القصيرين...

XXXI

اقترب موعد مغادرة أفس لجيليزنوفودسك. وأقامت أنجيلينا بارامونوفنا ثلاثة أيام مع أفس وعادت إلى موطنها ستافروبول. لا تنسى الصبية ذكريات هذه الأيام الثلاثة. - تتحرك هذه فى القلب دافئة.

حين أفاقت أفس باكراً فى الصباح الخريفى كان الفجر يكاد ينبلج. فجر ناعم جبان. الأوراق الصفراء السمىكة كفرو كستنائى تملأ أسافل الأشجار. والنهار الوليد يشع فوقها. الهواء حارّ أزرق تماماً. ولكن الخريف الذى يتعد مسرعاً عن العين تظهر منه أفكار الشتاء البارد الخفية. رائحة الأوراق الصفراء وثمار البلوط الناضجة تفوح من كل مكان.

غسلت أفس يديها ووجهها محاولةً ألا توقظ أحداً من قاطنى الشقة، وجلست إلى النافذة تريد الاستمتاع بأزهار الخريف. كانت تتصور أن مثل هذه الأزهار إنما تنمو فى قريتها فحسب ولكنها تراها هنا أيضاً. قالت لنفسها: ربما كانت تنمو فى كل مكان. نعم، نعم، فى كل مكان. ولماذا لا تنبت؟ فى كل مكان أرضٌ وسماءٌ وشمس. جمال الأزهار يأتي من الأرض والسماء والشمس. ولكن أجملها والتي لها روائح زكية تنبت عندنا. أنا أعرف أين تنبت!

خرج تفكير أفس من الأزهار، ووصل إلى الأماكن التى كان معلمها يتحدث

عنها: بطرسبورغ وموسكو. كان معلم التاريخ تحدث مرة عن ابنة تيمرقوه، الفتاة الأديغة التي تزوجت من إيفان غروزني. ثم عن وجود بعض الأديغة قادة في الجيش الروسي، وعن اعتناق هؤلاء المسيحية.

أنا لا أريد شيئاً، قالت أفس، وما لا أريده البتة الأبنية الطابقية! أنا أودّ العودة إلى ديارنا، إلى نَجْقوه حابله...

- ميليانا، يا ميليانا، تعالي إلى هنا لحظة. - تنادي أنا ألكسندروفنا المرأة القوزاقية صاحبة الشقة. أنا خارجة اليوم في مهمة، وسأعود مساءً، وستكون ماشينكا وحيدة، ليتك رعيتها في غيابي!

- لا تقلقي يا أنا ألكسندروفنا، غيبي بقدر ما تريدن، سأرعاهما، لن أدعها تملّ.

- شكراً، غير أبي أودّ أن أسألك شيئاً: ستقام اليوم سوقٌ في بيتاغورسك. وكان بودي أن أطلع ماشينكا عليها، كانت ستعجب بها، ولم تر مثلها في حياتها... ما رأيك إن صحبتها إليها، هناك ما يخيف فيها؟

- أيُّ خطرٍ تتكلمين عليه يا أنا ألكسندروفنا؟! نحن نعيش مع الأديغة المسلمين، ومثلهم بالقر، والنَّغوي، والأباطة. كلهم أناس طيبون كرماء صادقون. ثم إن زوجي نيجيبور سيذهب اليوم إلى السوق، وستكون هناك شرطة أخلاقية قوزاقية. سأرجوه أن يصحبني أنا وماشينكا. سنرى فيها أشياء عجيبة.

- إن كان الأمر كما تقولين فليحيمكم الله! توجهت "ميلاني" وأفس إلى بيتاغورسك في عربة لنقل الحبوب، ووراءهما ثلاثة فرسان قوزاق. وبعدها ساروا ساعة ونصف ظهرت بيتاغورسك. ولم يمض طويل وقتٍ حتى صاتا جزءاً من السوق.

في المدخل غُرز عمود عال على قمّته فردتا حذاء. يحاول الشبان النشاط

إنزالهما ولكنهم ينزلقون دون الوصول إليهما. والقوزاق يضحكون والبنات يسخرن من الشباب.

- ركبناك ضعيفتان، على ما يبدو يجب أن تكون حافياً.

- حاول يا أُخْتُ¹ مرة أخرى، كدت تصل!

- يا حسرتي يا أُخْت، لم تستطع. لا تيأس، حاول مرة أخرى!

- اتركوا أُخْت يستريح قليلاً، أنا سأنزلهما.

من تعهد بهذا لم يستطع مهما حمس نفسه الوصول إليهما. وانزلق أُخْت أيضاً مرة أخرى مثيراً سخرية الحضور.

في كل مكان تسمع أصوات الأدبغة والروس والقرشاي والبالقر والأباطة. ويتسول لابسو الأثواب الصوفية الطويلة، ويرقصون. وهناك في الساحة المستديرة عقد الأدبغة والقوزاق حلقات الرقص. ونساء القوزاق يتدلعن أمام رجالهن. والكل يتضحكون.

لن تفهم الأمر: ليس هناك أطيّب من هؤلاء، ولا أجمل طباعاً منهم. قالت أفسس، لماذا إذن يتحاربون، ويتفانون؟ لماذا؟

ما هذا الآن؟ خيمة مستديرة عالية فيها جملان. لم تر أفسس جملاً في الطبيعة، رآته في الصور فقط. وعجوزان بعيون ضيقة تجلسان تدخنان. هؤلاء من القاللق. نعم، تذكرت، رأيت أنا ساء أمثالهم في أحد الكتب...

- يا ميلانيا، قالت أفسس لرفيقتها، - تابعي مهماتك أنت، لن أعيقك، أنا سأجول في السوق. وسأعود خلال ساعة إلى هذا العمود.

توجست ميلاني بادئ الأمر من رجاء أفسس. ثم حاكمت الأمر: لا مشكلة في رجائها، السوق في أمان. والقوزاق يملؤونها، ولن يحدث فيها ما يسوء، فتركتها

¹ النطق الأدبغي لاسم أحمد رغم وجود الحاء والذال في الأبجدية الأدبغية.

لما طلبت:

- حسناً يا ماشينكا، تحولي في السوق. وأنا سأسدد إلى صاحبة دكانة من معارفي ديناً. لا تخافي، وإن تحرّش بك أحد، من يعرف، فنادي أول رجل قوزاقي تريئه.

وفي لحظة واحدة اختفت ميلاني في السوق المتعددة الألوان. واتجهت أفس إلى مصدر سهيل الحصان.

في ساحة بيع الخيل يحتشد كثير من الناس. - البائعون والشارون، وهواة الخيول. المتسولون، والقوزاق والأديغة والقرشاي والنعوي والقالق، وبين هؤلاء رجل بملابس غريبة، يمدح الخيول، ويشير بيده.

- هذا ما يقوله السيد "سميث" القادم من إنجلترا، - يترجم المترجم. - الشاري لا يجب امتداح ما يشتريه، ولكنه لا يملك إلا أن يمدح الأحصنة التي سيشتريها لأنها أعجبتته. خيول القبرتاي تعجبه جداً. وسيدفع ثمناً جيداً. يسأل عن هذا الحصان وذاك والذي بجانبهما، يريد أن يعاينها.

قريباً من سوق الخيل يباع الدجاج وديك الحبش والوز والبط. وعند العربات حشد من الخراف والعجول والفحول الصغيرة.

تراقب أفس بارتياح السوق المלאى بالفرح. لا تفارق فكرة مقلقة رأسها ولو أنها تتعجب من كل ما تراه. ما هذه الفكرة؟ الآن فحسب فهمتها. - في هذه اللحظة هي حرة لا تخضع لوصاية أحد. هؤلاء هم الأديغة: على أرجلهم، وعلى خيولهم، وفي عرباتهم. يشتررون ويبيعون. وربما هناك قرى أديغة ليست بعيدة من هنا... يا ربي، يا إلهي لا تدعني أخطئ. ساعدني... لا تدع الحمية تأخذني... سأجول في السوق على مهلي. سأستمع برؤية أبناء قومي الأديغة والاستماع إلى أحاديثهم...

بعدما نصحت أفس نفسها هدأت دقات قلبها. ذهبت إلى حيث تقف

العربات. وحين رأت عجوزاً على إحداها قررت أن تسألها وترجوها أن تعيدها معها إلى القرية. ولحظة لحقتُ بها توقفت. وتوجست. وحُيِّل إليها أنها إن قابلت امرأة أصغر من تلك سنّاً فقد تفهمها أفضل من العجوز، وتتفق معها. ووجدت امرأة شابة جميلة. — مرحة، متصنعة، أنيقة. لا، قالت أفس، هذه مرحة أكثر مما ينبغي. لن تفهمك إن شكوت لها أوجاع الغرباء. سأحدث إلى العجوز ربما تفهمني كأمّ.

العجوز جالسة على العربة تلبس الأسود وأمامها خروفان أبيضان. ربما تريد أن تبيعهما.

حيّت أفس العجوز بالأدعية، فنظرت إليها العجوز مستغربة ما تسمع واللباس الروسي الذي ترتديه أفس، وغير واثقة. ثم سألتها:

— أنت أدعية؟

— نعم.

— لماذا ترتدين إذن هذه الملابس؟

— إن كنت ستسمعيني وستصدقيني يا نان رويت لك السبب.

صمتت العجوز مدة ثم قالت:

— تعالي اقتربي مني يا بُنتي، أسمعكِ.

دنت أفس من العربة. وفيما هي تنحني على ظهر أحد الخروفين وتمسح عليه انفجرت باكياً. وضعت العجوز يدها النحيلة على كتف أفس وانتظرتها ريثما سكنت من نفسها. ثم روت أفس للعجوز كل ما جرى لها ولوالديها، وما يعتمل في صدرها. واختتمت:

— لا أريد هذه العيشة، خذيني معك إليكم، إلى قريتك. سأكون ابنة مخلص ومساعدة لك.

والعجوز تبكي بصمت. وتحز رأسها. وتحري على الحدود المغصنة الدموع. وبعد

قليل تكلمت بصوت حزين:

- أنا كان لدي أربعة أبناء. قضوا جميعهم في الحرب. والآن أقيم مع كنتي. والولدان الأصغر لم يعيشا ما يكفي من العمر ليتزوجا. وعندي ستة أحفاد. آخذك إلى بيتنا يا بنتي. كنت ستجدين ما تأكلين وتلبسين عندنا، وكان صغارنا سيفرحون... ولكن القيصر الروسي، على روايتك، يعرفك شخصياً، وأخوه من معارفك. وهذان سيبحثان عنك، وسيجدانك أينما كنت. ومتى وجدوك اهتمونا بأننا اختطفناك. وسيُفنون أسرتي. ومرة أخرى يجلبون لنا مأساة. ولسنا وحدنا، أي شخص يساعدك سيلقى المصير نفسه. لماذا لا تريدان يا بنتي العيش معهم؟ هؤلاء يعيش معهم الآن كثيرون من الأدبغة. ويخدمونهم، ويعيشون في المدن الكبيرة.

- أعرف... ولكن لا أريد.

عانقت العجوز أفسس.

- اغفري لي يا بنتي. اهدئي! سيكون كل شيء على ما يُرام. سُنْخفيك ولن نسلّمك إلى أحد.

- ماريا، يا ماريا، أين أنت يا حمامتنا الصغيرة؟! - ينادي نيجيبور في السوق. أرعب النداء العجوزَ وأفسس.

- ها هي ماشينكا يا نيجيبور، تنادي ميلاني التي وجدت الصبية زوجها.

- الله رحيم. لا يجري شيء دون علمه. لينظر إليك بعين العطف، وليحمك!

- قالت العجوز - إمضي يا بنتي، إمضي!

حين أصطُحبت أفسس إلى جينيزنوفودوسك لم تستطع الاستمرار في معهد أمة الله نينا نصف سنة. وكانت قبلُ تذهب إليه مرة في الأسبوع، وتُضي نصف شهر في البيت. ورغم أن حياة الصبية محاطة بالفرح الذي لا ينتهي فإن حزنها الصامت وتفكيرها المتصلّب يطغيان على كل شيء. كان القصر الكبير إليها

كالمغلق عليها، ولا شعاع شمس يخترق نوافذه، وأفكارها تجري متتابعة متلاحقة إلى بلادها التي جيء بها منها، ولم يكن العالم كله قادراً على الوقوف في وجهها. وكلما مرت السنون ونما جسدها تغيرت أفكارها. تتجاوز أفكار اليوم وإن لم تنس أفكار البارحة، وتجلب الأيام آلاماً أخرى وأوجاعاً جديدة.

تفهم أفسس أنها لا تقابل معروف من تقيم عندهم بمعروف، ولا تقابل بالمثل من يتسمون في وجهها، ويمسحون على رأسها. وتعرف أنها تسبب المشقة لكل هؤلاء. ولكنها لا تستطيع أن تتجاوز موضوع أسرها، تحتفظ به في قلبها. وتجد حزنها القومي في أسعد المناسبات. وتُحْمَلُ الجميع، من هو مذنبٌ ومن لا ذنب له، مسؤولية حياة العزلة التي تعيشها. ولو عرفت أنها ستجد نفسها يوماً في الغابة التي جمعت فيها ثمار الإحصاص ولو لم يبق لها أهل، ولو عادت إلى ما بين قومها، لما فضّلت شيئاً في العالم عليه. أنهار بلادها، وأناسها، وهواؤها، وشمسها، وأشجارها، وطيورها، وعُشْبُها، وجبالها، لا مثيل لها... ضحكة الأديغة؟.. وطعامهم؟.. ونداء المؤذنين؟.. وطريقة صلاتهم؟ ارتجفت أوصال أفسس كما يحدث لها حين تراودها أفكار سيئة. وحين رأت صورة إله الروس في الزاوية رسمت الصليب بسرعة كما اعتادت أن تفعل منذ اعتنقت المسيحية. ثم عادت ووضعت راحتها تحت ذقنها دون أن تدري لماذا تفعل هذا، ورجعت إلى أفكارها.

اللغة الكرجية واحدة مما يسبب لأفسس الضيق ويؤذي قلبها. وكلما سمعتها رفعت رأسها كأنها سمعت كلاماً بالأديغية لأن أصوات اللغتين الثقيلة متشابهة. ومتى خاب ظنها زفرت عميقاً وتألّم قلبها. وأنا ألكسندروفنا اكتشفت في أفسس هذا فطلبت من الخدم ومن يدخل البيت ويخرج أن يخففوا قدر الإمكان من الكلام باللغة الكرجية. ولما سمعت أنا ألكسندروفنا أفسس في جيليزنوفودسك تُكَلِّمُ نفسها بلغتها الأديغية تذكرت أنها قالت لها "كان الأجدر بك أن

تتعلمي الكرجية، كان أنفع لك" فندمت على توبيخها ولامت نفسها.

- يا ماشا، يا بُنتي، - تنادي أنا ألكسندروفنا من وراء الباب. - جاءتك اليوم أيضاً رسالتان.

حاولت أفسس أن تنهض من الفراش ولكن أطرافها المتهالكة من المرض خذلتها.

- لا تقومي يا بُنتي - ركضت أنا ألكسندروفنا إلى أفسس - هيا اتريني أرفع الوسادة وراء ظهرك... أريحه على مسند السرير... لا تيأسي يا بُنتي... قواك خائرة لأنك لا تأكلين. كيف تمتلكين القوة وأنت لا تأكلين طوال النهار ما يأكله عصفور! لا تفقدي الأمل، ستُشفين. برد الشتاء حبسك في المنزل. والآن جاء الربيع، ما إن يتحسن الجو حتى نذهب إلى القرية. الهواء نظيف هناك والماء عذب. ما أحسن كل شيء هناك! وسترين هناك أترابك اللواتي يهدينك دائماً تحياتهن.

- من أرسل الرسالتين؟ - سألت أفسس عن الرسالتين اللتين نسيتهما أنا ألكسندروفنا.

- إحداها من الجنرال نيقولايف بافلوف، والأخرى من تريشكوف نيقولايف.

- اقرئي لي رسالة الجنرال! - تنهدت أفسس بمشقة.

رفعت أنا ألكسندروفنا رأسها فجأة مما سمعت، ونظرت واجمة إلى أفسس. وحين فتحت الرسالة ارتجفت أصابعها، ولكنها كتمت انفعالها، وقالت بصوت حاد:

- "بكل سرور! من بلادك الحبيبة يا ماريا نيقولايفنا، وباسم جيشك، جيش نيجيغودورسك، نرسل إليك تحياتنا. نحن - كل الناجين من الحرب - بخير وبصحة جيدة. وأنت في قلوبنا دائماً. الضباط والجنود لا ينسونك. وكما قلت لك فبعد انتهاء الحرب في القفقاس بسنتين كان من المقرر أن نعود بجيشنا إلى تفليس. وكان من مهماتنا توطيد السلام في هذه المنطقة فحققنا هذا مع تقدير

أعمالنا. والآن يعم الهدوء كل مكان، ولا أحد يشغلنا، وكل فقاسيا الكبرى من البحر الأسود إلى "أرابشاي" في قبضة روسيا. نُجهّز أنفسنا لنعود إلى تفليس مع الشهر الأول من الصيف. ربما تعرفين سبب انقطاعي عن الكتابة، كنت كتبتك إليك. - صحبتُ قيصرنا في زيارته إلى النمسا. وحين أعود إلى تفليس سأكتب إليك لأني رأيت عجائب كثيرة حيث كنتُ. سمعتُ أنك متوعدة فاحرصي على صحتك. ادرسي جيداً، وكوني مهذبة، وتابعي تعليمك وتربيتك. الربيع جميل في نواحيننا. والأشجار تبرعم معاً. والأوراق الخضراء الوليدة تعبت بها الريح. والطيور تملأ الفضاء غناءً. والأيام لطيفة. الصوت الروسي يُسمع في كل مكان. لا تُصدّق أن حرباً طاحنة جرت على هذه الأرض قبل سنتين. وباختصار أضيفت إلى روسيا حديثاً قطعة من الجنة. بلّغي تحياتي إلى السيدة أميلاخفاري الأميرة. كل أفراد جيش نيجيغودورسك دون استثناء يهدونك تحياتهم. أختتم رسالتي مشتاقاً إلى أول فرصة أقابلك فيها ما إن أعود إلى تفليس. حياك الله، وأسعدك.

التوقيع: والدك في العماد نيقولاي بافلوفيتش غرايه. العاشر من نيسان عام 1866. منعة شَبَح "

استمعت أفسس بكل جوارحها إلى ما أُرسل إليها حتى قبض الحزن قلبها. حين سمعت من الرسالة "الربيع جميل في نواحيننا" انهمرت دموعها. ولم تر أنا ألكسندروفنا دموع أفسس إلا بعدما انتهت من قراءة الرسالة.

- يا ماشا، يا بُنتي الجميلة هل تبكين؟.. - رمت السيدة الورقة على الطاولة. وجلست إلى حافة سرير أفسس وضمتها إلى صدرها. - لو عرفتُ أنها ستُبكيك لما قرأتها لك... وأنا رغم أنني هنا، ورغم أنني لا أعرف أكثرهم، أشتاق إلى هؤلاء المساكين، هم في قلبي... لا تبكي يا بُنتي، لا تبكي... فكري في طريقة شفائك. احرصى على سلامة قلبك! - توقفتُ عن البكاء يا أنا

ألكسندروفنا... ساعيني يا ماما أنا!.. - استغربت أفسس نفسها آخر كلمتين
نطقتهما دون أن تعرف كيف. ولم تتوقف عندهما: - اغفري لي عدم مناداتي
لك "ماما"... من هذا اليوم سأناديك ماما...

- نعم يا بُنتي... لم ترتكبي خطأ فتعتذري... - غطت أنا ألكسندروفنا عينيها
راغبة في أن لا تكتشف أفسس دموعها. وعاد إليها صحوها بسرعة: - كنت
متشوقة إلى هذا النداء. ولكن لم أشأ إكراهك عليه. ليس لحرمانني من الأولاد بل
لأنني أحببتك منذ اليوم الأول يا بُنتي... ومع ذلك نفست عن قلبي ولو لم
تناديني إلا هذه المرة. شكراً...

- سأناديك يا ماما أنا، سأناديك. ليس لي في الدنيا أحبُّ إليّ منك ومن
خالة لينا... لي عندك رجاء واحد وهو ألا تُحزني خالة لينا كما فعلت في
جيليزنوفودسك.

- لا، لن أفعل. يا بُنتي، لن أفعل، اطمئني!

- لا ذنب لخالة لينا... فقط لأنها تحبني...

- لن نتكلم في ما فات يا بُنتي. ولكني أعدك ألا أكرر هذا مع أنجيلينا
بارامنوفنا. لا تنسي أن تريشكوف نيقولا ي كتب إليك أيضاً.

تظاهرت أفسس أنها لم تسمع ما قيل لها بشأن تريشكوف. ولكن ما إن صارت
أنا ألكسندروفنا خارج الباب حتى مدّت يدها إلى الرسالة. وأمسكت بها بعض
الوقت تتفحصها وتقلبها دون أن تفتحها. ثم أحسّت بشيء في قلبها فشمت
الرسالة. ورفعتها إلى شمس النافذة تحاول اكتشاف ما فيها. ثم فتحتها بسرعة،
فسقط من الورقة المطوية زهرة يابسة. التقطت ما وقع في حجرها بحذر،
وأمعنت النظر فيها ويدها ترتجفان. وقلبتها وقبلتها. وقرّبتها من الحذ الذي
توهج فجأة. واحتفظت بها فوق خدها كأنها تستمد منها القوة. تقفز أفسس
بأفكارها نحو بلادها، وتعيد النظر حسب ما في قلبها وما انتصب أمام عينيها.

وما تتذكره كثير، وما نسيته غير قليل. القمم البيضاء، والغابات الملتفة حول الجبال، ومراعي المواشي، والسواقي المتعثرة المتتابعة لا يلحق بعضها ببعض. وبين هذه المناظر تنهض فجأة شجرة الإجاص التي كانت تلمّ الثمار من تحتها... ما كان أطيب تلك الإجاصات!.. ثم الضابط الروسي الفارس على طريق الجبل... عصر شيء ما قلب أفس... والكلمات الأدبية الأولى التي سمعتها من العجوز فيدور أناكسيفيتش... مشاويرها معه إلى النهر جلب الماء، وارتياحها في تلك المشاوير. لو عرفت أنها ستشتم مرة أخرى رائحة اللحم المقطع المقلّى! لو ذقت شيئاً مما كانت أمها تُعدّ من أطعمة لربما منحتها القوة والأمل! ما كان أطيب الإجاصات التي كانتا تجمعانها! كيف فاجأها مطر الصيف الناعم مع كلبها مشدّ، لا يهطل مثل هذا المطر في هذه البلاد. هيه يا مشدّ، يا مشدّ أين أنت الآن؟! لا يزال نباحك وهريك ولهفتك في أذني، وفي عيني. أأنت أسير مثلي عند بعضهم، أم رجعت حراً إلى من كنت تعيش معهم؟ كيف تبقى مع جماعتك إذا كانوا طُردوا من أرضهم؟ أنا لن تقع عيناى أبداً على أبناء قومي... اغفر لي يا إلهي أيّ مديرة لك ظهري. من عادتك أن تغفر لمن يضل ثم يعود فافهمني! لم يبق لي على التحاقني بأمي وأبي إلا القليل فلا تتأخر في استدعائي... لا أريد أن أجنبي على أحد. الجميع يعاملوني معاملة حسنة. لم يدعوني أحس، لا يوماً بل ساعة، بأني وحيدة. ولكن مهما عززوني وكرّموني فهم جميعهم أغرابٌ إليّ... ما اهتمامهم بما يغتلي في قلبي؟ هل يعرفون ما أعاني؟..

حين أبعدت أفس عن وجنتها الملتهبة الزهرة الرقيقة التي زادها الحزن جفافاً فتشّت الفراش الذي تجلس فيه لا تعرف أين تضعها. ثم وضعها بحرص شديد على المخدة الصغيرة إلى جانبها. وبعدما جلست قليلاً مغمضة العينين مدّت يدها تريد أن تقرأ ما كتب نيقولاى تريشكوف.

" أرسل إليك تحياتي الودودة يا ماريا، - يكتب تريشكوف. - رسالتك الأخيرة التي وصلتني اليوم التاسع من نيسان عام 1866 كان ما فيها قليلاً ولكني قرأتها مستمتعاً منها الكثير. وها أنا أكتب لك الجواب ولم تمض ساعة على وصولها. أودّ أن أخبرك قبل كل شيء أن السلام يسود نواحيننا، ولا تُسمع حتى طلقة شاردة. وأخبرك ثانياً أن الربيع الذي يزرع الحب بين الشباب من أمثالنا دون أن يستشير أحداً ربيع جميل في نواحيننا. لا تؤاخذيني إذا كان الربيع الأبيض الذي أشبهه بك يحملني على أن أبوح بما في قلبي لك منذ زمن بعيد. كنت لميحث لك في رسائلي السابقة بمثل هذه الاعترافات... ولكن لا ألوّمك على عدم إجابتي على ما كاشفْتُك به. أشكرك على أنك لا تنسيني بقلمك فتخطّين إليّ. لا أُلح عليك أن تجيبيني حالاً على ما كتبت إليك. فكّرني، عندك ما يكفي من الوقت لأننا نجهّز أنفسنا للعودة إلى تفليس في غضون شهرين. أملي فيك، حيث تعيشين، وحياتي تتوقف على هذا... والآن رفاقي كلهم، مَنْ يعرفونك ومن لا يعرفونك يهدونك السلام. وينتظرون اليوم الذي سيرونك فيه. إن كان في جهتنا شيء تريدينه، مهما كان، فاطلبي، سأنقذ لك. السلام الحار لك ممن منحوه أمس رتبة النقيب. نيقولا تريشكوف".

أعادت أفس ثانياً قراءة كلمات الحب. وابتسمت. وانتصب أمام عينيها تريشكوف الجريح الذي قضى عدة أيام في مشفى "شَبَج". جلست بعض الوقت تنظر من النافذة ودفء ما بثّ الضيق في الجسد فسقطت منها يداها الممسكتان بالورقة في حجرها. ثم التقطت الورقة فجأة، وأعادت قراءة كلماتها "إن كان في جهتنا شيء تريدينه، مهما كان، فاطلبي، سأنقذ لك" ثم انفجرت باكياً، ووجهها الشاحب يزداد شحوباً، وقالت بالأديغية:

- لا أطلب أكثر من إجابة برية مُرّة، أو قطرة ماء، أو شهقة هواء...

كان عام 1866 يتبدد قطرة قطرة.

وكان عمر أفس يدوب.

نحفت الصبية جداً. وعيناها الواسعتان تبدوان من الهاليتين السوداوين حولهما مدورّتين خاليتين من الفرح.

فهمت السيدة أميلاخفاري أن أفس ميئوس من شفائها. ولم تترك في تفليس، ولا في جوارها طبيباً لم تقابله وتستشره. ومهما أعطوها من أدوية لم تفد أفس إن لم تضرّها. والفتاة التي تذوي يوماً بعد يوم ولا أحد يعرف علتها، وتكرها عينك إن نظرنا إليها، تذوب أنا ألكسندروفنا معها. لم تكن تريد شيئاً إلا أن يصل جيش نيجيغودورسك إلى تفليس. — يُحْيِل إلى أفس أن هذا هو دواؤها الوحيد. لا تفارق صورة الإله. تتوسل إلى الإله بقلبها وروحها أن لا ينتزع منها أفس، أن يشفيها.

تذكرت أنا ألكسندروفنا ما قاله لها الطبيب الأستاذ الآتي من بطرسبورغ حين عاين أفس في جيليزنوفودسك: ليس مرضها في جسمها، بل في روحها، لن يشفيها أي دواء. دواؤها هو وطنها. عتبت وقتها على الطبيب الماهر، والآن فهمت صحة تشخيصه.

لا، لا. كان القلب من يتعذب حتى لو لم يشعر عقلها بالمرض. لم يكن العقل ما يُذَوِّبها بل القلب المليء بالهواجس. "ماشينكا" — هكذا كانت تناديها أنا ألكسندروفنا هذه الأيام — لم تفكر حين تَبَنَّتْها بفائدة لها أو لغيرها من أتباع الديانات الأخرى، ولا فكرت في ضرورة أن يحب أي إنسان قريبه كما أمره الله، تقبلتها كما تقبل المرأة من غسلته بالدم الساري في قلبها، قبلتها بأحاسيسها كأنها ولدت لنفسها ابنة من لحمها ودمها. وهكذا صارت كأنها متصلة بها من الطرفين بجسدها وبفهمهما للدنيا. صارت متعلقة بماشا، ليس بما تتمتع به من

إنسانية فحسب بل صارت أمّاً لها بالدم.

كانت أنا ألكسندروفنا تدعو إلى الله أن يمنح ابنتها العمر الطويل، والحياة الحلوة، ثم كانت تحس بحواسها تعاسة الفتاة، ومرضها، وبأنها تتحمل نصيباً مما تعاني من مشاق. هل كان ممكناً أن تعود بأفيس إلى حيث وُلدت، إلى البيت الذي نشأت فيه، في حين فقدت الغرفتين اللتين اعتادت عليهما، وغرفة ربّ الأسرة الكبير، عميد الأسرة، المغلقة حسب التقاليد، وتركها بين الناس الذين لا يعرفونها؟ وبغضّ النظر عن هذا، حتى لو رجعت أفيس إلى وضعها الأول، فما من قوةٍ تعيد الحياة إلى أمها المتوفاة قبل زمن بعيد. الله قدّر لها أن تصبح أنا ألكسندروفنا أمّاً لها؛ فلماذا يتوفى الله ابنتها؟! لا، لا يجوز أن أؤدي شيئاً من عدم الرضا. الله رحيم، سيسفيها مما يعجز عن شفائه الأطباء.

ولهذا تبتهل أنا ألكسندروفنا إلى الله ليلٍ نهار. ولا ينطفئ أملها كما لا ينطفئ القنديل الذي أمام صورة الإله. ولكن لا ينطفئ لهذا خوفها وارتياها. ومع ذلك هل سيكون من الأفضل يا ترى أن تُخرج قبل فوات الأوان أفيس من هذا البيت، ومن عيشتها التي لم تألفها، فتجعلها خارج هذا كله؟!!

تُقَدِّم للصبية روحها وقلبها، تقدّم لها كل ما تستطيع. ولكن ألا يمكن أن يكون هذا سبب اختيار الصبية؟ هذه البراءة غير العقلانية التي تُزيح الأمور الصغيرة المتفرقة من أجل قضايا أهمّ كما تصرّف فيدور قد تكون حياتها هي أيضاً.

فيدور، الجندي العادي، فهم احتياجها للناس القريبين منها روحاً وقلباً، وإلى أرضها. وحين لم يجد بديلاً نقض عهده أمام الله بعدم الهروب، فخالف أخلاقه وهرب بالصبية، فدفع حياته لأجلها.

فكرت أنا ألكسندروفنا كثيراً بما فعل العجوز فيدور. وحُيِّل إليها أنها الوحيدة التي فهمت تصرّفه فبرأته، ولكنها لم تكن تجد من اللائق أن تفعل مثله. لماذا؟ أهى امرأة لا حول لها؟! لا، لو عرفت أنها يمكن أن تُسعف أفيس لضحت

بحياتها، ولكنها غيرُ قادرة على تركها. أقرب مع الصبية إلى بلاد غريبة وتعيش فيها؟ وكما لم تستطع "ماروشكاها"، "أفسُها" أن تفعل هذا فلن تستطيع!

مضى من شهر أيار الثقيل البارحة وما قبلها. ودخلنا اليوم في أول شهر من الصيف. ومن لا يفارقها مرضُها البتة أفس، وجيش نيجيغودورسك لا يصل. أنا ألكسندروفنا لا تعرف الراحة. تسأل في السوق عن الأدوية ناسبة زوجها، وتشترى ما يُعرض عليها، ولا يمرّ بها متسول إلا تصدّقت عليه. ولكن مهما جلبت لأفس أحلى الأعشاب وأمرها، ومهما استدّرت لها الأدوية بأطيب الكلمات، بقيت أفس بلا دواء. ومهما وجدت أنّ ألكسندروفنا نفسها في موقف شاقّ لم تقف يائسة أمام الصبية. تُريها نفسها كما استقبلتها أول يوم بالبشاشة والترحيب. لم تُغيّر كلامها ولا نظرتها، حتى تزيّنتها على جسدها.

- يا ماشا، هل أنتِ نائمة يا بُنتي؟ - لمستُ أنّا بلطف كتف الصبية المديرة وجهها نحو الجدار. ثم انحنى وقبّلت وجنتها. - ظننتك نائمة... صباح الخير يا بُنتي!

- صباح الخير يا ماما أنّا، - قالت أفس دون أن تستدير.

- استديري إلى هنا يا بُنتي، يكفي ما نمت على ذاك الجنب.

- أفصّل أن أنام هكذا.

- انظري إذن إلى ما جلبت لك من السوق!

- ماذا جلبت لي؟ - لم ترفع أفس رأسها.

- كرّر ناضج.

- هل حان موسم الكرّز؟ تنهدت أفس.

- نعم، يا بُنتي، نعم.

- هل بينها حبات مزدوجة؟

- نعم، ها هي أديري وجهك فحسب!

- عَلَّقِيهِمَا بِأُذُنِي إِذْن!

حين عَلَّقْتُ الحَبْتَيْنِ بِأُذُنِ أَفْبَسِ عَصْرَ اللَّيْلِ قَلْبَ أَنَا أَلْكَسَنْدَرْفُنَا فَأَجْهَشْتُ
بِالْبُكَاءِ. وَلَكِنْهَا عَادَتْ إِلَى وَقْعِهَا بِسُرْعَةٍ. وَبَدَأَتْ تَمْسَحُ عَلَى وَجْهِ أَفْبَسِ
بِيَدِهَا، وَتَلَاظِفُهَا بِالْكَلَامِ. مَدَّتْ أَفْبَسُ يَدَيْهَا النَّحِيلَتَيْنِ وَأَمْسَكَتْ بِيَدِ أَنَا
أَلْكَسَنْدَرْفُنَا، وَقَالَتْ:

- كَانَ فِي دَارِنَا شَجَرَةٌ كَبِيرَةٌ تَحْمِلُ مِثْلَ هَذِهِ الثَّمَارِ... مَا كَانَ أَلَذَّهَا!

- وَهَذِهِ الْآخَرَى لَذِيذَةٌ. جَرِّبِي يَا بُنْتِي!

اسْتَدَارَتْ أَفْبَسُ بَعْدَمَا مَنَحَتْهَا ذِكْرِيَّاتُهَا الْقَلِيلَةَ بَعْضَ الْقُوَّةِ. وَجَلَسَتْ بِمُسَاعَدَةِ
أَنَا أَلْكَسَنْدَرْفُنَا فِي الْفَرَّاشِ مُسْنَدَةً ظَهْرَهَا إِلَى جَانِبِ السَّرِيرِ. وَقَالَتْ بَعْدَمَا رَأَتْ
صَحْنَ الْكَرْزِ عَلَى الطَّوَالَةِ:

- مَا أَكْثَرُهَا، وَمَا أَشَدَّ حَمَرَتَهَا!.. - أَكَلْتُ حَبَّةً. - لَذِيذَةٌ، وَلَكِنْ كَرَزٌ بِلَادِنَا
أَطِيب!

- هَكَذَا تَظَنِّينَ يَا بُنْتِي؟.. - لَمْ تُظْهِرْ أَنَا أَلْكَسَنْدَرْفُنَا حَزْنَهَا، وَابْتَسَمَتْ لَهَا
مُكْرَهَةٌ تَسَايَرُهَا. - رُبَّمَا تَنَاسَبَ الشَّمْسُ الْكَرْزُ فِي نَوَاحِيكُمْ.

- لَيْتَنِي أَرَيْتُكَ تِلْكَ الْكَرَزَاتِ يَا مَامَا أَنَا! - لَمَعَتْ عَيْنَا أَفْبَسِ اللَّتَانِ تَنْطَفِفَتَانِ،
وَتَسَرَّيَتْ قُطْرَةٌ دَمٍ إِلَى وَجْهِهَا، - مَا كَانَ أَكْبَرَهَا، وَمَا أَشَدَّ سَوَادَهَا، وَمَا
أَسْمَنَهَا!

- أَلَيْسَتْ كَتَلُكَ الَّتِي اشْتَرَيْنَاهَا مِنْ جِيلِيزَنُوفُودْسْكَ؟ - سَأَلَتْ أَنَا أَلْكَسَنْدَرْفُنَا
بِحَرَصٍ شَدِيدٍ مَعَ عِلْمِهَا مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ بِاشْتِيَاقِهَا إِلَى مَوْطِنِهَا.

- كَانَتْ ثَمَارُ شَجَرَةِ دَارِنَا فِي نَجَقُوهِ حَابِلِهِ أَفْضَلَ مِنْهَا... - زَفَرَتْ أَفْبَسُ
عَمِيقًا، وَأَضَافَتْ نَاطِقَةً أَسْمَاءَ الْقُرَى بِالْأُدْيَغِيَّةِ: - وَلَكِنْ نَجَقُوهِ حَابِلِهِ، وَبِجِ
حَابِلِهِ، وَزَاوَرِ حَابِلِهِ مُسِحَتْ مِنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ... أَحْرَقَهَا الْقَوَازِقُ.

- نَعَمْ يَا بُنْتِي، نَعَمْ. الْحَرْبُ تَجْلِبُ مَآسِيَ كَثِيرَةً... لَا تَتَفَكَّرِي فِي هَذِهِ الْأُمُورِ،

دعينا نفكر في طريقة تخلصك من المرض!

- هل تعرفين يا ماما أنا ماذا نسمي الكرز بالأديغية؟ - سألت أفس وكأنها لم تسمع نصيحتها، وأجابت بسرعة. - إذا كان الروس يسمونه "فيشنايا" فنحن نسميه "كرز"، ماذا تسمونه بلغتك وباللغة الكرجية؟ - وبلغتنا له اسم: "ألوينا".

- هكذا كلُّ يسمي الكرز اسماً بلغته. - قالت أفس كأنها تكلم نفسها. وسألت كمن تخاف أن تنسى ما خطر لها: - وهل ينبت الإجاص في غاباتكم يا ماما أنا؟

- أيّ إجاص تقصدين؟ أهو الإجاص الصغير المرّ؟

- نعم، نعم. - جمعناها نانا وأنا مرةً من الغابة، وكان تات معنا.

- لم يحنّ موسمهُ بعدُ يا بُنتي. ينضج مع بداية الخريف. سأتيك به ما إن يظهر في السوق. ولماذا من السوق؟ نطلب من الأمير أميلاخفاري أن يصطحبنا إلى الغابة في قرية تشالي، ونقطفه من هناك.

- لا أتوقع أن يكون إجاصكم لذيذاً كالذي في غاباتنا... لم تستطع أفس إلا أن تقول. ثم ترحّت أنا ألكسندروفنا: - أنا متعبة يا ماما أنا، دعيني أستلقي.

- سأساعدك يا بُنتي، سأساعدك... ولكن أرجوك ألا تديري وجهك إلى الجدار. انظري نحو النافذة. النهار الجميل يطوف في غرفتك، يتفقدوها. ثم لا تنسي يا بُنتي أن جيشَ نيجيغودورسك، جيشك، سيصل اليوم أو غداً إلى تفليس... الأمير أميلاخفاري، والجنرال غرابيه، والدكتور بلوتالوف، وتريشكوف نيقولاييف، معهم. أسمعُ أصوات الهارمونيكا؟ الأمير الكبير، أخو القيصر، يستعد لاستقبال الجيش الذي عاد بالانتصار العظيم.

- ولكن، - تنهدت أفس - لم يعد المسكين فيدور معهم...

- مَنْ؟ من قلتِ؟ - لم تفهم أنا ألكسندروفنا في البداية ما قالت أفس.

- قلت: فيدور المسكين... لو عرفتِ يا ماما أَنَا ما أَشدَّ حاجتي إليه!
- من هذه الناحية، اغفري لي، يا بُنتي، لا حَوْلَ لي... - انكسر صوتُ أَنَا ألكسندروفنا رغماً عنها، ولكنها سرعان ما عادت. - إن كنت ترغبين في لقاء أنجيلينا بارامونوفنا فسأكتب إليها، استدعيها.
- لا يا ماما أَنَا، يكفي... لا تشغلي بالها. - قالت أفسس رغبة ألا تسبب الحزن للمرأة التي تتق بها. ثم أضافت بالأديغة، وبصوت ضعيف جداً: - ريثما تأتي هذه من تلك المسافة...
- ماذا قلتِ يا بُنتي؟ لم أسمعكِ.
- أقول يا ماما أَنَا لا تشغلي بال خالة لينا. أنا تعبٌ وأريد أن أنام.
- نامي يا بُنتي، نامي، دعيني أصِلح وضع الوسادة. ستتنفسين على نحو أفضل إن نمتِ على ظهركِ. - مرّت أَنَا ألكسندروفنا على خدي أفسس براحتيها، وقلبت جبهتها.
- نادت أفسس أَنَا ألكسندروفنا الخارجة من الغرفة على رؤوس أصابعها:
- ماما أَنَا، أخرجي الكرّز من الغرفة.
- ألا تأكلين منه حين تُفقيين يا بُنتي!
- لا أريده، رائحته لا تواتيني.
- حسناً يا بُنتي، ناديني إن احتجتِ شيئاً!
- حين بقيت أفسس وحيدة في الغرفة كانت فيها بجسدها فحسبٌ. كان قلبها عاد إلى وطن الأديغة، وروحها وأفكارها. وهي تحوم فوقه بقدر ما تستطيع بذكرياتها، كمن تحلم، آتيةً على كل مكان منه. وما يصل إليها منه يحرقها وإن كان ينشر فيها شيئاً من الرقة. لماذا صامتةٌ جباله وسمائه وشمسه وأنهاره وطبوره؟.. ألأن أصوات الأديغة انقطعت فيه؟ أين هم الأديغة؟ وماذا جرى لهم؟.. كيف يكون الوطن الذي لم يعد صوتُ أبنائه يُسمع فيه وطنٌ سلام؟!!

البلاد لم تعد تصدح فيها أغاني أصحابها. وغابت عنها أعراسها. وكيف تفهم الجبال والغابات والبراري المنعشة ومفتقات الطرق، وأشجار الفواكه، أغاني المستوطنين فيها وأعراسهم وأفراحهم وهي لا تفهم لغتهم؟

أيّ رائحة حريق تشمّ أفسس في منامها؟ الرائحة التي تحملها الريح رائحة حريق البحر بموج، وما يحمله هو جثث المهاجرين إلى تركيا. وما تُرَدِّده الحصى هو مراثيهم التي لم تكتمل. أيّ فرخ طائر هذا الذي ينوح غير قادر على أن يحطّ على أغصان أشجارها؟ من ينادي هذا الفرخ؟.. لا أعرف، كأنه ينادي: أفسس، سُورث، جامبج، فيدور! إذا كان يعرف اسمي واسم أبي وأمي فمن علّمه اسم فيدور؟ أيكون يبحث عني، عن أفسس دُعْجي؟ يناديني؟ بقيتُ مثلك وحيدة... تركتُ جسدي حيث أخذوني وحملتُ روحي إلى هنا... أنت من أي أسرة؟ عرفني نفسك...

الصوت الصادر من القلب، دون أن تعرف إلى الآن إن كان جهرًا أم سرًا، أخرج أفسس من الحلم الذي لا تعرف أصله. ومع أنها لم تر فرحاً حيث كانت فقد أصغت مسبلةً الجفنين، مستمتعة قدر الإمكان بالحلم، محاولة إطالته قدر المستطاع. أصوات الهارمونيكا المتناثرة لا تزال تصل إليها. تذكرت ما قالته أنا ألكسندروفنا عن هذه الهارمونيكا قبل قرابة الساعة...

- أيّ انتصار جاء به هؤلاء؟.. - تألم قلب أفسس. وهمست: - نان... تات... فيدور... يا الله خذني إلى حيث هم!.. يا ربي، باسم القديسة ماريا... - الأصابع الثلاث التي رفعتها أفسس دُعْجي لترسم الصليب هوت رغماً عنها...

- يا بُنتي، أسمعين أصوات الهارمونيكا كيف ترتفع، - هُرعَت أنا ألكسندروفنا إلى الغرفة بعد قليل من مفارقة أفسس الحياة. - أحمل لك خبراً ساراً. جيشك يعود إلى تفليس... - حين رأت السيدة أفسس التي أسبلت

جفنيها، ومدت رجليها، وهوت يدها اليمنى إلى جانب السرير صرخت: - يا ماشا، يا بُنتي!.. - وهوت على ركبتيها عند قائمة السرير...
كان وجه أفس حبيباً إلى القلب، منيراً، هادئاً...

في مقبرة تفليس القديمة الملاءى بالزهور المتنوعة، وبأشجار الزُعرور، وبأشجار التَّنُوب الأزلية، يدفن الجيش الرابع والأربعون مع شارات الاحترام، وحسب تعاليم الكنيسة المسيحية، دُعجي - نيجيغورودسك ماريا ابنة نيقولاي، التي كان اسمها في طفولتها دُعجي أفس. وحاكم القفقاس ميخائيل رومانوف ابن نيقولاي يتولى مراسم الدفن.

أنزل الجنود الروس جثمان الفتاة الأديغة إلى القبر. وأهالوا عليه التراب الناعم. وارتفعت أصوات البنادق والطيور البيضاء تحوم في الجو... وعلى شاهدة القبر الرمادية رُسم الصليب، وكتب تحته:

يرتاح هنا جثمان أمة الله نيجيدوغورسك ماريا ابنة نيقولاي. عاشت 1850 - 1866.

وهذا القبر من إنشاء جيش نيجيغودورسك الرابع والأربعين.
حين فارقوا المقبرة، بقي على رأس القبر أُنّا ألكسندروفنا، وفانو غيفيتش، ونيقولاي بافلوفيتش غرايه، وأنجيلينا بارامنوفنا، وسيرغي بيتروفيتش، ونيقولاي تريشكوف يمدُّ أصابعه إلى شاريه اللذين يُملِّحهما الدمع.

تفوح رائحة الزهور التي فتحتها الشمس ورائحة أشجار التَّنُوب. وأحياناً يرفّ فوق التراب الأصفر للقبر الحديث ظلُّ الطائر الأبيض. و الهواء نقّي في هذه الدقيقة فريداً من نوعه، منعش، كما هي الحال في حر الصيف في سفوح الجبال وفي الجبال البعيدة.

